

العبودية سر الخلق

شرح خطبة الزهراء

السيد عبد الحسين دستغيب

بضع عيني
فمن أين أمتنا
فقد أذاني
ظلمة

دار البصائر

العِبُودِيَّةُ سِرُّ الْخَلْقِ

نشر في خطبة الجمعة



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٥ هـ - ٢٠١٤ م

978-9953-551-69-2

دار البلاغية للطباعة والنشر والتوزيع

لبنان - هاتف: 5 / 334 544 +9611 - فاكس: 787 546 +9611 - ص.ب: 16/25 الغبيري
E-mail: dar_albalagha@hotmail.com

العُبُودِيَّةُ سِرُّ الخَلْقِ

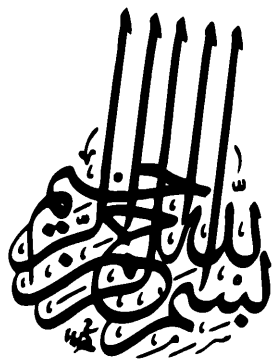
سُورَةُ خُطْبَةِ الزَّهْرَاءِ

السَّيِّدُ عَبْدُ الحُسَيْنِ دَسْتِغِيثٌ



تَعْرِيبُ
لِجَنَّةِ الرَّسُولِ

ذُرِّيَّةُ النَّبِيِّ



المقدمة

نظرة عامة على خطبة الزهراء عليها السلام

في الوقت الذي رحلت فيه الشمس المحمّدية إلى عالم اللقاء، وحُجب فيه نور الولاية العلوية عن جموع الناس، ارتفع النداء من بضعة الرسول، وربّية الوحي ففضحت الغاصبين والسارقين، ووضعت الغافلين أمام الحقيقة. لقد كانت خطبة بضعة الرسول ﷺ نقطة تحوّل في تاريخ الإسلام سيبقى أثرها حتى يوم القيامة، حيث المحتوى العظيم والمعاني السامية والعبارات الجميلة التي استقتها كلّها وبكل وضوح من مصدر الوحي، ولذلك فإن هذه الخطبة تستحق التأمل والاهتمام من عدة جهات:

بواعث للكشف عن الحقيقة

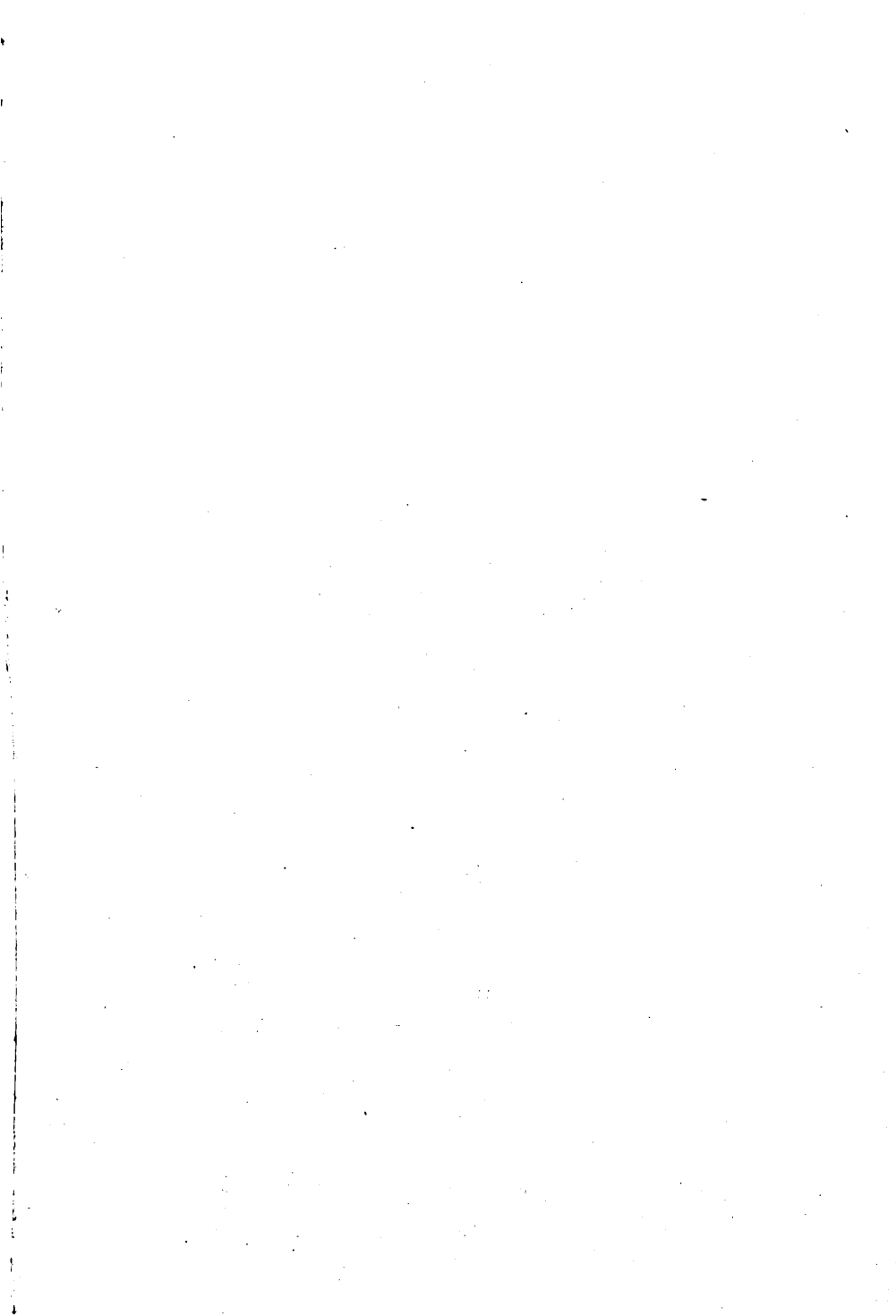
تسمح أحياناً لبعض الشخصيات فرصاً تفرض عليهم الاستفادة منها إلى أقصى حدّ ممكن في الكشف عن الحق وفضح الباطل، حيث يكشف الحق القناع عن وجوه أولئك المجانين والمفتريين وعديمي الضمائر المتخلفين.

وقد كانت قضية اغتصاب (فدك) واحدة من تلك الفرص السانحة التي أظهرت الظالمين، أولئك الذين اتخذوا من الدين وسيلة للوصول إلى الرئاسة والحكم، كما فضحت أولئك الذين حاولوا تشويه حقيقة الإسلام باسم الإسلام، ولوّثوا أحكام القرآن باسم القرآن.

لقد كانت السيدة الزهراء عليها السلام بضعة الرسول صلى الله عليه وآله بطلة هذه المواجهة،
وهي بشخصيتها منقطعة النظير استطاعت حمل هذه الرسالة التاريخية وأن
تؤديها بنجاح تام.

* * *

القسم الأول
من الخطبة المباركة



« ١ »

لا ينبغي أن تكون (فدك) ملكاً للزهراء عليها السلام

«وأقبلت في لمة من حفدتها ونساء قومها تطأ ذيلها، ما تخرم، مشيتها مشية رسول الله ﷺ حتى دخلت على أبي بكر، وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم..».

بعد أن وصل (أبو بكر) إلى الخلافة وحصلت التطورات الخطيرة التي حلت بالإسلام والمسلمين، قرر أخذ (فدك) من الزهراء عليها السلام. وكانت (فدك) في حياة الرسول ﷺ تحت تصرف الزهراء عليها السلام وكان عمالها يجوبون لها أموال استئجارها، وبعد وفاة الرسول ﷺ رأى (أبو بكر) أن من الأصلح أن لا تبقى (فدك) تحت تصرف أهل البيت عليهم السلام، خوفاً من أن يتجمع حولهم الفقراء، ولا تستقر له الخلافة، ولذلك فقد أمر بإخراج عمال الزهراء عليها السلام، ووضع (فدك) تحت تصرفه.

وأخبر العمال الزهراء عليها السلام، بطردهم، فرأت رغم مرضها أن من واجبها أن تحقق الحق.

ذهبت للمطالبة بحقها وهي بكامل حجابها

ارتدت الزهراء عليها السلام رداءها، ووضعت جلبابها بحيث غطى تمام بدنها، وجاء في الرواية أن جلبابها كان واسعاً إلى درجة أنه كان يخط الأرض عند مشيتها فلا يكشف عن قدميها.

وسارت بتلك الحال وهي تتوسط جمعاً من نساء بني هاشم وغيرهن كأم أيمن، ودخلت المسجد على (أبي بكر) الذي كان جالساً وسط عدد من الأنصار والمهاجرين..

وألقت خطبتها الغراء، وهي خطبة بلغت أعلى درجات الفصاحة والبلاغة، حيث اشتملت على المعرفة، وبيان الحقائق، وعلل الشرائع، وإحقاق الحق وإبطال الباطل، هذه الخطبة الغراء حوت أموراً دينية هامة مما جعل معرفتها ضرورية للجميع، فقد رأينا أنه من المناسب وفي هذه الأيام الخاصة بالزهراء عليها السلام أن نتعرض لها بالبحث والتفصيل والتوضيح. وفي الحقيقة فإن مراجعة هذه الخطبة المباركة تعطي انطباعاً أنّ الزهراء عليها السلام إنما استلهمت من نفس المصدر الذي أخذ منه أبوها عليه السلام وزوجها علي عليه السلام، كما أن علم تلك المخدرة مثل أبيها لم يكن علماً اكتسابياً وإنما هو من لدنّ إلهي: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65]، وقد حرص عظماء أهل البيت عليهم السلام على تعليم خطبة الزهراء لأبنائهم نظراً لأهميتها البالغة، كما قام كبار علماء الشيعة بتدريس هذه الخطبة وتناقلوها من جيل إلى جيل.

وقد نقل العلماء هذه الخطبة في كتبهم كلها أو بعضها، فعلاوة على علماء الشيعة أمثال الشيخ الصدوق في (علل الشرائع) والسيد ابن طاوس⁽¹⁾ في (الطرائف) والسيد المرتضى في (الشافعي) والطبرسي في (الاحتجاج) والإربلي في (كشف الغمة) وغيرهم ممن نقلوا قسماً من الخطبة أو جميعها، هناك أيضاً علماء السنة الذين نقلوا هذه الخطبة من طرق متعددة، مثل ابن أبي الحديد في (شرح نهج البلاغة)، ونقلها الجوهري في (كشف الغمة) من كتاب السقيفة، وأشار المسعودي المؤرخ المعروف في كتابه (مروج الذهب).

(1) المحجة البيضاء: ج 6، ص 34.

الإشكالات على أصل الموضوع

لقد أشكلوا على أصل إيراد الخطبة، وقد أجاب على تلك الإشكالات كلُّ من العلامة المجلسي والفاضل البهبهاني وغيرهم، وبسبب احتمال ورود هذه الإشكالات على الذهن فإننا نورد الإجابة:

يقولون: لماذا خرجت السيدة الزهراء عليها السلام ووقفت وسط مجموعة من الرجال الأجانب وألقت خطبتها؟ ولماذا لم ترسل علياً عليه السلام؟ ولماذا يجلس علي في البيت وتخرج الزهراء إلى الخارج؟ ولماذا خلقت الزهراء كل هذه الضجة من أجل فدك وهي الزاهدة في الحياة الدنيا والراغبة عن الثروة، وكانت نسخة عن والدها الرسول صلى الله عليه وآله وهي تلك الزهراء التي كانت تقتنع بقرص الشعير، وهي التي بقيت ثلاثة ليالٍ تعطي قرصها الشعيري إلى المسكين واليتيم والأسير.. وتكتفي بالماء إفتاراً لها؟ والآن نجيب على هذه الأسئلة بشكل مختصر:

الخطابة ليست محرّمة على المرأة

أولاً: لم يكن في توجّه السيدة الزهراء عليها السلام إلى المسجد وحديثها أية مخالفة للشرع، لأنّ مجرد صوت المرأة ليس عورة ولا هو ممنوع؛ إنما الحرام هو أن ترقق المرأة صوتها، كما ورد ذلك صريحاً في سورة الأحزاب: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ﴾ [الأحزاب: ٣٢]. ولكن إذا تحدثت المرأة بصوتٍ عادي فليس في ذلك أية حرمة.

لا فرق في المطالبة بالحق بين الرجل والمرأة

إنّ الإسلام لا يضع فروقاً في موضوع المطالبة بالحق سواء كان المدعي رجلاً أو امرأة، فكل منهما يجب عليه أن يطالب بحقه عندما يحاول الآخرون غمطه.. إلا أنّ أعداء الإسلام يطعنون به باتهامه بعدم إعطاء المرأة لحقّها، في حين أنّ العكس هو الصحيح.. ففي أكثر من مكان يوضح القرآن هذا الأمر،

ويقرن الرجل بالمرأة والمرأة بالرجل، على سبيل المثال «من ذكر وأنثى، مؤمن ومؤمنة، إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات...».

إن كل رجلٍ أو أنثى ينال الثواب على إحسانه، والخلاصة فإن ميزان القرب من الله تعالى هو التقوى، فلو كانت المرأة أكثر تقوى من الرجل فستكون أكثر منه شأنًا، وحتى في مسألة أداء الأعمال فليس محرماً على المرأة العمل خارج المنزل عندما لا يكون ذلك العمل موجباً لوقوعها في الحرام، وإذا لم يكن مزاحماً لحق الزوج، مع مراعاة الحجاب والعفاف، فما هو المانع من عملها؟

نعم، إنها ترتكب عملاً محرماً عندما تخرج من بيتها متبرجة مما يؤدي إلى إثارة شهوة الشبان المساكين، ولأنّ القرآن منع ذلك بشكل صريح: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ﴾ [النور: ٣١].

المحافظة على قيمة المرأة

هل أنّ القانون الإسلامي الذي يمنع المرأة من الظهور برأس مكشوف وصدر وسيقان عارية يعتبر ظلماً للمرأة؟ وهل يغمط حقها؟ أم أنه على العكس من ذلك يحافظ على قيمة وقدر المرأة، ويرفع من قيمتها؟ وبذلك فإنه يحفظها من التلوّث بالمفاسد، ولأجل ذلك فإنه يصونها من أن تكون هدفاً للنظرات الشهوانية.

الجنس وسيلة لجمع الأموال

في السابق كان بعضهم يجمعون الأموال باصطحاب قرد معهم يدورون به في الأزقة والأسواق، حيث يرقص القرد ويجمعون الأموال من المتفرجين. واليوم فإنّ بعض النساء المخدوعات يمثلن دور السارق لأموال المجتمع في

السينما والبارات، وبذلك فقد حظوا من مستوى المرأة إلى مستوى القرد، ولكنهم يصوّرون الأمر على عكس ذلك.

إنّ خروج الرجل بدون جوارب يعتبره العرف عيباً اجتماعياً، ولكن ماذا عساني أقول فيما يتعلق بالمرأة!

وخلاصة القول إن الإسلام جعل عزّة المرأة وحقّها مصانين بالحجاب والعفاف، وإلاّ فإنه لم يُحرم المرأة من التعلّم أو العمل.

تستحقّ الصون

صحيح أنّ المرأة عندما تكون ملتزمة بالحجاب، فإنها ستكون محرومة من كثير من الملذات في المجتمع المعاصر، ولكن ألا يستحقّ صونها من التعرّض لنظرات الشهوة مثل هذا الحرمان؟ إنّ الجوهرة الثمينة يجب المحافظة عليها أكثر.

وهل أن قيمتهنّ أقل من قيمة الأوراق النقدية؟ لقد قال القرآن الكريم عن الحجاب: ﴿ذَلِكَ أَذَىٰ أَنْ يُعْرِفَنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، لقد شرّع الحجاب من أجل طهارة الروح والنفس وشرف الدنيا والآخرة، وإلاّ فإن إناث الحيوانات عاريات أيضاً.

لا مانع من خروج المرأة من البيت

إنّ الإسلام لم يأمر بحبس المرأة بين أربعة جدران، والآية: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: ٣٣] التي خاطبت نساء النبي ﷺ هي إشارة للحكم الذي يأتي بعدها وهو: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وهنا يأتي المنع عن إبداء الزينة وبشكل مهيج للشهوة حيث إنها محرّمة في الإسلام، وليس هناك فتنة أكثر من فتنة الشهوة قدرة على سلب الأمن والهدوء من المجتمع.

جاء في مضمون الرواية أنّ الله وملائكته يلعنون المرأة على كل خطوة

تخطوها خارج بيتها إذا وضعت العطر على بدنها حتى ترجع إلى البيت، وتصيب اللعنة زوجها إن كان راضياً بذلك. وبناء على ذلك فإن قانون: ﴿وَوَكَّرَنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزابك ٣٣] يمنع من التبرج، مما هو شائع في أيامنا هذه.

النساء يشاركن في الحياة الاجتماعية دائماً

كانت النساء منذ صدر الإسلام وحتى يومنا هذا يخرجن من بيوتهن، فقد اصطحب الرسول ﷺ بعض زوجاته في بعض حروبه وغزواته، وقد اتفق كل المفسرون على أن (عائشة) كانت مع الرسول ﷺ عندما نزلت آية الإفك، وقد ذكروا أن (أم سلمة) كانت ترافق الرسول ﷺ في الكثير من أسفاره، كما أن المسلمين اصطحبوا معهم نساءهم في حروبهم، ومع أن الجهاد ليس واجباً على المرأة؛ إلا أنها كانت تحضر في جبهات القتال وتساهم في الأعمال التي بإمكانها المساهمة فيها مثل: معالجة الجرحى وربط جروحهم، وكانت أحياناً أخرى تشجع الرجال على القتال.. وتوبخ الفارين من جبهات القتال.

(نسبية) نموذج للمرأة الشجاعة

وكنموذج: فإن واحدة من المؤمنات اللواتي يعتبرن من المميزات في عالم الإسلام، تلك هي (نسبية بنت كعب)، التي شاركت في معركة أحد مع زوجها وولديها (عبد الله وعمار)، وكانت تتقن مداواة الجرحى وتضمّد جراحاتهم، وكان عملها في تلك المعركة تقديمه الماء للمقاتلين والعطشى الذين كانوا يقاتلون في جو حار، وهم متدرعون بالحديد، وإلى جانب أدائها لتلك الوظيفة فقد حافظت (نسبية) على حجابها وعفافها.

وانهزم جيش المسلمين، خصوصاً وأن عدداً من المسلمين لم ينفذوا أوامر الرسول ﷺ ولاحظت (نسبية) أن رسول الله ﷺ أصبح وحيداً ولم يكن يدافع عنه سوى علي بن أبي طالب ﷺ وأبو دجانة وشاهدت إصرار المشركين على الهجوم على الرسول ﷺ وضعت هذه المرأة الشجاعة قربة الماء جانباً،

وجعلت من نفسها درعاً يقي رسول الله، وأصيبت جراء ذلك بعدة جراحات، وكتب المؤرخون أنها أصيبت بثلاث عشرة جراحة، وكانت واحدة من تلك الجراحات خطيرة إلى درجة أنها لم تلتئم إلا بعد سنة من العلاج.

كتب المؤرخون في تاريخ غزوة أحد، أن أحد المسلمين فرّ من المعركة، ومرّ أثناء فراره على رسول الله ﷺ فخاطبه الرسول ﷺ ما دمت تريد الفرار فاعطِ درعك لهذه المرأة، فرمى ذلك المسلم درعه وهرب، فأخذت (نسبية) الدرع، ووقفت أمام الرسول ﷺ.

وفي رواية أخرى أن ابن (نسبية) كان قد فرّ مثل سائر الذين هربوا من المسلمين، فأعادته أمه إلى ساحة المعركة، وقالت له: أين تفرّ من الله ورسوله؟ فثبت الابن أمام رسول الله ﷺ يدافع عنه، وحمل أحد المشركين على (نسبية)، فحمل الابن وأمّه على ذلك المشرك وقتلاه، وحمل مشرّك آخر على ابن (نسبية) وجرحه، فضمّدت أمه جرحه وخاطبته قائلة: أي بني انهض دافع عن رسول الله ولا تضعف عن ذلك، ثم حملت بنفسها على ذلك المشرك وقتلته، وقد استحسّن رسول الله ﷺ فعلها ودعا لها بالبركة.

وخلاصة القول فإنّ (نسبية) كانت تملك ولدان استشهد أحدهما في معركة أحد، واستشهد الثاني في معارك المسلمين بعد رسول الله ﷺ مع (مسيلمة الكذاب)، وكانت (نسبية) نفسها قد اشتركت في تلك المعارك وجرحت اثنا عشر جرحاً، وفقدت في الحرب إحدى يديها.

إذاً، فليس هناك ما يمنع من خروج المرأة لإنجاز عمل إلهي.. وبعبارة أخرى: كوني مع الله واخرجي.. ولا تكوني مع الشيطان وتبرّج الجاهلية.

(السيدة زينب عليها السلام) كذلك خرجت ليلة عاشوراء

رُوي في كتاب (الدمعة الساكبة) أنّ أصحاب الإمام الحسين عليه السلام تجمعوا ليلة عاشوراء حول خيمة الإمام الحسين عليه السلام حيث كان يتحدث مع السيدة

زينب عليها السلام وهناك كَرَّروا عزمهم على البقاء معه، وجددوا ولاءهم له.. فقال الإمام الحسين عليه السلام لزينب أخرجي إليهم يا أختاه مع أخواتك وكلميهم واعتذري إليهم. ولعل هدف الإمام الحسين عليه السلام هو بعث الحماس في نفوس أصحابه ليستعدوا للقتال.. وفعلاً حصل ذلك، حين تحدث الأصحاب بكلمات نارية معلنين عن استعدادهم للقتال والفداء والتضحية حتى آخر نفس.

الاختلاط مكروه، وليس حراماً

يجب على المرأة في الموارد التي يجيز لها الإسلام أن تخرج فيها إلى خارج الدار، أو في العمل، أن تسعى ألا تختلط بالرجال وأن لا تقع بينهما الملاطفة والمداعبة والجلوس مع الرجال إن لم يكن محرماً من جهات أخرى، فإنه بحد ذاته ليس حراماً؛ بل إنه مكروه، وبدايته واضحة، فأوله الرفقة وآخره العناق، وسوف يكون الشيطان حاضراً شتت أم أبيت.

إنكم تقرؤون وتشاهدون بعض المفاسد الاجتماعية في المجلات أو السينما، وقد وردت في كتاب (وسائل الشيعة) عدة روايات عن أمير المؤمنين علي عليه السلام أنه كان يسلم على النساء، وكان يكره أن يسلم على الشابة منهة ويوضح أنه يخشى من أن يعجبني صوتها فيدخل علي أكثر مما طلبت من الأجر.. هكذا يقول الإمام علي عليه السلام وهو المعصوم وولي الحق.

وأخيراً فإن للغريزة الجنسية قوة جذب عجيبة، ومن أول نظرة ريبة عليك أن تترك الحديث، ودع السلام والمجاملات جانباً.

إن مصافحة النساء حرام حتماً، ولكنها ليست محرمة عندما يكون هناك حائل من قماش أو قفازات، ولكن على المرء أن يترك ذلك تحسباً من المفاسد التي تنشأ من هذه المصافحة فيما بعد.

قد تغلق عين الماء بالمغرفة فإذا امتلأت لن تغلق بفيل

ومن الطبيعي فإن المرأة عندما تسلم يجب رد سلامها بالجواب.

هل يتناسب ذلك مع الزهد؟

والشبهة الثانية هي: كيف أوجدت السيدة الزهراء من أجل فدك كل هذه الجلبة وهي المعصومة والزاهدة مثل أبيها، والمنصرفة عن الحياة المادية، وهي الروح المطلقة، أليست هذه الأعمال تتنافى مع الزهد؟

وقد أجاب على هذه الشبهة عدد من علمائنا جواباً كافياً وشافياً، ومن هؤلاء العلماء (الفاضل الدرنبدي) و(الوحيد البهبهاني) وهنا نورد خلاصة لأحد الأجوبة:

الزهد أمر قلبيّ

الزهد أمر يرتبط بالقلب، بمعنى أنّ الزاهد هو الذي لا يميل قلبه إلى الدنيا، وكل امرئ يتعلق قلبه بالآخرة فهو زاهد، وهذا يعني أنّ الظواهر لا تصلح ميزاناً للحكم، والذي يتعلق قلبه بالدنيا يُسمى بالحريص.

إنّ كل جهد الحريص في عمله وحركته هو أنه يمّتي القلب بجمع الأموال وزيادتها، بحيث يُصبح البيتُ بيتان، والاثنان ثلاثة، وهكذا كل ما يملك.

أما إذا لم يكن هدفه تكديس الأموال؛ بل يطلب المال لينفقه في سبيل الله ومرضاته فهذا هو الزهد.. لأنّ هدفه الفوز بالآخرة وليس الدنيا، وهو يريد بهذا المال يريد أن يمدّ يد العون لأرحام المعوزين.

إنّ المال عزيزٌ جداً، خاصة إذا كان سبباً في الوصول إلى مرضاة الله عزّ وجل، وضمن الآخرة، ومن هنا فقد عبّر القرآن الكريم عن المال بالخير، حين قال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

ويقول رسول الله ﷺ: «نعم المال الصالح للرجل الصالح» وجاء في رواية أخرى في وصف المال: «نعم العون على الآخرة».

للإنفاق آثار عظيمة

إن الآثار العظيمة للإنفاق لا يمكن حصرها وتعدادها، وقد ذكرت هذه الآثار العظيمة في آخر سورة البقرة وفي بعض الآيات الأخرى من القرآن الكريم، وقد عبر (الشيخ النوري) عن آثار الإنفاق بأنها مثل العمل الكيميائي الذي يحوّل ذرة النحاس إلى ذهب، والإنفاق كذلك يُصلح قلب الإنسان، وهو يمنحه المقام الرفيع عند الله سبحانه وتعالى إذا كان يعرف قيمة المال، نعم إن معرفة قيمة المال هو إنفاقه في سبيل الله.

الوزير العاقل كان مديناً دائماً

ذكر (السيد الجزائري) في كتابه (الأنوار النعمانية)، أنّ وزيراً هندياً كان على الدوام مديناً وللسنوات طويلة بأربعمائة ألف دينار، على هذا الأساس فقد كان يقترض أموالاً قبل أن يقبض مرتبه الشهري، وكان ينفق تلك الأموال على الفقراء والمحتاجين، وكان في الوقت الذي يقبض فيه مرتبه يدفعه إلى دائنيه، وهكذا كان على الدوام عاجزاً عن الإيفاء بديونه، وقد اشتكاه الوزراء للسلطان بتهمته أنه لا يعرف قدر المال، وكلهم كانوا يقولون إنه مدينٌ على الدوام، وبعمله هذا يتسبب بضياح هيبة الدولة، واقترحوا على السلطان أن يستلم بنفسه مرتب الوزير ولا يعطيه إلا ما يكفيه لمصروفاته، أما الباقي من مرتبه فيقوم السلطان بجمعه.

وبناء على ذلك أحضره السلطان واحتج على ما يقوم به من تصرفات، فقال الوزير: إنهم قدموا للسلطان تقريراً غير دقيق. ففي كل الهند ليس هناك من يعرف قيمة المال مثلي، فأنا لا أسمح أن يذهب حتى درهم من مالي هدرًا، إذ إنني أصرفه جميعه في سبيل الله وأودعه عند الله، وعلى ذلك فأنا أحتفظ بمالي، وعلى حدّ قول القائل فأنا لا أسمح بعد موتي لآكلي الجيف أن يأكلوا ويذمّوني بقولهم: لقد ترك لنا القليل.

وخلاصة القول إن المال عزيز مثل العمر، وبقدر ما هي عزيزة ساعات
العمر كذلك هو المال.

الإسراف والتبذير من أوامر الشيطان

ورد في الرواية أنّ البعض شكوا إلى الإمام أنّ بعض شيعتكم يفترون في
الإنفاق، فقال: إنّ شيعتنا جمعوا مالهم من الحلال، ويسعون أن لا ينفقونه في
الإسراف والتبذير.

إنّ الإسراف والتبذير كلها من أوامر الشيطان، وبتأثير الهوى والهوس
يندفع البعض لإقامة الحفلات، ولكنه ليس مستعداً أن يساعد أقاربه وأرحامه،
ولا يخفف عنهم ديونهم. كيف يسعى هؤلاء لحفظ كرامتهم أمام ضيوفهم كما
يتخيلون، ولا يسعون لحفظ هذه الكرامة عند الله؟

فهل الوجاهة عند الله أفضل أم عند الناس؟ لا أقول اتركوا الولائم ولا
تفكروا بالوجاهة، بل افعلوا كل ذلك من أجل مرضاة الله، أطعموا الطعام من
أجل مرضاة الله، وليكن بقصد إطعام المؤمنين وهو أمرٌ مستحب، أو بقصد
إطعام الفقراء.

أحياناً يكون العمل الصغير موجباً لمرضاة الله تعالى حيث يثيب عبده أرفع
الدرجات.

(فدك) مال أعطاه الله للزهراء عليها السلام

لقد أعطى الله للزهراء عليها السلام بواسطة الرسول صلى الله عليه وآله (فدكاً والعوالي). وكانت
(فدك) تحت تصرف الرسول صلى الله عليه وآله أثر الصلح مع اليهود، ولم يكن للمسلمين
فيها سهم.. أما (العوالي)، فقد كانت ملكاً لأحد اليهود واسمه (مخريق) وقد
أسلم على يد رسول الله، وكان ذلك في وقت بداية (معركة أحد).. حيث قال:
يا رسول الله أريد الذهاب إلى القتال لأستشهد، وإني أهديتك العوالي. وحدث
الذي تمّته، حيث نال الشهادة في جبهة الحرب. ولذا فإن المسلم الذي لم

يصلِّي حتى ركعتين وأصبح من أهل الجنة هو (مخزيق).. وعلى أثر ذلك نزلت الآية: ﴿وَمَاتَ ذَا الْقُرْبَيْنِ حَقًّا﴾ [الإسراء: ٢٦] أي أعط (فدك والعوالي) إلى ذي القربى.. وقد سأل رسول الله ﷺ جبرائيل ﷺ من هو المراد بذي القربى؟ فقال جبرائيل ﷺ: إنها الزهراء ﷺ. فسلمها الرسول ﷺ فدكاً والعوالي.

أرباح فدك للفقراء

وكان لفدك والعوالي أرباحاً طائلة، فقد ذكرت كتب التواريخ أن أرباحهما السنوية كانت تبلغ سبعون ألف دينار.. ولعل الأرباح كانت أكثر من ذلك الرقم. وعلى أي حال فقد كانت فدك تحت تصرف الزهراء ﷺ لمدة ثلاث سنوات، وكان عمالها وجباتها يجبون لها أموال الإجارة، وكانت ﷺ تقسم تلك الأموال بين فقراء المدينة المنورة. ولكن هل كانت تجمع المال لنفسها؟ كلا إنها لم تستفد من ذلك المال لنفسها، وهذا هو الزهد.

إزار فيه اثنتي عشرة رقعة

قال (سلمان) لقد رأيت إزار الزهراء ﷺ وفيه اثنتي عشرة رقعة، ولقد أبكاني ذلك.. ومع كل أرباح (فدك والعوالي) استطاعت الزهراء ﷺ أن تساوي نفسها مع أكثر نساء المدينة فقراً، لكي لا يشعر بعدم الارتياح أي فقير، خصوصاً وأنه يرى أنّ الزهراء ﷺ بضعة الرسول ﷺ أقل منه فقراء أو مثله..

لقد كان فرش بيتها كما تعلمون.. حيث قالت لسلمان: ذبحنا شاةً ووضعنا جلده تحت الحسن والحسين، وكانت تطحن الشعير، وتخبز الخبز.

الدفاع عن حقها ضروري

نعم، لقد كانت الزهراء ﷺ تريد فدكاً، لأنها كانت بالنسبة لها أمانة مهمة، خصوصاً وأنها كانت تصرف أموالها في سبيل الله، وكانت جادة في دعواها، ليس فقط من أجل إتمام الحجّة، بل إنها ترى أن وظيفتها وواجبها أن

تدافع عن حقها.. وكيف تقبل الزهراء أن يقع ذلك المال تحت أيدي أفراد يصرفونه على أهوائهم ومصالحهم الشخصية؟

(عثمان) يُعطي فداً لمروان

نعم، لقد قاومت الزهراء عليها السلام ما استطاعت ضد سلبها حقها في فداك، ولكن الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) منح فداً والعوالي إلى (مروان بن الحكم) طريد رسول الله صلى الله عليه وآله والملعون على لسانه.

إنّ المال الذي يجب تقسيمه بين ذرية الزهراء عليها السلام وأحفادها لكي لا يبقى من بينهم فقير، وتقسيم الكثير منه بين الفقراء. كان طبقاً لوصية الزهراء عليها السلام يجب أن تكون (فداك والعوالي) تحت تصرف المعصوم والأئمة من أبناء الحسين عليه السلام لصرفه في موارد الخير التي لله فيها رضى، ولكن الذي حدث أن فداً والعوالي صارتا تحت تصرف الخلفاء والذين لم يكتفوا بمنع آل الرسول صلى الله عليه وآله من حقهم في فداك، بل صرفوا أموالها في الأهواء والمصالح الشخصية.

عين الماء التي وقفها عليّ عليه السلام

كان من الواجب أن يكون ذلك الملك تحت تصرف الإمام عليّ عليه السلام نصير الفقراء لإعانتهم في سبيل الله، حيث كان عليه السلام يتحمل العناء في سبيلهم وعلى سبيل المثال:

يُروى أنه عليه السلام لاحظ أنّ المارّة في يُنبع يصيبهم الظمّ والعطش لعدم وجود الماء، فأخذ بنفسه أدوات الحفر وبدأ يحفر مكاناً لاستخراج الماء منه، وعندما وصل عليه السلام إلى الماء، خرج من البئر وسجد لله شكراً، وقرأ هناك صيغة وقف البئر لصالح المسلمين، وقد ذكرت صيغة الوقف في كتاب (المستدرک).

وكان مضمونها التالي: لقد أوقف عبدالله عليّ ماء هذا البئر الذي حفره

بنفسه على عموم المارة والعاشرين، حتى ينجيني الله من عذاب جهنم ويكتب لي الجنة.

إرواء العطشان

لقد كان الإمام عليّ عليه السلام يعلم جيداً ما هي آثار إرواء العطشان، وبركات ذلك وثوابه مهما كان ذلك العطشان «لكل كبد حرّاء أجر» كافرأ كان أو مؤمناً، مع الأخذ بنظر الاعتبار أنّ للإيمان مراتب ودرجات، ويقول الشيخ جعفر الشوشتری لا أعلم ما هو ثواب إرواء الإمام العطشان؟

كم كان جنود يزيد سيئي الحظ عندما حرموا أنفسهم من ثواب عظيم كان بإمكانهم الحصول عليه.

لا بد من شراء الجنة بالمال

قلنا فيما مضى أنّ مطالبة السيدة الزهراء عليها السلام بحقها في (فدك) لا تتنافى مع كونها زاهدة، خصوصاً وأنّ الزهد في الدنيا لا يعني تبذير المال وهدره وعدم الاكتراث به أو تضييعه إذا كان في يده.

بل إنّ ذلك خلاف للشرع، فوظيفة كل مسلم هي أن يتحرك ويعمل ليكسب المال وليصرف منه على عياله، وفي الواجبات المعنية.. حيث يحصل على الجنة عندما يصرّفه في الموارد المستحبة.

ينصرف عن صلاته من أجل حفظ ماله

ورغم أهمية الصلاة، فإنّ صاحب المال يجوز له أن يقطع صلاته إذا حاول أحد أثناء الصلاة سرقة ماله.

وعندما يكون المال من النوع الذي يجب الحفاظ عليه كالأمانة، أو أنه مال ضروري، ففي هذه الحالة يجب على المصلي أن يقطع صلاته، أما إذا لم

يكن المال ضرورياً كالحذاء المهترئ الذي يريد صاحبه استبداله بآخر جديد، فإن من المكروه قطع الصلاة لأجله، ولكنه مع ذلك جائز.

إنفاق المال من أجل الآخرة هو الزهد الحقيقي

إنّ ما ينافي الزهد هو التعلّق بالمال، ولكن إذا أراد الإنسان هذا المال في طريق الخير فهذه هي الآخرة.. وفي رواية أنّ الإمام سأل أحدهم: لِمَ تجمع المال؟ قال: للإنفاق على عيالي، وصلة الرحم، وضيافة المؤمنين. فقال الإمام: هذه هي الآخرة.

وهذا هو الزهد الحقيقي عند الإنسان الذي يجمع المال لهذه الأسباب، وهو عكس الحريص الذي يجمع المال لأجل المال، ولأجل زيادة ثروته.

من واجب الزهراء عليها السلام الاهتمام بفدك

لقد قلنا إن (فدك والعوالي) كانتا من الأموال المعنتى بها، وقد وصلت إلى السيدة الزهراء عليها السلام عن طريق الرسول ﷺ بأمر إلهي.. لتبقى لها ولذريتها إلى يوم القيامة، ولكي لا يبقى أحد من تلك الذرية يعاني من الفقر والفاقة.

والشيء الآخر هو ليقوم أولاد السيدة الزهراء عليها السلام بالعمل على مساعدة فقراء المسلمين، ولهذا فإنّ على الزهراء عليها السلام أن تهتم وتعتني بهذا المال، لا أن تبدي اللامبالاة به، وعلى هذا الأساس ارتفع صوتها عليها السلام بالمطالبة بحقها، إنّ الإنفاق هو سبب في نيل الدرجات العالية والمقام الرفيع حتى بالنسبة للمعصوم، لأنّ ذلك سبب في نيل رضا الله سبحانه وتعالى، ولذلك فإنّ أهل البيت لم يتضايقوا من إعطاء أقراص خبز الشعير التي لا يملكون غيرها لإفطارهم في سبيل الله، لأنهم يعلمون أهمية هذا العمل وآثاره الكبيرة.

الأصفهاني يريد الخبز للآخرة

المرحوم الأصفهاني قبل أن يصبح رئيساً للوزراء في حكومة محمد شاه

كان بائعاً للحنطة، ويملك مستودعاً، فطلب من الله سبحانه وتعالى وهو في المسجد الحرام عند سفره للحج، أن يرزقه مالاً وثروة بدون تعب ولا مصاعب، وبقي يرّد هذا الطلب حتى اعترض عليه رفاقه وقالوا له: إنّ الناس هنا يطلبون من الله أن يرزقهم الجنة وحسن العاقبة، وأنت تريد المال فقط؟ فقال: إنني أطلب المال لأنال به رضا الله.

ثم عاد بعد أداء مناسك الحج إلى (أصفهان).. وعثر على كنز عظيم داخل مخزن الحنطة الذي يملكه خلال إجراء بعض الإصلاحات فيه، ومنذ ذلك الوقت، استطاع هذا المرحوم أن يخلّده آثاراً باقية منها: مدرسة الصدر في النجف الأشرف وفي أصفهان، وأوقف لهاتين المدرستين العلميتين موقوفات كثيرة.

علاوة على أنه كان ملجأً حقيقياً للفقراء..

لذلك فإنّ الذي يعرف قيمة الثروة والمال يعتقد بأنه من نعم الله عليه، ويجمعه عن طريق الحلال ثم يصرفه في مرضاة الله، فذلك هو الزهد الحقيقي، وليس الذي يجمع المال ويتعلّق قلبه به ولا يصرف منه شيئاً خوفاً عليه من النقص.

وفيما يتعلّق بفدك، فهي علاوة على كونها من حق السيدة الزهراء عليها السلام وحق ذريتها وكذلك الفقراء حيث ترتفع حاجتهم بواسطتها، فإنّ على السيدة الزهراء عليها السلام أن تعمل ما وسعها كي لا تدع الآخرين يسلبونها حقها في فدك.

إحقاق الحق وإبطال الباطل

والشيء المهم الآخر الذي كان سبباً في إلقاء السيدة الزهراء عليها السلام لخطبتها الشريفة، هو إحقاق الحق وإبطال الباطل، عن طريق ظاهر فدك وباطنه فضح الغاصبين، وسنذكر ذلك إن شاء الله بشكل تفصيلي عند شرحنا للخطبة.

أيها الغاصبون لفدك، يا من وضعتم أنفسكم في مقام الخلافة

لرسول الله ﷺ خلافاً لنص النبي ﷺ بتعيين عليّ ﷺ آية جناية كبيرة ارتكبتم، ولم تكتفوا بذلك حتى غضبتم حقي وهو شيء كان تحت تصرفي، فأخذتم بالقوة المال من مالكة.. إنها الخيانة وهتك حُرمة الإسلام. إذاً فقد كان حضور السيدة الزهراء ﷺ في المسجد وإلقائها لخطبتها يمثل أعظم الجهاد الذي فضح الغاصبين حتى يوم القيامة.

لماذا لم تُرسل علياً؟

الإشكال الآخر هو: ألم يكن من الأفضل والأجمل للزهراء أن لا تأتي بنفسها من المسجد، وأن ترسل علياً ﷺ وتعطيه الوكالة بالمطالبة بحقها؟

والجواب على هذا الإشكال هو: أن مراجعة تاريخ تلك الفترة توضّح موقع عليّ ﷺ بين المسلمين بعد وفاة رسول الله ﷺ وكيف حاولوا أن يجعلوه موقعاً عادياً، ولم يسمح لهم حسدهم أن يُنزلوا علياً ﷺ بالموقع الذي اختاره الله ورسوله له والذي ذكّره به في حياته ﷺ.

ولكنهم لم يجدوا بُدّاً من رعاية موقع السيدة الزهراء ﷺ والتي هي بضعة الرسول ﷺ وهي ذي القربى قطعاً.

لا يقفون لاحترامه

وجاء في (صحيح البخاري) و(مسلم) أنهم كان يظهرون الاحترام لعليّ ﷺ بعد وفاة الرسول ﷺ وفي حياة الزهراء ﷺ ولم يكن أحد يجرؤ على إهانته، ولكن بعد وفاة الزهراء ﷺ لم يعودوا يحترمونه كالسابق ويهتمون به، وحتى عندما كان يدخل عليهم لم يكونوا ينهضون لاستقباله احتراماً له.

الويل لمن لم يزيك نفسه، لأنّ الإسلام باللسان ليست له قيمة واقعية، حيث يقول تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦].

ويقول كذلك: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَزَقَهَا﴾ [الشمس: ٩].

الحسد يُذهب الإيمان

نعم، فإنَّ «الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النار الحطب»^(١)، كما أنه يذهب بالإيمان.

والمثال على ذلك فإنَّ الذي أهلك المسلمين في صدر الإسلام وذهب بدنياهم وآخرتهم هو الحسد. وسواء كان ذلك بين شخصين أو بين عشيرتين أو بين مدينتين، فإنه (الحسد) يؤجج النار التي تحرق الجميع.

إنَّ هؤلاء لم يكن باستطاعتهم أن يروا علياً عليه السلام سيداً للجميع، وكانوا يقولون إنه ما زال شاباً فلمْ تقدّمه على الشيوخ، حتى وصل الأمر بأحدهم في يوم (عيد الغدير) أن رفع رأسه وقال: اللهم إني لا أستطيع أن أرى علياً في مكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فأرسل عليّ ناراً تُهلكني. فاستجاب الله دعاءه ووصل إلى الجحيم من مكانه ذلك.

أخذوا علياً مُقيداً

وكان عدم الرغبة والرضى موجوداً في نفوس أكثر هؤلاء، لذلك فإنهم لم يراعوا منزلة أمير المؤمنين علي عليه السلام حتى يستطيع إحقاق حق الزهراء عليها السلام. وقد كتب علماء السنّة في كتبهم أنّ علياً جيء به إلى المسجد وهو مقيد وفوق رأسه السيف حتى يُبايع، فقال: وإن لم أفعل؟ قالوا: نفصل رأسك عن جسدك. فقال: إن فعلتم إنما تقتلون عبدالله وأخي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم. فقالوا: أما عبدالله فنعم، ولكن أخي رسول الله فلا. مع العلم أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد آخى علياً.. وجاء في الحديث المتواتر: «أنت متي بمنزلة هارون من موسى..».

دون التزكية يخسر الإنسان

أولئك الناس الذين يعبدون الرئاسة والمال هل هم مسلمون حقيقيون؟

(١) الكافي، للكليبي.

المسلم الذي يزكي نفسه يفلح، أما الذي تحرّكه دوافع الحسد والبخل والحرص والكبر وغيرها، فإنه يخسر الدنيا والآخرة مهما حاول أن يكون من أهل الصلاة والصوم.

الإسلام من سلم، التسليم لله، والمتكبر على الله ليس من الإسلام في شيء مهما كان ظاهره الإسلام.

وبناءً على ذلك يتضح السبب الذي دعا السيدة الزهراء عليها السلام إلى عدم توكيل الإمام علي عليه السلام من أجل إحقاق حقها، بل جاءت بنفسها.

لم يكن الصراع مع السيدة الزهراء عليها السلام صراع مصالح

أولاً: إنّ الصراع مع الزهراء عليها السلام لم يكن صراعاً على المصالح، لأنّ الزهراء عليها السلام لم تكن تريد أن تضع نفسها في مكان الرسول ﷺ لكي تعارض الخليفة.

وثانياً: فإنهم إذا لم يراعوا حق الزهراء عليها السلام من الناحية الظاهرية فإنه كفر.. لقد كان (أبو بكر) ينزل من المنبر عندما يدخل الحسن والحسين عليهما السلام إلى المسجد فيقبلهما ويحنو عليهما، ولذلك فعندما جاء عمر ومعه جماعة إلى بيت أمير المؤمنين عليه السلام ليأخذوا منه البيعة.. قال الإمام للزهراء عليها السلام: اذهبي إليهم لعلهم يراعون حرمتك فيعودون.

وقد ذكروا في الكتب أنّ الزهراء عليها السلام وقفت خلف الباب.. وهنا خفف (عمر) من غلظته المعهودة، وتكلّم مع الزهراء عليها السلام بلين، وطلب منها أن تفتح الباب، فقالت الزهراء عليها السلام: ماذا تريدون متّ دعونا في مصيبتنا.. فقال (عمر) افتحي الباب وإلا أحرقت الدار بمن فيها، فقالت الزهراء عليها السلام: أتحرقها وفيها عليّ وأبنائي؟

فقال عمر: نعم. وأقسم بالله.. وطلب من الزهراء عليها السلام أن تفتح الباب.. فأجابته الزهراء بشكل صريح أنها لن تفتح الباب.

حرق الباب فضيحة تاريخية

إن ذلك الباب الذي أحرقوه.. هو البيت الذي كتب عنه عموم المسلمين أن رسول الله ﷺ في الأشهر الستة من أواخر عمره كان يقف عنده عندما يريد الذهاب إلى المسجد فيقول: السلام عليكم يا أهل بيت النبوة، ولم يكن يدخل البيت دون استئذان، لقد كان حرق البيت فضيحة تاريخية بقيت إلى الأبد.

وقد كتب (ابن قتيبة) وهو من المؤرخين المشهورين في كتابه الإمامة والسياسة أن (عمر) عندما رأى أنّ الزهراء ﷺ تمتنع عن فتح الباب قال للذين جاؤوا معه هاتوا الحطب. فقالوا: لأي شيء؟ قال: أريد أن أحرق الدار. قالوا: إن فيها فاطمة. قال: وإن.

ويكتفي (ابن قتيبة) بهذا المقدار، ولا يذكر البقية من الواقعة، وقد أثبتت كتب التواريخ تلك الواقعة، وذكرت واقعة مشابهة لها تؤيدها.. فعندما امتنع محمد بن الحنفية وبعض بني هاشم عن بيعة ابن الزبير، وضع ابن الزبير الحطب على باب الدار التي تجمعوا فيها، وعندما حاججوه استند ابن الزبير على ما فعله الخليفة الثاني ببيت الزهراء ﷺ.

مجمعي حطبٍ على البيت الذي لم يجتمع لولاه شمل الدين

* * *

(٢)

خرجت الزهراء عليها السلام بحجابها الكامل

لما عزم (أبو بكر) على أخذ (فدك) وإخراج عمّال الزهراء عليها السلام منها اشتملت بجلبابها» وأقبلت.. «تطأ ذبولها»، و«تطأ ذبولها» إشارة إلى أن جلبابها كان يغطي أقدامها وتمام بدنها، ولا زال هذا التقليد موجوداً بين نساء العرب.

وهذا هو مظهر كمال المرأة ووقارها، وليست تلك التصرفات المخجلة والمثيرة للشهوة التي نشاهدها عند البعض من النساء المعاصرات اللواتي يدفعن بالمجتمع إلى الفساد والانحلال. فهناك الكثير من الخيانات الزوجية وجرائم القتل تقع نتيجة لتلك التصرفات مما نقرأه في الصحف اليومية.

تمشي مثل الرسول صلى الله عليه وسلم

«ما تخرم مشيتها مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم» حتى ليتذكر من يرى مشيتها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي روايات أخرى «أنها كانت أكثر الناس شبهاً برسول الله صلى الله عليه وسلم خلقاً وخلقاً ومنطقاً».

وبهذه الصورة «حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم» في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ذلك الاجتماع اجتماعاً عادياً.

لتتعرف على الأنصار والمهاجرين

تطلق كلمة (الأنصار) على أولئك المسلمين الذين كانوا من أهل المدينة (يثرب) والذين نصرُوا النبي ﷺ.. وقد عقدوا مع رسول الله في السنة الحادية عشرة للبعثة النبوية الشريفة عهداً على أن يهاجر الرسول ﷺ إلى المدينة فينصرونه ويحمونه، وهذا ما حدث فعلاً حيث وفوا بعهدهم.. فاشتهروا باسم (الأنصار).

أما (المهاجرون) فهم الذين هاجروا من مكة إلى الحبشة عام ٥ للبعثة، أو المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة المنورة قبل فتح مكة من قبل المسلمين. وكان عدد قليل من المسلمين في بداية البعثة النبوية الشريفة قد تعرضوا لتعذيب قريش لهم، فلم يجدوا بُدّاً من الهجرة من مكة إلى الحبشة ومن ثم إلى المدينة المنورة.

في حين فرضت قريش على عددٍ آخر من المسلمين وخصوصاً (بني هاشم) حصاراً ومقاطعة اقتصادية واجتماعية في (شعب أبي طالب) استمرت ثلاث سنوات.

آثار التعذيب بعد خمسة وعشرين عاماً

وكانت (قريش) تأتي بأفراد من المسلمين مثل: بلال وعمار بن ياسر ثم يعرّونهم ويطرحونهم على الرمل في صحراء الجزيرة العربية الحارقة، ويضعون عليهم دروعاً، فتحمى في الحر الشديد وتحرق أبدانهم.

وأحياناً أخرى كانوا يضعون فوق صدورهم العارية صخوراً عظيمة ويقولون لهم متى ما تركتم التوحيد نرفع الصخرة عنكم، وكانوا أحياناً أخرى يعرون الصغار والأراذل بسحب بلال وهو مقيد اليدين للطواف به في الطرقات ولكنه كان يردد دائماً أحدٌ أحدٌ ولم يتراجع عن طريق الحق.

وفي أيام خلافة (عمر بن الخطاب) طلب من خباب بن الأرت الذي كان

ممن تعرض لتعذيب قريش، طلب منه أن يُريه آثار التعذيب، فنزع خباب ثيابه، فظهرت على بدنه آثار التعذيب، وكانت عبارة عن سيخٍ محمى وضعوه على بدنه في تلك الأيام.

أما أنت فلا تترك حراماً واحداً

أن يكون الإنسان مسلماً يعني: ﴿قُلِ اللَّهُ تَعَالَى ذَرَمٌ﴾ [الأنعام: ٩١] أيها المسلم هل أنت مستعد لترك الهوى في سبيل مرضاة الله؟ إنه يضحي بروحه ويرجوك أن تضحي أنت بالمال الحرام في سبيل الله، ويطلب منك أن لا تقول قولاً حراماً.

إن هؤلاء قد تخلّوا عن عبادة الصنم فتخلّ أنت عن عبادة صنم ذاتك، فأسوأ الأصنام هو صنم النفس.. نفسك.. قل الله، ولا تقل أنا، لأن عبادة الذات هي ضد عبادة الله: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

إن هؤلاء قد تعرضوا للتعذيب ليعودوا إلى تعظيم الصنم، أما أنت فلا يعذبك أحد إنما يقدمون لك النصيحة، ويميزون لك بين الطريق السويّ وبين البئر والطريق الوعر.

المرأة التي استشهدت في سبيل الله

انظروا ماذا فعلوا بسميّة أم عمار بن ياسر. إنها المرأة التي تُعدّ الأولى من المسلمات اللواتي قُتلن في سبيل الله، وعلى رغم ما عملوه معها، لم تكن مستعدّة للتخلي عن النبي محمد ﷺ والعودة إلى طريق الشرك. فهَدّوها بالقتل.. ولكنها لم تتراجع فحمل عليها أبو جهل (لعنه الله) بحربته وضربها في بطنها، وهي مقيدة بين جملين..

أيّتها المرأة التي تعتبرين نفسك مسلمة، كم من المحرّمات ترتكبين علناً؟ لقد تركت محمداً ﷺ حين خرجت إلى الشارع برأسك المكشوف وسيقانك وأذرعك العارية.. وربطت نفسك بالهوى والشيطان.

لقد كانت (سمية) مستعدة لأن تقطع نصفين، ولكنها لم تكن مستعدة لأن تترك باب بيت الله، أما أنتِ فلستِ مستعدة للتخلي عن الهوى والرغبات!

معاهدة ضد المسلمين

تحدثنا قبل قليل عن المهاجرين، لقد اجتمع أربعون رجلاً من كبار مشركي مكة، واتخذوا قراراً بحرمان أي شخص يُسلم من الماء والخبز والتعامل، وحصروهم في (شعب أبي طالب) في مكة، وكان المشركون يمنعون أي أحد يحاول أن يبيع هؤلاء المحاصرين أي شيء، ويقومون بشرائه منه.

وكان صوت بكاء الأطفال الجائعين من أبناء المسلمين يصل مسامعهم، فلا يهزهم ذلك أبداً.. وغني عن القول أن ذلك الأمر كان جزءاً من الاختبارات الإلهية ليُعلم من هو صاحب القدم الثابت ليكون من أصحاب السعادات الأخروية.

قرار الهجرة إلى الحبشة

وبأمر من الله عزّ وجلّ، أمر رسول الله ﷺ أصحابه بالهجرة من مكة ما دام المسلمون لم يعودوا يطيقون أذى المشركين، ولا يستطيعون أداء مناسكهم الدينية: ﴿رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَعْلَاهَا﴾ [النساء: 75].

ولكن إلى أين يهاجرون؟ وكانت (الحبشة) في ذلك الوقت أفضل مكان حيث كان (النجاشي) المسيحي حاكماً عادلاً. وفي المرة الأولى هاجر إلى (الحبشة) أحد عشر رجلاً وخمس إلى ست نساء قبل أن تعلم قريش بالأمر. واستقبلهم النجاشي بكل تقدير واحترام وإكرام، وخصص لهم مكاناً، ولكنهم بعد مدة سمعوا أن (قريش) آمنت، فعادوا إلى (مكة) ولكنهم اكتشفوا أن الذي سمعوه عن إيمان قريش كان كذباً.

وفي المرة الثانية هاجر ثمانون رجلاً ومعهم خمس عشرة أو ست عشرة

امراً، وبقوا هناك إلى العام الأول من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة، حيث سمعوا بخبر هجرة الرسول، فعادوا إلى المدينة.

الهجرة إلى حيث التدين

وكانت هجرة أمير المؤمنين علي عليه السلام سابقة على غيره، فقد كان أول من هاجر بعد الرسول من مكة إلى المدينة، وكان المسلمون بعد ذلك يهاجرون من مكة اثنين اثنين، ثلاثة ثلاثة، وكان المهاجرون مضطرين لترك كل ما يملكون في مكة.. لماذا؟ وذلك من أجل أن يصلح دينهم.

إنّ الهجرة تعني الانتقال من مكان إلى مكان آخر من أجل صلاح الدين.. فكل إنسان يعجز عن الاحتفاظ بتدينه وأداء مناسك دينه في مكان ما، عليه أن يهاجر إلى مكان آخر يستطيع فيه أن يحفظ دينه، وبقائه في مكانه الأول محرّم عليه، حتى ولو كان قرية أو بيتاً، فعليه الانتقال إلى قرية وبيت آخر. فلو خلت القرية من عالم يُعلّم أصول الدين وفروعه وأداء المناسك الدينية، فبقاء الشخص في مثل ذلك المكان حرام، وعليه الرحيل والانتقال منه.

المهاجر يُحشر مع خليل الرحمن

قال رسول الله ﷺ: «من فرّ بدينه من أرضٍ إلى أرضٍ ولو شهراً؛ استوجب الجنة وكان رفيق إبراهيم..»^(١)، (إبراهيم الخليل) الذي قال: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيِّدِينَ﴾ [الصافات: ٩٩].

لقد كان (إبراهيم الخليل) أول من هاجر في سبيل الله، فقد أيقن أنه لن يستطيع الإعلان عن عقيدته بوجود (نمرود) وأتباعه من عبّاد الأصنام، فهاجر إلى الشام، وانتهى أخيراً إلى (المؤتفكات) حيث نصب هناك خيمته وعاش هناك.

(١) تفسير منهاج الصادقين.

الحياة الباقية أولاً

تجب الهجرة من أجل تعلّم أصول العقيدة وفروعها إذا كان ذلك التعلّم غير ميسّر في مكانك.. فمن الواجب عليك أن تعرف الله.. وصفاته الثبوتية والسلبية.. وأن يحصل عندك اليقين بالرسول والإمام، وأن يحصل عندك اليقين بالحياة الأخرى الباقية، لا أن يكون هدفك الوحيد، السعي وراء المال والمقام. ولست هنا أدعو إلى ترك الدنيا، بل أدعو إلى التدبّر أولاً باعتبارها مقدّماً على غيره. عليك أن تفكر أولاً بحياتك الباقية الأخرى، ثم تدبّر حياتك الدنيا.

أينما تكون تستطيع أن تحصل على لقمة العيش، لأنّ حياتك اليومية مقدّرة.

أفي سلامة من ديني؟

في الخطبة الشعبانية الأخيرة لرسول الله ﷺ حول شهر رمضان المبارك والسؤال والجواب مع أمير المؤمنين عليه السلام حيث يُخبر الرسول ﷺ علياً عليه السلام بأنه سيقتل وستُخضّب لحيته من دم رأسه فيقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «أفي سلامة من ديني؟» وكان الإمام يريد أن يقول إنني وحتى في لحظة موتي أفكر بديني.. فكم هو مهم الموت على سلامة من الدين عند أمير المؤمنين علي عليه السلام حتى يقول ذلك.

وكم نحن مغرورون! انظر إلى نفسك قليلاً لعلك ترى اقتراب موتك، فهل أنت مشتاق إلى لقاء الله حين موتك؟ تموت مثقلاً بالذنوب أم مع التوبة؟ وهل ستحمل معك ظلمات الذنوب أم نور التقوى؟.

لقد قال أبو الفضل العباس ابن أمير المؤمنين عليه السلام حين قطعوا يده اليمنى يوم عاشوراء: «والله إن قطعتموا يميني إنني أحامي أبداً عن ديني»، وأنت يا من تطعم الطعام باسم أبي الفضل العباس عليه السلام، هل تعتبر نفسك حزيناً ومعزى، وقد رفعت يدك عن دينك؟

الهجرة واجبة على الجميع

لقد سألني بعض الأصحاب حول مسألة الهجرة، وهنا أذكر الموضوع بصورة مختصرة.. بشكل عام يجب على كل إنسان أن يهاجر إلى مكان آخر يحفظ فيه دينه إذا كان غير قادر في محل إقامته الأصلي تعلّم أصول دينه وفروعه والمحافظة عليه، وعلى سبيل المثال، عندما لا يستطيع أن يتعلم عقيدته بشكل صحيح لعدم وجود عالم في منطقته أو قريته أو عدم وجود كتاب يتعلم منه ذلك، أو أنه لا يستطيع أن يعمل ما تعلّمه.. فعليه الانتقال إلى مكان آخر، لكي لا يعجز عن الجواب غداً يوم القيامة عندما يُسأل لماذا لم تتبع العقيدة الفلانية؟ ولماذا لم تؤدّ الواجب الفلاني؟ ولكي لا تقول: كنت في مكان لم يكن ممكناً فيه الإتيان بتلك الأمور. لأنهم سيقولون لك: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَسِعَةً فَهَاجِرُوا فِيهَا﴾ [النساء: 97].

استثناء المستضعفين

إذا أردت فيإمكانك الانتقال من قرية إلى أخرى، ومن مدينة إلى أخرى، ومن دولة إلى أخرى، إلّا المستضعفين، وهم الذين لا يملكون قدرة الانتقال من مكان إلى آخر، بسبب ضعف الحال أو الشيخوخة أو المرض أو انعدام الوسيلة والواسطة، ومثل هؤلاء استثناءهم القرآن ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا * فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ﴾ [النساء: 98 - 99].

وقد ذكرنا في كتاب (الذنوب الكبيرة) وبشكل تفصيلي هذا الأمر في موضوع التعرّب بعد الهجرة.

بشرط أن لا يكون متناقضاً مع الفطرة والعقل

إن هناك فرقاً بين الجاهل القاصر وبين المقصّر، فهناك الكثير من القاصرين ممن يعيشون في المناطق البعيدة عن البلدان الإسلامية، ولعل كثيراً

منهم لم يسمعوا حتى آية من القرآن الكريم طوال عمرهم، ومثل هؤلاء لم تكن لديهم قدرة التحول إلى الإسلام، وليس عليهم عذاب شرط أن لا يكونوا قد خالفوا أوامر رسولهم الداخلي وهو العقل.. لأنهم رغم أنهم لا يعرفون الرسول محمد ﷺ ولكن اعتقادهم بالله هو أمر فطري يقبله العقل. وإذا ما ارتكبوا أشياء ينهى عنها العقل مثل: شرب الخمر، والفتنة، والكذب، والسرقه، وأذية الغير، فإنّ الحجّة تم عليهم، وعندها يستحقون العذاب.

إذا جاء الموت وهو في الطريق

أما الذي يخرج من بيته بقصد الهجرة إلى بلاد يحفظ فيها دينه، ثم يدركه الموت وهو في الطريق فقد وقع أجره على الله..

كما جاء ذلك صريحاً في القرآن الكريم: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكُهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠].

وردت عدة روايات حول أسباب نزول هذه الآية الشريفة، ويستخلص منها، هو أن ثلاثة أشخاص من المسلمين ماتوا وهم في طريق الهجرة، أحدهم: أكثم بن صيفي، والآخر خالد بن حزام حيث عضته أفعى وهو في طريق هجرته إلى الحبشة. أما الثالث فهو: جندب بن حمزة الليثي.

روي في (تفسير روح البيان)، أنّ (جندب بن حمزة الليثي) عند نزول الآيات التي تأمر المسلمين بالهجرة وتحذّره من التخلّف عن ذلك، كان رجلاً كهلاً ضعيفاً قال لأبنائه: احملوني إلى المدينة، فأنا لست من المستضعفين الذين عنتهم الآية ما دمت أملك مقداراً من القوة تمكيني من الوصول إلى (المدينة) وما دام الأمر كذلك فوالله لن أبقى في مكة حتى سواد ليلة لكي لا أكون من المقصّرين.

فوضعه أولاده على خشبات، وتحركوا به إلى (المدينة) وعلى بُعد ثلاثة أميال من (مكة) وبالقرب من (التنعيم) ظهرت عليه سكرات الموت، فوضع يده

اليمنى على يده اليسرى، وقال: اللهم يميني لك، ويساري لرسولك، تبايعان على ما بايعك رسولك وعاهدك عليه. ثم توفي.

وعندما وصل الخبر إلى (المدينة) قال بعض أصحاب الرسول: ليته وصل المدينة لكان أجره أكبر. أما المشركون فقد قالوا وهم يضحكون ويستهزئون: إن هذا المسكين لم يبلغ مناه. عندها نزلت تلك الآية الشريفة.

ليس لهم يوم القيامة من عذر

والخلاصة إن الهجرة واجبة على كل مسلم، وعلى كل بالغ، وعلى كل عاقل أينما كان من الأرض أن يهاجر إلى بلد يتعلم فيه دينه ويحافظ عليه إذا تعذر عليه ذلك في المكان أو البلد الذي يُقيم فيه..

ماذا يقول هؤلاء الذين يعيشون في المدن الإسلامية وبين ظهرانيتهم العلماء، ولكنهم لا يحضرون مجالسهم لسنوات طويلة؟ إن الإيمان لن يكون من نصيب الإنسان إلا بمجالسة العلماء للتعرف على أصول الدين ومن ثم ليكون من أهل اليقين.

لقد قلنا سابقاً، إن هؤلاء الذين يموتون وهم غير مؤمنين يجيبون الملائكة بأن الدنيا كانت قد شغلتهم، وكانت لديهم مشاغل ومتاعب، أو لم تسنح لهم الفرصة.

فيجابون: أنكم من الذين حرصوا على الدنيا، وسعوا وراء الشهوات والملاهي، وتركوا الدين. وإلا فإن جمع الدنيا والدين لا يتنافيان حتى ولو خصصوا في ليلهم ونهارهم ساعة واحدة لدينهم.. هؤلاء ليس لديهم حجة يوم القيامة.

وبشكل عام فإن كل شخص يجهل أصول العقيدة وفروعها، ثم لم يهاجر ولو كلفه ذلك الانتقال من بيت إلى بيت؛ فإنه سيكون محاسباً يوم القيامة ولا حجة له.

من بيت إلى بيت آخر

وعلى سبيل المثال: ما الذي يجبرك على البقاء في بيت فيه امرأة غير محجبة وترتفع فيه أصوات الغناء والموسيقى؟ لماذا يفتردي الإنسان آخرته بدنياه؟.. الويل لمثل هذا البؤس..

والخلاصة، فإنّ المهاجرين هم الأشخاص المسلمون الذين هاجروا من مكة إلى المدينة ليحفظوا دينهم وليتعلّموا أصوله وفروعه بشكل صحيح، وبقوا في المدينة حتى آخر حياة الرسول ﷺ.

أما الأنصار فهم الذين كانوا يسكنون المدينة، ووجهوا الدعوة لرسول الله ﷺ للقدوم إليهم وأعطوه عهداً بنصرته.

ليس كل الصحابة جيّدين

والشيء الآخر الذي يجب أن يعرفه القارئ الكريم حول الأنصار والمهاجرين أنهم لم يكونوا جميعاً جيّدين، فقد كانت دواخل بعضهم سيئة، وكان بعضهم ينافق، إن البعض يقول بعدالة وصحة جميع الصحابة! ولكن الحقيقة ليست كذلك، فبحق من نزلت سورة المنافقين؟ وبحق من جاءت الآية: ﴿وَيَنْ أَهْلَ الْمَدِينَةِ مِرَدُوءًا عَلَى الْغَيْفِ﴾؟ [التوبة: ١٠١].

نعم، إنّ الجيّدين الأبرار هم أولئك الذين آمنوا بالله، واستمروا إلى آخر عمرهم على الصراط المستقيم، وساروا وفق السنّة النبوية الشريفة، أمثال: سلمان المحمدي. ولكن أولئك الذين جاءوا إلى المدينة لتحقيق أهدافهم الدنيوية ليس لهجرتهم أية قيمة، ولو أنهم جاءوا من أجل الدين ولكنهم لم يهذبوا أنفسهم بشكل كامل، ولم يزكّوا أنفسهم، ولم يخرجوا من قلوبهم حبّ التسلط والرئاسة. إنّ الصحابة الجيدين الممدوحين هم أولئك الأنصار والمهاجرين الذين بقوا حتى النفس الأخير على الطريق الصحيح، ولم يكن في

نفوسهم شيء من حبّ الرئاسة والحسد والكبر والعصبية وكل الصفات الذميمة الأخرى.

أما أولئك الأصحاب الذين مُلئت قلوبهم بحب الرئاسة التي زينت لهم القيام بالأعمال القذرة وممارسة الفساد والظلم والخيانة؛ فإنهم يستحقّون التقرّيع والملامة.

إنّ أيّ واحد يستقيم حتى آخر عمره على كلمة (لا إله إلا الله) ولكنه ما أن يقطع حبل اتصاله بالله فيقول: الدنيا.. الرئاسة. فإنه يسقط في أسفل السافلين.

عاقبة (حسان) عبرة للمعتبرين

كان (حسان بن ثابت) من أجلاء الصحابة، وكان مسلماً مدح الرسول ﷺ في حياته، وكان أول من قال في واقعة غدير خم شعراً، حتى أنّ الرسول ﷺ دعا له: «لا تزال يا حسان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك..»^(١).

ويعتبر (الشيخ المفيد) تقييد الرسول ﷺ للتأييد بكلمة (ما نصرتنا) واحدة من معجزاته ﷺ أي ما دمت معنا، ولم تمل نحو مخالفتنا، ولكن إن ملت نحو مخالفتنا فلا تأيد.

وكان هذا الذي حدث، إذ بعد وفاة رسول الله ﷺ ووقوع فتنة (معاوية)، فقد أغروا (حسان) بالمال، وتحوّل ذاك الذي مدح علياً في (غدير خم) إلى شاعر يقول السوء في علي عليه السلام وهو نفسه الذي قال في غدير خم: وكن للذي عادى علياً معادياً^(٢).

(أبو هريرة) نموذج آخر لعاقبة السوء

كان (أبو هريرة) من المهاجرين، ولكن هل استقام على الجادة؟ يقولون إن

(١) سفينة البحار للقمي: ج ١، ص ٢٧٩.

(٢) الغدير للأميني: ج ١.

(عائشة) أخرجت يوماً رأسها من غرفتها، فرأت (أبا هريرة) وهو يمر في مركب جليل وحوله الغلمان، فقالت له: من أين جئت بكل هذا، ولم تكن تملك شيئاً؟ فقال: لقد وضعت من أحاديث الكذب على زوجك حتى وصلت إلى هذا المقام.

أيّ دماء أهرقها مثل هؤلاء المهاجرين كطلحة والزبير؟ وكم أقاموا من المفاسد؟ وأخيراً هل استقاموا على الطريق الصحيح، أم أنهم تركوا الحق من أجل الدنيا وشهواتها: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٨]. ما هي فائدة هجرة مثل هذه الشخصيات؟

اللهم اجعل آخر ساعاتنا أفضل الساعات

علينا جميعاً أن نخشى عاقبة السوء، وندعو من أجل ذلك. اللهم بحق محمد وآل محمد ارحمنا، واجعل عواقب أمورنا خيراً، وكما جاء في دعاء الإمام السجاد عليه السلام: «واختم لنا بالتّي هي أحمد عاقبة»^(١). لأنّ من الممكن أن يأتي الإنسان إلى الطريق، ولكن يحدث له أمر ما يجعله يسقط وهو لا يعلم.

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء ٣٣.

«٣»

شكوى حرّى من قلب محترق «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم»

«وأقبلت في لمةٍ من حفدتها ونساء قومها، تطأ ذبولها، ما تخرم مشيتها مشية رسول الله ﷺ، حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار وغيرهم، فنيطت دونها ملاءة».

وقد هزّ حضور بضعة النبي ﷺ فاطمة الزهراء ﷺ جميع الحاضرين، وضربوا لها سترًا احتراماً وتجليلاً لها، لتجلس خلفه وتحدث.

«فجلست، ثمّ أنت أنّة، أجهش القوم بالبكاء» على فراق أبيها ﷺ فخيم الحزن على الجميع، وانحدرت دموعهم، وصرخوا جميعاً: وامحمداه، خصوصاً بعد أن تحدثت الزهراء ﷺ التي يشبه منطقتها منق رسول الله ﷺ.

«فارتجّ المجلس، ثم أمهلت هنيئة، حتى إذا سكن نشيج القوم، وهدأت فورتهم، افتتحت الكلام بحمد الله والثناء عليه والصلاة على رسوله، فعاد القوم إلى بكائهم، فلمّا أمسكوا عادت في كلامها، فقالت ﷺ: الحمد لله على ما أنعم».

ولأن كلّ من لم يشكر ويحمد الله فإنّ مثله مثل ذوات الأربع، والثناء مختص بالله لنعمه الوافرة التي أعطاها لعباده، فإنك أتى التفتّ تجد نعمة الله حاضرة.

الإلهامات الإلهية في الموجودات

«وله الشكر على ما ألهم، والثناء بما قدّم من عموم نِعَم ابتدأها، وسبوغ آلاء أسداها، وتمام مننٍ والاهأ، جمٌّ عن الإحصاء عددها، ونأى عن الجزاء أمدها، وتفاوت عن الإدراك أبدها، وندبهم لاستزادتها بالشكر لاتصالها، واستحمد إلى الخلائق بإجزالها، وثنى بالندب إلى أمثالها»، وهذه إشارة على النعم الباطنية والمعنوية، أي النعم التي لا يمكن لمسها بالحس مثل الإلهام والخصائص التي وضعها الله سبحانه وتعالى في موجودات هذا الكون من النباتات والحيوانات والإنسان، فالنبات في حدود عالمه الخاص عنده الهامات، فمثلاً هناك بعض النباتات تتحرك وتمتد على الأرض حتى تصطدم بمانع كجدار أو طريق فتتحرف وتواصل امتدادها، والأشجار جعلت لها أغصان وأوراق لكي تتمكن من الحصول على ضوء الشمس. وغير ذلك من الإلهامات الموجودة في عالم النبات.

والإلهامات الموجودة في الحيوانات هي التي علمت الحمل الصغير بأن الذئب عدوُّ له، وعليه أن يفر منه. ومن ألهم الطير أنّ هذه الحبة صالحة وتلك غير صالحة؟ ومن ألهم الحيوانات لكي تميّز بين العلف الطيّب والعلف المسموم غير الله؟ ومن غير الله ألهم نحل العسل كيفية بناء بيوتها وامتصاص رحيق الأزهار المعطرة لتصنع منه العسل: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّعْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّبَالِ يُونًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا﴾ [النحل: ٧٠ - ٧١].

وهكذا فإنّ كل حيوان يهتدي إلى الطريق بعوامل تكوينية يخلقها الله فيه، بحيث يحدّد ما ينفعه وما يضرّه، فيتقرب مما ينفعه، ويتبعد عما يضرّه.

وتلك هي النعم الظاهرة التي أشارت إليها السيدة الزهراء عليها السلام في بداية خطبتها.

الإلهام التكويني عند الحيوانات

منح الله لكل حيوان ما يهديه في حياته، وقد جاء في (حياة الحيوان)، أن كل حيوان يداوي نفسه بنفسه عن طريق الفطرة عندما يصاب بأي مرض، فهو يعلم دواءه ويتحرك باتجاهه ليطلبه.

إنّ بعض أنواع الأفاعي المعمّرة يبلغ بها العمر ألف سنة فتعمى عيناها، وهي تعلم بشكل غريزي أنّ هناك نوعاً من الأعشاب عندما يحتك بعينها يعود النور إليهما، فتخرج من حجرها نحو ذلك العشب وتمسح عيونها به، فيعود إليها بصرها، ثم تعود إلى مكانها.

وهناك حيوان آخر وهو أحد أنواع (السنونو) عندما يصاب طفله بمرض اليرقان، يعلم بشكل غريزي أن علاج مرض الطفل هو أحد أنواع الصخور في (الهند)، فيقطع هذا الحيوان الصحارى والبلدان بحثاً عن الحجر، حتى يصل إليه، ويعود به يحمله في منقاره، ويدلّك به طفله فيشفى. ولذلك فإنّ البعض ممن يحاولون الحصول على ذلك الحجر يلجأون إلى طلي فراخ هذا الطير بلون أصفر، فيظنّ الحيوان أنّ فراخه مريضة فيبدأ رحلته الطويلة ويعود بالحجر.

الإلهامات الخاصة بالمؤمن

ولكنّ الإلهامات الخاصة بالبشر هي أوسع وأكثر مما عليه عند الحيوان، ولكن هذا لا يشمل جميع البشر، بل إنه يختص بأولئك المؤمنين الذين لم يجعلوا للهوى والشهوات سلطة عليهم أي أنهم الذين يعبدون الله ولا يعبدون هواهم وشهواتهم.

الأمانة صفة مبالغة من الأمر، ولسنا نتحدث هنا مع أولئك الذين يبنون حياتهم على أساس التبعية لهوى النفس، ولكن أولئك الذين يبنون حياتهم على

أساس القيام بكل ما يُرضي الله، إذا فعلوا ذلك وأصبحوا كذلك فإن الله سبحانه وتعالى يُلهمهم: ﴿فَالْمَهْمَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [مریم: ٨].

فالنفس المُلهمة إذاً تتوفر عند أولئك الذين يبنون حياتهم على أساس مخالفة هوى النفس، وليس على أساس ما تأمره به نفسه وهواه.

وعلى سبيل المثال يحدث أحياناً أن يكون الإنسان جالساً فيخطر بباله نداء: أن قم واذهب لإنجاز عمل الخير الفلاني. أو يا فلان إقرأ الدعاء. وكذلك يحدث الأمر في النهي عن الشر، حيث يخطر بقلبه أن لا تذهب إلى المكان الفلاني، فيعرف فيما بعد أنه لو ذهب إلى ذلك المكان لارتكب محرماً.

هذه الإلهامات لها قيمة كبيرة جداً، ولكن ليس كل الناس يعرفون قيمتها.. بل يعرفها فقط أولئك الذين قرروا مخالفة هوى النفس ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ نَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

يسمعُ صوت الغيب

يقول صاحب (أسرار الصلاة).. لقد حدث مرات عديدة أن سمعت صوتاً يناديني وأنا نائم: يا فلان انهض لقد تأخر الوقت، فأستيقظ ولا أجد أحداً.. ولكن أنتبه إلى أن وقت صلاة الليل قد أصبح ضيقاً.

إن سماع صوت الغيب، ومرور الإلهام في القلب، إنما يكون من نصيب أولئك الذين يقررون السير في طريق العبودية لله، وليس لأولئك اللاعبين العابثين. والذي يقرر أن يزكي نفسه فإنّ الإلهامات تترى عليه إلى درجة يحصل عنده الاطمئنان، وعندما تحصل عنده حالة النفس المطمئنة: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبِتَةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨].

نعمٌ دون طلب

«والثناء بما قدّم» أي الحمد لله على النعم التي لا تعدّ ولا تحصى التي وهبها الله تعالى للإنسان دون سعي منه: «يا مبتدئ بالنعم قبل استحقاقها».

وفي (الصحيفة السجادية) يقول الإمام السجاد عليه السلام في أول دعاء: «والحمد لله الذي لو حبس عن عبادته معرفة حمده على ما أبلاه من مننه المتتابعة وأسبغ عليهم من نعمه المتظاهرة، لتصرّفوا في مننه فلم يحمده، وتوسّعوا في رزقه فلم يشكروه، ولو كانوا كذلك لخرجوا من حدود الإنسانية إلى حدّ البهيمة»^(١).

ومهما كان الإنسان، دكتوراً أو فيلسوفاً، وكان منكرًا لنعمة البارئ عزّ وجلّ، فإنه يكون كالحيوان في عالم الروح.. ففي هذا العالم يكون شكله شكل الأدميين، وفي الآخرة يكون ظاهره مثل باطنه على أشكال الحيوانات المختلفة.

في كل المصاعب يجب أن لا تُنسى نعم الله

عندما جاءت السيدة الزهراء عليها السلام إلى المسجد وألقت خطبتها، كان ضلعها مكسوراً، وقواها ضعيفة، وألم فراق أبيها يكويها ويزيد المصيبة حزناً وألماً، واغتصاب الخلافة من زوجها واغتصاب حقها في (فدك).. كانت مصيبة أخرى إضافية، ولكنها مع ذلك لم تنس الإشارة إلى النعم الإلهية.

وعلى المؤمن أن لا ينسى النعم الإلهية مهما كانت مصيبته، فلو قايس الإنسان المصاب بالنكبات بين تلك النكبات وبين النعم التي أنعم الله عليه بها؛ لما كانت بنسبة واحد إلى الألف من نعمة العقل مثلاً، أو العين، أو الأذن، فما دام رأسك سالمًا فقل دائماً: الحمد لله. ولا تكرر دائماً الشكوى، لأنها من كفران النعمة.

(١) الصحيفة السجادية: الدعاء ١.

وصية الإمام الهادي عليه السلام لأبي هاشم

كان (أبو هاشم) من أصحاب الإمام الهادي عليه السلام وكان عالماً كبيراً، وكان مديناً بمال لبعض الدائنين الذين ضغطوا عليه لاستحصال ديونهم، ولما لم يجد وسيلة يقضي بها دينه؛ فكر بالذهاب إلى الإمام الهادي عليه السلام ولما دخل على الإمام، قبل أن يفتح فمه بالكلام، قال له الإمام عليه السلام: يا أبا هاشم أيما نعمة إلهية طلبتها فاشكر الله.

أين كان (أبو هاشم) يفكر، وإلى أين وجهه الإمام، فأصابته الحيرة ولم يقل شيئاً، فقال له الإمام: إن الله رزقك العافية، فأعانك على الطاعة.

لم يكن هناك شيء أصعب على الإمام الحسين عليه السلام وأهل بيته من ليلة عاشوراء، ومع ذلك فإن الإمام عليه السلام يشرع خطبته بقوله: «الحمد لله الذي أكرمنا بالنبوة».

والسيدة زينب عليها السلام تبدأ بالحمد والثناء على الله سبحانه وتعالى في مجلس (عبيد الله بن زياد) وهي بتلك الحالة الصعبة.

أما أنت أيها القارئ العزيز، فعندما تشعر بوجود نقص في حياتك فاشكر الله على ذلك، واعتبر ذلك من نعم الله عليك، فذلك خير وبركة لك وأنت لا تعلم، وعلى الإنسان أن لا ينسى نعم الله التي لا تُعدّ ولا تُحصى.

يا ابن الأربعين عاماً، عندما كان عمرك أربع سنوات، وكنت تريد نقوداً لتشتري بها شيئاً تأكله، ولكنه كان غير ملائم لك، فماذا كنت تفعل؟. كنت تطلب من الله أن يأخذ عمر والدك، وتنظر إليه وكأنه لم يعطك أي شيء، وتظنّ أنه يتصرّف معك وفق رغبته، في حين أنه كان يطلب صلاحك.

يا ابن الأربعين إنك تفعل مع ربك نفس الشيء حين تشعر بالفاقة والحاجة في حياتك.

إن السيدة الزهراء عليها السلام كانت إنساناً كاملاً، فهي على الرغم من مصائبها

وآلامها، لم تغفل عن تعداد نعم الله، ولو أنها جاءت تشكو، لتحقيق الحق، ولكنها قبل كل شيء ذكرت نعم الله وشكرته على ما تفضل به على عباده.

المؤمن ثمرة لعالم الوجود

كان الكلام حول بيان عظمة المؤمن وعلو مقام الإيمان، فأصل خلق العالم من الماديات والروحيات إنما من أجل إيجاد المؤمن، فلو لم يكن على الكرة الأرضية إلا مؤمن واحد لكان ذلك كافياً «لو لم يكن في الأرض إلا مؤمن واحد، لأغنيته عن جميع خلقي، وجعلت له من إيمانه أنساً لا يحتاج إلى أحد..»^(١) ويدور هذا العالم ببركة وجوده وتثمر الأشجار.

إنّ مقام الإيمان والمؤمن عجيب، فكل هذا الوجود لأجله، هذه الموجودات العظيمة وهذه المليارات من البشر والحيوان والنبات، والأزهار والأثمار كلها لأجل هذا الإنسان الذي وصل إلى المقام الروحي الذي يحصل عليه عن طريق اليقين - أولو العلم - الذين هم في مصافّ الملائكة في الإيمان بالله والشهادة بوحدايته ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٦] بحيث تغلب عنده الروح على المادة بما لا يدع أيّ مجال للشك والريب داخله إلى درجة لو وقف كل العالم ضده، فإنّ ذلك لا يقلل من يقينه أبداً.

يقين الفلاح بالتوحيد

ونذكر قصة ذلك العالم مع الفلاح في الصحراء، حيث نقلت قصة تقول أن عالماً سأل فلاحاً يحمل بيده مجرفة: ما هي أصول دينك؟ قال: أولاً التوحيد، قلت: ما هو دليلك؟ قال: لا شك في أنّ الله واحد. قلت: حسناً،

(١) الكافي للكليني: ج ٢، ص ٢٤٥.

ولكن إذا سألك أحدهم؟ قال: هل هناك عاقل يقول بوجود إله غير الله؟ قلت: افترض ذلك، قال: أضربه بهذه المجرفة التي في يدي على رأسه.

ويقال إن هذا العالم تحسّر وقال: هذا هو الإيمان الحقيقي الذي لا ريب فيه ولا وسوسة، فإنّ القلب إذا كان سالماً، فليس فيه ريب ولا شك، لأنّ الريب والشك إنما يأتي من أوساخ النفس وتلوّثها.

المطلوب ليس العلم الكسبي

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [الحشر: ٢٢] وتقول الملائكة كذلك: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وكذلك يقول أولو العلم الذي حصل عندهم اليقين، والمراد بالعلم، ليس العلم الاصطلاحي والفلسفي الذي صنعه بالصغرى والكبرى، أولو العلم يعني أولئك الذين أصبحوا من أهل اليقين، بحيث تتضح الأمور أمامهم. وكما يقول (العلامة الحلي) في (الباب الحادي عشر): اتفقت كلمة جميع العلماء من المتقدمين والمتأخرين على بطلان الاعتقاد عن طريق التقليد، فهو يحتاج إلى دليل. أي أنّ التقليد في الإيمان لا فائدة منه، بل يجب أن يكون الإيمان داخلياً.

في صدر الإسلام كان يقال لكل من يريد أن يصبح مسلماً: قل بيقين: «لا إله إلا الله»، وإلا فليس من فائدة في الاعتقاد، ومن باب أننا وجدنا آباءنا وأجدادنا فقد قالوا له: قل. فقال. قالوا له: قل القيامة حق. فقال: القيامة حق. ترديد دون اعتقاد، مثل هذا الإيمان لا فائدة منه.

فالإيمان يجب أن ينطلق على أساس اليقين، وليس على أساس التقليد، بحيث لا يدع مجالاً لتسرّب الشكّ والريب إلى قلبه؛ بل يحصّن قلبه باليقين وليس بالتقليد، ويجب أن يكون قلبه محصناً باليقين في أن صاحب الزمان حيٌّ يرزق، إنه غائب وسيظهر حتماً في يوم ما بعد أن تملأ الأرض جوراً، فيبسط العدل.. ويكون عنده بذلك اطمئنان.

إنّ الذين لم يحصل عندهم الاطمئنان واليقين بالله خلال حياتهم، لا يستطيعون جواباً في القبر عندما يُسألون: من ربكم؟

جاء في الدعاء المأثور: «اللهم لفتننا عقائدنا الحقّة في تلك الساعة».

أردت أن أوضح أنّ التقليد في أصول العقائد باطلٌ، وليس لأجل أن يذهب الإنسان لقراءة المنطق أو علم الكلام، بل من أجل أن يحصل عنده اليقين بهذه المعاني، ودليله هو الفطرة نفسها.

مثل المرأة العجوز التي كانت مشغولة بغزل الصوف فسألوها: ما هو دليلك على خلق الله للعالم؟ فرفعت يدها فوراً عن المغزل وقالت: إنّ مغزلاً بهذا الحجم الصغير لا يدور دون وجود يد تحركه، فهل يمكن أن يدور هذا الفلك العظيم دون يد تحركه؟

الولاية مع الإيمان

إنّ الارتباط بمعدن الإيمان، أي النجوم الزاهرة والنفوس الطاهرة من آل محمد ﷺ وقبول ولايتهم مما يجلب الإيمان.

وكما جاء في الوصايا والتأكيد على قبول والإيمان بحكومة آل محمد ﷺ قبولاً وإيماناً قلبياً لأنّ الحق في هذه الحكومة: «يا علي حبك إيمان، وبغضك كفر»، وهذا لا يعني أن نردّد إسم الحسن والحسين، بل يعني أنّ الإيمان الحقيقي الصحيح بحاكمية هؤلاء على وجودنا وإطاعة كل ما قاله الإمام علي ﷺ.

فهؤلاء حجج الله على عباده، وهم أدلاء الله، أي أنّ العبد يأخذ الأوامر منهم، فهذا هو الالتزام بإطاعة السادة، وهذا هو نفس الإيمان، فالخضوع والخشوع القلبى لأولياء الله وحججه على عباده هو من علامات الإيمان.

الاعتقاد بالعالم الآخر

ورد في تعقيبات الصلاة: «الموت حق»، أي يجب أن تعلم أنك عندما

تموت وترد على عالم أفضل ليس ذلك من العيب، بل إن الموت هو تغيير للكساء وحياة جديدة.. لقد كنت تعيش في حياة محدودة وصغيرة، والآن أصبحت تعيش في حياة واسعة لا وجع ولا نكد فيها: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧].

وكما أنه ليس هناك شك في يوم القيامة.. فعليك أيها الإنسان أن تتجنب حصول الشك في نفسك ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧] لأن الوسواس لا تترك إلا الخراب وتلوث القلب، وقطع جذور الإيمان.

إن نظرة مشبوهة إلى المحرمات هي بمثابة السهم المسموم الذي يصيب القلب، فهل مثل هذا القلب يستطيع أن يرى الله؟ أو أن يرى محمداً ﷺ؟ إن هذا السهم هو مقدمة للريب والوسوسة.

الواجبات والإيمان

إن الواجبات الإلهية فرضت على الإنسان من أجل تعميق وترسيخ الإيمان في قلبه، الصلاة في الليل والنهار، حج بيت الله الحرام، كل تلك الواجبات إنما هي مقدمات للإيمان، وقصد القربة في أداؤها واجب، أي التوجه إلى أن أداءها مما يوجب القرب من الله سبحانه وتعالى، التقرب إلى الذي خلق الإنسان، حتى يصل عن طريق هذه الجزئيات إلى الكلّي، وهذا الكلّي هو الإيمان.

ومن الأفضل أن نذكر شواهد ذلك من القرآن الكريم، فالصلاة في الليل والنهار لها أهمية كبيرة: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] والمقصود بها أن ذكر الله يبعث النور في قلب الإنسان، هذا النور الذي لا ينطفىء.. فالحركات الجسميّة تفتنى، أما الذي يبقى فهو العمل.

نتيجة هذه الحركات التي يؤديها الإنسان يجب أن تكون إيجابية في الكلّي، بحيث تستقرّ في ضمير الإنسان ولا تفتنى ولا تزول ما دام على الأرض، إنسان

يعيش على الأرض ومن ثم تحت الأرض.. ولكن الإيمان الذي هو أمرٌ قلبي وإلهي يوجد ببركة هذه العبادة.

إنّ الإيمان لا يحصل عند الإنسان وهو في بطن أمه، كما أنه لا يحصل دفعة واحدة، وإنما ينمو بالتدرّج. إنّ الإنسان الصائم في شهر رمضان الذي فرضه الله على المسلمين، يشبه الملائكة. إنّ الصوم فُرض على الإنسان ليحصل الإنسان على ملكة التقوى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لِمَلَّكُمْ تَنَفُّونَ﴾ [البقرة: 179].

إنّ التجنّب والخوف من ارتكاب الإثم، والتقرّب إلى الله عن طريق ذلك يحصل عن طريق التمرين اليومي، وبعد مرور سنوات سيشعر الإنسان في داخله بآثار الإيمان، ولهذا النور الإيماني الداخلي آثار عظيمة وكثيرة.

علامات المؤمن

جاء في رواية شريفة: «رُفِعَ إلى رسول الله ﷺ قومٌ في بعض غزواته، فقال ﷺ: ما للقوم؟ قالوا: مؤمنون، قال: فما بلغ أيمانكم؟» قالوا: الصبر على البلاء، والشكر على الرخاء، والرضى على القضاء. فقال ﷺ: «علماء حكماء كادوا من الفقه أن يكونوا أنبياء»^(١).

وحدة القلب واللسان

جاء في الدعاء: «أسألك إيماناً تُباشِرُ به قلبي» ويروى أنّ الذي تكون آخر جملة في حياته: «لا إله إلا الله» يكون من أهل الجنة.

ويسأل الراوي الإمام: فما مصير الذي لا يستطيع أن يحرك لسانه ويعجز عن النطق؟ فيقول الإمام: يكفي ما في قلبه، فاللسان ترجمان القلب. نسأل الله سبحانه وتعالى أن يثبتنا على القول الثابت.

(١) أصول الكافي.

علم التوحيد

ثم قالت ﷺ: «وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، كلمة جعل الإخلاص تأويلها، وضمن القلوب موصولها، وأنار في التفكير معقولها، الممتنع من الإبصار رؤيته، ومن الألسن صفته، ومن الأوهام كفيته».

علم التوحيد نجاة من النار الأبدية

وبعد أن حمدت السيدة الزهراء ﷺ الله سبحانه وتعالى وأنتت عليه، وأوضحت أن نعم الله لا يحصيها عد ولا حد، بعد ذلك أوضحت عين العلم وحقيقة العلم الذي اكتسبه وفق ذلك القانون.

إن الذي يذهب إلى الآخرة حاملاً معه ذلك العلم، فإنه لن يكون خالداً في النار؛ بل سيكون من أهل النجاة، فما هو هذا العلم؟ إنه علم اليقين بوحدة الله.

الشهادة عن يقين

«وأشهد أن لا إله إلا الله» (الشهادة) من الشهود بمعنى الحضور، فالشخص الذي يرى شيئاً أو يسمع شيئاً، ويتيقن منه، فإنه يكون مستعداً ليقول: أشهد. والشهادة التي يعطيها إذا كانت مما يُرى بالعين فإنه يقول: رأيت الشيء الفلاني بعيني. أما إذا كان ذلك الشيء مما يُعد من عالم الحقيقة والمعنى، يراه بقلبه، أي ببصيرته، فإنه عند ذلك يقول: أشهد.

والخلاصة فإن الإنسان ببركة التدبّر والتفكير والتأمل في إنشاء جميع المخلوقات، يرى وحدة الخلق، فإنه يصل إلى الإيمان بوحدة الخالق.

ويرى هذا الارتباط بين المخلوقات فإنه يتيقن أن الذي خلق المعدة والأذن وجهاز الهضم هو خالق واحد، وهو نفسه الذي خلق النباتات وسائر المأكولات.

ويرى ارتباط الأرض مع الذي فوقها، فإنه يتيقن أن خالق السحاب هو

نفسه خالق الأرض والبحر والشمس، وهذه كلها صورٌ من قدرة الواحد، وكل واحدة من هذه المخلوقات تؤدي دورها بشكل ينسجم ويرتبط بالآخرين.

التوحيد فطرة البشر

إن نقاء القلب وخلوّه من الشوائب كما جاء وصفه في جملة: «ضمن القلوب بموصولها» يفسّرها البعض على أساس أنّ المقصود بها حقيقتها أو معناها، أي حقيقة التوحيد الذي جعله الله فطرياً لدى البشر، فكل قلب يؤمن بـ«لا إله إلا الله، خالق ما يُرى وما لا يُرى».

حقيقة التوحيد للصانع والخالق والرازق.. جعلها الله فطرية.. يؤمن بها الإنسان عندما يعود إلى قلبه النقي.. حيث يجد من خلال فطرته السليمة الاطمئنان والإيمان بوحدانية الخالق، كما يعتقد بأن الإنسان مخلوقاً.

الشهادة دون المعرفة ليست صحيحة

من الخطأ أن يُدلي الإنسان بشهادته على غير علم، فهو يقول: أشهد. عندما يتيقن الإيمان بـ«لا إله إلا الله» ويستقر في سويداء قلبه. إنّ الله لم يسلب من أحد فطرته التي أعطاه إياها، وإن الله سبحانه وتعالى ليس جسماً حتى تراه العين، ومن المعقول أن يُرى بعين البصيرة التي تستقرّ في القلب، وهي أعلى وأقوى من العين الظاهرية: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

إنّ هناك قدرة وقوة واحدة هي التي تدير هذا العالم.. وكل الوجود خاضع لإرادة هذه القوة.

وهذا هو التوحيد الذي يحبه الله، ويحبّ أن يدركه البشر ويؤمنوا به، وقد أقسم أنّ الموحّدين لا يخلدون في جهنم، أما أهل الكفر والمشركين فإنهم لا يذوقون طعم الجنة، ومن هنا فإنّ معنى التوحيد السامي الذي أوضحتُه السيدة الزهراء عليها السلام بقولها: «وأنا في التفكير معقولها».

ومعنى هذا أن إدراك حقيقة التوحيد إنما هو بمثابة النور العظيم.. الذي ينير جهاز التفكير لدى الإنسان المؤمن، وكلما ازداد إدراكه؛ كلما ازداد نوره، ويكون في سلوكه وتصرفاته مثل نور في نور.

أما الذي لم يكن يوماً من أهل التوحيد.. أي لا يملك توثيق إدراك أوضح الحقائق فإن كل ما يكتبه ويقوله إنما هي مجرد خيالات وأوهام.. إنها ظلمات بعضها فوق بعض، إن بعض الكتب التي يكتبها الأجانب، عندما تقرأها تزيدك ظلمة فوق ظلمات.

ونعود لأصل الموضوع: إن إعطاء الشهادة بدون معرفة لا فائدة منها، وحتى القرآن المجيد يقول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: ١٩]، و﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ١٨].

والخلاصة فإن من الواجب على الإنسان أن يكون على يقين حينما يقسم أنه يستطيع أن يشهد ببصيرته، وكنموذج على أهمية الشهادة بالتوحيد، فإن (الشهيد الثاني) في (شرح اللمعة) ينقل رواية عن رسول الله ﷺ توضح أن الذي يكون آخر نطقه في الحياة كلمة لا إله إلا الله؛ فإنه يكون من أهل الجنة.

والسيدة الزهراء عليها السلام تشهد أن لا إله إلا الله.. ثم تستطرد لتوضح جملة من الحقائق «كلمة جعل الإخلاص تأويلها» واعلم أن المقصود من (كلمة) هي ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ وتأويلها، أي المعنى الباطني والحقيقي لها هو الإخلاص، فإذا توفّر الإخلاص في الإيمان بها؛ فإن الجنة هي المأوى، وإن كان الإخلاص ظاهرياً؛ فليس من وراء ذلك فائدة ولا قيمة لها.

ماذا يعني الإخلاص؟

الإخلاص من الخلوص من أي شائبة، وعندما يقولون: ماء خالص. فإنهم يقصدون نقاء من أي شيء آخر.

والإخلاص في التوحيد يعني الإيمان بأن ليس هناك غير الله مؤثراً وخالقاً

ورازقاً وحلالاً للمشاكل. والإخلاص في العبودية يعني عدم الخضوع والتذلل لغير الله. فمهما بلغ الإنسان من المقام والموقع فإنه مخلوق مثلك: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ [الفرقان: ٣]. وكذلك ﴿وَإِن يَسْأَلْكُمُ اللَّهُ بَٰيْضًا بَٰيْضًا فَلَا يَكْشِفْ لَهُ إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ١٧].

كل عبادة يجب أن تكون خالصة لله

إنّ الإخلاص في العبادة والعبودية يعني الخضوع والذلة والخشوع من أجل الله فقط، وليس من أجل الأسباب الأخرى، ولا يعني ذلك تجنب الأسباب؛ بل أنك عندما تذهب إلى الدكتور بسبب حاجتك للدواء، فإن الشفاء بيد الله، فاطلب الشفاء من الله.

ففي بعض الأحيان تشعر أنك تدفع الخمس، لكن هناك أسباباً وأغراضاً أخرى ترافق السبب الأصلي.. فإذا كنت تعتبر نفسك موحداً فما معنى هذه الأغراض والأهداف الشيطانية؟ وما معنى طلب الجاه عند السلطان أو الناس؟ إنّ أيّ حركة تصدر من الإنسان وفيها ذرة من الرياء وطلب السمعة إنما هي ضد الإخلاص وليس صاحبها بموحد.

إنّ حقيقة ولبّ كلمة (لا إله إلا الله) هي الإخلاص، وعندما يُفتقد الإخلاص في أيّ عمل فإنّما يكون مثل الجلد الخاوي، فكيف يستطيع المرء حينها أن يقول: أشهد؟

أما زلت تشك في أنّ الله سبحانه وتعالى ملك الدنيا والآخرة؟ أن الرزق الذي تحصل عليه اليوم فهو من الرازق، والرزق الذي يمنحه لأهلك وأبيك وهما في عالم البرزخ فإنه هو الذي يرزقهم، وليس فقط في الدنيا إله، وإنما هو في الآخرة إله أيضاً.

التوحيد منبع كل عمل خير

كانت كلمة التوحيد أول كلمة نطق بها الرسول محمد ﷺ في دعوته،

وآخر كلمة كذلك، بل إنّ كمال الأخلاق الإنسانية ينبع من التوحيد، حيث تصدر منها كل معاني: التوكل، الصبر، الرضا، والتسليم، والكرم، فعندما يتطهر الإنسان من الشرك، فإنه يكون قد تطهر من كل الرذائل.

إنّ صفاتاً مثل: الأنانية، والغرور، وعبادة الذات، والبخل، والنفاق هي كلها من آثار الشرك، إن مرض الشرك يعني أن يضع الإنسان نفسه أو شخصاً آخر في مقابل الله سبحانه وتعالى، وهذا ضد التوحيد.

وإذا كان الله هو الخالق، فلم يدّعي الإنسان الألوهية، إنّ من يرى في نفسه الاستقلال إنما يشرك بالله، ومن يجعل من نفسه مقابل الله سبحانه وتعالى، فإنما هو مشرك ولو قال كلمة (لا إله إلا الله).

توجّه القلوب نحو الله

«وضمّن القلوب موصولها» ربط القلوب والفترة بالتوحيد، ولكن مع الأسف تحوّلت هذه الفترة إلى الشك والدمار من كثرة ارتكاب الذنوب والمعاصي، حتى زالت هذه الفترة ولم تعد قادرة على إدراك التوحيد، كمن يغطي زجاجة العطر الحقيقي بالأوساخ والوحل حتى لا يستطيع القلب أن يرى التوحيد ﴿وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إنّ العين التي يرى الإنسان بها علامات التوحيد لا تجتمع مع العين التي ينظر بها الإنسان بشهوة حيوانية إلى المحرّمات.

السهم المسموم وعين القلب

لذا فإن النظرة إلى المرأة الأجنبية والشاب الأمرد بشهوة، إنما هو مثل «سهم مسموم من سهام إبليس»... والذي يفعل ذلك لا يلتفت إلى الآثار السيئة لكثرة ما تعود على ذلك، وإنّ الشكوك والوساوس تبدأ من هنا.. ولن يكون حينها باستطاعة القلب أن يحصل على اليقين لكثرة ما أصيب من طعنات السهام المسمومة.

فأنت أيها الإنسان تريد أن تبقى مصوناً من الأمراض، ولكنك مع ذلك تنغمس في الملذات ولا تلتزم بقيد، وهيئات أن يحصل ذلك، فهذان أمران لا يجتمعان.

يقول الإمام السجاد عليه السلام: إنّ ولايتنا لا تكون بدون ورع شديد، وأنت أيها الإنسان تنغمس وتسقط في كل الملذات والأوساخ، ثم تريد عندها أن تحافظ على يقينك بالتوحيد.

تنزيه رؤية الله بالعين الحيوانية

تقولون: كيف نؤمن برّب لم نره؟ وإذا رأيتموه بهذه العين، فهو جسم، له ظلّ، وله ملابس، في حين أنّ الله لا يمكن أن تراه عيوننا، وحتى لو كان جسماً لطيفاً فلا يمكن أن تراه العيون، إنّ الهواء موجود ولكن العيون لا تراه، وهو جسم مركّب. والماء كذلك هو جسم مركّب، فإذا كان نظيفاً زلالاً وهو داخل إناء من الزجاج النظيف الشفاف، فإنك تظن عندما تنظر من بعيد أنّ الإناء خالٍ، في حين أنه ممتلئ بالماء، فكيف باللطيف المطلق؟

إنه الذات الإلهية التي لا تزول، والخالية من أيّ مركّب، إنّ ربك لطيف، وهو ليس بجسم، فإذا صار جسماً فإنه يكون مركّباً، وسيكون عاجزاً وحادثاً وممكناً، ومثل هذا لا يمكن أن يكون خالقاً، إذاً فإنّ عينك الظاهرية لا يمكن أن تراه.

الرؤيا نموذج على الرؤية بدون عين

رأيتم وسمعتم بعض الأشياء في الرؤيا والحوادث، فهل رأيتَ بهذه العين أم سمعتَ بهذه الأذن؟ إنّ في ذاتك عين أخرى بإمكانها أن تدرك ما وراء المادة، في سرّك، في حقيقتك عين أخرى بإمكانها أن ترى الرسول عليه السلام أو الإمام علي عليه السلام.

إنّ في ذاتك سمعٌ وبصرٌ ولسان، وهذه الأجهزة موجودة في اليقظة أيضاً،

لكنك اليوم تتكلم بواسطة نطقك الذاتي وبلا لسان، يقطه عينيك تريك الأشياء المادية، لكن رؤيتك في النوم لطيفة، ترى الأجسام التي لا تلقي الظلال، وتسمع الأصوات.

يمكن رؤية الملائكة والجن بعين البصيرة

إن هذا العالم اللامتناهي مليء بالملائكة والجان والمخلوقات الماورائية بشكل عام.

قال الإمام علي عليه السلام: لا مكان في السماوات إلا وفيه فلك يسبح الله، الهواء مليء بالأصوات، ولكنها أصوات لا تسمعها أذنك، ما دمت في هذا الجسد فمن الصعب أن تسمعها.

نعم، جائز أن يسمع البعض أصوات الأموات في عالم الرؤيا.

الإنكار وليد القلب الأعمى

هل أن ما لا تراه غير موجود؟ (عدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود) هل لمثل هذه الأفكار سبب سوى عمى القلب واختناقه؟ من كثرة ما أذنب القلب صار صغيراً ومخنوقاً، وليس بإمكانه أن يصدق ما وراء الحس.

قل باستمرار: ربّ اشرح لي صدري، اللهم اجعلنا عظماء لكي نعرف العظيم، اجعلنا لطيفين لكي نعرف اللطيف، لكي نفهم، لكي نكبر، لكي نعلو فنصل إلى العليّ العالي.

« ٤ »

«ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلةٍ امتثلها»

الكلام من خطبة السيدة الزهراء عليها السلام في شرح عالم الإيجاد، وكيفية الخلق، ثم الهدف من الإيجاد، أي لأية غاية وهدف خُلق هذا النظام العظيم؟

خُلق العالم من العدم

إنَّ الله جلَّ جلاله خلق هذا العالم الذي نراه، وهذا الجهاز الخلقى والكرة الأرضية والشمس والقمر بشكل إبداعي.. أي بلا مادة أو شيء سابق. الإيجاد من العدم هو الإيجاد، ولم يخلق الله العالم من شيء موجود، هذا الجهاز العظيم خُلق بلا خريطة ولا مثال ولا نموذج.

وبعبارة أخرى، إنَّ أيَّ شخص إذا أراد أن يصنع شيئاً فلا مفرّ لديه من البحث عن مادة وسبب وعلة ليحصل بها على ما يريد، وكذلك يحتاج إلى خريطة مسبقة ليصنع ما يريد، لا بد من وجود نموذج سابق ليوجه على غراره ما يريد.

فالنَّجار مثلاً لا بد أن يمتلك الخشب من أجل أن يصنع السرير، وفضلاً عن المادة الأولية، فإنه بحاجة إلى الخريطة والنموذج، إنه وبلا شك قد رأى سريراً فيما مضى، وحتى لو لم يكن هنالك نموذج فإنه سيرسم الخريطة في ذهنه وينقلها على الورق، ثم يصنع السرير على هديها.

أو المهندس الذي يريد أن يبني بيتاً، فلا بد له من الحصول أولاً على المواد التي يتكوّن البيت منها، ولا يستطيع أن يكتبني بهذا، فهو بحاجة إلى المثال والتخطيط المسبق، يجب أن ينزل بعض الخصوصيات على الورق، أو أن يرى بناءً ويطبق بناءً عليها.

وعلى كل حال فلا بدّ له من نموذج يراه ويصنع على غراره، هذا يخص المخلوق الذي لا مفرّ له من المادة والمثال.

إنّ حضرة الزهراء عليها السلام تريد أن تقول في هذه الخطبة، أيها الإنسان إنّ الخلق الإلهي ليس كما تصنعه أنت، إنّ صنع الله بدون شيء سابق، إنه من إبداعه وتكوينه، ولهذا تقول فيما بعد «كونها بقدرته..» إنّ جهاز الخلق هذا بلا سابقة مادية، أي أنه لم ينتزع من شيء؛ بل الله تعالى خلقه ابتداءً.

لم يكن هنالك نموذج للإيجاد

«بلا احتذاء..» إنّ الله الذي خلقك لم يكن لديه نموذج سابق، وكذلك بقية الحيوانات من: النملة حتى الفيل، وحتى الأشجار والفواكه. والخلاصة إنّ نظام الخلق لم يكن أبداً مسبقاً بمثل ليُحتذى في أمر الخلق، وليس من تخطيط مسبق تصوّره الله، ولكنها الإرادة الإلهية الصرفة قالت: كن. فكان.

وهكذا سائر الموجودات الكبيرة والصغيرة، كلّ أجزاء الخلق أوجدها الله من العدم بدون مادة «لا من شيء» بدون خريطة ونموذج ومثال «بلا احتذاء». إنّ قدرته اللامتناهية وإرادته إذا أرادت شيئاً، فسيتحقّق في الحال.

ظهر هذا الجهاز العظيم بمجرد الإرادة، كل دوران الكواكب والموجودات قائم على مجرد الإرادة.

التفاصيل تمنعنا من التفكير

هنا محل التعجّب، حيث يجب على العاقل أن يرى هذا النظام، إنّ

الدوران المتواصل للسموات والأرض وحركة المجرات عجيبة حقاً، ولا بد من تذكّر عظمة الخالق دائماً.

والواقع أننا من كثرة توغّلنا في التفاصيل لا نفكر في عظمة النظام، منذ أن نستيقظ وحتى ننام لا نحسّ بغير الماديات والأمور الجزئية، الأمور الوهمية للحياة اليومية، أو التدخل في شؤون الآخرين، كلّ هذا يمنعنا من معرفة الله، بهذا الأسلوب وبهذه الطريقة من المستحيل أن نعرف الله ونكتشف نظام الخلق أو نعرف الهدف من الخلق.

الرشد العقلي لأجل الفهم الكلي

لا يتممّع بالرشد العقلي إلاّ الذي يأخذ من الأمور المادية بمقدار الضرورة، ويستخدم بقية عقله في معرفة الكبير، وما دام الإنسان يشغل عقله في معرفة الكبير؛ فسينمو عقله وإدراكه. وما دام الشخص صغيراً فإنه لن يعرف الكبير، ولن يكتسب العقل.

مثال آخر: أرسم شكل طير لطفل لا يتجاوز الرابعة من العمر، وانظر كيف سيستأنس بالرسم، خذ دميةً وأعطها إياه فسوف يستمتع بها أكثر من اللعب مع أخته.

سوف لن يحدث نفسه بأنها مجرد دمية خشبية أو بلاستيكية؛ بل إنّ قيمتها لديه أكثر من البشر، لأنه طفل ولا أهمية للكبار عنده، فإذا أرادوا أن يأخذوا الدمية منه فسيبكي ويتألّم، ولا يمكن أن نلومه لأنه طفل.

أرسم له شكل شجرة وضعها أمامه، فسيستمتع بها، ولا يهتمّ تغريد البلبل في الخارج. سيتعلّق بهذا الشكل لأنّ الشكل صغير، الصغير لا يرى إلاّ الصغير.

أيها الإنسان، كيف يمكنك اكتشاف عظمة نظام الكون ما دمت صغيراً؟

عمر قصير في اللهو واللعب

يا أخي، لست سوى الفكر وما تبقى منك فهو عظامٌ ودمٌ.

إن شأنك ليس إلاً فكرٌ وإدراكك، عن ماذا تبحث يا من تشتعل ناراً جرّاء كلمة واحدة، جرّاء كلمةٍ موهومةٍ لعلها بلا أصلٍ ولا واقع.

وكم يا ترى أنت باقٍ على وجه أرض أساساً؟ ألا تأسف أن تقضي هذا العمر القصير الذي لا يتجاوز الأربعين أو الخمسين عاماً في الأوهام والخرافات.

إذا متَّ صغيراً، فلن تكبر في عالم البرزخ (الدنيا مزرعة الآخرة) وكذلك من المستحيل أن ترجع إلى الدنيا إذا متَّ، هيهات.. ليس أكثر من عمر واحد لك، وبهذا القصر، فكيف تقضيه كلُّه وأنت طفل.

الدنيا لا تساوي عنز

إذا أردت أن تفهم العظمة، فتمعن في هذه الرواية المنقولة عن (أصول الكافي) فقد مرَّ رسول الله ﷺ بصحبة جمع من أصحابه، فوجدوا عنزةً ميتةً تفوح منها رائحة نتنة، فسأل رسول الله ﷺ أصحابه عن قيمة تلك العنزة، فقالوا: إنها لا تساوي شيئاً، فهي عنزة ميتة ومتعفنة. فقال: والله إن الدنيا كلها لا تساوي هذه. وهنا نفهم أن العظيم من لم يتعلق قلبه بهذه الميتة النتنة.

الخلافة وشسع النعل

كان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في زمن خلافته جالساً ذات مرة في خيمة خلال (حرب صفين) يخيطن نعليه الممزقين بيديه، فدخل عليه (ابن عباس) وشاهد الإمام يصلح شسع نعله.

فقال: ليس هذا من شأنك يا أمير المؤمنين.

فقال ﷺ: «والله لديناكم هذه أهون في عيني من عراقٍ خنزير في يد مجذوم»^(١).

من الرئاسة على مجموعة من الناس، حتى نصل إلى عمادة قرية، ماذا تراها تساوي إذا مات الإنسان؟ ماذا منحتك الحياة لتتهم لها كل هذا الاهتمام؟ عليك أن تكبر وتكبر حتى تغدو الحياة الدنيا هيبةً عندك، لكي تفهم عظمة وحجم الآخرة.

عظمة المؤمن بعد الموت

إنَّ المُلْكَ العظيم للمؤمن جُعِلَ من بعد الموت، لكلِّ مؤمن هناك أضعاف أضعاف الدنيا كلها.

عظمة سلطانتك هناك، فإنك لو أردت أن تستضيف الأولين والآخرين كان ذلك بمقدورك، تلك هي الولاية والسلطة الحقَّة.

قال الله ﴿مُلْكًا عَظِيمًا﴾ وهذا لا يتسنَّى إلا إذا احتقرت الدنيا. أما إذا تهافتت على الدنيا بهذا الشكل وحسبتها مُلكاً عظيماً، فكيف ستعرف عظمة الآخرة.

الخلاصة هي أن الإيمان ضعيف بشكل عام، الناس لا تبالي بالآخرة لأنها تكالبت على الدنيا، كل من اهتم بالذي هاهنا، فلن يهتم بالآخرة.

الموت يوقظ النيام

كلنا سمعنا أنّ الإمام علياً ﷺ كان يندب ويقع مغشياً عليه، لأنّ الدنيا صغيرة في عينه، لأنه يدري أنّ العالم العظيم هو عالم القيامة، الدنيا بالنسبة لي ولك كبيرة وعظيمة، ولهذا فالآخرة ستصبح حكاية وقصة حتماً.

(١) نهج البلاغة: قصار الحكم/٢٣٦.

إننا نؤكد على عدم أهمية الدنيا لنعلم أنها فارغة، مسافر على الجسر، ليست سوى قشرة جوز فارغة بلا محتوى، وفجأة ينادون أن فلاناً قد مات.

اسمع من أمير المؤمنين علي عليه السلام: «الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا، نحن الآن جميعاً نيام، ويقظتنا ساعة الموت».

وخلاصة القول إن نظام العالم عظيم جداً، ولكن من يفهم؟ لا يفهم ذلك سوى الإنسان العظيم.

ألقي نظرة إلى عظمة الخلق، وقل عندها: الله أكبر. ولكن بشرط أن تترك اللعب واللهو في هذه الدنيا، ولا تبالي بالحياة، لتحيا عظمة الخلاق في نفسك.

حديث الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام مع نوف

قال نوف: كنت ضيفاً عند أمير المؤمنين علي عليه السلام، وحينما نمت في الليل سمعتُ أنين علي عليه السلام، رأيتَه يمشي وينظر إلى السماء ويتلو آيات آخر سورة آل عمران ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ...﴾.

وعندما اقترب الصباح، جاء فوق رأسي وقال: أراقد أنت أم رامق؟ فقلت: بل رامق، فقال: «يا نوف طوبى للزاهدين في الدنيا، الراغبين في الآخرة، أولئك قوم اتخذوا الأرض بساطاً، وترابها فراشاً».

إلهي، بحق موالاة أمير المؤمنين علي عليه السلام اجعلنا من شيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام، اجعلنا مؤمنين ووقفاً، اجعلنا عظماء واحشرونا مع العظماء.

« ٥ »

«غني عن الخلق»

«ابتدع الأشياء» إنّ الله خلق عالم الوجود هذا بلا مادة أولية ولا سبب، ولكنه أوجده من العدم ابتداءً وبلا نموذج يُحتذى.

أوجد الإنسان قبل أن تكون هنالك صورة سابقة له «من غير حاجة..» وليس حاجة للخلق والإيجاد، لم يخلق الله الخلق ليسد حاجة لديه، أو ليساعده في أموره، ولم يكن بحاجة إلى الخلق إطلاقاً.

«ولا فائدة في تصويرها» وليس لمنفعة تمنحها المخلوقات للخالق، فهذا محال، لا يمكن للفقير المطلق أن ينفع الغني المطلق، إنّ نظام العالم هذا ليس لسدّ حاجة ما، أو لكسب منفعة معيّنة، فالحاجة لا محلّ لها عند الله، ولا لوحشة أراد الله أن يرفعها عن نفسه بالخلائق.. ليس هذا ابداً.

لماذا الخلق؟

الدنيا دار التعبد، وإلا لماذا هذا الخلق؟ ولماذا كلّ هذه العظمة وهذا النظام وهذه المجموعة الشمسية وما تحويه؟ هذا سؤال وجيه يجب على الجميع أن يتبهنوا له، ويفهموا الإجابة عليه، وما هو المقصود من الإيجاد؟

على المرء وبطبيعة العقل أن يعرف لماذا جاء إلى هنا وأين سيذهب، وهل سيفنى بالموت؟ أم أنّ الموت ليس سوى استبدال للبيت؟ التعيس هو من

يذهب من هذه الدار جاهلاً وأعمى، جواب هذه الأسئلة يجب أن يكون بواسطة الوحي، ولا بد أن نأخذ الجواب من القرآن ومن أهل البيت عليهم السلام.

الاقتدار في الخلق

تشرح السيدة الزهراء عليها السلام القرآن وأحاديث أبيها بالإضافة إلى أنها تذكر وبمتهى البلاغة والفصاحة بعض العبارات حول الغاية من الإيجاد «إلاً تثبناً لحكمته، وتنبهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته».

هذا الدوران العظيم الموجود في الخلق ليس إلاً لإبراز القدرة اللانهائية، خلق الإنسان ومنحه الإدراك، ثم أظهر قدرته للبشر، وستعرض لاحقاً للسبب الرئيسي في خلق البشر.

خلق البشر بإرادته مُدركاً (أي البشر) للكليات (فيما إذا أراد الإنسان نفسه أن يفهم الكليات) وعندها أراه الحكمة الإلهية وتفاصيل الخلق في نظام العالم العلوية منها والسفلية، بحيث إذا تأمل الإنسان فسيظلّ منهشاً حقاً.

نظرة لحركات الكرة الأرضية

تأملوا دورة من دورات الكرة الأرضية، كرة بهذه العظمة والحجم وبهذا البُعد عن الشمس، إنّ حركة الأرض سواءً كانت موضعية حول نفسها، أم انتقالية حول الشمس، أو حركتها الشمالية والجنوبية، إنها دقيقة إلى الحدّ الذي يجعلها كل يوم في مكان غير المكان الذي كانت عليه في اليوم السابق من الشمال إلى الجنوب، ويستمر هذا حتى تصل نهاية حركتها الشمالية في الخريف، بعدها تعود الليالي فتصبح طويلة والأيام قصيرة، وهكذا.

في بداية الشتاء تكون نهاية هبوط الكرة الأرضية نحو الجنوب، والتي شبهوها بالمهد، حيث تكون حركتها من الجنوب إلى الشمال، ومن الشمال إلى الجنوب بمقدار ١٨٠ درجة للذهاب، و ١٨٠ درجة للإياب، وتستغرق ٦ أشهر في صعودها، و ٦ أشهر في هبوطها.

إرفع رأسك في فصل الصيف، فستجد الشمس فوق رأسك، ولكن بعد ستة أشهر تجدها أمام عينيك، أي أنها ذهبت نحو الجنوب.

وملخص القول هو مسألة النظام، فالكرة الأرضية تتحرك بلا توقف حتى ليوم واحد، ولو بقيت في نقطة واحدة سبعة أو ثمانية أيام؛ لما وجدت الفصول الأربعة: (الربيع، الصيف، الخريف والشتاء) وبدون الفصول الأربعة لن توجد الموجودات على الكرة الأرضية ولن تنمو، فكيف ستنمو الفواكه والحيوانات على هذه الكرة الترابية إذا لم يأت الربيع؟

تكامل المعرفة لدى الإنسان

حديثنا حول الدقة في الخلق التي تُظهر كلّها حكمة الباري «تثبيتاً لحكمته» جعل الله هذا النظام مليئاً بالحكمة ليظهره لك، وتعرف ذاته الأزلية الخالدة وقدرته وحكمته، وعندها تقول عنّ يقين وعلم ومعرفة (الله أكبر) فالغرض من هذا النظام هو تكميل وترشيد القوى العلمية والعملية لدى الإنسان.

وقد قلتُ مراراً إنّ قوى الإنسان تكتمل هنا ليعرف ويفهم في هذه الكرة الترابية المادية قدرات العالم جيداً، وتظهر في ذاته وعن طريق إدراك الجزئيات تلك الإدراكات الكلية، ليذهب من هذه الديار نحو السعادة الأبدية، ويصل إلى عالم الخلود عن علم ومعرفة واسعة.

نظرة إلى الفيل والبعوضة

خلق الله الفيل بهذه الجثة الكبيرة وهذا الخرطوم المدهش، أيّ قوة في خرطومه هذا؟ يلقه حول الشجرة ويقتلعها من مكانها.

وخلق قبالة البعوضة أيضاً لتقول: (تبارك الله) كلّ ما منح الله للفيل تلك الجثة العظيمة من القدرة، منحه للبعوضة أيضاً، لا يعوز البعوضة شيء بالنسبة للفيل، العظمة والقدرة المودعة في خرطوم الفيل موجودة أيضاً في خرطوم البعوضة.

في بعض الأوقات، تغرس البعوضة إبرتها بسرعة وتمتصّ الدم، وعندما نضع قماشاً خفيفاً على الوجه أو الأيدي نراها تمدُّ خرطومها الدقيق من خلال القماش، وتفعل فعلتها وتمتصّ الدم جيداً وما إن نتحرك حتى تلوذ بالفرار.

الله أكبر، أيُّ اقتدار هذا؟ أيُّ اقتدار ثقب خرطوم البعوضة الدقيق في وسطه؟ لو لم يكن داخله مثقوب لما تمكن من امتصاص الدم، بأيِّ إبرة تُقَبّ هذا الخرطوم؟

وكم هي محتالة في الفرار، تقرّر عملها على النحو التالي، ما إن ترفع يدك حتى تحسّ البعوضة بهذه الحركة، وإذا أردت أن تحركها تفرّ فوراً، إنها أشرط وأكثر مناورة منك.

البعوض لإظهار عجز المتكبرين

عندما آذت (المنصور الدوانقي) ذبابةً وكانت تحطُّ على وجهه وتراحمه، سأل الإمام الصادق عليه السلام: لماذا خلق الله هذه؟ فقال عليه السلام: «خلق الله هذه ليري المتكبرين ضعفهم».

أيها الإنسان، إنك لا تقوى على بعوضة، فلا تقل (أنا) أمام نظام العالم، أنظر إلى ضعفك، ما معنى الأنا حين لا تقوى على بعوضة؟
«تثبيتاً لحكمته، وتنبهاً على طاعته، وإظهاراً لقدرته» ليظهر حكمته ليعرف الإنسان بنور العقل ربّه الحكيم الذي هو على كل شيء قدير، وبواسطة هذا العلم لن تغفل عن طاعته.

التمرد من علامات الجهل

بعد أن عرفت القدرة اللامتناهية للأول، ستسجد على التراب حتماً، هؤلاء الذين لا يصلّون لم يعرفوا الله، وإلاّ فمن المستحيل أن يعرف أحدٌ خالق الكون ولا يقول: الله أكبر. ويسجد على التراب، كل هذا نتيجة الجهل.
«من ذا يعلم ما أنت فلا يهابك».

عندما كانت السيدة الزهراء عليها السلام تقف للصلاة؛ كانت أطرافها ترتعد، حتى إن الله يباهي ملائكته أن انظروا إلى أمّتي الزهراء عليها السلام كيف ترتعد من خوفي، قد تظنّون أنّ هذا الارتعاد هو من خوف نار الجحيم؟ ولكنه خوف أهل المعرفة وهو فوق هذه المسائل.

نعم، إذا كان في قلوبنا خوف فإنه من نار الجحيم، أما أولئك فإنّ خشوعهم ليس من جرّاء أعمالهم، إنهم يرتجفون لأنّ عظمة الله أخذت مكانها في قلوبهم، وعندما يرفعون رؤوسهم للسماء تأخذهم هيبة القدرة الإلهية.

الأدب أمام الحاكم والله

قال (الشيخ الشوشطري): إنني قمت بسفر ذات مرة إلى طهران، فرأيت بعض رجال البلاط قد أخذتهم الهيبة أمام السلطان، فوقفوا أمامه كالتمثيل بلا حراك.

يقول الشيخ: إنّ الله فوق رؤوسنا، هل وقفنا مرة أمامه بهذه الحالة، إنك تقف أمام مخلوق بهذه الخشية والخضوع لأنك تعرف عظمته وقدرته، فماذا ستفعل لو أدركت قدرة الخالق اللامتناهية؟

يا أهل العقل، تصوّروا كم نحن بعيدون عن المعارف!

الذنب يخطف العقل المعنوي

روي عن النبي صلى الله عليه وآله: «إذا قارف العبد ذنباً؛ فارقه عقلٌ لم يعد إليه أبداً».

كل المشاكل من الذنوب، فالذنب يسلبك المعرفة بالله، إذا صدر أي ذنب من أي شخص فإنه سيفقده إدراكه، قد يمنحك الذنب نقداً أو لذة عاجلة الآن، ولكن فهمك سيهبط، والويل حين ترتكب الذنب تلو الذنب، فهل ستستطيع عندها أن تفهم عظمة الله.

إنك تبصر عظمتك أنت، لا عظمة نظام الخلق، إذا كنت تريد إصلاح

وترتيب دنياك فمتى ستفهم عظمة الله، متى ستصلي ركعتين بحضور القلب، هذا محال، إنهما لا يجتمعان.

ما دمت مشغولاً بنفسك، فأين ستفهم عظمة الله وتعرف خالقك لتأخذك الهيبة؟ نعم، كانت السيدة الزهراء عليها السلام إذا وقفت في المحراب تأخذها الهيبة. الخشية وهي الخوف مع التعظيم، هي الخوف الناجم عن إدراك العظمة، إذا أخذتكم الهيبة أخذاً فهذا ما نعبر عنه بالخشية، وهو ما ينتج عن درك العظمة وتفهم المنع الأصيل.

الخشية نتيجة العلم

لم يقل في الآية الكريمة (إنما يخاف).. بل قال (إنما يخشى) فالخوف يتحقق بإدراك العظمة، والذي يعبر عنه بالخشية هو من خصوصيات أهل العلم، محمد وآل محمد عليهم السلام وخواص شيعتهم الذين تغذت قلوبهم من نبع آل محمد عليهم السلام. أن من لم يعرف غير الله وعظمته، فإنه حقاً سيصبح من مدركي العظمة، وعندها سوف يشبه السيدة الزهراء عليها السلام وبقية العظماء.

وقد سمعنا مراراً أن الإمام علياً عليه السلام كان يُغشى عليه عند منتصف الليل لأنه كان يفهم العظمة، إن هذا فوق فهمي وفهمك، أين نحن من هذا الكلام؟ جعلنا الله ممن يخافون نار جهنم على الأقل.

إننا متجرئون إلى درجة أننا لا نخاف من الجحيم، ولا من ليلة القبر الأولى، أو عذاب البرزخ، إننا أساساً لا نفكر في هذه الأشياء لنعمل لها.

«٦»

معرفة الله وعبادته هي علة الإيجاد

الحديث في شرح خطبة الصديقة الكبرى عليها السلام وبيان اتجاه الإيجاد، أي لماذا خلق الله هذا العالم؟ لكي يعرف البشر ربهم، ويصلوا إلى مبدأ المعاد. ما من شك في أن الله غني عن هذا العالم، وما من فائدة يجنيها منه، ولكنه أظهر قدرته وحكمته في دقائق وجزئيات ولطائف الخلقة.

كل ذرات الوجود تشهد بحكمته وعلمه، وقد خلق البشر ليدركوا الجزئيات ويفهموا الحكمة ووضع عالم الخلق أمام الإنسان ليرى بنور العقل الذي وهبه الله له هذا النظام، ويعرف صانعه بالحكمة والمقدرة ويصير عندها عبداً لرب هذا النظام.

عبودية الله والسلطان الباقي

حصيلة هذه العبودية هي السلطان الأبدي، يقترب الإنسان من مقام ملك الملوك عن طريق التعبّد، ويصل إلى السلطان الحقيقي والدرجات والرتب التي وعد الله بها عباده.

نتيجة هذه الكلمات هي أن الغرض من هذا الوجود هم البشر، والغاية من الخلق هي وصول البشر إلى السعادة الأبدية التي تتجلى فيها القدرة الإلهية.

استعراض القدرة في عالم الآخرة

بالنظر إلى أن عالم المادة هو عالم محدود، فإن قدرة الحق اللامتناهية لا

يمكنها أن تظهر هنا، ولكنها تتجلى بقدر ما تستوعبه المادة، أجل تتجلى القدرة الإلهية اللامتناهية في عالم المعنى والآخرة، لأنّ ذلك العالم ليس محدوداً، والدنيا لا تستوعب أكثر من هذا، إنّ شرط هذا العالم هو التدرّج والمرحلية.

فمن أجل خلق البشر مثلاً قضت السنّة الإلهية أنه يجب أن تبقى النطفة في الرحم ضمن شروط خاصة لعدة أشهر، لتصير علقة ومضغة، وتأخذ شكلها ثم تنبث العظام لتدبّ الروح فيها.

ولكن في العالم الآخر، يتهيأ للمؤمن ما يريد بمحض إرادته، ولا حاجة لمدة من الزمن والتدرّج، نعم إنّ تصوّر هذا الشيء صعب علينا، ولكن بإمكاننا أن نكتشف أصل القدرة الإلهية من نموذج القدرة في هذه الدنيا.

جزء من الخزائن اللامتناهية

قال الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الحجر: ٢١] إنّ خزينة نظام الوجود كلها في عالم المعنى، ولم نرسل إلى عالم المادة سوى مقدار معين بحيث تستوعبه المادة.

هذه الحلاوة الموجودة في الدنيا ليست إلاّ قطرة من أصل الحلاوة، كل ما تشاهدونه من جمال في هذا العالم ليس بالجمال الخالص؛ بل هو مختلط، إنّ هو إلاّ قطرة من أصل الجمال المُعدّ للبشر في العالم العلوي، وما دام البشر في عالم المادة، فليس لهم طاقة على إدراك ذلك الجمال.

ولهذا فإنّ (الحوار العيني) لو نزلت إلى هذا العالم، فسيغمى على الناس لأنه ليس في مقدورهم تحمّل ذلك الجمال، نعم، إذا استعدّ الإنسان هنا عن طريق العبودية؛ سيصل في ذلك العالم إلى أصل الجمال ويستمتع به.

كل الموجودات عبيد لله تكوينياً

البشر وكل نظام الخلق هم مخلوقات الله ليس إلاّ، ولهذا فليس لهم من

أنفسهم شيئاً أبداً، إذ الجميع عبيد لله من الناحية التكوينية، ولكن أيها البشر عليكم علاوة على العبودية التكوينية التي تحملونها كسائر الموجودات أن تكونوا عبيد لله اختياراً وإرادةً.

أنتَ عندما تدرك أنك من حيث التكوين لست حرّاً ولا تتمتع بالاستقلال، فهل خلقت نفسك بنفسك؟ وهل أنتَ صنعت أجزاء بدنك؟ وهل أنتَ تجعل من جزئيات الغذاء جزءاً من جسمك؟ وهل أنتَ تنظّم هذه القوى الموجودة في بدنك؟ لقد كنت لفترة معينة عبد البطن، فكن الآن عبد الله، تعبّد، تعبّد الذي منه وله ملكك ومالك جميع أجزاء الوجود: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [المائدة: ١٢٠] ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [النور: ٤٢].

يمنح القوة ويسترجعها

لا تتخلف أيّ من الموجودات عن الأمر التكويني، وكذلك الإنسان، ولكن عليه أن يفهم أنه عبد، وأن يتعبد إلاّ اختياراً.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ [الروم: ٥٤].

جاء بك من الرضاة إلى حيث تستطيع أن تمشي على قدميك وتقوم بحوائجك بيديك، ويسلب منك القوة من بعد سنّ الأربعين مرة ثانية، لتعلم أنها لم تكن ملكك الشخصي، إنك عبدٌ مملوكٌ مخلوقٌ، لا يحصل لك إلاّ ما أَرَادَهُ لَكَ مَالِكُكَ وَخَالِقُكَ.

أليس جديراً بك أن تكون عبداً لهذا الخلاق في البداية بواسطة الإدراك والشعور والفهم، وبعد ذلك عن طريق المذهب والطريقة. أيها المتمرد، إنّ العبد الذي خرج على طاعة وأمر مولاهُ هو عبدٌ متمرّد.

اللعة على العبد المتمرد

جاء في الرواية أنّ خاتم الأنبياء محمداً ﷺ أمر أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يرتقي المنبر ويتحدث ببعض الأحاديث، من جملتها: «لعة العبد الآبق».

إذا خرجت عن أمر مولاك وخالقك ومالكك وربك؛ فستحلّ بك اللعة، فكيف بمن يخرج على أمر مالكة مئات المرات يومياً منذ أن يستيقظ من النوم حتى يهجع إلى النوم مرة ثانية؟! لا

لا جعلنا الله من الآبقين المصيرين.

أهل المدائن والإمام علي عليه السلام

كما تذلّ نفسك أمام أهل الدنيا، عليك أن تتذلل عند مالكك ومدبرك وربك. فعندما وصل أمير المؤمنين علي عليه السلام إلى (المدائن)، وقف أمامه أهلها الذي كانوا تحت سلطان كسرى لسنين طوال، وقفوا أمامه مكتوفي الأيدي في حال من الذل.

وعندما سأل الإمام علي عليه السلام عن ذلك قالوا: هذه سنّتنا أمام السلاطين، نظهر لهم التذلل هكذا.

فنهاهم أمير المؤمنين علي عليه السلام عن هذا. وعلى كل حال فعلى المرء أن يتذلل أمام خالقه ومالكه ومدبره.

نعم، عليه أن يتعبّد، أي أن يقبل العبودية، الخضوع والخشوع والتذلل والجلوس على التراب، والسجود والطاعة، فهذه كلّها من خصوصيات التعبّد.

العبد لا يناقش

ورد في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «أنّ لا يرى العبد لنفسه تدبيراً» أي أن لا يفكر في مصلحته، إذا ناقش العبد مولاة فيما يأمره وأشكل عليه، فهذه علامة الحرية والاستقلال، أي ليس لديّ مالك وأنني مدبر نفسي

ورأيتُ من صحي أن أفعل كذا وكذا، لماذا حصل هذا؟ لماذا لم يحصل كذا؟

إن مثل هذه الاعتراضات على القدر والقضاء الإلهي أو اليأس والجزع المتكرر هو خروج من العبودية.

الويل لك إذا ارتكبت ذنباً أدى إلى جبروتك وأظهر كفرك أكثر.

كن على ثقة أنّ أيّ حرام يصدر منك سيتقدم بك خطوة نحو الكفر، حتى تكفر بربك وأنت لا تشعر، كل ذنب ينحرف بك عن صراط العبودية، ولا أحد يدري متى ستعود إليه.

لحم الخنزير والآثار العجيبة

قصّ عليّ اليوم أحد الشباب المتّقين والصالحين قصته الجديرة بالاستماع، قال هذا الشاب الذي كان بين الأتقياء منذ سنّ التكليف وله فطرة طاهرة قال: قبل مدّة كنتُ مجموعة من الشباب نتمشّي، وعندما حان الليل، دعوني لتناول العشاء، وكان عشاؤنا ساندويشاً، بعدها لاحظتُ أن إيماني بدأ يقلّ، صرتُ مظلماً، وأخذت أميل إلى ارتكاب المعاصي.

يقول: بقيتُ حالة الكفر هذه خمسين يوماً داخلي، كنتُ أصلي ولكن أية صلاة؟ كانت آثار هذه الحالة إلى الحد الذي زالت معه كل حالاتي السابقة تماماً. قبل ذلك كنت إذا أبصر أجنبيّ زوجتي؛ أشتعُل ناراً وغيره، ولكنني خلال تلك المدّة لم أكن كالسابق. وعلى أي حال فبعد الفحص والتحقيق علمتُ أنّ تلك الساندويشة كان لحم الخنزير.

شبابنا الأعزاء، بلّغوا الآخرين أن الخطر شديد، يقول حقّقْتُ في الأمر فتبيّن أن جزءين من الساندويشة كانت تحتوي ٢٣٥ غراماً من اللحم على شكل مرتديلا ولا نذكرها بالاسم طبعاً، وهي نجاسة عينية. كل ما في الكلب

والخنزير نجس في الإسلام، لحمها وجلدها وعظامها نجسة، والتعامل بها باطل ومن المنكرات الواضحة.

ارحموا الفطرة السليمة

سألته بعد ذلك: ما هي ديانة هؤلاء الذين يبيعون مثل هذه السندويشات؟ لا بد أنها تباع في الأحياء اليهودية؟! فأجاب: لا، بل إنهم مسلمون، ويبيعونها في شوارع وأسواق المسلمين.

لا بد أن تبلغوهم، يا من تدعون الإسلام، إن هذه الساندويشات التي تحتوي على لحم الخنزير نجسة ومحرمة، والتعامل بها باطل، لا تظلموا الفطرة الطاهرة هكذا، لا تسلبوها الإيمان والغيرة، وتجعلوها خنزيرية السلوك. كل من يأكل لحم الخنزير فهو عديم الغيرة، وإذا كان أكلتها الراسميون في أوروبا وأمريكا هكذا، فهل تريدون أن تجعلوا المسلمين مثلهم أيضاً؟

إذا ذهب الماء، فلن يعود إلى النهر

قصدي هو تأثير الذنوب التي لا نتيجة لها سوى الكفر، قلت له: مرحى لك ولتوفيقك إذ فهمت أن تلك الحالة كانت حالة كفر، إن هذا دليل فطرتك الطاهرة وإيمانك، لأنك شخّصت الحالة، قال: كم بكيث وكم نحبثُ قائلًا أن يا إلهي أُرْجِعْ إِلَيَّ إيماني المفقود.

نعم، يبقى أثر الجهل أربعين يوماً بلا شك، وهذه خاصية الذنوب.

روي أن من أكل لقمة حراماً؛ لا يستجاب دعاؤه أربعين يوماً، لماذا؟ لأن حجاباً بينه وبين خالقه يُنزله عن مقام اليقين، ويلقي به في ظلمات الشك والوساوس، والويل له إن مات على تلك الحال.

الرجل بعيد النظر، عبدٌ مبارك

هل أريد لك الحرمان من اللذة عندما أمرت أن لا تأكل لحم الخنزير؟ لا

قيمة لأكل النجاسة العينية إذا سلبتك إيمانك، أنظر لعاقبة العمل، الرجل بعيد النظر عبدٌ مبارك.

قد يذهب المرء ساعةً عند مومس، ولكن عليه أن يقضي وقتاً طويلاً في معالجة آثار ذلك، وبغضّ النظر عن العقوبة الأخروية والتأثيرات الدنيوية السيئة للحظة واحدة من اللذة؛ فإنّ عليه أن يقضي عمراً كاملاً في الندامة.

أقصد من ذلك أن ينتبه البشر ليعلموا أنهم إذا حادوا عن جادة العبودية؛ فإنّ سقوطهم عن مقام الإنسانية والسعادة الكاملة حتمي.

قلت إنّ الهدف من الإيجاد هو أن تكون عبداً، عبداً لله وإلا سقطت، ومن ترك العبودية لله؛ كان مصداقاً حقيقياً لقوله تعالى: ﴿خَيْرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [الحج: ١١] إضافة إلى القلق والاضطراب والموت في الدنيا، وكلنا يدري ما في الآخرة.

لا تنظر إلى ظاهره اللطيف، أنظر إلى عاقبة أعماله.

كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً

يقول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «كفى بي فخراً أن أكون لك عبداً» ويقول: «كفى بي عزاً أن تكون لي رباً».

مرحى لسعادة من أصبح عبداً، عبداً لرب العالمين، وارتضاه الله عبداً له، إلهي، نقسم عليك بحق عبادك الصالحين أن تجعلنا من عبيدك.

هل البشر هم مجرد حيوانات؟

إنّ الذين لم يكن لهم نصيب من النور العقلي والنافذة الإلهية ليعرفوا حقيقة الدين والقرآن وأحاديث العظماء، ولم يتبينوا الحكمة في كل نظام الخلق، والهدف من الإيجاد، ويحسبون أن البشر موجودات مادية، ويتصوّرونهم حيوانات تمشي على قدمين، وكل ما في الأمر أنها حيوانات أكثر تكاملاً وعقلاً.

ويتوهمون أن البشر ينتهون بالموت، وأن وجودهم محدود، وأن الإنسان مثل بقية الحيوانات يأكل ويشرب ويتناسل فقط ويموت في النهاية.

﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤].

فهل هذا النظام بلا حكمة إذاً؟

لكنهم إذا عادوا إلى وجدانهم، علموا أنهم على خطأ تماماً، أيها العاقل بعد أن أدركت أن نظام العالم كله حكمة، فما هي نتيجة هذه الدنيا إذا لم يكن هنالك عالم آخر؟ هل من الحكمة أن تعلق بعض الحيوانات لعدة أيام، وتبني عمارات من عدة طوابق، وتتصارع فيما بينها، وفي النهاية تموت وتفنى؟ أي حكمة هذه؟ هل يتقبل ضميرك أن خلقاً بهذه العظمة هو بلا هدف ولا غاية تُدرك؟

من هو المجنون الحقيقي؟

الغرض من العقل هو إدراك الكليات، لا عقل لمن لا يتمكن من إدراك الكليات. مجنون من توهم أن لا هدف من الخلق، وظن أنه جاء إلى الدنيا ليجمع الأموال.

روي أن الرسول محمداً ﷺ مرَّ يوماً على جماعة اجتمعوا حول شخص، فسألهم عن سبب اجتماعهم فقالوا: يا رسول الله هذا مجنون، انتابته حالة جنون.

فقال: هذا ليس مجنوناً، لكنه مريض (من الممكن معالجه كسائر المرضى).

هل أنبئكم بالمجنون الحقيقي؟ فقالوا: بلى.

قال: المتبختر في مشيه، الناظر في عطفه، المحرك جنبه بمنكبيه، يتمنى على الله جنته وهو يعصيه، الذي لا يؤمن شره ولا يرجى خيره فذلك المجنون، وهذا المبتلى.

وروي في حديث آخر أنّ رسول الله محمداً ﷺ مرَّ بمجنون فقال: ما له؟ فقيل إنه مجنون، فقال: بل هو مصاب، إنما المجنون من أثر الدنيا على الآخرة.

البشر ثمرة شجرة الوجود

مجنون وبلا عاقبة من يدري أنه صائرٌ إلى القبر، هل من نتيجة لهذه النقود وهذه الكراسي سوى حفرة القبر؟ ولكن إذا زال نور العقل فإنّ المرء لا يكون على استعداد للسمع أساساً ولا يسأل: هل من الممكن أن يكون هذا النظام بلا هدف ولا نتيجة باقية؟

كلّ ما نراه هي موجودات من أجل الإنسان، وبتعبير آخر هي بمنزلة الشجرة ذات الغصون والأوراق، وكل هذا مقدمة لظهور الثمر والفاكهة في الشجرة.

إنّ ثمرة شجرة عالم الوجود هو الإنسان، وكما كان (سعدي الشيرازي) بليغاً حين قال: الغيم والريح والشمس والأفلاك في عملٍ دؤوب من أجل أن تحصل على قرص خبز ولا تغفل، كلها خاضعةٌ ومطبعةٌ لك، فهل من الإنصاف والعدل أن تكون عاصياً؟

خلقت البهائم لكم

هل سمعتم الحديث القدسي: «خلقت الأشياء لأجلك، وخلقتك لأجلي» وقال الله كذلك في القرآن الكريم: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقْنَا لَكُمْ فِيهَا دِفءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ * وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِنْ تَكُونُوا بِلَيْغِهِ إِلَّا أَسْفِقَ الْأَنْفُسُ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [النحل: ٥ - ٧] وحتى أنها تؤنسكم، والحشرات والحيوانات السامة تنفع الإنسان أيضاً لأنها تمتص سموم الهواء وتجعله نقياً.

منفعة (أكلة الجيف) نعم الإنسان أيضاً

إن نفع الحيوانات (أكلة الجيف) نعم الإنسان أيضاً، لو لم تكن هذه الحيوانات، لكانت الحياة بالنسبة للإنسان صعبة جداً، ولبقيت جثث الحيوانات على سطح الأرض بكثرة، وأذته روائحها أينما وضع قدمه، فضلاً عن الأمراض المسرية التي تسببها هذه الجيف، ولكن ما إن تسقط الجيفة حتى يشم آكل الجيف رائحتها على بعد فراسخ، ويأتي فوراً فيأكلها.

والخلاصة أنك لا ترى شيئاً إلا وجدت فائدته تصل الإنسان مباشرة أو بشكل غير مباشر.

البشر أشرف المخلوقات

هذا ما يجب أن نقف عنده، يقول البعيدون عن الحقائق: ما هي ميزة الإنسان حتى يكون أشرف المخلوقات؟ ما هو إلا كسائر الموجودات.

هذا الكلام نتيجة الجهل بحقيقة الإنسان، إنهم تصوّروا الإنسان لحماً وجلداً، وهذا ما تمتلكه البقر والحمير أيضاً، ولكن حقيقتك أيها الإنسان غير ذلك، حقيقتك هي روحك ونفسك الباقية بقاء الله، وهذا هو ميزان الشرف.

إن روح الإنسان التي تدرك الكليات وتعرف الله وتبصر الحقيقة، تلك الروح التي تشاهد الغيب والمادة، هذه الروح هي أشرف المخلوقات، وجسم الإنسان شريف بروح الإنسان، وإذا فارقته الروح فإن جيفته أركم للأنوف من جيفة الحيوانات.

إذاً، كلّ ما هو موجود إنما هو في الروح والنفس، وهي ليست مادية لتزول، ولكنها طبعاً حادثة، أي لم تكن موجودة قبل أن يخلقها الله، ولكن البقاء لا يزول أبداً.

«خلقتم للبقاء لا للفناء» الموت بالنسبة للإنسان ليس إلا تغيير الثياب والمكان، والحصول على حصاد الأعمال والانتفاع بها.

والموت بالنسبة للحيوان يعني الفناء والعدم. وبالنسبة لروح الإنسان يعني السعادة، طبعاً إذا كان صاحبها إنساناً حقيقياً، وإلا لن تحصل إلا على التعاسة.

قال الله في القرآن الكريم: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾ [الملك: ٢] الموت أمر وجودي وليس عدمي «قدر الموت» لأنه تحولٌ مكاني وتحرُّرٌ من المادة. فإيا أيها الإنسان، أنت الهدف من الإيجاد، وأنت خالد، والهدف من خلقك هو العبودية لله عن معرفة ويقين.

العبودية وأعلى الرتب

وعلى ذلك، يجب على الروح الإنسانية اللطيفة أن تسلك طريق العبودية، وتكون عبداً لله، وعندها ستصبح القدرة الإلهية اللامتناهية مع الإنسان. أيُّ مقام شامخ هو مقام من اتصل بخالق الكون؟!

كفى بالإنسان مقاماً عالياً من العبودية أنه إذا صار عبداً لله فإنَّ كلّ القدرة معه، وسيحصل له في الحال كل ما يريد «بإذن الله» لأنه متّصل بالله ويتمتع بالعظمة والقدرة الإلهية.

نعم، يصل الأمر إلى الحدّ الذي لا يتمكّن الناس من فهم مقامهم وعظمتهم، كما لا يمكن أن يدركوا عظمة الله.

محمد ﷺ عبدالله المخلص

عندما يريد الله في القرآن الكريم أن يمدح أنبياءه العظام يصفهم بمقام العبودية، فعندما يريد أن يعبر عن شرف وعظمة النبي محمد ﷺ يقول عنه عبدالله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ. لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١].

أردت أن أكون سلطاناً فالتجأت إلى عبوديتك، أردت أن أكون سيداً فاخترت خدمتك.

إذا انتمى أحدٌ إلى عظيم من العظماء، فإنه سيتمتع بكلّ ما لذلك العظيم

من القدرة. ربما سمعتم بـ(أياز عبد السلطان محمود الغزنوي) الذي كان أحياناً يُجلّسه على عرشه، وكل ما حكم به (أياز) فهو حكم السلطان، لماذا؟ لأنه كان عبداً فانياً في مولاة.

وقيسوا على ذلك إذا صار الشخص عبداً لربّ العالمين، فإنّ قدرة الله ستظهر فيه بلا شك (طبعاً بمقدار استعداده وقابليته).

عظمة العباد الصالحين لامتناهية

يقول أحد العلماء: إنّ الإنسان إذا لم يكتشف كنه صفات الله، فلن يتمكن من معرفة عظمة مقام محمد وآل محمد ﷺ لأنهم عباد الله الذائبون فيه والمتمتعون بجلاله وأحديته.

وعلى كل حال فإنّ الله يقول في القرآن مرة أخرى: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِيَدًّا﴾ [الجن: ١٩] فهو يعبر عن النبي محمد ﷺ بعبء الله، وكذلك في معرض مدح النبي عيسى ﷺ يقول على لسانه: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنَنِي الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠] وأمر الله المسلمين أن يشهدوا بعبودية النبي محمد ﷺ في التشهد: (وأشهد أن محمداً عبده ورسوله).

نعم، إذا أدركت عظمة الله، فستدرك عظمة محمد وآله ﷺ.

رسالة من المعبود إلى عبدٍ في الجنة

الهدف هو الوصول إلى مقام العبودية، الهدف من إيجاد البشر وصولهم إلى القدرة والبقاء والسعادة الأبدية. في الرواية أنّ عباد الله إذا أخذوا أماكنهم في الجنة، تصلهم رسالة من الله تعالى بواسطة المَلَك.

مرحى، أي سعادة ولذة يشعر بها المؤمن حين تصله رسالة: «من الحي الذي لا يموت، إلى الحي الذي لا يموت، إني كنت إذا قلت لشيء كن فيكون، فقد جعلتك اليوم كذلك».

وكما نقرأ عن الباري في القرآن الكريم: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ

لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿ [يس: ٨٢] ونقرأ عن المؤمن في الجنة: ﴿لَمْ يَمِمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ [النحل: ٣١] مما يعكس مقام ورتبة البشر إذا كانوا عبيداً لله.

وصل الإنسان إلى حيث لا يرى سوى الله، انظر، إلى أيّ حد يمكن أن يصل مقام الآدمية. هذا هو الهدف من خلق البشر: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] ولكن المراد من العبادة ليس الظاهر العملي الذي نقوم به فقط، المسألة أكبر من هذا بكثير.

ليست الغاية من الخلق إلاّ العبودية، والتي تتمظهر أحياناً في الصلاة. يجب أن تصل إلى حيث تجد نفسك عبداً دائماً، ويصير كلّ ما يتعلّق بك عبداً لله، يجب أن لا تخرج من دائرة العبودية أربع وعشرين ساعة لتتمكن من العبودية وترسخ فيها.

انظر لنفسك دائماً على أنها مُلك لله، وكن عبداً لله في كلّ أعمالك مع زوجك وأطفالك في السوق، في الدائرة، في المسجد وفي حديثك. أما إذا تسلّطت الأنانية والاستقلال والذات؛ فستسقط عن طريق العبودية بأول ذنب ترتكبه، ولا يعلم إلاّ الله متى ستعود إليه.

من الصعب أن تكون عبداً لله

عندما تتحدث بغير ما يرضي الله، فإنك في تلك الحال لست عبداً لله؛ بل عبد الهوى وعبد الشيطان. وإذا متّ على تلك الحالة؛ فلن تحشر مع عباد الله الصالحين.

أقول: إنه ليس من اللعب أن يصبح الإنسان عبداً لله، فهذه الصلاة المقترنة بالعُجب والغرور ليست هي الهدف من الإيجاد.

أفرض نفسك عبداً، واجعل جميع شؤونك عبداً، أعلم أنّ الله مالِك ومالك جميع شؤونك، واعلم أنّ التصرّف بالمُلك دون إذن ورضا المالك حرام.

أيها العاقل، لسانك مُلكٌ لله، فإذا سَخَرْتَهُ للغو والحرام فأنت سارقٌ ومغتصبٌ، واعلم أنك استخدمته فيما لا يرضي المالك.

إذا نظرت بعينك إلى أجنبية فأنت سارق، أذن المالك في المباحات، كلّ أنواع الذنوب والخيانة والتجني التي تصدر عن البشر هي سقوط من صراط العبودية إلى قعر الجهل والبؤس، وتخلّف عن قافلة الهدف من الإيجاد. يجب أن تبقى الصلاة وبقية العبادات في محلها طبعاً، ولكن ليس هذا كافياً في طريق العبودية.

* * *

«٧»

الهدف من الخلق

سلسلة الكلام حول شرح خطبة صديقة الدنيا والآخرة السيدة الزهراء عليها السلام في بيان الهدف من الخلق، ذكرت عليها السلام بعض العبارات هذه خلاصتها:
إنّ ذات الله القدسية وضعت في عالم المادة قدرتها وحكمتها بمقدار ما تستوعبه الأجسام المادية. ملك الله كلّ ذرات الوجود بقدرته، وجعل الإنسان مدركاً للتفاصيل وفاهماً لها، لكي يدقّق في الأشياء ويعرف خالق العالم بالقدرة والحكمة.

«يا من في الجبال خزائنه، يا من في البحار عجائبه، يا من في الآفاق آياته».

أينما توجّهت شمالاً أو جنوباً يميناً أو يساراً تجد قدرته وسلطانه وحكمته اللامتناهية. وعندها ستعترف أنك أنت وكلّ ما في الوجود مُلْكٌ لخالق العالم، وستدرك هذه الحقيقة.

وعند ذلك يجب على الإنسان الخضوع لله «تعبداً لبريته» ثم إنه سيختار طريق عبودية الله، وهناك سيقترّب منه، ويصل إلى بركة السلطان الأبدي، فالبشر كما أسلفت قد خلقوا للخلود الأبدي.

هنالك نقطة يجب الانتباه لها في عبارة «تعبداً لبريته».

(تعبّد) مشتقة من (تفعل) بمعنى التقبّل، أي أنّ الشخص باختياره يكون على استعداد لعبادة الله، إنّ الهدف من الخلق ليس العبادة بالإكراه والإجبار،

إنّ مثل هذه العبادة لا تؤدي إلى الرقيّ، المفروض أن يتمكّن الإنسان من عبادة الله، ويتمكّن كذلك من عبادة الهوى، وعندها يختار بإرادته الخاصة عبادة الله ليحظى بالقرب. وإلاّ فالله لم يخلق البشر ليعبدوه إكراهاً وجبراً:

﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً﴾ [يونس: ٩٩].

ولكنه لم يشأ هذا، إنّ الحيوانات، بل جميع الموجودات حتى الإنسان هي عبيد لله من حيث التكوين، كما ذكرنا سابقاً، ولكن من حيث التكليف، فإنّ الشخص يتطوّر باختياره وإرادته.

الخروف والبقرة في حالة ركوع دائم، والحشرات ساجدة باستمرار، فهل الركوع والسجود التكويني لا ينفع شيئاً للرقيّ، وحتى البشر لو أكرههم أحدٌ على عبودية الله، فلا فائدة من هذا: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

التدين لا يتحقّق بالقوة، فبالقوة لا فائدة من الصلاة أو الزكاة، أردتُ أن أوضح معنى تقبّل العبادة في كلمة (تعبد).

نادرة لطيفة

رأى أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في أحد الأيام رجلاً يتوضأ بصورة خاطئة، فنهره الإمام ورفع سوطه، وأمره أن يتوضأ بصورة صحيحة.

فقال الرجل: تبت يا أمير المؤمنين وسأصحح وضوئي، وبعد أن توضأ بصورة صحيحة سأله الإمام: أيّ الوضوءين كان أفضل؟ فقال الرجل: الحق أن الأول كان أفضل، لأنه كان لله (عبوديةً) والثاني كان من خوف سوطك. فابتسم الإمام، وأمره أن يتوضأ من الآن فصاعداً بصورة صحيحة لله.

تعويد الأطفال على التعبد

يُراد من إجبار الولد إذا بلغ سنّ الثانية عشرة على الصلاة وبقية العبادات أن نعوّده عليها. لتكون سهلةً عليه في سنّ البلوغ، ويكون على استعداد للتعبد باختياره.

ومسألة أخرى هي أنّ كلمة تعبد تفيد الاستمرار والديمومة، بمعنى أن يتقبل البشر دائماً عبادة الله اختياراً، ولهذا فلا يُقبل من الإنسان العبادة بين يوم ويوم، أو العبادة صباحاً وتركها مساءً.

إذاً فالمراد من التعبد هو الاستمرار، وهذا ما يعبر عنه القرآن الكريم بالاستقامة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ [فصلت: ٣٠].

العبودية لا تسجّم مع التقلّب

إذا استطاع الإنسان الوقوف على صراط العبودية، فقد حقّق الهدف من الخلق، أما إذا كانت حالاته ليست واحدة، وكان متلوّناً ومتقلّباً، فهو حرٌّ في البيت وعبدٌ في المسجد، أو يكون حرّاً في التعامل مع الناس؛ فلن ينفعه هذا.

إذا كنت قد قلت في المسجد «سيدي ومولاي»، أنت المولى وأنا العبد» إذا كنت عبداً ترى الحياة من مسؤولياتك، ولا تعترف بمدير ومدبر لك.

بل إنّ هنالك بعض التعبيرات تستشمّ منها رائحة الكفر والشرك، كأن يُقال: أنا معيل لعشرة أشخاص، أنا ربيت فلاناً وكبرته.. أنا.. أنا..

يا لك من جاهل، من أعالك أنت، ومن ربّك أنت؟!

إذا كنت عبداً، فالسيادة ليست من شأنك، بل إنها ظلمٌ لك لأنك أنت مملوك، فكيف تترك الخضوع للمالكية، وتدّعي الألوهية لنفسك. وقد يصل الأمر إلى أن يدّعي البشر لأنفسهم كلّ ما لله، ويطلبون من غيرهم (من أولادهم مثلاً) أن يخضعوا لهم، أو يتوقع وينتظر ممن أحسن إليهم أن يظّلوا طوال عمرهم خاضعين له.

الاستقلال لا يتفق والعبودية

وبعبارة أخرى، متى ما ظنّ الإنسان نفسه مستقلاً، ولم ير لها مدبراً ومدبراً إلّا هو، وأخذ يقول: قوتي.. قدرتي.. قلمي.. بياني.. كل هذا وإن كان مؤقّتاً فهو خروج عن صراط العبودية.

لقد سمعنا مراراً تلك الروايات التي تؤكد على ارتداد الناس بعد وفاة رسول الله ﷺ إلا القليل منهم، فما المقصود من هذا الارتداد؟

لم يكونوا يبالون بأوامر الله

هل كان المراد أن المسلمين بعد الرسول محمد ﷺ تركوا الصلاة والصوم والحج؟ لا طبعاً.. إذاً كيف ارتدّ الناس؟

نعم، كانوا حتى ذلك الحين يقولون إننا عبيد الله، والحكم حكم الله، ولكن الآن ومع أنّ جنازة الرسول ﷺ لا تزال على الأرض، فقد اجتمعت الأنصار، وجاءت بسعد بن عباد، وجاء عمر بأبي بكر في جماعة من المهاجرين، ورأى أنّ الخلافة جديرة بأبي بكر لقربه من النبي ﷺ ولكونه قرشياً.

قال الأنصار: بل أميرٌ منا وأميرٌ منكم، ولكنهم بعد ذلك بايعوا (أبا بكر) وأنهوا الفتنة لصالحه، وأخذت البيعة بالإرهاب والقوة من الباقيين الذين كانوا يتجادلون حول الخلافة، كلٌّ يريد لها لنفسه أو لعشيرته، يا له من وضع!! إنه وبلا شك خروج على أمر الله وعبوديته، هذه هي حقيقة الارتداد لقد ذكرتُ هذا للمثال. إنّ هذا الوضع كفر واضح، أي أنهم لم يبالوا بما أمر الله، ولم ينظروا إلا لمصالحهم الشخصية، ألم يكونوا في عهد النبي ﷺ يدعون أنهم عبيد الله رغم بعض تقلباتهم؟

كان هذا امتحاناً ليتبين صبرهم ودوام عبوديتهم، إنّ سعادتك في أن تكون دائماً وأبداً عبداً لله. إذا قطع خيط العبودية؛ فإنّ عقده يستغرق مدة من الزمن، وحتى لو تمّ عقده، فهل سيعود كما كان أول مرة؟!

ذرائع واهية لعبادة الهوى

من جملة ما كانوا يقولونه هو أن (عمر) كان يقول إنّ عليّاً لا يمكن أن

يكون خليفة، لأنه قتل آباء وأقارب الكثير من المسلمين، وبينه وبينهم ثارات كثيرة، ولهذا فسوف لن ينصاعوا له.

وكان يقول أحياناً إنَّ عمره قليل، إنه شاب. ما معنى هذا؟ فهل معنى هذا أن الله والرسول ﷺ أخطأوا في اختيار عليّ ﷺ.

الويل من الهوى والنفس: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

عبدٌ من يا ترى ذاك الذي يطيع نفسه وهواه، ويتحرك وفق ميله وشهواته؟ عندما تنظر إلى راقصة في التلفزيون، وتستمع بكلّ وجودك لغنائها، من هو معبودك؟

لقد قلتُ مراراً: إنني أذكر أشياء عامة، يجب على كل شخص أن يطبقها على وضعه الخاص. فالواعظ مثلاً من الممكن أن يكون هدفه حين يعظ هو إبراز كماله وموهبته، وعندها فقد خرج تماماً عن الخضوع لعبودية الله، أو الثري الذي يمشي تكبراً، فهو في ذلك الحين ليس عبداً، وهناك من يكفر وهو على مائدة الطعام.

صراط الدنيا نموذج للقيامة

الخلاصة هو أننا يجب أن نكون عبيداً لله في كلّ الحالات، وأن تستمرّ وتدوم هذه العبودية، وإن أرفع مراتبها يكون أثناء الصلاة، وفي غير الصلاة يجب أيضاً أن نكون عبيداً لله، وإذا أصابنا زلزل - لا سمح الله - فعلينا التوبة فوراً.

إذا سلك الإنسان صراط الدنيا الذي هو طريق العبودية بشكل صحيح؛ فسيجتاز الصراط يوم القيامة كالبرق، ولكنه إذا كان هنا متعثراً وبطيئاً؛ فسيكون يوم القيامة كذلك.

جعلنا الله ممن ينهضون فور سقوطهم، أي أن نغسل أيّ زلزل بماء التوبة، والويل لمن يسقط فيبقى في مكانه لا ينهض.

أدقُّ من الشَّعر وأحدُّ من السيف

جاء في الرواية عن الصراط أنه «أدقُّ من الشَّعر وأحدُّ من السيف» وعلى الذي يريد أن يكون دائماً عبداً مخلصاً، عليه أن يجتاز مثل هذا الصراط. قد يحدث أن يدَّعي الإنسان الربوبية أثناء كلامه كأن يقول: مالي.. ملكي. نعم، فالنفس تحبُّ أن تدَّعي العلاء دائماً، ويجب أن نقف أمامها باستمرار. ألسنتُ عبداً، فما لك وللربوبية؟! تريد النفس أن تتمظهر بالإدارة والتدبير، يجب قمعها وإلاَّ أصابنا الزلل عن الصراط يوم القيامة ودخلنا الجحيم.

تصوّر حالة احتضارك

يجب أن يُلقن الإنسان أفكاراً إيجابية تقف أمام تمرّده، كأن يُقال له مثلاً: هل تستطيع أن تعمل على إبقاء روحك ساعة الاحتضار، أُرْجِعْ إِنْ اسْتَطَعْتَ رُوحَكَ حِينَما تَصِلُ إِلَى حَلْقُومِكَ...: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتَ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا بُصُرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْرَ مَدِينٍ * نَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧].

أترك الأنا.. فلا تقل أنا فعلت كذا.. لا تقل أنا طيب.. لو اجتمع كل الأطباء لما استطاعوا أن يضيفوا ساعة واحدة على ساعات عمرك. مَرِضٌ (أفلاطون) أو (أرسطو) بالإسهال، ووصل حدَّ الاحتضار، فقالوا له: عالِج نفسك بما لك من الحذافة والعلم. فقال: صنعتُ كرةً إذا وضعوها في كوز ماءٍ أغلقتة، فأكلتُ منها كثيراً فلم تُجدني نفعاً، ماذا أفعل للقضاء السماوي؟!!

الكتب السماوية وعبادة الله

مع أننا ذكرنا سابقاً أشياء كثيرة عن التعبّد، ولكن هناك ما يجب أن نقوله أيضاً حول هذا الموضوع، قلنا إنّ العبودية هي روح الدين وحقيقته، والعبودية هي الغاية والهدف من الخلق ومن بعثة الأنبياء وتنزيل الكتب السماوية، أي لأجل أن يسلك البشر طريق العبودية ويتقربوا من الحق، ويصلوا إلى السعادة الحقيقية ببركة هذا القرب.

ولهذا فمن الجدير أن نبحث أكثر في هذا الموضوع.

إنّ الغرض الأساسي للتوحيد يكمن في العبودية، كلّ الأنبياء الذين بعثوا ودعوا الناس إلى عبادة الله؛ اشترطوا توحيد الله في عبادته ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

فالشرط إذاً، أن يكون عبداً مخلصاً لله، ولهذا فلن يصل الإنسان إلى أيّ مكانٍ إذا أشرك بالله، بمعنى أنه عبد الله من ناحية، وعبد الهوى من ناحية أخرى. اليوم يعبد الله، وغداً يعبد الهوى. فهذا لا يفي بالغرض؛ بل يؤدّي إلى إحباط الأعمال الحسنة القليلة التي قام بها الفرد. والخلاصة أنّ الله والشريك لا يجتمعان.

إذا انحرف الإنسان عن العبودية، ولو بصورة مؤقتة، وظنّ نفسه مستقلاً وتوكل على نفسه، أو على سببٍ من الأسباب؛ فقد ابتعد عن حقيقة العبودية

والانتماء الكامل للخالق، ونال غضبه وبغضه ما لم يركن إلى التوبة، ويعود ثانية إلى صراط العبودية.

ولا بأس أن تأتي بشاهدٍ من القرآن، فقد قرأتم سورة الكافرون.

كلام حول نزول سورة الكافرون

ذكر المفسرون في سبب نزول سورة الكافرون أنّ مشركي مكة بعد أن أخفقوا في كلّ ما فعلوا لإقناع النبي ﷺ بترك دعوته للتوحيد، قالوا له يا محمد تعال نتصالح، فتدين بديننا سنة، وندين بدينك سنة أخرى ونعبد ربك.

فرفض النبي ﷺ وقال: محال أن أشرك بالله، إنني لم أسجد لصنم قط.

فقالوا يا محمد، اخضع ساعة لأصنامنا واستلمها، لنقبل دينك.

فنزلت هذه السورة الكريمة أن: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ * وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ * لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون: ١ - ٦].

ويقال إنّ هذه من أبناء الغيب الموجودة في القرآن الكريم، لأنهم جميعاً ماتوا على الكفر والشرك ودخلوا جهنم.

وطبعاً التدين صعب وشاق، ومن لم يتحمّل الصعاب والمشاق؛ فلن يحصل على الكنوز. لا تتوهموا أنه من الممكن أن يقضي الإنسان عمره من الصباح إلى المساء في عبادة الهوى واتباعه، ويكون في نفس الوقت ضمن سلسلة التوحيد وعبادة الله، فهذا غير ممكن.

الوثنية على أنواع

في البداية يجب أن تعلموا أنّ الصنم ليس له موضوع معين، وأنّ الميزان هو عبادة الله، وليكن الصنم ما كان كجسد بلا روح، مثلاً كالذين يخضعون للخشب والحجارة والذهب والفضة، أو قد يكون نباتاً كالذين يعبدون

الأشجار، وقد يكون حيواناً كعُباد البقر، وحتى الذين يعبدون ويخضعون لإنسانٍ معين، جميع هؤلاء متساوون في عبادة غير الله.

قد يخضع المرء لشخصٍ آخر، على أمل أن يقضي له حاجته، لا فرق بين عابد الوثن ومن يرى الأسباب مستقلة بذاتها، كأن يخضع لثري طمعاً في ماله أو لمقتدرٍ طمعاً في قدرته.

وبشكل عام فإذا تصوّر الإنسان أيّ سبب من الأسباب مستقلاً ومؤثراً، فلا فرق بينه وبين عابد الأوثان، لأنّ عبوديته الحقيقية هي الخضوع والأمر القلبي الذي يملئ على صاحبه الأمل بالغير فيخضع له، لأنّ الخوف والأمل بأيّ شيء يستوجب الخضوع له قهراً.

ولهذا يجب على المسلمين أن لا يعقدوا أملهم بغير الله: (لا إله إلا الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله) فعندما يمرض الإنسان وإن كان عليه مراجعة الطبيب، ولكن المفروض أن لا يعبد الطبيب، الله هو الشافي، إذا أراد الله فسيشفي المريض بواسطة هذا الطبيب وهذا الدواء.

إذا كنت مديناً، فانظر بعين الله فهو الذي يقضي حاجاتك، وعليه فإذا نظرت للأسباب بأنها مستقلة فهذا كفر، وإذا نظرت إليها كونها شريكة في الفعل فهذه وثنية.

إذا رأيت نفسك عاملاً دؤوباً، وعبدت صنم ذاتك، إذا تصوّرت أنك بقوة ساعدك وسلاسة قلمك وفصاحة كلامك استطعت أن تدير شؤون حياتك؛ فأنت مشرك وترى نفسك صنواً لله.

لا يقبل الله عابد الذات

أيها الإنسان، إنّ لك رباً، ألسنت تقرأ «رضيئُ بالله رباً» الرب يعني من يدبّر أمور حياتك من أولها إلى آخرها، منذ أن خلقتك وإلى الأبد، فأصل

الحياة وكلّ شؤونها على عاتقه، وجميع الأسباب التي وضعها مستخراً بإرادته، وكل ما يصلك من خير ونعمة فهي منه.

فإذا عبدت ذاتك، فلن يقبلك الله عبداً له، لأنه لا يريد عبداً مشركاً، ولا فرق في عدم عبودية الله إن كنت تعبد شيئاً خارجياً موجوداً، أو كنت تعبد ذاتك.

وبعبارة أخرى إذا افترض الإنسان نفسه أو أيّ شيء آخر غير الله هو المؤثر في الأفعال؛ يكون قد خرج عن طريق العبودية. وإذا أردت من غير الله شيئاً بشكل مستقلّ فأنت تعبد ذلك الشخص.

لا أقصد أن لا تطلب شيئاً من أحد، لكنني أقول: ليكن قلبك مع الله، ولا تنظر لما حولك كونه مؤثراً، واعلم أنّ الله إذا أراد قضاء حاجتك؛ قضاها عن طريق ذلك الشخص.

لا تطلب شيئاً من أحد لكي تدخل الجنة

نهى الإسلام عن السؤال والطلب بشكل مطلق، ليعود المسلم على التوحيد، وهذا النهي نهى عن المكروه طبعاً، بمعنى أنّ السؤال من الغير مكروه حتى في الحوائج الصغيرة ليصل الإنسان إلى الحدّ الذي لا يطلب شيئاً إلاّ من الله.

يقول (المحقق الأردبيلي) في (آيات الأحكام) في تفسير قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أنّ السؤال من غير الله نهى عنه في الإسلام بالضرورة.

روي أنّ جماعة من أصحاب الرسول ﷺ جاؤوا إليه يطلبون منه أن يجعلهم من أصحاب الجنة ومن أهل النجاة والعاقبة الحسنة.

فأخذ الرسول ﷺ منهم عهداً على أن لا يطلبوا من سوى الله شيئاً أبداً، فعاهدوا على هذا، فأخذ النبي على عاتقه أن يكونوا من أصحاب الجنة.

و(المحقق الأردبيلي) يروي هذه الرواية بدوره، وينقل أنّ هؤلاء نفر التزموا بعهدهم إلى الحدّ الذي إذا كانوا راكبين دوابهم وسقط السوط من يدهم لا يطلبون ممن يمرّ بقربهم أن يناولهم السوط، لأنهم تعاهدوا على أن لا يطلبوا من أحدٍ شيئاً.

مثال من أخلاق (الميرزا الشيرازي)

سمعتُ بنفسِي من (الشيخ محمد كاظم الشيرازي) أعلى الله مقامه عدة مرات أنه قال: كان أستاذي (الميرزا محمد تقي الشيرازي) مثلاً للورع والتقوى، وقد درست على يديه عدة سنين، ولم أره أبداً يطلب شيئاً من أحد، فعندما كان يجوع أو يعطش في البيت لا يطالب بشيء، فإن جاؤوا له بالعشاء من الحریم أكل ما جاؤوا به، وإلاّ نام جائعاً حتى الصباح، كان حذراً إلى هذا المستوى.

أنا لا أقول طبعاً إنّ السؤال والطلب حرام، ولكنّي أقصد أن لا نطلب شيئاً من غير الله بصورة مستقلة.

إذا افترض شخص أنّ مخلوقاً ما مؤثّر بلا إرادة الله وعونه وطلب منه شيئاً؛ فقد ارتكب محرماً.

الأئمة عليهم السلام عبادٌ خلصّ وشفعاء

إننا لا نعتبر حتى الأئمة عليهم السلام ذوي تأثير ومكانة بصورة مستقلة عن الله، أجل إننا نعتبرهم شفعاء ووسطاء بيننا وبين الله، وهم أيضاً خواصّ العباد والمقربون من عرش الربوبية، ولهذا نجعلهم واسطة بيننا وبين الله، ليقضي الله حوائجنا ببركتهم.

عندما يقدّمون النذور لحضرة أبي الفضل العباس عليه السلام يجب أن يعلموا أنّ كشاف الكُرب هو الله (إلهي اكشف كربنا بشرف أبي الفضل) هذا لا ضير فيه، وإلاّ فهو خروج عن صراط العبودية والتوحيد.

إننا نسقط مئات المرات يوماً من هذا الصراط الذي يُعبّر عنه أنه أدقّ من الشعرة، وأنّ المسير عليه ومواصلة الطريق فيه أصعب من المشي على حدّ السيف القاطع. إلّا إذا تَلَطَّفَ اللهُ بنا وقبل توبتنا وشفاعة أهل البيت فينا.

نور الولاية يحفظ الشيعة

أوصى (جابر بن عبدالله الأنصاري) (عطية الكوفي) في يوم الأربعاء أن أحبّ محبّ آل محمد ﷺ ما أحبّهم. وعاد عدوّ آل محمد ﷺ ما عاداهم حتى لو رأيتَه يصلي ويصوم، وتلطف مع محبّ آل محمد ﷺ حتى لو زلّت له قدم من كثرة الذنوب، فإنّ قدمه الأخرى ثابتة بحبّ آل محمد، فإنّ محبّهم يدخل الجنة، وعدوّهم يدخل النار.

وروي عن الإمام الرضا ﷺ ما يشبه رواية جابر، فقد كتب ﷺ إلى جمّاله: «كن محبّاً لآل محمد، وإن كنتَ فاسقاً، ومحبّاً لمحبيهم وإن كانوا فاسقين».

وروي عن الإمام الباقر ﷺ أنه قال في تفسير آية الكرسي: «الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور، يعني من ظلمات الذنوب إلى نور التوبة» بركة أهل البيت ﷺ.

هذه بشارةٌ لمحبيهم ومع أنّ الزلل كثير، ولكنّ نور التوبة يمحوه.

المناجاة المنسوبة للإمام السجاد ﷺ

أتيتُ بأعمال قباح رديّةٍ فما في الورى عبدٌ جنى كجنايتي
أتحرقني بالنار يا غاية الأمنى فأين رجائي منك، أين مخافتي

فلنقتدّ بالإمام ﷺ الذي كان يقول في السجود:

«إن كنتُ بئس العبد، فأنتَ نعمَ الرب، إن كان قبح الذنب من عبدك
فليحسن العفو من عندك».

«وتعبداً لبريته» لقد تحدثنا عن السؤال وطلب الحوائج، إنّ الذي جعل

نفسه عبداً لا يطلب من سوى مولاه شيئاً من حوائجه ومصاعبه وأمنياته. نقرأ في دعاء (أبي حمزة الثمالي): «إلى من يذهب العبد إلا إلى مولاه، وإلى من يلتجئ المخلوق إلا إلى خالقه».

علامة للتوحيد والشرك

قلنا أن لا مانع من التشبث بالأسباب؛ بل هي ضرورية شريطة، أن لا تعتبرها مستقلة عن الله، إنّ الله هو الذي جعل الأسباب، أي على المريض أن يراجع الطبيب ويأخذ الدواء، ولكن الشافي هو الله، إنّ هذه أسباب وقنوات إذا شاء الله فستكون مجدية ونافعة.

إنّ من علامات التشبّث الصحيح بالأسباب هي أن لا يتدمر الإنسان منها إذا خذلتها، ولا يشكرها بشكل مستقل إذا نفعته، بل يقول: (الحمد لله ربّ العالمين مسبب الأسباب) وإذا خذلتها يقول: (أصبرُ على بلاء الله).

وهكذا فإنّ التأمل والتمسك بالسبب بشكل مستقل لا يتفق والعبودية.

نعم لا بأس أن يبحث المرء عن السبب طاعة لأمر مولاه حين قال: ﴿وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥] كأن يجعل من أهل البيت عليهم السلام واسطة لله، ويستشفع بهم لديه، لا أن ينسى الله.

حوار النبي يوسف عليه السلام مع رفيقه في السجن

يقول الله عز وجل في سورة يوسف ضمن قصة السجن ورؤيا صاحب يوسف في السجن: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْعَمِرَ خَمْرًا﴾ [يوسف: ٣٦] ففسّر يوسف ذلك بأنه سيطلق سراح صاحب الرؤيا، ويعمل خماراً لدى عزيز مصر.

وعندما أرادوا إطلاق سراح صاحبه، وقع النبي يوسف عليه السلام فيما نسّميه بترك الأولى، مع أنه معصوم عن الذنوب، لكنه أخطأ في خصوص مقامه ودرجته، وهبط عن مقام العبودية التي يجب على الأنبياء التحلّي بها، وذلك عندما طلب من صاحبه أن يذكره لدى العزيز، ولأنّ سقطات الأنبياء تمحى في

الحال، فقد بقي يوسف عليه السلام في السجن عدة سنين أخرى تكفيراً عن خطئه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ كِبَرَ رَبِّهِ فَكَانَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢].

ولم يتذكره صاحبه عدة سنين تتراوح بين الأربع والخمس أو السبع على اختلاف الروايات، نعم كان يجب أن يبقى في قعر السجون عدة أعوام، إنه التأديب الإلهي.

ولهذا نقرأ في أول دعاء (أبي حمزة الشمالي): «إلهي لا تؤدبني بعقوبتك..».

يروى أنّ جبرائيل عليه السلام نزل حينها على يوسف عليه السلام وقال: يا يوسف، من أنجأك من البئر؟ فقال: الله. فقال: من أنجأك من كيد إخوانك حين أرادوا قتلك؟ فقال: الله. فقال: من أنجأك من كيد النسوة؟ فقال: الله، فقال: فكيف يسأل محتاج محتاجاً؟!

نعم، كلنا مخلوق وعاجز، ويبد الله شرايين قلوبنا، ما من مخلوق إلا هو آخذٌ بناصيته: ﴿هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهِ﴾ [هود: ٥٦].

الكلُّ محتاجٌ لله حتى الأئمة عليهم السلام

الكل هم مخلوقات الله، وتابعة له، حتى الشخص الأول في عالم الوجود، محمد عليه السلام والأئمة الأطهار عليهم السلام، والإمام القائم (عج) وأولاد الأئمة والملائكة والأنبياء والأولياء.. إلخ، ولا تقبل شفاعتهم إلا بإذنه ومشيئته. ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

إنني أكرّر وأؤكد هذه المسائل شرحاً لتلك العبارة: «ولا تأخذ الأسباب كونها مستقلة التأثير» سواءً كانت أسباباً مادية ودنيوية، أو أسباباً معنوية وأخروية: ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

في السابق عندما لم يكن سيل الابتعاد عن الدين قد شمل كل الطبقات

الاجتماعية، كان الكسبة يفتحون دكاكينهم في الصباح الباكر على نعمة: إلهي، منّي الحركة ومنك البركة، إلهي توكلنا عليك.

أي إلهي أنت الكلّ في الكلّ، أنت الرازق، أنت تدبّر أموري لأنك أنت الذي أمرت أن أعمل وأكده، لأنك أنت أمرت أن أذهب للعلاج عند الطبيب، ولكن هذه الأشياء لا تؤثر كلها، أنت المؤثر فقط.

هذا ما علمنا إياه أهل البيت عليهم السلام ورد في زيارة الإمام عليه السلام: «اللهم وشفع هذا الإمام فيّ» لتصلح ما فسد من أموري ببركته، وتقضي حاجاتي الدنيوية والأخروية.

الخلاصة، هو أن يحذر العبد من الانحراف في عبوديته، سواءً في الصلاة أو في الدعاء أو في الاستعانة أو في سائر الأعمال العادية.

أسلوب العبودية وطريقتها

يقول أحد العظماء: رأيت يوماً غلاماً، وكان لي معه حوار هزني من الأعماق، كان فصل الشتاء، وكان الغلام يرتجف من البرد، فقلت له: لماذا لم تلبس ملابس كافية؟ فقال: لا أملك. فقلت له: لماذا لا تذكر هذا؟ فقال: لا يجوز للعبد أن يذكر هذا لغير مولاه. فقلت: صدقت، قل هذا لمولائك. فقال: لقد رأيته مولاي على هذه الحال، فسيعطيني ثياباً متى أراد.

يقول: ففهمت ما هي طريقة العبودية، ووظيفة العبد الطاعة، وكيفية قبوله تقع على عاتق مولاه، فهو يعامله بما يرى فيه صلاحه.

أواه، إننا لم نقض ولو يوماً واحداً بالعبودية، قالوا لك إعمل واشتغل والله الرازق والمبارك في عملك، ولكن ليكن سعيك خالياً من الحرص والطمع، أما ظلم المشتري والجدال والنزاع وترديد: (مالي) و(قدرتي) كلها تنافي العبودية، ما للعبد والفخر والمباهاة.

خلاف العبودية أن تقول: أنا أفضل وعندي أفضل.. إلخ، العبد يعني ليس

عندي إلا ما أعطاني الله، وكل الناس هكذا: لله ملك السموات والأرض: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٨٠] أليس من المخجل أن يفتخر عبد على عبد آخر: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [فاطر: ١٥].

بهلول) في المقبرة

إذا كنت لا تصدق أنّ الكلّ فقراء، فاذهب إلى المقبرة وانظر أصحاب الملايين والشحاذين في أيّ حالٍ هم.

قالوا: إنّ (بهلول) كان يوماً في المقبرة يعبث بجماجم الموتى ويملؤها دائماً بالتراب، ثم يفرغها.

فسأله أحدهم: ماذا تفعل بهذه الجماجم يا بهلول؟ فقال: أريد أن أفرز جماجم الأثرياء عن جماجم الفقراء، أريد أن أعرف جماجم الأولياء من جماجم الغلمان، ولكنني أجدها كلها واحدة.

أي أن كل ما كان في هذه الرؤوس من الأوهام والخرافات كانت هواءً في شبك.

كلّ هذه المفاسد والفتنة كانت نتيجة الجهل بالنفس يعني العبودية، كلّ المشاكل من الخلافات العائلية الصغيرة وحتى الخلافات الدولية إنما هي حصيلة الجهل بالواقع، تصوّروا أنفسهم مستقلّين وأحراراً، وعندما يجد الإنسان نفسه مالكاً ومتصرفاً فلا يرضخ لأن يتدخل غيره في نظام ربوبيته.

المفروض أن نعلم أننا ملوكٌ غيرنا (ولا بدّ يوماً أن تردّ الودائع) هذه الدار لا بدّ أن تفسّخ يوماً ما وترجع إلى مالكها، وظيفتك الطاعة والباقي على عاتق المولى، أثبت على الواجب وأهرب من الحرام.

إذا كنت عبداً لا بدّ أن تتألّم إذا رأيت غيرك يرتكب محرماً ويهتك احترام

مولاك في أوامره، عليك أن تتألم حين ترى ترك الصوم العلني والسفور لأنّ هذا بمثابة إعلان الحرب على مولاك.

إن استطعت فأمر بالمعروف وانه عن المنكر، وإن لم تستطع فتألم في قلبك، عليك أن تعظّم حكم الله، كل ما ينتسب إلى الله فهو محترم، وكلما كانت النسبة أقرب؛ كان الاحترام أكثر.

القرآن والمساجد محترمة باحترام الله

القرآن من ألفاظه ونسخه وجلده وأوراقه حتى العمل به محترم لأنه كلام الله، واحترامه تابع من احترام صاحبه، وكذلك المساجد لأنها تنسب لله ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ [الجن: ١٨] وإلا فلا قيمة للبناء والحجر والأخشاب.

لأنّ هذا المكان منتسب إلى مولاك، يقف الإمام بأدب أمام بابه ويقول: «يا محسن قد أتاك المسيء» ولهذا نقبل باب المسجد وجدرانه.

وعليك أن تحترم مولاك في النواحي إلى هذا الحد أيضاً، وتبتعد عنها. يحرم أن تجلس في مجلس قمارٍ وتتفرج على لعب اللاعبين، ويحرم الأكل على مائدة يقدم عليها الخمر.

أُتّب الإمام الصادق عليه السلام أحدهم لأنه يجالس أحد أهل البدع، فقال له الرجل: أنا لا أرضى بما يقول، فقال عليه السلام: ألا تخشى أن يحلّ بك العذاب الذي يحلّ به.

ينبغي أن لا ندع الناس ترتكب المنكرات حدّ الإمكان، وإن لم نستطع فلا نشارك في مثل هذه المجالس على الأقل لأنها هتك للمولى.

إذا جلس العبد المملوك في مجلس ينالون فيه من مولاه ولم يقل شيئاً، ألا يؤاخذة العقلاء ويسألون لماذا لم تذبّ عن مولاك؟ وإن لم تتمكن فلماذا بقيت جالساً هناك؟.

وَأَنْتَ أَيْضاً يَجِبُ أَنْ لَا تَرْضَى أَنْ تَرْتَكِبَ الْمَعَاصِيَ عَلْنَاً وَتَخَالَفَ أَوْامِرَ خَلْقِ الْعَالَمِ.

ومما يبعث الأمل أن الله ليس صعب الحساب والمؤاخذه، بل إنه سريع الرضا، وإذا أراد أن يؤاخذنا بذنوبنا؛ فمن سببى صالحاً منا؟ ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [النحل: ٦١].

* * *

«٩»

وإعزازاً لدعوته

الحديث حول جواهر كلام الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام في باب خلق نظام الكون، وقد ذكرت الهدف من الخلق في خمس نقاط «تشبيهاً لحكمته» أي ليظهر دقائق ولطائف علمه وحكمته، ويُعرف بالحكمة «كنتُ كنزاً مخفياً، فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق لكي أعرف».

«وتنبيهاً على طاعته» بمعنى أنه أراد أن يعلم الإنسان بوجوب عبادته وطاعته، فمنحه الله مختلف النعم ليفرض عليه عقله الطاعة لله، فكلُّ عقل لم تلوئه الأوهام والخرافات يخضع لمن أنعم عليه.

لماذا لا نرى النعمة؟

لو أنعم علينا مخلوق معشار معشار معشار هذه النعم اللامتناهية التي أنعمها الله علينا، ألا نجاهه جديراً بطاعتنا؟ فكيف بالإحسان والنعم الإلهية التي لو أردنا تعدادها لما استطعنا.

إنَّ الآمال والطموحات لا تدعنا نبصر النعم الموجودة، ولكننا نرى الجهة السالبة والعدمية منها فقط مع أنَّ عدم وجودها فيه مصلحة سامية وأنَّ فقدانها هو في حقيقته نعمة ولكنَّ الناس لا تفهم.

إننا كالطفل الذي يعطف عليه أبواه بسهرهم في الليل وتوفير الطعام والثياب والعناية له، فإذا أراد شيئاً يضره ولم يستجيباً له؛ أخذ بالبكاء

والنحيب، ونسي كل ما أعطياه في دائرة العدم، ولم يفكر في ذلك الحين إلا فيما يشتهي.

إن وضعنا بالنسبة لله هكذا بالضبط، إذا وجدنا نقصاً في إحدى جوانب حياتنا لم نبصر ما أعطانا الله في الجوانب الأخرى، وكأنه لم يمنحنا شيئاً أبداً، أعوذ بالله، أنعترض على القضاء والقدر الإلهي؟

حوار الخضر مع الفقير المتذمّر

كان هنالك شخص فقير، فشل دائماً في الخروج من فقره، وكان يعترض على التقديرات الإلهية دائماً، وذات مرة رأى حضرة الخضر في المنام، فقال له الخضر ﷺ: «أيها العبد إذا أصبحت وقد عميت كلتا عينيك، فكم تعطي لكي تستعيد بصرك؟» فقال: عشرة آلاف دينار، فقال: «فكيف إذا صُمّت أذناك؟»، فقال: عشرة آلاف دينار أخرى، فقال: «وإذا بكمّ لسانك؟» واستمر الخضر ﷺ هكذا حتى عدّ عشرة أعضاء من جسمه. فقال لكل منها عشرة آلاف دينار، فقال الخضر ﷺ: «فافرض أنه كان لديك مائة ألف دينار، ودفعتها إزاء عودة أعضاء إليك».

إذا أحسست بوجع فاحسس بصحة وسلامة الأعضاء الأخرى، ولا تنظر فقط إلى جهة النقص، في حين إذا انكشف الغطاء وجدت أنّ هذا المرض بدوره ذو مصلحة، لو خيّرت لفضّلتها على تلك الصحة.

إنّ الإنسان كفورٌ حقاً، لا يرى النعمة ولا يرى المنعم.

موعظة يحيى بن معاذ لهارون

ذهب (يحيى بن معاذ) يوماً للقاء (هارون الرشيد)، فطلب منه (الرشيد) أن يعظه، فقال يحيى: لو اتفق أن سُدّ حلقومك ولم تتمكن من ابتلاع شيء، فماذا ستفعل؟.

فقال: أدفع نصف ملكي من أجل الخلاص.

فقال: فإن لم تستطع.

قال: أَدفع نصف ملكي الثاني لأنجو.

فقال: «إِذَا تَبَيَّنَتْ قِيَمَةُ مُلْكِكَ الْحَقِيقِيَّةِ، أَنهَا شَيْءٌ يَدْخُلُ بِيَسْرٍ وَيَخْرُجُ

بِيَسْرٍ».

«تَنْبِيْهًا عَلَى طَاعَتِهِ» وَمُلَخَّصَ الْكَلَامِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَبَانَا كُلَّ هَذِهِ النَّعْمِ لَعَلَّ الْإِنْسَانَ يَرْجِعُ إِلَى وَجْدَانِهِ وَعَقْلِهِ وَيَطِيعُ اللَّهَ، وَيَحَدِّثُ نَفْسَهُ: أَنَّ لَهُ عَلَيَّ حَقَّ الطَّاعَةِ، أَنَّهُ خَالِقِي، مَدْبُرِي، رَبِّي الَّذِي بِيَدِهِ كُلُّ أُمُورِي.

«وَإِظْهَارًا لِقُدْرَتِهِ وَتَعْبُدًا لِرَبِّيَّتِهِ» إِنَّكَ تَرَى بَعَيْنِكَ كَيْفَ أَظْهَرَ اللَّهُ قُدْرَتَهُ أَمَامَكَ، فَعَلَى الْبَشَرِ أَنْ يَتَّقِيَهُ بِعِبُودِيَّتِهِ، فَشَرَفَهُ فِي هَذَا لَيْسَ غَيْرَ (الْعِبُودِيَّةُ سُلْطَانٌ فِي حَقِيقَتِهَا) إِنَّ اللَّهَ أَظْهَرَ قُدْرَتَهُ، وَأَجْزَلَ نَعْمَهُ، لِيَقْبَلَ النَّاسَ عِبُودِيَّتَهُ.

العزّة لله وللمؤمنين

«وَإِعْزَازٌ لِدَعْوَتِهِ» الْإِعْزَازُ بِمَعْنَى مَنَحِ الْعِزَّةِ، وَلِهَذِهِ الْكَلِمَةُ مَجَالَاتٌ مُخْتَلِفَةٌ لِلِاسْتِعْمَالِ، وَهِيَ تَعْنِي هُنَا: التَّقْوِيَّةَ وَالْغَلْبَةَ.

(الْعَزِيْزُ) إِحْدَى أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحَسَنِي ﴿هُوَ الْعَزِيْزُ الْحَكِيْمُ﴾ [آلِ عِمْرَانَ: ٦] هُوَ الْغَالِبُ، الْمَتَسَلِّطُ، الْقَوِيّ. وَقَدْ خَلَقَ هَذَا الْعَالَمَ لَتَعْزِيزِ وَتَقْوِيَّةِ دَعْوَتِهِ.

مَا هِيَ الدَّعْوَةُ؟ مِنْ أَجْلِ أَنْ نَفْهَمَ مَا الْمَقْصُودُ بِإِعْزَازِ دَعْوَتِهِ؟ لَنَرِ مَا هِيَ الدَّعْوَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي جَعَلَ نِظَامَ الْعَالَمِ هَذَا مِنْ أَجْلِ إِعْزَازِهَا وَتَقْوِيَّتِهَا، وَإِلَى أَيِّ شَيْءٍ دَعَانَا اللَّهُ.

إِنَّ اللَّهَ دَعَا الْبَشَرَ لِيَصِلُوا إِلَى جِوَارِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ وَضِيَافَتِهِ فِي مَضِيْفٍ يَلِيْقُ بِعِظْمَةِ صَاحِبِهِ.

أَجَلٌ، إِنَّهُ خَلَقَ مِثْلَ هَذَا الْمَضِيْفِ، ثُمَّ دَعَا إِلَيْهِ الْبَشَرَ، إِنَّ اللَّهَ يَدْعُوكُمْ لَتَصِلُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوًا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يُونُسُ: ٢٥]، إِنَّ اللَّهَ يَدْعُوكُمْ إِلَى الْجَنَّةِ، إِلَى مَغْفِرَتِهِ وَرَحْمَتِهِ.

ولقد دعاكم نبيّه في كتابه السماوي إلى مثل هذه الضيافة اللائقة بعظمته.

في وصف المضيف

لقد ذكر القرآن صفات هذا المضيف في أماكن متعدّدة، ولكن بمقدار ما يستطيع البشر أن يفهمه، أما حقيقة هذه النعم والحسنات فهي فوق إدراك الإنسان، يقول تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الحج: ٢٧].

مختلف صنوف المباهج والأفراح والنعم والحياة الخالدة لا تموت، لا زوال هناك أصلاً، بل هي السلامة المطلقة: ﴿إِلَّا قِيلاً سَلْمًا سَلْمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] فلا ألم ولا انزجار ولا حزن ولا حسرة؛ بل هي بهجة متواصلة، ولذة مستمرة، ولهم فيها كل ما يريدون: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٣٤].

إنها السلطان بلا عزل، فكل من وصل إلى هذا المضيف اتكأ على عرش السلطنة، وغير ذلك مما ذكره القرآن عن وصف الجنّات والثمار والأزواج وغيرها.

استجابة دعوة العبودية

إن شرط الاستجابة لهذه الدعوة هو الاستعداد والعبور من الصراط المستقيم، وعدم الزلل في السير على طريق العبودية.

الطريق الذي ينتهي بك مباشرة إلى الجنة هو طريق العبودية، طريق محاربة الشيطان والنفس والهوى وعدم نسيان دعوة الله، لا أن تصمّ أذانك قبالتها، أو أن تعتبر الدنيا نقداً والآخرة وعداً كما فعل (عمر بن سعد) حينما افترض الآخرة وعداً، وجائزة (عبيد الله بن زياد) نقداً، ولكنه حُرّم ما تأمله في هذه الدنيا، وكان مصداقاً لمن خسر الدنيا والآخرة.

من يفعل ذلك ليس له في هذه الدنيا راحة بال واطمئنان قلب، فالطمأنينة

القلبية من خصوصيات عباد الله، أجل، الله هو الذي يفى بوعده، والشيطان يخلف وعده.

رزق الدنيا والسعي للآخرة

قال الله: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] عندما كنت في بطن أمك، وبعدها في المهد كان رزقك على الله، فهل رزقك على غيره الآن؟ أما بالنسبة للآخرة فيجب أن تستجيب لدعوتها، وتهيئ نفسك لها: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ [النجم: ٣٩] من المستحيل أن يرفض الإنسان الدعوة، ثم يدخلوه الجنة بالقوة.

واعجباً، إذا دعا أحد الأعظم جماعة استجابوا له وسلكوا إليه الطريق المناسب، وإذا تخلف أحدهم ولا جبر في المسألة، فهو أعمى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾ [الإسراء: ٧٢].

هل يتصوّر الذين يبهرون وتشغف قلوبهم بجمال أية امرأة جميلة يبصرونها أنهم سيبصرون غداً جمال محمد ﷺ وجمال الحور العين والجنة وما فيها؟! وهل تطمع الأذان المشغولة بسماع الموسيقى واللغو أن تصغي لنعيمات الجنة الأسرة، أو الذين يملؤون بطونهم بالحرام أن ينالوا من طعام الجنة. يجب الاستجابة للدعوة، وسلوك الطريق الصحيح لها، وإلا فهو الغرور.

الله كريم في الدارين

يقول الواحد متاً حين نتكلم عن الآخرة: (الله كريم) اعلموا أنه يكذب في ما يقول، هل الله كريم في الآخرة وبخيل في الدنيا؟

كيف حلا لك أن تكون حريصاً على الدنيا هكذا ومتألماً من أجلها، ولا تصدق الوعود الإلهية في تأمين الرزق لك ولا تقول: (الله كريم) في حين تتماهل اتجاه الآخرة التي شجعتك الله لها كل هذا التشجيع وخوفك كل هذا التخويف، ويلقي الشيطان على لسانك أن: (الله كريم).

ولهذا يقسمُ الإمام علي عليه السلام بكذب من قال هذه المقولة: «كذبٌ والعظيم»
لماذا لا يتمظهر أمله في عمله؟ لو كان له أمل بكرم الله لعمل للآخرة لُيْتَمَّ
أسباب الكرم الإلهي.

إنّ الذي يفكر بآخرته يزداد أمله لأنه على يقين من الجزاء، قال
الرسول ﷺ: إذا قرعت باباً فلا بد أن يطل أحدهم في النهاية، وعلى العكس
من هذا الجاهل المغرور الذي يُجري الشيطان على لسانه أن لي في الله أملاً،
وأنّ الله كريم ولكن لا أثر للخوفِ أو الأمل فيه، هذا هو من قال عنه الله:
﴿فَلَا تَعَزَّزْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَفْرَزْكُمْ بِاللَّهِ الْفَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣].

* * *

وإعزازاً لدعوته

كان الحديث في عبارة «وإعزازاً لدعوته» وقد ذكرنا أنّ العزّة تعني الغلبة والسيطرة، وقد تأتي هنا بمعنى التقوية.

وحصيلة المعنى أنّ الله خلق الكون ونظامه لتقوية وتعزيز دعوته إلى الجنة، وإلى المقدمات التي تُهيئ الإنسان لدخولها، وفي طليعتها: التوحيد، فبدون التوحيد يستحيل دخول الجنة.

الدعوة إلى التوحيد طريق الفلاح

الدعوة إلى التوحيد أولى دعوات الرسول ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا». إعلم أيها الإنسان أنّ خالقك وخالق العالم كله واحد، فلا بدّ أن تكون عبادتك وعبادة الغير لهذا الواحد فقط، ومن أجل إثبات التوحيد جعل الله باطن العالم وظاهره واحداً، وأظهر الله قدرته ووحدته جليّة إلى الحدّ الذي لا يمكننا معه إلاّ أن نردّد:

وفي كل خلقٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدٌ
كلّ أوراق الأشجار ورمال الصحارى ونجوم السماء وقطرات المطر تشهد
بتوحيده، فالله عزّز دعوته لتوحيده بصفاته.

في كلّ مكان نداءً: لا إله إلاّ الله. والشهادة بوحدة النظام على صعيد وحدة النوعية أو وحدة الغاية، نحن نرى أنّ كلّ أجزاء العالم مرتبطة ببعضها، كلّها صنّعة معمل قدرة واحد.

الذي خلق الفيل، خلق البعوضة وما وضعه في جسم ذلك الحيوان الضخم وضعه في جسم هذا الحيوان الصغير، إن الإنسان ينظر إلى نفسه وإلى باقي أبناء جنسه فيفهم أنّ الصانع واحد، وكل الأشياء من قدرة واحدة.

وحدة النظام مرآة لوحدة الناظم

بالإمكان اكتشاف وحدة الله من وحدة النظام، فعلى سبيل المثال إن وحدة دوران الشمس والقمر والأرض، وكيفية ارتباطها ببعضها، ولوج النهار في الليل والليل في النهار، وكيف يساعد ضوء الشمس النباتات والحيوانات في الكرة الأرضية وعبر ملايين الفراسخ على الحياة والنمو، وكيف تحافظ الشمس بقوة جاذبيتها على أن تبقى الأرض في مدارها المعين.

والخلاصة، يمكن من خلال النظم الموجود في أجزاء عالم الوجود التيقن أنّ خالق الشمس والقمر هو نفسه خالق الأرض.

هذا دليل يستطيع سامعه أن يقبله بعقله، حتى لو لم يكن على أدنى علم بأصول الفلسفة والمنطق، فوحدة الغاية من المخلوقات ووحدة العلاقة والارتباط بينها تدل على وحدة خالقها يقيناً.

فليُنظر الإنسان مثلاً إلى الصحراء ويتمعن في أنواع الفواكه والحبوب، ثم لينظر إلى نفسه حيث الأسنان والجهاز الهضمي والذائقة، عندها سيعلم أنّ الذي خلق القمح والرز والفواكه وغيرها هو الذي خلق الأسنان في الفم، لأنّ وظيفة الأسنان والذائقة هي التذوق والمضغ والأكل.

فياكل البطيخ مثلاً ويقول: الحمد لله رب العالمين.

فالفواكه تصبح جزءاً من جسم الإنسان، وتحلّ محل ما يتبدّل من الجسم.

إذاً، فمن الوحدة تتضح الغاية، وهي أنّ الخالق واحد، وجميع المخلوقات مرتبطة ببعضها لأنّ خالقها واحد، هو القادر والمدبّر والمدير، فلا يبقى شك وارتياب لأيّ عاقل.

القرآن والتفكير في الخلق

لهذا يذكرنا القرآن الكريم أنّ علينا أن نمعن النظر في ما حولنا: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ﴾ * أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا * ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا * فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا * وَعَيْنًا وَقَضْبًا * وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا * وَفِكْهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: ٢٤ - ٣١].

انظر إلى النخل، إلى العنب، حتى تصل إلى الأنعام التي خلقت للإنسان أيضاً: ﴿وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ [النحل: ٥]، إذاً فخالق الأنعام وخالقك وكل ما في الوجود واحد، لأنها جميعاً من أجل بعضها. إنّ الذي خلق جسم الإنسان المذهل خلق النباتات والحيوانات، فالنباتات جزء من الحيوان والحيوان جزء من الإنسان، ليصل الإنسان إلى الدرجات والرتب العليا، إلى الدرجات التي يشهد فيها بوحداية الله عن علم ويقين.

فالإنسان إذاً هو لب عالم الوجود، والباقي قشرته، فقد يصل الإنسان إلى حيث يردد مع الذات الإلهية الأزلية: (لا إله إلا الله).

من وحدة الصنع نستنتج وحدة الغاية بشكل علمي ويقيني وهي التوحيد، فيقول عن علم (أشهد أن لا إله إلا الله) التشهد من الشهادة يعني الحضور معنى أن هذا الشيء بديهي عندي مثل الشمس وهو أن أشهد أن خالق السماوات والأرض والكواكب واحد، المدير والمدبر واحد والجميع يتحركون بإرادة واحدة، أين ما يوجد كائن حي فهو من مبدأ واحد للحياة ﴿وَاللَّهُ كَرِيمٌ﴾ [البقرة: ١٦٣] ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌُ﴾ [الزخرف: ٨٤].

شواهد التوحيد لا تحصى

أردتُ أن تتضح عبارة «إعزازاً لدعوته» فكم لله من شواهد تدل على توحيدهِ والتشهد به؟

لكلّ موضوع إذا أريد إثباته أكثر من دليل واحد، عشرة أدلة، مائة دليل؛

بل قل ألف دليل، ولكن خالق العالم جاء بالأدلة على وحدانية صفاته الكمالية بعدد أوراق الشجر وأسماك البحار؛ بل بعدد الموجودات اللامتناهية.

كل ورقة من أوراق الأشجار الخضراء هي كتاب لمعرفة الله في نظر العاقل.

كل وريد من أوردة جسمك، وكل عظم؛ بل كل شعرة تشهد أن خالقها وخالق بقية أعضاء الإنسان وجسده هي دليل على القدرة الإلهية الأزلية العليمة والحكيمة والقديرة، فلسان حالها جميعاً (لا إله إلا الله) ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نَفِدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والدعوة الأخرى التي دعا إليها الله هي الدعوة إلى الجنة والدار الآخرة ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ﴾ [يونس: ٢٥] الشيطان يدعوك إلى الدنيا والهوى والنفس والشهوات، أما الخالق فيدعوك إلى عالم تجلّى فيه أصل القدرة والسلطة الإلهية، وأنت جدير بذلك العالم.

إنّ الله عزّز دعوته إلى القيامة والجنة والمعاد بما أظهر من مقدرته في عالم الطبيعة.

التكامل الدنيوي نموذج لما بعد الموت

انظر إلى النشأة الأولى لتعلم أنك تسير نحو الكمال، في البداية كنت نطفة، ثم صرت علقة، وبعدها مضغة، وجاء بعد ذلك دور العظام واللحم، وعندها دبّت الروح فيك، حتى أتيت إلى هذا العالم ضعيفاً وعاجزاً وصغيراً وقليل الإدراك. فتدرّجت القوى الحيوانية فيك، حتى بلغت الكمال، فهل مرّت بحالة وقفة في مسيرها؟

انظر كيف سرنا بك نحو الكمال، إنّ هذا الكمال هو أول مرتبة ودرجة من درجات الكمال والمستوى البدائي منه، فكمالك الحقيقي يبدأ بعد الموت.

الإدراكات تزداد بعد الموت

إنك في أول الولادة لا تفهم من المعقولات شيئاً، ولكن إدراكاتك تزداد، وعقلك ينمو بمرور السنين، إذا أنت في سير نحو الكمال، ولا يحصل توقّف في هذا السير بالموت.

خلاف الحكمة أن تفتنى بالموت، أنت ترى الحكمة الإلهية في جميع أجزاء عالم الوجود، وإن كنت تفتنى بالموت فخلقك كان عبثاً إذاً، ولا يقبل هذا الكلام أيّ عقل أو ضمير، ولكن الموت بداية سيرك التكاملي، وبداية استمتاعك وحصادك وكما قال الأوائل: (المعرفة بذر المشاهدة).

قضيت عمراً هنا في السعي والتفكير، فوصلت إلى فهم مقام أمير المؤمنين علي عليه السلام أما الموت فإنه الرؤية العيانية لما فهمته في الدنيا، فيه ترى بحق سمو مكانة أمير المؤمنين علي عليه السلام فهناك عالم الشهادة، تشاهد فيه كلّ ما اكتسبته هنا من المعارف والحقائق والمعلومات.

المقصود هو نمو الإدراكات وتطورها حتى تصبح من بعد الموت بصورة شهودية وعيانية.

لا عجب في قول الله ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] مهما ترقى الشخص فلا يزال المجال واسعاً لترقيته، ويحصل على نعم وحسنات وألطف جديدة، والألطف هنا ليست متكررة ليملّ منها الإنسان؛ بل هي متجددة دائماً وبديعة.

فهل رأيت كيف أوصلناك إلى الكمال في النشأة الأولى، ودعوناك إلى كمال أعلى ومقام أسمى، من يا ترى فاز بالحياة السعيدة في الدنيا؟! إذا فالدار الآخرة هي محل السعادة الحقيقية.

نموذج من الدعوة إلى اللذائذ

البراهين الإلهية للدعوة إلى الجنة أكثر من أن تحصى، عزّز الله دعوته بنعم لامتناهية (هذا إذا كان الشخص من أهل الاعتبار والفهم).

والنموذج عليها في هذه الدنيا الضيقة التي لا يمكن لكل القدرة الإلهية أن تتجلى فيها هي كحبة البطيخ عندما تزرعها في الأرض فتعطيك العديد العديد من البطيخ وحب البطيخ.

هذا نموذج من التكامل في الموجودات، ومثال بسيط على اللذائذ الأخروية، هذه، أمثلة تهزك من الأعماق لتصل إلى منبعها وأصلها.

هذه قطرة من الحلاوة التي حفظت خزائنها عند الخلاق، كل ما تراه من الجمال ذرة من الجمال المدّخر لما بعد الموت.

كان الحديث في أنّ الله دعّم دعوته لتوحيده بشواهد لا تحصى، لقد أودع الله من الشواهد في نظام الخلق هذا بحيث غدا التوحيد أوضح الأمور العقلية لأيّ عاقل، والدعوة الأخرى هي الدعوة إلى المعاد ليعم البشر أنّ الذي خلقهم لرادهم إليه، نحن من الله ونعود إلى الله، إلى العالم الأعلى إلى لقاء الله.

أيها الإنسان أنت لا تفنى بالموت، إنّ الله سيمنحك الحياة مرّة أخرى، ويحاسبك على أعمالك وأفعالك، ويعلو بك إلى مراتب لم تسمع بها أذن ولم ترها عين، وقد وضع من الشواهد التي يقوّي بها دعوته ما لا عدّ له ولا حصر. يا من تستغرب كيف يمكن أن يُبعث الإنسان بعد دفنه وتفسّخه، أنظر كيف اجتمعت الجزيئات المتفرّقة والمختلفة لتصير نطفة.

أليس النبات الذي هو الآن في يدي ويدك سوى ذرات وجزيئات منتشرة في التراب، ثم اختلط بباقي الجزيئات وبنسب معينة، حتى أخذ شكل الثمار على يد القدرة الإلهية؟

يجمع الله الشتات يوم القيامة

العجيب أنّ القمح أو الحنطة عندما تدخل جسم الأب عن طريق الأكل

تتوزع على جميع أجزاء الجسم، وبعد ذلك تجمعها يد القدرة الإلهية مرة ثانية في صلب الأب، ثم تنتقل عن طريق القنوات المنوية إلى رحم الأم.

أنظر كيف جمع الله الذرات المشتتة، فصارت جسماً، وسوف يجمع الذرات المشتتة مرة ثانية. وقد ذكر الله هذا المعنى مراراً في القرآن الكريم للذكرة: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩].

إنَّ الله جسّد المعاد أمام عينيك بهذه الصورة، فهل لا زلت تستغرب منه وتقول: ﴿إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا إِذَا لَمَبُوتُونَ﴾ [الصفات: ١٦].

حياة الأرض بعد موتها

إن كنت لا تزال في ريب، فانظر إلى الأرض تحت قدميك كيف كانت في فصل الشتاء ميتة والنباتات كلها يابسة، ولكنها فجأة وبمجيء الربيع تكتسب حياة جديدة، وتتسم بعلامات الحياة، فتظهر النباتات المختلفة بألوان الفواكه والثمار، هذه هي الحياة بعد الموت.

النوم، دليلٌ بينٌ على المعاد

من الأدلة القوية التي وضعها الله في عالم التكوين لتبرهن بوضوح على المعاد والحياة بعد الموت، والتي تمرّ بكلّ إنسان يومياً هو النوم، والنوم تقريباً أمر إجباري خارج من يد البشر، فالنوم بمنزلة الموت، واليقظة بمنزلة البعث.

كيف تتعجب من البعث بعد الموت، وأنت تموت وتحيي مرة واحدة كل يوم على الأقل: ﴿وَمِنَ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ﴾ [الروم: ٢٣] ويقول الله كذلك في سورة الأنعام: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّكُم بِاللَّيْلِ﴾ [الأنعام: ٦٠]، النوم والموت يتشابهان كثيراً، فالعين والأذن والذائقة والإرادة والتدبير تتوقف جميعها في النوم، ولا يبقى سوى شعاع من الروح في الجسم تستمرّ به النشاطات النباتية وعمليات الهضم والتنفس والدورة الدموية، ويمكن الجزم أنّ شعاعاً من الروح

يبقى في جسم الإنسان أثناء النوم، لا فرق للنائم مع الميت من حيث قواه العقلية وتدبيره لقضايا وشؤون الحياة، إذا فالنوم أخو الموت.

فعندما تستيقظ من النوم فقد بُعثت من الموت، فهل ما زلت تتعجب من البعث بعد الموت؟

قدرة الله تتجلى في حالة الاحتضار

حتى متى هذا الممات وهذه الحياة؟ ﴿لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠] لا تتوهم أنّ بإمكان أحد أن يتحكّم في موته، لو لم تكن مقهوراً أمام الله لما كان موتك في يديه، إن كنت صادقاً في تبجحاتك فأرجع أحد المحتضرين إلى الحياة.

ولا يحدثنا التاريخ أنّ أحد البشر استطاع أن يرجع لإنسان ما حياته ساعة الاحتضار: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْخُلُوفَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نُّظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ * وَلَكِنْ لَا بُحْرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الواقعة: ٨٣ - ٨٧]. لو لم تكن هناك قدرة علوية فوق العلل المادية، فلماذا إذاً لا تستطيع كلّ القدرات وكلّ الأطباء، بل جميع العرّافين وأهل الخرافات أن يؤخّروا أجلّ عزيز من أعزّائنا الذين عجزنا نحن بدورنا عن تأخير أجلهم. فاعلموا إذاً أنّ الأمر ليس في أيديكم؛ بل جعل الله لكلّ إنسان أجل وعمر معيّن، ثم يرجع الكلّ إليه ليروا أعمالهم وأفعالهم حاضرة.

آداب ما قبل النوم

إنّ الله يصرّح في القرآن الكريم أنّ النوم نوع من الموت، نعم فالموت نوم طويل لا يقظة منه حتى تقوم القيامة.

ولهذا جاء في الروايات أنّ المؤمن إذا أراد النوم فلينم تائباً، وليعدّ كفته، كان النبي ﷺ يتوضأ إذا أراد النوم ثم ينام على يده اليمنى كما يوضع الميت

في القبر، ويضع يديه تحت وجهه ويمدّد رجليه باتجاه القبلة وينام. ويقول حينما يستيقظ: «الحمد لله الذي أحياني بعدما أماتني، وإليه البعث والنشور».

ولهذا قيل إنّ النوم الكثير مضرّ، فبالإضافة إلى مساوئه الصحيّة لا يتمكّن الإنسان من فعل الخير لأنه ميت أثناء النوم، وهكذا لا يمكن أن تُحسب فترة النوم ضمن عمر الشخص، نصف العمر تقريباً يذهب هدرأً بالنوم.

ولهذا يستحبّ للمؤمن أن ينهض مبكراً من النوم، ويتوجّه إلى الله، ولا ينام إلاّ بمقدار حاجته وما يرفع تعبهُ، ولا يكن ميتاً (نائماً) وقت أذان الصبح.

كلّ نفسٍ من أنفاسك جوهرةٌ ثمينة تقودك نحو الله

«قيمة أعمالكم الجنة» فلا تلتفوها لهواً ولعباً قبل أن نطلب ونرجو من الله أن يرجعنا لنعمل صالحاً ونسمع جواب الرفض، فاعلم إذاً حين تستيقظ من النوم أنّ جوابك لم يكن الرفض بشكل كامل، بل أرجعوك ثانية لتعلم قدر عمرك مجدداً.

كم من الناس نام ولم يستيقظ، بمعنى أنّ ذلك الشعاع الروحي أخذ من بدنه، أو أن يموت الشخص في حالة اليقظة.

تعديل النية قبل النوم

ومن هنا يجب على المؤمن أن يكون مستعداً دائماً: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيِّنًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧].

على المؤمن أن يعدّل ويقوم نيته إذا أراد النوم، ولا ينام إلاّ بنية حسنة، كأن ينام ليستيقظ في الأسحار، ويطرق باب الله فيتوب ويُنيب ويقول: (العفو، العفو...).

وإذا لم يستيقظ ومات في النوم، فمرحاً لتوفيقه، لأنه كان في نيته أن يعمل خيراً إذا استيقظ، والويل لمن يموت أثناء النوم وكان في نيته أن يفعل شراً إذا استيقظ، فإنه سيحشر بهذه النية.

ذِكْرُ اللَّهِ عِنْدَ النَّوْمِ

ينقل (السيد ابن طاوس) في (فلاح السائل) عن (تاريخ اليعقوبي) أَنَّ أَحَدَ الأكَاسِرَةِ كَانَتْ لَهُ سَنَةٌ حَسَنَةٌ، وَهِيَ أَنَّ يَضَعُ رَأْسَهُ عَلَى التَّرَابِ قَبْلَ النَّوْمِ وَيَقُولُ: إِلَهِي ابْعَثْنِي مَرَّةً أُخْرَى.

يقول السيد: أيها المؤمنون إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ الْغَارِقَ فِي الْغَفْلَةِ، انْتَبَهَ إِلَى هَذَا الْمَعْنَى، وَهُوَ أَنَّ يَقْضِيهِ بَعْدَ نَوْمِهِ، أَي بَعَثَهُ بَعْدَ الْمَوْتِ بِيَدِ اللَّهِ. وَأَنْتَ مِنَ الْمَوْحِدِينَ، فَعَلَيْكَ أَنْ تَذَكَّرَ خَالِقَكَ الَّذِي بِيَدِهِ رُوحُكَ فِي كُلِّ لِحْظَةٍ، فَرُبَّمَا اتَّصَلَ نَوْمُكَ بِالْمَوْتِ وَلَمْ تَسْتَيْقِظْ.

وينقل (السيد ابن طاوس) هذا القول المختصر أيضاً: إِنْ كُنْتَ ضَعِيفاً عَنِ الْخَيْرِ، فَاضْعَفْ عَنِ الشَّرِّ. أَلَا تَخَافُ أَنْ يَأْخُذَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ نَائِمٌ وَقَلْبُكَ غَافِلٌ وَغَيْرُ مُسْتَعِدٍّ.

واعجباً، أَتَنْحُتُ بِيَدَيْكَ الْغَفْلَةَ لِنَفْسِكَ، كَدُودَةَ الْقَرِّ الَّتِي تَغْلِقُ عَلَى نَفْسِهَا طَرِيقَ الْهَرَبِ، إِنَّ هَذَا غَيْرُ صَاحِحٍ، حَاوِلِ التَّقْلِيلَ مِنْ غَفْلَاتِكَ حَتَّى لَوْ كَانَتْ سَاعَةٌ غَفْلَةٌ وَاحِدَةٌ كُلِّ يَوْمٍ، إِذَا لَمْ تَكُنْ فِي ذِكْرِ اللَّهِ دَائِماً فَلَا تَكُنْ عَلَى أَقْلٍ تَقْدِيرٍ فِي غَفْلَةٍ دَائِماً، وَقَبْلَ أَنْ تَقُولَ: ﴿بِحَسْرَتِي عَلَى مَا فَرَطْتُ فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٦] وَعَلَيْهِ فِ: ﴿وَأَنْبِئُوا إِلَى رَبِّكُمْ﴾.

« ١١ »

«ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده من نعمته، وحياسة لهم إلى جنته»

ليدخلوا الجنة ببركة العبودية

لقد كشف نظام التكوين عن سرّ العبودية: «ثم جعل الثواب على طاعته» ليدخل البشر الجنة ببركة طاعة الله «وضع العقاب على معصيته» نحن بحاجة إلى مقدمة لشرح هذه العبارات.

من الأسس الثابتة بالبراهين العقلية والنقلية المتواترة هو أنّ الغرض من خلقة البشر هو وصولهم إلى منزلة القرب الإلهي التي يحظون بها من بعد الموت في جوار الله ولقائه. وهذا المعنى من المسلّمات التي شرّعت من أجلها جميع الأحكام والتشريعات.

فأنت تقول في كل عبادة تقوم بها: (قربة إلى الله) أي إنني أتقرب ببركة هذا العمل من الله.

القرب من العظيم يورث العظمة

بإمكان البشر أن يقتربوا من الله، ويدركوا عظمتهم، بمقدار ما يستوعبونه، الله عظيم والذي يقترب من الله يكتسب العظمة، والله غني فبإمكانك أن تكون غنياً، ويصل بك الأمر أن يحصل لك ما تريد كما يحصل لله ما يريد.

فكما تظهر قدرة السلطة في الإنسان إذا كان من مقرّبي السلطان، سوف يستغني الإنسان الذي يقترب من إله العالم، ولن تصيبه سوى البهجة والسرور، ولا يدنو إليه الهمّ والغمّ.

ويصل به الأمر أنه إذا أراد في الجنة أضعاف أضعاف الدنيا؛ مثلت أمامه فوراً، كما يحصل للأنبياء ﷺ في هذا العالم، مع فارق أنّ ما يستوعبه هذا العالم قليل جداً وليس بإمكانه أن يُظهر قدرة الله اللامتناهية.

أجل، إنّ عالم الدنيا خيط صغير من تجلّي قدرة الحق اللانهائية.

طريق القرب، مقتصر على العبودية

والآن، ماذا على الإنسان أن يعمل ليصل إلى ذلك المقام؟ من المحال أن يصل ما لم يسلك طريق العبودية، ما لم يكن هنا عبداً مطلقاً فلن يكون سلطاناً مطلقاً هناك، ولا طريق إلاّ هذا، هل سمعتم القول: «العبودية جوهرة كنهها الربوبية» إذا توهمتم أنّ بالإمكان الوصول إلى السلطان الحقيقي دون الطاعة فهذا محض كذب وغرور.

الذنب يورث البعد

كيف يريد من يتعد عن ربه بارتكاب الذنوب أن يكون مقرّباً من المقام الإلهي؟ كيف يحظى بالقرب الحقيقي ما لم يكن حاله كلسانه حين يقول «أنا عبدك الضعيف الذليل الحقيير المسكين المستكين».. وقد ورد عن الإمام الباقر ﷺ: «إن أقرب ما يكون عليه العبد من ربه إذا بكى وهو ساجد» ولهذا يقول الله في آخر آية من سورة العلق ﴿وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ﴾ [العلق: ١٩].

فالهدف هو حصول القرب، ولا يحصل القرب إلاّ عن طريق الطاعة والعبادة، ولا يمكن بغير ذلك. فالمعصية بُعدٌ عن الخالق، والذي يبعد نفسه بالمعاصي لا يمكن أن يقترب بالقوة، فالجبر خطأً عقلاً وشرعاً.

في مفترق الطرق

هنا دار الاختيار لما تشاء، كلّ شخص يقف أمام مفترق طرق أربعة. فإما طريق البهائم، أو طريق السباع، أو طريق الشياطين، أو طريق الملائكة. ولا يوجد سوى هذه المجالات الأربعة، ولا يسلك أحد طريقاً منها بالقوة والإجبار.

فإن سلك طريق البهائم، فإن كمال البهائم هو: الطعام الجيد والجُماع، ومصيرها: حمل الأثقال، ثم يصير لحمها طعاماً للإنسان. الإنسان الذي لا يهتمّ سوى بطنه وشهواته الجنسية؛ سيبقى يدور حول هذه الأشياء.

الطريق الثاني: طريق السباع والوحوش. وميزتهم أذى الغير. ومن يختار هذا الطريق فهو من الوحوش ولا فرق له معهم سوى أنّ الكلب يعضّ بأسنانه أرجل الناس، والإنسان يُسقط بلسانه ماء وجوههم، ويسرق بكفه أموالهم، ويتجنّى عليهم بقلمه وكتابته.

وهذا النوع من البشر يُحشر يوم القيامة على هيئة الوحوش.

الطريق الثالث: طريق الشياطين. قد يصل مكر وخداع وتحايل وشيطنة البشر إلى أن يكون أحطّ وأسفل من الشياطين.

والطريق الرابع: طريق عبادة رب العالمين وإطاعته. وهذا هو طريق الملائكة، وإذا سلّكه الإنسان؛ كان أفضل من الملائكة؛ بل ستكون الملائكة من خدامه.

ويبقى أن يختار الإنسان الطريق الذي يسعى فيه.

عبادة الله لا تجتمع وعبادة الهوى

ولا يمكن التذبذب، بمعنى أن يجمع الإنسان بين طريق الشيطان والبهائم وطريق الله، فهذان متضادّان. كيف يمكن لعابد البطن والهوى والوحش الماكر

الذي لا يتورّع عن ارتكاب آية معصية أن يكون عبداً لله؟ لا يمكن أن يكون عبداً مشتركاً، فلا بد من اختيار أحد الطرق.

إذا وفق شخص لسلوك طريق الطاعة فإنّ هذا هو الهدف من خلق البشر، وإنّ أعرض عن العبودية؛ نزل بواسطة طاعة الشيطان إلى أسفل السافلين.

والخلاصة إنّ عمرك إمّا أعلى عليّين وجوار الملك، أو أرفع من هذا. وإمّا أسفل سافلين والسجن مع الشياطين، أو أقل من هذا.

الأجر من أجل الحثّ على الطاعة

بما أنّ الله يحبّ أن يختار البشر الطريق الرابع، أي أن يترك الإنسان عبادة نفسه وهواه، ويصل إلى مقام القرب الإلهي؛ فقد جعل لعبادتنا وطاعتنا أجراً، ليحثنا أكثر، ويبعث في نفوسنا الهمة.

«جعل الثواب على طاعته... حياشة لهم إلى جنته» ومع أنّ كلّ شيء منه تعالى والكلّ عبده ومخلوقاته، لكنه لم يكتفِ بالترغيب، بل خلق جهنم لكي لا يهرب الإنسان منه، ووضع عقوبات وعذاباً ليخاف البشر، وليعلم أنّ الإعراض عن الله يتسبّب بالحرمان من الدرجات والرتب العالية؛ بل يضعه أمام وادي الجحيم.

مهما كان الخير صغيراً، فعليه أجر

يروى (الشيخ النوري) ضمن الرؤيا الصادقة في (دار السلام) أنّ أحدهم رأى في المنام أحد الأخيار، فسأله عمّا جرى له بعد الموت، فقال: إنني شاهدت أمامي كل ما عملته في دنياي من أعمال الخير موضوعاً في كفة حسناتي، ولكنها لم ترجح على كفة السيئات (مسكين من تفوّت سيئاته) وفجأة جاء شيءٌ مثل الكيس النوراني وأرجح كفة حسناتي فسألت: ما هذا الذي أنجانني؟ فقالوا: أتذكر أنك يوماً كنت في تشييع جنازة المؤمن الفلاني،

وحيثما دفنوه أَلْقِيَتْ قبضة تراب على جسده؟ (لأن من يبني لمؤمن قبراً له ثواب إهدائه بيتاً إلى يوم القيامة).

وهذا جزاء عملك ذلك.. نعم، ومن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، فهل رأيت من يجزل الأجر أفضل من الله؟

إنَّ الله يثيب هكذا ليرغّب البشر في طاعته: «ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده من نعمته، وحياشة لهم إلى جنّته» فاهرب من معصية الله، والجا إلى طاعته.

حياة حسنة، ليكون مع الله

وعلى كلّ حالٍ فالله يحبّ أن يكون تعاملك معه، لأنّ في ذلك عزّة وسعادة الدنيا والآخرة، أن تكون مع الله ولا تتبعد عنه، أي لا تعصيه، فالذنب يبعد ما بينك وبين الله.

الحياة، حياة عبداً لله، فله السعادة، ولا فخر ولا شرف أعلى من أن يكون عبداً لله: «فالعزّ كلّ العزّ للمتقي» إذا أردت العزّة كن تقياً.

قصة عصا ابن طاوس

للسيد ابن طاوس كلام جميل في آخر كتاب (فلاح السائل) يدعو فيه المؤمن إلى عبودية الله، يقول: إن كنت حقاً عبداً لله، فالله يحفظك ومالك. فربما تنام، ولكن ربك لا ينام ليعينك، ويقول: إنّ من عادتني أن أوكّل كلّ شيء لله، وأقول في تعقيب كل صلاة: (أعيذ نفسي وأهلي ومالي بالله من الشيطان الرجيم).

كان عندي عصا من شجر البندق المرّ في طريقي إلى الحج، وكنت أضعها تحت الهودج فوصلنا منتصف الليل إلى منزل، فنزلنا، فلم أرَ العصا، فعلمت أنها سقطت منّي في الطريق ليلاً، عندها قلت لسيد من أقربائي اسمه (ركن الدين) إذ ذهب وابحث عن عصاي وأتني بها.

فقال السيد: ماذا تقول؟ كيف أجد عصا لا أدري أين سقطت في الصحراء؟

فقلت له: إن حاجياتي لا تضيع ولا تتلف، فإني أودعت مالي لله الحي القيوم، إذهب وجثني بها.

فأخذ الإبريق ليترك القافلة، فرأى آخر القافلة قد وضعت أثقالها، وهناك عصا وضعوها وربطوا بها قطعة قماش، فعلم أنها عصاي قد عثر عليها أهل القافلة وربطوا بها قماشاً ليعلم بها صاحبها (من توكل عليه كفاه).

لم يرتكب السيد ابن طاوس أي محرّم أو مكروه طوال عمره، فعبودية النفس والشيطان ذل.

الزهراء وزينب عليهما السلام نماذج العبودية

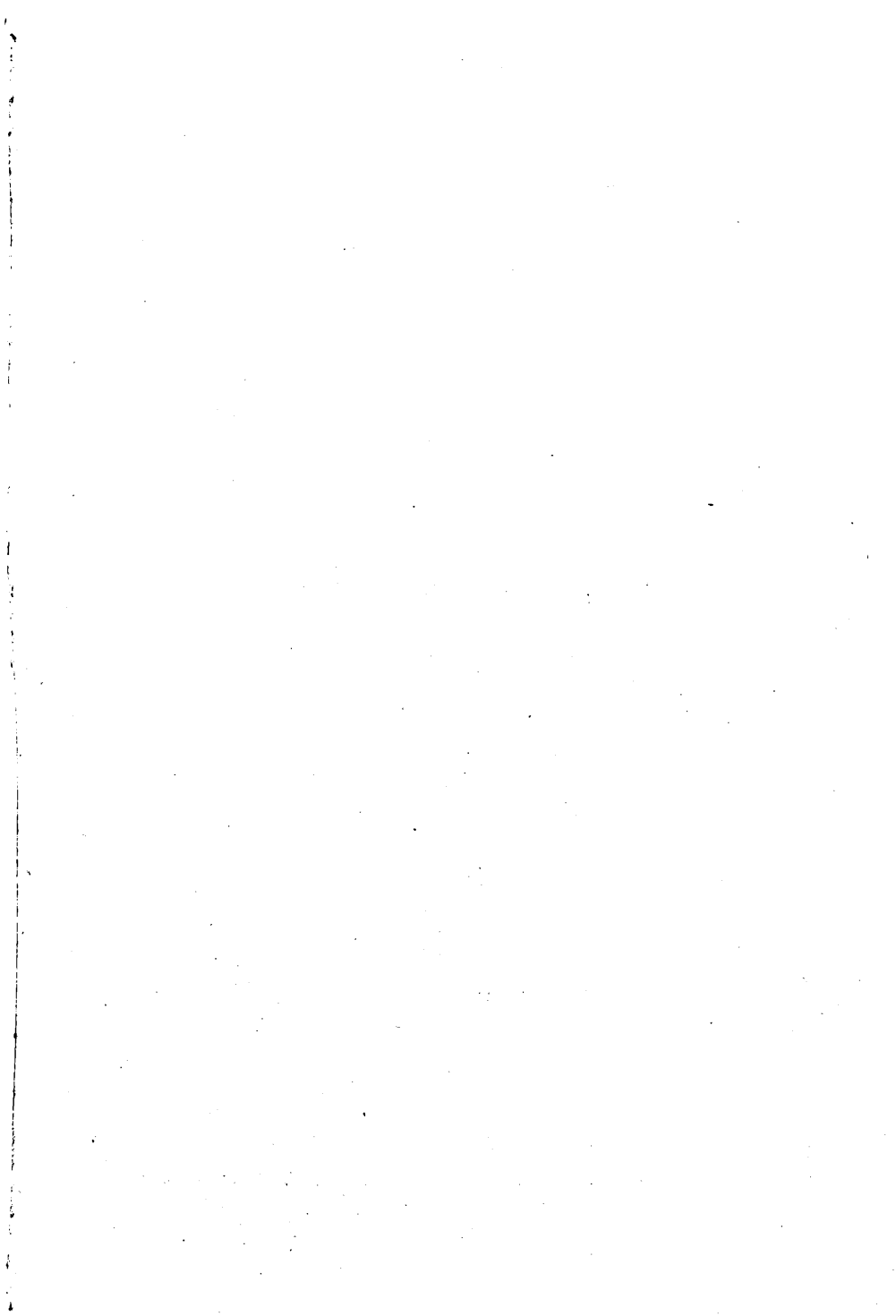
أيّ شرف أعلى من أن يكون الإنسان عبداً لله، نعم، كانت السيدة الزهراء عليها السلام متى قامت في محرابها ترتعد فرائصها من هيبة الله وإدراك عظمته.. ولكنها لا تبالي أبداً أمام المخلوق، كيف ألفت خطبة غراء أمام نفوس غلاظ وشقية لتحقّ الحقّ وتبطل الباطل.

وكما أسلفنا، فقد كانت قضية (فدك) حجّة لفضح الظالمين وغاصبي الخلافة، ليعلم الناس حتى قيام الساعة أنّ الحق كان مع أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وأنّ أعداءه ظالمون، وأنهم اغتصبوا فدك الزهراء عليها السلام، وإلا فإنّ الذي يلتذّ بالموت ويفرح لأنه أول أهل البيت لحاقاً بالنبي صلى الله عليه وآله كيف يمكنه الاهتمام بزخارف الدنيا وأموالها الفانية وتكون لها قيمة عنده؟!

وقد اقتدت السيدة زينب عليها السلام أيضاً بأمرها في مجلس (يزيد) وأثبتت حقّ أخيها وأبيها، وكشفت بطلان الحكم الأموي.

* * *

القسم الثاني
من الخطبة المباركة



« الشهادة برسالة أبيها محمد ﷺ »

«وأشهد أن أبي محمداً عبده ورسوله» بعد أن بيّنت الصديقة الطاهرة الزهراء عليها السلام موضوع التوحيد والأسماء والصفات الإلهية، وذكرت طريق العدل والثواب والعقاب، نراها تشهد برسالة أبيها العظيم خاتم الأنبياء محمد ﷺ وتشرح أوصاف النبي وأسرار بعثته.

ورد في بعض النسخ: «وأشهد أن أبي محمداً ﷺ» أي أشهد أن أبي محمد ﷺ رسول ومبعوث وعبدالله وقد اختاره الله قبل أن يبعثه.

إسم محمد من مادة (حمد) من باب تفعيل الذي يأتي للمبالغة. وهو إسم مفعول بمعنى كثيراً ما يحمد، أي أنّ الله حباه كل هذه الصفات الحميدة، فلا يوجد فيه غير الخير والفضل، وقد سمّاه الله قبل أن يخلقه.

لم يكن أحد باسم محمد سابقاً

يروى أنه لم يكن في العرب من يسمّى بهذا الاسم، وعندما ولد ﷺ ووضعوا مهده في حجر جدّه (عبد المطلب) ألهم أن يضع اسمه (محمداً) فسألوه ليس لهذا الاسم من سابق، فقال: تفاعلتُ أن يكون هذا الوليد محمود الخلائق في السماوات والأرض.

الفرق بين النبي والرسول

وأما معنى كلمة (الرسول) فهو الذي يبعث من قبل الخالق، وينزل عليه

الوحي ليقرؤه ويوصله للناس فهو المرسل من قبل الله، وهناك فرق بين الرسول والنبي عموماً وخصوصاً.

النبي هو من ينزل عليه الوحي في النوم أو في اليقظة، ولكنه لا يبعث إلى أحد، فالوحي لنفسه فقط، والنبي من مادة (النبأ) بمعنى الخبر أو من مادة (النبو) يعني العلو والرفعة.

النبي هو من يؤيده الله بما يعطيه من القدرة والعظمة بروح القدس، وتصله الأنبياء من معدن العلم ووحى الخالق. أما إذا أمر بالتبليغ سواء إلى قومه أو أهل بيته أو مدينته حتى اتصل إلى عموم الخلائق فعندها سيكون رسولاً.

وإذا بعث إلى كل الخلائق فهو من (أولي العزم) كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى وخاتم الأنبياء محمد ﷺ.

عدد الأنبياء والرسل

هنالك رواية مشهورة في عدد الأنبياء والرسل، فعدد الأنبياء الذين نزل عليهم الوحي بدون أن يؤمروا بتبليغ أحد هو ١٣٤ ألف نبي، وكلهم قبل الإسلام. وأما عدد الأنبياء الرسل الذين بعثوا لغيرهم فهو ٣١٣ حسب الرواية.

وقد وردت أسماء بعض الأنبياء في القرآن الكريم، وجاءت بعضها في الروايات، أما محمد ﷺ فهو رسول الله، أي مبلغ الأحكام والمعارف الإلهية.

محمد ﷺ عبدالله الحقيقي

أما كلمة عبد، «أشهد أنه عبدالله» ليس عبداً بالخلق فقط، لأنّ جميع البشر عباد الله من حيث الخلقة والتكوين، كلّ ما في السماوات والأرض من كافر أو مؤمن، هم مخلوقات الله وعبيد الله بحسب التكوين.

بإمكان العبد أن يصل إلى مقام العبودية بإرادته إذا أطاع الله، وهذا أعلى المقامات التي يمكن أن يبلغها البشر، فإن وصلها فلا مقام فوقه، حتى

الرسالات، ولهذا نقول في التشهد: (أشهد أن محمداً عبده ورسوله) فالعبد أولاً ثم الرسول.

أو عندما يريد الله عزّ وجلّ أن يذكر النبي محمداً في قضية الإسراء يذكر أعلى وأسمى رتب النبي فيقول: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ [الإسراء: 1].

العبودية هي الرتبة المحمدية، وهي أعلى الرتب، إذا بلغت عبودية الله؛ فقد اقتربتم من عبد الله هذا، فالملاك هو مقام العبودية وتبقى، الدرجة التي تبلغها من العبودية، الكلّ يتمنون أن يعرفوا ما هي العبودية؟ ولقد ذكرنا معنى العبودية في البحوث السابقة.

حقيقة العبودية في رواية (عنوان البصري)

لا بد لي من ذكر رواية (عنوان البصري) لأذكر بمعنى العبودية.

سأل: يا ابن رسول الله ما هي حقيقة العبودية؟

فقال: حقيقة العبودية ثلاثة أمور: فالأول أن لا يعلم نفسه مالكاً لشيء أبداً، وأنّ كلّ ما لديه ملكاً لله. أن يدرك واقع الأمر، فداءً لمن فهم هذا المعنى.

العبد لا يملك شيئاً، لله ملك السماوات والأرض، له ما في السماوات والأرض.

أن يترك التفكير بمصلحته، ويخضع للقضاء والقدر، فالنقاش لا يتفق والعبودية، إذا كان الإنسان عبداً فسيرضى بكلّ ما يفعله المولى.

فالعبد عليه الطاعة، ويجب عليه أن يترك القيل والقال، فتفكيرنا في أمورنا يضرب بنا.

إن كنت عبداً، فعلى العبد الطاعة، على الغلام أن ينتظر أمر مولاه ليفعل

ما يُؤمر، فعندما يخرج من البيت في طلب الرزق، إنما يخرج بأمر مولاه، لأنَّ الله لا يحبَّ الإنسان الكسول، فتجده أينما أمر الله، ولا تجده حيث نهى الله.

وهذا أيضاً على مراتب ودرجات، فاعلموا أولاً أننا الآن نتكلم فقط، ليتنا شممنا رائحة من العبودية لنحظى بأولى درجات الإنسانية، كل شيء في العبودية، وعلّة الأمر بالعبادات من أجل أن نكون عبيداً.

وعلى كل حال فلم يصل أحد في العالم إلى أعلى درجات العبودية سوى خاتم الأنبياء محمد بن عبدالله ﷺ.

الرضا بقضاء الله

عندما بلغ (أنس بن مالك) التاسعة، جاءت به أمه إلى رسول الله ﷺ ليكون خادمه ويطيع أوامره، وبعد تسع سنين من خدمة الرسول ﷺ سألوه عن سلوك النبي وأخلاقه، فقال: إنه ﷺ لم يتمنَّ حدوث ما لم يحدث، ولا عدم حدوث ما حدث.

لقد كان عبداً مسلماً لله ولإرادته تعالى، وما تقتضيه حكمته، وقد قال ﷺ: «من أعبد من محمد».

كان على يقين من أمره، وكان يعلم أنَّ المدبّر هو الله، إنه يعلم بمصلحتك أكثر منك، إنه أعلم وعلينا التسليم له.

وقد ورد عن (أنس) أيضاً أنه كان يجتاز برفقة النبي ﷺ أحد أزقة المدينة، فرأيت فجأة أن هيبَةً قد أخذت النبي حتى كاد يسقط، وكان يقول: «ربي لا تكلمي إلى نفسي» فلو وكل الله الإنسان إلى نفسه طرفة عين؛ لسقط عن كل ما له من الرتب والدرجات.

ولهذا كان الإمام علي عليه السلام يثنّ ويتوسّل: «اللهم لا تحرمني من لطفك طرفة عين أبداً» وكل ما لمحمد ﷺ من الله، وقد بعثه بالحق.

ليت لدينا ذرّة من العبودية، نرى أحداً يدعي الربوبية لله، ويدّعي

الإسلام، ولكنه حين يتحدث يقول: أنا كذا وكذا، أنا ربّيت فلاناً. فيدعي الربوبية بذلك، لأنّ الله هو الذي يرّبّي، وإلاّ من الذي ربّاه هو؟!

يقول الإنسان: لولاي لهلك فلان، فمن أنجأك أنت؟ إنك أصغر من أن تحلّ أرجل الدجاج إذا لم يرد الله.

الجلوس على التراب علامة العبودية

يروى عن الرسول ﷺ أنه كان يؤكد على أمور لم يتركها حتى آخر عمره الشريف، ومنها: الجلوس على الأرض. لأنّ الجلوس على الأرض أو التراب يُظهر العبودية، ويكبح طغيان النفس، على العكس من المنضدة والكنبات والتكايا.

فالأكل على المنضدة مكروه لأنه يورث الطغيان، وقد يتصوّر الإنسان تدريجياً أنه ليس عبداً، اجلس على مائدة الله متعبداً مؤدباً، واخلع حذاءك وكن على وضوء واحمد الله، وابتدئ كل لقمة بسم الله واختم بحمد الله.

والمستحبّ امتصاص الماء عند الشرب بهدوء، وليس تجرّعه جرعة جرعة، بل اشربه بهدوء وروية، واستذكر أنه من نعم الله.

يقول (سعدى الشيرازي):

الغيمة والريح والشمس والأفلاك تجهد باستمرار لتحصل أنت على رغيفك، ولا تغفل عن أن كلها مطيعة ومؤتمرة لك، فهل من الإنصاف أن لا تكن مطيعاً؟

إننا من التراب وإلى التراب

اسجد لله ما استطعت، فإنك تراب على تراب، لست سوى هذا التراب الذي جعلته يد القدرة الإلهية على هذه الهيئة وهذا التركيب، لقد خلقت من هذا التراب فاسجد عليه إظهاراً واعترافاً بالعبودية.

السجدة الأولى إشارة إلى التكوين الأول حيث خلقت من التراب،

والسجدة الثانية إشارة إلى الآخرة، حيث تعودُ إلى التراب. سيضعون هذا الوجه على التراب عند الموت، فهذا الخضوع والخشوع يجلب العبودية للإنسان شيئاً فشيئاً.

يقول (الشيخ الشوشتري): هل لدينا عبادة حقيقية من عند أنفسنا، فلا تسجد الجبهة فقط؛ بل يسجد القلب، وتهوي روحك وذاتك وكلّ درجات وجودك على التراب، وتقول: سبحان ربي الأعلى وبحمده.

اللهم اجعلنا من الساجدين، ببركة السجدة التي سجدها الحسين عليه السلام في المعركة، إنّ المصيبة عظيمة، وتكفي الإشارة إليها.. السلام على الخدّ التريب.

* * *

«٢»

«وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن
أرسله، وسماه قبل أن اجتبله واصطفاه قبل أن ابتعثه»

الكلام في خطبة الزهراء المباركة حول سبب بعثة الرسول ﷺ والتذكير
بهذه النعمة الإلهية الفضيلة، وقد ذكرنا فيما سبق معنى الرسالة والعبودية.

تحدث السيدة الزهراء ﷺ عن مقام أبيها، فقد اجتباه الله وأعزه بالحسب
والنسب. ووضع له اسماً في مرتبة النور قبل أن يأتي إلى هذا العالم، فهناك
فرق شاسع بين تسمية الله وتسمية البشر.

البشر يسمّون لتكون المسمّيات إعلماً فقط، فيطلقون على أحدهم اسم
(حسن) من أجل الإشارة فقط، دون أن يأخذوا المعنى بنظر الاعتبار، فيطلق
على من يريد أن يناديه لفظاً معيناً لكي لا يشتبه بينه وبين الآخرين.

لكنّ تسمية الله تعني أن ينسب إلى المسمى حقيقة من الحقائق، وبعدها
يطلق عليه ألفاظاً تدلّ على تلك الحقيقة، بينما يطلق البشر اسم (كريم) على
من هو بخيل ولا وجود للكرم فيه.

أردت أن أقول إنّ الناس لا تبالي بالتناسب بين الاسم والمسمى ولكنّ الله
جلّ جلاله يجعل الأسماء لتكشف عن حقائق موجودة.

جعل ربّ العزة من محمد ﷺ مجمعاً لكل الخصال الحميدة، بحيث

ستحمده كلّ الخلائق وتثني عليه، لأنه جامع الكمالات، ومحمد أهل السماوات والأرض.

ولهذا سمّاه (محمداً) نسبةً إلى هذه الحقيقة، فقد جعل الله من نبيه محلاً للفضائل والكمالات إلى الحدّ الذي صار فيه محموداً من قبل الله (محمداً).
والمسألة الثانية هي أنّ الحمد الإلهي سيظهر فيه بكلّ جلاء، وسيفهم الناس ببركته صفات الله الكمالية.

الحمد الحقيقي في مقام المحمود

سترترفع يوم القيامة راية من مقاماته الحميدة. وستكون هذه الارية بيد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وسيجتمع حول منبر الرسول كل الأنبياء والأئمة والأوصياء والمؤمنين والمؤمنات في المراتب الأقل.
ويرتقي (محمد) المنبر فيحمد الله ويثني عليه حتى تظهر حقيقة الحمد في ذلك اليوم.

نقرأ في (زيارة عاشوراء): «وأسأله أن يبلغني المقام المحمود» إنّ هذا المقام هو مجلس ومنبر الحمد، أي منبر النبي محمد صلى الله عليه وآله حيث تتجلّى حقيقة الحمد.

حينما جاء الله بمحمد إلى عالم المادة سمّاه ومنحه مقام الحمد، وجعله مظهراً لجميع صفاته الكمالية، وجعل اسمه محمداً.

اصطفاه من بين الجميع

«وانتجبه قبل أن أرسله» اجتبى الله هذا الشخص من بين هذا العالم اللانهائي الذي خلقه.

«إذ الخلائق بالغيب مكنونة» حينما لم يكن للناس أي وجود، وقبل أن تُخلق الأرض والسماء والكواكب وهذا النظام الوجودي، وعندما كانت ستائر العدم تغطي جميع الممكنات، لم يكن سوى الله في ذروة عدم كل الكائنات.

كان الصادر الأول، والمخلوق الأول هو النور الطاهر محمد ﷺ ففي الرواية أنّ الله خلق نور محمد ﷺ قبل أن يخلق الخلق بعشرة آلاف سنة.

كان الله يعلم بكل نظام الخلق إلى الأبد قبل أن يخلق أي شيء، فعلم الله قبل الخلق وبعده واحد، أي أنه يعلم بما سيخلق حتى الأبد، وهو يعلم جزئيات المخلوقات أيضاً، وكلّها مكتوبة في اللوح المحفوظ.

لا يتعجب أحد كيف يمكن لكل هذه الجزئيات أن تجتمع في لوح واحد؟ هي طبعاً في لوح مجرد، والمكتوبات اللامتناهية في لوح لانهائي، يجب أن نترفع عن المادة والماديات لفهم هذا.

لا تتصوّروا أنّ اللوح جسم مادي، بل هو مجرد وغير مادي، وبإمكاننا تصوّر الحلم والرؤيا من أجل تقريب المعنى.

فقد ترون في المنام حوادث قد تحصل بعد شهر أو سنة، وهذا هو اتصال الروح بعالم المعنى، فترتبط الروح باللوح المحفوظ لفهم حتى تصل إلى مرتبة خاتم الأنبياء ﷺ الذي يرى في المنام ما يحدث بعد خمسين سنة.

ورد في (أصول الكافي) أنّ النبي ﷺ رأى في المنام أنّ كلباً أبلق يهجم على الحسين ﷺ ففسره بأن قاتل الحسين ﷺ أبلق. وهكذا فإنّ النبي يرى كل ما يحصل إلى يوم القيامة كأبناء آخر الزمان. فكل ما سيحدث هو ماضٍ في علم الله ومكتوب عنده، ومكشوف بالنسبة إليه كل ما يمحي ويثبت ويحفظ، فإذا اتصلت روح ما بهذه الأشياء فستطّلع بمقدار سعتها.

يعلم الله ما سيحلّ بعبده كلّ يوم، وما ستكون عاقبته، الجنة أم النار.

وبناءً على هذا، فكأنّ السيدة فاطمة ﷺ تريد أن تقول: إنّ الله يعلم قبل أن يخلق، أنّ هذا الإنسان الذي خلقه ليصل إلى الهدى والسعادة ومنزلة القرب الإلهي لن يتمكن من بلوغ هذه الدرجات دون هادٍ ومرشد، ولا يستطيع أن يقطع هذا الطريق دون السراج الإلهي، فيجب أن تسنده القدرة الإلهية. والمفروض أنّ النور الإلهي يتمكن من إضاءة الطريق للأولين والآخرين،

ويجتاز بهم الصراط، وعندما جعل الله هذا النور في محمد ﷺ حباه القدرة على النهوض بكل الساقطين.

ولهذا نجد النبي محمداً ﷺ يقول: «أقف على الصراط وأقول: رب أمتي.. رب أمتي».

«علماً من الله بمآلي الأمور وإحاطة بحوادث الدهور» لأن الله يعلم بكل الموجودات، ويعلم ما تدبره الشياطين من طرق خطيرة وعدائية للإنسان، لذا كان عليه أن يخلق نوراً يوضح به الحقائق ويفضح به الأساليب الإليسية إلى الحد الذي لو اتبع البشر هذا النور، واتصلوا به، لأمنوا من كلّ خطر.

خلق الله العظيم كهفاً حصيناً وملجأً آمناً للبشر مسبقاً، بحيث لو استمسكوا به لأمنوا من جميع الأخطار، لو استمسكت به الخلائق من الأولين والآخرين.

منح الله محمداً ﷺ رأس مال يستطيع أن ينتشل به جميع محبيه من صحراء يوم المحشر المفزعة لينقلهم إلى الأمن والأمان. وأن ينور به جميع محبيه ليدخلوا المحشر بهذا النور.

خلق الله النور والعقل الكلّي قبل كل شيء ليقبل به عشرة العاشرين ويهدي به الضالّين ويعين به المساكين، وهل ذلك سوى النور المحمدي؟

الصلوات لمضاعفة النور

إنّ ما سمعتم عن الأجر العظيم للصلاة على محمد وآله ﷺ والتبنيه الدائم عليها حتى لو كان الإنسان في الصلاة وسمع اسم محمد ﷺ فعليه أن يصلي عليه لتتساقط ذنوبه مثل ورق الخريف، كلّ هذا من أجل تلك النقاط التي ذكرت، لتظهر فيك القوة وتكون سنداً لك.

يقال إنك إن كنت وحيداً، فإنك تحت يد وأرجل الشيطان، ولكنك بمجرد أن تذكر محمداً ﷺ سيندحر الغضب منهزماً أمام الروح الإلهية الكلّية. فالشيطان أقلّ من أن يستطيع فعل شيء أمام النور المحمدي، إلا إذا كنت في

غفلة، وإلا فإنّ الشيطان سيهرب منك بمجرد أن تذكر النبي محمداً بالصلوات عليه عن حبّ ومودة.

الله تعني يا الله، يا أبتى الروحي، يا سيدي يا مولاي، يا أعزّ من روحي، صلّ على محمد وارفع درجته. إذا صليت عليه من صميم قلبك حباً له فسيعود ذلك بالمنفعة على نفسك.

يروى أحد الأصدقاء أنّ نوراً أخضر كان يعبر من أمام عينيه كلما صلّى على محمد وآل محمد، والجميع لديهم هذه الحالة طبعاً، ولكن ذلك الشخص كان يشاهدها عياناً.

وقد أوضح النبي نفسه على المنبر أنه يحبّ الحسين، ويحبّ من أحبّ الحسين عليه السلام ودعا الله أن يحبّ من أحبّ الحسن والحسين.

تكلّمنا عن رؤيا النبي صلى الله عليه وآله في خصوص الحسين عليه السلام، وقد كان الحسين على صدر النبي في ساعة وفاته، وكان يقول صلى الله عليه وآله: «ما لي ويزيد، يعزّ علي» فربما كان النبي حينها يفكر بما سيفعله يزيد.

* * *

«٣»

«وسمّاه قبل أن اجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه»

كان الكلام في هذا المقطع من الخطبة المباركة للزهراء البتول عليها السلام في مسجد الرسول، فبعد أن شهدت بتوحيد الله، وشرحت صفات الله وعلّة إيجاد البشر، تحدثت عن المعاد، وبيّنت رسالة أبيها خاتم الأنبياء وسبب بعثته عليه السلام. فشهدت أولاً بالعبودية، ثم بالرسالة.

ذكر في ما سبق ما يتعلّق بمسألة العبودية والرسالة، بعد هذا تذكر تدرّج مقامات أبيها «اختاره وانتجبه» جعله الله طاهراً ومعصوماً من حيث الحساب والنسب.

(وسمّاه قبل أن اجتبله) أي وضع اسماً لأبي وكان محمداً، سمّاه بهذا الاسم قبل أن يخلقه.

تسمية الله، حقيقة من الحقائق

هنالك فرق بين تسمية الله وتسمية البشر، فالبشر لا يأخذ بنظر الاعتبار حين التسمية سوى الأعلام والإشارة، فيشير إلى ذلك الشخص بهذا الاسم.

يضع الناس إسم حسن أو حسين مثلاً على الطفل الوليد ليميّزوه عن غيره ويشيرون إليه. وهذا لفظ لم تراعى فيه العلاقة بين الاسم والمسمى، ولكن تسمية الله تضع في المسمى حقيقة من الحقائق، ثم يذكر لفظاً مناسباً لتلك الحقيقة.

يتخذ الناس لبعضهم اسم (زين العابدين) ولا يريدون من ذلك سوى

اللفظ، أيُّ عبادة تلك التي جعلته زين العابدين؟! ومن سمّاه كريماً وهو بخيل ولثيم؟ فليس المقصود سوى أن يعرف الشخص، ولكن الله يصنع حقيقة من الحقائق في المخلوق إذا سمّاه.

ومن هنا فإنّ السيدة الزهراء عليها السلام تريد أن تقول إنّ ربّ العزّة جعل محمداً جمعاً لكل المحامد، بحيث يحمده الكل ويثني عليه، جعله الله محموداً إلى الدرجة التي سيحمد فضائله وكمالاته جميع أهل السماوات والأرض.

(محمد) من باب التفضيل التي قد تستخدم للمبالغة والكثرة، فقد خلق الله محمداً حاملاً للفضائل والكمالات بحيث يحمده الله وجميع الخلائق.

حقيقة الحمد تظهر في محمد عليه السلام

والمسألة الثانية هي أنّ عبودية الله ستظهر فيه، بمعنى أنه سيُظهر من صفات الله ما تتجلّى به حقيقة الحمد.

من المقامات العظيمة في يوم الحشر (لواء الحمد). فالمنبر هو مكان محمد عليه السلام وراية الحمد في يد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وحول المنبر جميع الأنبياء والأولياء والأوصياء والمؤمنين.

ويومئذٍ سيحمد الرسول الله ويثني عليه بالشكل الذي يتجلّى فيه كمال الله وتظهر فيه حقيقة الحمد.

نقرأ في زيارة عاشوراء «وأن يبلغني المقام المحمود لكم عند الله» فالمقام المحمود هو ذلك المنبر الخاص بالنبي محمد عليه السلام خاتم الأنبياء والذي تجتمع حوله كل الأنبياء والأوصياء والأولياء والمؤمنين، الأولين منهم والآخريين «وسمّاه قبل أن اجتبله» أي لم يأت به إلى عالم المادة قبل أن يسمّيه.

حباه الله مقام الحمد، ووضعه موضع الثناء المطلق وجميع الصفات الكمالية، وجعل اسمه (محمداً) واصطفاه قبل أن يبعثه، الله الذي خلق ما لا نهاية له، اختار هذا الشخص من بين جميع العوالم.

من الذي اصطفاه؟! «إذ الخلائق بالغيب مكنونة، وبستر الأهاويل مصونة، وبنهاية العدم مقرونة» لم يظهر بعدُ نظام الخلقة، وحينها كانت كلّ الماهيات والممكنات في ظلمة العدم، وفي أحطّ درجات اللاوجود.

محمد ﷺ هو المخلوق الأول

لم يكن سوى الله، والمخلوق الأول (الصادر الأول) هو نور محمد الطاهر، وعلى أساس الرواية المعتمدة في ما يخصّ النور المحمدي: «أول ما خلق الله نور محمد» خلق الله محمداً قبل أن يخلق الخلائق باثنتي عشرة ألف سنة «علماً من الله بمآلي الأمور».

كيف جعل الله محمداً مجتمعاً لكلّ كمالاته؟! تشرح الزهراء ﷺ هذا السرّ، سرّ أصل إيجاد محمد، بأنّ الله يعلم بنظام خلخته قبل أن يخلقه إلى الأبد.

إنّ علم الله قبل الخلق وبعده واحد، يعلم كل شيء، يعلم جزئيات وتفصيل مخلوقاته، فضلاً عن أنها مثبتة في اللوح المحفوظ، كيف يمكن هذا؟ لا تتوهموا أنّ اللوح جسم مادي، بل هو مجرد وغير مادي ولا متناهي: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [الحديد: ٢٢].

الرؤيا الصادقة نموذج للإحاطة العلمية

سأتي بشاهد للأصدقاء ليتعرفوا أكثر على معنى ما نقول: إنكم ترون في الحلم ما قد يحدث بعد يوم أو بعد أسبوع أو بعد سنة، فهذا هو اتصال روح الحلم باللوح المحفوظ الذي يجعله مدركاً لحادثة ستحدث بعد شهر من ذلك التاريخ.

فجميع الحوادث والوقائع محفوظة حتى يوم القيامة، ويصل الأمر بالرسول محمد ﷺ أنه يرى ما يحدث لمدة خمسين سنة تالية في المنام.

فقد نقل (النوري) في كتاب (دار السلام) عن الإمام الصادق ﷺ أنه

سُئِلَ: إلى أيّ زمن ممكن أن يتأخر تحقّق الحلم، فكان فحوى جواب الإمام عليه السلام أنّ ذلك يتأخر إلى خمسين عاماً، لأنّ الرسول ﷺ رأى في المنام أنّ كلباً أبلق يلوك دم الحسين عليه السلام وفسّر الرسول هذا الكلب بقاتل ولده الحسين عليه السلام وكان الشمر قاتل الحسين أبلق، وقد قتل الحسين عليه السلام بعد رؤيا الرسول ﷺ بخمسين سنة.

كلّ ما يحدث من وقائع فهي مكتوبة وهي ماضية ومقضية في علم الله، وظاهرة في الألواح، فإذا اتصلت بها روح؛ فستطلع على هذه الحوادث بمقدار سعتها الوجودية.

من الأسس المسلّم بها أنّ الله يعرف مآل كل ما يخلق في نظام الخلقة، من سيكون سعيداً ومن سيكون شقيماً.. إلخ.

الله يعلم أنّ البشر بحاجة إلى الهادي

لأنّ الله يعلم قبل أن يخلق الخلائق أنه ليس بإمكان البشر أن يسلكوا طريق الهداية والسعادة ليصلوا إلى مقام القرب الإلهي دون هادٍ ولا سراج إلهي يضيء هذا الطريق الخطير.

يجب أن يستند الإنسان في هذا الطريق المليء بالعثرات إلى قدرة إلهية تمسك به.

ولهذا كان على الله أن يخلق نوراً يشمل ضياؤه ورحمته الأولين والآخرين، فينتشل كلّ من يسقط، ولهذا ورد عن الرسول ﷺ أنه يقف في أول الصراط وينادي: «اللهم أمّتي».

«علماً منه بمآلي الأمور، وإحاطة منه بحوادث الدهور» ولأنّ الله يعلم بجميع الحوادث، وما يُعدّه الشيطان من طرق خطيرة ومعادية للإنسان، خلق نوراً يظهر الحقائق ويكشف أساليب إبليس، إلى الحد الذي يتمكن هذا النور لو أحبه البشر أن ينجيهم من كل خطر، خلق الله ملجأ للبشر يأمنون فيه من كلّ

الأخطار، فلو اتصل به البشر؛ فإنَّ الله حباهُ قدرةً يستطيع بها أن يوصل محبيه إلى الأمن والأمان وينورهم بحيث يردون المحشر والنور يشع من وجوههم.

ومن أجل أن تحصل النتيجة، خلق أولاً الهادي والعقل الكلبي ليهدي العقول الجزئية، وينهض بمن يسقطون، ويوجه الضائعين ويعين المساكين.

النور المحمدي قوة في وجه الشياطين

ماذا تفعل الشياطين خلف الكواليس من أجل أن لا يسلك الناس طريق الله؟ يجب أن تقف أمامهم قدرة ما، وهذه القدرة هي النور المحمدي، وما سمعتموه عن الثواب الجزيل للصلوات والتوصية بها إلى الحد الذي لو صلى الشخص على محمد ﷺ مرة واحدة؛ سقطت ذنوبه كما يتساقط الورق من الأشجار في الخريف، لأنَّ الصلوات تتجه بالقلوب صوب محمد ﷺ.

فأنت بعد الآن لست وحيداً، ما دمت وحيداً، فستسحق تحت أرجل وأيدي الشيطان، ولكن بمجرد أن تذكر محمداً، ستسعفك الروح الإلهية الكلية والرحمة الواسعة، وبهذا يندحر الغضب ويصغر الشيطان عن أن يقف في وجه النور المحمدي، إلا إذا قصّر الإنسان نفسه في التوسّل.

اصطفى خالق العالم محمداً المصطفى ﷺ خاتم الأنبياء، وجعله جامعاً لكل صفاته الكمالية قبل أن يخلق المخلوقات.

الغيب يعني كل ما اختفى عن حواس الإنسان، ولهذا فإنَّ الغيب يختلف من شخص إلى آخر حسب مراتبه، فبالنسبة لشخص في المسجد سيكون ما هو خارج المسجد غيباً، ومن الممكن أن يكون شيئاً غريباً بالنسبة لشخص معين، وشهادة بالنسبة إلى شخص آخر، فبالنسبة لمن يرون هذا الشيء فهو ليس غيباً.

وعلى هذا فإنَّ عالم الدنيا بالنسبة لي ولكَ عالم شهادة. وهو عالم غيب بالنسبة لأولئك الذين هم في عالم البرزخ، كما أنَّ البرزخ غيب بالنسبة لنا نحن

الواقفين على التراب، والقيامة غيب بالنسبة لكلا الصنفين (أهل الدنيا وأهل البرزخ) لأنها محجوبة عن كليهما.

وعلى كل حال فإنّ الشيء الخارج عن الإدراك الحسيّ يختلف من شخص إلى آخر.

الغيب المطلق هو الذات الإلهية

إنّ الغيب المطلق من كلّ الجهات والجوانب واحد فقط، وهو الله جلّ جلاله. أما بقية المغيبات فهي مغيبات نسبيّة وتختلف بحسب الأشخاص والعوالم، والشيء الذي لم يوجد لحدّ الآن فهو غيب.

تقول السيدة الزهراء عليها السلام إنّ الله خلق الصادر الأول النور المحمدي قبل أن تلبس الأشياء ثوب الوجود، وحينما كانت في نهاية العدم، وهذا يدلّ على المبالغة، أي عندما كانت الممكنات في منتهى العدم؛ خلق الله محمداً واصطفاه جامعاً لكل الفضائل.

«علماً منه بمواقع الأمور وإحاطة..» يعلم الله جميع أمور نظام الخلقة وحوادثه قبل أن يخلق الخلق، فهو يعلم مسبقاً ما يحدث في كل فصل وزمان، ويعلم بكل حادثة قبل أن تحدث «معرفة منه بمواقع الأمور» يعلم الله بكل التقديرات قبل أن تقع.

«ابتعثه الله إتماماً لأمره» والمقصود بالأمر هنا هي (حكمة الأخلاق) فقد خلق الله البشر بحكمته البالغة، وكان هدفه هو أن يصل البشر إلى المعرفة والعبودية، لتصل عبوديتهم إلى أرقى المستويات.

خلق الله هذا الوجود المقدّس لتتجلّى الصفات الكاملة التي يحملها محمد عليه السلام ويعرف الناس عن طريقه الله، وليتعلّموا أسلوب وطريقة العبادة.

لماذا لم يُبعث محمد عليه السلام من البداية؟

إذا سألونا لماذا لم يخلق الله محمداً منذ البداية، ما دام هو الصادر

الأول؟ فالجواب هو أنّ البشر في بداية الخلقة لم يكونوا مهيين للانتهاك من هذا النور الطاهر. هل بإمكان الطفل الذي يريد لتوّه أن يتعلم القراءة والكتابة أن يدخل الجامعة؟! يجب عليه أولاً أن يقطع خطوات التعليم الابتدائي ليستعدّ لدخول الجامعة.

كان الإنسان منذ بداية الخلق يتّجه نحو التكامل حسب إدراكاته، ليصل إلى درجة الاستعداد الكامل، وعندما شاهد الإنسان رسالات نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ﷺ وعاشها؛ صار على استعداد لتحمل مبدأ التوحيد وللوصول إلى منتهى درجات العبودية.

وبعث الله في ذلك الزمان الرسول ﷺ ليتّم أمر الله، وهذا الأمر هو المعرفة والعبودية التي بعث الله من أجلها حبيبه محمداً ﷺ «وعزيمة على إمضاء حكمه» العزم يعني الإرادة التامة، ولا يحدث إلّا بالحكم والقضاء والقدر الإلهي.

شاء الله أن يبعث هذا الوجود المبارك بعد أربعين سنة من عام الفيل في أفضل بقاع الأرض (مكة المكرمة) ليعلم الخلق طريقة العبودية (إنفاذاً لمقادير حتمه) أي لتحديث المقدّرات الحتمية التي قدرها الله، ولهذا فإنّ البعض بإيمانهم به يكونون من أهل الجنة، والبعض من أهل النار، وقسمٌ من أهل المعرفة والعبودية، وقسم من أهل الطغيان والمعصية.

وفي هذا الكلام شبهةٌ قد تخطر لبعض الأذهان.

هل يُفهمُ الجبرُ من المقدّرات؟

كان الله على علم بمقدّرات وحوادث الأمور قبل الخلق، فلماذا إذاً الثواب والعقاب؟ فلا مفرّاً إذاً من أن يسلك ذلك الإنسان هذا الطريق أو ذاك ويذهب، فإذا قدر له طريق الجنة، فلن يستحق الثواب. وهكذا إذا كان من أصحاب الجحيم، فهذا هو المقدر.

المقدّر على الشمر أن يقتل الإمام الحسين عليه السلام ثم يُقتل هو أيضاً، فهو إذاً لم يفعل شيئاً اختيارياً ليستحقّ الثواب أو العقاب.

والمسألة الأخرى هي أنّ الله إذا كان يعلم أنّ أكثر البشرية لن تكون من أهل المعرفة، فلماذا الخلق أساساً؟!

الأمور التكوينية ليست إرادية

المقدّرات والحوادث على قسمين: المقدّرات التي تخصّ التكوين، والأفعال الإرادية للبشر التي تختلف من شخص إلى آخر. فالمقدّرات التكوينية كمدة العمر فإنها خارجة عن إرادة البشر، متى يولد، ومتى يموت؟ هذه لا علاقة لها بالاختيار والإرادة والثواب والعقاب، أو الصحة والمرض والمفاجآت، والمقدّرات كالغنى والفقر، فهذه المقدّرات ليست محلاً للنقاش وكلّ ما موجود فهو في الأعمال الإرادية، أي الأعمال التي يقوم بها البشر اختيارياً كالذنوب التي يرتكبها، أو العبادات التي يقوم بها.

المقدّرات بإرادة البشر

كلّ هذه مقدّرات أيضاً، ولكن أن يفعل هذا باختياره، لا أنه قدّر له أن يقع هذا الأمر دون اختيار الإنسان وإرادته.

فقد قدّر على الشمر مثلاً أن يرتكب ذلك العمل الفجيع، ويقتل الإمام الحسين عليه السلام باختياره، كما أنّ المقدّر على الإمام الحسين عليه السلام أن يستسلم باختياره لأمر الله، ويرفع راية الشهادة.

لا علاقة للمقدّرات التكوينية بالإرادة والميول، ولا ثواب أو عقاب عليها، ولكن في الإراديات قدّر أن يقوم أو لا يقوم الفرد بذلك العمل باختياره، أي قدّر أن يقوم فلان بإرادته بذلك العمل الخيّر في ذلك الوقت.

فالمقدّر عليك أن تذهب إلى (مكة) بقدميك، وليس المقدّر عليك أن يلقوا

بك في الطواف بالقوة، لكي لا تستحق الثواب، فالثواب من أجل تلك الإرادة وذلك الاختيار، وهذا هو المقدر.

العلم ليس هو العلة

أما حينما يُقال إنَّ الله يعلم هو بمعنى أن يقع ما يعلم حتماً، فهذا ما حدث لـ (الخيتام) حين نسبوا إليه:

كان الله يعلم شربي للخمر منذ الأزل، فلو لم أشرب لكان علمُ الله جهلاً!!

العلم ليس هو العلة، بل هو إحاطة بالواقعات.

كان الله يعلم قبل أن يخلق هذا الخَمَار أنه وباختياره سيأخذ قدح الخمر ويتذوقه وليس الأمر أنَّ الله يعلم فإذا سيقع هذا الأمر حتماً.

يقول (العلامة نصير الدين الطوسي) في (التجريد): العلم يتبع المعلوم وليس العلة، لأنَّ هذا الشخص شرب الخمر باختياره السيئ، فإنَّ الله يعلم أنه سيربها باختياره أو لا يربها، لا أنه يربها لأنَّ الله يعلم بذلك.

لماذا خلق الله أصحاب الجحيم أساساً؟

الموضوع الثاني هو أنَّ الله الذي يعلم أنَّ هذا الخلق سيُعرض عن طريق السعادة، لماذا خلقه إذاً؟ وبشكل عام، فإنَّ نقاشاتك هذه أكثر من حدودك أيها الإنسان، يجب أن تقول لا أعلم، ولا أفهم أساس الخلقة، لا أن تعترض وتنكر الحكمة الإلهية.

وأما الجواب على هذه الشبهة فسأبينه بمثال بسيط واحد: إذا كان هنالك سلطان مقتدر كريم يملك في خزينته كل شيء من ملابس وجواهر وأموال بعدد نفوس مملكته، وأراد أن يفتح البلاط والخزينة بوجه الشعب، ويعلن العطاء العام ليأتي من يأتي ويأخذ حقه، مع علمه بأنَّ هنالك في زوايا مملكته من يحاولون أن يبقوا الفقراء على وضعهم.. وعليه فإنَّ بعض الناس سوف لن يأتون

لأنهم سمعوا من قال لهم: لا تذهبوا، فليس في الأمر خيرٌ يرتجى. وهكذا فإنّ قسماً من الناس سيقبل هذا القول، ولن يأتي، وقسماً آخر لن يقبله.

والآن مع علم السلطان بأنّ البعض سيبقون في الخرابات، فهل تراه يُغلق أبواب خزينته؟ إنّ وظيفته هي الدعوة العامة وبسط النعمة، ومن لا يأتي فإنما يضرّ نفسه.

المقصود هو بسط الرحمة والفضل

أيها الإنسان، إنّ الله دعا جميع البشر لضيافته، مع علمه المسبق أنّ البعض لن يأتي. لو كفرت كل الكائنات، فلن يوصم الله بعارٍ أبداً.

هنا حقيقة جميلة، وهي أنه لو لم يأت كلّ البشر باستثناء واحد فقط، فهذا يكفي لظهور القدرة والرحمة والكرامة والعظمة الإلهية.

قصدي هو أنّ شأن الله ومقامه يقتضي التهيئة والدعوة العامة، وعلى الخلق أن يأتوا باختيارهم طبعاً، ويرجعوا أغنياء، ولا يمكن استخدام القوة معهم، وعندما يكون الأمر اختيارياً، فإنّ الشيطان سيعمل عمله طبعاً، وتنشط الأهواء والميول، ونسمع من يقول: دع الدنيا تنقضي ولا تترك النقد والشك، وأيّ ميتٍ عاد إلى الحياة؟!

وهذا يعني أيها الفقراء، لا تتركوا أرضتكم، لا تتركوا عالم المادة والطبيعة وملذّات الدنيا، ما لك وللآخرة والجنة، عليك أن تبقى بجوار الحيوانات، ماذا تفعل بجوار محمد وآل محمد ﷺ، تلك هي دعوة الشيطان، وهذا هو نداؤه.

والآن أیغلق الله نظام كرمه، لأنّ هذا النداء نداء شيطاني، ولأنّ أكثر الناس يسمعون كلامه؟ لا يمكنك أن تقول بما أنّ الله يعلم أنّ فلان وعلان لن يأتي؛ كان عليه أن لا يخلق. هذا كلام صبياني، إننا لا نفهم أسرار عالم

الخلقة لنعلم أية حكمة وأسرار تكمن في هذه الخلقة، وأي صلاح فيه، فلا يعلم هذا إلا الله والمقرين.

(عمر بن سعد) والنداء الشيطاني بملك الري

ماذا أصاب (عمر بن سعد)؟ نداء نفساني ودعوة شيطانية لملك الري، أنك إن ذهبت إلى (كربلاء) وقاتلت الإمام الحسين عليه السلام فستكون حكومة الري من نصيبك.

لم يستجب لكل تلك الدعوات المحمدية نحو الجنة، ولكنه استجاب لدعوة شيطانية واحدة، وأية دعوة، كان يتوهم أنه سيصلح نفسه، ويتشاطر مع الله، تقتل الإمام الحسين عليه السلام وتبلغ آمالك، وعندها إذا كانت هنالك آخرة فستتوب.

سيظل النداء الرحماني والشيطاني إلى يوم القيامة، ويوجد هذان النداءان لكل إنسان، بل إن الإنسان يسمع هذين النداءين يومياً ومع كل موقف.

* * *

« ٤ »

«ابتعثه الله إتماماً لأمره»

وصل بنا الكلام حول كلمات الصديقة الزهراء الكبرى عليها السلام فيما يخص فضائل أبيها المعظم خاتم الأنبياء محمد المصطفى عليه السلام إلى أن الخالق الكريم اصطفى نبيه الأكرم لأجل حكمة بالغة قرّرها، ولأجل هداية الخلق، لينجو الناس من وادي الضلالة والضياع، ويهدتوا إلى الصراط المستقيم.

كان المقدّر الإلهي الحتمي هو أن يكون هنالك مرشد للبشر ليكشف لهم الحقائق، ويتمّ عليهم الحجة الإلهية.

كانت الإرادة الإلهية القاطعة هي أن يكون لهذا البشر هادياً بعد كلّ ذلك الضلال والتهيه ليخرجهم من هذا الضياع والجهل، ويؤمن لهم طريقة الحياة الدنيوية من أجل الحياة الأخروية، ويفهمهم ما يلزمهم ليكسبوا السعادة.

تفرّق الأمم حين البعثة النبوية

بعث الله النبي، وألقى على عاتقه هذا الحمل الثقيل، وتريد السيدة الزهراء عليها السلام الآن أن تبين جهود ومساعي هذا النبي.

عندما بُعث النبي كان البشر موزّعين مجاميع مجاميع، كل مجموعة اتخذت لنفسها طريقاً خاطئاً، والكل كانوا متفرّقين، لم يكونوا قد تفرّقوا في عشرة طرق؛ بل كانوا متفرّقين على آلاف الطرق، كانوا من حيث العقائد قد انحطوا إلى أسفل الدرجات.

كانوا قد أخطؤوا المبدأ إلى الحد الذي يصنعون بأيديهم وسائط تقرّبهم منه.

أي انحطاط فكري هذا؟ كم كان العقل البشري قاصراً حينما توهم أنّ صخرة يصنعها بيديه ستقرّبه من المبدأ أو تقضي حاجاته، كانت الوثنية قد انتشرت بين البشر في كل مكان حسب حظك ونصيبك.

الوثنية من وضع البشر

هذه الوثنية، وعبادة الكواكب والشمس والقمر؛ بل حتى عبادة الحيوانات التي لا تزال موجودة في (الهند) لحد الآن، كلّها عبادات للمصنوع، فالأصنام من صناعة الإنسان نفسه، والنجوم والحيوانات وغيرها كلّها من صناعة القدرة الإلهية.

وهذه الوثنية بدورها تفرّقت إلى مئات الفرق والمجاميع، كلّ واحدة منها جعلت لنفسها صنماً معيناً يطلبون بواسطته حوائجهم من الله، من جملتها: هبل والعزى واللات ومناة التي ذكرها الله في سورة النجم.

وكان العرب قد نحتوا لهذه الأصنام الموجودة في (مكة) بدائل في أماكن أخرى، وكان لكل واحد من هذه الأصنام حرم وأدعية ومشرفون ليضلّوا البشر أكثر، كأن يضعوا في داخل الصنم أدوات تصدر أصواتاً عندما يقترب الإنسان من الصنم.

شرح الله الانحطاط الفكري في هذه الآية بالشكل الآتي: ﴿تَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ﴾ [الصافات: ٩٥] وأنّ هذا الصنم الذي نحتّمه بأيديكم هو أقلّ منكم، كيف تتوهمون أنّ بإمكانه أن يقضي حاجاتكم.

والخلاصة إنّ القبائل البعيدة كانت قد صنعت بدائل لهذه الأصنام في محل سكنها، وتنقل التواريخ أنّ الأصنام البديلة وصل عددها إلى ثلاثمائة وستين صنماً في شبه الجزيرة العربية.

الذي يقرأ تاريخ ما قبل الإسلام يعلم أيّ نكبات كانت تحيق بالبشر، فقد كانت (العزّي) مثلاً في (الطائف)، وقد صنعوا بديلاً لها في (مكة المكرمة).

يبكي لمصيبة الصنم

ينقل التاريخ أنّ أحد أشراف ووجهاء مكة، واسمه (أبو صحيفة) كان يبكي في ساعة وفاته. فسأله أبو لهب: لماذا تبكي؟

فقال: أبكي من الحسرة، خشية أن تغلب دعوة محمد ﷺ للتوحيد، ولن يبقَ من يعبد العزّي.

عندما أراد المسلمون بأمر رسول الله ﷺ أن يحطموا (العزّي)، كانت النساء والأطفال تأتي وتبكي، قصدي هو الشعور والإدراك، أو (مناة) مثلاً، يقال إنّ شخصاً اسمه (يموح) كان قد نصب بدلاً له في المدينة المنورة، وكانت القبائل تأتي لعبادته.

وكان المسلمون قد وصلوا لتوهم، فألقوا بالصنم في بئر الخلاء عندما كان هذا الرجل نائماً، وحين جاء (يموح) إلى مكان الصنم ولم يجده، أخذ يبحث عن صنمه حتى وجده في بئر الخلاء، فبدأ يهدّد أنه سيفعل كذا وكذا بمن فعل هذا بربه.

وفي مرة أخرى علّقوا كلباً ميتاً برقبة الصنم، فجاء (يموح) بسيف مهندٍ ووضعه بقرب الصنم وقال له: أيها الصنم إذا جاءوا مرةً أخرى ليفعلوا هذا، فادفعهم أنت.

فجاءوا مرةً أخرى، وعلّقوا كلباً ميتاً برقبة الصنم وحملوهما معاً، ثم رموهما في مزبلة، فجاء (يموح) ووجد السيف في محله دون الصنم، فقال عندها: لو كان بإمكانك أن تفعل شيئاً لانتقمتم لنفسك، ألم أعطك سيفاً، يتبيّن إذاً أنك لا تستطيع فعل شيء، كان هذا مستوى فهمهم وشعورهم.

يقدمون الشباب ضحايا للصنم

كانوا من حيث السلوك والأسلوب منحطين وأراذل إلى الحد الذي لا يفرقون فيه بين الإنسان والحيوان، فقتل الإنسان والحيوان سواءً لديهم، حيث يقدمون أحياناً شاباً جميلاً، ويقتلوه قرباناً للصنم، ثم يمسحون الصنم بدمه!!

إنه الطريق والأسلوب الخاطئ الذي وصل بهم إلى أن يدفنوا بناتهم في التراب وهنَّ على قيد الحياة، سواءً من حيث الاعتقاد أو من حيث الطريقة والأفعال والأعمال، وأما من حيث العمل لحياتهم الأخروية، فكانوا على أتم الجهل، بما أنك لا تفنى بعد الموت تتحمل مسؤولية كبرى. أنت تحيا بعد الموت لترى نتيجة أعمالك، فيجب أن تصدر منك أنواع الخيرات والأخلاق الحسنة والملكات الفاضلة والأعمال الخيرية والتعبدية.

كانوا بشكل عام لا يؤمنون بما بعد الموت من حيث العلم والاعتقاد، في ظلمات مطلقة أحاطت من كل جانب، ولا يخص هذا جزيرة العرب فحسب؛ بل إنَّ كلَّ البشر في ذلك الحين كانوا يجهلون ربهم وآخرتهم.

اقرأوا تاريخ الإسلام والجاهلية، كان البشر جميعاً على هذه الشاكلة حتى اليهود والنصارى لم يكونوا يتبعون سوى هذه الحياة المادية، والحصول على الثروة، ولا يوجد بينهم من الله والآخرة إلاَّ الأسماء.

«فرأى الأمم فرقاً في أديانها، عكفاً على نيرانها، عابدة لأوثانها، منكراً لله مع عرفانها».

رأى أبي الأمم فرقاً فرقاً، كل واحدة اتخذت لنفسها طريقاً باطلاً وخاطئاً تسلكه «عكفاً على نيرانها» كلها كانت تحترق بالنار ولا تحرك ساكناً، كانت تسبح في نيران عقائدها الفاسدة، بل في نيران هذه الحياة الدنيوية المادية، فعندما يشتدَّ الخلاف الديني، سيشتدَّ تبعاً له الخلاف الدنيوي والمادي، يثيرون القلاقل أين ما ذهبوا ويخترعون الأديان ويتدعون الحروب والصراعات، أي أنها بحيرة من الدم كان البشر يسبحون فيها، وأي فساد كانوا قد غرقوا فيه.

ومن الممكن أن تكون هذه العبارة من الخطبة المباركة إشارة إلى عبادة النار التي كان يمارسها المجوس، وعندهم فيها من الخرافات أمثال: مظهر النور ومظهر الظلمة.. إلخ.

«منكرة لله مع عرفانها» والبعض الآخر نصب لنفسه طريقاً أنكر من خلاله الله أساساً، وصار مادياً ودهرياً، ما هو الله؟ لنصنع أصناماً ونقدم لها الأضاحي، مع أنهم كانوا يعلمون ويفهمون بوجودهم أنهم على خطأ.

إنّ من يقول أن لا إله لهذا العالم، يشهد عليه وجدانه أنه كاذب. أنظر إلى الوردة كل هذه الصناعة وهذه الظرافة، هل صارت بنفسها هكذا؟

لو قال أحدهم: إنّ جرّة تكوّنت بنفسها عن طريق تجمّع التراب. فهل سيصدقها العقلاء؟ وحتى نصل إلى صناعة الساعات، كأن يقول إنّ مصانعها وجدت بنفسها!! هل يا ترى مصانع أجسامنا أقل من مصانع الساعات، وكل تلك المصانع المحيرة للعقول التي يفتخر بها البشر اليوم والتي اكتشفوا بها جزءاً من حكمته تعالى.

قول السيدة الزهراء عليها السلام: «منكرة لله» كانوا ينكرون الله «مع عرفانها» مع أنهم يعلمون أنهم يكذبون، وهكذا الحال الآن أيضاً، كلّ من ينكر الله يشهد عليه وجدانه أنه يكذب، إنّ الله أظهر من أن يخفى على أحد.. مع وجود كل هذه الشواهد والآيات الباهرة والدالة على قدرته.

وقف أبي في هكذا زمن مقابل هذا الحمل الثقيل وكل تلك التفرقة والعداء ليقول: «أيها الناس قولوا لا إله إلا الله» أيها البشر: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

الشمس المحمدية تسطع على القلوب المظلمة

لا يداوي الظلام المطلق سوى النور المحمّدي: «فأنار الله بمحمد ظلمها» ولم يكن نور أيّ نبي سوى نور محمد صلى الله عليه وآله ليتمكّن من هزيمة مثل هذا الظلام

في ذلك الوقت، ولهذا فقد أثار القلوب إلى درجة أن أولئك الذين سجدوا للأصنام أعواماً طويلاً؛ كسروا بأنفسهم تلك الأصنام، وأخرجهم نور محمد ﷺ من الانحطاط، لأنه من الصعب جداً أن يخرج الإنسان من الماديات ويتجه إلى الغيب وما وراء المادة.

(الذين يؤمنون بالغيب) [البقرة: ٣] إذا أراد شخص أن يتطلع أكثر، فليقرأ تاريخ الإسلام ويرى كيف أثار النور المحمدي قلوبهم، وجعلهم يتصلون بالغيب ويوقنون أن هنالك عالماً وراء هذا العالم، ولا بدّ من الحساب والكتاب.

تكسير الأصنام ينتشر

تنوّرت قلوبهم بالنور المحمدي، وصاروا على استعداد أن يكسروا الأصنام أينما كانت، ففي (اليمن) أوصى الرسول جماعة أسلمت أن يكسروا الأصنام عند عودتهم، وأوصى الإمام علياً ﷺ أن يأخذ على عاتقه تكسير بعض الأصنام.

ومن جملتها: (صنم اللات) الموجود قرب البحر بين مكة والمدينة حيث ذهب الإمام علي ﷺ وحظمه وأما (هبل) الذي كان في (الكعبة) وقد صنّعه على هيئة الإنسان، ووضعوه على صخرة مربعة، وجعلوا يده من الذهب الأحمر، فقد أمر النبي الإمام علياً ﷺ أن يضع قدميه على كتفه (كتف الرسول) ويسقط هبلاً. وقادت الحرب على الأصنام إلى الحرب على الأشكال والرسوم، فأمر ﷺ أن يمسخوا الصور المرسومة على الكعبة، لأنه يجب أن يرتقي شعور الإنسان وفهمه إلى درجة تجعله يدرك أن الأصنام والرسوم هي أشياء محدودة، وأن الحقيقة هي الجديرة بالعبادة، وليست الحقيقة سوى الله الواحد.

أجل، لقد ضمن دنيا الناس وأخرتهم بسطوعه ونوره، فلو سمعوا كلامه لنالوا سعادة الدارين ولا ارتفعوا عن المادة وعبادة الماديات.

دللتكم على طريق السعادة

أمسك الرسول ﷺ في (حجة الوداع) بحلقة الكعبة، بعد أن كان قد تعذّب وجاهد ٢٣ سنة، وقال للمسلمين: «ما من شيء يقربكم إلى الله والجنة إلاّ وقد أمرتكم به (الواجبات والمستحبات) وما من شيء يبعدكم عن الله والجنة إلاّ ونهيتكم عنه (المحرمات والمكروهات) فليبلغ الشاهد الغائب».

يترك لهم القرآن وأهل البيت ﷺ

وفي أواخر عمره ودّع المسلمين في مكة والمدينة وقال: «إني تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي أهل بيتي. ما إن تمسّكتم بهما؛ لن تضلّوا أبداً. وقد أخبرني اللطيف الخبير أنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض».

أيها المسلمون، إني ذاهبٌ أمامكم لآخذ مكاني من حوض الكوثر حتى يصل أتباعي ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ [الرحمن: ٦٠] وهل هنالك إحسان يمكن أن يتصوّر أكثر وأرفع من الإحسان المحمدي؟

الحق أنّ من يريد أن يردّ كلّ هذا الجميل والإحسان سوف يعجز، كلّنا مدينون لنعم هذا النبي، هل بإمكاننا أن نردّ إليه الجميل؟ إلاّ إذا صلّينا عليه كلّما ذكر اسمه ودعونا له، فجزاك الله يا رسول الله، أنك من انتشلتنا من التراب، فيا إله محمد ارفع درجة محمد وتقبّل شفاعته.

«فأنار الله بمحمد ﷺ ظلمَها، وكشف عن القلوب بُهمَها،
وجلى عن الأبصار غممَها، وقام في الناس بالهداية»

حينما بُعث النبي محمد ﷺ كانت المجتمعات البشرية مضطربة كلَّها
وتعاني من الاختلافات الكثيرة، وكلّ فرقة اتخذت لنفسها طريقاً مغلوطاً،
وكانوا يتدعون الأديان من عندهم وحسب أهوائهم.

يعتبرون النار مظهرًا للنور!

«عكفاً على نيرانها» العاكف هو من يبقى في مكانٍ معينٍ مدّة من الزمن،
حيث كانوا قد أكبوا على نيرانهم، من الممكن أن تكون هذه إشارة إلى طائفة
من المجوس التي كانت تعبد النار وترى فيها مظهرًا للنور، إنّ الذين ابتدعوا
هذه العقيدة ابتداءً أفهموا الناس، أنّ النار هي مظهر النور والإضاءة، ومنشأ
الخيرات، ولهذا يجب التقرب إليها وبمرور الزمن صارت عبادة النار شعاراً
خاصاً بطائفة المجوس.

ومن الممكن أن تكون إشارة إلى النيران المعنوية المتمثلة بالعقائد
والأعمال، حيث كان الناس يحترقون بنيران الجهل والمعتقدات الموهومة
والخرافات، ولا ينتبهون أبداً إلى العالم العلوي.

«عابدة لأوثانها» كلُّ صنع لنفسه صنماً ليسجد له، ووصل بهم الأمر إلى أن
يقدموا ولدهم الأول قرباناً للصنم، فيذبحون الطفل الأبكم بين يدي الصنم،

ويمسحون بدمه عليه، ويعتقدون أنّ هذا العمل سي جلب لهم الخيرات، ويقضي لهم الحاجات.

كانوا يصنعون أنواع الأصنام من أشياء عديدة، من الحجر والخشب والمجوهرات وحتى من التمر.

ينكرون عن عمد

«منكرة مع عرفانها» لهذا الكلام خمسة وجوه: الوجه الأول هو ما ذكرناه من أنّ الرسول ﷺ كان يرى المجتمعات البشرية منكراً لله رغم معرفتها وتصديق وجدانها.

لذا كان يقول لهم: يا عبدة الأصنام، أهذا الصنم هو الذي خلقكم؟ أم هل خلق السماوات والأرض؟ فيقولون: لا. إذاً فمن هو خالق العالم؟ وكانت فطرتهم تشهد أنّ الله جلّ جلاله هو مبدأ المبادئ الذي خلق هذا العالم اللامتناهي. فكانت كل الموجودات هي من علامات قدرته وحكمته اللامتناهية، ومع ذلك كانوا ينكرون وجوده.

كانوا يقصّرون في معرفة الله

والمعنى المحتمل الآخر هو أنّ المقصود «مع المعرفة» مرجع وضمير الأمم، بمعنى أنّ الأمم بالرغم من أنها كانت أهل معرفة وإدراك وشعور، ويتمتعون بالعقل والإحساس، لكنهم كانوا ينكرون إله العالم.

واعجباً، إنّ الإنسان بارعٌ في إدراك الجزئيات، ويتحلّى بالذكاء والمهارة في مختلف الأعمال والصناعات، ولكنه في مجال معرفة الله لا يقترب أصلاً ليتعرّف على الله، مع أنه دقيق في إدراك الماديات.

فهو يشمئز مثلاً إذا قيل له: إنّ أعماله التي قام بها بنفسه قد وجدت بنفسها، كأن يُقال إنّ هذه الجرة قد صنّعت بنفسها، حيث اجتمعت الحرارة

والشمس والماء والتراب؛ وغير ذلك فوجدت الجرة. نراه ينتفض رافضاً هذا الكلام ويقول: كيف وجدت بلا فاعل مختار، وصاحب علم وقدرة؟!

كيف لا ترضى أن تنكر العلة والسبب لجرة صنعتها، في حين ترضى أن الكرة الأرضية والتحرّكات المنتظمة لمخلوقاتنا، وبقية الكواكب قد وجدت بنفسها وتدور بنفسها؟!

حتى البقر والحمير ليسوا هكذا، فعندما يلقي العلف أمام الحمار ينتبه أن العلف ألقى أمامه والبقر كذلك، فهي تعرف صاحبها وتتعلق به.

أفتراك أقلّ من هذا الحيوان أيها البشر؟ أينعم عليك ربّ العالمين بكلّ هذه النعم وتنكرها؟!

كم يتألّم الإنسان إذا أحسن إلى عبده مرة أو مرتين، ثم أنكّر العبد هذا الإحسان؟ والله هو الذي أحسن على عبده كل هذا الإحسان والعبد ينكره!!

هل يقبل الوجدان هذا؟ إذا كان الشكر واجباً فإنّ معرفة المحسن واجب أيضاً من أجل شكره، وإطاعته واجبة، والدليل على ذلك هو نفس التوقعات التي يتوقّعها الإنسان من الخلق.

إنك من أجل الدنيا تشطر الشعرة شطرين، ولكنك قبالة الآخرة أبله وأحمق. أنت ذكي جداً في سبيل حياتك المادية.

يمنع نفسه من التفكير بالآخرة

ولكن ماذا عن الآخرة؟ يقول: الله كريم. وهذا ما يجريه الشيطان على لسانه، إنه يكذب، هذا نفس كلام (عمر بن سعد): يقولون إنّ هنالك جنة، فإن صدقوا فإنني سأتوب إلى الله، وسيتوب الله عليّ. كان يحاول التهرّب ولا يفكر بالله وبالآخرة.

«منكرة لله مع عرفانها» إنّ الله أكثر ظهوراً من كلّ شيء، ولكن فهمنا

قاصراً، لأنه لا يريد أن يفهم، وأن يدخل في هذا الموضوع، وإلا فإله ظاهر، من الممكن الشك في كل شيء إلا الله والآخرة فليس فيهما شك.

﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾ [الحج: ٧] ليس في القيامة شك، الشك من الخلق الذي يتلذذ بالحياة الدنيا ويشك في الآخرة، وإلا فإنهم إذا استعدوا واقتصدوا في شهواتهم؛ فسوف يفهمون ويتيقنون أنّ حياة أخرى توجد بعد الموت، إنها الحق، ليس في الحق شك، كل الشك والريب من هذا الخلق النحس.

مهما قال لهم الأنبياء: أيها الناس هنالك آخرة وثواب جزاء وقبر وجنة وجحيم، قالوا: نحن لا نفهم هذا الكلام.

مستوى التفكير في حدود المعدة!

وكذلك الوضع الآن، لا نفهم ما تقول، حدثنا عن الدنيا، حدثنا عن المعدة، أخبرنا عن ارتفاع سعر الأراضي! ذاك الذي نزل إلى أسفل درجات السفاهة يقول لرسول الله ﷺ العاقل المحض ﴿إِنَّا لَنَرْنَكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦].

إذا عثرت قدم خروفي بحفرة ما؛ فإنّ الخروف الذي يسير خلفه سوف لن يسلك نفس الطريق، أيها الإنسان ترى بعينيك كم من الناس يموتون أمامك يومياً من جامعي الأموال.

أرأيت ما فعل أشرف الحمير، لم يحصل إلا على الظلام، وغيره ورث الذهب والمال.

لم يستفد شيئاً، قضى عمره بالحمالة وإزهاق النفس، ثم تركها للآخرين، يرى الوارث أنّ والده المسكين أجهد نفسه وذهب، فما لك تفعل مثله؟ هل فكّرت أنك ستصير إلى حيث صار؟.

النور والظلام، الظهور وعدم الظهور

«فأنار الله بمحمد ﷺ ظلمها وكشف عن القلوب بُهما» كانت خلاصة العبارات السابقة هي أنّ النبي ﷺ شاهد المجتمعات البشرية في أول بعثته في وادٍ من الضلالة والحيرة والضياغ، كانوا جميعاً في الشرك والنار، منكرين لخالق العالم، ومع أنهم يعلمون كل شيء إلا أنهم لا يعرفون الله.

«فأنار الله» بركة وجود أبي محمد ﷺ ظلمات هذه المجتمعات البشرية.

(الظُّلْم) جمع (ظُلْمَة) مثل (غرف) جمع (غرفة)، إنّ وضوح الموضوع يتطلّب معرفة النور والظلمة، بمعنى الضوء والشيء الذي يظهر وينير بنفسه، فتظهر بواسطة نوره بقية الأشياء «الظاهر بنفسه، والمظهر لغيره».

هناك نورٌ حسيّ ونورٌ معنويّ، والظلمة هي عدم وجود النور، أي اللاظهور، فلا يمتلك نوراً من نفسه ولا تظهر بقية الأشياء بواسطته.

فمثلاً ضوء الشمس والليل البهيم، نور الشمس شيء ظاهر وتظهر بقية الأشياء والأجسام والألوان بواسطته، ولكن لا ظهور لشيء في الليل البهيم.

الخلاصة هي أنّ النور والظلام بمعنى الظهور، وعدم الظهور سواءً كان حسيّاً أم معنوياً، والنور الحسيّ هو النور الذي تبدو ظواهر الأجسام بواسطته، ويستطيع الإنسان عن طريقه أن يبصر، والظلام الحسيّ هو عدم وجود النور الحسيّ.

العدل والظلم، النور والظلام المعنوي

وأما النور والظلام المعنويّ الحقيقي الذي يخصّ عالم ما وراء الطبيعة، فهو العدل والظلم، وبعبارة أخرى: الحق والباطل. فالحق نور والباطل ظلام. إذا غابت شمس العدل في وجود الإنسان؛ حلّ محلّها الظلم. وكل من غرّب فيه الحق والعدل؛ حلّت به الظلمات.

في الروايات والأحاديث إشارات لهذا المعنى، فعن الرسول ﷺ أنه قال: «الظُّلْمُ ظلمات في القيامة».

العدل نور والحق نور، بمعنى أنّ من كان من أهل الحقّ فهو في النور دائماً أو في باب المعصية، يقول الإمام الباقر عليه السلام: «الظُّلْمُ ثلاثة: ظلم يغفره الله، وظلم لا يدعه الله، وظلم لا يغفره الله».

فهناك ظلم سيحاسب عليه الإنسان أخيراً، وهو ظلم العباد كالسرقة والغيبة وما شاكل. حيث يؤاخذ عليها العبد في يوم القيامة ولا يدعها الله. والنوع الآخر هو الظلم الذي يغفره الله، وهي الذنوب الصغيرة، فمن يترك كبائر الذنوب؛ يغفر الله له صغائرها.

ففي الرواية المذكورة يُعبّر عن الذنب بالظلم لأنه ظلام، والحق نور معنويّ، وما خالفه فهو باطل وذنوب، وبالنتيجة فهو ظلمة، والعلم والجهل، والحق والباطل كلها أنوار وظلّم معنوية.

كانوا جميعاً في الظلام

«فأنار الله» أي أنار الله وأظهر الظلم المعتمة التي كانت تلفّ البشر سواءً ظلّم العقائد أو الأعمال، حيث كانت عقائد البشر كلّها ظلام، كلّها خلاف الحق والحقيقة وعين الظلمة، وكانت كلّ الطرق تابعة للميول والأهواء والوثنية.

ولنتحدث عن ظلمات أهل الكتاب، أولئك الذين يسمّون موحدّين:

كان أهل الكتاب مخرفين أيضاً

كانت اليهود والنصارى والصابئة متدينين بالنسبة إلى باقي الأمم، ولكن أيّ دين؟ كانت حقيقة الدين مفقودة لديهم، لم تكن فيهم التأثيرات الحقيقية للأنبياء ﷺ سواء اليهود أو النصارى أو الصابئة الذين ينسبون أنفسهم إلى النبي يحيى ﷺ.

فتوراة اليهود مثلاً التي أجمع المؤرخون والمحققون على أنّ التوراة الأصلية قد أحرقتها (نبوخذ نصر) ولم يبق لبني إسرائيل نسخة واحدة منها. وبعد مائة سنة دُونَ (عزير) ما كان قد حفظه من التوراة، وجاءت بعده الأيادي الخبيثة فأضافت ما أضافت عليها. ونسبوا إلى هذا الكتاب مختلف الأكاذيب والبهتان بحيث يسخر منها كل عاقل يقرؤه، فهل يمكن أن نسّمّي هذا الكتاب كتاباً سماوياً؟

ونذكر مثالين على ذلك أولاً: جاء في الآية ٢٤ من الباب ٣٢ من سفر ظهور التوراة أنّ النبي يعقوب ﷺ تصارع مع الله من أول الليل حتى الصباح. وحينما حلّ الصباح أراد الله أن يذهب، فلم يسمح له يعقوب وقال له: لا أدعك تذهب حتى تسبخ عليّ البركة. فقال له الله: ما اسمك؟ فقال: اسمي يعقوب. فقال الله: بل اسمك إسرائيل لأنّ قوتك وقوتي سواء!!

ثانياً: جاء في الآيات ٣٠ إلى ٣٨ من الباب ١٩ لسفر التكوين أنّ النبي لوطاً شرب الخمر ذات ليلة وزنى بابنته الكبرى، وشرب الخمر ليلة ثانية وزنى بابنته الأصغر، فحملت كلاهما، ووضعتا ولدَيْن، فكان من نسلهما الكثير من الأنبياء كموسى وعيسى!! ومن أجل الاطلاع على خرافات التوراة والإنجيل راجع كتاب «مائة مقالة» للسُلطاني.

إنّ دعوة الأنبياء هي لتوحيد ربّ العالمين، لعبادة الله الواحد، نزّهوا الله من الجسم والجسمانيات، في حين أنّ (توراة اليهود) تجعل الله جسماً وتهين أنبياء الله.

وكذلك المسيحيون، فالكلّ يجمعون على أنّ الإنجيل الذي جاء به النبي عيسى ﷺ قد اختفى تماماً، وأما الإنجيل الحالي للنصارى فهو ما وضعه أحد كبار النصارى واسمه (متّى) وبعد عدة سنين، وبعد ذلك بتسعين سنة أخرى جمعوا ما كانوا يكتبون من الرسائل لتكون كتاباً واحداً، وهو على كلّ حال لا يخلو من مخالفة الواقع.. ففي إحدى الأعراس شارك النبي عيسى ﷺ ونفذ شراب القوم، فقام النبي عيسى بمعجزة حوّل فيها حوض الماء خمراً ليكفي هذا الخمر جميع الحضور!

(والتثليث) من أعجب أمورهم، فهل قال النبي عيسى ﷺ إنني اتحدت بالله أو أنني ابن الله أو الله ثالث ثلاثة هم: الأب والابن والروح القدس. كلّ هذا بسبب دفع مقدار من مال الدنيا لقساوسة المسيح، فجعلوا النبي عيسى ﷺ يقتل ويبقى في جهنم ثلاثة أيام، لكي ينجوا الناس ولا يدخلون الجحيم.

جسم المسيح ودمه خبزٌ وخمرٌ العشاء الإلهي

ومن قضاياهم الأخرى هي ذلك الخبز العشائي الذي يقولون إن الليلة التي سبقت يوم مقتل المسيح كان للمسيح خبز وخمر. فأعطى خبزه للحواريين وقال لهم: كُلُوا هذا الخبز فهو جسدي، واشربوا هذا الخمر فإنه دمي. وهكذا فإنهم يصنعون محل ذلك الخبز خبزاً للتبرك، ويضيفون إليه خمراً ويعطونه للنصارى، ويقيمون مهزلةً باسم خبز العشاء، والأسوأ من كل هذا هي المغفرة على يد القسّ، فكلُّ من أذنب عليه أن يذهب إلى القسّ ويروي له ذنوبه، ويعترف بها ويعطيه المبلغ المعين، فيغفر له القسّ ليُغفر له في السماء!

من هو حتى يغفر لك؟ هل هو إلهك؟ إنه ليس معبودك حتى يدّعي الألوهية، وقليلًا قليلًا بدأت الجنة تُشترى وتُباع.

ظلوا قرونًا يكتبون بطاقات دخول الجنة على جلد الغزال، ويأخذون قبالتها مبالغ طائلة، والأكثر من هذا أنهم زحفوا من الأحياء إلى الأموات، فيأتي

أحمق إلى القسّ ويقول له: إنه يرغب في أن تنعتق أمه، فيعطي مالا ليعتق القسّ أمه!

العقائد الخرافية في أهواء الصابئة

والصابئة كذلك تعتبر نفسها من أهل الكتاب، وتستند في دينها إلى النبي يحيى عليه السلام في حين أنهم لا يمتلكون من آثار النبوة شيئاً، والظاهر أنهم يعبدون نجمة (الجدى) ويجعلونها قبلتهم، فيخشعون ويخضعون لها.

ومن تقاليدهم وأعرافهم أنّ الذي يُذنب منهم، عليه أن يذهب إلى النهر ويغتسل، ولغسلهم شروط وقوانين خاصة أيضاً، ففي بعض الأحيان يتعيّن على المذنب أن يبقى في النهر عدة ساعات، سواء كان الماء بارداً أم لا.

في حالة ارتكاب بعض الذنوب يجب أن يدخل المذنب ماء النهر في ساعة معينة، وتحتاج بعض الذنوب الأخرى أن يدخل المذنب رأسه ويخرجه ٣٦٠ مرة، وعلى كل حال فالظاهر أنّ (الصابئة) يجب أن تسكن قرب الأنهار، لأنّ تعاملهم مع الماء البارد من أجل غفران ذنوبهم ضروري.

كلّ هذه خرافات وظلمات من العقائد الباطلة والحالكة.

الإشارة في الصحراء المظلمة

إذا أراد جماعة أن يسيروا نحو هدف ما في ليلة مظلمة وغائمة يختفي فيها الهدف، سنجد أنّ كلّ مجموعة تتبع صوتاً معيناً، فيرتفع صوت من هنا وصوت من هناك، وتتبع جماعة هذا الصوت وجماعة ذلك الصوت، ويتبع البعض غيرهم أينما ذهبوا، والنتيجة أنّ أكثرهم سيسيروا بعكس الاتجاه المطلوب، كأن يسيروا نحو الجنوب وقصدهم السير نحو الشمال، أو هدفهم المشرق في حين يتحرّكون باتجاه المغرب، لأنهم جميعاً يسرون وسط الظلام.

ولأنّ الظلام مخيم فسوف لن يجدوا الهدف والطريق إلى الهدف، وبهذا

ستظل هذه القافلة في ضياع وحيرة، ويلعب بعض أفرادها دور الفاهمين فيسلكون طرقاً مختلفة خلاف الطريق المقصود ولا يصلون لما يريدون.

في حين إذا أضاء فجأة مصباح مضيء في تلك الصحراء وأنار الطريق المستقيم الموصل إلى الهدف، فسوف تفتضح عندها جميع الادعاءات الباطلة، وتتضح بحق جادة الصواب، ويظهر أنّ الجميع كانوا من أتباع الباطل.

قبل البعثة كان الحق قد مُحيَ بشكل كامل حتى بين أهل الكتاب والأديان، سواء من حيث العقيدة أو من حيث الأسلوب والسلوك. كان الجميع منحرفين ولا يصل أحدهم إلى المقصود، وفجأة ظهر النور المطلق والصادر الأول والعقل الكلّ وهادي السبل محمد المصطفى ﷺ منادياً أن: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا».

أيها الإنسان، أين تذهب حائراً وضائعاً، أتعبد الكواكب والقمر والشمس والخشب... والنار؟ كل هذه الأشياء لن تفعل لك شيئاً، إنها لا تمتلك المعرفة، كلها مخلوقة ومقهوره.

سفراء (كسرى) في المدينة

قدم بعض الأشخاص إلى رسول الله ﷺ في المدينة المنورة من إيران، وكانت لحاهم حليقة وشواربهم متروكة وطويلة، فسألهم النبي ﷺ عن ذلك؟ فقالوا: إنّ ربنا أمرنا بهذا. فسألهم عن ربهم؟ قالوا: ربنا كسرى. فقال ﷺ: «أمّا ربي فقد أمرني باللّحى» أي أنّ الله أمرني بترك اللحية، وحلق الشارب.

يقول هذا القزم بكل حماقة إنّ ربه كسرى، والحال أنّ كسرى مخلوق مثلك، ومصيره أن يضع رأسه على التراب، وأنت كذلك، وكنتما فيما سبق شخصاً واحداً، فلا يجوز أن يعبد الإنسان إنساناً آخر.

النصارى في ضلال أيضاً

وأما النصارى فيعتقدون تارة أنّ عيسى ﷺ هو ابن الله، وتارة أنه الله، في حين أنّ عيسى هو مخلوق من مخلوقات الله، وفخره أنه عبد الله: ﴿لَنْ يَسْتَكْفِرَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٧٢] لأنه كان بلا والدٍ يجب أن يكون هو الله، وأن يكون متّحداً بالمبدأ؟! إن كان الأمر هكذا، فإنّ آدم ﷺ كان بلا والدة ولا والد أيضاً.

وفي بعض الأحيان يتخذون العلماء والزهاد أرباباً من دون الله.

إنك من رأسك حتى أخمص قدميك ذنب لا يغفره إلا الله، أفأنت تغفر للآخرين ذنوبهم؟ الله هو المزكّي هو المعطي وهو الآخذ (لا حول ولا قوة إلا بالله) كانت بداية البعثة المحمدية هي: لا إله إلا الله، وآخرها لا إله إلا الله أيضاً.

نور التوحيد هو العقل الحقيقي، سواء للعقائد أو للأخلاق أو للعبادات أو للمعاملات، وهو البركة التي بعث بها نبينا الأكرم ﷺ.

يسهل مشكلات العقيدة

«وكشف عن القلوب بؤمها» البؤم هو الظلمة، أي الشيء المبهم والغامض، والأمور المبهمة هي الأمور الصعبة على الفهم، وببركة علم هذا النبي المتصل بالمبدأ: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] تحلّ جميع مشكلات البشر الدنيوية والأخروية.

المراد من (القلب) في أغلب الأحيان هو الفهم، كانوا يعانون من مشكلات يريدون حلها، ولكنهم لا يعرفون طريقة الحل، وأهم هذه المشكلات ما تتعلق بالمبدأ والمعاد.

وحتى لو كان هنالك قبل بعثة هذا النبي من يقول بالعالم الآخر بعد هذا العالم، فإنّ الناس لم تكن لتصدّقه، كذلك الكافر الذي أخذ بيده عظاماً من

أجل إنكار المعاد وجعلها رميمًا، ثم نشرها في الهواء وقال: ﴿مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨].

فحلَّ الله المشكلة بهذا النبي، أنظروا إلى وضعكم الحالي، واشكروا الله الذي كشف لكم هذه الحقائق ببركة محمد ﷺ والقرآن. فالبشر قبل النبي والقرآن لم يتمكنوا من التصديق بوجود المعاد، فسألوا: هل يستطيع الله أن يحيي الموتى بعد أن صاروا رميمًا وترابًا؟ أو نفس مسألة التوحيد أي أن كل نظام العالم يدور بإرادة ومشئته واحدة فقط. لم يكن بإمكانهم أن يؤمنوا بإرادة واحدة.

يقول الأحمق: كان لنا فيما سبق ٣٦٠ إلهًا، وكانت أمورنا مبعثرة، فكيف ستسير الأوضاع وقد صار الإله واحدًا، وبهذا كان حراس الأصنام يغون العوام.

كان قيِّمو الأصنام يأكلون الخبز ببركة هذه الأوثان، فيأخذون النذور من الناس ويعدونهم بأن يقضي الصنم حاجاتهم، كان الغموض الذي يلفت البشر تجاه التوحيد والمعاد من مشكلاتهم الرئيسية، كان من الصعب عليهم القبول أن مسير الشمس ومسير الأرض واحد، بل إن التلقينات الشيطانية توهمهم أنه نور ومرَبٌّ.

قال النبي الأكرم ﷺ، أيها الناس ماذا قال إبراهيم؟ وافق جدلاً على عبادة الكواكب، وحاجج عبدة المادة، إذا كان القمر هو المدير والمدبر فلماذا يغيب إذا؟ وكان يوافقهم حين تسطع الشمس لأنها أكبر من القمر فلا بد أنها هي الله، ولكنها حين غابت قال إنها مسخرة ومقهورة، ولها من يأتي ويذهب بها، وعندها قال إن الله هو الذي جعل الشمس تطلع وتغيب بأمره، وهو الذي سنَّ لها الشروق والغروب.

الله غالب الجميع

الإسلام كشف الحقائق، إنكم وما تعبدون مقهورون لله، ولا فرق في هذا

بين البشر والحيوان والنبات، لا يستطيع النبات أن يفعل شيئاً، فماذا تطلب من الأشجار، والخضوع للحيوانات والبهائم خطأ أيضاً، ولن تصل إلى حلّ هذه المشكلة إلا إذا علمت أنّ القادر المطلق هو الله فقط، لا فضل للبقرة عليك، ولا داعي لخضوعك لها.

وقد وضح القرآن الكريم حقيقة أخرى، وهي أنّ البهائم والحيوانات قد خلقت لراحة الإنسان وفائدته، إنك أشرف أيها الإنسان، إنّ الذي خلق العالم فضل البشر، إنّ حقيقتك أكثر من هذا الجسم وهذه الأيدي والأرجل، إنك خلقت لأجل المعرفة والعبودية، خلقت الخلائق لك وُخلقت لله.

اللحم قحطٌ والأبقار تُحترم!!

كتبت بعض المجلات أنّ هنالك في (الهند) قحطٌ في اللحم، في حين توجد ١٥٠ مليون رأس بقرة، لماذا؟ لأنهم يقدّسون البقر. ولا أحد يجرؤ على ذبحه، يجب أن تذهب البقرة فداءً لك، وأنت فداءً لله، إنها الآن ناقصة وكمالها في أن تكون جزءاً منك.

يتصوّرون أنه من الظلم ذبح الأبقار، ولكن هذا غير صحيح، بل إنّ قتلها من الإحسان إليها، إنّ لحمها الآن عديم الإدراك والشعور، ولكنه لو صار جزءاً من جسمك سيكتسب الفهم والشعور، وسيقول: (الحمد لله رب العالمين) على كماله الذي وصل إليه.

والأبقار طبعاً أفضل ألف مرة ممن يأكلون لحومها، ثم يفحشون بلسانهم ويخونون بأعينهم ويظلمون بأيديهم، ولحومها محرّمة عليهم، كلّ شيء محرّم على من أنكر الله، إذا لم يعرف الإنسان الله، فليس له الحق في الاستفادة من أي مخلوق، ولكنه إذا صار إنساناً حقيقياً، فإنه جدير بأن تكون كل الموجودات فداءً له.

عبادة الحيوانات وليدة السذاجة

والأغرب من هذا هم عبدة القردة، فهناك في (الهند) مقاطعة تحتوي على خمسة آلاف قرد، لا يجروُ أحد على أن يهينها أقل إهانة، وقد ترك بعض الأحيان سائبةً في المدن وتفعل ما تشاء ولا أحد يستطيع أن يقف بوجهها!!
انظر ماذا يحلّ بالبشر إذا أصيب بسوء الفهم، والحكومة تدافع عن عقائد الناس الخرافية هذه، فيخصصون لهذه القردة شاحنات مريحة تنقلهم إلى الغابة.. كم هي سخافة أولئك الذين يتصوّرون أنّ الحيوانات أرفع درجة منهم، في حين أنها خلقت من أجلهم.

وقد أشار القرآن إلى أنّ الأنعام قد خلقت لتحمل أثقالكم وتأكلون من لحومها فتكون جزءاً من أجسامكم، فتتشرف هي بخدمتكم، وتشرفون بخدمة ربّ العالمين وتكونون عباده.

لقد حلّ هذا النبي الأكرم ﷺ جميع المشكلات والمبهمات الدينية ووضّحها، فليرجع البشر إلى مذهب هذا النبي إذا أرادوا أن يستفيدوا ويفهموا مبدأه ومعاده.

لماذا جنّت؟ ولماذا هذا الخلق؟ أين كنتُ وأين سأذهب؟ هذه مبهمات تضلُّ البعض، حتى قال من قال بمبدأين هما: النور والظلام. حتى أولئك الذين اتخذوا مئات الآلهة. ولكن هذا القرآن المحمدي حلّ هذه المبهمات «وكشف عن القلوب بهما».

إنّ من كان من أهل القرآن فلا غموض لديه، إنه لم يقصّر حقاً في أمور الإنسان الدينية وحياته الاجتماعية والشخصية، فبيّن حتى ما يضرّه وما ينفعه من المأكولات وما يضرّه وما ينفعه من حيث الزواج.

كيف يشخّص البشر بأنفسهم ما يضرّهم وما لا يضرّهم؟ فلو لم تكن تلك القواعد القرآنية فيما يخصّ المعاملات والإرث وما شاكل، فإنّ أحداً لن يتمكن أن يصل إلى نتيجة بمفرده، وبما يضعه لنفسه من خطط.

وضع حكماً لكل موضوع

وأمر أخرى كنيكاح المحارم، أو المعاملات الضارة بروح الإنسان كالربا، فلو كان الإنسان مستقلاً لقال إنّ البيع مثل الربا.

لا يستطيع الإنسان أن يحلّ المبهمات من الأمور المشكّلة، فحلّ الله ببركة نبيه الأكرم ﷺ هذه المشاكل، ولم يترك واحدة بلا حلّ؛ بل وضع قواعد كلما استجدّ أمر أمكن اكتشاف حله وفقاً لتلك القواعد، وهذا ما يوضح حكمته.

لم يدع شيئاً غامضاً من أمور البشر الدينية والدينية والأخرى. أيّ قانون وضعه المقتنون ثم لم يبلغوه ولم يشكلوا عليه أو يضعوا له ملحقات واستثناءات؟

من المستحيل على البشر أن يحيط بنفسه بجميع الأمور، والمسألة الأخرى هو أنّ من يريد أن يضع قانوناً عليه أن يكون - فضلاً عن فهمه وعلمه العميق - نزيهاً وغير مغرض، في حين أنّ أكثر القوانين وضعتها الأهواء والميول الشخصية والنفعية.

إنّ من أراد حلّ مشكلاته لا يمكنه إلاّ اتباع القرآن وآل بيت محمد ﷺ ومن تركها؛ فستهجم عليه المشاكل والمبهمات من كل الجهات.

«٧»

«فأنار الله بمحمد ﷺ ظلمها، وكشف عن القلوب
بُهمها، وجلى عن الأبصار غُمها»

لم يقصّر النبي ﷺ في التبليغ

بيّنت نتائج بعثة الرسول «أنار الله» ظلمات الجهل والضلالة والسخف ببركة
هذا النبي الأكرم ﷺ كما ذكرنا سابقاً.

«وكشف عن القلوب بُهمها» شخّص مشكلاتهم ومجهولاتهم، سواءً في
الأمر الدينية أو الدنيوية أو الأخروية، وأنار لهم الطريق، وألغى كلّ الشبهات
التي كانت تعاني منها الأمم في باب التوحيد والمعاد والمسائل الأخرى،
ووضع لها أجوبة شافية وكافية في القرآن الكريم.

عموماً لم يترك مشكلة للأمة إلّا وحلّها، ولا أمراً مهماً إلّا وأصدر للأمة
حكمه فيه، قال ﷺ في حجّة الوداع: «ما من شيء يقربكم إلى الله والجنة إلّا
وقد أمرتكم به، وما من شيء يبعدكم عن الله ويقربكم إلى النار إلّا وقد نهيتكم
عنه».

«وجلى عن الأبصار غُمها» الغم جمع (غمّة) بمعنى الشيء المحجوب
والمشبوّه والغامض، أي أنه فتح أعين القلوب التي كانت ستائر التعصبات
الباطلة قد غطّتها لكي لا تدعها تفهم الحقائق، وهزم التوهّمات الباطلة وجعل
البشر يعرفون الله والمعاد، ونورهم وأفهمهم حقيقة أنفسهم، فلا تنسّ الحقيقة.

لستَ حيواناً مادياً يفنى ويزول بالموت: «خلقتم للبقاء لا للفناء» لا تعيقك خرافات الدهريين والطبيعيين عن معرفة نفسك، إفتح ستائر الأوهام ليعرف البشر ما الغرض من خلقتهم، هناك عالم آخر سيذهبون إليه، إن هذه الحياة فانية، ولم تأتِ إلّا من أجل تلك الحياة.

مَرْقُ أَسْتَارِ الظُّنُونِ

نَحَى عن عيون القلوب كلَّ الغُمِّمِ والسَّائِرِ وغيوم الظلم والجهل والغفلة، لتكون أمة هذا النبي من أهل العلم.

من خصوصيات النبي ﷺ أنّ من يؤمن به يكون عالماً ومن أولي العلم، فيعلم حقيقة الوجود، وأصل العلم هو التوحيد، والمسلم يعني العالم الحقيقي الذي عرف ربه ونيبه وإمامه وحياته الأخرى.

أما الذين لم ينتموا إلى أمة النبي ﷺ فهم العميان الحقيقيون، وسيردون يوم القيامة المحشر عمياناً. من كان هنا أعمى ولم تر عين قلبه أنّ له ربّاً وحياة بعد الموت، ولم يرَ حقّانية محمد وآل محمد ﷺ فهو أعمى.

إنّ الذين يحشرون يوم القيامة عمياناً سيقولون: ﴿رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا﴾ [طه: ١٢٥] فيأتيه الجواب: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَ ءَايَتُنَا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُؤَسِّسُ﴾ [طه: ١٢٦] لم تعرف محمداً في الدنيا، ولهذا لن ترَ جماله اليوم، لم تصدق بالجنة في الدنيا، ولم تهياً لها، ولهذا ستحرم منها اليوم.

وتقول السيدة الزهراء ؑ: «وقام في الناس بالهداية» لم يغفل عن هداية الناس من أول يوم لبعثته حتى لحظات عمره الأخيرة، تحمّل أنواع العذاب والمشاق لهذا الهدف، وهو أن لا يترك الخلق حيارى وضائعين، فيهديهم ويرشدهم ويعرفهم على طريق وسبيل السعادة.

الذي يقرأ المصائب التي حفل بها عمر النبي ﷺ يعلم بأية همّة وجدّ كان يقف في مواجهة تلك الصعاب والشدائد.

كانوا يضربون النبي، ويلقون عليه الحجارة والعظام، ولم يتركوا مكروهاً إلا وألحقوه به، ومع ذلك كان يقول: «لا إله إلا الله».

لم أرَ أرف من النبي ﷺ

كان ﷺ يجيب باللين والمحبة والرفقة على أسئلة كل من يسأل.

يقول أحد المسلمين لم أرَ أرف من محمد ﷺ كنت قد أسلمت تَوَّاً ووقفت أصلي الجماعة خلف النبي، فعطس أحدهم، فهنأته بذلك على العادة، وحين انتهت الصلاة هجم المسلمون عليّ أن لماذا تكلمت في الصلاة، ولماذا لا تعرف الأحكام الإسلامية؟ فقال الرسول ﷺ: من كان هذا؟ فأجبت: أنا يا رسول الله. فأخذني وأجلسني بجواره، وقال بمنتهى اللطف والرفقة: (يا أخ العرب الصلاة الدعاء والذكر والقرآن) أي يجب أن لا تتكلم في الصلاة بغير الدعاء والذكر والقرآن، وإذا ذكرت شيئاً خلال ذلك فصلاتك باطلة، قال هذا بمنتهى اللطف، وكان البقية يتهجمون عليّ، في حين كان هو يرشدني بكلّ محبة ورفقة.

احترام النبي ﷺ لعديّ بن حاتم

جاء (عدي بن حاتم الطائي) إلى النبي، وحين دخل عليه ليهديه، لم يكن له مكان على البساط، فأراد (عدي) أن يجلس على الأرض، فأخذ النبي عباءته وبسطها أمامه، فقبّل (عدي) العباءة وقال: كيف أجرؤ على هذه الجسارة؟ وجلس على التراب.

كل هذا من أجل أن يكسب القلوب لله، وينقذهم من طريق الضلالة.

أنار العيون الداخلية

خلّص البشر من الضياع بعدما كانوا يسبحون فيه جميعاً، كانوا منحرفين

عن الصراط المستقيم من حيث العقائد أو الأخلاق، من حيث العبادات أو الأساليب.

«وبصرهم من العماية» أخرج عيون القلوب من الظلام، وجاء بها إلى النور فأنارها.

والآن أيضاً، فإنّ عيون قلوب المسلمين منيرة وبصيرة، أعين أولئك الذين اتبعوا النبي والقرآن وأهل البيت بصدق، وبإمكانهم أن يميزوا الحق من غير الحق، وعندما تؤثر الهداية في قلبه سيعرف الله بالوحدة، فلو اجتمع البشر قاطبة، وقالوا: إن الله اثنين. لقال مستنكراً: ما هذا الكلام؟

المسلم يستهزئ بمن لا يعبد الله لأنه مرتبط بالغيب.

المسلمون أي (الذين يؤمنون بالغيب) ويعتقدون أنّ كلّ هذه الماديات مستخّرة بأمر الله ومقهوره له، وجميع الأعمال والحوادث مرتبطة بالله.

إنّ قلوبهم منيرة إلى درجة أنها صامدة أمام كل ما يحدث، ومتوكلة عليه، فسعادتها بالله الذي فوّضت إليه أمرها.

ترى القيامة نصب عينها، وتعتقد بالحساب والكتاب، المسلم هو من كان مثل ذلك الراعي.

عبد الله بن عمر والراعي في الصحراء

وصلت إحدى القوافل التي كانت تسير نحو الحج إلى قطيع من الخراف، فقالوا للراعي: هل تبيع خروفاً من هذه الخراف؟ فقال الراعي: ليست الخراف لي.

فقال له عبدالله: بع لنا إحداها، وإن سألك المالك قل له: أكلها الذئب. وخذ المال لنفسك.

فقال الراعي: اتّق الله.

كان راعياً صحراوياً ولكن قلبه كان نيراً فقال: وكيف الله؟! لم يكن على استعداد لأن يكذب ويخون ويتصرّف بأموال الغير من أجل ثمن خروف واحد. ومع أنه فقير وفي أشدّ الحاجة، إلّا أنّ قلبه متنوّر، فمن أين له هذا النور؟ إنه نور الهداية المحمدية الذي جعله هكذا.

ليعلم كلّ من أسلم، أي من عرف محمداً بالنبوة والقرآن بالكتاب السماوي أنّ ستائر الجهل ستزول من أمامه يقيناً وتجلّى له الحقائق. إنّ عين القلب أهمّ من عين الحسّ، فمن الممكن أن تخطئ عين الحسّ، ولكن عين القلب لا تخطئ.

الضالّون يتشرنقون على أنفسهم

ولهذا تشير السيدة الزهراء عليها السلام إلى أنه ﷺ أنار عيون قلوبهم، وخلصهم من العمى.

قسماً بروح محمد ﷺ إنّ الذين تركوه وتركوا القرآن هم كخيل الطواحين تدور حول نفسها، ولا يتّبعون إلّا شهوات البطن والفرج والمال، وهكذا حتى يردوا العالم الآخر عمياناً.

إنّ الذي لم يفهم الهدف من الحياة هو أحطّ من الحيوان، فهو لا يستطيع أن يفهم لماذا خلقوه، وأيّ مصير سيواجهه، وما هي نهاية الحياة الدنيوية؟ كلّ همّه وغمّه في الثروة والمكانة، وهذا هو العمى الحقيقي، والإنسانية هي أن تتنوّر عين الفؤاد.

إنّ الحياة الطاهرة والهنئية هي حياة أتباع محمد وآل محمد عليهم السلام حيث قال: «المحيى محياكم والممات مماتكم».

يا أمّتي يا من تبعتموني وتبعتموا القرآن، الحياة حياتكم، حقيقة الحياة وطهرها لكم، أنتم وغيركم تعلمون أيّ نيران من الحرص والحسد وحب الدنيا يحترقون فيها.

ظاهرة كقبر الكافر مليء بالمجوهرات، وباطنه قهر وغضب الله عز وجل.
تصل بهم الهموم أحياناً إلى أن ينتحروا، لأنهم لا يفهمون ولم يعرفوا الله
ولا أنفسهم، ولم يستندوا على مبدأ مكين، أيها المصلون، أيها الصائمون،
أيها الحجاج، يا من تطيعون الرسول ﷺ والإسلام والقرآن: المحيي محياكم.

* * *

«٨»

الدين القويم.. أصولٌ وأحكامٌ

«وقام في الناس بالهداية» تقول السيدة الزهراء عليها السلام هذا عن بعثة أبيها وأثار هذه البعثة، فلم يترك النبي الهداية حتى النفس الأخير. كان هدفه هو هداية هذا الخلق والنجاة به من الضلالة وإنارة قلوبهم العمياء.

«وهدهم إلى الدين القويم» وبعد الهداية، دعاهم إلى الدين الإلهي القويم، والمراد به العقائد والمعارف الإلهية، وبقية الأحكام والأوامر التبعية، فخلاصة الدين هو هذين الأمرين.

وأولها هي: أصول العقائد والمعارف، أي معرفة أسماء الله وصفاته وأفعاله، ومعرفة المعاد، وكل ما وجب الاعتقاد به.

وثانيها هي: الطريقة والأسلوب العبادي الذي يجب على الإنسان اتباعه خلال مدة بقائه على الأرض في أقواله وأفعاله لينال ثمارها الطيبة.

الدين القويم والصراط المستقيم هو أن يصل الإنسان بأسرع ما يمكن وبلا انحراف إلى غايته وهي الجنة ﴿جَنَّتٌ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [البينة: ٨].

والهدف من هذا الوصول إلى مقام القرب والجوار الإلهي، هو وصول الإنسان إلى الكمال والأخلاق الإنسانية الفاضلة، ولا يوصل إلى هذا الهدف إلا الصراط المستقيم، وهو الصراط الذي استنّه النبي الأكرم عليه السلام خلال ٢٣ عاماً فشرح العلوم النظرية منها والعملية.

والخلاصة أنه لم ينسَ شيئاً ولم يَغضَ الطرف عن فعل من أفعال البشر، ولم يترك سؤالاً من أسئلة الناس إلا رسم لها طريقاً توصلهم إلى السعادة.

ختمت النبوة بمحمد ﷺ فهو خاتم الشرائع ومكمل الأديان، لأنه لم يترك جانباً ناقصاً من جوانب الحياة، وجاء بالأحكام لكلِّ فعلٍ من الأفعال ولكلِّ قولٍ من الأقوال.

وضعت الأحكام حتى لأصغر الأمور

فالتخلّي الذي يشكّل أدنى أعمال البشر التي لا مفرّ منها يومياً لعدة مرات، وهو عملٌ لا يعتبره الناس في عداد الأعمال، ومع ذلك فلم يتركه النبي ﷺ بلا أحكام، ليكون هذا العمل أيضاً عملاً رحمانياً وبعيداً عن الشيطان، لئلا يضرّ بصاحبه.

فعندما تذهب لدار الخلاء أدخِلْ قدمك اليسرى أولاً، وإنّ مجرد إلزام الشخص بهذه الأوامر تجعله متأدّباً، وعندما تذهب إلى المسجد فقدّم رجلك اليمنى، فمن أجل احترام الأماكن المقدسة تقدّم الرجل اليمنى، وتقدّم اليسرى للأماكن القدرة.

واعلم أيضاً أنّ عليك مراقبين وحفظة لئلا تخطئ، ومن أجل أن تتعوّد على هذا المعنى خاطب الملكين المؤكّلين بك: أيها الكرام الكاتبين إنني أريد أن أذهب لمكان قدر، فاتركوني ولا تكونوا معي، وأعهد إليكم أن لا أذنب ما يجب أن تكتبوه، ليتذكّر الإنسان أنه ليس وحيداً فيخجل قليلاً من الملكين اللذين معه.

ولا يذهب إلى دار الخلاء مكشوف الرأس، بل يضع شيئاً على رأسه ويستعيذ بالله (أعوذ بالله من الرجس النجس الخبيث المخبث) لأنّ الشياطين تقترب من الإنسان أكثر في الأماكن القدرة.

واذكر اسم الله عندما تريد أن تكشف عن العورة، واستند على جانبك الأيسر عند الجلوس لقضاء الحاجة.

والكلام مكروه في دار الخلاء، إلا في ذكر الله، كالأذان أو آية الكرسي وما شاكل وإلا فلا.

الاعتبار في حين التخلي

وفي بعض الأحيان يعاني المصابون بحبس البول أو حبس الغائط ما يعانون، فعليك أن تعتبر، اعتبر من هذا النظام العجيب. واعتبر أيضاً من أن هذا هو خلاصة ونتيجة ما تحرص عليه، فهذا مصير كل طعام لذيق.

(عندها يعتبر المؤمن) وعندما تنتهي امسح بيدك على بطنك، وقل: «الحمد لله الذي أطعمنيه طيباً في عافية، وأخرج عني أذاه في عافية، يا لها من نعمة لا يقدر القادرون قدرها».

اللذة المطلقة هي الجنة

ليس في الدنيا جميل محض، فعالم الطبيعيات عالم مركبات، والمحض في الجنة، ولهذا فليس فيها بول أو غائط، فيها اللطف الخالص كبقية أشيائها الخالصة.

كل ما تراه في الدنيا فهو مخلوط، ونموذج لشيءٍ أعلى: «يا لها من نعمة» أي نعمة عظيمة جعلتك تلتذ بالطعام وتأخذ جسمك الصالح منه ويدفع عنه المضرّ بكل سهولة، فالبول مسموم إذا بقي في الجسم فسيسم الإنسان.

قصدتُ من ذلك المثال أنّ الرسول لم يترك فعلاً من أفعال الإنسان إلا جعل له آداباً وبرامج لتنتهي بسعادة الإنسان وتقوي روحه وإيمانه، وكذلك بقية الأشياء كالجلوس على المائدة وطلب الرزق، فقد وضع حكماً لكل معاملة يقوم بها الإنسان.

انظر إلى (النكاح) من أول الخطوبة حتى الموت، وما وُضِعَ من أحكام

للأطفال من قبل الحمل حتى يتزوجون. أنظر كتاب (حلية المتقين) و(سراج الشيعة) و(آداب السنن)، لقد وصل الأمر بالمسلمين أنهم لا يعلمون شيئاً عن هذه السنن التي وضعها لهم رسول الله ﷺ، كيف يتعلمون هذه الأشياء؟ في المساجد؟ أم من الكتب التي يقرؤونها؟ إن وسائل الإغراء والإغواء هذه لا تمهلهم ليتابعوا علوم الدين.

مجلس النسوة في الجامع العتيق بشيراز

كتب (ابن بطوطة): عندما بقيت أسبوعاً في مدينة شيراز عام ٦٠٠هـ، كنت آتي في الأيام إلى المسجد الجامع العتيق هناك، وكانت النساء تأتي يومين في الأسبوع (الاثنين والخميس) إلى المسجد، فيجتمعن لسماع الأحاديث، وكتب (السيد الجزائري) قبل ثلاثمائة سنة تقريباً أنّ الدرس المهم في ذلك المسجد هو تفسير القرآن الكريم ورواية الأحاديث الشريفة.

مصباح مضيء في الظلمات

كانت هداية الرسول ﷺ هي الهداية العامة وتشخيص الطريق، فوظيفة النبي هو التشخيص «فأنار الله بمحمد ظلماً» كان النبي كالمصباح المضيء، لم يكن قبل البعثة النبوية أي صوت للتوحيد والعلوم والحقائق والأخلاق وحتى الأحكام والآداب. ولم يبق من الأنبياء السابقين غير عدة أسماء وحقائق مزيفة، فكان محمد ﷺ ضياءً أنار الطريق سواء استجاب الناس أم لم يستجيبوا ﴿إِنَّا هَدَيْنَهُ السَّبِيلَ إِذَا شَاكَرًا وَإِنَّا كَفَرْنَا﴾ [الإنسان: ٣].

ظهر الإسلام من حيث البرهان على كل الأديان فالمراد بالظهور هو الغلبة في الحجة، لقد بلغ الرسول الأكرم ﷺ هذا الدين القويم وهذه الهداية الحقّة خلال ٢٣ سنة، فتغلب على كل الأديان بالحجة الدينية. لم يبق دين إلا غلب وقهر من قبل الإسلام، واضطر الجميع للاستسلام.. ولم يبق وثنيّ إلا واستسلم.

أذَلَّ النَّصَارَى بِالْمَبَاهِلَةِ

بعد أن تمرّد النصارى رغم كلّ ما جاءهم به من الحجج، أذلّهم بالمباهلة التي نعرف قصتها جميعاً، وتكفي الإشارة إليها، لم يكونوا يستجيبون له مهما نبّههم إنّ عيسى ﷺ ليس ابناً لله، إنه ليس عين الله، بل إنّ مثله مثل آدم، إلى أن دعاهم إلى المباهلة أن يا إلهي إن كنتُ أنا كاذباً وعلى باطل فأهلكني، وإن كان هؤلاء كاذبين فأهلكهم.

وعندما أحسّ كبير النصارى بعلامات العذاب طلب من قومه أن يستسلموا وإلاّ هلكوا جميعاً، فإنني رأيت في محمد وابنته وعلي والحسنين وجوهاً لو دعتِ الله على أن تزول الجبال لزالَت. فاستسلموا عندها وقبلوا بإعطاء الجزية.

لقد ظهر الحق ﴿لِيُظْهِرُ عَلَى الدِّينِ كَلِمَةَ﴾ [التوبة: ٣٣] ولا يعني هذا أن لا يبقى دين غير الإسلام. فالإنسان مختار، أيها اليهود أيها النصارى، الحق أن تنظروا ما ينسجم مع فطرتكم أولاً، فإن قبلتم فسيزيدكم الله هداية، وإن لم تقبلوا فإنّ الحجّة تامة عليكم.

لقد غطّى الإسلام على كل الأديان، وعندما تبطل اليهودية والنصرانية، فستبطل لدى العاقل بقية الأديان حتماً.

ظهور الحق في آخر الزمان

وأما الظهور بمعنى أن لا يبقى دين آخر، فقد جعله الله في آخر الزمان، ووعده به وعداً حتمياً، حينما يظهر الوصي الثاني عشر الإمام المهدي المنتظر (عج) ومما يميز ذلك الزمان أنه لن يحتوي على غير الحق، ولن يبقَ على وجه الأرض غير التوحيد، فأين ما وليت وجهك وجدت: (لا إله إلا الله) ولا تسمع للباطل صوتاً، فالكل موحد لله، ولا يوجد شرك حتى الشرك الباطني، الجميع أهل إخلاص لولاية محمد وآل محمد ﷺ.

الصراط المستقيم ولاية أمير المؤمنين علي عليه السلام

ذكرت السيدة الزهراء عليه السلام الدين القويم والصراط المستقيم في هذه الكلمات المباركة، الدين القويم هو القرآن وكلمات الرسول والأحكام والعلوم الدينية. ولكن ما هو الصراط المستقيم؟ إنه الطريق الذي لو سلكه المسلمون لبلغوا أهدافهم حتماً: تلك الولاية، قمر الهداية، أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليه السلام «هداهم إلى الدين القويم، ودعاهم إلى الصراط المستقيم».

كان النبي ﷺ يعرف الدين للخلق منذ البداية وحتى النهاية، ويريهم الصراط المستقيم، فهداهم إلى ولاية الإمام علي عليه السلام واتباعه، وأخيراً رفع يده في غدير خم «أيها الناس من كنت مولاه، فهذا علي مولاه» الصراط المستقيم هو أمير المؤمنين الإمام علي عليه السلام واتباعه.

قد يقول أهل السنة إننا أيضاً نحب الإمام علياً، ولكن الولاية غير الحب، يجب أن تتبّعوا الإمام علياً، والحال أنكم تتبعون (أبا حنيفة) وأمثاله. وحتى في هذه المحبة هناك كلام، فكيف تجتمع محبة علي ومحبة أعدائه؟
نحب علياً ونحب معاوية!!

علي هو الصراط المستقيم، فيجب المسير خلفه: «أنا النبا العظيم، أنا الصراط المستقيم» وتقرأ في دعاء الندبة مخاطباً الإمام المهدي (عج) «يا ابن النبا العظيم، يا ابن الصراط المستقيم». علي عليه السلام هو طريق المعرفة، فامش خلف أمير المؤمنين علي عليه السلام، واحذر أن تصافح أعداءه، فإن أتباع الشيطان وهوى النفس هو انحراف عن طريق الهدى.

الإخلاص في العبودية هو طريق أمير المؤمنين علي عليه السلام، فعلي إمام وأنت مأموم، والإمام هو القائد الطبيعي، والمأموم هو الذي يقتدي ويتبع. والولاية من الحكومة، أن تكون من أتباع حكومة أمير المؤمنين علي عليه السلام وتضع قدمك أينما وضع قدمه هو.

جادة الولاية هي الإخلاص والعبودية

يقول (الشيخ الشوشترى) في مواعظه: إنني حينما أصف بعض الأحيان الإمام علياً عليه السلام أجد من يقول: مَنْ إذاً يتمكّن أن يكون مثل الإمام علياً عليه السلام إن عليك أن تكون كعليّ، بمقدار ما استطعت وتقبل ولايته، ومن لا يجهد نفسه لا يحصل على الكثر، لن تدخل الطريق الصحيح ما لم تدخل في ولاية عليّ عليه السلام فهذا هو الدين القويم، وهذا هو الصراط المستقيم.

يروى الشيعة والسنة أنّ الرسول ﷺ قال: «أيها الناس إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي ما إن تمسّكتم بهما لن تضلّوا بعدي».

«وأنقذهم من الغواية» إنّ النبي شخّص للناس جادة الهداية في اللحظة التي أمسك بها بيد أمير المؤمنين عليّ عليه السلام ولكن وأسفاه، تّباً للمسلمين كيف سيرفعون رؤوسهم غداً أمام النبي ﷺ، إنهم تركوا حبل الله المتين الذي كان عليهم أن يعتصموا به، بل وضعوا في جيده حبالاً وجرجروه من بيته، ولو لم يكتب السنة أنفسهم هذا لأمكن أن يُحمل على المبالغة المغرضة.

(معاوية) نفسه - عليه الهاوية - يقول لعليّ عليه السلام في رسالة: لقد جاؤوا بك يقودونك كما يُقاد الجمل المخشوش حتى تبايع.

فكتب أمير المؤمنين عليه السلام في جوابه: «ما على المسلم من غضاضة في أن يكون مظلوماً، ما لم يكن شاكاً في دينه».

الخلاصة إنّ أولئك لم يحترموا الإمام، فاحترموا أنتم، إنهم لم يستمسكوا بالصراط المستقيم، فاستمسكوا به أنتم، ولا تتركوا أتباع عليّ وآل عليّ عليه السلام.

«٩»

«وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية،
وبصّرهم من العماية، ودعاهم إلى الدين القويم
وهداهم إلى الصراط المستقيم»

قد تخطر هنا شبهة في بال البعض كما أسلفنا وأجبنا عليها، إنّ النبي ﷺ هدى الخلق «وأنا الله بمحمد ظلّمها» أنار العالم ودمّر ظلمات الجهل.

وهي أنه كانت توجد في حياة الرسول ﷺ مذاهب أخرى، وحتى الذين اتبعوا النبي، تغيّروا كما نعلم من بعده ولم يعملوا بوصية الرسول ﷺ، وكان قد أمرهم أن يستمسكوا بالقرآن والعترة، ونحن ندري ما فعلوا بالعترة، وحبسوا علياً في بيته، فإن كان الرسول قد قام بالهداية وأزاح الظلم فهذا مخالف للتواريخ المسلّم بها.

لماذا يطلبون الهداية باستمرار؟

والشبهة الثانية هي أنه إذا كان الرسول قد هداهم، فلماذا يطلبون الهداية مراراً كأن يقولوا في الصلاة: «إهدنا الصراط المستقيم» هذه شبهة صبيانية جاءت نتيجة عدم فهم معنى الهداية.

وقد وجّه النصراني في صدر الإسلام هذه الشبهة إلى مسيحي كان حديث عهد بالإسلام، فقالوا له: يبدو أنكم لم تدركوا الهداية لحد الآن، وأنكم في شكّ من أمركم، ولهذا تقولون: «إهدنا الصراط المستقيم».

يقال إنّ هذا الرجل عاد إلى النصرانية، وحين حلّ أمير المؤمنين ﷺ هذه الشبهة، عاد فصار مسلماً، وسوف نذكر القضية بالتفصيل.

إنّ هذا الإشكال ناتج عن عدم فهم معنى الهداية، ولذا يجب أولاً أن نوضح معناها.

وظيفة النبي الهداية العامة

الهداية على قسمين: الهداية العامة والهداية الخاصة. وبتعبير آخر الهداية الكلية والهداية الجزئية أو الشخصية. والذي قام به نبينا ﷺ هو الهداية الكلية والعامة، أي أنه وضح الصراط المستقيم، وبيّن القرآن الكريم، وطريقة العبودية وأسلوبها، وشرح العلوم الإلهية، وبيّن النبي بأقواله وأفعاله الصراط المستقيم للناس بشكل عام ومتساوٍ بالنسبة للجميع، وليس في الأمر إجبار ليلقي الرسول بأحد في الصراط المستقيم بالقوة.

عمل النبي ﷺ هو إظهار الطريق وإنارته، ألا وهو الصراط المستقيم سواءً في العقائد أو في طريق العبودية، الطريق الذي يوصلك مباشرة إلى الجنة، يقول القرآن الكريم عن قوم ثمود: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ [فصلت: ١٧] إنّ الله يؤدي ما يريده عبر الأنبياء، ولكن الإنسان مختار، وقد رأى الإنسان الطريق، إما أن يسلكه أو لا، فهذه قضية تتعلق به.

قال الرسول ﷺ: إنّ الإمام علياً ﷺ هو الصراط المستقيم وخاصة في أواخر عمره، إما أن يجتمع الناس حول علي ﷺ أو لا، فهذا ليس من واجب الرسول، إنّ الواجب على الرسول بحكم العقل هو أن يوضح الطريق بشكل عام، إما أن يلقي بهم في الطريق ليعملوا وإما لا، لأنه لا جبر في الموضوع.

أمّا فيما يخصّ الناس الذين لم تطرق أسماعهم كلمة (الصراط المستقيم) كأن يكونوا في بلدان غير إسلامية، ولم يسمع من أول عمره بالصراط المستقيم والولاية، فسوف لن يعذب طبعاً، لأنّ الحجّة غير تامة عليه، أما الأشخاص

الذين نشأوا في البلدان الإسلامية وسمعوا القرآن والسنة ولم يبالوا بها، فإن الحجة قد تمت عليهم وسوف يعذبون.

من الهداية الخاصة التوفيق إلى الخير

وأما الهداية الخاصة فمعناها التوفيق والمساعدة والمتابعة، ومن أجل أن يتضح الأمر لا بأس بالمثال، فلو أراد أحد أن يذهب إلى بيت كريم من الكرام، ولكنه لا يعرف مكان البيت، وسألك عن بيته وأرشدته أن يذهب من ذلك الجانب ليصل إلى هدفه.

إن هذا إرشاد بصورة عامة، ولكن قد يحدث أن تتلطف فتذهب معه وترفع من معنوياته إذا تعب وسط الطريق، وتمسك به لئلا يسقط، وتساعده إلى أن يصل البيت، وهذا ما يسمى بالهداية الخاصة، وهي تعني لطفاً أكثر من الإرشاد، وهي في هذا المثال المصاحبة حتى الوصول إلى الهدف.

إن لله هداية خاصة أيضاً، فبعض عباده الذين قبلوا الهداية العامة سيساعدهم، أي يضيء قلوبهم ويمنحهم الفهم دون أن يصل الأمر إلى الإكثار، صحيح أن المسلمين قد فهموا الكليات، ولكن طرقها الجزئية تحتاج إلى فهم كذلك لكي لا يُخطئ الإنسان ويقع في هوى النفس، ولكي لا تنحرف به وساوس الشيطان عن الطريق، كيف يستطيع أن يواصل السير على الصراط المستقيم والتغلب على الشيطان ما لم ينر الله قلبه ويفتح ذهنه، ويمنحه القوة بواسطة الإلهامات الملائكية.

الاستمرار في صراط الولاية المستقيم

وبهذا يتضح معنى ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] يقول الإمام علي عليه السلام «أدم لنا توفيقك» أي أنك هديتنا بشكل عام، فاهدنا بشكل خاص، أي امنحني القوة أنا العاجز المسكين، وارشدني لكي لا أخدع بالشيطان، ولا أحمق عن الصراط المستقيم، ولا توسوس لي نفسي فأستبه في التطبيق.

إنّ الإنسان بحاجة إلى الهداية الإلهية الخاصة في كل لحظة، فلو لم تكن العناية الإلهية لتوقّف الإنسان عند أول شبهة يضعها الشيطان له، إنّ الإنسان جاهل وأحمق ما لم يمنحه الله العقل والفهم والقوة والإرادة، فلو لم تكن إرادته قوية، فسيترك الميدان بكلمة واحدة ويتزلزل باستهزاء واحد.

أما إذا أعانه الله وهدأه في الجزئيات فسيفهم حالاً أنه الشيطان، وأن هذا كلام الشيطان يريد أن يحجبه عن الله، إنّ الله هو الذي يمنح مثل هذا الفهم. على الفرد المسلم أن يقرأ سورة الحمد: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: 6] إلهي لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً، وكن دائماً عوني ومعيني، وارشدني لئلا أذهل ويوقعني الشيطان في الخلط. قد يحدث أن يصرفه الشيطان عن الصراط المستقيم وهو يظن أنه يسير نحو الله.

وفي تعقيبات كل صلاة نقرأ هذه الجملة الهامة: «اللهم اهديني من عندك، وأفض عليّ من فضلك، وانشر عليّ من رحمتك، وأنزل عليّ من بركاتك» اقرؤوا هذه العبارات الأربع بدقة، واطلبوا الهداية من الله.

الدعاء هو أن يدرك الإنسان أنه مسكين حقاً، وإن لم يأخذ الله بيده فسيسقط وتزلّ قدماه. ليكن الله في عونك. وهنا لا بد لي أن أستعين بالمثل.

ينفق مما سرقه

هناك قصة ترونها الكتب المعتمدة عن حوار الإمام الصادق عليه السلام مع ذلك اللص، وهي تكشف عن أوهام بعض الذين يرتكبون الذنوب وهم يتصوِّرون أنهم يحسنون صنعاً، حيث تقول القصة: كان الإمام يمشي خلف أحد الأشخاص ممن لهم شهرة واسعة بين الناس، وكان له أتباع ومريدين، وكان الإمام يسير خلفه والرجل لا يرى الإمام، حتى شاهد الإمام ذلك الرجل وهو يقترب من حمل فيه رمان، فأخذ منه رمانتين دون أن يلاحظ ذلك صاحب الرمان.. فحمل الإمام ذلك على الصحة، فلعل له حساب مع صاحبه، ثم توجه ذلك الرجل إلى خباز واختطف قرصين من الخبز وذهب، عند ذاك اعترض

الإمام على ذلك الرجل هذا العمل، فأخذ الرجل يسأل الإمام عن اسمه وعشيرته، فلما عرفه قال للإمام: وما ينفعك شرفك ونسبك، وأنت لا تعرف معنى الآية: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا بِمِثْلِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] ثم قال: لقد سرقت رغيفين ورمانتين، وهذه أربع سيئات، ولكن بدلاً عن ذلك أعطيتهما للفقير في أربعين حسنة، تنقص أربع سيئات، فهي ستة وثلاثون حسنة باقية. فاعترض عليه الإمام بالآية الشريفة: ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة: ٢٧] أي أنّ الحسنة تقبل مع التقوى.. أما إذا لم تكن التقوى موجودة، فلا يعتبر ذلك العمل حسنة.. وعليك أيها السارق أن تعيد ما سرقتَه إلى أصحابه.

أينفق مما سرقتَه؟ مما أخذه من غيره غضباً؟ أقيم عزاء الإمام الحسين عليه السلام من مال الربا؟ أم يهدي مالاً غير مخمس إلى الحرم في مشهد؟ إنه بهذا مذنب كيفما أنفق المال، والواجب عليه أن يعيد المال إلى أصحابه، ويعود بالحق لمن له الحق.

يقول الإمام عليه السلام: قلت له هذا، وبدلاً من أن يقتنع، نظر إليّ شزراً وذهب فتركته. دعه يموت في أوج الأناية.

منكرات في النهي عن المنكر

إنّ الأحمق من استبدّ برأيه، وفي الروايات إنّ علامة الأحمق الإعجاب برأي نفسه، يتصوّر نفسه الفاهم فقط، وكلما حاولت إفهامه لا يقبل منك، ولا جبر في الأمر، وما نعينه بأن يمنح الله الهداية الخاصة هي أنه يمنح الفهم ليبقى الإنسان دائماً على الصراط المستقيم، ولا يخطئ ولا يتصوّر نفسه على الصراط، في حين أنه من الساقطين، فقد يحدث أن يُعرض عن الهدف.

كأن يرتكب عدّة منكرات في سبيل أن ينهى عن المنكر، قل: اللهم اهتدي من عندك. فتراه مثلاً يرتكب عدة محرمات لينهى شخصاً عن منكر رآه قد ارتكبه. يرى شخصاً يتبول وهو واقف، فيقول له: أيها الحمار الأحمق لماذا

تتبول وأنت واقف؟ أو يرى من لا يستقبل القبلة بشكل صحيح أو يجهل المسائل الشرعية، عندها يجب الإرشاد بلسان اللين وليس بالجلافة وبارتكاب المحرمات وفضح الناس. فما يدريك لعل هواءً في بطنه يمنعه من الجلوس، وبهذا يترك مستحباً من المستحبات، قل له بلسان طيب: أجلس إن استطعت. وفي بعض الأحيان يهتك حرمة الآخر، وهذا ذنب أعظم من الذنب الذي ارتكبه الأول.

العابد والفاسق يتغيران

في الرواية أنّ عابداً وفاسقاُ جاء ودخلا المسجد، ولكنهما كانا بعكس بعضهما حينما خرجا. ولسبب واحد صار العابد فاسقاُ ومن أهل الجحيم، والفاسق بالعكس.

تقول الرواية إنّ الفاسق عندما دخل المسجد خجل من نفسه بمجرد أن وقعت عينه على ذلك العابد، وقال: يا إلهي كيف لي أن أجالس الأتقياء بوجهي الأسود هذا؟ الانكسار الحقيقي هو التوبة، فجلس عنده ممتلئاً حياةً، فبمجرد أن وقعت عين ذلك العابد المسكين عليه تغيّر حاله، وقال إنه يجب أن لا يجلس هذا بجوار أمثالي، أخذه العجب وتوهم أنه تقرب من الله من خلال اطلاعه على مجموعة من المسائل. والحال أنّ العلم وحده لا يساوي شيئاً.

هل تضمن لنفسك عبادة مقبولة لدى الله؟ ويقول (الشيخ): هل أتيت خلال عمرك بسجدة حقيقية واحدة؟ أو ركعتين بحضور القلب؟ إنك ترتكب الذنوب القلبية التي لا تقلّ عن الذنوب الجسدية، إنه الآن خجل من ذنوبه، وله كرامته عند الله، لأنه نادم وتائب أذنبت وأصابك الغرور؟!

تجنّب الذنوب يحتاج إلى هداية خاصة

إنّ هذا من عدم الفهم، ولهذا يجب أن تقول: «اللهم اهدني من عندك، إهدنا الصراط المستقيم» قد يتبرّم الابن من أمه فيقول: لن تصل قدمي إلى عتبة

بيت أمي. والواقع أنه بهذا القرار قد ارتكب اثنين من كبائر الذنوب أولها: قطع الرحم، والثاني: عقوق الوالدين. وهو لا يلتفت إلى ذلك. أتعلم أنك صرت في محل سخط الخالق وغضبه؟ إن الإنسان بحاجة إلى معونة وهداية وإرشاد ومساعدة من الله في كل لحظة من حياته.

كان الرسول ﷺ يقول: «اللهم لا تكلني إلى نفسي طرفة عين أبداً» وليقس الباكون ذلك على أنفسهم. ما أن تركك الله حتى عملت بجهالة، إنه ليس أكثر من دودة عفنة ويظن نفسه جوهره تضيء الليل، يتصور نفسه جبلاً وهو لا يساوي حتى النخالة.

شريطة أن يريد الإنسان

وعلى فكرة، فإن معونة الله تحتاج إلى أمرين: أولها إرادتك الشخصية، وثانيها قبولك بالهداية المسبقة. فإذا قبلت بالهداية العامة، وعملت بها فستستمر الهداية، أما إذا أفهمك الله وألهمك، فلم تبال؛ فسيكلك إلى نفسك.

﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢١٣] كل شيء بميزان ﴿وَالَّذِينَ أَهْدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ [محمد: ١٧] إذا استجبت وقبلت بالهداية العامة؛ فستزداد هدايتك، وإذا صدرت هدايتك من حلقوم وقبلتها؛ فسترى عليك الهداية تلو الهداية في أماكن أخرى، وإلا فسيغلق الباب.

نقول في الصلاة: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] وبعدها: «اللهم اهدني من عندك» أعني أنت وقو قلبي، يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «فقل بنا إلى ما يرضيك».

إذا أعانك الله واستجبت، فلن تغفل وستصل هدفك مباشرة وهو الجنة، وإن لم تستجب، فإنك قد تكون صباحاً على الصراط، ولكنك ظهراً وعصراً خارجه، على الصراط في المسجد ولكنك في السوق خارجاً عنه.. فمتى ستصل إلى المقصود؟ وحتى في الحسابات المادية إذا أردت أن تصل إلى

مكان معين عليك أن تستمرّ في المسير وتواصله سواءً على قدميك أو بواسطة ما.

إذا سرت بشكل مستقيم ستصل مباشرة، ولكنك إذا انحرفت هذا الجانب وذاك الجانب، وبقيت تراوح وتراجع فمتى ستصل؟ وهكذا طريق الجنة فإن كنت من البداية وحتى النهاية على الصراط، فستصل الروح والريحان بغمضة عين. أما إذا كنت متعثراً، وتارة مع الله وتارة مع هواك، وطوراً باتجاه الهدف وطوراً بخلافه، وأحياناً تعبد وأحياناً تعصي، فإنّ وضعك هناك سيكون متعثراً أيضاً، لأنّ وضعك هناك مرهون بوضعك هنا.

فقل بمسكنة إذاً: «اللهم اهدني» لا تتلفظ بهذا للثواب فقط، تعال واكتشف الحقيقة، كشخص ضائع ومتشوّب يثُنُّ بأن يأخذ أحدٌ بيده.
يقول الإمام السجاد عليه السلام: «يا عون كل ضعيف، يا ناصر كل مخذول، وراحم كل محروم، ليس دونك من معبود، أهل الكبرياء والجلود».

* * *

« ١٠ »

«تنبيهاً على طاعته»

إن خلاصة الكلمات الدرّية لسيدة النساء فاطمة الزهراء عليها السلام في شرح إيجاد العالم، والغرض والهدف منه، أنها قالت لا تتوهموا أنّ عالم الوجود كان فيما سبق شيئاً ووجد منه، أو أنّ هنالك خارطة نشأ العالم على أساسها، ولكنّ الله ابتدعه ابتداءً، فكل هذا النظام العظيم والمادة الخام للكواكب والأرض وما فيها، كلّها بدائع لا سابقة لها.

وتشرح الهدف من الإيجاد، دون أن يكون في الله نقص يحاول الله أن يسدّه بخلق العالم، ولا فائدة تصيبه من هذا النظام. فالله غني بذاته ولا نقص في أيّ من جوانبه يريد أن يكمله. فما الغرض من هذا العالم إذ؟: «إلاّ تبييناً لحكمته وإظهاراً لقدرته».

القدرة اللامتناهية تظهر بمقدار عالم المادة

ومع أنّ عالم المادة ضيق، ومن غير الممكن أن تتجلى فيه القدرة اللانهاية، فبالإمكان أن تظهر ضمن حدوده مظاهر للقدرة اللامتناهية، ليصل البشر إلى أصل القدرة في العالم الآخر.

إنّ كل ما نراه هو نموذج ومثال، لأنّ القدرة الإلهية لامتناهية، والمادة محدودة، ولا تظهر فيها القدرة إلاّ بما تتسع، فأصل ومنبع القدرة هو العالم اللامتناهي، ومن ذهب هناك فسوف يرى القدرة في عالم البرزخ والقيامة

والعوالم التي يجتازها البشر والتي أشار إليها القرآن الكريم أيضاً، والآن أيها الإنسان، لقد خلقك الله وأعطاك الذكاء والفهم لتفهم.

هذه ناره، فكيف بنوره؟ وهذا ماتمه، فكيف بعمره؟!

أيّ دنيا في العالم العلوي؟ العالم الذي لا يعاني من ضيق عالمنا هذا، أيّ ظهور للقدرة سيكون هناك؟ لكل شخص ملك كبير وسلطان عظيم، للمؤمن عشرة أضعاف الدنيا وما فيها مسخرة تحت أمره وسلطانه، ويتهيأ له ما يريد فور إرادته، وليس هذا العالم إلا نموذج ومثال صغير.

الماء والنار في الشجرة الخضراء

انظر كيف جمع الله الماء والنار، والرطوبة والحرارة في مكان واحد، تحتوي الشجرة الخضراء على الرطوبة، ولكنها في نفس الوقت تحتوي على المادة المحترقة والملتهبة. لقد جاؤوا بك لتكسب المعرفة، إنك تحسب نفسك صغيراً في حين عليك أن تكون كبيراً لتعرف الكبير.

نقرأ في دعاء مكارم الأخلاق: «اللهم اجعل ما يلقي الشيطان في روعي من التمتي والتظني والحسد ذكراً لعظمتك..».

أنظر إلى قدرة الله، إنّ نظام الخلق وجد من أجل معرفتنا، لنكون بواسطته على علم بالخالق فنقوم بعبادته، إننا لا نحصل على هذه العلوم من بعد الموت، فهناك محل حصاد الإدراكات فقط، كل ما عملته هنا ستحصده وتجنّي ثماره هناك، والخلاصة أنّ الدنيا هي محل الزراعة، والآخرة محل الحصاد ونيل الجزاء وثواب الأعمال.

انظر إلى ورق الزيتون. أي آيات يمرّ بها الناس ولا يلتفتون إليها؟ أي ضياء يخرج من زيوتها، وقبل أن تشتعل هذه الزيوت فإنّ تلالؤها يحيرّ الأبواب، هنالك نارٌ في هذه الأوراق، ولكنها نار لا تسيطر على النبات بالشكل الذي ينهي الرطوبة في النبات.

وفي حقل الحيوانات، تأمل هذه القدرة المودعة في البعوضة أمامك، كل ما منحه الله للفيل منحه للبعوضة أيضاً، كل هذا تمظهرٌ للقدرة لتعلم أنه على كل شيءٍ قدير، الذكاء الموجود عند الفيل موجود عند البعوضة أيضاً، لذا فهي تفرُّ فور ظهور الخطر.

ضع البعوضة الضعيفة مقابل الفيل، ستتيقن أنّ خالقهما واحد، خلق الله هذا لنراه أنا وأنت بأعيننا، لنرى أجهزة الهضم والتناسل وحواس البعوضة، ثم نقول عن علم: (الله أكبر) إنها من حيث أسلوب المعيشة قد تكون أغرب حتى من الفيل، نفس هذا العقل المعاشي الموجود لدى الإنسان موجود لدى الحيوانات أيضاً، فلو كان شعورها بهذا المستوى فما هي مزية الإنسان؟

نعم، إنّ فرقك عن الحيوان هي علوم أخرى تصل بها من المخلوقات إلى الخالق، هذا هو ما يمثل فرقك عن الحيوانات، وإلاّ فإنك لست سوى حيوان أذكى وأكمل.

إنّ الحيوانات تشترك معنا في كونها مخلوقة وتبحث عن منافعها وتميّز أضرارها، فإن كنت لا تتعامل إلاّ مع المخلوق فأنت حيوان إذاً، ولكن إذا ما وصلت إلى الخالق عن طريق المخلوق، وقلت حين ترى النملة: (سبحان الله العظيم) فهذا هو الشعور الحقيقي، وإلاّ فالذكاء في عمل المخلوقات ليس شرفاً وفضلاً.

العقل ميزة الإنسان لمعرفة الله

ليس للحيوان عقلاً يعرف به الله، وعليك بامتلاكك لهذا العقل أن تكون إنساناً، أي أن تعرف الله، ولا تكن مثل البهائم. أن ترفع رأسك لا أن تدفنه في الحفر، لا أقول أترك الدنيا، بل أقول إذهب واعرف خالق الدنيا لتعبده، فتكون عبده ويكون إله العالم مولاك، لا أن تكون شهواتك ربك، ففي نظام الحيوانات العابد والمعبود هي الشهوات.

تدبّر في نظام الخلق، انظر إلى مظاهر القدرة، واعلم من الحكّم المودعة

في المخلوقات أن ربك عزيز حكيم. إذا أردت أن تفهم الحكمة الربانية، فانظر إلى النملة وهي تلعب دور القابلة، فعندما تريد النملة أن تضع البيوض تساعدنا قوايل النمل. أجل، تظن أنك وحدك ضالع في هذا الفن؟ نعم، قد تكون ماهراً أكثر، ولكن الحيوانات أيضاً تمارس الطب لعلاج أمراضها، كل حيوان يعرف دواء دائه، لقد خلقت للأبد، ولكن حياة الحيوان على هذا التراب وموته أيضاً على هذا التراب.

إدراكات أرفع من الحيوانية

يروى (محمد بن علي السناني) فيقول: ذهبت سنة ٢٦٠هـ مع أبي وعمي وجماعة أخرى لزيارة قبر أمير المؤمنين علي عليه السلام، وحين وصلنا هناك وجدنا أحجاراً سوداء حول القبر، ولا بناء على القبر، ثم نزلنا فكان بعضنا يزور والبعض يصلي وآخرون يقرؤون القرآن.

وفجأة رأينا أسداً يقترب منا حتى وصل على مقربة منا، فقال البعض: لنبتعد عن القبر، ونرى ماذا يفعل هذا الأسد وما يريد؟ وبعد هذا اقترب أحدنا من الأسد، وعاد ليقول إنَّ الأسد يمرغ ذراعه بتراب القبر المبارك، وعندها تنفسنا الصعداء، وعلمنا أننا في أمان من شره، وذهبنا معاً لنرى ما يفعل الأسد.

رأينا أن يده مجروحة وهو يمسح بجرحه على القبر، ثم عاد من حيث جاء، وهكذا علمنا أنه جاء بقصد الشفاء، وعندما شفي عاد إلى مكانه.

كتب صاحب كتاب (فرحة الغري) أنه قبل بناء (البقعة الهارونية) لم يكن لقبر الإمام علي عليه السلام من أثر، فكانت تأتي خواص الشيعة إلى جوار القبر المبارك، وتضرب خيمها، وتبقى للتبرك يومين أو ثلاثة، يقول بعض الأشخاص الذين ذكر أسماءهم: طرق أسماعنا ذات ليلة صوت أسد، فخرجنا من خيامنا، فرأينا أسداً وضع يده على قبر الإمام، وأخذ يئن، وعلمنا من وضع القبر وأنين الأسد أنه لن يتعرض لنا، وحين اقتربنا، رأينا يده قد تورمت

ودميت وجرحت، وأن شوكتاً قد دخل فيها فأذاه ذلك، وحين أشرق الصباح رأينا يذهب إلى القبر ويده صحيحة لا عيب فيها، هذا ما رأيناه بأنفسنا.

من ألهم هذا الأسد أنّ مفرّج الكرب مستجى هنا، إنّ هذا المعنى أرفع من هذه الكلمات، أيها الإنسان لا تكن أقل من الحيوانات، إنّ ملجأنا هو قبور الأئمة الأطهار عليهم السلام، فهي بحق ملاذ وكهف لنا.

«تنبيهاً على طاعته» كان مجمل كلمات السيدة الزهراء عليها السلام في تبيان الهدف من الإيجاد هو ظهور القدرة اللامتناهية في عالم المادة هذا، ومع أنّ هذا العالم ضيق ومحدود، إلّا أنّ الله أظهر قدرته فيه بمقدار قابلية هذا العالم واستعداده. ولكن قدرته تعالى فوق عالم المادة، وظهورها يتجلّى في أشياء أخرى، فالجسم والجسمانيات محدودة بشروط معينة، ولا يمكن أن تتجلّى القدرة فيها أكثر من هذا.

الزندق يسأل هشام

روي أنّ زنديقاً سأل (هشام): هل يستطيع الله أن يضع العالم في بيضة دون أن يصغر العالم أو تكبر البيضة؟ فاحتار (هشام) وبقي ساكناً. فإن قال إنّه لا يستطيع، فقد قال بعجز الله، وإن قال بلى فكيف يمكن ذلك؟ ولهذا فقد استصبر الرجل وتشرف بلقاء الإمام الصادق عليه السلام وسأل الإمام هذا السؤال (وقد سئل الإمام علي عليه السلام مثل هذا السؤال أيضاً).

وكان مضمون جواب الإمام هو أنه لا يمكن وقوع هذا الأمر من الناحية العقلية، وهذا لا يعني أنّ الله لا يستطيع، فهناك فرق بين أنّ الشيء غير ممكن، وأنّ الله لا يستطيع «لا يوصف ربنا بالعجز» فلا يصحّ أن نقول إنّ الله يضع العالم في بيضة، بل نقول إنّ هذا غير ممكن، لأنّ الأدوات محدودة وضيقة، ومن أجل أن يفهم القدرة والعظمة الإلهية قال له: افتح عينيك وانظر كيف وضع الله كل هذا المكان الكبير في عدسة عينك الصغيرة. إنّ هذا مظهر

القدرة الذي جعل عدسة العين تعكس كل هذا النظام. ولكن تلك المسألة غير ممكنة لأنها محدودة بنفسها.

أجل، في العالم الآخر، تتجلى كل قدرة الله لأنه عالم ما وراء المادة، أما عالمنا فليس إلا نموذج منه.

قالت ﷺ: «إظهاراً لقدرته» جعل نظام الخلق معرضاً لقدرته حسب قابليته. «وتنبيهاً على طاعته» فإن الهدف من خلق هذا النظام العظيم هو اطلاع البشر - بحكم عقله وفطرته - على طاعة خالق الكون. فبعد أن ظهرت القدرة، يحكم عقلك بأن تخضع وتستسلم وتطيع الله خالق هذا العالم. إن نظام العالم هو منذرك لو قبلت الإنذار، ولكن المعرفة لا تحصل إلا إذا تنازلت عن وضعك هذا.

إنك تفكر دائماً بأعمالك وأشغالك، فمتى ستفكر بأعمال الله، إن اطلاعك يحصل عندما يقل همك وغمك على الدنيا، ذهب فلان وجاء فلان وعمل كذا. ارتفع ثمن السلعة الفلانية أو انخفض، ارتفعت العملة أو انخفضت و... إلخ، إفهم قليلاً عن نظام الخلق أيضاً. والآن سأذكر جانباً من اطلاع البشر ومعرفتهم.

الذرات جميعاً في حركة دائمة

ماذا يفعل من يريد أن يعلم ما يقوم به الله. فليتأمل في هذه الكرة الأرضية، إن هذه الأرض وكل ما فيها من الموجودات من النملة والدودة الترابية إلى الفيل، من الحشائش السيارة إلى أعظم الأشجار وأكثرها ثماراً، كلها في حركة وسعي متواصل، ولا يوجد شيء ساكن، بل كلها في حركة حسب أنواع الحركة الأينية والكمية والكيفية والجوهرية، متحركة حسب المكان أو حسب الكمية والنمو أو بحسب النوعية كاللون والطعم، ولا توجد وقفة في الموجودات أبداً.

فمثال الحركة الأينية هي هذه الكرة الأرضية تحت أقدامك، والتي ثبت

أنها في حركة دائمة، ولا تقف عن المسير ولا ثانية. فهي تقطع بحجمها ووزنها الثقيل هذا أربعة فراسخ كل يوم تقريباً حول نفسها، وأربعة فراسخ في كل دقيقة حول الشمس، ضمن الحركة الانتقالية. أيُّ قدرة تمنعها من الوقوف حتى للحظة واحدة؟ إنها لا تقف أبداً، فهي دائماً تحت أمر ودستور خالقها، وفيما يخصّ الحركات الكميّة والكيفية، فاذهب إلى سفوح الجبال وانظر لأشجار العنب لتراها في حركة طويلة عدة شهور، وإن كانت حركة غير محسوسة، فمنذ أن تظهر بذورها الخردلية على أغصانها وهي في حركة حتى تكون في حجم الأنامل أو أكبر، أنظر ماذا حصل، شهرين، ثلاثة، خمسة.. حتى يصبح ذلك الخردل بحجم مقطعين من مقاطع الأصبغ.

هذه حركتها الكمية، وأما الكيفية فتذوق طعم ثمارها من اليوم الأول حتى النضوج، تجد أن طعمها يتغيّر كل يوم، فهي مرّة في الأشهر الأولى وحامضة بعد ذلك، حتى تصل إلى أوج الحموضة، وعندها تبدأ حموضتها تقلّ وحلاوتها تزداد، إلى أن تنضج تماماً، ونحصل على عنب طيب.

لا يمكن الحصول على موجود ساكن في عالم الوجود، النطفة الجامدة ما إن تدخل في الرحم حتى تبدأ حركة كمية وكيفية، حتى تصير على شكل طفل لإنسان كامل. وهذا لا يحصل بشكل مفاجيء، بل إنه يتطوّر خلال ستة أو سبعة أشهر بشكل تدريجي، ولكنه قد يبدو موجوداً ساكناً لأنّ حركته لا تدرك بالحسّ.

إنّ الذي يدقّق في النباتات والأشجار يجد فيها العجائب.

التقاء نخلتين بعيدتين

يقول أحد رجال العلم من سكنة مدينة بومباي إنه كانت في طريقي نخلتان، كنت أمرُّ من بينهما كل يوم، ولم أكن أنتبه إليهما في البداية ولكن بعد عدة أشهر لاحظت أنّ المسافة بينهما كانت أكثر من الآن، وبدأت ألاحظ بعد ذلك أنّ المسافة بينهما تقلّ كلّ أسبوع بمقدار شبر واحد.

والخلاصة أنهما واصلا الاقتراب من بعضهما قليلاً قليلاً حتى التحما ببعضهما.

وبالطبع فإنّ مثل هذه الأمثلة نادرة، أما الحركة التي لا توقّف فيها فهي الحركة الكمية والكيفية المتمادية، واعلموا على كل حال أن لا موجود ساكن في عالم الوجود.

وحتى الجبال التي تتحرك ضمن حركة الكرة الأرضية، فإنّ لها حركة أخرى من نفسها، فيقال إنها تشهد تغييرات معيّنة كلّ عدة سنوات. ولا توقّف في الإنسان أيضاً من حيث التكوين، فقدرتة الجسمية في تغير دائم، فشبران من الجسم تصبح بعد ذلك مترين طولاً في حدود سن الأربعين، ومن بعد ذلك تبدأ قامة الإنسان بالتقوس والنزول مرة أخرى.

والخلاصة أنك لست واقفاً أو ساكناً، فإما نحو الأعلى وإما نحو الأسفل، ولكنك لا تلاحظ هذا لأنك لا تشعر به، فهل تضعف قدمك وعينيك أو يبيض شعرك بصورة مفاجئة أم بشكل تدريجي؟

علامات الشيخوخة في الجسم

هناك رواية في كتاب (البحار) تقول إنّ الإمام الصادق عليه السلام كان في يوم من الأيام يتمشى في المدينة مع أحد أصحابه، حتى وصلا إلى سفح جبل أحد، فنظر الإمام إلى الجبل وقال: هل ترى فرجة في الجبل؟ قلت: نعم، فقال: أما إنني لا أراه.. ثم قال: إنّ علامة الشيخوخة ثلاث: ضعف الرؤية، وانحناء الظهر، وضعف الساق.

النتيجة هي أنك أيها الإنسان ترى أنّ جميع ذرات الوجود في حركة وطاعة تكوينية لأمر خالقها.

فعليك أيضاً أن تطيع هذا الرب «تنبيهاً على طاعته» أنت ترى أنّ كرة بهذه

العظمة مطيعة لربها، فلماذا لا تكون مطيعاً له بأفعالك الاختيارية؟ عندما تطيع ذرات جسمك الله تكوينياً، فكن أنت أيضاً مطيعاً له بإرادتك.

هل هنالك جاهل مثلك في عالم الوجود الذي خلقه الله بهذه العظمة وكان بأكمله مطيعاً ومتبعاً لأوامر الله؟ الشمس مطيعة، والكرة الأرضية لا تتوقف لحظة واحدة، وكذلك كلّ الموجودات فيها، فهل تليق بك المعصية؟ تتحرك ذرات العالم بكلّ هذا الحماس والاندفاع، وأنت مرتخٍ كسولٍ في طاعتك الاختيارية لأوامر خالقك، ألا ترى هذا التقصير والتساهل خلاف فهمك وعقلك؟

لماذا لا تقضي ساعة واحدة في ذكر الله من مجموع ٢٤ ساعة تقضيها في الغفلة؟ ألا يليق بنا أن تشملنا عبارة السيدة الزهراء عليها السلام هذه: «وتنبهها على طاعته».

إلهي وفقنا لطاعتك، وبارك في عقولنا، ووفقنا لما تحبّ وترضى، وجنبنا ما لا تحبّ: «إظهاراً لقدرته، وتنبهها على طاعته».

وصل بنا الكلام إلى الجملة المباركة: «تنبيهاً على طاعته».

أي أنّ الله عندما خلق نظام الخلقة العظيم هذا كان هدفه هو تنبيهك إلى طاعته، فقد منح الله العقل والفهم للبشر، وجعله مدركاً للجزئيات، وعرض عليه هذا النظام العظيم ليطيع الله بإرادته المحضة.

استعراض العظمة من أجل الطاعة

والآن، يبدو أن لا مفرّ من أن نذكر مثلاً ولو من باب تشبيه المعقول بالمحسوس والحقيقة بالمجاز والبحر بالقطرة، أي إنزال الحقيقة في قالب المجاز:

إن السلاطين في كل مكان وزمان يستعرضون قدراتهم وعظمتهم حين يريدون أن يديروا شؤون بلادهم ويدخلوا شعوبهم بيت الطاعة.

أيها الخارج عن القيل والقال وعن أوهامي فليُثر التراب على رأسي وعلى تشبيهي
فالمُلك الدينوي من أجل أن يخضع أفراد الشعب ويكونون طيِّعين،
يستعرض النظام العظيم، ويعرض الأسلحة ليقتذف الرعب في قلوب الناس،
ويعلمون بعظمة صاحب هذه القدرة، ويعترفون له بالجبروت فلا يتمردون على
أحكام السلطان إذا أمر بشيء.

الجيش الظاهري وقوات الإمام

يروى (القطب الراوندي) أنّ المتوكل (أو أحد الخلفاء) أمر جيشه المؤلف
من ٩٠ ألف فارس من الأتراك في (سامراء) أن يملأ كلَّ منهم حصانه بالورود
الحمراء، ثم يلقون بهذه الورود على بعضها في محلّ معيّن من الصحراء.
ففعّلوا ذلك، فتكوّن منها جبل عظيم، وسمّي بتل المخالي. وعندها صعد
الخليفة فوق هذا الجبل، وطلب الإمام الهادي عليه السلام وقال له: إنني بعثت إليك
لترى جيوشي، وكان قد أمر أن يتزيّن جنده، ويحضروا بكامل أسلحتهم،
وهدفه من هذا أن يعرض عظّمته وافتداره لثلاثي فكر الإمام عليه السلام أو أحد من
أهل البيت عليهم السلام بالخروج عليه. فسأله الإمام عليه السلام إن كان يرغب برؤية جنوده
وجيشه هو.

فقرأ الإمام عليه السلام دعاءً وقال: أنظر. فنظر فرأى ملائكة مسلّحين بكامل
السلاح، وقد ملأوا ما بين السماء والأرض من المشرق حتى المغرب، وكلهم
في انتظار أمر الإمام عليه السلام.

فغشي على الخليفة حين أبصر هذا، وحين أفاق أوضح له الإمام عليه السلام بأنه
لا شأن له بدنياه، وأنه مشغول ومنصرف للأخرة، وأنّ عليه أن لا يفكر بأنّ
الإمام سيثور عليه يوماً، فهو لا يفكر بذلك.

وفي هذا إشارة إلى أنّ كل هذه الجيوش الظاهرية ليس فيها ما يرعب

أصحاب المعرفة، فالذي عرف حقيقة النظام الإلهي وعظمته لا تخيفه هذه المظاهر.

إن إظهار القدرة يكون من أجل الطاعة، ليخاف البشر منه ولا يخالفون له أمراً. تعالوا إلى حقيقة الذات الإلهية المقدسة التي خلقت البشر بحكمتها البالغة. ألا تجب الطاعة من أجل الوصول إلى العوالم اللامتناهية الأخرى والرتب العالية والسعادة الأبدية، بالإضافة إلى تقويم الحياة الدنيا؟

الجميع جنود الله

إذا انحرف الإنسان عن طاعة ربه، فقد خسر الدنيا والآخرة، ومن هنا فقد أظهر الله مختلف ألوان القدرة للإنسان، ليكون على استعداد تام لطاعة رب العالمين.

أيها الإنسان العاقل، أنظر إلى جنود الله، فإنها موجودة أين ما وليت وجهك، فالهواء الموجود في كل مكان هو الحياة، لكن إذا ازدادت سرعته صار هلاكاً كالرياح التي هبت على (عاد) حيث أمر الله الريح أن تأخذ هؤلاء التعمساء، فترفعهم أمثاراً عن الأرض، ثم ترمي بهم وتهلكهم.

والخلاصة إن الهواء الذي يبعث الحياة، صار بأمر الله باعثاً للهلاك.

والماء من أسباب الحياة، لكن إذا أراد الله كان ناسفاً للعمران، فيبتلعك ويبتلع بيتك. أو إذا جاءت زلزلة قوية، فإنها تجعل منك مسكيناً، أترى الأرض تحت قدميك كيف تدور باستمرار؟ إذا توقفت في يوم من الأيام فلن يبق عليها أحد قط.

أيها الإنسان الذي لا تسطع الشمس على رأسه أربعاً وعشرين ساعة، ليتأتى بزوالها الليل الذي يرتاح وتسكن إليه ﴿مَنْ إِلَهُ عَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ لَيْلٍ سَكُونٌ فِيهِ﴾ [القصص: ٧٢]، ألا تخشى أن يمنع الله الأرض عن الدوران فجأة، ويسلب منك هذه النعم؟ ألا يجب أن تطيع صاحب هذه النعم؟ ماذا

تفعل لو لم يصل ضوء الشمس إلى الأرض، وظللت في ليل دائم؟ أما يخالج الرعب قلبك عندما تبصر الموجودات والحيوانات المتوحشة؟ إذا شاء الله فإنّ قسماً منها كالرياح والأمطار مثلاً بإمكانه أن يمحو المدن، وليست من قدرة يمكنها الوقوف في وجه ذلك، والحال أنها جميعاً مطيعة لك.

والأعجب من هذا هو ما يُقال من أنّ الأسد بكلّ ما له من شجاعة وبأس فإنه يخاف من النار ومن صوت الديك، فيفرُّ فور سماعه صياح الديك، فمن فعل هذا؟ لأنّ الديك في المدن والقرى صار الأسد يخاف منه ويولّي هارباً. كل هذا من أجل أن تداخلك الخشية ولا ترتكب المعاصي.

قبل سنوات أمطرت السماء عقارب في (سامراء)، ففرت الناس البائسة، ومات من مات. إذا الله أن يُمسكنك فيإمكانه ذلك.

انظر إلى قدرة الله من خلال جنوده، ليأخذك خوفه قليلاً، وتقول وقت الصلاة إنّ الصلاة أمر من رب العالمين، فلا تتخلّف عنها، وإذا بادرك ذنب تقول إنّ هذا لا يرضي إله العالم، فتجنّب فوراً.

العبرة نتيجة للشعور الإنساني

نفس هذه الأرض تحت قدميك، إذا حدثت فيها زلزلة فستشدد في بعض المناطق، وربما تشققت بعض النقاط من الأرض، كما حدث في زلزلة (قير وكارزين) التي سببت خسائر كثيرة، الشعور الإنساني معدوم تماماً، البشر اليوم كأنه حيوان يمشي على قدمين ما لم يعتبر.

إنّ ذئب الحمام يأكل غنم هذا القطيع واحدةً واحدةً، ولكن انظر إلى القطيع كيف يرعى مرتاح البال.

أرأيت زلازل (شيراز) و(جهرم) و(قير وكارزين)، حيث اشتدت إحداها فماذا فعل الناس؟ هل أصاب الرعب أحداً في زلزال قير؟ هل انتهى الشعور

الإنساني، فلا تأخذ الناس رهبة من عظمة سلطان عالم الوجود ومدير وخالق الأرض وما عليها.

كل ما لك هو إدراكك وفهمك وعلمك، فمن لا يصل إدراكه إلى هذا الحد لا يتجاوز حدود الحيوانية، صار إدراك الإنسان اليوم هو شهواته ﴿ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعَالَمِ﴾ [النجم: ٣٠] فلا نشهد إلا هذه الإدراكات الجزئية والوهمية، وأما الإدراكات الكلية الجديرة بشأن الإنسان فمتفية بشكل كامل.

ارفع رأسك وأدرك العظمة لتكون مطيعاً، ويأخذك الخوف إذا قيل إن هذا أمر الله، كما تخاف إذا قالوا إن هذا الحكم هو حكم السلطان، فتعال وخف إذا قيل حكم سلطان السلاطين وملك الملوك.

كتبوا في الجرائد قبل فترة أن السفينة الفضائية (أبولو) كانت تُقلُّ ثلاثة من رجال الفضاء إلى القمر، حينما عادت إلى الأرض كان رواد الفضاء الثلاثة قد أصيبوا بحالة من البهت والذهول، بحيث لم يكن في استعدادهم أن يعودوا للعيش مع نسائهم وأطفالهم، الشاهد هو أنه إذا ارتفع وتسامى الشعور والإدراك لدى الإنسان فلن يحتاج إلى السفر للقمر، وسيصيبك ما أصاب الرواد إذا تفكرت بقدره وشعور.. كل هذه الكواكب العظيمة بكل هذا النظام والدوران.

فخلاصة شرح عبارة السيدة الزهراء عليها السلام: «تنبيهاً على طاعته» هو إبلاغك أيها البشر لتستعدّ لطاعة ملك الملوك، سلطان السلاطين، رب الأرباب، جبار الجبابرة، خالق السماوات والأرض، خالق ما يرى وما لا يرى، فالأمل يكبر في أن يزداد فهمك إذا شاهدت هذه العظمة.

إلهي، اهدِ أذهاننا إلى المعنويات، أفهمنا عظمتك لنكبر، فنعرف الكبير ونطلب الكبير وتتسع حدود إدراكنا.

«إظهاراً لقدرته وتنبيهاً على طاعته» وصل بنا الكلام في شرح هذه الجملة: «تنبيهاً على طاعته» إلى قولنا أنه مع تراكم نماذج القدرة الإلهية على وجه الكرة

الأرضية، فيمكن إدراك نظام الخلقَة أكثر في الجهة العلوية، في الجو وما وراء ذلك من كرات وكواكب أخرى، فالذي يطلع على تلك العوالم سيزداد ويتعمق فهمه لعظمة الخلقَة وظهور السلطة اللامتناهية لرب العالمين، ولهذا فقد أمر القرآن الكريم مراراً أن يرفع الإنسان رأسه، ويشاهد الحركة والنظام المحيّر للألباب والمذهل حقاً.

هذه الأجرام والكواكب فوق رأسك بهذه العظمة لا وقفة لها حتى للحظة واحدة، مع أنّ أعدادها تتجاوز الملايين والمليارات، فلا تجد ولو واحدة منها واقفة بلا حراك؛ بل هي في حركة دائمة، وبها لها من حركة سريعة عجيبة، فلا تصطمد كرتان منها رغم كثرتها وسرعتها، هل سمعتم مثل هذا في التاريخ؟

قبل عدة سنوات تنبأ بعض المنجمين الأجانب أنّ جرماً سماوياً سوف يصطمد بالأرض ويثقبها في التاريخ والساعة الفلانية، فما كان من بعض الناس في أوروبا إلاّ أن نزحوا إلى الصحارى في الساعة المعينة للاصطدام نتيجة خوفهم وهلعهم! والأغرب من هذا أنّ البعض أغرقوا أنفسهم في البحر لكي لا يروا فناء الكرة الأرضية، وكانت النتيجة أنّ شيئاً لم يحدث، لقد حسبوا حساباتهم غافلين عن أنّ لهذا العالم ناظم ومحرك ومدبّر.

لا تجعلوا أقوال الأنبياء ﷺ أقل من أقوال المنجمين

بإمكان قول المنجم أن يدخل الفرع على القلوب إلى حدّ يدفع الناس إلى الانتحار، ثم لا يتحقّق ما قاله المنجم، أفلا تترك جميع أخبار الله والرسول ﷺ عن الآخر ذرّة من التأثير فيك؟ لا حول ولا قوة إلاّ بالله، كم هو الإنسان وضعيع وبعيد عن التفكير في عواقب الأمور.

وعلى كل حال، أردتُ الإشارة إلى النظام الذي يرفع أهل العقل رؤوسهم فيرون فيه الحركة التي لا تتخلّف لحظة واحدة. إنّ الإنسان ليذهل حقاً حين يطلع على حسابات ودراسات علماء الفلك، كل نجمة لها حركاتها المنظمة والمرتبة، الذي خلقها هو الذي منحها هذا النظام. على الذي يريد أن يطلع

أكثر على عظمة النظام أن يطالع أكثر مسائل الفلك، ليتفهم عظمة وسلطة وحكمة الله أكثر، إن ذات الله القدسية الحكيمة هي التي جعلت من نفس هذه الطبقة الجوية التي يدعونها (أتموسفير) خزّاناً للحرارة الشمسية.

فإن ملايين الأطنان من الحرارة التي تصل الأرض من السماء يومياً لو مسّت الأرض لأحرقتها، ولكن إحدى طبقات الجو التي تحيط بالكرة الأرضية بشكل كامل وتتكون من غازات محرقة (ذكروا أن حرارتها تصل إلى ٣٠٠٠ درجة) تذيب ما يصل إلى الأرض من الأجرام السماوية التي تحاول الاصطدام بالأرض، والتي تسير بسرعة عجيبة تصل إلى ٥٠ كيلومتراً في الثانية، وتتحوّل عند هذه الطبقة إلى بخار وغبار ولا يبقى منها شيء.

إنّ هذه الطبقة الجوية هي في الحقيقة درع للأرض، خلق الله هذا الدرع حول الأرض ليتحكّم بالحرارة الشمسية التي تصل الأرض من جهة، وليصون الأرض من الأجرام السماوية التي تتجه الملايين منها نحونا يومياً من جهة ثانية.

من الأسباب التي تمنع البشر من السكن على القمر، هو خطر الأجرام السماوية التي تمطر أرض القمر أما الكرة الأرضية فلها هذا الدرع الجوي لتستمرّ حياة ما عليها من النباتات والحيوانات والبشر. ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢].

الجهل بالعظمة يوجب الجرأة على المعصية

أفلا تأخذك الهيبة بعد المعرفة بكل هذه العظمة، الهيبة من صاحب هذا العالم اللامتناهي، هذا العالم الذي لا تعرف منه لحد الآن سوى واحد من المليارات؟ أفلا تنتبه إلى طاعته من كل قلبك وروحك؟ خف من معصية إله العالم.

كيف لك الجرأة أيها البشر الضعيف على السلطان الحقيقي وخالق العالم بعد أن شاهدت عظمة سلطانه. هذا عجيب والله، وليس له تفسير سوى قلة

الفهم، وإلا فليس بإمكان البشر أن يتجرأ أبداً على معصية إله العالم الذي لا نهاية لجنوده وجيوشه، كلُّها جنود الحق، فالتراب تحت قدميك جند لله، ألم ترَ أنّ الأرض هي التي أهلكت (قارون)؟ ألا تخشى من جنود الله حولك أن يهلكوك؟

إنّ ريح (عاد) ما زالت موجودة، ومن الحيوانات البعوضة التي أهلكت (نمرود) وأصحاب (نمرود)، و(أباييل) التي أهلكت (أصحاب الفيل)، إذا أراد الله فيإمكانه أن يسَلِّط عليك أصغر وأضعف الحيوانات، ولكنه حلیم ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [الحج: ٥٩].

العجب كل العجب من حِلْمِ الله، كل هذه المخلوقات تأكل نِعَمَ الله وترى آثار عظمتها، ومع ذلك لا تبالي بطاعة الله، فمائة تومان لها من القيمة عنده أكثر من الامتناع عن معصية الله. ورغم هذا فالله يواصل حلمه فينا وهو العظيم، كل هذه العظمة اللامتناهية له، ولكنه حلیم في نفس الوقت، فإياك أن تسيء استخدام الحلم الإلهي.

لا يوجد أحد يمهل أحداً حتى يخاف أو يخرج من تحت قدرته وحكومته، والحال: «ولا يمكن الفرار من حكومتك» ولكن لا أحد يخرج من مُلكِ الله، فالله يمهل عسى أن يعود العاصي إلى الله، ويصير صالحاً ويأخذه الحياء.

إلهي كما منحتنا المهلة بحلمك، فوفقنا للتوبة وجبران الماضي: «إنك على كل شيء قدير».

الموت يقظة من النوم

في حديث مشهور للإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام إنّ «الناس نيام، إذا ماتوا انتبهوا» فنيام بمعنى عديمي الفهم ومذهولين، فلا تشغل أذهانهم سوى أمور الدنيا، ولا يعلمون أبداً ماذا يجري خلف الستار، وما هي حقائق الأمور.

إنك مسافر ووطنك غير هذا المكان، حُلِّقت لعالمٍ آخر، ولهذا تُرصدُ

جميع أقوالك وأفعالك لتحاسب عليها، فكن ما تشاء إذا كان لك عقل فكل شيء على ما يرام.

الناس نيام بالنسبة لهذه الحقائق، متى يفهم الإنسان؟ عندما تفصل روحه عن جسمه، عندما يدخل عالم البرزخ والملوكوت سوف يرى الحقيقة، فيقظة أكثر الناس من بعد الموت، باستثناء عدد قليل تيقظوا قبل الموت الآن، وإلا فيقظة البشر تكون بعد البشر.

تقول السيدة الزهراء عليها السلام: «تنبيهاً على طاعته» أيها الإنسان لقد منحك ربك كل هذه النعم، وأظهر لك قدراته لعلك تستيقظ الآن لا في القبر، فاليقظة في القبر لا طائل من ورائها، ولن تورث سوى الحسرة والندم، إلا أن تستيقظ هنا وترى كيف أظهر الله لك عظمته.

وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وآله حول قوله تعالى: ﴿وَرِزْقُهُ مِّنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٣] أن الله إذا أراد أن يهدي مؤمناً؛ رزقه من حيث لا يظن حتى ينتبه.

فتنبيهات وإنذارات الله هي التي توقظك، وقد يخرق الله الأسباب الطبيعية لبعض البشر، ويحبوه ألطافاً خاصة، كأن يشفيه من مرضه بدون أي سبب أو واسطة، وقد يحلّ له مشكلة من حيث لا يحتسب، ليعلم أنّ هذه الألفاظ إنما هي من عالم الغيب وليست مادية وطبيعية.

كلّ هذه الأشياء هي استعراضات لعظمة الله، لكي تفهم أنه على كل شيء قدير، وأنه بكل شيء محيط، فأين ما تكون فالله محيط بك، فربك ليس بعاجز، توكل عليه واعتمد لترى العظمة وتأخذك الهيبة، وحذار أن تعصي الله أمراً، فكلّ عالم الوجود من جنوده. فلماذا لا أخشى إلهي، أنا الضعيف الذي تهلكني جرثومة لا ترى بالعين لصغرها، لماذا لا آخذ حذري من أن أرتكب معصية ما، أو أن أخالف أمراً لهذا القادر العظيم.

لا يريدون أن يعرفوا الله

لقد أظهر الله كلّ أسباب عظمته وسلطانه وجبروته، ولكن... يا للعجب! من قلة وعينا، لسنا على استعداد لأن نأتمر ونطيع، فالواحد متاً يدسّ أنفه في كلّ القضايا، ويبحث عن كل شيء، إلّا ما يتعلّق بالله وبالمعنويات، فهو يسعى في كل المجالات إلّا في مجال معرفة الله وطاعته.

وقد يبذل البشر الثروات الطائلة للوصول إلى القمر، ويتكلّف الآلاف من الناس الجهود والمشاقّ وأنواع الفداء من أجل هذا المشروع، لماذا؟ نريد أن نكتشف ما يوجد من معادن هناك، نسرقها ونأتي بها إلى الكرة الأرضية؟!

ليت البشر يتحرّكون ويعملون من أجل معرفة العظمة، عظمة النظام الإلهي، ويبذلون جهودهم لاكتشاف الآيات الإلهية، لكي يحفظوا بالربح المعنوي ويفهموا عظمة نظام الخلقة الإلهية. يا للعجب ممن يشتغلون في مجال الأحياء والتشريح من أجل منافع مادية وليس في سبيل الله، ولا من أجل أن يعرفوا ويروا عظمة صانع هذا النظام العظيم، إذا أرادوا أن يسلكوا هذا الطريق عليهم أن يكفّوا عن اللهو والمجون والشهوات.

يلهث البشر في يومنا الحاضر خلف اللهو والتهتك والملذّات، وهذا ما لا يتفق ومعرفة الله وطاعته، وقد يصل الأمر ببعضهم إلى إنكار وجود الله، فلا تبقى غير الشهوات والملك والرئاسة والثروة، وإلّا لماذا كلّ هذه الحروب والمجازر والمفاسد، حتى صناعاتهم تخدم هذه الأغراض.

إنّ الله قد نبّه، ولكن هذا البشر الخائن لا ينتبه، ولا يريد أن ينتبه، وإلّا فلكل مجال وموقع تحذيرات وعلائم عامة وخاصة.

إلهي، أيقظنا قبل الموت و«نبّهنا من نومة الغافلين» ووفقنا لطاعتك، وهبنا عرفانك وعبوديتك.

لماذا خَلَقَ العالم؟

«وتعبداً لبريته» في هذه العبارات من الخطبة الشريفة إشارة إلى أهم العلوم التي يجب على البشر الإحاطة والاهتمام بها، ليعلموا الغاية من الخلق. لماذا جاؤوا وأين سيذهبون؟ ما هي الغاية من وجوده ليسعى نحو تلك الغاية. ففطرة أي إنسان عاقل وضميره تبغي وتطلب هذه العلوم لتعلم ما الهدف من وجودها ووجود غيرها في عالم الوجود.

تشرح السيدة الزهراء عليها السلام في هذه العبارات الغرض من إيجاد هذا العالم ومآل ومعاد هذه البشرية، جعل الله هذه المفاهيم راسخة في وجداننا، وضحنا معنى كلمة «تنبيهاً على طاعته» خلال الفصول السابقة وسنأتي الآن على عبارة: «تعبداً لبريته».

العبودية سرّ الخلق

الهدف من كل هذا التجلّي للعظمة الإلهية ومن هذه الحكمة اللامتناهية في نظام الخلق هو أن يصبح الإنسان العاقل عبداً لله. فيسلك سبيل العبودية ويغدو عبداً، فيصير سلطان العالم بتبعيته لربّ العالمين، إلى أن يغدو الإنسان أعلى وأرفع من عالم الوجود، ويحظى بمرتبة القرب الإلهي، وهي المرتبة العظيمة والسلطان الحقيقي.

(التعبّد) من باب (تفعل) بمعنى الاستسلام وقبول العبودية.

فيرى البشر نظام عالم الخلق العظيم هذا، وعندها يسلم لصاحب هذا العالم، وكما أنّ الإنسان وسائر أجزاء الوجود هم عبيد لله خلقه وتكويناً، لذا عليه أن يكون عبداً باختياره وعن شعوره وإدراكه، ويجعل من أعماله عبادة لله عز وجل.

الجميع عباد الله تكوينياً

يرى الإنسان أنه وغيره مملوكون لله بحسب التكوين ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ﴿ [آل عمران: ١٨٩]، ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٢٩] فهل ترى قطرة الماء التي هي بدورها من مخلوقات الله عندما كانت في ظهر الأب ورحم الأم إلى أن صارت على حالها الإنساني هذا، أتراها مملوكة لغير الله. وهل تراك مخلوق لغير الله وأنتك شكّلت أجزاء جسمك من نفسك لنفسك؟ وإلى أيّ شخص نظرت وجد مملوكاً مثلك. فخذ هذا الجدار إلى أن تصل إلى النباتات والحيوانات والإنسان أخيراً، تراها جميعاً كانت في البداية قبضة من التراب، ثم جعلتها يد القدرة الإلهية مثلما شاءت، فأصل كل الأشياء وكمالها هو الملك.

لا يملك مخلوق شيئاً بذاته، فالأرض وما عليها وما فوقها من السماوات وما بينهما كلها مُلكٌ مطلقٌ لموجدها.

وقد تكرر هذا المفهوم مراراً في القرآن الكريم، افتح ذهنك أيها العاقل وأطلق سراح حياتك من هذه الأوهام والجزئيات قليلاً. إن ما يجعلك قليل المعرفة بالله هو تسخيرك لكل إمكانياتك وحواسك في الأوهام وأمور الحياة اليومية، فكل هذه الحسابات الجزئية تمنع الإنسان وتشغله عن اكتشاف الحقيقة وعن ما يجب أن يعرفه.

أردت التذكير، فكم تقول من بعد صلاة العشاء «لله ما في السماوات وما في الأرض» اللام للملك، «لله ملك السماوات والأرض» يجب أن يصير هذا المعنى وجدانياً وضرورياً في نفوسنا كما نعتقد بضرورة أن 2×2 يساوي ٤.

الإيغال في الماديات يحول دون إدراك الحقائق

لماذا لا يدعن أهل الشك والوساوس لهذا المعنى؟ لأنهم شغلوا أذهانهم بالأوهام، فحجبت فطرتهم. وإلاّ فإنهم إذا أعرضوا ولو للحظة واحدة عن ما حولهم، ومزّقوا حُجُب الأوهام، وأدبروا عن وساوس النفس؛ لتجلّت واتّضحت لهم الحقيقة. إنك غير خافٍ عن الخالق، إلاّ إذا حجبتك آمالك الطويلة.

أنت تنظر إليه لتطلب ما تريده، أنظر كيف يذكر العبد كل أنواع الشدائد التي مرّ بها، والطموحات التي لم تحقق له، ومع هذا تجد كل همّه وغمّه وتفكيره في أمور وهمية، فمتى يصل والحال هذه إلى درجة المعرفة الإلهية؟

إننا لا نقول بأنّ على الإنسان أن لا يهتم بحياته؛ بل نقول أن يهتم أيضاً بالجانب الآخر، فقلبك يطلب كل شيء إلا معرفة الله، ويأمل كل الآمال باستثناء عبودية الله، تريد كل شيء إلا رضوان الخالق، كل هذه حُجُبٌ في طريقك.

اللّه أقرب إليّ من نفسي والعجيب أنني بعيد عن هذا الإله

التجسس حجاب دون عبودية الله

يقول القرآن الكريم: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢] ما لك وللفضول؟ ما شأنك فيمن ذهب ومن جاء؟ لا تجسسوا لأنّ التجسس مانع وحجاب دون الحقيقة، فمتى ستفكر بالآخرة إذا؟ عليكم بأنفسكم، لن يسألوك في أول ليلة من القبر ماذا فعل فلان و... إلخ.

أردت تبيان معنى (الملك) يجب أن يرسخ هذا المعنى في عقول أهل القرآن، ويتيقنوا أنهم وغيرهم عبيد لله ومطيعوه تكوينياً، بمعنى أنه لا توجد عندهم إرادة والجميع مقهورون، فما معنى هذا؟

معناه أنك: يا من وصلت إلى سنّ الشيخوخة، هل تراك شخت بنفسك، أم وصلوا بك إلى الشيخوخة؟ وأنت أيها الضعيف أتراك أنت الذي جعلت قوتك هزيلة؟

كلا، بل الجميع مقهورون أمام ما يريد الله ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨].

لا تنظر إلى أعمالك الاختيارية وأنت متى ما أردت الكلام تكلمت بما

تشاء، وهذه طبعاً لا تكون إلا بمشيئة الله وإرادته وبما تقتضيه المصلحة والحكمة الإلهية.

ففي دائرة التكوين، هل تراك أنت الذي يهضم اللقمة التي تأكلها وتمتص فوائدها وعصارتها لتصل إلى جميع أجزاء الجسم، أتستطيع بنفسك أن تجعل الطعام جزءاً من جسمك وتجعله يصل إلى كل أعضاء البدن من الدماغ إلى أخمص القدمين، لتعوض للأعضاء ما فقدته من الطاقة.

جهاز التلوين في الجسم

والأغرب من كل شيء هي أوامر تغيير اللون، فهذه الأطعمة التي تراها، سوف يتبدل لونها بمجرد وصولها إلى عضو من الأعضاء، فتصبح بلون ذلك العضو، فتصير بيضاء مثلاً إذا وصلت إلى بياض العين، وعند سواد العين تكون سوداء أيضاً، وهكذا في سائر الأعضاء!

وعلى كل حال فإنّ الطعام يأخذ ألوان الأعضاء التي يصل إليها، وقد يحدث أن يحرم الله البعض من هذه النعمة، فيصاب المرء بالبرص ويصبح وجهه ألواناً. الحمد لله الذي لم يجعل وجهي ألواناً، فيراني الآخرون ويقولوا معتبرين: (الحمد لله رب العالمين الذي لم يغير لوني).

اعلم أنّ جهاز التلوين هذا من عند الله أيضاً، فالجلد وبقية الأعضاء هي ملك له ومن مخلوقاته، وتقوم بنشاطاتها حسب اختياره ومشيئته، بل إنك لا تعلم أساساً ماذا يجري في جسمك، فالله هو الذي يدبر أمرك حتى تصل القبر، وهناك يصير جسمك تراباً، وروحك في روح وريحان، أو في العذاب لا سمح الله.

كم من الآمال لا يستطيعون بلوغها؟

تأمل نفسك، هل أنت عبد أم لا؟ هل أنت حقاً مملوك أم مالك وحر؟ مستقل أم عبد؟ إعر لي على موجود يكون مستقلاً ومالكاً من الناحية

التكوينية، فلا يدع جسمه يشيخ، ويجعل جسمه كما يحب هو أن يكون. قد تجدون أنّ للإنسان مثل هذه الآمال، ولكنه لا يبلغها، إنه على يأمل أن لا تتحلل قوته مثلاً، إنك لا تملك شيئاً ولا تستطيع فعل شيء خارج حدود إرادة الله ومشيئته، فهل تتمكن أن تغني نفسك؟ كلا.

وكم من الناس المهرة والأذكياء تراهم معوزين ومحتاجين، قد يرزق الله الأبله رزقاً يجعل مئآت العلماء في حيرة من أمرهم.

إنك إذا تأملت في وضعك ووضع الآخرين تتيقن أنّ الكلّ عبيد لله، فليس هنالك في السماوات ولا في الأرضين حي يتنفس إلا وهو عبد لله. فالملك لله، والعالم خاضع لإرادته وسائر بأمره ومشيئته.

الله قيوم على كل الموجودات

من العرش إلى الأرض، الإنس والجان والملائكة والحيوانات كلها مخلوقات لا تمتلك الحرية المطلقة، الكل تابع لله، فهو القيوم عليها «يا من كل شيء قائم به» هل هنالك مخلوق يعتمد على نفسه فقط، بمعنى أنّ كل شيء يجري بإرادته واختياره، مرّوا على القبور وانظروا، كم من المقتدرين، كم من الأثرياء، ماذا كان.. لم يكن سوى الظاهر.

وصية (الإسكندر) بخصوص جنازته

يقال إنّ (الإسكندر) الذي كان يذهب مذهب التوحيد (من المحتمل أن يكون هناك أكثر من اسكندر واحد، والذي امتدحه القرآن كان موحداً) كانت له فتوحات لها طابع إلهي، وكان علماء اللاهوت برفقته دائماً.

عندما أحسّ بقرب منيته، أوصى أن يظهرها جنازته ليراها الجميع ويعتبروا، فهذا (الإسكندر)، انظروا ماذا كان وماذا هو الآن؟

يقال إنّ العلماء ألقوا كلماتهم وخطبهم في يوم تشييعه، فسُجّلت هذه الكلمات وكانت والدته من ذوات الفهم والعقل، فقالت في ذلك اليوم: إي

بني، لقد كنت في حياتك من أصحاب المواعظ والحكم، ولكن لا موعظة كالتي تعظها جنازتك اليوم؛ أي أن نعشك هذا عظة ونصيحة لمن يرويه اليوم، عظة عجز كلامك سابقاً أن يسمو إلى فصاحتها وبلاغتها، عظة تُخرج الناس من الغفلة ليعلموا أن لا أحد يملك زمام نفعه وضرره وموته وحياته.

الموت هو نموذج للقدرة الإلهية

وللإمام علي عليه السلام نظير هذه العبارة، أو أرفع منها حيث يقول: «كفى بالموت واعظاً».

أتريد أن ترى كيف أنّ القدرة لله فقط، فانظر إذاً إلى ساعات احتضار الأحياء وموتهم، إنك مثلهم أيضاً، كم كانت له من قدرات وعتريات، ولكنه الآن أعجز من أن يدفع الذبابة عن نفسه، كم كان مفوّهاً ومتكلماً فصيحاً، والآن يجاهد نفسه ليلهج بقول لا إله إلا الله فيعجز عنها، وربما عجز عن الوصية كذلك.

لا قدرة له الآن، والحقيقة أنه كان عديم القدرة منذ البداية، يأمل أن يعود إلى بيته ووطنه، ولكن عليه الآن أن يموت في الصحراء أو السيارة أو الزقاق، فكل ما يأمله الآن تدحضه إرادة أخرى. من أنت يا هذا؟ لم تكن شيئاً يُذكر منذ البداية، والآن يتجلّى وهمك السابق.

لماذا لا نأخذ العبرة؟ كم من السيارات صارت وبالأعلى أصحابها وأدّت إلى موتهم، كم من الجنائز أخرجوها من تحت أنقاض الأبنية التي تحمّل ما تحمّل صاحب الجنازة من أجل بنائها، فليقصرُ أملك وطموحك في هذا العالم، ولتشتق روحك إلى العالم الآخر. كم يبرز الله لك من عبدة، ولكن يأبى البشر أن يعتبر «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار».

رسالة الإمام الحسين عليه السلام إلى بني هاشم

كأنّ الحياة لم تكن أصلاً، والحق أنه حتى الذي بلغ الأربعين أو الخمسين

من العمر يرى كأنه قد جاء توأماً إلى الدنيا، ولكن لا فناء في الآخرة، فقد كانت ولا تزال. الإمام الحسين عليه السلام الذي كان قلبه عالماً بعالم الآخرة، كتب عند نزوله بكرىلاء كتاباً بهذه المعاني التي ذكرناها.

إلهي بحق الحسين هبنا شوق لقائك وحب آخرتك.

كان الإمام الحسين عليه السلام يذوب شوقاً إلى الموت، يريد أن يلحق عاجلاً بجده النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووالده عليّ وأمه الزهراء وأخيه المجتبي عليه السلام، كان يتوق لرؤيتهم أكثر مما يتوق يعقوب لرؤية يوسف عليه السلام. ثم إنه أعلن ذلك للجميع، إنني كربلائي، فمن رغب في كربلاء فبسم الله، صلى الله عليك يا أبا عبدالله.

* * *

«ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار»

«ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار، ورغبة وإيثار، فمحمد ﷺ من تعب هذه الدار في راحة، قد حفَّت بالملائكة الأبرار، ورضوان الربِّ الغفار، ومجاورة الملك الجبار».

الموت، عودة إلى الأصل

«قبضه» أي أخذه، قبض الله بعد ذلك روح محمد الطاهرة إليه، ودعاه إلى جوار رحمته، فالزهراء عليها السلام تشرح في هذه العبارة حقيقة الموت، فمع أن جسم الإنسان يرجع إلى التراب الذي هو أصل الجسم من بعد الموت، إلا أن روحه ترتفع إلى العالم العلوي وجوار ربِّ العالمين: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦].

وبعبارة ثانية فإنَّ المرجع والمعاد يعني العودة إلى المحل الذي كان فيه الإنسان سابقاً وظهر من هناك، وبما أن روح الآدمي الشريفة قد صدرت عن عالم الغيب وما وراء المادة، فإنها ستعود إلى ذلك العالم بعد اعتاقها من الجسد المادي.

«قبض رافة» أي أن الله قبض روح نبيه محمد برأفة وحنان، ليخلصه من مشاقِّ ومتاعب الدنيا، وينقذه من المتاعب والمصائب التي لاقاها.

الرأفة والشدة في قبض الروح

وفي هذه العبارة إشارة إلى أن قبض الروح يكون على نوعين، فهناك قبض برأفة ومحبة وخلص، وهذا ما يحدث للأبرار وسيدهم رسول الله ﷺ يقول الله عزَّ وجلَّ في كتابه الكريم: ﴿الَّذِينَ تَوَفَّيْتَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا الْمَلَكَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوْعٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢].

وفي مقابل هؤلاء هنالك الكفار والأشرار، إذ تقبض أرواحهم بأقسى وأشد ما يكون. يقول الله بخصوصهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبُرَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلْمٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنفال: ٥٠ - ٥١].

والخلاصة أن هنالك طريقتان لقبض الأرواح، فهي للأبرار والأخيار أعظم فرحة ورحمة، كما أنها بالنسبة للأشرار والمسيئين أقطع محنة ومصيبة وبلاء. وقد ورد حديث في المجلد الثالث من كتاب (بحار الأنوار) خلاصته أن ملك الموت ينزل بالأشوار بأبشع صورة وهيئة، بحيث لو لم يصب الكافر بلاءً وعذابٌ سوى أن يرى شكل هذا الملك لكفاه عذاباً. ولو لم يكن للمؤمن من جزاء وثواب سوى رؤية وجه ملك الموت الجميل والقاتن لكفاه ثواباً جزيلاً.

هل كان موت النبي ﷺ باختياره؟

وأما جملة «واختيار، ورغبة وإيثار» ففيها احتمالان، الأول هو أن المراد بالاختيار اختيار الله عزَّ وجلَّ، بمعنى أن الله اختار الدار الآخرة لنبية الكريم، ورجَّحها له على الدار الدنيا، وكما ورد في القرآن فإنَّ الإيثار هو إيثار الحياة الآخروية وجوار الله على الحياة الدنيا.

والاحتمال الثاني هو أن المراد بالاختيار هو اختيار النبي نفسه وإيثاره أي أنه هو ﷺ اختار الرحيل واللحاق بالرفيق الأعلى، ولم يكن موته إكراهاً وإجباراً، كما جاء هذا في كتاب (كشف الغمة ج ١ ص ١٨).

فقد جاء أنّ ملك الموت حضر عند الرسول الكريم ﷺ وقال له: «أرسلني الله إليك يخيرك بين لقائه والرجوع إلى الدنيا».

فاستمهله الرسول ﷺ حتى يستشير جبرائيل، وحين جاء جبرائيل واستشاره الرسول، أشار عليه أن لقاء الله أفضل.

عندها قال الرسول لملك الموت إنني اخترت لقاء خالقي، فافعل ما تؤمر، فقال جبرائيل: يا محمد، كان هذا آخر نزولي إلى الدنيا، وفي تلك الأثناء قبض ملك الموت روح الرسول الطاهرة.

يأخذون المؤمن وهو مشتاق

بل إنّ محصلة الروايات الشريفة أن الله يعامل عباده المخلصين بمثل هذا الأسلوب، أي أنه يقبض أرواحهم حسب رغبتهم وشوقهم واختيارهم، ويلحقهم بجوار رحمته، وأما عن طريقة رضا المؤمن بالموت فإنّ ملك الموت يحضره في صف من ملائكة الرحمة يبرزون إليه على أحسن هيئة، وتفوح منهم أذكي عطور الجنة، وفي تلك الحال ستقطع كل أسباب المؤمن بالدنيا، ويزهد فيها كل الزهد من زوجة وأطفال ومال ثم يشاهد هيئة الرسول والأئمة المباركة وقد غمرتها الأنوار.

يقول الإمام الصادق ﷺ عند ذلك يأتي نداء الخالق من العرش خطاباً لروح هذا المؤمن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ (إلى محمد وآله) ﴿أَرْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَأَدْخِلِي فِي عِبَادِي * وَأَدْخِلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

وعند هذا يقول ملك الموت للمؤمن: إنني أمرت أن أخيرك بين العودة إلى الدنيا وبين جوار محمد وآل محمد والنعم الإلهية، ولن يختار المؤمن والحال هذه سوى الموت وخلص الروح من قالب البدن، واللحاق بالرحمة الإلهية: «فيقول ملك الموت: إنني قد أمرت أن أخيرك الرجوع إلى الدنيا، فليس شيء أحب إليه من انسلال روحه».

استراح من متاعب الدنيا

«فمحمد من تعب هذه الدار في راحة» عندما ودّع الرسول الأكرم ﷺ الدار الفانية، ورحل إلى الدار الباقية، استراح من تعب ومشاقّ وشدائد الحياة الدنيا، لأنّ روح الإنسان الطاهرة تمرّ بفترة ابتلاء ومحنة في الحياة الدنيا، كالابتلاء بإدارة شؤون الجسم والزوجة والأولاد وكسب الرزق.

ومن المصائب التي لا بدّ منها في هذه الحياة هي تحمل الأمراض والشدائد المفجعة كموت الأحباب والأقارب وفراقهم، وكذلك الابتلاء بحسد الناس ومضايقتهم للشخص، ولهذا فقد كان من أسماء الجنة: (دار السلام).

«موضوعاً عنه أعباء الأوزار» بمعنى أنّ أعباء الرسالة ومسؤولية التكليف الإلهية قد رفعت عن كاهل الرسول ﷺ، والمراد هنا بأوزار النبي هي المشاقّ والمصاعب التي لاقاها ﷺ في سبيل هداية الناس وإنقاذهم، ومحاربة الكفار والمشركين، حيث خاض المسلمون حوالي اثنين وثمانين حرباً مع المشركين، وكان الرسول قد حضر بنفسه في ست وعشرين غزوة منها.

وكنموذج لما لاقاه الرسول ﷺ من الآلام في سبيل الله ما أصابه في معركة أحد من الجراح، حيث شجّت ناصيته وكسرت أسنانه، إلى أن ظنّ المسلمون أنه استشهد، ففرّ أكثرهم، ولا حاجة بنا إلى ذكر ما أصاب الرسول ﷺ من المحن من قبَل المنافقين، فقد ذكّر ذلك بإسهاب في كتب الحديث والتاريخ الإسلامي.

وأما ابنته فقد ابتليت بالغايبين

تقول السيدة الزهراء ﷺ في هذه العبارة من خطبتها المباركة إنّ والدها ارتاح من محن الدنيا، وفي هذا إشارة إلى أنّ ابنته لا زالت ترزح تحت أذى أمته بعد فراق والدها. وقد جاء في كتاب (نفس المهموم) ما يشبه هذا

الحديث، حينما وقف سيد الشهداء عليه السلام عند نعش ولده عليّ الأكبر عليه السلام وقال: «أما أنت بني، فقد استرحت من كرب الدنيا وغمّها».

«قد حُفَّ بالملائكة الأبرار» أي أن روح محمد عليه السلام الرفيعة محفوفة بالملائكة المبعوثين إليه من قبل الله عزّ وجلّ لإسداء الخدمة إليه، وتعظيم مقامه وإجلاله، وإطاعة أوامره والتسليم والانقياد الكامل له.

وهكذا رحل النبي صلى الله عليه وآله من بين أمته التي حادت عن أوامره وتوصياته، وآلمت قلبه الرقيق، وحلّ محلهم ملائكة تطيعه فيما تقول.

«ورضوان الرب الغفار» فكما وعده الله، سوف يعطيه فيرضى عن خالقه، وسيرضى الله عنه أيضاً.

وأما عند اسم «الجبار» فإنه من أسماء الله الحسنى الواردة في القرآن عدة مرات، والتي يجب فهمها ومعرفتها والاعتقاد بها كباقي أسماء الله وصفاته الواجب على الموحد معرفتها والاعتقاد بها جميعاً.

عندما يصبح المخلوق جباراً يكون ظالماً ودموياً

قد تطلق كلمة (الجبار) على المخلوق تارة، وعلى الخالق تارة أخرى، ولكلّ من الموردين معنى خاصاً، فإذا أطلق (الجبار) على المخلوق فهو ذم، وإذا أطلق على الله فهو مدح، لأنها هنا ستأخذ معنى آخر يختلف عن المعنى الذي تأخذه هذه الكلمة حين تطلق على المخلوق.

فمعنى الكلمة حين تطلق على المخلوق هو المتكبر، فالجبار هو ذلك الإنسان الذي يبيع الآخرين من أمثاله عظمةً وكبرياءً، وقد تطلق كلمة الجبار على المتمرد والعاصي من الناس، أو الطاغوي الذي لا يخضع للحق، وقد ذكر الله في القرآن الكريم على لسان النبي عيسى عليه السلام ما نصه: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْكَ وَلَمْ يَجْعَلْ جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢].

ومن استعمالات كلمة (جبار) فيما يخصّ الناس هو استعمالها لذكر الظلمة

والسفّاحين، ومن يحاولون فرض إرادتهم على الآخرين، فقد يطمح الإنسان أن يحكم ويأتمر الناس بأوامره إكراهاً، ولهذا يُقال للفراغنة إنهم الجبابرة وأبناء الجبابرة.

إذاً فاستعمال كلمة (جبار) بالنسبة للبشر تفيد الذم وتعني التكبر والتمرد والطغيان والدموية وفرض الإرادة والحكومة.. إلخ.

من الذين يَجْبِرهم الله؟

أما (الجبار) الذي هو من أسماء الله، فلها معنى آخر، وتفيد مدح الله عزّ وجلّ، وهي من صفات الأفعال عنده.

ومن معاني كلمة (جبار) بالنسبة لله من مادة (جبرته فانجبر) هو الجبران والتعويض، وتكميل النقص (يا جبار السماوات والأرض) فمن صفات الأفعال عند الله هو أن يجبر الله النواقص في نظام خلقته وفي كل شأن من شؤونه عزّ وجلّ، فالجبر هنا بمعنى التلافي، ومن هنا يُقال في اللغة عند شدّ العظام المكسورة وربطها ببعضها بخشبة معينة، أنّ هذه الخشبة هي (جبيرة).

إذا انكسر العظم، فلن يقرّ له قرار حتى يضعوا حوله لوحاً من الخشب أو شيئاً آخر فيشدّون الكسر بها، ليجبر ويلتئم الكسر، ولهذا يسمّون هذا اللوح الخشبي (جبيرة).

وفي الدعاء نخاطب الله عزّ وجلّ بالقول: «يا جابر العظم الكسير». ولو تأمل الإنسان جيداً لرأى جبران وتعويض ومداواة الله في كل الأمور، وعندها سيقول عن علم ومعرفة: «يا جبار السماوات والأرض» لست أدري أيّ نوع من أنواع جبران الله أذكره لكم، وسأكتفي بمثال أو مثالين للعبارة:

يجبر الله آلام حمل ووضع الأطفال

من سنن الله في عالم المادة ما يتحمّله الإنسان والحيوان من آلام وشدائد،

ولكن الله يعوّض ويجبر كل نوع من أنواع الألم فيسدّ النقص وكأن شيئاً لم يكن.

من الآلام العامة عند الإنسان وباقي أصناف الحيوانات هي آلام الحمل والمخاض والولادة.

فتربية الأطفال وتغذيتهم تعدّ من المصاعب الشديدة بالنسبة للأبوين، خاصة الأم التي تحمل به وتضعه وترتيبه إلى أن يبلغ سنّ الرشد والكمال، فيغدو مستقلاً لوحده. وهكذا عند بقية الحيوانات. فالطفل في بطن الأم وما يحتاجه بعد ذلك يستلزم مشاق كبيرة.

لو يقرأ المرء كتاب (عجائب الحيوان) وما جاء فيه من التقارير عن الحيوانات لوجد العجائب، فكم تتحمل الحيوانات، هذه الحيوانات الأهلية التي ترونها بأعينكم من أخطار ومتاعب في سبيل الدفاع عن أطفالها مقابل الأعداء وصيانتها حتى تبلغ أشدها، فضلاً عن ما تتحمّله من آلام الحمل والوضع.

لكل هذه الآلام والمحن ما يجبرها، فقد وهب الله بقدرته القاهرة عطفاً وحناناً للوالدين يجبران كلّ هذه المصاعب والآلام. فتحسّ الأم بلذة كبيرة ومحبة فائقة لطفلها، وهو لا يزال في بطنها، لماذا؟ لأنه لو لم تمتلك الحنان فكيف تتحمل ثقل الحمل، خاصة في شهوره الأخيرة حيث لا تتمكن الأم أن تجلس أو تنام، بفضل العطف والحنان تهون كل هذه المتاعب، تتألم الأم إذا مات طفلها في جوفها، وتتساءل بحسرة: لماذا مات طفلي؟ وهكذا يجبر التعب والمشاق بهذا العطف والرافة.

بعثت الألم، وداويت الألم

جعل الله لكل ألم يصيب الإنسان أو الحيوان مرهماً ودواءً ليعوّض أي نقص وألم في نظام الخلقة، وهذا هو الجبران، فكل حيوان ملهمٌ في معرفة

دوائه، يشخصه غريزياً، فيأكله فيشفى، وعليه فداؤه فيما جعل الله من الآثار الشافية في النباتات وبقية الأدوية.

فللعقرب والثعبان لعابها الشافي إلى جانب ما قد يصيبها من الجروح، تستعمله فتلثم جراحها، ولكل حيوان ما يدافع به عن نفسه في مواجهة الأخطار والأعداء، فقد منحها الله المنقار الصلد أو القرون أو السرعة في الركض كما عند الغزال.

فمن حُرِّمَ سلاحاً للدفاع عن نفسه، أعطي قوةً في أرجله ويديه للفرار، والقصد هو تبيان الجبران والتعويض الإلهي مقابل ما يصيب المخلوق من المصاعب.

خوف الأسد من صياح الديك والنار

قد يكون الأسد نموذجياً في حياته، وعلى قدر من الجرأة والشجاعة بحيث يكفي أسد واحد لإرعاب مدينة بكاملها، ولكن الله جعله رغم كل هذه القوة والقدرة والشجاعة يخاف من صوت الديك، من جعله هكذا؟ جعله الذي يريد أن ينام الناس رعداً، وكذلك فإنّ الأسد يخاف من النار، فلو أوقد الإنسان ناراً فرّ الأسد منها، كل هذه من الجبران الإلهي.

﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٦] كل صعوبة للإنسان هي يسر وراحة، وإلّا لأصاب البشر الفناء، ولكن الجبران والتعويض الإلهي يعملان باستمرار فالله جبار دائماً ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩].

يعوّض الله المؤمن في الآخرة

كلّ هذا الجبران متوقّر للحيوان في هذه الدنيا، وبالنسبة للإنسان فيجبر الله البعض في هذه الدار ويجبر البعض في الدار الآخرة، فما يتحمّله المؤمن هنا من متاعب يعوّضها الله له في الآخرة، لأنه تحمّلها في سبيل الله، ولا تكفي

هذه الدار لجبرانه، وإذا كان المحسن كافراً؛ فسيعوّضه الله هنا، أما المؤمن فهو أعزّ وأعظم، ولا بدّ له من جزاء دائم.

الدنيا صغيرة ومؤقتة وبسيطة، ولا تكفي لما يجبر الله به عباده من الأجر، ولهذا جعل الله ثواب المؤمنين في الدار الآخرة لأنه جزاء دائم.

ففي الرواية أنّ رسول الله ﷺ قال للإمام الحسين عليه السلام: «إنّ لك عند الله درجة لا تنالها إلاّ بالشهادة»، لا تتسع الدنيا لجبران آلام الإمام الحسين عليه السلام بل يجب أن يثاب على آلامه في الآخرة.

درجات أبي الفضل العباس الخاصة

يقول الراوي: كنت في منزل الإمام زين العابدين عليه السلام، وكان على حجره طفل، فسألته: من هذا الغلام؟ فقال: هو عبيد الله بن العباس بن أبي طالب عليه السلام وقال عليه السلام: «إنّ للعباس عند الله تعالى منزلة يغطه بها جميع الشهداء يوم القيامة».

وقد ورد في خصوص جعفر الطيار الذي قطعت يده في حرب مؤتة أنّ الرسول قال فيه «إنّ الله تعالى أخبرني أنّ له جناحين في الجنة».

وهذان الجناحان بمثابة يديه اللتين قطعنا في سبيل الله.

والخلاصة إنّ جبران الله موجود في كلا العالمين وقد يكون للمؤمن في العالم الأعلى، وربما تراكمت الآلام عليه ليكون جديراً بجبران الله، وكلما ازداد عليه الألم هنا؛ جبره الله هناك أكثر.

ولأنّ أحداً لم يتحمّل ما تحمّله الإمام الحسين عليه السلام من الآلام؛ فقد جعلت الشفاعة الكبرى له.

الله هو حلّال المشاكل

ذكرنا في معنى (الجبار) أنها حين تطلق على المخلوق تفيد الدم، فهي تارة بمعنى المتكبر، وتارة أخرى تعني التمرد والعصيان والخروج على الحق. وتأتي أحياناً لتصف الذي يحكم الناس بالقوة والإكراه ويفرض إرادته عليهم.

ولكن إطلاق كلمة (جبار) على رب العالمين تبين صفة من صفاته الكمالية، ومن معانيها هو ما ذكرناه من مادة (جبر) و(جبران) أي الإصلاح والترميم وتكميل النقص والتسامي بمراتب الوجود نحو الكمال.

فالله جبار وبيده حلّ كلّ مشكلة وقهر كل صعوبة، وله من بعد كل عسر يسر، فبإمكانه أن يرفع كلّ نقص في عالم الخلق. هذا ولو تأمل الإنسان لأدرك جبران الله في كل أجزاء وأقسام العالم بوضوح وجلاء.

حين يولد الطفل يكون ناقصاً وعاجزاً وليس بإمكانه أن يأكل الأطعمة، ولهذا فإنّ جبران الله جعل له حليباً طيباً لطيفاً يناسب معدته الظريفة الحساسة، ولأنه بلا أرجل ولا يدين يستخدمهما؛ جعل الله له من أمه خادماً حتى يبلغ أشده ويتمكن من أن يعتمد على نفسه (لا حول ولا قوة إلا بالله).

ومن معاني كلمة (جبار) التي يمكن أن تطلق على الله سبحانه هو الجبر في مقابل الاختيار، أي أنّ الله يسيّر هذا العالم بجميع محتوياته وذراته وأجزائه الكلية والجزئية وفقاً لما يرتئيه من المصلحة، ولا مكان لإرادة المخلوق الشخصية.

فلا يحصل إلا ما أراد، وهذه الكرات السماوية مثلاً تتحرك طبقاً لإرادته، والجبر هنا هو أن لا تشدّ أيّ كرة من هذه الكرات في حركتها عن ما اختطه لها، بل إنّ الإرادة القاهرة ستمسك بها وتمنحها النظام، فلا تدور إلا ضمن مدارها المعين، ولن تتخلّف بمقدار رأس الإبرة عن الحدّ الذي رسم لها، وكذلك محتويات هذه الكرات السماوية.

أيّ البشر يريد الموت؟ الكل يريد أن يعيش إلى الأبد، ولكن مشيئته القاهرة، فهنالك جبروت الله عز وجل لا يسمح للأمر بأن تجري إلاّ بما تقتضيه المصلحة والحكمة الإلهية، ولن يتمكن المخلوق من الفرار من هذه القوانين مهما حاول ذلك.

التفويض بمقدار ما تقتضيه المصلحة

نعم، لا جبر في الأفعال الاختيارية للإنسان، فقد جعل الله للبشر اختياراً معيناً حسب ما تقتضيه المصلحة؛ والحكمة، وربما ارتفعت هذه المصلحة عندها يسلب الاختيار من الإنسان، فإذا أراد حاكم ظالم أن يظلم مثلاً (لأنه لا بد من وجود الظلم وظهوره) قد لا يأخذه الله بظلمه، لكنه إذا تجاوز حدوده سيسلب منه الاختيار.

قرار (زياد) والابتلاء بالشلل

يروى التاريخ أنّ (زياد ابن أبيه) والد (عبيد الله بن زياد)، حينما كان والياً على الكوفة أمر جنوده أن يجمعوا له كل شيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام في مسجد الكوفة، وأراد هو أن يحضر هناك ليخيّر كل واحد من الشيعة بين أن يلعن علياً عليه السلام أو أن يُقتل، ولكنه قبل أن يحضر المسجد أصيب بالشلل وعجز عن الحركة، فأمر أن يتفرّق الجمع.

فالله لا يمنح الاختيار إلاّ بمقدار، والله غالب على أمره في كل شيء وإرادته هي النافذة، وحتى الأعمال الاختيارية للناس لا تكون إلاّ بمقدار ما

يريد الله للناس ليبدو للعيان شقاؤهم أو سعادتهم، فالله جبارٌ وغالبٌ على كلِّ حال، ولا مؤثرٌ إلاّ بإرادته، سواءً وافقت إرادته العبد أم خالفتها، ولا يكون إلاّ ما يريد.

هارون الرشيد والأمير الشحاذ

كان (هارون الرشيد) يريد العبور ذات مرة هو وموكبه على (جسر بغداد) فرأى شاباً واقفاً على ضفة النهر يستجدي من الناس الصدقات، ولمح الرشيد عن بُعد في جبهة الغلام سيماء الأمراء والأشراف، فأمر بعض غلمانه أن يذهبوا ويسألوا عن هوية هذا الشخص، فذهبوا وعادوا ليخبروه أنه ابن بعض الخلفاء السابقين، قد رماه الدهر هذا المرمى.

فرق له (الرشيد) وأراد أن يكفيه الاستجداء بصرة من الذهب تعادل مائة مثقال من الذهب، ثم ناداه الرشيد بنفسه وقال له: خذ هذه الصرة وراجعني متى ما بدت لك حاجة. وحينما عاد (الرشيد) من نفس ذلك الطريق بعد مدة رأى المسكين واقفاً في نفس المكان وعلى نفس حاله من الاستجداء.

فقال: عليّ به. وسأله عمّا جرى له، فقال: كانت الصرة في يدي وعندما أردت اجتياز الجسر؛ سقطت مني في النهر.

وهنا قال (هارون الرشيد) قولاً هو محل الشاهد في القصة، قال: لا يستطيع هارون أن يغني من أراد الله أن يفقره. فهذا ما أراد الله، إنّ الله غالب على أمره.

الجبر خطأ والاختيار محدود

وإنّ شبهة الجبر قد أجيبت عليها ضمناً، فالإنسان غير مجبر في أفعاله الاختيارية؛ بل له الاختيار بالمقدار الذي أراده الله له. فهو يصلي باختياره، ويغشى دور السينما باختياره أيضاً، ولكن هذا الاختيار منحة من الله تعالى وليست إرادة الإنسان غالبية على إرادة الله. ومن ناحية أخرى فهذا الاختيار

محدود بالحدود التي أرادها الله، وبإمكانه عزَّ وجلَّ أن يسلب الإنسان هذا الاختيار حين تقتضي المصلحة.

الصلوة على محمد وآل محمد

تواصل السيدة الزهراء عليها السلام خطبتها المباركة، بعد أن حمدت الله وأثنت عليه، وبيّنت أسرار الخلقة، وشهدت بالتوحيد وبنبوّة أبيها عليه السلام، تواصلها بأن تصلي على محمد «صلى الله على أبي نبيه وأمينه على الوحي».

وهنا لا بدّ أن نتناول ثلاثة مواضيع فيما يخصّ الصلوات: الأول أهمية الصلوات وأحكامها، والثاني الآثار المترتبة على الصلوات، وأخيراً معنى الصلوات.

١ - الصلوات تكليف إلهي: جاء في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

٢ - المواضيع التي تجب فيها الصلوات: الصلوات واجبة على أقل تقدير بعد التشهد في الصلاة حسب رأي الإمامية والكثير من أهل السنة كالشافعي وأحمد بن حنبل، وبغير ذلك تبطل الصلاة. فمما ينسب إلى الإمام الشافعي قوله:

يا آل بيت رسول الله حبكمو فرض من الله في القرآن أنزلهُ
كفاكمو من عظيم الشأن أنكمو من لم يصلّي عليكم لا صلاة له

فمن ترك الصلوات بعد التشهد في الصلاة عامداً؛ بطلت صلاته حسب مذهب الشافعي. ولكنها مستحبة عند البقية، ومشروطة بذكر آل البيت أيضاً، فلو ذكر اسم النبي لوحده بلا ذكر أهل البيت؛ بطلت الصلوات على قول الشافعي والإمامية.

٣ - الصلوات عند ذكر النبي عليه السلام: ولكن هل تجب الصلوات على النبي في مواضع أخرى غير التشهد أم لا؟ من المواضيع التي ذكرت وأفتى البعض

بوجوب الصلوات فيها، هي أن يذكر الشخص نفسه اسم النبي ﷺ أو أن يسمعه من غيره. وممن أفتى بوجوب الصلاة على النبي حين ذكره: الشيخ الصدوق من الشيعة، ومن السنة نسبوا هذه الفتوى إلى الزمخشري.

وأما سائر العلماء فيفتون بالاستحباب المؤكد، أي أنها غير واجبة، ولكنها مستحبة مؤكدة ويجب عدم تركها لمن يعمل بالاحتياط لما جاء في الروايات من زجر لمن يسمع اسم الرسول ﷺ ولا يذكره بالصلوات، كأن يطرد من رحمة الله تعالى.

وفي (الكافي) عدة روايات تؤكد أنّ من ترك الصلوات إهمالاً منه؛ أضع طريق الجنة..

وهناك روايات في التهديد والتحذير من تركها، فيجب مثلاً على من سمع اسم الرسول ﷺ أن يصلّي عليه ولو كان في الصلاة الواجبة؛ بل يجب أن تكتب الصلاة على الرسول أينما كتب الإنسان اسمه ﷺ.

وقال البعض إنّ الرمز لا يكفي عن الصلوات كأن يكتب (صلعم) أو ﷺ بل يجب أن يكتب بشكل كامل وصريح (صلّى الله عليه وآله وسلم) وفسّرت الآية الكريمة: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلِّ﴾ [الأعلى: ١٥] بهذا المعنى أيضاً.

٤ - الآثار العظيمة للصلوات: أما ما يترتب على الصلوات من الجزاء والثواب فإنه يحير ويذهل الإنسان حقاً.

ففي الرواية أنه لا يترك الصلوات على النبي ﷺ إلا جاهل أو مغرور. وإلا إذا أراد أن يسمو الإنسان ف«من صلّى عليّ مرة؛ صلى الله عليه عشراً» وفي رواية ثانية: «صلّى الله عليه في ألف صف من الملائكة» وفي ثالثة: «صلّى عليه كل شيء» وعلى من أراد المزيد من الأحاديث الرجوع إلى كتاب (الكافي) باب الصلاة على النبي.

الصلوات دعاء نابع من المحبة

«صَلَّى اللهُ عَلَى أَبِي نَبِيهِ وَأَمِينِهِ عَلَى الْوَحْيِ، وَصَفِيهِ وَخَيْرَتِهِ مِنَ الْخَلْقِ وَرَضِيهِ».

انتهينا من الكلام عن الصلوات إلى أن الصلوات من الأدعية والأوراد التي يجب أن يذكرها من أراد ثوابها على شكل دعاء.

(اللهم) تعني يا الله، عَظُمَ اسم ومرتبة وشرف محمد ﷺ وأنزل عليه رحمتك ولطفك اللامتناهي.

إن مثل هذا الدعاء نابع من الحب، فما هي منزلة النبي محمد ﷺ في نفس الإنسان، إذا كان مؤمناً فإنَّ محمداً أعزَّ عليه من روحه وأولاده، فكم له من الآمال والطموحات لنفسه، لا بدَّ أن يكون له أكثر منها بالنسبة لمحمد ﷺ، فيتمنّى من أعماق قلبه أن يرفع الله قرآنه، ويزيد في أمته، ويؤيّد وصيّه الثاني عشر.

إنّ ثواب الصلوات رهين بحال المصليّ، فكم هو مقدار تفاعله مع ما يقول؟ وما هو مستوى معرفته؟ إلى أن يصل الأمر بالإنسان أنه لو صلى مرة واحدة على النبي؛ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرَ مَرَّاتٍ. فمن صَلَّى عَلَى الرَّسُولِ يريد تعظيمه وتبجيله؛ نظر الله إليه مائة مرة نظرة لطف ورحمة. وربما أمطر عليه شآبيب رحمته بلا حساب، إلى أن تزول كلّ ما فيه من الظلمات، وتتمزّق حوله ستائر الغفلة، وتغفر ذنوبه.

الصلوات الجماعية العالية تدحض النفاق

وهناك أيضاً الأمر بالصلوات بصوت عالٍ، وهناك رواية أو روايتين في (الكافي) و(معاني الأخبار) للصدوق: «إرفعوا أصواتكم بالصلاة عليّ؛ فإنها تذهب بالنفاق».

فعندما يصلي المسلمون على نبيهم بشكل جماعي وبصوت عالٍ؛ تأتلف قلوبهم، ويتحدون ببركة الولاية والمحبة.

والموضوع الآخر في باب الصلوات، والذي طرقة العلماء والمحققون: هل إنّ آثار الصلوات تعمّ قائلها فقط، أم أنها ذات تأثير ورحمة على محمد وآله ﷺ أنفسهم؟ وهل هذا الدعاء مستجاب أم لا؟ بمعنى أنه هل يحصل ما يطلبه المصلي على محمد وآله ﷺ من ارتفاع لشأنهم، مع العلم أنه لا مقام أعلى من مقام النبي محمد ﷺ. تصوّر البعض أنّ فائدة الصلوات تنال المصلي فقط.

ولكنّ الثابت أنّ نظام عالم الوجود غير محدود ولا متناهٍ، ولا نهاية للمراتب والمقامات والدرجات، ولا تنتهي عند حدود معينة، فمهما كان مقام محمد وآل محمد ﷺ من العلوّ والرفعة، فهناك مراتب وإدراكات ومعارف أعلى وأرفع.

ومن هنا قال البعض إنّ استغفار النبي والأئمة ﷺ نابع من هذا المعنى الطريف، أي أنهم دائماً في حال رقيّ وارتفاع، فهم يستغفرون الحال العليا التي يعيشونها في قلوبهم من وضعهم الفعلي الناقص.

درجات القرب غير متناهية

يقول (العلامة المجلسي): كما أنّ بيننا وبين آل محمد ﷺ ما لا نهاية له من الدرجات والمقامات، بحيث إنّ أعظم رجال الشيعة قدراً وأشمخهم مقاماً لا تصل مرتبته إلى أقلّ درجات آل البيت ﷺ؛ كذلك يوجد ما لا نهاية له من الدرجات والرتب بين آل محمد ﷺ والله تعالى، وعليه فإنهم مهما ارتقوا وسموا كانت أمامهم رتب ودرجات أخرى، وهذا من حيث السموّ الطولي.

ويقول (رحمه الله) إنّ هناك ما لا نهاية له من الرتب العرضية أيضاً، ففي يوم القيامة يوجد دائماً فوق ما يريده أهل الجنة شيء أو أشياء، وقد يكون

تصوّر هذا الأمر صعب علينا في الحياة الدنيا، فمهما أراد آل محمد ﷺ من
البهجة؛ كانت هنالك بهجة أعلى منها.

جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣٥] أنه بعد أن يرتب الله
تعالى المؤمنين في رتبهم في الجنة، سوف يقومون بولائم وضيافات على طول
أيام الأسبوع، وليس الأسبوع في الجنة نفسه الأسبوع في الحياة الدنيا؛ بل إن
حقيقته مجهولة بالنسبة لنا، فيستضيف المؤمنون بعضهم على طول أيام الأسبوع
إلى أن يأتي يوم الجمعة، يوم ضيافة الله الخاصة التي لا نعلم عن كيفيتها
وعظمتها شيئاً.

وتتري الأنوار والتجليات والمعارف على المؤمنين في هذه الضيافة
الإلهية، بحيث تقول الرواية إنه يُضاعف لكلّ منهم ما لديه سبعين ضعفاً. وحين
يعودون إلى الحور تسألهم الحور من أين لكم كل هذا الجمال؟

هذه هي الضيافة الإلهية، يتصوّر أحدنا أنه عمل بعض الخيرات لوالده
المتوفى وسيكفيه ثوابها، والحال أنه في حاجة إلى المزيد دائماً. فلا تتوهم
أنك عملت له عملاً خيراً، ولن يحتاج إلى غيره.

الإفادة من الخيرات الباقية

تقول الرواية: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلاّ عن ثلاث» يصله ثوابها
بعد موته:

الأول: «الصدقة الجارية» كأن يؤسس الإنسان في حياته وفقاً أو ملكاً يشبع
من خلاله كل يوم عددٌ من الناس أو يُكسون، فهذا بمثابة نهر من الخيرات
يستفيد الناس منه باستمرار.

والثاني: «علم يُنفع به» فلو ترك في حياته علماً يظل منتشرًا بين الناس بعد
وفاته؛ لبقيت حسنات هذا العلم تصل إليه ما انتفع الناس بهذا العلم.

والثالث: «ولد صالح يدعو له» فمن استطاع أن يربّي ولداً صالحاً؛ لكان

ذلك حسنة جارية تصل الأم والأب، وعلى حدّ قول (العلامة المجلسي) أنه لو ترك المرء علماً للناس من بعد موته ينتفعون به لوصله ثواب هذا العلم، فما ظنك بآل البيت عليهم السلام وما تركوه من علوم بين الناس، إنهم بلا شك يستبشرون ويفرحون حين يرون من ينتفع بهذه العلوم.

وكما ينتفع الذي يترك من بعده ولدأ صالحاً، فما من شك أن آل محمد عليهم السلام الذين خلفوا أولاداً من علماء الدين إلى يوم القيامة ستشملهم البهجة بالصلاة عليهم، ولهذا جاء في الرواية أن الملائكة تأخذ صلوات المؤمن على الرسول عليه السلام كهدية إليه، ومع أن محمداً عليه السلام في غاية البهجة والسرور في عالمه العلوي، إلا أنه يستبشر بهذه الهدية، وتكون نوراً على نور.

* * *

بعض صفات خاتم النبيين محمد ﷺ

«صَلَّى اللهُ عَلَى أَبِي، نَبِيهِ وَأَمِينِهِ عَلَى الْوَحْيِ» تَصَلَّى السَّيِّدَةَ الزَّهْرَاءَ عَلَيْهَا السَّلَامُ عَلَى أَبِيهَا، وَتَذَكَّرَ أَوْصَافَهُ، فَهُوَ أَمِينُ اللهِ عَلَى وَحْيِهِ، وَكَانَ قَلْبُهُ الشَّرِيفَ يُوَصِّلُ كَلَامَ اللهِ إِلَى النَّاسِ بِدُونِ آيَةٍ زِيَادَةٍ أَوْ نَقْصَانٍ.

«وَصَفِيَّهِ وَخَيْرَتَهُ مِنَ الْخَلْقِ وَرَضِيَّتِهِ» فَهُوَ الَّذِي اخْتَارَهُ اللهُ مِنْ بَيْنِ عِبَادِهِ وَجَعَلَهُ عَبْدَهُ الْمَخْلُصَ «وَالسَّلَامَ عَلَيْهِ وَرَحْمَةَ اللهِ وَبَرَكَاتِهِ» السَّلَامَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَالسَّلَامَ هُوَ شَبْهُ الصَّلَوَاتِ، وَلَا بَدَّ مِنَ الْكَلَامِ عَنِ السَّلَامِ بَعْضَ الشَّيْءِ.

(السَّلَامُ) فِي اللَّغَةِ بِمَعْنَى السَّلَامَةِ، وَلَكِنَّ السَّلَامَةَ تَكُونُ أحياناً مُطْلَقَةً وَأحياناً نَسْبِيَّةً، وَهَنَالِكَ أَنْوَاعٌ عَدِيدَةٌ لِلسَّلَامَةِ النَسْبِيَّةِ، وَأَمَّا السَّلَامُ الْمَطْلُوقُ فَهُوَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

(السَّلَامُ) مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ الْحَسَنِيِّ، فَهُوَ السَّلَامُ الْمَطْلُوقُ الْخَالِي مِنْ كُلِّ نَقْصٍ وَأَفَّةٍ، وَصِفَاتِهِ سَالِمَةٌ مِنْ آيَةٍ نَهَائِيَّةٍ، وَهُوَ السَّلَامُ، بِمَعْنَى أَنَّ أَعْمَالَهُ خَالِصَةٌ مِنْ آيَةٍ نَقِيسَةٍ أَوْ عَجْزٍ، وَهُوَ سَالِمٌ مِنْ أَنْ يَصِلَ أَيُّ مَخْلُوقٍ إِلَى ذَاتِهِ الْمَقْدَسَةِ.

كُلَّ سَلَامَةٍ نَرَاهَا فِي الْمَخْلُوقَاتِ هِيَ مِنْ عِنْدِهِ، فِي أَيِّ مَرْتَبَةٍ نَتَصَوَّرُهَا مِنْ مَرَاتِبِ الْوُجُودِ.

وَبِوَاسِطَتِهِ يَتِمُّ ارْتِفَاعُ النَقْصِ «اللَّهُمَّ مِنْكَ السَّلَامُ وَإِلَيْكَ يَعُودُ السَّلَامُ».

فالسلامة والسلام المطلق من كلّ الجهات حتى من حيث الفناء والزوال، أصلها من الله، ولهذا فهو السلام المطلق.

بغداد دار السلام ببركة دجلة

ولكنّ السلامة المقيّدة تتبع المضاف إليه، والقصد منها وحقيقتها، وقد يعبر عن الجمادات أحياناً بالسلام، إلى أن نصل إلى الجنة.

كانوا يسمّون مدينة بغداد منذ ألف عام (دار السلام) فكانت تذكر بدار السلام في الكتب منذ العهد العباسي بسبب ماء دجلة، لأنّ ماء دجلة عذب زلال ونافع ويبعث على السلامة، وهذه هي المرتبة الدنيا من السلامة، وأما مرتبتها العليا فهي الجنة ﴿لَكُمْ دَارُ السَّلْكِ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ [الأنعام: ١٢٧] فمن دخل الجنة أحاطت به السلامة من كلّ ناحية، وكان في وسط السلامة: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيًا * إِلَّا قِيلًا سَلَمًا سَلَمًا﴾ [الواقعة: ٢٥ - ٢٦].

ومن جملة السلامة: السلامة من الفناء. فلا يسترّد منك ما أعطيت، ولك كل ما أعطوك، خلافاً لما في الدنيا إذ يأخذون منك بيتك حين ينهدم، وإن لم ينهدم فسيأخذونك أنت. أما في الجنة فهنالك السلامة من النقص، فلا نقص في الجنة، بل إنّ نعمها في زيادة مطردة، والمؤمنون فيها على سلامة من الهمّ والغصّة والحزن، ولا يجدون فيها غير الفرح والبهجة الدائمة. فليس في الجنة ذرّة من الحسد، لأنه لا طريق للحسد إلى الجنة. فإمّا أن يُمحي حسد الإنسان في الدنيا، وإما في البرزخ، وإما (لا سمح الله) في مواقف يوم القيامة.

من المستحيل أن يكون هنالك حسد في الجنة لأنّ هذا سيمنع الحاسد نفسه من الراحة، وسيمنع المحسود أيضاً، فالجنة دار السلام ولا محل فيها للأتراح، لأنّ للأتراح مستشفى اسمها جهنم.

السلام على الأحياء والموتى

والآن، ما المراد من السلام والتسليم الذي يُلقى على أهل القبور أو بين

الأحياء؟ عندما تقف أمام القبور وتقول: (السلام على أهل لا إله إلا الله) فهذا دعاء في الحقيقة. أي يا إلهي سلّم هذه المجموعة من أهل لا إله إلا الله الثاوية هنا من عذاب البرزخ.

أي ظلم ومصاعب في عالم البرزخ؟ فمجرد أن تظنّ نفسك إنساناً صالحاً يكلفك هذا الكثير من الأنين والحسرة مما قد لا تعلمه الآن، ولهذا فعندما تقف على قبر من القبور أطلب السلامة من العذاب لصاحبه. سلّمكم الله يا قائلِي لا إله إلا الله محمد رسول الله، عليّ ولي الله.

وهذا يقتضي روحاً وحالاً خاصاً بالدعاء، فكم هو توجهك الروحي والقلبي أثناء هذه الأقوال، وكم يرقّ قلبك لمن تخاطبهم، وما هو مدى الإخلاص لله حين تلتجئ إليه؟

إلهي إن كانوا في الظلمات فأخرجهم منها، وإن كانوا في غصّة وحزن فاصرف عنهم الحزن والألم. هذا هو الدعاء للأموات.

وأما بالنسبة للأحياء فإنهم يسلمون على بعضهم حين يلتقون، أي يطلب كلّ منهم السلامة للآخر. وهذا يتّبع قصد المسلمين أيضاً، فقد تكون السلامة من عند أنفسهم، فالسلام عليكم أي لا شأن لي بك، وإنك في سلام وأمن متي ومن شرّي (يعني سلام متي).

وفي حوار العرب، إذا غضب اثنان في حوارهما، يقول أحدهما للآخر: السلام عليكم، والمراد بهذا أنك في سلام من شرّي.

وقد يأخذ السلام بعض الأحيان صيغة الدعاء، يعني: سلام عليكم من الله. أو: عليك السلام من الله. وهذا أيضاً يستلزم سعة نظر المسلم، فقد يكون المراد من السلامة أحياناً هو السلامة البدنية والصحية، وتعني أن: لا أصبت في صحتك. وقد يتّسع القصد فيشمل مختلف أنواع الآفات: سلّمك الله من كل آفة.

وقد يتّسع القصد من السلام أكثر من هذا أيضاً فيشمل السلامة من الآفات

والبلايا الدنيوية والأخروية، وقد يكون السلام أحياناً مجرد مجاملة، وهذا حسنٌ أيضاً، ولكن إذا أريد به المنفعة التامة فسيُتبع إحدى تلك المقاصد، والمِلاك هو أن أيّ درجة تكنّ الحب والمودة للجانب الآخر وتتمنى له السلامة، فهذا المقدار ستحصل أنت على الفائدة والثواب.

السلام على الرسول ﷺ والأئمة ؑ دعاء

ما هو السلام على الرسول ﷺ والأئمة ؑ؟ كأن نقول: السلام عليك أيها النبي. وهي مستحبة من بعد التشهد في كل صلاة. أو حين نقول في الزيارة: السلام عليك يا أبا عبدالله. كل هذه العبارات شأنها شأن الصلوات، فهي في الحقيقة دعاء، يا عزيزي يا حسين، عليك السلام المطلق من كلّ نقص، بل إنني أطلب لك كل ما يوجب الكمال: السلامة من الآفات، السلامة من الأعداء، الذين كانوا من نصيبك في عالم المادة. فقد ابتلي ﷺ من أول يوم مقتله وحتى اليوم بهؤلاء الحاقدين، أتعلمون كم مرة حاولوا هدم قبر الإمام الحسين ؑ.

وهذه من مراتب السلام على الإمام الحسين ؑ: بلغك الله مقاماً تشفع به لمن تريد، وحبك درجة تنال فيها السلامة المطلقة والكمال المطلق.

السلامة من الأمة والأتباع

يذكر صاحب (شفاء الصدور) نقطة جديرة بالاهتمام وهي أن إحدى مراتب سلامة الإمام والنبي ﷺ، هي السلامة من أيدي أمته، فكم تستلزم الذنوب والمظالم التي يقوم بها المسلمون من أذى وكدر للإمام أو النبي ﷺ، كما أن الأعمال الصالحة تبعث البهجة في نفوسهم.

السلام عليك يا أبا عبدالله. أملٌ أن لا يذنب هؤلاء القوم الذين يرددون: (حسين.. حسين) ليسلم الإمام الحسين ؑ من شرورهم.

وأنا واحد منهم حين أقول مائة مرة في زيارة عاشوراء: السلام عليك. أيها

العاصي أتدخل حرم الإمام الرضا عليه السلام بهذا الوضع الذي يوجب سخط الإمام عليك؟ أتدخل الحرم مثقلاً بالكبر والحرص والحسد والعجب؟!

ذنوب الأمة تؤلم الرسول صلى الله عليه وآله

«ما أوذى نبي مثل ما أوذيت» من وجوه هذه العبارة هي أنّ أمة من الأمم لم تذنّب كما أذنبت هذه الأمة. فلم تكن الذنوب التي ظهرت في المسلمين موجودة في الأمم السالفة.

يقول أحد علماء أهل السنّة: ويأتي يوم القيامة بجبار كلّ أمة، ويأتون بجبارنا فيُنسي ظلم البقية، وهو الحجاج السفاح. وهذا هو الحق، أم هل شهد التاريخ مثل يزيد؟ لا نظير للظلم الذي حلّ بالحسين عليه السلام.

الصلوات في التشهد وغيره هي ذكر للرسول صلى الله عليه وآله

﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

يأمر الله المؤمنين في هذه الآية الكريمة أن يصلّوا على النبي ويسلّموا عليه، فالظاهر منها هو وجوب الصلوات، بالإضافة إلى التوكيد الموجود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ولكن لم يُحدّد موضع وجوب الصلوات في هذه الآية كما في الآية: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَءَاتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البقرة: ٤٣] فالصلاة والزكاة واجبة، ولكن كيف وبأي مقدار؟ يجب هنا على الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أن يأتوا بالتفاصيل، والصلوات على الرسول واجبة أيضاً ولكم متى وبأي مقدار؟ يجب أن يستنبط هذا من الروايات.

والقدر المتيقّن هو وجوب الصلوات في الصلاة الواجبة من بعد التشهد، وإذا تركت عمداً؛ بطلت الصلاة. والموضع الآخر هو أن يذكر اسم الرسول صلى الله عليه وآله صراحة أو كنايةً، لقباً أو كنيةً، كأبي القاسم، المصطفى،

محمد ﷺ ، وعند ذلك إذا كان الشخص نفسه هو الذاکر لاسم النبي أو أنه سمع الاسم فقط تجب عليه الصلوات.

وسند هذا الحكم هو الروایات الكثيرة المروية بطرق الشيعة والسنة.

أراد الرسول الكريم ﷺ أن يعتلي المنبر في أول يوم من شهر رمضان المبارك، فوضع قدمه على أول درجة من درجات المنبر وقال: آمين. ووضع الثانية على الدرجة الثانية وقال: آمين. ووضع الخطوة الثالثة على درجة المنبر الثالثة وقال: آمين. فسأله الصحابة عن الدعاء الذي سمعه النبي وقال: آمين. فقال: جبرائيل.. ثم قال: «من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له؛ أبعد الله، ومن أدرك والديه فلم يغفر له؛ أبعد الله. ومن ذُكرتُ عنده فلم يُصلِّ عليّ فلم يغفر له؛ فأبعده الله»^(١).

الاحتياط في عدم ترك الصلوات

«من ذُكرتُ عنده، فنسي أن يصلي عليّ؛ أخطأه الله به طريق الجنة»^(٢). وعلى كل حال لا يدخل الإنسان الجنة ما دام لا مبالياً وغير مكترث إلى هذا الحدّ، فلا يكثرث إذا ذكّر رسوله أو سمع اسم الرسول يُذكر، وهو الرسول الذي بالغ الله في تعظيمه وتجليله كلّ مبالغة.

وعلى هذا ذكر الكثير من الفقهاء وجوب الصلاة على الرسول ﷺ، وحتى لو تكرر ذكر اسم الرسول ﷺ وجب تكرار الصلوات، ومع هذا فالكثير من الفقهاء المتأخرين والمراجع العظام أفتوا بالاستحباب المؤكد للصلاة على النبي ﷺ وعلى كل حال فلا بد للمسلمين من الاحتياط وعدم ترك الصلوات إذا ذكر اسم الرسول ﷺ.

هذا بالإضافة إلى أنّ وجوب أو استحباب الصلوات أمر فوري، أي تجب

(١) سفينة البحار: ج ٢، ص ٦٨٧.

(٢) سفينة البحار: ج ٢، ص ٥٠.

الصلوات على النبي فور سماع اسمه، وهذه المسألة على قدر من الأهمية بحيث أفنى بعض الفقهاء بالصلاة على الرسول ﷺ حتى لو تذكره المؤمن في قلبه ولم يلهج لسانه باسمه، فالذكر عندهم هو الذكر الشفهي والقلبي للرسول، فإذا خطر ﷻ ببال أحد المؤمنين؛ وجبت الصلوات عليه.

ولكن ما هو الحال بالنسبة للأئمة والأنبياء ﷺ؟ الحكم هو أنّ الصلاة عليهم إذا ذكروا مستحبة، كموسى وعيسى ونوح ﷺ فإذا ذكروا تستحب الصلاة أولاً على محمد وآل محمد ثم على النبي المذكور.

فإذا ذكر النبي موسى ﷺ مثلاً يقال: اللهم صلّ على محمد وآل محمد وعلى موسى. أو على نبينا وآله وعليه الصلاة والسلام. فيبتدئ بالصلوات على خاتم الأنبياء وآله، ويثني بالصلاة على النبي المنظور، باستثناء النبي إبراهيم ﷺ الذي يصلى عليه بشكل مستقل لعظمة شأنه وسمو مقامه: (اللهم صل على إبراهيم وآل إبراهيم).

استجابة الدعاء ببركة الصلوات

الموضوع الآخر هو ما يتعلق بآثار وفضائل الصلوات، وهذا ما ورد فيه من الروايات ما قال عنه المحققون أنه غير قابل للحصر والعد، ولا نستطيع هنا إلا ذكر مثالين أو ثلاثة من هذه الروايات.

فقد جاء في (الكافي): «لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلي على النبي وآله» فلو تمكن المرء من أن يبدأ ويختتم دعاءه بالصلوات؛ لاستجيب دعاؤه. لأنّ الصلوات دعاءً مقبول، ويستجاب ببركته الدعاء الذي يرافقه ويزامنه كما أشير إلى هذا المعنى في (نهج البلاغة).

ومن البركات الأخرى للصلوات هي ما جاء في الرواية: «ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد»^(١).

(١) الكافي للكليني.

ورواية أخرى تقول أنّ المؤمن قد تكون حسناته أقل من سيئاته يوم القيامة، فتأتي الصلوات التي ذكرها تُرَجِّح كَفَّةَ حسناته.

الصلوات ارتباطاً بمحمد وآل محمد ﷺ

لقد حقق بعض العلماء في هذا المعنى، وخلاصة النتيجة هي أنّ المؤمن إذا استطاع أن يرتبط بصاحب الشرع وروح الإلهية الكلية، ويكون محل اعتناء النبي محمد ﷺ إذا أصاب مثل هذه السعادة؛ فإنه وبتواتر الذكر سيتصل شعاع منه بأصل النور الإلهي، وبهذا سيكون في مأمن من كلّ الوسوس والشكوك، وهذه الحال على درجة من الأهمية بحيث تتجه روحه صوب الروح المحمدية، وتتجه الروح المحمدية والروح الإلهية صوبه.

بل جاء في الرواية أنّ جميع أجزاء عالم الوجود ستتّجه نحوه، وهذا مرهون طبعاً بنوع الصلوات، ولا يشمل هذا الحال كل صلوات وكل شخص، وكما أسلفنا فيجب أن يحصل التوجه القلبي الكامل، ويرتفع مستوى المعرفة والمحبة للنبي ﷺ فيتجه القلب بأعماق أعماقه إلى الروح المحمدية.

ومن تقدّم خطوة واحدة؛ تقدم الله نحوه عشرأ «من تقرب إليّ شبرأ؛ تقرب إليّ قدماً»^(١) فلو اتجهت روحك ومن كل قلبك وبكل محبة صوب الروح المحمدية لاتجهت الروح المحمدية عشرة أضعاف هذا إليك، وحين تتوجه الروح المحمدية صوبك؛ تتجه جميع الملائكة والله عزّ وجلّ ببركة حبيبه نحوك.

ومن حصلت هذه الحال لروحه وقلبه؛ صغر الشيطان عن أن يجد طريقاً إليه.

(١) حديث قدسي.

ما هو معنى الصلوات؟

ما معنى الصلوات؟ سؤال ناقشه العلماء، فالصلوات في اللغة العربية تستعمل أحياناً بمعنى الدعاء كما ورد في الآية الشريفة: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

ومن المعاني الأخرى للصلوات: البركة والزيادة في النعم والإحسان كما ورد في الآية الكريمة: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٢٧].

والمعنى الآخر للصلوات: التعظيم والإكرام والتجليل والاحترام كما في الآية: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦] ويقال إنها استعملت بهذا المعنى (يعظمون ويكرمون النبي ﷺ).

أيها المسلمون، إنّ محمداً ﷺ هو من عظمه الله وكرمه وجعله جليلاً محترماً، فأكرموه وعظّموه أنتم أيضاً.

إننا حينما نقول في الصلوات: (اللهم صلّ على محمد وآل محمد) نريد بكلمة صلّ الدعاء. وقال البعض إنّ الأصل في المعنى هو طلب الرحمة، ولكن المحقق هو ذلك المعنى اللغوي: اللهم صلّ بمعنى عظم وأكرم وبارك وأعلّ كلمة محمد ﷺ.

وكم أبلغ أحد العظماء حين قال إن قوله تعالى في القرآن: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلَواتٌ عَلَيْهِ﴾ أي عظموا. أيها المؤمنون كما عظم الله تعالى محمداً وكرمه، عظموه أنتم، إننا أقل من أن نعظم محمداً لكننا نقول إلهي أنت عظم محمداً وآله عتاً.

إننا أصغر من أن نؤدي حقه ونعلي كلمته، فاقض يا إلهي بدلاً عنا حقه وعظم شأنه في كل العوالم، اجعل اسمه أعلى الأسماء في الدنيا وامح أعداءه، وانتقم من كل من يحاول أن يكيد لآثاره، إلهي عظم دينه وذريته وأمته، فعظمة أمته عظيمة له. كل هذا يرد في معنى الصلوات، إلهي عظم محمداً بظهور ولده المهديّ.

أكرمُ محمداً في الرجعة والبرزخ والقيامة

إلهي أكرم محمداً في الرجعة والبرزخ أيضاً، وبلغه المقام المحمود يوم القيامة وهو أعلى المقامات ليتجلّى جلاله وتظهر عظمته ويجتمع الأنبياء والأبرار والصالحون من آدم حتى آخر إنسان تحت لوائه، عظمٌ وبارك في هذا النبي العزيز لتشمل شفاعته الأولين والآخرين.

توجّه لمحمد بالمحبة وادعُ له دائماً، إلهي عظم شأنه، فالدعاء بحد ذاته تعظيم له وأي تعظيم أسمى من الدعاء؟

التحرّق على الأمة من محبة الرسول ﷺ

من مستلزمات حبّ النبي ﷺ هو حبّ أمته والتألم لهم، فإذا رأيت منكراً صادراً من أحد أفراد أمة محمد ﷺ، انه عنه بتحرّق وإخلاص لا بالهوى والأنا وليكن طموحك أن لا ترى أحداً من أمة محمد يرتكب ذنباً من الذنوب وأن يجتمعوا جميعاً تحت لوائه فكلّما كانت الأمة أكثر توسّع وجود النبي أكثر، واحمِلِ الحب لكل من يمتُّ إلى هذه الأسرة بصلة واطلب له العظمة.

الذنوب تتساقط والدعاء يستجاب

ويجب أن نتذكّر أن للصلوات مراتب ودرجات، فمن هو المصلّي وأي نوع من الصلوات يلهج بها، هنالك من الثواب على الصلوات ما يبتدئ بالحسنة الواحدة وحتى المائة ألف حسنة، وما يكون مستواه المرتبة الأولى لذكر الله حتى يصل الأمر إلى أن تدعو كل أجزاء العالم للمصلّي على النبي، ومن ناحية أخرى ما هو مقدار محبته لمحمد ومعرفته به فكل هذا ينعكس على الصلوات. يجب أن يعرف الإنسان معنى الصلوات ليصلّي على النبي بقلب ملؤه هذه المعاني القدسية ومحبة الرسول ﷺ فتساقط ذنوبه كما يساقط الورق في الخريف وتكون دعوته مستجابة.

وحينما يتطهّر المرء من ذنوبه بسقوطها عنه يستحق عندها أن تستجاب دعوته فتشمله الرحمة الإلهية لظهوره، اللهم وفقنا لأداء حقّ هذا النبي ﷺ.

نقرأ في زيارة شهر شعبان «اللهم صلّ على محمد وآل محمد أداءً وقضاءً بحول منك وقوة».

أيها المسلم، إن لمحمد عليك حقاً عظيماً، فعسى أن تؤدي بعض هذا الحق عن طريق الصلوات، فاذا ذكر نبيك بمقدار ما تكنُّ له من الحب والمودة. وعلى شرط أن تُرفقَ آل البيت في الصلوات فلو تركتَ لا سمح الله ذكر آل بيته لما رضي النبي عنك كما قال بنفسه ووصلنا في الرواية، والغريب أن أهل السنة يرون هذه الرواية أيضاً، قال عليه السلام: لا تصلّوا عليّ الصلاة البتراء، قالوا: وما الصلاة البتراء؟ فقال: أن تذكروني ولا تذكروا أهل بيتي.

لم يكن ابن الزبير يذكر الصلوات في خطبه

كان ابن الزبير في أيام حكومته على مكة المكرمة يصلي الجمعة بالناس ولكنه لم يكن يذكر الصلوات في خطبه فقالوا له: يا ابن الزبير إن الرسول نفسه أوصى أن لا تترك الصلاة على آل البيت.

فأجابهم بأنه يخاف أن يذكر اسم آل محمد في الخطبة فيدعون الولاية والمقام، فأترك الصلوات أساساً لئلا أشجعهم على الخروج عليّ مع علمي أن تركها غير جائز، فأبي كُفِرَ وأنا نية هذه!!

الحسين عليه السلام يذكر آل محمد عليهم السلام

وقف الحسين عليه السلام يوم عاشوراء في إحدى مواقفه الستة التي أتمّ بها الحجّة على جيش العدو وقال: «هل تعلمون أنا ابن محمد المصطفى؟» فمن - رضي بمحمد نبياً لا يمكنه أن يعامل أولاده الذين أوصى بهم كل تلك الوصايا بهذا الأسلوب، إن علياً وآله محكّمٌ لمعرفة المؤمن من المنافق، والصادق ممن يتبع هواه.

«هل تعلمون أنا ابن محمد المصطفى، أنا ابن عليّ المرتضى، أنا ابن فاطمة الزهراء».

« ١٤ »

«والسلام على أبي محمد ﷺ»

«والسلام على أبي محمد ﷺ» ذكرنا في البحوث السابقة شروحاً للسلام على رسول الله ﷺ ولأن السلام جزء من آخر الصلاة فلا بأس أن نلّم بمعنى السلام الثلاثي في الصلاة، ويجب الإشارة هنا إلى أنّ المصلّي يجب عليه العلم بمعاني كل أجزاء الصلاة وبضمنها السلام في آخر الصلاة وبما أنّ السلام ورد ذكره هنا فلا بدّ أن نشرح عنه بعض الشيء لنفهم ما نقول حين السلام في الصلاة.

فالسلام الأول هو (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته) وهو جزء من التشهد ومن المستحبات المؤكدة وجدير بأن لا يترك وقد ذكرنا أن السلام على رسول الله ﷺ والأئمة الأطهار ﷺ هو طلب السلامة المطلقة لهم، أي أن ينزل الله عليهم فيوضاته اللامتناهية، فلا بدّ أن يقصد المرء في سلامه عليهم استنزال هذه الفيوضات والأنوار والنعم الإلهية عليهم.

سلامة الشجرة بسلامة جميع أجزائها

والمعنى الآخر لعبارة السلام عليك أيها النبي هو أن يسلم الله دينه وقرآنه من شرّ الأعداء من الإنس والجن إلى يوم القيامة، السلام عليك أيها النبي، سلم الله أمتك وشيعتك أهل البيت بأن لا يتركوا ولايتكم، لأن في تركها نوع من فقدان السلامة.

لكل شجرة، جذور وسيقان وأغصان وأوراق، وقد ورد تشبيه في الروايات يفيد أن أصل الشجرة الطيبة هو خاتم الأنبياء ﷺ وللشجرة فروع تتمثل في الأنوار الاثني عشر للأئمة الأطهار ﷺ وأوراق الشجرة هم جميع الشيعة، فالشيعة على اتصال بالشجرة الطيبة، وكما يُعتبر تيبس ورقة من الأوراق وسقوطها سقم وعدم سلامة للشجرة في المثال الطبيعي فإن كمال الشجرة في اتصال كل الأوراق بها لتكون يانعة خضراء.

وكذلك الشجرة المحمدية الطيبة، يجب أن يتصل بها كل الشيعة ففي ذلك السلامة الحقيقية، وستفقد الشجرة سلامتها بمقدار ما يسقط من أوراقها (الشيعة) «السلام عليكم يا أهل بيت النبوة» حفظكم الله من شرّ شياطين الإنس والجن وسلّمكم وجميع أتباعكم ودعوتكم.

النبي ﷺ يسأل الدعاء من الأخيار

ولا بأس في الإشارة هنا إلى الرواية التي يثبتها صاحب اللّمة البيضاء، وهي قول الرسول ﷺ: «إن الله وعدني درجة لا تنال إلاّ بالدعاء ودعاء أمّتي». فالجدير بالمؤمنين حين يدعون الله أن يصلّوا على النبي ﷺ، اللهم صلّ على محمد ﷺ، وعظّم شأنه واطهرُ شرفه، إلهي لا تقطع رحماتك وفيوضك ونعمك عنه. ويُنقلُ في ذيل هذه الرواية أنّ الرسول ﷺ كان يطلب الدعاء من المؤمنين «وكان يطلب الدعاء من صالح المؤمنين»، ونحن كذلك نقول لبعضنا «نسألکم الدعاء» ولكن هذا على سبيل المجاملة وليس طلباً حقيقياً للدعاء.

ومن المستحب أن نقول من بعد التشهد: «وتقبّل شفاعته وارفع درجته» اللهم ارفع درجته إلى حيث لا ينالها ملكٌ مقرب ولا نبي مرسل «آدم ومن دونه تحت لوائه» فيكون الجميع في حاجة إليه، اللهم بلّغهُ، المقام المحمود عندك، كل هذا السلام له تأثير بالغ إذا صدر كدعاء حقيقي لا على سبيل المجاملة أو قلقلة اللسان، وإذا كان المسلمُ محباً ومؤمناً ومنافعاً فيما يقول.

السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين، السلام علينا، تُسَلِّمُ على نفسك

وعلى جماعة المصلّين، نحن العبيد المؤمنون بك يا الله، إلهي هبنا السلامة،
تطلب السلامة لنفسك بجميع مراتبها، وعلى عباد الله الصالحين.

إنّ المرتبة الدنيا للسلامة هي سلامة الجسد، هي أن تكون أذني وعيني
وقدماي سالمَةً لأفيد منها.

الذنوب تُسَقِّمُ ملكوت الأعضاء

وبعد ذلك، إلهي سلِّمُ أعضائي وجوارحي من الذنوب، فعن أي عضو
يصدر الذنب سوف يسقِّمُ ملكوت ذلك العضو، والسلامة الباطنة لأي عضو
هي في أن لا يرتكب ذنباً بواسطة ذلك العضو، فلو نظرت نظرة محرمة لا
سمح الله لأصابع باطن عينك سهم جارح، ولو مُتَّ على ذلك الحال لتعدّبت
عينك البرزخية، ولو أذنبت بلسانك لتخارسَ بذلك لسانك الملكوتي. وقد ورد
عن الرسول ﷺ أنه رأى ليلة المعراج جمعاً من أمته يلوكون ألسنتهم وينزّ منهم
الصدید والدم فسأل جبرائيل عنهم فأخبره جبرائيل إن هؤلاء هم الذين يقولون
ما لا يفعلون.

وبهذا ماذا سيكون حال اللسان الملكوتي حين تستخدمها في التهمة والغيبة
والقذف والفحش والافتراء وإيذاء الغير؟ والذي يظلم بيديه تشلُّ يداؤه
الملكوتيتان ولا يظهر هذا إلا بعد الموت، أما الآن فهو باقٍ على هذه الحال
إلى ما شاء الله، ويجب أن أضيف أنّ لكل هذا الكلام أسانيد وبراهين قاطعة.

نسأل الله السلامة من الذنوب

يقول الإمام زين العابدين ؑ في دعاء التوبة من الصحيفة السجادية:
«اللهم إني أستغفرك من كل ما خالف إرادتك أو زال عن محبتك من خطرات
قلبي ولحظات عيني وحكايات لساني توبة تسلم كل جارحة على حيالها من
تبعاتك».

فالدرجة الثانية من درجات السلامة، هي سلامة الأعضاء من الذنوب وهي

أهم بكثير من سلامة البدن والظاهر. فكم ندعو الله أن لا يصيبنا بالشلل يجب أن ندعو الله بهذا المقدار أو أكثر أن لا نذهب إلى الأماكن المحرمة.

وكم تدعو الله، إلهي لا تصبني بالعمى، يجب أن تدعو الله مائة ضعف بأن لا ترتكب ذنباً بهذين العيين، لأنَّ العمى أمر مؤقت، والويل للعين الملكوتية إذا أصيبت بسهم فليس يعلم إلاَّ الله متى ستبرأ ويعود إليها النور، إلهي إنَّ تلك الأمراض أفجع وأقسى.

والدرجة الثالثة للسلامة، هي سلامة القلب من الأمراض التي تصيب القلب، وقد ذكرنا أمراض القلب في كتاب (القلب السليم) والدرجة والمرتبة العليا من السلامة هي سلامة الروح من الغفلة، ولكن أين نحن من سلامة الروح، يا حبذا لو أصبنا تلك المراتب السابقة.

حاولتُ أن أوضح معنى كلمة السلام علينا، لفهم ما نقرؤه أثناء الصلاة وما نريده من الله، سلامة الجسم من الأمراض، سلامة الأعضاء والجوارح من الذنوب وسلامة الروح من الغفلة.

سلامة المسلمين من يد المسلم ولسانه

العياذ بالله من أن يؤذي الإنسان مسلماً بأحد أعضاء جسمه، أيُّ سقم هذا الذي قد يخرج الإنسان من الإسلام كما جاء في الرواية التي يرويها الجميع والتي سمعتها مراراً: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه» فلو خرجت من فمك كلمة آلمت قلب إنسان أصابك المرض والسقم وخرجت حالياً من الإسلام.

الإسلام من السلم، ومثل عدم السلامة هذا يخرجك من أصل الإسلام.

لهذا أطلب من الله أن يمنحك السلامة لكي لا يصدر من أعضائك وجوارحك غير السلام. فإن كنت في الدنيا هكذا سيكون لك غداً يوم القيامة (سلاماً سلاماً).

والأكثر من هذا هو أَنَّ الخالق يمطرك بالسلامة دائماً، فإن كنت هنا سالماً
سَلِمَتِ الملائكة عليك هناك، أيها المؤمن الذي صبرت في دنياك وأغلقت
الأبواب في وجوه الشياطين، إن طريق الملك مفتوح لك الآن.

في الرواية إن المؤمن يدخل يوم القيامة قصرأ في الجنة له ألف باب يدخل
من كل باب ملكٌ بعد أن يستأذن من صاحب القصر ثم يقول: ﴿سَلِّمْ عَلَيْكُمْ بِمَا
صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وبهذا ينزل المؤمن يومئذ منزلاً مباركاً، لماذا؟ لأنكم
صبرتم في الدنيا ولم تسمحوا للشياطين بأن تنشط في وجودكم فُسِّقَمَ قلوبكم،
فالسلم الدائم لكم وعليكم الآن.

وبعد أن يدرك المؤمنُ السلامَ يتحد بسائر المؤمنين، ويتنكر لذاته فلا
يستأنس بما يؤذي الآخرين ولهذا نجده يدعو لكل العباد الصالحين: إلهي
اعصمهم من الذنوب.

هنالك موضعين يُسَلِّمُ فيها الإنسان على نفسه، الأول حين الصلاة،
والآخر حين تدخل البيت، فلو لم يكن في البيت أحد تسَلَّمُ عليه فسَلِّمِ على
نفسك، ولا تقل مثلاً يجب على المرأة أن تسَلِّمَ على زوجها، بل يجب على
الوارد أن يسَلِّمَ على المورود وعليه ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ فلو لم
يكن في البيت أحد سلِّمَ على نفسك وقل: «السلام علينا من رحمة ربنا».

ليسلم الجميع منك حتى أعداؤك

ليكن جيرانك سالمين منك وكذلك من يجالسك، بل حتى أعداؤك ليكونوا
سالمين منك، فلا تلحق بهم الأذى في غير القصاص، ولو تجاوزت في
عقابهم حدَّ القصاص مقدار ذرة واحدة كنت ظالماً، ليس لك الحق في فاحش
الكلام وبذيئه بل اعتدِ على من اعتدى عليك بالمثل، وليكن الجاهل آمناً منك،
فالجاهل في أمن من الإنسان السالم مع أنه يكثر اللغو والشتم، إلا أنه لا يجد
من الإنسان السالم غير كلمة سلام وإعراض بمعروف.

توبة الجاهل ببركة الإمام زين العابدين عليه السلام

كان الإمام السجاد عليه السلام يجتاز ذات يوم في أحد أزقة المدينة برفقة غلامين له فأبصر به أحد أشقياء المدينة وقال لأصحابه إنني آذيت كل أهل المدينة إلا علي بن الحسين عليه السلام وقد جاء دوره اليوم، فسار خلف الإمام ثم أخذ عبادة الإمام من على كتفيه وهرب بدون أن يعيره الإمام أي اهتمام.

لكن أتباع الإمام لاحقوه وأخذوا العبادة منه وأعادوها للإمام فقال الإمام السجاد عليه السلام: «قولوا له إن الله يوماً يخسر فيه المبطلون».

وأراد أتباع الإمام أن يعاقبوه على فعلته هذه، غير أن الإمام منعهم عن ذلك.

وذكروا في تكملة هذه الرواية أن ذلك الشخص تأثر تأثراً شديداً بكلام الإمام السجاد عليه السلام فوقع على يديه وقدميه وتاب على يديه.

وللإمام زين العابدين عليه السلام مواقف متعدّدة مع الجهّال من ضمنها ما حصل له مع يزيد بن معاوية حين أراد الإمام أن يُؤدّن له بالكلام، فقال ذلك الجاهل الطاغى يزيد: «لا تقل هجراً» فأجابه الإمام عليه السلام أنه وصل مرتبة لا يقول معها الهجر والهزل. ثم قال: ما ظنك برسول الله لو يرانا...

* * *

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه وحمله وحيه ودينه
وأمناء الله على أنفسكم وبلغائه إلى غيركم، زعيم
حقّ له فيكم وعهد قدمه إليكم، وبقية استخلفها
عليكم كتاب الله الناطق والقرآن الصادق»

بعد أن حمدت الصديقة الزهراء عليها السلام ربها وأثنت عليه وبيّنت الهدف من
هذا العالم وصلت وسلمت على والدها الرسول صلى الله عليه وآله، أخذت تخاطب الناس
بالحکم البالغة، والتحاذير التي ينبغي على كل مسلم الاهتمام بها إلى يوم
القيامة.

أنتم عباد الله، وعباد الله هنا منادى محذوف النداء وتعني يا عباد الله،
نصب أمره ونهيه وهذا خبر يعني يا عباد الله أيها المسلمون (ولا يخص هذا
النداء من كان حاضراً في المجلس يوم خطبتها عليها السلام فقط بل إن النداء يشمل
جميع المسلمين إلى يوم القيامة).

أنتم يا من آمنتم بتوحيد الله وقبلتم رسالة محمد صلى الله عليه وآله، إنكم نصب أمر
ونهي خالق العالم وليس الإسلام أن تردّدوا بعض الأيام كلمة لا إله إلا الله
محمد رسول الله.

فالهدف من الدين هو إطاعة الأوامر والنواهي الإلهية، وأنتم جميعاً

مقصودون بأمر ونهي الله عزّ وجل، فعليكم أن تعلموا الأوامر لثلاث يفوتكم أمر منها، وتعلموا النواهي لثلاث تقعوا فيها.

أحكام التكليف الخمسة

كل فعل وقول من أفعال وأقوال الإنسان المكلف (أي الولد إذا أتم سن الخامسة عشرة والبنت إذا أتمت سن التاسعة) خاضع لأمر من أوامر الله تعالى، فإما أن يكون أمراً وجوبياً أو استحبابياً أو نهياً تحريمياً أو مكروهاً تنزيهياً، ولهذا يقال إن أفعال المكلفين لا تخرج عن الأحكام الخمسة، الواجب والمستحب والمباح والمكروه والحرام.

فكل ما يفعله الإنسان لا بدّ وأن ينتمي لإحدى هذه الأحكام، كأن يخرج من البيت ويمشي في الشارع أو ينام أو يأكل. ولا فعل بغير حكم في الإسلام، ويجب لذلك أن تعلم حكمه وتعمل بمقتضى الحكم. الغاية من إيجاد الإنسان هي العبودية، فوظيفتك أيها الإنسان هي الطاعة وكمالك أن تدرك مقام العبودية والقرب وجوار رب العالمين حيث الحياة الطيبة الأبدية.

ولا سبيل إلى العبودية سوى إطاعة أحكام الله من أمر ونهي ولا نجاة إلا بأن يوفق الإنسان بين أفعاله وأقواله وبين الأوامر والنواهي الإلهية.

فالطعام مثلاً، قد يكون الطعام واجباً أحياناً ومستحباً أحياناً أخرى أو حراماً أو مكروهاً أو مباحاً في مواضع خاصة أخرى، فلو كان نجساً كان محرماً، وإذا اكتسب عن طريق محرم كأن يكون من أموال الناس وبدون رضا أصحابه فسيكون حكمه الحرمة كذلك.

أو أن يكون فيه ضرر كالأكل على الشبع والاستمرار في الطعام رغم امتلاء المعدة تماماً، والحرام هو ما نهى الشرع المقدس عن أكله كالحيوانات غير المزكاة والأسماك عديمة الفلوس، كل هذا ينضوي في حقل الطعام المحرم.

والطعام الواجب هو الأكل بمقدار سدّ الرمق بحيث يموت الإنسان بدونه،

فهذا واجب من أجل استمرار الحياة، أو إذا أمر الوالدان أولادهم بالأكل وسيألمان إن لم يأكل الأولاد، هنا يكون الأكل واجباً على الأولاد لتجنب إيذاء الوالدين، ولكن بدون تخمة.

وأما الطعام المستحب، فهو ما يبعث على القوة والمقدرة على العبادة فلو لم يأكله المرء لخارت قواه ولو أكله لدبَّ النشاط فيه، هنا يكون الأكل مستحباً ولهذا ففي يوم عرفة وهو يوم تبتل وصيام، إذا أصاب الصائم ضعفٌ بسبب صيامه يمنعه عن التبتل والدعاء كان المستحب أن يفطر ويكسر صيامه.

وطعام الأسحار لمن يريد أن يصوم النهار غير واجب طبعاً ولكنه مستحب ولو كان شقة تمر، وهكذا باقي الأطعمة التي أوصى بأكلها الشرع كالرمان فهو مستحب خاصة أيام الجمعة ويقال إن حباته حبات الجنة، أو العدس الذي يورث تناوله رقة الفؤاد، وكذلك أوصي بالرطب وقيل إنه يبعث النور في الإنسان والخلّ والزيتون كلها من الأطعمة المستحبة.

وأما الأطعمة المكروهة فهي كثيرة بحسب الكمية أو النوعية، كأنواع الأطعمة التي نهى عنها مثل الأكل بعد الشبع، فلو شبع الإنسان وأكل لقمة فوق الشبع فقد أصاب مكروهاً، وما خلا ذلك فهي أطعمة مباحة.

النوم أيضاً خاضع لأحد الأحكام

هنالك نوم واجب، فلو عمل شخص ليل نهار بصورة متواصلة بحيث ينهار إذا استمر في العمل أكثر وجب عليه أن يرتاح جسمانياً ليحافظ على صحته، فيقضي فترة في النوم من أجل ارتفاع التعب والعجز والخطر.

والنوم الحرام هو النوم الذي يؤدي إلى فوات واجب من الواجبات كنوم فترة بين الطلوعين كلها أو النوم بغير أداء صلاة العشاء بحيث يستمر نومه إلى ما بعد منتصف الليل والخلاصة هي حرمة أي نوم يؤدي إلى فوات الواجب.

وأما النوم المكروه، فمثله هو نوم بين الطلوعين رغم أداء صلاة الصباح

فالمستحب أن يبقى المرء مستيقظاً ليقوم بتعقيبات صلاة الصبح وذكر الله حتى تطلع الشمس لأن ذلك يوجب سعة الرزق وصحة المزاج، ومستحب كذلك أن يكون المرء مستيقظاً فترة السحر قبل أذان الصبح فهي ملائمة لصحة الجسم والروح.

وأما عند كيفية النوم فالمستحب هو النوم على الظهر أو الجهة اليمنى، والنوم على الجهة اليسرى مباح وعلى البطن مكروه.

ومجمل القول إن أي عمل أو فعل يخطر في البال له أحد الأحكام الإلهية الخمسة فطلب الرزق يكون أحياناً واجباً وتارةً محرماً وتارةً مستحباً وتارةً مكروهاً، وفي كيفية كسب المال والرزق يوجد ما هو واجب وحرام ومكروه ومباح ومستحب.

فطلب الرزق واجب على من له عيال واجبو النفقة، ولو كان يمتلك لهم بمقدار نفقتهم لكان طلب الرزق مستحباً بالنسبة له ليوسع على عياله.

أما الكسب الحرام، فقد يكون الذهاب لطلب الرزق حراماً لأنه يؤدي إلى فوات واجب معين، أو يكون نوع النشاط التجاري محرماً بحد ذاته كالربا والمتاجرة بالخمير، ومن الأشغال المكروهة بيع الأكفان.

ونحن هنا لا ننوي أن نستعرض جميع المكروهات والمستحبات والواجبات والمحرمات ولكننا ذكرنا بعضها للدلالة على أنه لا يخلو فعل من الأفعال من أن يكون له حكم شرعي.

لا تخونوا أمانة الله

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه» إنكم غير مهملين بل معنيون بأوامر ونواهي الله، يا عباد الله إن دين الله أمانة عندهم وأنتم حملته، فاحذروا أن تخونوا الأمانة، ويبدو أن في هذه العبارة إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا

الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْتَ أَنْ يَحْمِلَهَا وَأَشْفَقْنَا مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿[الأحزاب: ٧٢].

وهناك تفاسير وتأويلات متعدّدة لكلمة الأمانة إحداها هي التكاليف والدين الإلهي الذي لم يكن في مقدور السماوات والأرض والجبال وأي وجود آخر أن يحمله ليتوجه الله إليه بالخطاب الثقيل، فتكليف الله عظيم لأنّ الله عظيم، وأوامره عظيمة بمقدار عظمته عزّ وجلّ.

وكان الإنسان هو الذي منحه الله هذه القابلية، قابلية الامتثال لأوامر الله ونواهيه، والوصول إلى كمال العبودية ومنزلة القرب الإلهي، فمن غير الإنسان يستطيع حمل هذه الأمانة؟ ومع أنّ الجنّ مكلفون إلى حدود معينة إلاّ أنّ كمال التكليف خصّ به الإنسان.

وصل الإنسان إلى حيث لا يرى سوى الله، فانظر إلى أي درجة وصل مقام الآدمية.

تقول السيدة الزهراء عليها السلام: أيها الناس إنكم حملة الأمانة الإلهية، وقد ألقى التكاليف على عاتقكم، فحذار أن تفرطوا بأوامر الله ونواهيه فتظلموا أنفسكم وتكونوا جهلاء: «ولا تخونوا أماناتكم».

لا تخن نفسك

«أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه، وحملة دينه ووحيه وأمناء الله على أنفسكم» أمناء جمع أمين، إنّ الله أودع عندك هذه الروح والنفس اللطيفة كأمانة، فلا تلوّثها، وأرجع الأمانات إلى أهلها، فإنك في ساعة الموت ستسلم إليه هذه الروح التي أودعها الله أمانةً عندك.

إنّ روحك كانت في بدايتها طاهرة وعلى فطرة الله، فحاذر أن تسلّمها عند الموت وقد خنت الأمانة بالشرك والكفر والحسد والبخل والحرص والأخلاق

البذينة، أو تكون قد لوثتها بالأعمال المنحرفة ووصمات العار والظلم والنكبات.

«أمناء الله على أنفسكم» كم هي بليغة هذه العبارة، فأنفسكم هذه أمانات أودعها الله عندكم، وهناك نداء من العرش السماوي يهيب بكم دائماً أن توصلوا هذه الأمانات إلى حيث يقيم آل محمد ﷺ.

أتعلم كم عليك أن تكون لطيفاً، الويل لمن يظلم نفسه بدل أن يتلطف معها، فيحملها الظلمات والنكبات، ولهذا نردّد في (دعاء كميل): «ظلمت نفسي» وفي أدعية أخرى نقول أيها المذنب لقد ظلمت نفسك.

كان أحدهم يتنّ ويتأوه الليلي، فخاطبته أمه قائلة: يا لك من جاهل، ماذا فعلت لتتأوه وتتن هكذا، أقتلت نفساً؟ دعني إذاً أذهب إلى الأئمة ﷺ وأطلب لك المغفرة منهم، أو أدفع دية القتل لكي يرضوا. فقال: نعم لقد قتلت نفساً، وهي نفسي لا نفس غيري «ظلمت نفسي» فالمذنب إنما يخون نفسه العزيزة.

لأتحدّث عن ابنتها السيدة زينب ﷺ فقد خاطبت (يزيد) بما يشبه هذه الكلمات الملتهبة: «وما فريت إلا جلدك، وما قطعت إلا رأسك» وسوف تحشر يوم القيامة مقطوع الرأس، وسيحشر الإمام الحسين ﷺ رفيع الهام.

«وبلغاؤه إلى الأمم، زعيم حق فيكم، وعهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم: كتاب الله الناطق، والقرآن الصادق، والنور الساطع، والضياء اللامع، بيّنه بصائره، منكشفة سرائره، متجلية ظواهره».

مجمل كلام الصديقة الكبرى ﷺ: «أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه» يا عباد الله إنكم غير مهملين، فقد جعل الله لأقوالكم وأفعالكم أوامر ونواهٍ، فيجب عليكم اتباعها لتدركوا الكمال الذي خلقتم من أجله «وحملة على دينه ووحيه».

الأمانة الإلهية عندكم، ودين الله ووحيه مودع فيكم، فأنتم أمناء الله على أنفسكم، وقد ذكرنا أنّ النفس وديعة إلهية عند الإنسان، فعليه أن لا يظلم أو

يخون الأمانة، وكلّ ذنب هو خيانة للذات (منهم ظالم لنفسه) فالظالم من يخون الأمانة الإلهية، أي يخون نفسه.

إبلاغ الدين واجب على الجميع

«وبلغواؤه إلى الأمم» والبلغاء جمع (بليغ) أي مبلغ، فقد وصلتكم أحكام الله والواجب - علاوة على العمل بها - هو إبلاغها إلى سائر الأمم والفرق.

وفي هذا إشارة إلى ما جاء في الشرع الإسلامي من أنّ على كل مسلم أن يعلم ثم يعمل، ثم يعلم ويحثّ على العمل، ولا ينحصر التكليف بالشخص نفسه؛ بل إنّ التكليف أوسع وأهم من هذا.

قال رسول الله ﷺ في حجة الوداع بصوت عال: «فليبلغ الشاهد الغائب» فبالإضافة إلى وجوب عمل كل شخص بما يعلمه من الدين، يجب عليه أن يبلغ الآخرين، فليبلغ بالدرجة الأولى عياله وأولاده وتلاميذه، ثم جيرانه وجلساءه ومن يلتقي بهم بمقدار ما يستطيع ويتمكّن.

وبالطبع فعلى كل شخص بمقدار ما يستطيع، وعلى كثير من طلبة العلوم الدينية أن يبلغوا أحكام الله إلى أهلهم في القرى والأرياف والمناطق النائية التي لم يصلها الدين، ولا يتوهموا أنّ علمهم بالأحكام الدينية يكفيهم، فأدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كثيرة كآية النفر في القرآن.

والخلاصة هي أنه من الواجب على كل مسلم أن يعلم أصول الدين وفروعه، وأن يبلغ أهله والآخرين إلى حد ما. ولا نقول أن يترك الإنسان شغله وعمله، ويهيم في هذه القرية وتلك القرية؛ بل أن لا يقصّر في المقدار الذي يستطيع أن يقوم به.

في يوم القيامة يفرّ المرء من أخيه وأمه وأبيه وزوجته وبنيه، ولهذا الأمر أسبابه، ومن أسبابه هو هذا المعنى، أي أنّ الزوجة ستلحق زوجها يوم القيامة وتعاتبه على إهماله لها، وعدم تقويمه لعقيدها وإبلاغها الواجبات والمحرمات

الإلهية، لأنها تجد نفسها في ورطة، فتحاول الفرار منها، ولكن دون جدوى، فلا فرار من الحساب والمؤاخذة.

الدين هو القرآن، والقرآن هو الدين

وبعد أن أثارت السيدة الزهراء عليها السلام الناس ليتبعوا دين الله ويبلّغوا الأمانة الإلهية إلى غيرهم، تسترسل عليها السلام في خطبتها مبيّنة دين الله، فما هي الأمانة الإلهية وما هو دين الله الذي أودع فيكم وأمرتم بالعمل به؟ والمستفاد من كلامها عليها السلام هو: القرآن والعتره.

فدين الله هو القرآن، وقد أودع الله أصول الدين وفروعه في القرآن الذي جعله أمانة عندكم، تذكر السيدة الزهراء عليها السلام هذا المعنى ضمن كلماتها الفصيحة والبليغة والعجبية حقاً.

فتقول في القرآن الكريم: إنه «زعيم حق له فيكم»، الزعامة إذاً أول صفة تذكرها السيدة الزهراء عليها السلام للقرآن، فاعرفوا قدر القرآن، الزعيم هو السيد والكبير وضامن الدين وكفيله، فالقرآن زعيمكم أيها المسلمون، وفي الأخذ به سعادة دنياكم وآخرتكم، فتكونون في الدنيا أعزّة وسادة على كل الأمم.

للقرآن قدرة على التكفل بحيث يضمن لكم السعادة الأبدية، ويبلّغكم أعلى الرتب بين الأمم من بعد الموت أيضاً. فلا تتركوا القرآن وتلقوه وراء ظهوركم فتظلوا بدون مرشد وتكونون منحطين كبقية الأمم، ويحلّ بكم الخزي في الآخرة.

القرآن أمانة الله وخليفته

«وعهد قدمه إليكم» فالصفة الثانية للقرآن الكريم هو أنه عهد الله، أمانة الله، وصية ربّ العالمين، كلام صدر عن مصدر العلم جل جلاله فمنّ به عليكم ليضمن لكم السعادة.

والصفة الثالثة «بقية الله فيكم استخلفها عليكم» البقية بمعنى التّمّة والشيء

الذي يبقى بعد صاحبه، ولهذا كان من ألقاب الإمام الحجة(عج) ببقية الله، أي أنه الباقي من بين رسل الله وأنبيائه والأوصياء والأئمة.

تريد السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام أن توبّخ المسلمين الذين تركوا القرآن وصنوه أي العترة الطاهرة، وتكالبوا على شيء آخر. فالذي بقي من الله عز وجل هو القرآن، والذي بقي من أبي رسول الله صلى الله عليه وآله هو القرآن، حيث قال الرسول صلى الله عليه وآله: «إني مخلف فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»^(١) القرآن وآل محمد عليهم السلام وبقية الله وبقية الرسول وخليفته.

«زعيم حق له فيكم وعهد قدّمه إليكم، وبقية استخلفها عليكم» من هو؟ إنه «كتاب الله الناطق والقرآن الصادق».

(علي) خليفة الله بينكم

يصحُّ أن المراد بكتاب الله الناطق هو القرآن، فهو اللسان الإلهي البليغ، ويصحُّ كذلك أن يكون كتاب الله الناطق هو قمر الهداية، أسد الله الغالب، علي بن أبي طالب عليه السلام فعلي عليه السلام هو الوجود العيني لوجود القرآن اللفظي والتحريري، فمن أراد أن يفهم معارف القرآن عليه بعلي عليه السلام ومن أراد أن ينظر إلى القرآن فلينظر إلى علي عليه السلام.

وعلى كل حال فالقرآن الكريم هو الصادق، أي أنّ ما يقوله هو الحق والصدق.

«والنور الساطع، والضياء اللامع» أي نور وإضاءة؟ وأي لمعانٍ وبريقٍ في القرآن الكريم، والمراد بالنور طبعاً هو النور المعنوي، نور العلم والمعرفة.

كلمات القرآن تشعّ بالنور

ولا بأس بأن أروي لكم قصة (المرحوم كاظم الكربلائي) المروية بالتفصيل

(١) حديث متواتر.

في كتاب (القصص العجيبة) فقد عرض عالم كبيرٍ تفسيراً عليه، فقال المرحوم إنه قرآن، وأضاف أنه ليس كل ما كتب فهو قرآن، فسأله العالم، إنك أمي لا تقرأ ولا تكتب، فكيف تميّز القرآن من غيره من الكتب.

فأجاب (الكربلائي) إنَّ للقرآن نوراً خاصاً، فلكلام الله نور لا ألمحهُ في غير الكتب؟

الفرق بين البصر والبصيرة

«بيّنة بصائره، منكشفة سرائره، متجلّية ظواهره» إنَّ هذا القرآن ظاهرة بصائره، والبصائر جمع (بصيرة) وهي ما يوجب البصر. ولنميّز أولاً الفرق بين البصر والبصيرة، فما يشاهد بالعين الحسيّة هو البصر، وما يدرك بعين الفؤاد والفهم فهو بصيرة.

بصائر القرآن تعني المعارف التي يدركها الإنسان بفؤاده، وهي ما يوجب البصيرة، وقد يخطيء الحسّ ولكن لا يخطيء القلب، فإنَّ إدراك العقل والقلب واضحٌ وجليّ، بيّنة بصائره وما يبعث الفهم فيه.

«منكشفة سرائره» للقرآن بواطن وأسرار أيضاً وهذه الأسرار منكشفة عند أهله، فهي عند أهل القرآن وهم آل محمد ﷺ منكشفة وظاهرة، فمن أراد أن يصل إلى باطن القرآن الكريم وأسراره لا بد له من الرجوع إلى أهل البيت ﷺ لتتكشف له الأسرار.

«متجلّية ظواهره» ولكن ظواهر القرآن واضحة إلى أقصى حدود الفصاحة والبلاغة، ويستطيع من له أدنى إلمام باللغة العربية أن يفهم معاني الآيات المحكمات ويستفيد منها. فمن أراد أن يفهم ما يقوله الله عزَّ وجلَّ فإنَّ ظواهر القرآن متجلّية سواءً على صعيد المعارف والعقائد، أو على صعيد الأحكام.

أهملوا الآيات الظاهرة في حق أهل البيت ﷺ

ولنعرج الآن على قضية أخرى، أيها المسلمون إنَّ القرآن واضح في قوله:

﴿وَأَتِ ذَا الْقُرْبَيْنِ حَقَّهُ﴾ [الإسراء: ٢٦] أنتم تفهمون أن الله أراد بذى القربى فاطمة عليها السلام وأمر أن تؤتى حقها، وهي آنذاك (فدك) كما تعلمون، فهل كان في الآية غموض أو إجمال سؤل لكم أن تغضبوا (فدك) منها، أو خذ آية التطهير: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٧] فإن فاطمة عليها السلام طاهرة من كل رجس، وهي لا تكذب حين تقول إن (فدك) ملكي وبصريح القرآن: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ [النمل: ١٦] فالنبي يرث النبي، وتقولون أن الأنبياء لا تورث!

وبالإضافة إلى كل هذا: ﴿كُلَّ لَّا أَسْأَلُكَ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] ففيمر وجبت هذه المودة يا ترى؟!

هل من المودة أن تحرقوا باب بيتها؟!

إن توبيخ السيدة فاطمة عليها السلام هذا يشمل كل منحرف إلى يوم القيامة، فهذا هو القرآن بكل ظواهره الجليلة التي لا غموض فيها، فهل هنالك شك في ذوى القربى، وفي أي زمان؟ في زمن لم يكن قد انقضى على وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سوى أيام معدودة، كانت السيدة الزهراء عليها السلام حاملاً، وبدل أن يعاملوها بالمودة عاملوها بالعدوان.

وعلى حدّ تعبير الإمام زين العابدين عليه السلام أنه لو أمر الله بنا خلاف ما أمر من المودة، لما زادونا عدواناً على ما فعلوا.

صَبَّتْ عَلَيَّ مَصَائِبَ لَوْ أَنَّهَا صَبَّتْ عَلَى الْأَيَّامِ صَرْنَ لِيَالِيَا

« ١٦ »

«قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤدٍ إلى النجاة استماعه،
به تُنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة،
ومحارمه المحذرة، وبراهينه الجالية، وبيناته الكافية،
وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه
المكتوبة»

كان مجمل كلام الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام حول عظمة القرآن
وحتّ المسلمين على الاستفادة منه، إنها وصفته بأنه زعيمهم وكفيل سعادتهم،
وإنه يسلك بهم سبيل الرضوان والنجاة.

وبعد ذلك توضح كيفية الاستفادة من القرآن الكريم، فبراهينه نيّرة، وكلّ
أحكام الدين من أصول وفروع مودعة في هذا القرآن، فأصول الدين مودعة به
وفقاً للبراهين النيّرة الواضحة والمنسجمة مع الفطرة الإنسانية الأصيلة «به تُنال
حجج الله المنورة».

فكلّ إنسانٍ في كلّ زمان تتفق فطرته مع العقائد الإسلامية سواءً في مجال
إثبات الصانع وتوحيده وصفاته الكمالية أو في مجال ضرورة الرسالة والإمامة
والمعاد، وما يعترض الناس من العقبات، ففي القرآن براهين تؤمن بها كلّ
فطرة سليمة.

يذكر بعض المفسرين أنه يوجد في القرآن قرابة (٧٥٠) آية يذكر الله فيها آياته التكوينية ويحذّر البشر، وسنكتفي بالإشارة إلى بعض هذه الآيات لأن موضوعها خارج عن سلسلة أبحاثنا الحالية.

خلقكم من تراب

﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، فهل هنالك برهان أوضح من هذا؟ أيها الإنسان إرجع أدرجك وانظر لنفسك، هل كنت سوى تراب؟ يد القدرة هي التي انتزعت من التراب نباتاً، ثم جعلته جزءاً من جسم والدك، لتصير نطفة فيما بعد، ثم يظهر عنها إنسان كامل صحيح.

يا من صدر عنه كل هذا الوجود، بك استقوى التراب الضعيف.

فهل كنا أنا وأنت غير هذا التراب، ثم جعلنا الله أولي قوة وسمع وإبصار، إن هذا البرهان جدير بالتأمل حقاً، أنظر كيف يصرف الله هذا التراب كيفما يشاء.

خلق الليل والنهار والنوم، من علامات الله

من آيات الله التي ذكرها مراراً في القرآن الكريم، خلق السماوات والأرض، وظهور الليل والنهار وتناوبهما، وقصر أحدهما وطول الآخر، فهل جاء هذا الدوران المنتظم من ذاته؟

هل إن نومك ويقظتك من عندك، أم أنك مستخر لقدرة أخرى؟ والأهم من هذا هو الممات والحياة، الحجّة الإلهية التي خاطب بها النبي إبراهيم ﷺ نمرود قبل هذا بثلاثة آلاف سنة: ﴿فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨] ولم يتمكن من الردّ أو الجواب، كان منكرّاً لله فجاءه النبي إبراهيم ﷺ بأحسن الشواهد، إن مردّ كل شيء إلى سبب يسببه، فالنبات من التراب، والغيم من البخار، مع

أنها جميعاً وبحكم العقل صادرة عن الله عزَّ وجلَّ، ولكنَّ لأيِّ شيء يمكن أن تنسب الحياة؟

وقد قرَّر العلماء أخيراً أنَّ كل شيء مادي في عالم المادة يمكن إرجاعه إلى سبب مادي سابق عليه، إلاَّ الحياة، فمن الذي منح الحياة؟ هل المادة؟ لا يمكن للمادة وهذه العلل المادية أن تفرز مثل هذا الوجود.

فتأملوا مثلاً كيف يمكن للجسم الذي تكوَّن نتيجة اجتماع وتركيب العناصر الكيميائية أن يدبَّ فيه الإحساس والإدراك والفهم والحركة والقدرة على الإبصار والسمع، وحتى لو افترضنا أنَّ العين نشأت لوحدها، فكيف يا ترى بعثت فيها الحياة؟ ليس أمامنا إلاَّ أن نقول إن الحياة صادرة عن المبدأ الغيبي الماورائي.

ما هي حقيقة هذه الحياة التي تتوقف كل عجلات المصنع الجسماني بمجرد خروجها؟ تتوقف كل الأعضاء عن العمل إذا أصيب الإنسان بالسكتة، فأَيُّ مصباح كان في الجسم ينيره من خلال هذه النوافذ.

وهنا يضطرَّ الإنسان أن يقول: لا إله إلا الله، ويُرجع هذه الظواهر إلى الغيب. كإبراهيم عليه السلام الذي قال إنَّ ربي ﴿يُخِيءُ وَيُمِيتُ﴾ حين أراد أن يفهم (نمرود) موضوع الحياة والموت، رغم ما حاوله (نمرود) من المغالطة حين قال: ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ وأمر أن يحضروا غلامين، فقتل أحدهما وحرَّ الآخر، وقال إنني قتلت هذا وأبقيت على حياة ذلك. وهذه مغالطة شيطانية، فهل أنت الذي أخذت حياته حين قتلته؟ لا يوجد مخلوق يستطيع أن يستوفي الحياة ويأخذها، فأخذُ الروح من اختصاص وعمل واهب الروح: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢].

وعند ذلك ذكر له النبي إبراهيم عليه السلام دليلاً آخر عجز عنده (نمرود) عن المغالطة، فقال: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ

الَّذِي كَفَرْتُ ﴿البقرة: ٢٥٨﴾ وهكذا تجلّى الحجج النيّرة في القرآن الكريم وتبقى واضحة إلى يوم القيامة.

فاقد الشيء لا يعطيه ومعطي الشيء لا يفقده

والنموذج الآخر لصفات الله، هي أنّ إله العالم سميع بصير، عالم بالغيب والشهادة، وقد جاء بالبرهان في جملة واحدة.

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤] أيها الإنسان، إنك تسمع وترى، أفترى مع هذا أنّ الذي أعطاك السمع والبصر لا يسمع ولا يبصر؟! إنّ معطي الشيء لا يمكنه أن يكون فاقده، أو كما يقال: فاقد الشيء لا يعطيه.

كيف يمكن للذات غير الموجودة أن تمنح الوجود.

لا تتمكن الغيمة اليابسة أن تصف شكل الماء.

أيمكن لله الذي خلق لك نظام الإدراك هذا أن يكون هو غير مدرك؟ كلا، بل إنّ ينبوع الإدراك منه، إنّ بصرك محدود، لكن الذي خلقه جليل وغني عن هذا النقص، ولا بد للذي منحك هذا الجهاز السمعي المعقّد أن يكون سمياً كاملاً، فأنت تسمع الأصوات حين ينقلها الهواء أو حين تصطدم الأجسام ببعضها ويصل الصوت إلى طبلة أذنك، ولكنّ الله غني عن حركة الهواء واصطدام الأجسام من أجل أن يكون سمياً. فهو يسمع ما توسوس به نفسك، ولا صوت يخفى على الله «يعلم ضجيج الوحوش في الفلوات»^(١) ولولا ذلك لما استطاع أن يمنح السمع، إنه عزّ وجلّ يسمع ويرى ويعلم أقل وأخفض النغمات، بل وحتى كلام القلوب وما لا نستطيع نحن سماعه ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

إنّ خلق الله دليل على صفاته الكمالية، لماذا نقول إنّ الله بصير، لأنّ مخلوقه بصير، من أين لك هذا الإدراك؟ لقد حصلت عليه من غيرك بلا شك،

(١) نهج البلاغة.

أفيمكن أن يكون مانحك البصر والإدراك بلا بصر ولا إدراك، كل هذه براهين قرآنية على صفات الله الكمالية.

أدلة القرآن الكريم على التوحيد

وعن (التوحيد) يقول القرآن الكريم: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] أي لتصارع هذين الإلهين، وحاول أحدهما التسلّط على الآخر. فيريد هذا الإله شيئاً، ويريد ذلك شيئاً آخر، أو يبعث هذا رسولاً ويبعث ذلك رسولاً آخر، وسيقود هذا إلى اجتماع أو ارتفاع النقيضين، كل هذه أدلة لها أبحاثها الخاصة بها.

وهنالكَ البرهان الذي ينزه الله عن الشريك، الأب والابن والروح القدس، هذه العقيدة التي استدلّ عليها بأنّ النبي عيسى ﷺ ولد بدون أب، ولذلك فهو ابن الله!! فقد نقض الله هذا الوهم في آية واحدة من آياته: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فأدم كان بلا أم أيضاً.

منكرو النبوة لم يعرفوا الله بالحكمة

يقول الله سبحانه وتعالى في البرهنة على ضرورة النبوة والإمامة ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشَرًا مِّن سَمَوَاتٍ﴾ [الأنعام: ٩١].

ألا يشهد نظام الخلق العظيم هذا على أنّ الله حكمة في كل ما يصنع؟ هل من الممكن أن يترك الله الناس حيارى ضائعين؟ هذا خلاف الفيض الإلهي وهو ظلم يجلّ الله عنه.

يقول (ابن سينا) إنّ حاجة البشر إلى الأنبياء أكثر من حاجتهم إلى الأعين والحواجب بمئات المرات. فكيف يمكن لله الذي لم يحرمك العينين أن يحرمك من النبي الهادي؟ فكما منحك العين لكي لا تسقط في البئر، فقد بعث

رسولاً لكي ينقذك من جهنم والهلاك، ومن أنكر النبوة فقد حملَ نظام الخلق محمل العيب واللهم.

والبراهين على المعاد كثيرة، خاصة في سورة الواقعة وآخر سورة يس حيث يقول تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [يس: ٧٩] يا من أخذكم العجب من احتياء الإنسان بعد أن يصبح تراباً، ما تراه كان قبل ذلك سوى التراب الذي احتى منه: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢] لقد شاهدتم ماذا خلق الله من التراب، إنَّ بإمكانه أن يخلق منه ثانية ما يشاء، فالله الذي يخرج من الشجر الأخضر ناراً، يخرج من التراب إنساناً كاملاً.

الخلق بدون المعاد عيب

والمسألة الأخرى هي أنَّ الحياة بكلِّ ما فيها من مشاكل ستكون عبثاً وألعوبة لو كانت منحصرة بهذين اليومين أو الثلاثة في عالم المادة، ولم يكن ثمَّ معاد يُرتجى.

فهل يرتضي العقل أن تكون الحياة محدودة بهذه الأيام المعدودة التي نحياها على الأرض، ثم يفنى كل شيء؟ هل ترى الحياة والحال هذه سوى لغو؟

أفيكون هذا النظام العظيم من أجل هذه الحياة؟ هذا عيب حقاً. إنَّ الذين ينكرون المعاد إنما ينكرون إدراكهم الفطري.

وعلى فرض أنه لا يوجد وحي للناس، فإنَّ فطرة البشر الأولى على يقين من أنَّ الإنسان لا يفنى بالموت، بل ينتقل إلى عالم آخر تظهر فيه سعادته أو شقاؤه، إنَّ الله خلق الإنسان للأمور الباقية، ولكن عليه أن يجتاز إليها بعض المراحل.

وكم هو بليغ قول أمير المؤمنين علي عليه السلام: «فيها اختبرتم، ولغيرها خلقتكم».

والشاهد هنا هو عبارة «لغيرها خلقتهم» لقد خلق الله البهائم من حمير وبقر وإبل وأغنام لهذه الأرض ولهذه الدنيا، وأحلّها للإنسان لتصير جزءاً منه، والحيوانات الأخرى لها فوائدها الأخرى فأكلة الجيف تنظّف الأرض من القاذورات، والحشرات تجعل الأوساخ جزءاً من أجسامها ليعيش البشر منعمين على الأرض.

ولكنّ الإنسان مخلوق لذلك العالم الذي لا يفكر فيه، فوطنه الأصلي هو الجنة. يقول الإمام عليّ عليه السلام: «ألا فما يصنع بالدنيا من خلق للأخرة، وما يصنع بالمال من عمّا قليل يسلبه وتبقى عليه تبعته وحسابه؟!»^(١).

«مُغْتَبَطُ بِهِ أَشْيَاعُهُ، قَائِدٌ إِلَى الرِّضْوَانِ أَتْبَاعُهُ، مُؤَدِّ إِلَى النِّجَاةِ اسْتِمَاعُهُ».

خلاصة كلام السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام هي أنّ القرآن الكريم هو كلام الله الناطق، وهو بقية الله وخليفته، وقد جمعت فيه آثار الله والأنبياء، ثم جعل ودیعة عندكم أيها المسلمون.

إنه القرآن الذي يضمن سعادة أتباعه إلى يوم القيامة، فمن اتبعه سلك به سبيل السعادة في الدنيا والأخرة، ولو أخذ به المجتمع الإسلامي لأصاب الحياة الاجتماعية الطيبة، فكل بلاء ومكروه يصيب الفرد أو المجتمع سببه الابتعاد عن القرآن الكريم.

أتباع القرآن، يغبطهم الآخرون

من جملة آثار القرآن الكريم هي «مغبتة به أشياعه» والغبطة هي أن يصيب الإنسان خيراً ما، فيرجو إنسان آخر أن يصيبه نفس ذلك الخير. والأشباع جمع شيعة بمعنى الأتباع، أي أنّ الذي يتبع القرآن؛ يصبح مغتبطاً من قبل الآخرين، فمن ينظر إلى أهل القرآن ويرى السعادة التي هم فيها يغبطهم على ما هم فيه،

(١) نهج البلاغة: الخطبة/١٥٧.

وخاصة في يوم القيامة حيث تتكشف حقائق الأمور، وبالأخص في الساعة التي يشفع فيها القرآن لأتباعه.

فمن كان اليوم مشغولاً بالقرآن؛ شفع له القرآن غداً. بحيث يغبط جميع الأنبياء وأمهم أمة الإسلام على اتباعها للقرآن، لأن الله سيظهر يومئذ جلاله هذا الكتاب وعظمته.

ويصل الأمر بأهل القرآن في يوم القيامة إلى «اقرأ وارق» أي أسمو وأرتفع بمقدار ما قرأت من الآيات القرآنية في الدنيا، فيحصل المرء على الدرجات العالية بالآيات التي قرأها وعمل بها، ويتحسّر على الآيات التي قرأها ولم يعمل بها.

وفي الروايات أنّ المؤمن يرى يوم القيامة درجات أقوام، فيسأل عنهم، فيقال له إنّ هذه درجة أهل الآية الفلانية التي نسيته. ولهذا ورد تأكيد على الاستمرار ومواصلة القرآن.

الكتاب السماوي الوحيد الذي نجا من التحريف

يغبط أتباع الأنبياء الذين كانوا في زمانهم أهل عمل وصلاح حقاً، وكانوا أمماً عظيمة، يغبطون أهل القرآن، وكذلك الآن. فالنصارى والمجوس واليهود وأهل العلم والتحقيق يغبطون المسلمين، لافتقارهم هم لكتاب موحى به من قبل الله.

فالتوراة والإنجيل اللذين بين أيدينا هما من وضع البشر، ولا فرق بينها وبين كتب التاريخ الأخرى. فالأنجيل الأربعة ليست هي الإنجيل الذي أوحى به الله، بل هي كلمات لوقا ويوحنا وبولس ومرقس، وقد كتبت بعضها بعد مرور مائتي عام على وفاة النبي عيسى ﷺ وهذا ما يقرّون به أنفسهم. وأما المجوس فلا أثر لديهم عن نبيهم الذي يقولون إنه كان له وجود في يوم من الأيام.

فكلام الله في يومنا الحاضر محدود بحدود القرآن الكريم الذي لم تُصَفِّ إليه كلمة واحدة من كلمات البشر، لأنَّ الله حفظه من كلِّ تحريف كما وعد: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فالقرآن الآن موضع غبطة من قبل جميع عقلاء الأمم، وأيَّةُ عزةٍ تنال المسلمين لو عرفوا قدر قرآنهم؟

يقال إنَّ رئيس وزراء إنكلترا رفع القرآن في مجلس العوام قبل فترة وقال: (ما دام هذا القرآن بين أيدي المسلمين فلا يمكن التسلُّط عليهم).

وقد صدق فيما قال، فأهل القرآن لا يخضعون للاستعمار والاستثمار، لكنهم إذا تركوا القرآن وراء ظهورهم؛ وقعوا في أسر كلِّ شيطان وكافر. ولهذا نراهم قد صاروا كالأخرين لأنهم ابتعدوا عن القرآن.

منزلة الرضا في الدنيا وجنة الرضوان في الآخرة

«قائد إلى الرضوان أتباعه» إنَّ أتباع القرآن، هذا الكتاب الإلهي يصل بكم إلى منزلة الرضوان، وكذلك إلى جنات الرضوان في الآخرة وهي أعلى مراتب ودرجات الجنة، فلجنة درجات ومراتب منها: جنات الفردوس، وجنات عدن، وجنات الرضوان. وهذه الأخيرة مقتصرة على أهل القرآن، يستطيعون بلوغها ببركة القرآن الكريم، وهي أعلى المراتب المعنوية.

إنَّ أسمى المراتب التي يستطيع الإنسان بلوغها في الدنيا هي منزلة الرضا، ومنزلة جنة الرضوان في الآخرة، فببركة هذا القرآن يستطيع من يصبح من أهله أن يصل إلى مقام التسليم، فيفهم التوحيد، ويفهم حكم الله من القرآن، وإنَّ كلَّ الأمور الجزئية والكلية تحت أمره وتدبيره جلَّ جلاله، ويعرف الله بالرفقة والرحمة من خلال القرآن، فيرضى بكلِّ ما يقسمه له الله.

ويكون عندها المرض والعافية والموت جميعها أشياءً حسنة في نظره، وهذا هو مقام الرضا الذي يجعل صاحبه راضياً بكلِّ ما يأتيه أو يأتي مجتمعه، متى يصل المرء إلى هذا المقام؟ عندما تنطبق نظرياته مع القرآن: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وبهجة بما قضى الله رضى
أعظم باب الله في الرضا وعى
وذو الرضا بما قضى ما اعترضنا
وخازن الجنة رضوانا دعى^(١)

من أين للمرء أن يصل إلى مقام الرضا؟ من القرآن «قائد إلى الرضوان
اتباعه» فهو الذي يسلك باتباعه طريق الرضا في الدنيا، وطريق جنة الرضوان
في الآخرة.

النجاة في استماع القرآن

«ومؤدّ إلى النجاة استماعه» من أراد النجاة من الهلاك والشقاء والنكبات
الدنيوية والأخروية فعليه باستماع القرآن.

إنّ الكلام الذي يطرق سمع الإنسان قد يدخله بغير اختيار الإنسان، كأنّ
يكون المرء جالساً في بيته فيسمع صوتاً، أو يكون في حالة كتابة شيء ما أو
عمل ما فيطرق سمعه صوت من الأصوات، وهذا ما يسمى بالسماع، ولكن قد
يحدث أن يصغي الإنسان لكلام ما، فيسمع باختياره وهذا ما يسمى بالاستماع.

والاستماع بدوره على نوعين، فقد يستمع إلى الآية ليتعرّف على
مضمونها، وهناك الاستماع الذي يؤدي إلى النجاة، وهو الاستماع لأمر الله
من أجل الامتثال، أي أنني أستمعُ أوامر الله لأعمل بها.

إنّ استماع القرآن أمرٌ مستحبٌّ، والاستماع المؤدّي إلى النجاة هو
الاستماع المراد للعمل، فإذا كان موعظة ظهرت آثارها على الشخص، وإن
كان حُكماً تعلّمه وأتمرّ به. وكذلك قراءة القرآن فالقراءة مطلوبة لأجل الفهم
والتأثر بآياته، ولتكن القراءة بحزنٍ لعلّها تؤثر في القارئ أو المستمع، فقراءة
القرآن أمرٌ إيجابي شرط أن لا تطلب لذاتها، بل اقرأ آية واحدة من أجل أن
تترك أثرها عليك.

(١) منظومة السبزواري.

نموذج لمواظب القرآن

﴿قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلْفِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَلِيِّ وَالسَّهْدَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨].

ليس الغرض من هذه الآية أن يقرؤوها على قبرك، بل أن تقرأها أنت وتنقشها على قلبك.

فكما تخاف أن يأتيك الموت، خف ممّا بعد الموت. وكما تكون مستعداً لأن تبيع فراشك من أجل دفع الموت، تعال وأعطِ الناس حقوقهم العالقة برقبتك أو استوهبهم حقوقهم.

ومن هنا كانت قراءة القرآن مستحبة بصوت حزين لجلب التأثير والتأثر. أرايتم الثكلى كيف تتنّ بحزنٍ حيث لا تكلف ولا تصنع في عويلها أبداً.

الإمام السجاد عليه السلام يقرأ القرآن

اقرأ آيات القرآن بحزن وبكاء لتسهيل ما يعترضك من الشدائد، الإمام زين العابدين عليه السلام كان يقرأ آية: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤] بحزن ويكررها حتى كاد أن يغشى عليه. وكان عليه السلام إذا قرأ القرآن يجتمع حول داره السقاؤون ليستمعوا ويتأثروا بقراءته.

وهذا بسبب ما يبعثه كلام الله من الرهبة في النفوس، مما يجعل الجبل متصدعاً مرتجفاً، فهلاً ترك القرآن فيك بعض التأثير، اقرأ صفحة من القرآن بقلب محزون لتعمّ فائدته نفسك ومن يستمع إليك بقصد الاستفادة من معارف القرآن فيتذكر الأحكام الإلهية، وهنالك مائة وخمسون آية قرآنية في الأحكام الشرعية.

نموذج لتأثير القرآن على القلب الطاهر

لو قرأ القرآن من كان له قلب سليم بصوت حزين لأثر حتى على قساة القلوب. وقد جاء في (تفسير النيسابوري) على ما أتذكر أنّ أحدهم أرسل ابنه

إلى الكتاب، وحينما عاد الولد إلى البيت ظهراً كان على حال سيئة كالذي أصابه مرض، فسأله والده عمّا حصل، فقال إنّ الشيخ قرأ اليوم هذه الآية في الكتاب: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا﴾ [المزمل: ١٧].

رحمة الله على ذلك الشيخ، وأيّ روح كانت لذلك الغلام بحيث تترك الآيات في نفسه ذلك التأثير، ويقال إنّ هذا الغلام مات بعد ذلك، فجاء والده على قبره وأخذ يبكي ويقول: (هينئاً لك السعادة يا بُني، فقد مُتَّ بريئاً، الويل لأبيك المذنب، فهو الذي يجب أن يتأثر ويحزن) رغم أنه كان والداً صالحاً.

لكن زماننا هو الزمان النحس الذي شاع فيه الأكل الحرام، وصارت الذنوب علنية، فلم تترك الشكوك والوساوس لنا قلباً.

السيدة الزهراء عليها السلام تطلب من أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يقرأ القرآن

كان من وصايا السيدة الزهراء عليها السلام أنها طلبت من أمير المؤمنين علي عليه السلام أن يقرأ لها القرآن.

ما أجمل صوتك حين تقرأ القرآن، بل إنّ مجرد النظر إلى وجهك هو استماع لكلام الله.

فقرأ لها الإمام سورة يس، وكانت السيدة الزهراء عليها السلام على وشك الرحيل، فسألها الإمام عليه السلام عن حالها فقالت: «أجد الموت الذي لا بدّ منه» إنه ملك الموت بالأوصاف التي ذكرها والدي، أراه قد جاء لقبض روحي، ها هو والدي حمزة وجعفر قد جاؤوا لاستقبالي.

« ١٧ »

«وعزائمه المفسّرة، ومحارمه المحذّرة، وبيّناته
الجالية، وبراهينه الكافية، وفضائله المندوبة،
ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة»

كانت حصيلة أقوال السيدة الزهراء عليها السلام حول القرآن وعظمته ووجوب
معرفة المسلمين بقدره وشأنه هي أنّ الله منّ على البشر ببركة النبي الأكرم صلى الله عليه وآله
فبعث إليهم هذا القرآن الذي فيه براهين تفتّح القلوب وتنيرها بنور المعرفة
والعلم والإيمان، وقد ذكرنا بعض الآيات الخاصة بمفاهيم التوحيد وأسماء الله
الحسنى.

الواجبات ذكرت في القرآن

«وعزائمه المفسّرة» ومن الأمور التي تعرف ببركة القرآن هي الواجبات
الإلهية التي تنبع من كل واحدة منها خيرات وبركات عديدة للبشر، وفي تركها
مختلف أنواع الحرمان.

والواجبات المذكورة في القرآن إما بشكل مباشر أو تحت عنوان شامل يقبل
التطبيق على مصاديق متعدّدة، فهناك كتاب الطهارة والوضوء والغسل والتيمم
للصلوات الواجبة ومواقيت الصلوات، وكذلك كتاب الديات وغيرها مما ذكر
تفاصيلها الرسول وأوصياؤه عليهم السلام.

فقد ذُكر في القرآن الكريم أمور مجملة عن الواجبات كالصوم في شهر رمضان المبارك وكيفيته، أو الحج وكيفيته، وما يخص منى وعرفات والمشاعر. ومن الأحكام الإلهية، الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التي إن قام بها المسلمون، كان لهم فيها خير الدنيا والآخرة، وإن تقاعسوا عنها كان في ذلك شرّ الدنيا والآخرة.

وقد ذكر الأئمة الأطهار عليهم السلام تفاصيل هذه الواجبات، فشرحوا مصاديق العناوين الكلية في القرآن كآية: ﴿فَأَجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] وتفسير قول الزور هو الكذب وكتمان الشهادة والغناء. أو حين يقول الله في القرآن: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨] يستخرج الفقهاء أحكاماً متعدّدة من هذا التشريع الكلي.

المسح على الجبيرة كما يُستنبط من القرآن

يروى أنّ رجلاً جرح ظاهر قدمه، وأراد الصلاة، فاحتار كيف يتوضأ وقد شدّ قدمه بالجبيرة، إن حلّها تضاعف جرحه ألماً وخطورة، فذهب إلى الإمام الصادق عليه السلام وسأله عن تكليفه. فقال له الإمام عليه السلام: «إن هذا وأشباهه يعرف من كتاب الله، قال الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ امسح على الجبيرة».

الشاهد هنا هو قوانين الله العامة، فقد ذكرت الواجبات في القرآن الكريم إما باسمها الخاص أو ضمن عنوان عام، ويستخرج منها الفقهاء الأحكام الواجبة ببركة أهل البيت عليهم السلام «وعزائمه المفسّرة» أي شرحت واجبات الله في القرآن.

المحرّمات المذكورة في القرآن أيضاً

«ومحارمه المحذّرة» حيث ذكرت في القرآن الكريم محرّمات الله، والأمر التي نهى الله عنها وحذّر منها وخوف، لأنّ في ارتكابها أضراراً دنيوية

وأخروية. فعلينا أن نعرف المحرّمات لنتركها ونحاذر السقوط في أضرارها، لأنّ في كلّ ما حرّم الله مفسدة، إما دنيوية أو أخروية أو كلاهما. ولله عزّ وجلّ توضيحات حول كل محرّم من المحرّمات.

فهو عزّ وجلّ قد حرّم الخمر والميسر والقمار، وعلّل ذلك بظهور العداوات والغفلة عن الصلاة وذكر الله، أو حرّم لحم الخنزير لأنّ فيه ضرراً على الأجسام والأرواح، ومن جملة أضراره المعنوية فقدان الغيرة بالإضافة إلى الأمراض الخاصة بلحوم الخنازير.

وكذلك المحرّمات في مجال النكاح، فالزنى حرام لأنه يفسد النسل، ومن أجل عدم وقوع مثل هذه المفاسد أمر الله أن تُغضّ الأبصار عن الأجانب والأجنبيات ابتداءً.

وعلى النساء أيضاً أن يغضضن أبصارهنّ ولا ينظرن بريبة إلى الرجال باستثناء أزواجهنّ لأنّ في ذلك مفاسد ومخاطر كبيرة.

لست أدري ماذا يحصل للأموات ذوي النظرات المحرمة حين تُقرأ هذه الآيات على قبورهم؟ يُقال لهم: ألم تسمعوا هذه الآيات؟ اقرأ القرآن ما دمت حياً، واعمل به فإنه خطاب للأحياء لا للأموات. إنه خطاب للأحياء أن لا يتزينوا لغير أزواجهم.

كل آية تُقرأ على قبره، تزيد من عذابه

يُذكر في كتاب (حياة الحيوان): أنه عندما مات (أحمد بن طولون) استأجروا له من يقرأ القرآن على قبره باستمرار، ثم انتشر خبرٌ يفيد أن هذا القارئ قد هرب، فأخذوا يبحثون عنه، إلى أن عثروا عليه وسألوه عن سبب فراره، واقترحوا عليه زيادة أجره إن كان قليلاً، فأجابهم أنه غير مستعد للعودة حتى لو ضاعفوا له أجره مائة ضعف، فتعجبوا وسألوه عن السبب، فرفض أن يقول، وحين أجبروه قال: رأيت صاحب القبر في الرؤيا وقد أمسك بي وقال:

لماذا لا تركني وحالي، كل آية تقرؤها تزيد من عذابي، ويُقال لي: أما سمعت هذه الآية في الدنيا، فلماذا لم تعمل بها إذاً؟!

ما هو تأثير آية الحجاب على النساء السافرات يا ترى؟ وماذا تفعل آيات غصّ البصر حين تقرأ على قبور جريئي البصر؟

القرآن رحمة لأهل القبور

ونحن لا نوصي بعدم قراءة القرآن على القبور، فلو كان الميت من أهل الصلاح والقارىء يقصد القربة إلى الله تعالى بقراءته، ففي ذلك الأجر الجزيل، وقد جاء في الروايات التوصية بقراءة سورة القدر سبع مرات وقراءة آية الكرسي فإن الله يخلق ملائكة بعدد أحرفها، في هذا ثواب لأهل القبور ورحمة.

هنالك روايات مطلقة ومشروطة، ولا أحد يعلم المواضع التي تنطبق عليها، أي من يكون الميت ومن يكون القارىء؟

والجدير بالذكر هو أنّ القرآن ذاته أمر بقراءة القرآن حسب ما تيسر، ولم يجعل للقراءة حدّاً معيناً.

نموذج لأحكام الإسلام الاجتماعية

أقرأ لكم آية أو آيتين حول ما يتعلّق بالمعاشرة، يقول الله في سورة الحجرات: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِاللِّقَابِ بِنِسِ الْأَسْمِ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات: ١١].

وفي القذف هنالك الحكم القائل بجلد القاذف ثمانين جلدة، وقد نزلت ست عشرة آية من أول سورة النور حول القذف والقاذف: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْرٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾

[الحجرات: ١٢] لماذا تتجسس؟ ما لك وللمسلمين؟ تجسس على نفسك واحيلُ أفعال الآخرين على الصحة، لثلا تعيب الآخرين وتغتابهم.

أردت ذكر نماذج للمحرمات الإلهية على سبيل المثال لا على سبيل الحصر.

تعاونوا على البرِّ والتقوى

وفي آية قصيرة يذكر الله واجباً ومحرمًا لو التزمهما المسلمون لأفلحوا في الدنيا وفازوا في الآخرة: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢] فمن الواجب أن تُعين كل برِّ وصالح، وإعانة العمل الواجب واجب بلا شك، كأن ترى جنازة عليها شخص واحد لا يستطيع حملها وحده، عندها تجب مساعدته على ثلاثة أشخاص آخرين. أو شدة وقع فيها إنسان لا يستطيع لوحده الخروج منها.

فمثلاً لو احترق مكان معين؛ وجبت عليك مساعدة صاحب الحريق، أو إسداء النصيحة والموعظة لرجل من أهل الجهل والمعصية، ساعده بما استطعت وحثه على الخير وعلى أداء فريضة الحج مثلاً. والتعاون على العمل المستحبِّ مستحبٌّ كذلك.

ولا تعاونوا على الإثم والعدوان

ويجب من ناحية أخرى أن لا تعين على الظلم وارتكاب المحارم، فلا تساعد من تراه عاكفاً على حرام كأن تمتنع عن إعطاء المال لمن يريد الذهاب إلى السينما، أو ترى ظالماً يضرب مظلوماً فلا تشترك معه واحسب أن هذا المظلوم طفلك أو صديقك، فلا تساعد الظلم بأن تمسك المظلوم ليضربه الظالم: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة: ٢].

إنَّ كلَّ المفاسد العامة تدور حول هذا المحور، عندما توفي الرسول ﷺ كان (عمر) رجلاً واحداً كما يروي أهل السنة، فقال يجب أن يحرق هذا،

فذهب من كان هناك وجاؤوا بالحطب، لو كان وحده لما استطاع أن يحرق البيت، أخذوا علياً عليه السلام بالقوة من بيته، فخرجت السيدة الزهراء عليها السلام بضلعها المكسور لتحول دون هذا الظلم، وأبى حول وقوة لامرأة سقط جنينها توأ وكسر ضلعها، لكنها أمسكت بحزام علي عليه السلام لئلا تمنع من أخذه.

وحين رأوا أن السيدة الزهراء عليها السلام لا تتراجع عما تقوم به، صاحوا على (قنفذ) أن اضرب الزهراء. فأعان هذا الشقي الظالمين، وضرب السيدة الزهراء عليها السلام بالسوط إلى أن تورّم عضدها.

«به تنال حجج الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة».

وصلنا في شرح أقوال السيدة الزهراء عليها السلام إلى قولها: «وعزائمه المفسرة» فقد شرحت واجبات الله في القرآن «ومحارمه المحذرة» وكذلك المحرمات الإلهية وما يجب أن ينتهي عنه الناس. فقد أخبر القرآن بالأضرار الدنيوية والأخروية التي تهدد البشر، ونهى عنها إما بأسمائها وإما بشكل عام يشمل كلّ المحرمات كما ذكرنا، ثم تقول عليها السلام: «وبيناته وبراهينه الكافية».

والجالية من الجلاء بمعنى الوضوح، فقد وضح الله براهين القرآن إلى الدرجة التي جعلتها كافية شافية، يقول بعض الشراح إنّ البراهين تعود على العزائم، والبيّنات تعود على المحرمات، ومن المحتمل أن البراهين تعود على كليهما.

وخلاصة القول أنّ الله تعالى دعم الواجبات ببراهين وحكم واضحة لبيان ضرورتها، وقد شرحت السيدة الزهراء عليها السلام بنفسها بعضاً منها: «فجعل الله الإيمان تطهيراً». كذلك محارمه المحذرة، فقد جاء الله بالبيّنات والبراهين لما حرّمه بحيث تشهد كل فطرة سليمة بحرمته.

فالخمر التي حرّمها الله، يؤمن كلّ عاقلٍ بسلبية شربها، فهذا واضح، كما

أشار القرآن في خصوص بعض المحرمات كالخمر والقمار اللذين جرى ذكرهما.

الموسيقى المثيرة للشهوات

والموسيقى من زور القول أيضاً، وكلّ عاقل يعلم أنّ الموسيقى مثيرة للشهوات، محطمة للأعصاب، مشوّشة للذهن والتفكير. والنتيجة هي الاعتداء على أعراض الناس، فهذا العمل نتيجة تلك الموسيقى التي سمعها لساعة كاملة.

نشرت مجلة (رسالة الإسلام) إعلاناً عند إحدى المجلات الأجنبية وذكرت في هذا المضمار اسم دكتور متخصص مشهور فقالت: إنّ التلفزيون اليوم جهاز إفساد لا يضاويه عامل أو سبب آخر في إفساده.

التلفزيون الذي بالغ علماء الإسلام في التذكير بمضاره، وقد ذكر ذلك التقرير مضارّ التلفزيون وإثارته وتهيجاته فقال إنه أتعس من الموسيقى، وإنّ ما يجلبه من فسادٍ على الناس أكثر مما تسببه دور السينما.

وبعد ذلك يشرح كيفية التأثير والتهيج التي تؤدي إليها اللقطات الخليعة، ويذكر سبب كون التلفزيون أكثر العوامل إفساداً للمجتمع، ويقول أخيراً: يا ليت الأمم الإسلامية تأتي لتخلّص البشرية من هذا الجهاز المفسد.

يذهب الواحد منّا ويشترى هذا الجهاز بالأقساط، ثم يعتذر بأنه يخشى من ذهاب ابنه إلى السينما، وعليه يجب أن آتي بالسينما إلى المنزل!! يجب أن نعقل ونفهم أنّ علماء الإسلام حين يبلّغون حكم الله ورسوله ويحرّمون المحرّمات لا يريدون بذلك يمنعوك من المتعة، بل إنّ ما تتوهّمه ساعة من المتعة يجزّ وراهه مئات الساعات من الألم والشدة.

الفيلم الجنائي، وقتل الزوج في النوم

نقل لي أحد الأصدقاء قبل فترة أنّ عائلة من أقاربهم كانوا يشاهدون مساءً

فيلمًا جنائياً في التلفزيون، وبعد أن ركنوا إلى النوم، قامت الزوجة وهي نائمة من بعد منتصف الليل، وأخذت سكيناً طعنت به زوجها فقتلته. وفي نهار اليوم التالي وصلت القضية إلى الشرطة والمحكمة، وأخذ الطب العدلي يجري تحرياته وتحقيقاته، فقرر أنّ السبب الأول والأخير للحادثة هو الفيلم الجنائي الذي شاهدته العائلة ليلة الحادثة. فقد كان تأثير الفيلم على المرأة أن تنهض ليلاً وهي نائمة وترتكب تلك الجريمة البشعة.

تعلموا مستحبات القرآن واعملوا بها

العبارة الأخرى من خطبة السيدة الزهراء عليها السلام «وفضائله المندوبة» لم يترك القرآن ذكر الأعمال التي لو أداها الإنسان لوصلت به إلى الرتب والدرجات والجزاء الرفيع، مع أنه لا عقاب في تركها. ولكن اعملوا أنكم لو أتيتم هذه الفضائل المستحبة لأدرتكم سعادة عظيمة.

ولكن وللأسف الشديد نحن بعيدون عن فرائض القرآن وواجباته فكيف بالفضائل والمستحبات؟ إننا لا نؤدّي الأوامر الوجوبية، فما ظنك بالأوامر المستحبة؟ فمن من المسلمين يقوم بالمستحبات؟ يتذرعون بأنها مستحبة على كلّ حال وليست واجبة.

لو قيل لك: اقرأ هذا الذكر فإنّ جزاءه قصر وحوار عين؛ سوف تقرأ لأنه ينسجم ونوازعك النفسية. لكنك جاهلٌ تماماً بالفضائل المندوبة في القرآن.

في العفو لذة ليست في الانتقام

نذكر مثلاً أو مثالين على المستحبات في القرآن الكريم، فمن المستحبات الواردة في القرآن الكريم بصيغ مختلفة في عدة مواضع قوله تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [النور: ٢٢] فارحم الآخرين كما تطلب من الله أن لا يكون شديداً معك في الحساب. إنك لا تعفو عن أحد، فكيف تريد من الله أن يتجاوز عن سيئاتك؟!

لا تضغط على المدين الفقير

يروى في كتاب (معاني الأخبار) أنّ أحد شيعة الإمام الصادق عليه السلام اقترض مالا للتجارة به، لكنّ تجارته خسرت، فضع رأس المال منه، ولم تذكر الرواية سبب الخسارة، بل اكتفت بالقول أنه خسر كل ما لديه، وبدأ الدائن بالمطالبة بماله ولم يكن في وسع المدين إلا الاعتذار، فأخبره بخسارته وبوار تجارته وذهاب ماله، ولكن الدائن لم يكن ليفهم هذا الكلام أو يقبل به، فأصرّ على مطالبته ولم يمهل المدين.

عند ذلك توّسل الرجل بالإمام الصادق عليه السلام وطلب منه الشفاعة لدى الدائن الذي يدّعي أنه شيعي مؤمن ومن أنصار الإمام الصادق عليه السلام علّه يمهل الرجل مدة أخرى أو يتجاوز عن دينه.

فأرسل الإمام الصادق عليه السلام خلف الدائن، وطلب إليه أن يتجاوز عن دينه، فرفض الرجل واعتذر بأن لكلامه منزلة ومقام لا يمكن تجاهلها، ولكنه لا يطالب بغير حقه.

فقرأ الإمام عليه السلام له الآية الكريمة: ﴿وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١] وليس معنى الآية التساهل في الحساب أو عدمه؛ بل معناها الدقّة والشدّة في الحساب، إنك حين تطالب بحقك حتى الفلّس الأخير، ألا تخاف من شدّة الحساب يوم القيامة؟ ألا تخاف أن يُحضروا ساعات عمرك كلها أمامك ويحصوا عليك كلمات لسانك ولحظات عينك ويدققوا في حسابك كلّ تدقيق.

أيها المؤمن يا من تخشى من سوء الحساب غداً، لماذا تكون شديداً مع هذا الشخص الفقير وتحاسبه بكل هذه الدقّة؟

وذكر له الإمام عليه السلام عبارة أخرى ستأتي في حينها، وربما توهمت أن تأخذ من حسناته إذا لم تعفو عنه.

فيمنحوك عبادة الرجل الذي صام شهر رمضان الحارّ وقام ليله بالذكر. ولكن هذا خطأ محض، فما ذنب هذا المدين المسكين ليفعلوا به هكذا؟

إنك لو تجاوزت عنه لجزاك الله ثواباً جزيلاً، ولا يمحوك حسناته إلا إذا كان المدين مقصراً في تسديد دينه، وإن لم يكن ذا تقصير فإن الله أرحم من أن يمنحك عباداته وحسناته. نعم ربما جزاك الله من فضله وأزجل لك الثواب لتجاوز عن دينك، كما ورد في الرواية.

غير أنك إن عفوت في الدنيا كان ثواب ذلك أكثر، ولهذا عفا ذلك الشخص عن مدينه وتجاوز عن دينه؛ فبشّره الإمام بالعمو الإلهي.

نسّمى أنفسنا (أهل القرآن) ولا نعمل بأية من آياته. قد يحدث أن عدم التجاوز عن قضية صغيرة يؤدي إلى مضاعفات كثيرة، ويسبب مشاكل واختلافات جمّة وأحقاد وعداوات لا تنتهي.

واجه الإساءة بالإحسان

والآية الأخرى تفيد أمراً أكثر وأكبر من العفو عن الإساءة: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت: ٣٤] أيها المسلم اصنع الخير لمن يصنع الشرّ لك، فهذا أمر الله المستحبّ، هل حدث يوماً أن تقابل من يشتمك بإسداء النصيحة له، أن تحسن له، أو أن تردّ القطيعة بالوصال. قاطعك أخوك، فصله أنت. حرّمك هو فأعطه أنت. لم يأت هو فاذهب إليه أنت.

حدث لعمر بن الخطاب أن واجه مشكلة في حربه مع الفرس أو الروم فطلب المشورة من الإمام علي عليه السلام فأشار عليه الإمام عليه السلام أن لا يسير بنفسه، بل يبعث جيشه فقط، فقابل الإساءة بالصدق وحسن المشورة، هذا هو أسلوب الأئمة عليهم السلام. ومنع جيش الحرّ الرياحي مسير قافلة الإمام الحسين عليه السلام كما تعلمون، فقابلهم الإمام عليه السلام بالإحسان، وذلك أنه حين رآهم عطاشى هم وخيلهم وليس معهم ماء؛ أمر أن تُحضّر القرب ليرتووا بالماء (يا مبتدئاً بالنعم).

يقول (علي بن الطعان) إنني كنت آخر من وصل من جيش الحرّ، أتيت

الإمام الحسين عليه السلام فأشار عليّ بقربة الماء، وحين أردت الشرب لم أتمكن من الإمساك بفوهة القربة جيداً، ولم يكن هنالك من يساعدني، فجاءني الإمام الحسين عليه السلام بنفسه وأخذ القربة ليرويني، فشربت حتى ارتويت. ﴿أَدْفَعْ بِأَيْدِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [فصلت: ٣٤].

«فضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة» وصل بنا الكلام في شرح عبارة: «فضائله المندوبة» إلى القول بأن هنالك فضائل أمر الله بها في كتابه العزيز، وهي مكارم الأخلاق: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» أمر القرآن الكريم بكل الصفات الآدمية والكمالات الإنسانية ليسلك المسلمون طريق الفضائل ويصلوا إلى الدرجات الخاصة بالإنسان الكامل.

إنها التعاليم التي لو اتبعتها الإنسان وطبق عليها كل أمور حياته؛ لكان غنياً عن كل شيء، ولصار إنساناً مؤمناً كاملاً.

ذكرنا بعض الآيات سابقاً، وسنذكر بعضها أيضاً فيما يخص الفضائل والمستحبات، لكي لا ننسى هذه التعاليم، ونطبق حياتنا وفقها.

سارعوا إلى الخيرات

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَبِيرِ وَالضَّعِيفِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣ - ١٣٤].

سارعوا ولا تتساهلوا، أسرعوا إلى سبيل الرحمة والمغفرة الإلهية.

قال المفسرون في مصاديق هذه الآية إن من مصاديقها: الصلاة في أول الوقت. اترك الفراش وانهض إذا سمعت الأذان، ولا تقل أول الظهر ليس لدي الوقت الكافي، فتأخر صلاتك إلى ما قبل المغرب مع أن ذلك جائز، ولكن يجب أن لا تأخر صلاتك دائماً إلى ذلك الوقت.

وقد جاء في الرواية أن رجلاً سأل أحد الأئمة عليه السلام عن الذنب الصغير ما

هو؟ فأوضح الإمام عليه السلام بأنه الذي يصلي الظهر عند اصفرار الشمس وليس تأخيرها إلى وقت الغروب، لأنها في هذه الحالة ستكون قضاء لا أداء، فلا تنقضي عليك ساعات النهار دون أن تعبر أوامر الله أي أهمية وترجح عليها أصغر الأعمال.

أليست الصلاة بعمل؟ وهل تراها شرعت لوقت الفراغ؟ لا تتعاملوا مع الصلاة بهذا الشكل، بل سارعوا، فإنها تكليف من التكليف الإلهية، سارعوا لما فيه الرحمة والمغفرة والجنة والسعادة، لا ترجئوا الحج والخمس.

وفي مكان آخر يقول الله تعالى: ﴿فَأَسْتَفِئُوا أَنْحَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٤٨] لا تتسامحوا في الخيرات. ورد في (دعاء كميل) في باب التوبخ: «ومطالي» أي إنني أتسامح وأماطل في أمور الآخرة، ولكنني في أمور الدنيا ذكي وأحاول أن لا يفوتني منها شيء، في حين أمرٌ بالمنافع الأخروية مرور الكرام.

الجنة لا تتفق والكسل

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [الحديد: ٢١] لا يمكنك الوصول إلى مثل هذه الجنة بالتساهل والاستخفاف، لأنها مقام عظيم وهي مضيف إله العالمين، فإذا لم يسارع المرء ويسعى، فكيف سيصل إلى الجنة؟

كم تقتضي حديقة وقصرٌ دينويٌّ من السعي والمجهود؟! أفيمكن لقصور الجنة الخالدات، والتي لا يفارقها صاحبها أبداً أن تكتسب بالكسل والاسترخاء.

طلبنا الدنيا فلم ندرك السعادة. فكيف يا إلهي بالجنة التي لم نطلبها؟

﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣] في الآية السابقة هنالك عدة مسائل تؤدي كلها إلى هذا الموضوع أي «فضائل المندوبة».

﴿الَّذِينَ يُبْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] طوبى لمن اعتادوا

على الإنفاق في الرخاء واليسر أو حين الضيق والعوز، وكل ما في الأمر أن إنفاقهم يكون واسعاً في حال السعة، وقليلًا في حال الضيق.

لا تقل إنَّ على الأثرياء أصحاب الملايين أن ينفقوا؛ بل الإنفاق واجب على الجميع حسب الاستطاعة، فمن تدخله مائة تومان يومياً ينفق ما يستطيعه، ومن تدخله عشرة تومانات ينفق بحسب استطاعته كذلك.

إنَّ الله يحبَّ الإنفاق في حال العسر: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] ولأنقل لكم قصة من أجل الاعتبار:

كان لي قبل أربعين عاماً صديق من أهل العلم، يقول إنني كنت أدرس على يد الشيخ مرتضى الدزفولي، فجاء خادمه يوماً وقال: ليس لدينا اليوم شيء للغداء. ففكر الشيخ قليلاً، ثم قال للخادم: خذ هذا الغليون وبع ماصته الفضية وتعال.

فأخذنا الوجوم، وانتظرنا ما يحدث، ثم إنَّ الشيخ وضع فحماً على رأس الغليون الخالي من الماصّة وأخذ يدخن.

بعدها عاد الخادم وقال: لقد بعته بثمانية آلاف. فقال الشيخ: خذ هذا المال ووزعه بين طلبة العلوم.

يقول الراوي: خاطبت الشيخ، أن يا شيخ هلاً أبقيت شيئاً لطعام غدائك. فقرأ الشيخ هذه الآية: ﴿وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق: ٧] لكي يجعل الله له فرجاً، وقد رأيت أن نستغني عن الماصّة لأنه بالإمكان الاستفادة من شيء آخر محلها.

وفي نهاية الدرس جاءه شخص ودفع إليه مبلغاً بعنوان حقوق شرعية، فالتفت إليّ وقال: رأيت كيف فرّج الله علينا قبل أن يحلّ الظهر؟

إنَّ كلمة: ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ مهمة إلى الحدّ الذي تكرّرت في القرآن الكريم عدة مرات. وفي الآية ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾

[الحشر: ٩] فبالإضافة إلى السعادة والمقام الآخروي، يجعل الله للمنفق فرجاً في الدنيا.

ذراع الكبش تهدي من يد ليد

كيف كان الإيثار في صدر الإسلام، يروى في (تفسير المجمع) وغيره أن أحد جيران النبي ﷺ ذبح كبشاً وأهدى ذراعه إلى النبي ﷺ إذ كان يحب ذراع الكبش.

فأهداها النبي ﷺ بدوره لأحد الجيران، وبقيت هذه الذراع تنتقل من بيت لآخر سبع مرات، مع أن آياً منهم لم يكن يمتلك لحماً، وأعادها السابع إلى النبي ﷺ.

أما المسلمون اليوم فهم يجهلون أساساً وجود هذه المفاهيم في القرآن، وحتى الذين يعلمون لا يعملون بها، بل يكتفون بقراءة القرآن، إن القرآن من أجل أن تعمل به فالعمل هو الذي يدخلك الجنة.

وبالطبع فإنّ قراءته حسنة شرط أن لا يلعنه القرآن: «ربّ تالٍ للقرآن والقرآن يلعنه» وإن لم يعمل المرء بما يقرأ فهذا أتعس، وفقنا الله للعمل والإنفاق في السراء والضراء.

يكظم غيظه ويعفو

﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] أتريد أن تكون من أهل الفضيلة: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧] امسك أعصابك في حال الغضب (أين الرجال حين الحرص والولع والشهوات) أين الذين لا يغضبون في الشدائد وحين إساءة الآخرين!؟

قبل أن يمرّ بالإنسان يوم لا يحدث له فيه ما يغضبه، فإن أمسك نفسه فإنه ممدوح ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٤] اعفُ عمّن أساء إليك مع أنه لا عيب في طلب القصاص، ولكن الأفضل أن تعفو.

﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] وأحسن بالإضافة إلى العفو وكظم الغيظ، فاصنع الخير وانظر كيف ستتقرب من آل محمد ﷺ أي تتقرب من أفعالهم وصفاتهم، ولا يمكن لمن كان يزيدي السلوك والأخلاق أن يكون مقرباً من الحسين ﷺ.

إنّ الوضع في العالم العلوي غير الوضع في عالم المادة، فهنا يجلس صاحب الجنة مع صاحب النار بجوار بعضهم، ولكنهما مفترقان في العالم الآخر.

المذنب منفصلٌ عن المحسن، ومن أراد أن يحشر مع الإمام الحسين ﷺ يجب أن لا يسلك سلوك معاوية ويزيد، فهذا غير ممكن.

تشجُّ رأس الإمام ﷺ فيعتقها!!

أروي لكم رواية مختصرة فيما يخصّ هذه الآية، عندما أمر الإمام زين العابدين ﷺ جارية له أن تأتيه بالماء ليتوضأ، أمسكت الجارية بإبريق الماء فوق رأس الإمام ﷺ فأصاب رأسه بغير اختيارها، فشجَّ رأس الإمام ﷺ ونزل الدم على وجهه، فرجع الإمام ﷺ رأسه.

فتملّك الجارية خوفاً وقرأت هذه الآية: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ﴾ فقال الإمام ﷺ: «لقد كظمت غيظي» فقالت: ﴿وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ﴾ فقال الإمام ﷺ: «عفا الله عنك» فقالت: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال ﷺ: «أنت حرّة لوجه الله».

فهل هناك مثل كظم الغيظ هذا، ناهيك عن العفو والإحسان، بين الشيعة الذين يدعون اتباع آل محمد ﷺ؟ أو هل هناك مواجهة بالمثل على أقل تقدير؟ كلا، بل نرى أنّ أساليبهم هي أساليب أعداء أهل البيت.

تساهلوا في الزواج

يقول بعض الشباب، ماذا يفعل من يريد أن يحفظ دينه من الشباب حين

يكون الزواج صعباً إلى هذا الحد؟ وهكذا تقول الفتيات. فشرط الطرفين والمهور العالية والمصاريف الثانوية تحول جميعها دون ضمان مستقبل الشبان والشابات في هذا الزمان. فهل هنالك من حلٍّ لهذه المشكلة.

أقول في هذا المجال: إنّ هناك آيتين في القرآن الكريم تنضويان تحت عنوان فضائله المندوبة، الأولى تخصّ الوالدين، والثانية تخصّ العزّاب أنفسهم.

الآية الأولى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى﴾ [النور: ٣٢] والأيامى جمع أيم أي الأعزب سواء كان فتى أو فتاة. زوّجا الفتيات العازبات: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٢] لا تقولوا إنه فقير ومعاشه قليل، وتضعوا العشرات في الطريق، أتراكم تريدون البيع والشراء؟ يكفي أن يكون الرجل ذا دين وصلاح.

يقول الرسول الأكرم ﷺ: «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه فزوّجوه، وإلاّ تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد كبير».

ومن هنا يقول بعض الفقهاء كالمحقق الأردبيلي في (زبدة البيان في أحكام القرآن) إنّ ظاهر الآية يفيد الوجوب: ﴿فَأَنْكِحُوا﴾ ولا داعي للشروط الكثيرة في موضوع الزواج.

وأما ما يخصّ نفس الشبان والشابات فهي الآية الكريمة: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور: ٣٣] أيها الفتاة التي بلغت من العمر الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة ولم تجد زوجاً، عليك بالعفاف لثلاثي لا سمح الله في الحرام.

أيها الشاب الذي بلغت من العمر العشرين، تعفف إذا لم تيسر لك الزوجة، فالتعفف من مقدّمات الحرام مستحب، والتعفف من الحرام نفسه واجب.

والعفة بالنتيجة أمرٌ واجب، فلو أبصر الرجل لا سمح الله امرأة وسار

خلفها، ثم وصل الأمر إلى ما لا تحمد عقباه؛ فقد خالف بذلك الأمر الوجودي وأما المقدمات، فللعفة مقدمات لا تحصل العفة بدونها، فما دُمَّتْ أعزباً تجنّب كل ما يثير الشهوة.

تجنّب ما يثير الشهوة

ومن ذلك: أن تمتنع عن أكل اللحم بكثرة، وأن تقتصد في طعامك. والصيام هنا نافع جداً شرط أن لا يبالغ المرء في الطعام أثناء الإفطار والسحر، ويضغط الوجبات الثلاث في وجبتين، وربما كانت أدمس وأكثر من الوجبات الثلاث، فإنّ في ذلك نتائج معكوسة.

لا تذهب إلى الأماكن التي تثير الشهوة، لا تستمع إلى الموسيقى، ولا تغش دور السينما. هذه مقدمات العفة، لا تنظر إلى هذه الصور المبتذلة والخليعة فإنها تسبّب في ذهاب العفة وخاصة العين، إذا أردت أن تسلم عفتك فلا تملأ عينك بالحرام، لا أقول سُدَّ عينك في الشارع، أقول: لا تتأمل المناظر الفاحشة، ولا تكرر النظر إليها إذا رأيتها، لكي لا تقع في الريبة والفساد.

الرسول ﷺ يزوّج (ضباعة) من المقداد

كانت (قريش) حينها أشرف القبائل العربية، ومع هذا فقد زوّج الرسول ﷺ ضباعة ابنة الزبير بن عبد المطلب أي ابنة عمه من (المقداد) الذي لم يكن من قريش، وكان أسود الوجه، وبلا جاهٍ أو شأنٍ في المجتمع، وقال:

فلا نقول أين عائلة هذا من عائلتنا؟

وعندما أراد الرسول ﷺ أن يزوّج ابنته السيدة الزهراء ﷺ، جاءه قارون هذه الأمة (عبد الرحمن بن عوف) ليخطب إليه ابنته، ووعد وتوعد أن يفعل كذا وكذا، فيفرش الأرض من بيت الرسول إلى بيته حبراً للزهراء ﷺ.

زواج فاطمة عليها السلام عبرة لنا

فقال عليه السلام: «إن أمرها لله» والعجيب أن أبا بكر وعمر جاء أيضاً لطلب يدها، وكان الإمام علي عليه السلام أضيقتهم ذات اليد حسب الظاهر، ولكن ألح عليه البعض، فجاء إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم فسأله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عن ما يملك. فأجابه الإمام عليه السلام بأنه يملك جملأً وسيفاً ودرعاً. فأجابه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأنّ الجمل للبقايا والسيف للقتال، وأمره أن يبيع درعه.

ثم حدثت التفاصيل التي سمعناها على الأغلب، فقد أخذوا ثمن الدرع، واشتروا به أوانٍ خزفية ورحى وقميصاً وأثاثاً متواضعاً فوضعوها أمام الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

أسمعتم ما قال أمير المؤمنين علي عليه السلام حين أنزل السيدة الزهراء عليها السلام في القبر؟ قال: «لقد استرجعت الوديعة، وأخذت الرهينة» وهذا موضع الألم والحسرة، فكيف أرجعت الوديعة؟ «ستنبئك يا رسول الله» لا ذنب لها فيما أجرم معها المجرمون.. لقد كسروا ضلعها..

«ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة»، العزائم تعني الواجبات، وكذلك المحرمات الإلهية التي حذر الله منها في القرآن الكريم.
«وفضائله المندوبة» والفضائل والكمالات أمر الله بها بشكل مستحب في القرآن.

المباحات مذكورة بشكل مجمل في القرآن

(ورخصه الموهوبة) الرخصة بمعنى الجواز وعدم وجود المانع، والموهوبة تعني المغطاة، وفي هذا إشارة إلى المباحات التي لا تكون واجبة ولا محرمة، بل أذن الله بها لعباده وذكرها في القرآن، كالطيبات التي سمح الله بها من الطعام واللباس والسكن.

فكل طيب وطاهر أذن الله لكم به. والطهارة في الظاهر والباطن هي

المقصودة، فلا يكون الشيء مضرراً ولا نجساً، فلو كان مضرراً لا اعتبر من المحرمات أو المكروهات.

فلحم الخنزير ليس طيباً، والخمر من الخبائث والمحرمات لما فيها من الأضرار. أما سائر النعم التي خلقها الله فهي مباحات، إذا لم تكن محرمة وكانت حلالاً طيباً كأنواع الفواكه والحبوب، واللحوم المحللة إذا لم تكن لحوماً ميتة وكانت مذكاة شرعية، وبغير هذا تُعدُّ في الخبائث.

وفيما يخصّ الملابس فلا مانع من التجميل، فاللباس مباح شريطة أن يكون من الطيبات ومما اكتسب بالحلال، فلو كان في الثوب خيط واحد مغتصب أو كان في البناء حجر واحد مغتصب، كما كانت هذه الأملاك من الطيبات.

بشرط عدم الإسراف والتظاهر

والشرط الآخر هو عدم الإسراف، فلو دخلنا حدود الإسراف لما كانت النعم من الطيبات، سواء كانت مأكلاً أو ملبساً كمّاً وكيفاً، وربما كان الإسراف من شأن الشخص ومقامه، فيجوز عندها أن يشتري آخر موزات السيارات شرط أن لا يكون ذلك إسرافاً بالنسبة لوضع الشخص، أو أن يمتلك بناية تساوي الملايين إذا كان ذلك ضرورياً لشأنه ومقامه.

إن الله لم يحرم الزينة، لكن شرط أن لا تكون تظاهراً أمام الناس، لأنها بهذا تخرج من حيز الطيبات، فربما بنى الإنسان عمارة ليتكبر بها على الناس، أو يشتري ثوباً فاخراً ليتظاهر به أمامهم، عند ذلك سيصبح الشخص كقارون الذي كان يخرج في موكبه أربع مائة غلام يلبسون الذهب على خيول سروجها من الذهب، وكانت عاقبته أن ابتلعت الأرض وابتلعت أمواله: ﴿فَسَفْنَا بِهِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١].

لا مانع من النعم إذا لم يُراد بها التكبر أو التظاهر، أقم مائدة وهيئ لها أنواع النعم، ولكن احذر من الإسراف ومن التظاهر أمام الآخرين للاستعلاء عليهم.

زينة المرأة لزوجها مستحبة

للمرأة أن تتزين كيفما شاءت شرط عدم الإسراف، وليس لها أن تُظهر زينتها لغير زوجها ومحارمها، فلتتزين المرأة فقد أمرت بهذا، ولكن لزوجها فقط. لعنة الله على المرأة التي تتزين وتتجمل للأجانب، وتظهر في الشوارع لتجرب وراءها العيون الخائنة. الزينة حلال للمرأة شرط عدم إيجاد الفساد، وإلا فهي محرمة غير مباحة. ومن الأخطاء الشائعة بين النساء أنهنّ بدلاً من التجمل لأزواجهنّ، يتجملن إذا أردن الخروج من البيت.

ومن الأخطاء الأخرى: تجميل العرائس، ثم الخروج بهنّ إلى الشوارع يتجولون بهنّ، لقد جمّلوا هذه الفتاة لرجل واحد، فلماذا يأتون بها إلى مجلس العقد حيث يجلس عدد من الشبان الأجانب، هذا حرام. موضوعنا هو المباحات الإلهية، فكل عمل لم يُنه عنه فهو جائز ومباح.

فلا مانع من الكلام مثلاً إذا لم يكن فيه كذب أو غيبة أو تهمة أو إفشاء للسرّ وما شاكل.

نصيحتان من (بهلول العاقل)

جاء أحدهم إلى (بهلول العاقل) وطلب إليه أن ينصحه نصيحة ينجو بها، فقال له (البهلول): إنّ الله قد نصحك. ولكن الرجل أصرّ. فقال بهلول في مجال الطعام: لا تأكل إلّا الحلال وكُلّ ما تشاء.

فطلب إليه الرجل أن ينصحه بخصوص النوم، فقال له: أدّ واجباتك، ولا تضمّر الشرّ لمؤمن، ونمّ كما تشاء (يجب أن لا يكون المكان مغتصباً، وأن يكون الشخص قد أدى صلاته، وأن لا يضمّر النية السيئة لمؤمن، ولا يكون النوم بقصد الإضرار بالمؤمنين) والخلاصة هي أنك لا ترتكب المحرّم، وعندها لا مانع من الحلال.

استفيدوا من نعم الله

الماء حلال، وهو مباح للإنسان متى ما ظمئ شرط أن لا يُسرف في الشرب، وأن لا يكون فيه ضرر ليكون طيباً. يقول أحد الأئمة عليه السلام: «إنَّ الله يغضب على من لا يقبل رخصه».

الامتناع عن الطيبات أمر مذموم

كان عثمان بن مظعون أخو النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالرضاعة، وأول من دفن من المهاجرين في (البقيع)، وكان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم يهتم به، وحين جاءه خبر وفاته قدِمَ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إلى المغتسل، وقبِل ناصية أخيه. كم كان هذا الرجل روحانياً (عثمان بن مظعون) لأنه لم يسبق للنبي أن قبِل ميتاً.

مات ولده، فترك الوالد (عثمان) لذائد الدنيا نهائياً، واعتكف في مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم يصوم النهار ويقوم الليل، وكان يأتي بالطعام الكافي لزوجته وأطفاله ويعود إلى المسجد. فمضت فترة شكت بعدها زوجته للرسول صلى الله عليه وآله وسلم حال زوجها، فمرَّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من أمام عثمان، وحين أتمَّ عثمان صلاته جاء إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ووجده متألماً.. فعاتب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم عثمان على تركه لزوجته، وضرب له مثلاً بنفسه، وأنه يصلي ويصوم ويقارب زوجته، وأعلمه أن الله يحب أن يرى آثار نعمته على عبده، واستفسر منه عن عدم مقاربتة لزوجته، فتاب (عثمان) من فعلته تلك.

الشاهد هنا هو المباحات الإلهية، إنَّ الله يحب أن يلتذَّ الناس بالمباحات؛ بل إنَّ الأصل في إيجاد هذه النعم هم المؤمنون، فقد خلقها الله ليستفيد منها المؤمنون.

في البداية حبُّ الخلاق العالم، فأول جلوسك على المائدة، خبز ورز، إلهي ماذا خلقت لنا؟ كم هي طيبة هذه البطيخة الحلوة في هذا الهواء الحار؟

واذكر في ذلك الحال المنعم الذي منحك كلّ هذه النعم، أنظر بأية مشقة وصلت هذه البطيخة إلى يديك: «الإنسان عبيد الإحسان».

إذا أحسن إليك إنسان أحببته، أفلا يجدر بك أن تحبّ الله الذي أغرقك في نعمه ليل نهار؟ إنّ امتصاص الماء مستحب عند الشرب، كم يكون الماء عذباً حين تكون ظامئاً؟ كم عليك أن تحبّ خالق هذا الماء، أفيجب أن تضع في الصحراء ويهلكك الظماً لتعرف نعم الله؟!!

خلق الله النعم والملاذ لتعرف خالقها وتحبّه وتخشع له، إن فطرة الإنسان تحبّ النعم والمحسن، وتصل بهذا الحب إلى السعادة العليا ومنزلة القرب فتزداد محبة الإنسان لمبدئه يوماً بعد يوم.

ومن جملة النعم هي الزوجة، فقد جعل الله بين المرأة والزوج ألفة ورحمة، ثم يأتي الأولاد، كلّ هذه النعم من أجل أن تعرف المنعم وتحبّه.

بحثاً عن النعم الخالدة

الهدف الآخر هو أن تستفيد من هذه النعم وتذوق هذه الملذات لتبحث عن أهلها. فهذه الفواكه اللذيذة وهذا العنب الحلو؟ هل كانت الحلاوة في التراب؟ من أين جاءت؟ ما هي ماهية هذه الحلاوة التي تختلف نسبتها من طعام إلى آخر في عالم المادة.

لله خزائن يمنحنا منها كل عام قطرة واحدة، فإننا في الحقيقة لا نبصر ولا نرى إلا نموذج للحلاوة وعلينا أن نبحث عن خزائنها، أصل هذه الحلاوة، هي (الجنة) التي يجب أن نصلها.

هذه نارك فكيف بنورك، وهذا ماتمك فكيف سيكون عُرسك؟

إنّ عالم المادة ضيق ولا يستطيع إظهار أكثر مما أظهر، والجنة هي أصل وأساس النعم. إلهي لا تحرمني منها، كل هذا الجمال خزائنه عند محمد وآل محمد ﷺ، لنسّع لكي يكون لنا نصيب من جمالهم. إلهي اجعلنا ممن يعرف

المنعم ويحبّه. إلهي اجعلنا مشتاقين إلى لقائك «أشتاق إلى قربك في
المشتاقين» فشوق جوار آل محمد ﷺ شوق للجنة.

حرّموا ماء الله المباح

لا حق لأحد في أن يمنع مباحات الله، لعنة الله على من حرّم حلال الله
كابن زياد اللقيط (لعنه الله) أحلّ الله الماء للجميع، ولكن هذا اللقيط يكتب إلى
ابن سعد (إني حلّلته على اليهود والنصارى، وحرّمته على الحسين وأصحابه،
فلا تدعهم حتى يموتوا عطاشى كما فعل بعثمان)..

« وشرائعه المكتوبة »

ثلاثة معانٍ للشرائع المكتوبة

« وشرائعه المكتوبة. فجعل الله الإيمان لكم تطهيراً من الشرك » الشريعة تعني الأحكام، والمكتوبة تعني المقررة. إنّ الأحكام المقررة تعرف بهذا القرآن، وفي هذه العبارة عدّة احتمالات إحداها: أنّ المراد بالشرائع هي المكروهات، لنكون بهذا قد عثرنا على الأحكام التكليفية الخمسة في الخطبة المباركة. فالعزائم هي الواجبات، والمحارم هي المحرمات، والفضائل هي المستحبات، والرخص هي المباحات. إذاً فالمراد من الشرائع هي المكروهات.

والاحتمال الثاني أنّ الرخص تشمل المكروهات والمباحات، والمراد بالشرائع بقية الأحكام كالحدود والديّات وغير ذلك (الأحكام الوضعية).

والاحتمال الآخر أنّ كلمة (شرائع) تشمل جميع الأحكام الإلهية. فجميع الأحكام تُعرف بهذا القرآن. وبعد ذلك تبدأ السيدة الزهراء عليها السلام بينات الأحكام والبراهين الكافية للعزائم والمحارم. فتذكر علل وأسباب الأحكام والشرائع، فهناك حكمة بالغة في الواجبات يصل البشر ببركتها واتباعها إلى معدن الأسرار والعظمة.

تبدأ بالإيمان، ثم الصلاة والصوم، والزكاة والحج والجهاد والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر وبرّ الوالدين وصلة الرحم وغير ذلك، وتشرح كل ذلك بمقدار ما أراد الله.

الشرك، نجاسة معنوية

«فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك» لقد بحثنا موضوع الإيمان والشرك سابقاً، وكتبنا عنه بإسهاب في كتاب (القلب السليم) ومع هذا فسنذكر هنا ما نراه ضرورياً ومفيداً.

«تطهيراً لكم من الشرك» أوجب الله الأيمان ليطهركم من قذارة الشرك، وكما أنّ للإنسان ظاهر وجسم، فإنّ له باطن وروح تدير وتدبر الجسم. وللروح أحكام كما للجسم أحكام، فهي باطن الإنسان والمحيطه بجسمه.

إنّ الطهارة والنجاسة البدنية المعروفة لدينا، فلو مسّت النجاسة العينية الجسم قلنا إنّ الجسم تنجس ويجب تطهيره ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٥] وإزالة النجاسة عنه بالماء.

وللنفس الإنسانية نجاسة ومطهّرات أيضاً، إن نجاسة الروح أقدر القاذورات وأقبح القبائح، فمهما كانت هذه النجاسات الظاهرية متعقّنة فإنّ عفونة الروح أكثر منها مئات المرات، ولكن حاسة الشّم التي تميّز هذه العفونة محدودة في هذا العالم.

إنّ نجاسة روح الإنسان هي الشرك بالله. فلو أحسّ المشرك بعفونة وجيفة نفسه لهانت عليه جيفة الموتى. ويجب عليه أن يزيل هذه القذارة، والذي يزيلها هو الإيمان فقط.

إنّ قذارة الشرك تعتبر من النجاسات المعنوية والروحية ولها مراتبها، فهناك المرتبة الضعيفة والقليلة، ولا بأس أن نشير بشكل إجمالي إلى مراتب ودرجات هذه النجاسة، ثم نرى ماذا يطهّر كل مرتبة منها من مراتب الإيمان، فلإيمان مراتب كما للشرك مراتب.

الشرك في الألوهية أتعس درجات الشرك

إنَّ أشدَّ درجات هذه النجاسة: الشرك في ألوهية الله وربوبيته تعالى المدير والمدير والفاعل، إذا اعتقد شخص أنَّ هنالك فاعلٌ غير الله فقد منح الاستقلال للمخلوق، ووازي بينه وبين الله في الربوبية والخلق، وصار مشركاً في الألوهية.. وإنَّ أشدَّ وأتعس درجات الشرك أن يتصوّر أنَّ الفاعلين على مستوى واحد من الاستقلال والإرادة، كالثنوية التي تعتقد بالله والأهريمن، إنهم يعتقدون أنَّ الله خالق الخير، وأهريمن خالق الشر، وأنَّ كلَّ ورثة طيبة الرائحة فهي من خلق الله، وكلَّ ورثة كريهة الرائحة فهي من خلق أهريمن، وكذلك الحيوانات، فالله خلق النافع منها كالبقرة والغنم، وأهريمن خلق الضار منها كالثعابين. إنَّ هذا شرك في الألوهية والخالقية والربوبية وهي درجة واضحة، وهناك درجة خافية، فلو تصوّر مسلمٌ أنَّ عبداً من عبيد الله هو الفاعل والمُريد لأشرك بالله، كالذي يتعبّد من أجل التظاهر بالعبادة أمام فلان لظنّه أنَّ فلاناً له التأثير في جاهه وماله وتقدمه. أو الذي ينفق ماله ليرضي الله وليمدحه الآخرون، فيتصوّر أنَّ الخلق ذوي فعل وتأثير واستقلال. يتصوّر أنَّ الطبيب شافٍ لوحده، فيرجو الشفاء منه، أو يرجوه من الله والطبيب، ولكنه بمجرد أن ينظر للطبيب على أنه مستقلٌّ في تأثيره فقد وقع في الشرك. إنَّ الله هو الشافي، ولكن من خلال أسباب كالطبيب والدواء.

التشاؤم من الشرك أيضاً

موضوعنا هو درجات الشرك، ومنها: التشاؤم والتطيّر. فقد يخرج الإنسان من بيته ويرى أعمىً ومشلولاً، فيستعيز بالله ويقول متشائماً: ماذا سيحلُّ بنا اليوم؟ وعندها يكون قد استبعد التوكل على الله تماماً.

وهنالك خرافات النساء وتشاؤمهنّ، فلو عاد مريضنا عائداً أيام الأحد أو الأربعاء لساءت حالته الصحية، يفكرون بأشياء غير الله، فيقولون حدث هذا لأنَّ اليوم هو يوم الأربعاء، فينسبون الفعل للمخلوق ويرونه المؤثر. فالتشاؤم من

الشرك، ولهذا فمتى ما أذنبت أيها المؤمن فقد أشركت بالله، لأنك أطعت الهوى، وكان المفروض أن تكون عبداً مطيعاً، لقد كنت في المسجد تردّد: (يا الله يا الله) فما لك تتشاجر في البيت، ويصبح إلهك هواك، إن هذه إحدى درجات الشرك والنجاسة المعنوية.

إن الأحكام الظاهرية للشرك واضحة، إنك قدر إذا فاتك الواجب حتى لو كان ركعتي صلاة. لقد أشركت وعبدت الشيطان: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَبْنَیْ ءَادَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمُ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] لا تتخذ إلهين: الرحمن والشيطان. أو الرحمن أحياناً والشيطان أحياناً أخرى.

أردت أن أوضح قضية الشرك في الطاعة، فلو ترك الإنسان واجباً أو أتى محرماً، ثم نظر إلى باطن نفسه؛ لوجد نجاسة لا تطهرها مياه المحيطات السبعة.

حاولت أن أوضح درجات الشرك بصورة إجمالية، وهنالك الشرك في العبادة الذي يحصل بالرياء والتظاهر، كأن يكون حج الإنسان رياءً ويدخل المسجد الحرام على تلك الحال، إنه لو دخل المسجد الحرام وعليه نجاسة عينية مادية لكان ذلك أهون من هذه النجاسة المعنوية التي تفرّ منها الملائكة مئات الفراسخ، النجاسة التي تشجع الشيطان على التسلط علينا.

يقول (الشيخ البهائي): لو كشف الغطاء ورأى المشرك ملكوته لوجد أنه يسجد لكلب.

أقرب حالات البشر للشيطان

يروى أن إحدى نصائح الشيطان لنوح أنه قال إنني (أي الشيطان) أقرب ما أكون من الإنسان في حال الغضب: «قابل إبليس لنوح: اذكرني في ثلاثة مواطن فإنني أقرب ما يكون إليّ العبد إذا كان في إحداهن. اذكرني إذا غضبت وإذا حكمت بين اثنين وإذا كنت مع امرأة خالياً ليس معكما أحد» وفي رواية أخرى إن الإنسان إذا غضب يكون في يد الشيطان كالكرة في يد الطفل، فكما

يتلاعب الطفل بالكرة كيفما شاء، يتلاعب بك الشيطان إذا غضبت كما يشاء. وتكون في هذه الحالة ساجداً لكلب نفسك ومؤمناً بالشيطان وهوى النفس، فتحلُّ بك نجاسة تمنعك من رؤية أي شيء إلا إذا طهرها الإيمان.

التطهير من الشرك بواسطة الإيمان

يجب أن تتناسب درجة الإيمان مع صاحب الإيمان. وقد ذكرنا درجات الشرك باختصار والنجاسات المعنوية التي يجب أن يحذر الإنسان من الهلاك بها لأنه لا يوجد ما يطهرها ويمحوها. فإن نجاسة الشرك لا يطهرها شيء إذا مات الإنسان عليها، فلنحاول أن لا نذهب إلى القبر بهذه القاذورات لأنها عسيرة التطهير وستضطر هناك إلى القول: ﴿رَبِّ أَرْجِعُونِ * لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

إنَّ الطريق الوحيد للتطهر من الشرك، هو الإيمان، فلكلِّ مرتبة من مراتب الشرك هي مرتبة إيمانية تطهرها وسنذكر مراتب الإيمان إن شاء الله. إلهي أخرجنا من الشرك بفضلك، لو كُنَّا نفهم لقلنا متضرعين: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢].

كان الإمام الصادق عليه السلام يقول في الدعاء إذا وصل إلى باب المسجد: «أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ» إننا نتصوّر أنه تجب قراءة: «أَمَّنْ يُجِيبُ» إذا كان لدينا مريض، الويل من نجاسة الشرك، فبأي دواء يُشفى هذا المرض سوى أن يشملنا اللطف الإلهي. «فجعل الله الإيمان تطهيراً من الشرك».

إلهي لا تمتني مشركاً

يقول أحد العلماء العظام (رضوان الله عليه): إنَّ لي حاجة أطلب ممن ألتقي به أن يدعو لي الله بقضائها، وهي: أن لا أموت مشركاً.

ولقد ذكّر القرآن الكريم دائماً بهول هذا الذنب (الشرك) الذي لا

يغفره الله. فهل هناك أعظم من هذا التعبير ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ويقول الإمام علي عليه السلام في (نهج البلاغة): «إِنَّ مِنْ عَزَائِمِ اللَّهِ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ، الَّتِي عَلَيْهَا يَثِيبُ وَيَعَاقِبُ وَلَهَا يَرْضَى وَيَسْخَطُ، أَنَّهُ لَا يَنْفَعُ عَبْدًا وَإِنْ أَجْهَدَ نَفْسَهُ وَأَخْلَصَ فَعَلِيهِ أَنْ يَخْرُجَ مِنَ الدُّنْيَا لِأَقْبَىٰ رَبِّهِ بِخَصْلَةٍ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ لَمْ يَتَّبِعْ مِنْهَا: أَنْ يُشْرِكَ بِاللَّهِ فِيمَا افْتَرَضَ عَلَيْهِ مِنْ عِبَادَتِهِ..».

خلاصة القول إِنَّ الشُّرْكَ رَجْسٌ وَقَذَارَةٌ فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ، تَظْهَرُ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ، وَلَا يَطْهَرُهَا إِلَّا الْإِيمَانُ، فَكُلُّ شَيْءٍ عَاجِزٌ عَنِ تَطْهِيرِ الشُّرْكَ إِلَّا الْإِيمَانَ.

ذكرنا سلفاً ما يتعلّق بالشرك ضمن ثلاثة عناوين عامة وقلنا إِنَّ مَطْهَرَهُ هُوَ الْإِيمَانُ الْمَلَائِمُ لِكُلِّ مَرْتَبَةٍ مِنْ مَرَاتِبِ الشُّرْكِ.

أولاً: الشرك في الألوهية، أن يشرك المرء بالله في أفعاله، فإذا تصوّر أنّ هنالك سبباً مستقلاً في التربية؛ فقد أشرك بالله. أو أن يتصوّر أنّ حلال المشاكل هو المال فقط كما فعل قارون. أو أن يقول: لقد حصلت على هذا بعلمي وقلمي وجهودي..

أي أن يجعل الله شريكاً، ولا يطهّر هذا الشرك إلاّ الإيمان والاعتقاد بأنّ المسبّب هو الله. إلهي منك الشفاء ومنك الفرج.

إذا أصابت الإنسان شدّة وأخذ يردّد: يا الله، يا الله. فإذا فرّج الله عنه؛ نسيّ الله بل أشرك به، ما هو الطيب وما هو الدواء؟ إنها أسباب خلقها الشافي، وعلى المرء أن يجدّد إيمانه ويركّزه كلّما جاؤوه بخبر سعيد، فيشكر الله ليتطهّر من الشرك، وترتفع نجاسته: «اللهم ما بنا من نعمة فمك لا إله إلاّ أنت».

ثانياً: الشرك في العبادة والتهجّد، فالخضوع والخشوع القلبّي يجب أن يكون خالصاً لله، فلو كان هذا الخضوع والخشوع لله وللآخرين لوقعنا في

الشرك في العبادة، فقد يبني الإنسان بناءً خيراً ليكون قد عبدَ الله وليمدحه الآخرون أيضاً فيقولون فلان بنى حسينية أو مسجداً أو جسراً أو مستشفى. إنَّ هذا البناء لا يخرج من نجاسة الشرك ويمنع أعمال وعبادات صاحبه الأخرى من أن تُقبل حتى يتوب بانيه. وهنالك من يذهب إلى الحج ليؤدي هذه الفريضة ليلقبه الناس بالحاج فيترفع بذلك على الناس.

إنَّ علاج هذا الداء أن يفهم صاحبه أن المخلوق لا يقوى على شيء، لا تكن مخطئاً إلى هذا الحد، فتجعل الله شريكاً من أجل كلمة مدح تذهب وتزول، تسمعها من الراديو أو تقرأها عن نفسك في الجريدة أو على المنبر. على المرء أن يخجل من هذه الحال، وعليه بعدها أن يؤمن بأنَّ (بيده الخير) فالناس لا تقوى على شيء، والقلوب بيد الله، فقد يُظهر الإنسان الخير فلا يمدحه أحد، وقد يفعله في السرّ فتمدحه الناس في العلن، ذلك لأنَّ القلوب بيد الله.

(مالك بن دينار) وولاية المسجد الأموي

وهذا ما حصل لمالك بن دينار في القصة التي سبق أن ذكرتها. فقد فكّر هذا الرجل أن يحصل على أملاك وعقارات ضخمة، وكان للمسجد الأموي في ذلك الحين أوقاف كبيرة، لكن ولي المسجد والقيم عليه لم يكن يرضى أن يسلم ولاية المسجد إلّا لأزهد الناس وأعبدهم، وبهذا فكر (مالك) أن يُظهر الزهد والعبادة، فاعتكف في نفس المسجد الأموي وأخذ يصلي ويصوم ويذكر الله، وكان إذا رأى أحداً من الناس جدّ واجتهد في العبادة وإذا خلا إلى نفسه تقاعس وتكاسل، لكنّ الغريب في الأمر أنه وجد نفسه فاشلاً في أن يكسب قلوب الناس إليه، بل إنهم ينفرون ويعرضون عنه يوماً بعد آخر.

ثم إنه سمع بأذنه من يقول: إنَّ مالك إنما يتزهد ويتعبّد هكذا ليستحوذ على ولاية المسجد الأموي. فأذهل ذلك (مالك) وتعجّب كيف انكشف سرّه للناس، فتأمل حاله التعيسة، ورثى لنفسه كيف جعل الله شريكاً ليكسب قلوب الناس،

فكانت النتيجة معكوسة، وأنه خسر الدنيا والآخرة، فتاب عند ذلك، وبدأ صفحة جديدة من الإيمان.

وتحرر منذ اليوم التالي من فكرة ولاية المسجد، وانكبّ على إيمانه فكانت عبادته خالصة لله، والعجيب أنه ما أن ترك حالة الشرك حتى هفت إليه القلوب، وأخذ الناس يسألونه الدعاء، فتعجب لذلك الفرق بين حال الناس معه بالأمس وحالهم اليوم.

ووصل الأمر بالناس أن جاؤوا إليه ليؤلّونه أوقاف المسجد، فرفض رفضاً قاطعاً رغم إصرارهم المتكرّر عليه. وعلى كلّ حال فلكل مرتبة من الشرك مرتبة من الإيمان تطهّرها، فعلى المرء أن لا يخشع لسوى الله الخلاق العظيم ويندم على تلك القذارة.

ثالثاً: الشرك في الطاعة، يجب على العبد أن يطيع أمر مولاه لا أمر مخلوق غيره، فالله وحده جدير بالطاعة، والإيمان بالله أن تعلم أنه أهلّ للطاعة. فلو أطاع الإنسان أوامر غير الله، وارتكب ذنباً من باب طاعة المخلوق الذي أمره بذلك؛ فقد أشرك بالله أحد مخلوقاته، وربما كان الشريك هو نفس المشرك، قُلْ لِنَفْسِكَ: يا نفس إنك لست أهلاً للطاعة. فلو أطعت نفسك كنت مشركاً وعبداً لهوى النفس، بعدما كنت عبد الرحمن، أطعت هواك واستبعدت الله، أفيجب أن تقبل كلام الشيطان؟!

عليك أن تندم على ذنب الشرك في الطاعة وتجدد إيمانك. قُلْ: «ظلمت نفسي» وأطعت نفسي. ليحلّ الإيمان فيمحي نجاسة الشرك: «فجعل الله الإيمان تطهيراً لكم من الشرك» كل ذنب يصدر منك هو حالة من الشرك، إلّا الذنوب التي تحدث صدفةً، وإلّا فكل الذنوب التي ترتكب مع سبق الإصرار تدخل في دائرة الشرك، وعلاجها هو الإيمان بأنّ المطاع واحد «لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك» إنّ تجديد العهد يُطهّر من الشرك.

كلّ واجبٍ تفوتته على نفسك عمداً هو حالة من حالات الشرك. قد تميل

النفس ما بين الطلوعين إلى النوم، فإذا تركت صلاتك وأطعت نفسك؛ أشركت بالله، ولهذا يقول الحديث الشريف: «الشرك أخفى من ديبب النمل».

الويل لمن يأخذ هذه النجاسات معه إلى القبر. فلنستغفر الله ما دام هنالك متسع من الوقت، ونتوب ونجدد العهد مع الإيمان، فموت أطهاراً وولتتحق بالأطهار مع آل محمد ﷺ. ونكون من المتطهرين الذين يحبهم الله.

الوسواس في الطهارة

من خصائص الإيمان التطهير من الشرك أي من تلك النجاسة المعنوية. كم نهتم بالنجاسات الظاهرية حتى يصل الأمر ببعضنا إلى الوسواس في ترك المنجسات والتي تكون أكثرها في غير محلها. إذا أوغل المرء في العناية بالطهارة والنجاسة الظاهرية، شغله الشيطان عن الطهارة والنجاسة المعنوية، فلا يعتني بما يصيب نفسه من التلوّث.

وعلى كلّ حال فإنّ الشرك أقبح نجاسات القلب. أن يتصوّر المرء نفسه أو غيره مستقلاً وشريكاً لله في إحدى شؤون الربوبية، وقلنا إنه لا يطهر هذا الشرك إلاّ الإيمان.

«والصلاة تنزيهاً لكم من الكبر» لماذا كانت الصلاة واجبة، سبع عشرة ركعة خلال خمسة أوقات، وثلاث وأربعون ركعة كنوافل مستحبة كل يوم؟ وعلى حدّ تعبير ذلك الجاهل: ما حاجة الله لصلاتنا وصيامنا؟ فالزهراء عليها السلام تذكر هنا فائدة الصلاة، وهي أنّ الله جعل الصلاة واجبة على الناس ليخرجهم من نجاسة الكبر. فالإيمان طهارة من الشرك، والصلاة طهارة من الكبر. فما هو الكبر وما علاقته بالصلاة؟

طُرِدَ الشَّيْطَانُ لِكِبْرِهِ، وَلَكِنَّكَ...

الكبر هو أن تغلب الحماقة والجهل على الإنسان فيتصور نفسه أعظم

وأرفع من غيره، فيقول: أنا كذا وكذا.. أن يظهر فيه نوع من الإحساس بالعظمة.

كلّ إنسان مصاب بهذا المرض إلى حدّ ما، ويجب عليه التطهّر، وقد وجبت الصلاة لترفع هذه النجاسة، وإلّا يصبح الشخص كإبليس، الذي تكبّر على أمر الله: ﴿إِلَّا إِلَيْسَ ابْنِ وَأَسْتَكْبَرُ وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] أو كما قال سبحانه وتعالى: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصّٰغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

طرد الشيطان بسبب الكبر، أفيطمع الإنسان أن يدخل الجنة والعالم الأعلى ومقام الربّ بالكبر؟ إلّا إذا تطهّرت هذه النجاسة والحماقة والجهل ويرتفع هذا الغرور ليصل الإنسان إلى الجنة.

وللتعرّف على عظمة الكبر وأقسامه بشكل مفصل راجع كتاب (الذنوب الكبيرة) و(القلب السليم) وليس علينا هنا غير شرح عبارة السيدة الزهراء عليها السلام الصلاة مطهّرة من الكبر والإيمان مطهّر من الشرك.

نسبة الإنسان إلى الله، وإلى من هم أدنى من الإنسان نفسه

ستتضح لنا العلاقة بين الصلاة والطهارة من الكبر بعد هذه المقدمة القصيرة بشرط أن يدقّق فيها. لكلّ إنسان نسبتان: نسبة له مع من هم دونه، ونسبة مع خالقه. نسبته مع من هم دونه هي: الحكومة والعظمة والقهر. كنسبته مع زوجته وأطفاله وخدمه وتلاميذه. ولو لم يكن هؤلاء فهنالك جسمه، فإن نسبة الإنسان مع أعضاء جسمه هي أن يحركّ لسانه متى أراد، ويمشي متى ما أراد، أو يحركّ يده مثلاً، فالجسم مقهور ومغلوب بالنسبة لصاحبه، والسلطة على الجسم نسبة غلبة وقهر، لكن نسبة الإنسان مع خالقه هو أنه مقهور ومغلوب ومحكوم عليه.

كلّ ما لك من سلطة على ما دونك توجد مئات آلاف أضعافها بينك وبين من هو أعلى منك. فأنت لا تستطيع أن تقتل حتى نفسك دون إرادة الله، ولا تستطيع أن تجعل شعرة واحدة من شعرات رأسك بيضاء، إنك مغلوب للنوم

وللطعام، وحتى تصل إلى قضية الموت فإنك مغلوب فيها إلى درجة أنه لو اجتمع كل أصحاب القدرة في العالم، وكل الأطباء الحاذقين؛ لما استطاعوا أن يؤخروا موتك دقيقة واحدة. ماذا بإمكانك أن تصنع قبال القدرة العليا.

أنتستطيع أن تملك لنفسك نفعاً أو تدفع عنها ضرراً؟ أو تختار حياة أو موتاً؟ إذا نسي الإنسان نسبته مع الله، ولم يتذكر إلا نسبته مع من هم دونه فمن المحال أن ينجو من داء الكبر.

أهل المدائن يستقبلون الإمام علياً عليه السلام

يقال إنه حين وصل الإمام عليه السلام إلى المدائن، خرج الناس لاستقباله، وكان الرجال قد وضعوا أكفهم على صدورهم، فسأل الإمام عن هذا، فقالوا له إن أهل المدائن كانت تفعل هذا مع سلاطينها، فنهاهم الإمام عن ذلك، لأن فيه لذة لفاعله، وفتنة وامتحان لمن يُستقبلُ به.

من أراد أن يكبح كبره فليُنظر إلى نسبة المغلوبة مع الله، فلو تذكر الإنسان هذه النسبة لاختلف تفكيره. قارن بين كبرك ونسبتك مع الله إذ أنت عبد ذليل له، إن استذكار هذا المعنى يطهر من الكبر.

(النجاشي) يجلس على التراب

ذهب (جعفر بن أبي طالب) مع جماعة من المسلمين إلى (النجاشي)، وفي يوم اللقاء نزل الإمبراطور من عرشه وتقدم، ثم جلس على الأرض بمنتهى العجز، فسأله (جعفر) عن ما فعل، فقال النجاشي: (تواضعاً لله) لأن النجاشي كان مسيحياً حقاً قبل الدعوة الإسلامية ما دام على عرشه فهو في كبر.

تعال وتذكر أول الوقت نسبتك مع الله، الله أكبر، الكلّ عباد أذلاء، إياك نعبد وإياك نستعين. إنني مذنب بادعائي المقدره على فعل كيت وكيت، أستغفر الله، أنت المستعان، استغفر الله من استعانتني بالمخلوق، إياك نستعين.

الاستذكار أثناء الصلاة

السجدة الأولى هي بدايتك، فقد خلقت من هذا التراب، عشت على الأرض أربعين أو خمسين سنة، كنت خلالها غارقاً في نعم الله، ولكن لا تنس أصلك، إنك من التراب.

وتذكر القبر عند السجدة الثانية، فإنك سترجع إلى هذا التراب، وتذكر الحشر إذا رفعت رأسك من السجدة الثانية فإنك ستوقف للحساب إذا حشرت وخرجت من القبر.

الصلاة تذكرة لعجزك بالنسبة لله

إن الصلاة فريضة تجعل الإنسان يتذكر نسبه مع الله، فيتطهر من نجاسات الكبر، هذا باستثناء الأئمة لأن حالتهم خاصة، فهم لا ينسون أبداً أنهم مقهورون بالنسبة لله، فهم في حال صلاة دائماً، ولا يداخلهم الكبر مطلقاً. لكن الإنسان العادي ينسى، فهو منذ إن يستيقظ صباحاً حتى يصلي الظهر في المسجد يذكر كل شيء، إلا الله، ولا يهمله إلا تسلطه على الآخرين أو على نفسه، إن هذا النوع من التفكير قذارة شاء الإنسان ذلك أم أبي، أستغفر الله من كبري وقذارتي إلى أن تحين ساعة الصلاة.

أطفئوا نيرانكم بالصلاة

جاء في الحديث أن المنادي ينادي أول الظهر: «قوموا إلى نيرانكم التي أوقدتموها على ظهوركم وادفعوها بصلاتكم» احذروا أن تأخذوا كبركم معكم إلى القبر، فإنه لو تجمع وتراكم لأضاع عليكم طريق الجنة، لقد طرد الكبر إبليس من الجنة حينما خامره للحظة واحدة، أفتريد أن تدخل الجنة ووراءك غمراً من الكبر.

«والصلاة تنزيهاً لكم من الكبر» وُزعت الصلاة على خمسة أوقات لعلها تخرجك من جهلك وقذارتك وغفلتك عن الله، ومن التفكير المتواصل بنفسك

وأوضاعك، لعلها تصلحك وتطهرك وتعرفك بالله فتكون عبده، عبداً ذليلاً يقال الرب الجليل. عليك أن تقول: الله أكبر. فالجميع مرضى وعلاجهم الصلاة.

يُشْرِكُ الْكَلْبَ فِي طَعَامِهِ

عندما جلس الإمام الحسن المجتبي عليه السلام ذات مرة للمائدة يأكل الخبز، جاء كلبٌ وجلس أمامه، فكان الإمام يأكل لقمة ويطعم الكلب لقمة، فأراد الغلام أن يطرد الكلب، لكن الإمام منعه، فقال الغلام: إنه كلب نجس قدر لا يليق أن يكون هنا وأنت تأكل. فأفهمه الإمام أنه يستحيي من الله أن ينظر إليه حيوان وهو يأكل فلا يُشركه في طعامه.

أنظر دائماً إلى من فوقك، إلى خالقك، إنك والكلب مخلوقان لخالق واحد.

يمرّ الإمام علي عليه السلام فيرى امرأة عجوزاً معها قربة ماء ثقيلة لا تقوى على حملها، فيحملها عنها، لأنه يرى عظمة الله، ولا يرى أنه زعيم أو خليفة. إن من وصل إلى مقام العلم والمعرفة يرى هذه النسبة دائماً فلا يأخذها الكبير، فالكبير لله فقط، من تكبر فإنه مبغوض ومنفورٌ، لا كبرياء إلا لله. إياك أن تنسى هذه النسبة ويأخذك الجهل، فلا تتذكر إلا نسبتك مع ما هو أدنى منك. ولا تنزه عن الكبرياء إلا بالصلاة.

لَا نَعْلَمُ أَرْفَعُ مِنَ الصَّلَاةِ، إِلَّا الْمَعْرِفَةَ

جاء في (أصول الكافي) أن (محمد بن مسلم) سأل الإمام الصادق عليه السلام عن أفضل الأعمال، والظاهر أن الإمام الصادق عليه السلام أقسم أن لا شيء أفضل من الصلاة إلا المعرفة. إن الصلاة مهمة إلى الحد الذي يقول فيها القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥] وقد قال السيد بحر العلوم في منظومته الفقهية:

تَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْفَحْشَاءِ أَقْصِرُ فَهَذَا مِنْتَهَى الثَّنَاءِ

صلاة سيد الشهداء ﷺ يوم عاشوراء

في يوم عاشوراء حيث المعركة الدامية التي يضرب بها المثل، والحرّ والشدة، يقول أبو ثمامة للإمام الحسين ﷺ: «إننا مقتولون فهل لنا أن نصلي بنا لمرّة أخرى؟ صلاة الجماعة في هذه الشدّة!! نظر الإمام إلى السماء ووجد أنّ الظهر قد حان، فدعا لأبي ثمامة: «جعلك الله من المصلين» ثم طلب أن يمهلهم العدو حتى صلّوا.

أفّ على الدنيا، يريد ابن الرسول ﷺ أن يصلي فيستجيزهم، منحوه الفرصة. ولكن لا عهد للكافر، فما أن وقف الإمام للصلاة حتى رشقوه بالسهم، وكانت هذه صلاة ظهره، أما صلاة عصره فقد صلاها فرادى لأنه لم يبق من أصحابه أحد. وكما يقول (الشيخ الشوشتری) فإنّ الإمام توضأ واغتسل وتيمّم، فقد توضأ حين أصابه حجرٌ في ناصيته.

* * *

« والصلاة تنزيهاً لكم من الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماءً للرزق »

انتهينا إلى أن خلاصة كلام سيدة نساء العالمين عليها السلام في سرِّ وجوب الصلاة وحكمة تشريعها هي أنها تمحو داء الكبر والجهل لدى الإنسان. وذكرنا في شرح العبارة أن الكبر يظهر في الإنسان نتيجة غفلته عن نسبة العبودية والمغلوبة مع الله وانشغاله بنسبته مع أعضائه وجوارحه ومن هم دونه، فإذا استمر التفكير في هذه النسبة؛ سيظهر الكبرياء والعلو لدى الإنسان، لكنه حين يُصَلِّي يتذكر أنه عبدٌ مقهور، وحين يتذكر هذه النسبة تعتربه حالة من التواضع تُظهِر قذارة الكبر، وقد ذكرنا كلَّ هذا سلفاً ونريد الآن أن نضرب له مثلاً.

إنَّ الحقائق والمعارف الظريفة تتضح في قالب المثال، فلا مانع من ضرب الأمثال لأنَّ الله ضرب العديد منها في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعْضُهُ فَمَا فَوْقَهَا﴾ [البقرة: ٢٦].

نسبة القطّ مع الفأر والنمر

يقول (سعدي الشيرازي) في (روضة الورد) حسب الظاهر:

القط كالأسد في اصطياد الفأر، ولكنها فأرة مقابل الأسد.

تصوِّروا حال القطعة حين تصادف فأراً، أنظروا أيّ كبرياء وعلوً يأخذها، فهي كالأسد حين تصارع الفأر، فتظهر غلبتها وقهرها بشكل عجيب. لكنها لو

سمعت في تلك الحال صوت نمرٍ لصغرت وتراجعت بحيث لا يبقى أي أثر لغلبتها وقهرها. ما أن تحسّ بالنمر حتى تجمد كالتمثال الميت من الخوف، وتصير كالفأرة بالضبط نسبة إلى النمر.

وما دام الإنسان غافلاً عن قاهرية الله المحيطة به إحاطة غيبية فسُظهر الكبرياء لمن هم دونه، سواءً كانوا أطفاله وزوجته وتلاميذه أو جوارحه على الأقل. أنا أرفع من زيد وأكثر كمالاً. ولكنه في حال التوجّه لخالق العالم (الله أكبر) وارتفاع صوت الأذان ساعة الصلاة، إذا انتبه لهيبة الله ووجد حضور الله وحضور ملائكته الغيبية، سيفهم عجزه ويرى حجمه الحقيقي.

الانتباه لجنود الغيب، يذكر بالصغار

لو تحدّث الخطيب في الأمور السياسية بخلاف مرام السلطات الحاكمة سيرى فجأة أنّ هنالك مُخبرين وبيدهم مسجلاً يسجلون أقواله أو يكتبون ما يقوله ويهيئون له سجلاً، فماذا سيكون حاله يا تُرى؟ ستفارقه حالة الكبر وتتبدل خوفاً ورهبةً.

لكلّ إنسان مأموران من جنود الغيب، لا يفارقونه أبداً، يسجلون جميع ما يقول ويفعل، ولا يخرج المؤمن من الغفلة إلاّ حين يتصوّر أنّ كلّ ما يقوله محسوب عليه، فتظهر فيه حالة التواضع لتغسل ما سبقها من التكبر، وقد يصل به الأمر إلى الانتباه والخوف من المبدأ الأعلى جل جلاله، فلو كان من أهل الإيمان والمعرفة لعلم أنّ الإمام الحجة المنتظر (عج) هو عينُ الله التي تراقبه.

الكبر ثمرة الغفلة عن الشؤون الإلهية وعن جنود الغيب، وعلاجه التوجّه لعظمة الله وقاهرته. أرأيتم حال المحتضر مقابل ملك الموت؟ جعلنا الله على تلك الحال مقابل خالقنا خلال عمرنا كله كي لا يبقى فينا شيء من الكبر. في ساعة الصلاة التي نجد فيها حضور ربّ العالمين ستشعرنا الهيبة الإلهية، بصغار أنفسنا.

كان الأئمة عليهم السلام يتبسون كالخشبة من خشية الله أثناء الصلاة، وكان يُسمعُ
أنيّن من قلب النبي صلى الله عليه وآله كالقَدْر المغلي، كل هذا من التوجّه لحضور الله.
أيها العظيم إذ العالم وما فيه حقير، ما هي أوراؤُ اللسان يا مجير؟

«والزكاة تزكية للنفس» لماذا أوجب الله الزكاة؟ قلّما نجد سورة في القرآن
الكريم لم يذكر الله فيها بالصلاة والزكاة، والزكاة بصورة عامة هي إنفاق جزء
معين من مُلك الإنسان في سبيل الله، وفيها الواجب والمستحب. ما هي فائدة
الزكاة وما هو الهدف منها؟ لماذا يؤكد القرآن الكريم كل هذا التأكيد على
الزكاة بحيث تجب على الغني والفقير؟ وكما أسلفنا فالإنفاق واجب على
الجميع، حتى لو كنت لا تملك سوى تومانا واحداً عليك الإنفاق بهذا المقدار
وهذه النسبة، فالناس جميعاً مخاطبون بالزكاة. فلماذا هذا الخطاب؟

لو أراد الله لرزقَ الفقراء!!

﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطَعَمَهُ﴾ [يس: ٤٧] هذه ذريعة وحجة باطلة، نعم
لو أراد الله لأغنى الجميع، لكنّ حكمته البالغة قضت أن يكون البعض فقراء
ومعوزين والبعض أغنياء و متمكّنين، ليتخلّص الأغنياء ببركة الإنفاق والبذل من
مرض البخل الذي يعدُّ من أخطر الأمراض الروحية، ويصل الفقراء ببركة
الصبر إلى درجات الصابرين الرفيعة.

جاء في الروايات الصحيحة أنّ البخيل بعيدٌ عن الله والجنة والسعادة
وقريبٌ من نار جهنم، بل هنالك قول أثقل من هذا يفيد أن الكافر السخيّ
أقرب إلى الجنة من المؤمن البخيل.

إنّ سخاء الكافر قد يجعله من أهل الإيمان والسعادة، لكنّ بخل المؤمن
يخرجه من إيمانه ويحول دون دخوله الجنة: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُقَلَّبُونَ﴾ [الحشر: ٩] كيف يمكن لمن لا يستطيع في الدنيا أن يرى غيره في
سخاء، أن يبصر درجات المؤمنين في الجنة، إنّ رفاقه المخلصين هم

الشياطين. إنَّ علاج مرض البخل هو الإنفاق والبذل، عسى أن يخرج المصاب من البخل تدريجياً ويحلُّ السخاء محلَّهُ.

«والزكاة تزكية للنفس» أتوا الزكاة، أنفقوا، أقيموا الولائم عسى أن تزول خبائث الروح، فتصعد إلى العالم العلوي وترتبط به، إنَّ الخبيث لا سبيل له إلى الطاهرين، بل إنَّ الملائكة تفرُّ منه، إنَّ توكيدات القرآن الكريم تصبُّ جميعها في مصلحتك، يروى أنَّ الإمام السجاد عليه السلام كان إذا أنفق شيئاً في سبيل الله يُقبَلُ يده وربما قبَل يد السائل.

وينقل أنه عليه السلام حين سُئل عن سبب هذا قال، ألم تقرأوا: ﴿وَيَأْخُذْ الصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤]، إنَّ الله هو الذي يأخذ الصدقات، فكأنك تسلمها ليد الله عز وجل. فإنك لا تعطي المال لآخذه لثمنٍ عليه؛ بل الله يمنُّ عليك أن هداك للإنفاق ليظهر أوساخ نفسك تطهيراً.

الإنفاق والإخلاص بغير المنِّ والأذى

وللإنفاق شروط، أهمها: الإخلاص. فلا يمنُّ المنفق ولا ينتظر المديح، وإلّا لو أنفق الإنسان الملايين من أجل أن يقول له الناس: (بارك الله فيك) لما أدرك الزكاة والتزكية.

إذا لم يرافق الزكاة إخلاصُ المزكي؛ فلن تطهر الزكاة أقدار النفس. كلما كان الإخلاص أكثر؛ كانت التزكية أكثر. في الرواية أنه أهدي للإمام الصادق عليه السلام عنقودٌ من العنب الطازج، ومرَّ سائل فأمر الإمام غلامه أن يعطي العنب للسائل. فقال الغلام: إنه عنبٌ طازج ولا بأس لو أعطيته مالا. فقال له الإمام: ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿إِن نَّالُوا اللَّيْلَ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا حُبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢].

النموذج المتكامل للإنفاق في سبيل الله

صام أهل البيت عليهم السلام ثلاثة أيام وكان إفطارهم خبزٌ حصلوا عليه بجهد

جهيد، لكنهم كانوا كلما حان وقت الإفطار سمعوا أنين مسكين جائع فيقدموه ويؤثروه على أنفسهم، وهكذا ثلاثة أيام فقد جاءهم في اليومين التاليين يتيم وأسير.

أتعلمون بأيّ جهد استطاع (قمر بني هاشم) أن يحصل على الماء، كان عشرة آلاف رجل قد حالوا دون شريعة الفرات، غير أنّ أسد الشجاعة كسر الصفوف ووصل إلى الشريعة، ورغم ما كان فيه من التعب والظمأ والحرّ إلاّ أنه ذكر عطش الإمام الحسين عليه السلام وأطفاله، فلم يشرب الماء؛ بل ملأ القربة وعاد، لكنهم حملوا عليه من كلّ جانب حتى صار درعه كالفنذ.

«والزكاة تزكية النفس» يذكر الله في الحديث القدسي علة الإيجاد، كل هذه الكرامات وظهور المخلوقات والموجودات مقدمة هي لظهور البشر والهدف من إيجاد البشر على هذه الكرة الأرضية لمدة معينة هو الاستعداد للتقرّب من الله والوصول إلى دار القدس.

من أسماء الله (القدوس) عسى أن يصل الإنسان إلى عالم الملكوت اللامتناهي حيث تتجلّى أسماء الله وصفاته تماماً، وتظهر القدرات والعظمة والفضل والعطاء والرحمة الإلهية. عسى أن يجد الإنسان طريقاً إلى عالم القدس الإلهي. إنّ الأشياء جميعاً مخلوقة لهذا العالم، والإنسان مخلوق للعالم الآخر.

هذا العالم مركزٌ للاستعداد لذلك العالم. بماذا يحصل الاستعداد؟ بالشرع الذي شرعه الله تعالى والأوامر التي أصدرها عن طريق الأنبياء عليهم السلام، ليكون الإنسان قدسياً ببركة هذه الأوامر ويتقرّب من قدّوس العالم القدسي.

طرق الفلاح في التزكية

إنّ الفلاح في الوصول إلى الهدف مُعدّدٌ للذي يؤتي الزكاة هنا ويتطهّر فيصل من بعد الموت إلى العالم الذي خلق البشر لأجله، والخلاصة هي أنّ الدنيا دار التزكية وهناك أحكام للزكاة في الشرع المقدس.

ومن جملة دساتير التزكية المذكورة في القرآن أكثر من مائة مرة هو (الإنفاق)، ففي القرآن تعابير لطيفة في الحثّ على الإنفاق حدّ أنّ أهل المعرفة يخلجون من أنفسهم، ولأنّ الله يريد أن يتطهّر الإنسان هنا بأكبر قدر ممكن نراه يُعبر عن الزكاة بالقرض.

أيها الإنسان أقرضنا المال الذي وهبناك إياه، فإنّ الله يمنح الفائدة عليه، كم يمنح؟ واحد بالمائة أو عشرة بالمائة؟ كلا، بل بمقدار ما يريد الإنسان. يقول الإمام علي عليه السلام: «استقرضهم لا من ذلٍ» إنّ الله يقترض من الناس لا لأنه محتاج للقرض، ولكن ليتطهّر الناس ويتزكّوا.

«والزكاة تزكية للنفس» يجب أن تزكّي النفس وتُطهّر ببركة الإنفاق ويستعدّ الإنسان لدخول العالم الأعلى بماله الذي أعطاه الله وجوارحه التي منّ بها عليه، فليقلّ خيراً ويعمل صالحاً ويرفع عن الضعفاء أثقالهم ويعود مريضاً وينفق مقداراً مما وهبه الله في سبيل الله.

إنّ طبيعة النفس البشرية هي التعلق بالمال، ولكن تغلّب على هذه العلاقة لينجيك الله من داء البخل قبل أن يستحيل مالك وملكك تئناً يلتفت حول عنقك، وقبل أن يضعوا أمامك الوجه الملكوتي من مالك، ويدعون من كانوا يستحقّون زكّاتك ليكُون به جبهتك وظهرك وجنوبك.

إنّ هذا المال الذي بخلتم به سيستحيل ناراً يكوي جباهكم وظهوركم وجنوبكم، هذا عين الحق والحقيقة.

ذكرنا سابقاً أنّ الإنفاق الواجب لا يخصّ الأغنياء فقط، فعلى جميع البشر أن ينفقوا ويزكّوا، حتى الفقير عليه أن ينفق بمقدار استطاعته أو حسب قول الرسول صلى الله عليه وآله: «أتق الله ولو بشقّ تمرّة» فعلى من يملك تمرّة واحدة أن ينفق نصفها، لأنّ بركة الذي يملك تمرّة واحدة هي نصف تمرّة، ولكن إذا كان الشخص ميسور الحال فإنّ إنفاق تمرّة واحدة مهزلة بالنسبة إليه. يجب أن نهتمّ بما اهتمّ به الله، وقد اهتمّ الله بالإنفاق كثيراً، اللهم وقنا للإنفاق في سبيلك.

«ونماء في الرزق» إن الهدف من الإنفاق هي التزكية، وبالإضافة إلى التزكية فهناك فائدة أخرى للإنفاق وهي البركة. إن مالك يبارك بالإنفاق، فابدل شيئاً منه في سبيل الله ليزيده الله بالإضافة إلى ما في ذلك من الثواب والتزكية. إذا ضاق الرزق بشخص وأراد الفرج؛ فلينفق مما عنده في سبيل الله ليوَسِّع الله عليه.

شكا أحد أهالي الكوفة للإمام الصادق عليه السلام في المدينة عسر حاله وكساد تجارته، فأمره الإمام أن يطعم عشرة من المؤمنين بعشرة دراهم.

وحين عاد الرجل إلى الكوفة لم يكن لديه سوى وسادة، باعها بعشرة دراهم ليقيم وليمة لعشرة مؤمنين، فأقام الوليمة ودعا المؤمنين وأخبرهم خلال الطعام بحاله وسألهم الدعاء، وعندما بدأ عسرهُ يتبدل يسراً وشدته تنتهي إلى الفرج إلى أن صار غنياً: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] هذا بالإضافة إلى ثواب الآخرة.

شروط استجابة الدعاء

سأل أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السلام إمامه عن آيتين من آيات القرآن وقال: إنهما تبعثان في نفسه الشك، الأولى: ﴿ادْعُوهُ اسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠] فقد دعوتُ الله مراراً ولم يستجب لي. والثانية: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] وقد أنفقت مراراً في سبيل الله؛ فلم يخلفه لي. فأفهمه الإمام عليه السلام بأن الدعاء يجب أن يكون صادقاً منه، ولا بد من مراعاة صورة الدعاء. فسأله الرجل عن صورة الدعاء. فأوضح الإمام عليه السلام بأن الدعاء يجب أن تسبقه التوبة عن الذنب، فالمذنب يجب أن لا يتوقع استجابة دعاء ما لم يكن قد تاب عن ذنبه، وكذلك لا بد للداعي أن يكون شاكراً لنعم الله، وأن يصلي على محمد وآل محمد، ثم يدعو الله بقلب طاهر، وعندما سيستجيب الله دعاءه.

يجب أن يكون الإنفاق من الحلال

وأما الإنفاق فيجب أن يكون من حلال، فلو كسب الإنسان مالاً حلالاً وأنفقه في محلّه وفق شروطه فمن المحال أن لا يعوّضه الله، وإن لم يُعوّض فهنالك نقصٌ في شروط الإنفاق بلا شك، وأول الشروط أن يكون الإنفاق من المال الحلال. والشروط الثاني أن لا يكون مما يُراد الاستغناء عنه لعدم فائدته، كالزيت المتعفن أو التمر التالف، فليس في ذلك خير، ولا يعتبر هذا من الإنفاق في شيء، ولا يصحّ أن ننتظر تعويض الله لكسرة خبز يابسة لم نكن ننتفع بها فأنفقناها، بل يجب أن نفق مما نحب.

والخلاصة هي أنّ الإخلاص من أهم شروط الإنفاق، فتنفق في سبيل الله لا انتظاراً للمدح والشهرة، فما أن تتوقع الثناء الدنيوي حتى يذهب إنفاقك أدرج الرياح، وإذا مننت بطلت صدقتك كأن تقول للسائل (سأعطيك هذه المرة، ولكن ليس لك الحق أن تأتي هنا مرة ثانية، لماذا لا تذهب وتبحث عن عمل أو شغل) ثم تعطيه شيئاً، إن صرفَ السائل بلسان طيب خيراً من أن تعطيه بأذى ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتَّبِعُهَا أَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٣] وليس من الإنفاق في سبيل الله أن تعطي شيئاً وتُرفقه بالمنّة والأذى، أو تتوقع الجزاء، كأن تتوقع من السائل أن يطيع أوامرک، أو يعيد إليك ما أعطيته. فهذا ليس بالإنفاق المطلوب، ولن يعوّض الله عنه شيئاً.

البركة في الزراعة التي أنفقها في سبيل الله

رحمة الله على الشيخ النوري، فقد روى في باب (الكلمة الطيبة) من كتاب (أربعون قصة ورواية) شيئاً عن بركات الإنفاق جديراً بالقراءة حقاً.

روى عن العالم الرباني (الملا فتح علي سلطان آبادي) أنه كان لأحد أرحامنا في (سلطان آباد) عدة قطع زراعية يستخدمها في رزقه ومأكله، وعندما ابتلي الناس بالقحط في أواخر إحدى السنين، كانت زراعته في إحدى القطع

تنضج سريعاً فينتفع منها، وكانت بقية المزارع تحتاج إلى عدة أيام آخر حتى تأتي أكلها، وفي إحدى الليالي وقف هذا الرجل الشريف في المسجد وقال: أيها المسلمون إن واحدة من مزارعي أصبحت مهياًة للحصاد، وقد بذلتها في سبيل الله بشرطين، الأول: أن يأخذ منها كل من هو فقير. والثاني: أن لا يأخذ أكثر من قوت ليلته ويومه.

وفي اليوم الثاني ذهب الفقراء إلى المزرعة وأخذوا منها ما يحتاجونه، حتى أنضجت بقية المزارع أكلها، وحصل الفرج العام.

وبعد جمع المحصول قال للفلاحين من المستحسن أن نجمع البذور من هذه المزرعة التي حصدها الفقراء، فلعلهم لم يحصدوها جيداً.

فذهبوا وأخذوا يحصدون ما تبقى من رؤوس ونهايات الزرع، ثم أخبروا بأن الحاصل المجموع من هذه المزرعة كان أكثر مما جمع من بقية المزارع مجتمعة، فدفعنا زكاته... وتركنا الأرض ليتمر عليها عام لتنتج بعد سنتين بشكل أفضل.

ولم نبذر فيها حسب القانون، وما أن حلّ الربيع حتى ظهر الزرع من تلك الأرض بشكل عجيب، وقد أعطت ضعفين مما أعطته بقية الأراضي مجتمعة من الحنطة والشعير..

الدقيق في باب بيت (الأردبيلي)

ونقل الشخص نفسه قائلاً:

كان من المتعارف عليه في (النجف) في عهد (المحقق الأردبيلي) أن يصنع الناس خبزهم في بيوتهم، وكان (المحقق الأردبيلي) يملك كذلك مقداراً من الحنطة والدقيق في منزله ليصرفه في معيشة سنته، وصادف نهاية السنة حصول قحط في الحنطة، فأعلن (المقدّس الأردبيلي) بين الناس - من أجل مواساتهم - أنّ كلّ من لا يملك الحنطة فليأت إليه، وأخذ بتقسيم ما عنده بالتساوي، فأخذ

له قسماً وأعطى الآخرين من الأقسام الأخرى، فاعترض عليه أهل بيته بقولهم: لماذا جعلت زوجتك وأطفالك مثل المتسولين في هذه الظروف الصعبة. تألم (الأردبيلي) من هذا الكلام فذهب من (النجف) إلى (الكوفة) واعتكف في مسجد الكوفة، وخلال هذه الأيام الثلاثة التي كان (الأردبيلي) فيها معتكفاً جاء رجل طرق باب بيته ومعه حملٌ من الدقيق، وقال: أنه للأردبيلي وهو في مسجد الكوفة. فملاً أهل البيت الأوعية من الدقيق وهم فرحون.

وبعد عودته قالت عائلته: إنَّ الدقيق كان من نوعية جيّدة، فمن أين أتيت به؟ فقال: وأيِّ دقيق؟ فحدّثوه بما جرى، فعلم أنّ ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ﴾ [سبأ: ٣٩] وهكذا هي المعاملة الإلهية^(١).

وهناك شواهد كثيرة لا يمكن إنكارها من الأمور التي وردت في الآيات القرآنية، ومن ذلك: الإخلاص. فإذا كان الإنفاق لوجه الله خالصاً مع توفر الشروط فمن المستحيل أن لا يُعوّض ذلك في هذه الدنيا.

وعلاوة على تزكية النفس فإنَّ الإنفاق «الصدقة جُنة عظيمة من النار» فالذي ينفق يقول: إلهي ما هذا الذي منع وصول النار إلي؟ فيُجاب: أنه الإنفاق الذي عملته في دنياك^(٢)...

إنَّ فوائد الإنفاق عجيبة، اللهم بعزتك وجلالك نجّنا من مرض البخل، ووقفنا للإنفاق: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦].

جناحان بدل اليدان المقطوعتان لأبي الفضل عليه السلام

لقد قلنا إنَّ كلَّ شيءٍ تعطيه فإنَّ الله يعطيك أفضل منه، لقد قدّم أبا الفضل

(١) الكلمة الطيبة: الشيخ النوري، ص ٢٣٧.

(٢) لآلئ الأخبار.

العباس بن علي عليه السلام يديه في سبيل الله، فأعطاه الله بدلاً منهما جناحان يطير بهما في العالم العلوي.

قال الإمام زين العابدين عليه السلام: «إنّ لعمي العباس درجة يغبطه بها جميع الشهداء»...

والحقيقة إنه أهل لذلك الجزاء، فهو لم يبخل حتى بيده، وكذلك عينه. نقل في مقاتل الصحيحة، أنّ العباس عليه السلام لم يبق له عضو سالم، فحينما سقط إلى جوار نهر العلقمي، جاء إليه الإمام الحسين عليه السلام، وكان يجمع الجثث قرب المخيم ليحفظها من التلوث، ولكنه لم يستطع أن ينقل جسد العباس عليه السلام لكثرة ما أصابته من الجراح وأنه كان قطعة قطعة.

«والصيام تهيئة للإخلاص»

والخلاصة فإنّ كلمات الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام مليئة بالجواهر، في بيان العلل والمصالح الخفية، وأوجبت الإيمان بها لتنقذ البشر وتطهرهم من نجاسة الشرك، لقد أوجب الله الصلاة في اليوم واللييلة سبع عشرة ركعة واجبة وأربعاً وثلاثين ركعة مستحبة «تنزيهاً لكم من الكبر» لينجو الإنسان من مرض الكبر، وليقع في وادي العبودية.

إنّ الأنانية والكبرياء هما من الأوساخ التي هي من عمل الشيطان اللعين، وهي موجودة في الإنسان كذلك، ولا بدّ من التخلص منهما والتطهر منهما، والصلاة هي مظهر ذلك.

وبعد الصلاة، تأتي الزكاة، حيث تقول عليها السلام: «الزكاة تزكية للنفس» وحين أمر الإسلام بإعطاء الخمس، والزكاة، وصلة الرحم والإنفاقات المستحبة، والضيافة في سبيل الله، فإنها مستحبة وواجبة، ليس لأنّ الله سبحانه وتعالى محتاجاً لكي ترزق أنت عباده، بل لتكون سبيلاً للخير ليذهب عنك مرض البخل، فمن المحال أن يدخل الإنسان في العالم المقدّس وهو ملوّث بأوساخ البخل، إلّا أن يتطهر خلال البرزخ ومواقف القيامة بالعذاب.

إنّ هذه الإنفاقات جاءت من أجل تطهير الإنسان، وإنّ الله يبارك في المال الذي ينفقه الإنسان في سبيل الله، وليعلم أنّ الله سبحانه وتعالى سيعوّض عن ذلك، علاوة على الثواب في الآخرة، لكن حسب الشروط التي مرّت.

كيف يُقوّي الصومُ الإخلاصَ؟

للصوم منافع متعدّدة معنوية وماديّة، وقد نُقل عن الرسول الأكرم ﷺ قوله: «صوموا تصحّوا» ولا شك فإنّ للصوم آثاراً مهمة في صحّة الجسم، ومن الآثار المعنوية للصوم ووجوبه هو ثبات الإخلاص.

الإخلاص الذي هو أصل الدين وشرط صحّة كلّ عمل، فإنه يكون صحيحاً لدى الشخص الصائم، ولذلك فإنّ الذي يجب بحثه في البداية هو معنى الإخلاص، ثم تثبيته بواسطة الصوم، وقد ذكرنا تفصيل الإخلاص في كتابي: (الذنوب الكبيرة) و(القلب السليم)، ولكننا هنا نتحدث بصورة مختصرة عن ذلك.

الإخلاص هو أن يؤدي المسلم أعماله وعباداته في سبيل الله وحده، والعبادة التي يؤدّيها لنيل رضى الله فقط، فإذا كان في عبادته ينظر إلى شيء آخر؛ فإنه يسقط عن الخلوص. فمثلاً إذا كان يعطي الزكاة وكان هدفه من ذلك أمر آخر غير كسب رضى الله فلا فائدة من عمله ذلك.

سهم السادة لعامل الحمام

قبل مُدّة سأل أحد الأشخاص: إنّ في الحمام شخصاً يعمل دلاًكاً وهو سيد فقير، فهل يجوز لي أن أعطيه سهم السادة؟ فقلت: ما دام سيداً وفقيراً فإنّ من الجائز إعطائه سهم السادة، ولكن لا تعطه أنت بنفسك. فقال: لماذا؟ قلت: لأنك إن أعطيته بنفسك، فسوف تتوقع في سرّك أنه سوف يدلّك ظهره جيداً في الحمام ويحترمك، فإذا كنت تريد لعملك أن يكون حقيقة لوجه الله أعطِ المال لشخص آخر ليقوم بإعطائه إياه.

وما أريد أن أقوله عن الإخلاص في العمل هو أن لا تشوب العمل أي ذرة من هدف آخر غير رضى الله سبحانه وتعالى، وإلا فإنّ العمل يحبط، ويكون لا شيء، وعليه أن يؤدّيه مرة أخرى.

يقرأ القرآن بصورة أجمل من أجل شخص آخر

قال العلماء الكبار:

كنت في ليلة أوّدي صلاة المغرب والعشاء والنوافل والأوراد وقرأت سورة طه ثم نمت، وفي عالم الرؤيا شاهدت أنهم عرضوا عليّ صحيفة عملي في تلك الليلة، فوجدت أعمالِي في تلك الليلة كلها مسجّلة من بدايتها وتحت كل عمل كتبت عشر حسنات، حتى سورة طه كانت موجودة ولكن آية واحدة منها لم تكن موجودة، فسألت الله وأنا في ذلك الحال أن يفهمني سبب محو الآية مع أنني تلوتها.. ففهمت أنك عندما وصلت إلى هذه الآية دخل شخص عليك فرقت صوتك.

في بعض الأحيان يستحسن الآخرون صوت إنسان عندما يسمعون، ولو كان يتلو غير القرآن. فإذا كنت تقرأ الشعر أو النثر أو القرآن ولكن ليس لذكر الله فإنّ عملك يحبط ما لم يكن محصناً بالإخلاص.

إنّ الإخلاص مقوم لكلّ عملٍ واجباً كان أو مستحباً، فإذا كان واجباً تجب إعادته إذا تم أداءه دون إخلاص، حيث يجب إعادة دفع الخمس إذا دفع أول مرة بدون إخلاص، إنّ هذا الإخلاص هو من الأمور التي يجب على الإنسان أن يسعى للحصول عليها، ويجب على كل مسلم أن يخلص نيته قبل أداء أي عمل ليجعله خالصاً لله.

العبودية في الطاعة يجب أن تكون للواحد

وثانياً، أن تكون مخلصاً في الطاعة، لأنك عبد لواحد ويجب عليك أن تطيع أوامره، وحذار من أن تكون موزعاً بين اثنين، فتكون عبداً للشيطان

أيضاً، فحينما تتلو في المسجد: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وتشاهد الأفلام الخليعة في البيت عبر التلفزيون، فإنك تكون قد خرجت من الإخلاص.

هذا الإخلاص بأيّ الأشياء يُصنع؟ تشير السيدة الزهراء عليها السلام في خطبتها إلى أنّ الشيء الذي يُحكم العمل، ويجعل المرء من أهل الإخلاص هو الصوم.

في الصوم تمرين على الإخلاص

يجب القول في البداية: إنّ الصوم أمرٌ معنوي... يرافقه الامتناع عن الأكل والشرب من طلوع الفجر حتى المغرب... ومن الممكن للإنسان أن يتناول الطعام في السرّ، فيرتكب بذلك معصية، ولكنّ الذي يمسك عن ذلك إنما يعبر عن الإخلاص في الطاعة، وخصوصاً في الصيف، حيث يكون النهار طويلاً حارّاً، حيث تحدّث الإنسان نفسه والشيطان بتناول الماء البارد، ولكنه يقدّم على ذلك حكم الله عزّ وجلّ.

ومع مرور كلّ يوم فإنّ (ملكة الإخلاص) تتقوى عنده وتتأصّل شرط أن لا يعصي الله في أمور أخرى، فإذا قال قولاً فاحشاً أو اختلس نظرة من حرام أو تكسّب بالحرام وهو صائم؛ فإنه يخرج من درجة الإخلاص.

إنّ كل عبادة من العبادات تستمر لمدة قليلة، أما الصوم فهو عبادة طويلة نسبياً.

يحبّ الصيام في الصيف

قال الإمام علي عليه السلام: «اخترت من الدنيا ثلاثاً: صوم الصيف، وإكرام الضيف، والضرب بالسيف»^(١).

في الشتاء النهار قصير، والهواء بارد، أما الصوم في الصيف فالنهار أربع

(١) لآلئ الأخبار: الباب ٢، ص ٧٢.

عشرة ساعة، والهواء حار... وهنا يقف الأمر الإلهي في جهة.. والنفس الأتمة والشيطان في جهة أخرى... فاختر لنفسك في أي طرف تكون.

«تثبيتاً للإخلاص»... إنَّ الإخلاص في العبادة يحوّل العبد إلى عبد مخلص بعد شهر من العبادة، فقد ورد في الروايات أنَّ الصائم تغفر له جميع ذنوبه بعد انقضاء شهر الصوم خصوصاً وأنَّ جميع الأعمال المخالفة للإخلاص تمحى ببركة هذا الشهر المبارك.

«وبلّغنا شهر الصيام، وأعتنا على الصيام، والقيام، ولا تجعل حظنا من الجوع والعطش»^(١) أي أن أكون بشكل يزداد معه إخلاصي، بشرط أن لا أذنب.

والشيء الآخر هو أن مجاهدة النفس تحتاج إلى قوة الإرادة: «أفضل الأعمال أحمرها»^(٢). وأنه لمن الصعب على الإنسان الذي يتناول يومياً الطعام والشراب ويدخن السيكار، ثم يترك ذلك دفعةً واحدة. وإنَّ الجهاد الأكبر هو جهاد النفس.

الله يعلم أجره

إنَّ الصوم ليس كباقي الأعمال، لأنَّ بقية الأعمال تقوم الملائكة بإحصاء أجرها وثوابها، ولكنَّ الصوم وليس مجرد الجوع فإنَّ الله هو الذي يعطي ثوابه شرط أن يكون الصائم موخداً في إطاعته، وإنَّ في الطاعة كلام كثير، ولعل واحداً من أسرارها هي شدة القرب، فالإنسان الذي يتقرب إلى الله لمدة شهر بهذه الطريقة؛ فإنه يكون قريباً من مالك الملك بقدر ما يحصله من القدسيّة، فيفوق بذلك حتى العالم المقدس للكرام الكاتبين، ولذلك قال سبحانه وتعالى: «الصوم لي وأنا أجزي به»^(٣).

(١) من دعاء شهر رجب.

(٢) مرآة العقول: ج ٢، باب النيّة.

(٣) سفينة البحار للقمي.

الإسراف في الأكل سبب لوساوس الشيطان

يروى عن خاتم الأنبياء محمد ﷺ قوله: «إنّ الشيطان يجري في ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش»^(١).

وعلى الشخص الذي يريد التخلص من وساوس الشيطان أن يتعد عن موجبات ذلك... ومن موجبات ذلك الإسراف في الأكل... فإذا أسرف الإنسان في الأكل والشرب اقترب الشيطان منه أكثر.

وجاء في (فروع الكافي)، في كتاب الأطعمة والأشربة: «أبغض ما يكون العبد من الله إذا امتلأ بطنه»^(٢) لأنّ الذي يملأ بطنه من الطعام سيكون قلبه مأوى للشيطان، لأنّ الطريق سيكون مفتوحاً أمام الشيطان.

في نفس الكتاب وفي رواية أخرى: «... وأقرب ما يكون العبد من الله إذا جاع بطنه»^(٣). وخصوصاً وقت العصر، فالذين يصومون يعلمون أيّ هناء ينزل عليهم وأيّ هدوء، فليس لديهم اهتمام بالشهوات الدنيوية، وهم يشعرون بالهدوء والنجاة من الوسواس الشيطانية. إنّ الإنسان إذا أراد أن يكون من أهل الإخلاص، وأن يكون عبداً لله فقط فإنّ تثبيت وتقويته ذلك إنما يتمّ عن طريق الصوم.

إنّ الصيام واجب في الشرائع السماوية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٨٣]، ولم يبعث الله رسولاً إلاّ وشرّع معه الصوم والصلاة، وإنّ تشريع وجوب الصوم في كلّ الأديان الإلهية جاء من أجل إنقاذ الإنسان من شرّ العبودية للشيطان، وطريق الخلاص هو أن يضيق الطريق على الشيطان، وهذا يتمّ ببركة إخلاء البطن من الطعام، فالجوع والعطش يضيقان الطريق على الشيطان، ويصبح

(١) المحجة البيضاء للفيض: ج ٥، ص ١٤٨.

(٢) الكافي للكليني: ج ٤، ص ١٥٧.

(٣) الكافي للكليني: ج ٤، ص ١٥٧.

الإنسان عبداً للرحمن وحده.. إن شهر رمضان يقلل الذنوب، لأنه يغلق على الشيطان مساره، وهو يكفي لتثبيت الإخلاص.

ثم يأتي قولها ﷺ: «والحج تشييداً للدين» إن الحج واحد من فروع الدين، وهو من الواجبات الضرورية في الإسلام ومنكره كافر، وتاركه هالك...

لماذا سُرع الحج؟

لو أن أحداً تمعن في كلمات السيدة الزهراء ﷺ لوجد أنها جاءت بكلمات جامعة، مثل كلمات أبيها خاتم الأنبياء ﷺ حيث يقول: «أوتيت جوامع الكلم».

إن الإتيان بمعانٍ جلية وغنية بكلمات قليلة لهو من الأمور التي تُعدّ فوق طاقة البشر العاديين، والسيدة الزهراء ﷺ التي لم تتلقّ التعليم إلا على يد أبيها ﷺ وهي تقول تلك المعاني الجليّة بكلمات قليلة.

التشييد بمعنى التحكيم، فمثلاً عندما يوضع الجص فوق الطابوق عند البناء، يقال: شيد. أي أحكم البناء لكي لا ينهدم وينهار.

والسيدة الزهراء ﷺ تريد إن تقول أن الله أوجب الحج لإحكام الدين... فكيف يكون الحج تشييداً للدين؟

الكعبة شعار الإسلام

إنّ لتشييد الدين جهات متعدّدة، إن بقاء أصل الدين وهو الإسلام مرهون بالحج، إن هذا البيت الذي بُني على يد النبي المرسل أي إبراهيم خليل الرحمن ﷺ قد دعا الله كل أنبيائه المرسلين بالتوجه إليه، والمسلمون يتوجهون إليه في اليوم خمس مرات أينما كانوا...

وحين يحلّ أول وقت الظهر، يتوجّه ملايين المسلمين نحو نقطة واحدة، وهي وحدة عجيبة وتجمّع حيّ دائم.

وعند الذبح يجب أن يوجّه أي حيوان يُراد ذبحه نحو هذا البيت،

والمحتضر يجب أن يتوجه بوجهه نحو القبلة ويُغسل ويُدفن باتجاه القبلة...
وعلى المستطيع أن يحج إلى البيت، ويُستحب له أن يكرّر الحج.

إنّ الكعبة تعني شعائر الله والنبي والقرآن والصلاة والإسلام: ﴿إِنَّ أَصْفَا
وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨] إنّ شعائر الله هي الحج أولاً، ثم الصلاة
جماعة، وحياة الدين مرتبطة بها.

الكعبة سبب قيام الناس

جاء في القرآن الكريم عن الكعبة ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفَّةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ فِيمَا لِلنَّاسِ
وَالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْهَدَى وَالْقَلِيدَ ذَلِكَ لِيُعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧].

والقيام بمعنى ما به القوام، فالكعبة ومراسم الحج هو المتكى الذي يستمر
بواسطته الدين...

لقد أحكم الحج أركان الإسلام... وهو أكبر شعائر الله... ولذلك قال
الإمام علي عليه السلام في وصيته: «الله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم»^(١).

ولعظمة الحج فإنه يجوز إرسال الناس غير المستطيعين بواسطة إعطائهم
المال من بيت المال من أجل أن تمتلئ صحراء عرفات... لإحياء شعائر الله،
وهذا هو معنى تشييد الدين.

الحج من أجل تقوية الدين

والتوضيح الآخر لمعنى تشييد الدين وإحكامه لدى المسلمين، أنّ الإيمان
القلبي لا يحصل دفعة واحدة، ففي البداية يقول الإنسان: لا إله إلا الله،
فيتطهر بهذه الكلمات، أما الدين فهو استقرار الإيمان في القلب بحيث يكون
مستقراً للخشوع لله والإيمان به، فإنه لا يحصل ما لم يعمل الإنسان بأوامر

(١) نهج البلاغة: الكتاب/٤٧ من وصيته عليه السلام لولديه الحسينين عليه السلام.

الدين. وإذا أراد الإنسان أن يجد الطريق لكي يُحکم أصل دينه فعليه أن يحجّ، فإنّ الله يعينه بحكمته البالغة عن ذلك الطريق، فيحكم عقد قلبه على الدين.. فيزرع بذرة الإيمان في قلبه ويسقيها ويجعلها ثمرة معطاءة... كيف؟ إنّ أكبر مانع من التّدين هو شرّ الهوى والهوس، والعلاقات المادية، والأنانية وعبادة الذات، وراحة البال... فهذه الأشياء لا تدع الإنسان يعقد نيّته الخالصة لله وللآخرة، ويصلح نفسه ويهذبها، لأنّ تلك العلاقات المادية تشغله عن التوجه لله: ﴿الْهَنُكُمُ الْكَاثِرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [التكاثّر: ١ - ٢] و: ﴿لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالِكُمْ وَلَا أَوْلَادِكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [المنافقون: ٩] و: «حُبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» إنّ ضعف الإيمان الذي سيطر على المسلمين إنّما حدث بسبب هذه العلاقة المادية والانشغال، فجعل القلوب متوجهة نحو الدنيا: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

هذه العلاقات المادية لا تسمح للقلب أن يتوجّه نحو الله، وإذا قال شيئاً فإنما يقوله بلسانه! قلبك متوجه نحو الدنيا، ورغباتك الدينية تكون ضعيفة، وليس ضعفاً خارجياً وإنما هو ضعف الشخص سواء أراد أو لم يرد يلتصق بالدنيا وبالتالي يضعف إيمانه.. أي مثل البناء الخالي من الجص، فالحج إذاً عمل يحكم دينك ويقوّيه.

كيف يقوي الحجّ الدين؟

كيف يقوي الحجّ الدين؟ ولبيان ذلك نقول: إنّ الإنسان عندما يبذل المال الذي يحبه والذي هو عزيز عليه في سبيل الله، ويقطع علاقته بالمال فهذه أول خطوة لتقليل العلاقة بالمال بأي قدر كان.. وهو يقوّيها بالله من جهة ثانية.. ويقلّل تعلقه كذلك بزوجته وأولاده وخصوصاً في السابق حين كان السفر يتمّ على الجمال والبواخر، ويستغرق ثلاثة أشهر في الصحراء والرمال والحر.

والحقيقة فأبّ سعادة وأنس كان السابقون يتمتّعون به... حيث يتركون البيت وهدوءه والجلوس بجانب أزواجهم وأولادهم، ويصرفون أنظارهم عن كلّ

الملذات ليتعرّضوا لوحشة الصحراء وحرارتها المحرقة... ولكم راودتهم في نومهم أحلام مزعجة... ولم يكن الماء في ذلك الزمان متوفراً مثل الآن، وكان عليهم أن يحملوه معهم، وكلما كانت المشقة أكثر؛ كانت العلاقة تزداد مع الله أكثر.

سفر الحج استعداداً للموت

كان الحاج في السابق ولا يزال البعض يفعل ذلك، كان عندما يريد الذهاب يكتب وصيته، ليكون مهياً للموت... ويكون كمن قطع علاقته تماماً بالدنيا: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٦١].

هذا الشخص الذي يتحرك مثل هذه الحركة كيف يكون قلبه؟ تستحکم علاقته بدينه يوماً بعد يوم، كان في وطنه يعيش في اطمئنان... وفي الصحراء عليه أن يجلس على الرمال، فقد خلف وراءه الاستقرار والدعة... حتى يصل الميقات.

الميقات نموذج لسفر الآخرة

في الميقات عندما يخلع الإنسان ملابسه يتذكر ساعة غسله على خشبة الموت، حيث ينزعون عنه ملابسه، مثل اليوم الذي جاء فيه إلى الدنيا.. على خشبة الموت يتم الأمر بالإجبار.. وفي الميقات يتم بالاختيار.. كنت في مدينتك بلباسك، أما في الميقات فتصبح إنساناً، ما تلك؟ ﴿وَلْيَأْسُ النَّفْسُ ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ [الأعراف: ٢٦].. ترمي بكل شيء جانباً، وتلبس الكفن أي قطعيتين من الإحرام.

الله أكبر.. أيّ أوامر عظيمة في هذا التشريع، حيث تسعى كلها لتقوية إنسانية الإنسان المسلم ودينه وإيمانه، وحيث يقطع قلبه كل علاقاته المادية، ويقوي علاقته بالله (عندما يخرج الغول، تدخل الملائكة).

ومنذ البداية يرّد الإنسان: لبيك اللهم لبيك، حيث قلت يا رب: ﴿وَلِلَّهِ

عَلَى النَّاسِ جُحُوبٌ أَلْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَيْلًا ﴿ [آل عمران: ٩٧] فها أنا ذا قد عدت إليك (قد غفلت عنك زمناً وعصيتك، واستيقظت الآن من غفلتي وأتيتك).

وديان البرزخ و عرفات كيوم القيامة

كم بين الميقات حتى مكة من المرتفعات والوديان، إنه منظر من مناظر البرزخ.. وإن أمامكم بعد الموت لشعابٌ كثيرة كما قال أمير المؤمنين عليه السلام: «فإن أمامكم عقبة كؤوداً ومنازل مخوفة..»^(١).

روي أنّ وديان القيامة مسير ألف عام هبوطاً وألف عام صعوداً، حسب حال كل إنسان.

وفي كل وادٍ وكل مرتفع تنادي: لبيك.. لبيك.. وهي مشاهد من حالات البرزخ القادمة.

إن أول الحشر والقيامة هي عرفات.. الله أكبر، من الظهر حتى الغروب تقف مكشوف الرأس وحافي القدمين باكياً منادياً مثل صحراء المحشر: ﴿يَوْمًا عَبُوسًا قَتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠] الجميع يرتجفون في أول موقف حائرين.. باكين إلا أولئك الذين سبقت منهم الحسنی ببركة ولاية أهل البيت عليهم السلام: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

في (عرفات) الجميع حائرون، إلهي هل غفرت لنا ذنوبنا في هذا الموقف.. وهل ستعطينا صحيفة أعمالنا بأيماننا؟!

في (الموقف الأول) من القيامة تسيطر الحيرة ويتأخر الناس أربعين سنة، أمّا في (عرفات) فهو نصف يوم، نعم إنه يوم المحشر إذا كان وقوف الإنسان صحيحاً.. ففي هذه الصحراء، يقف الجميع حاسر الرأس وحافي القدم.. والشيء الأساسي وراء البكاء والدعاء والعويل هو السؤال: يا رب هل غفرت لنا؟ وهل شملتنا برحمتك أم لا؟

(١) بحار الأنوار للمجلسي: كتاب الحج.

البريء.. كالمولود حديثاً

في (المشعر الحرام)، هناك رواية أنّ أبواب السماء تتفتّح في ليلة العيد من أجل أن تصعد ابتهاجات الحجاج.. أيها الحاج ليس الوقت وقت تفكير بالطعام والراحة؛ بل وقت التفكير بالآخرة.. وماذا سيكون حالك يوم القيامة..؟

وبناءً على هذا فالحج يقوّي الدين، وإنّ الشيء الذي يجب أن يتطهّر منه الناس يوم القيامة يكون الحاج قد تطهّر منه هنا حتى يصل إلى المرحلة التي قال عنها أمير المؤمنين علي عليه السلام: إنه كيوم ولدته أمّه.. فلا تكون فيه ذرة من الكبر والحرص والبخل والحسد والحقد وحبّ الدنيا.. ولا يتسنّى ذلك للجميع.

ليس هناك ما يُعوّض عن الحج

سافر أحد الأشخاص المستطيعين للحج، ولكنه لم يتمكّن من الوصول، فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة وقال: يا رسول الله كنت عازماً للحج، فلم أصل فعين لي مبلغاً لأصرفه وأنال به ثواب الحج فأوضح له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بأنه لو كان (جبل أبي قبيس) مالاّ ثم أنفقه؛ لما نال به ثواب الحج.

إنّ الإنفاق يقلّل من البخل ويذهبه، ولكنّ الأمراض التي يُشفى منها الإنسان بواسطة الحج فإنها محصورة به ومختصة به، فالتواضع، والدوران في الشمس الحارقة حول الكعبة، حول بيت المحبوب هي من السعادات الموجودة في الحج وليس في الإنفاق.

للوقوف بعرفات آثار حتى على الحيوانات

كانت لأهل البيت عليهم السلام علاقة قوية بالحج، وقد حج الإمام زين العابدين عليه السلام خمساً وعشرين مرة، ذهب في بعضها مشياً على الأقدام، وإنّ للحج آثاراً حتى على الحيوانات، فالجمل الذي يدرك الوقوف بعرفات خمس

مرات فإنه يكون من أهل الجنة «ولا تُخَلِّني يا ربُّ من تلك المواقف الكريمة والمشاهد الشريفة».

ولذلك فقد أوصى الإمام زين العابدين عليه السلام ابنه الإمام الباقر عليه السلام بذلك الجمل، وأعلمه بأنه حجَّ به عدة مرات، فلا تنحره، وأنه عليه السلام لم يضره حتى ولو لمرة واحدة في تلك الأسفار.

وبعد وفاة الإمام زين العابدين عليه السلام ترك ذلك الجمل الطعام، وكان يأتي إلى قبر الإمام زين العابدين عليه السلام يذرف الدموع ويرغو واضعاً رأسه على الأرض، فأخبروا الإمام الباقر عليه السلام بذلك، فطلب منه جلبه وإعطاءه الطعام، ولكنه لم يذق الطعام وذهب مرة أخرى إلى قبر الإمام عليه السلام فأخبروا الإمام الباقر عليه السلام بالأمر، فطلب منهم أن يتركوه لشأنه، فبقي ذلك الجمل عند قبر الإمام السجاد عليه السلام حتى مات.

اللهم.. يا كريم.. لقد نالت رحمتك (الجمل) الذي وقف خمس مرات في عرفات، ورغم أننا أقل مرتبة من ذلك الجمل، لأنه ذهب إلى عرفات ولم يصل منه أذى إلى أحد.. ولكننا نحن لا يأمن الآخرون أذاناً، اللهم فارزقنا الحج إليك كما يليق «وارزقني حج بيتك الحرام في عامنا هذا وفي كل عام».

إنَّ الحجَّ عزيزٌ وعظيم إلى الدرجة التي جعلت الإمام الحسين عليه السلام الذي كان يتمنى في يوم الثامن من ذي الحجة أن يتوجه إلى عرفات، كان مضطراً للتوجه نحو الصحراء ويقول أخشى أن يراق دمي في بيت الله وتهتك حرمة البيت.

«٢٠»

«والحج تشييداً للدين»

ذكرنا بعض الشروح لمعنى هذه الجملة المباركة.. فطلب منا البعض أن نفيض في بيان ذلك لما للحج من أهمية كبيرة.. ولذلك فقد رأينا من المناسب أن نذكر شروطاً أخرى إضافية تتعلق بمعنى تشييد الدين.

بقاء الدين مرهون بالحج

أنّ الدين عبارة عن مجموعة من العقائد والأوامر التي تستند على التوحيد. إنّ التوحيد والعبادة هي أصل الدين.. وترك الهوى والشيطان جانباً سواء في العقيدة أو الأفعال، إنما هي من أوامر القرآن والرسول الأكرم محمد ﷺ وأهل بيته الأطهار ﷺ.

هذا الدين الذي كتب في القرآن الكريم، إذا لم يكن له مظهر خارجي فإنه يندثر تدريجياً، في حين أنّ الدين الإسلامي يجب أن يبقى حتى قيام القيامة.. فبأي شيء يبقى؟

إنّ القرآن الذي كتب بالكلمات، يجب أن يكون له شعار.. أي شيء علني واضح ومعلوم، وإنّ أكبر شيء يدلّ على التوحيد وعبادة الله والدعوة له إنما هو الحج ومناسكه.

حيث يتحرّك الناس في السنة مرة واحدة ودفعة واحدة من مختلف أنحاء الأرض نحو مركز الإسلام، وهم يرتدون الملابس الخاصة بالإحرام، وهم في

خضوع لله، دون توجه نحو المادة والماديات.. فهم يردّون منذ البداية: «لييك اللهم لييك..» وهذا إعلان بالتوحيد وإحياء للدين.

رواج الحجّ من آيات الله

إنّ استمرار الحج في الواقع آية من آيات الله، فمنذ السنة الأولى التي حج فيها رسول الله ﷺ وحتى يومنا هذا لم تمرّ سنة دون أن يحجّ فيها أحد.. بل إنّ عدد الحجّاج يزداد سنة بعد أخرى.

الحجّ يقوّي أركان الإيمان لدى الحاج

ليس هناك أيّ عمل مثل الحجّ بإمكانه أن يقوّي أركان الإيمان في القلوب مثل الحجّ، فهو يرفع من درجة التدين إلى الأعلى مهما كان.. فيغيّر حاله، ويزيد في إيمانه.. فعندما يعود الحاج من الحجّ يرى الذنب مُرّاً، ولا يزلزله الشيطان وهوى النفس عن إيمانه فيكون كالبناء الذي «شيد الله أركانه» فيكون قوياً محكماً.. فيكون بيت الدين والإيمان الذي هو قلبه محكماً قوياً ببركة الحجّ.. لماذا؟

الموت الإرادي في الحجّ

خصوصاً وأنّ الحجّ هو نوع من الموت الإرادي.. وهو قانون عجيب، فقلب الحاج يمتلئ بالنور.. فيثبت الإيمان في قلبه، فما هو الموت الإرادي: «موتوا قبل أن تموتوا» وهذا قول مروى عن رسول الله ﷺ.

يقول السيد بحر العلوم في منظومته:

مُت قبل موتك فهو الحياة ما أهون الموت على من مات

فماذا يعني ذلك؟ إنك ستموت في ساعة معينة، فهي تأتي بالإرادة

والاختيار!

ففي ساعة الموت يترك الإنسان بيته وحياته، وطعامه ولباسه، وحين يترك

الحاج بيته ويخرج منه فكأنه يقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾.. إنَّ كلَّ الذي كان عنده إنما كان لله.

أن يرجو رحمة الله فقط

والحاج عندما يتحرَّك من وطنه، فإنه يتمثَّل سكرات موته الإرادي.. حيث يقطع علاقته مع الدنيا، وفي الموت الطبيعي فإنَّ قطع هذه العلاقة يتمُّ بالقوة والإجبار.. ولكنه في الميقات يقطع هذه العلاقة باختياره.. وهناك يرتدي نفس الكفن الذي يُغطِّي به الميت.

في الليلة الأولى في القبر يسألونك ماذا تريد أيها المؤمن؟ والحقيقة ماذا يريد المرء الميت؟ هل يريد الطعام والفراش والحرير والقصور والسيارات؟ كلا، إنه يريد شيئاً واحداً وهو رحمة الله، أن يكون في وضع لا تسيطر عليه ظلمات القبر. والحاج عندما يتحرَّك من الميقات نحو مكة تكون له نفس هذه الحالة.. فليس له ارتباط بأعمال الدنيا، هدفه واحد، وهو أن يصل إلى حرم الله، وأن يكون جزء من أولئك الملبَّين لله، وأن تناله رحمة الله.

الحاج يعني الشخص الذي هدفه الله

الشمس الحارقة تلهب رأسه، وهو مرتاح لذلك لأنه في سبيل الله، وكلِّما كان المكان أبعد كلِّما كان أفضل من أولئك الذين يتحرَّكون من مسجد الشجرة، وخصوصاً في أيام الصيف والشمس الحارقة، إنه يترك وراءه كل الراحة، وهو كمن يقول: إنني مثل الميت، أبحث عن شيء آخر.

الحج في اللغة يعني: القصد. وهو قصد إلى الله، وإطاعة له.. إنَّ بعض الحجاج أحياناً يتشاجرون، ومثل هؤلاء ليسوا حجاجاً.. ولو كانوا حجاجاً.. فإنَّ رغبتهم واحدة، وهي أنهم يشترون الحرَّ والبرد والصخر من أجل الله بروحهم؟ بل كلِّما كان العذاب والتعب أكثر؟ فإنَّ لذته تكون أكثر.

في الورود إلى (مكة)، يعبرُ الحاج لحظات الاحتضار وسكرات الموت،

ويدخل أول البرزخ، وفي البرزخ يشتغل المرء بنفسه ووضعه.. وفي (مكة) يتذكر المرء جرأته وسوء أدبه.. ويتذكر أعماله التي قام بها خلافاً لعبوديته لله، فيقول مع نفسه: كيف أقول لبيك.. بهذا اللسان المليء بالذنوب وبهذا الوجه الأسود.. وبهذه العين المحشوة بالذنوب؟ كيف أرمق بيت الله؟ أقدامى المذنبه كيف أضعها في المواضع التي داستها أقدام الأنبياء وأولياء الله الصالحين..؟ إن المرء ليبتلى بنفسه في ذلك الحين.

البرزخ عالم يُبتلى به الإنسان بنفسه، وعلى الحاج أن لا ينسى أوضاعه السابقة عندما يرد مكة.. وعليه أن يطهر نفسه من كلّ ذنوبه وكلّ أنانيته التي رافقته طول حياته.

عدة ساعات من الوقوف بعرفات تعادل أربعين سنة من وقوف القيامة

(عرفات) التي ذكرناها من قبل هي مثل (وادي الحيرة).. وهي شبيهة بأول موقف من مواقف القيامة، ويروى أنّ كلّ إنسان عندما يخرج رأسه من القبر يقول: اللهم ارحم. والحاج في عرفات يكون هكذا.. وهو مت قبل موتك.

بل إنّ الوقوف عدة ساعات في (عرفات) تفعل فعل أربعين سنة من وقوف القيامة.. حيث لا يقف هناك أربعين سنة.

وفي (المشعر الحرام) يتحرّر قليلاً من الصعوبات السابقة.. ويتخلص من نفسه قليلاً وقليلاً، في (المشعر الحرام) يعود إليه شعوره أكثر.. فيقع في وادي العبودية والحب والعشق للخالق.. في (ليلة العيد) يجعل الله من نصيب الحاج في هذا الوادي حالة من الشعور.. الخالق المنعم.. الذي شمل الإنسان باللطف منذ أن كان في بطن أمه حتى الآن.

في المشعر يجب أن يزداد الشعور

قبل عدة سنوات أصيبت أذني بالالتهاب، وكنت لا أسمع جيداً وكنت

محزوناً كثيراً، وبعد أن نظفوا الأذن من الالتهابات أصبحت أسمع جيداً، فشعرت باللذة والراحة وسجدت لله شكراً.. ما لم تصبح أصمّ فلن تعرف قيمة السمع، وما لم تصبح أعمى فلن تعرف قيمة النظر.. والشعور في (المشعر الحرام) ينبعث في النفس قليلاً قليلاً، ويطلع على أوضاع النفس وأوضاعها التي تظهر منها.. وهناك يعثر على دواء حبّه وعلاقته بمبادئه.

الصديق صديق الصديق والعدو عدو الصديق

حتى يصل الحاج إلى (منى)، حيث يكون الحج قد دخل في دائرة العبودية والحب، وإنّ واحدة من لوازم المحبة، محبة صديق الصديق، فالشخص الذي يحبّ شخصاً آخر فإنّ أصدقاءه يحبونه، وأعداءه يعادونه كذلك، فإذا أحببت عدو الحبيب، فإنك تكون عدواً للمحبوب، وإنك لست صادقاً في المحبة، إنك تحبّ أباك، وهناك عدو لأبيك، فإذا أحببت هذا العدو، فإنك لن تكون صادقاً في دعوى حبك لأبيك.

والحاج الذي يشتمل عليه الشعور في المشعر، ووقع في وادي المحبة، ثم جاء إلى (منى)، فإنّ أول ما يجب أن يبرز من العلاقة مع الله هو حب الله، وأن يعادي الشيطان عدو الله، والمانع من الطريق إلى الله، ويعادي نفسه التي هي العدو الحقيقي له ولله: «أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك».

هوى النفس ورغباتها عدوة للإنسان، وأول ما تستوجب علاقة المحبة مع الله هي العداوة معها.. والحاج يريد أن يظهر هذه العلاقة ويريد أن يعلنها واضحة من خلال العمل.. فيظهر عداؤه للشيطان من خلال رمي الجمرات.

جمرة العقبة جهاد ضد الشيطان

إنّ المكان الذي يظهر فيه الشيطان لإبراهيم الخليل ﷺ وأراد أن يرديه فرماه النبي إبراهيم ﷺ بأمر من الله بعدد من الحصيات، وهجم عليه جبرائيل أيضاً فقذف به إلى وادي سرنديب في الهند.

والحاج الذي يريد أن يضع قدمه في المكان الذي وقف فيه النبي إبراهيم ﷺ وقاوم الشيطان كيف يجسّد هذا المعنى؟ العوام عندهم مثل يقول: (أنتي عدو لفلان حتى أنني أرمي أثر أقدامه بالسهم).. والحاج أيضاً يقف ضد الشيطان فيفعل نفس الشيء.

يا عدو حبيبي اللعنة عليك: «اللهم ادرا عني الشيطان».. وإنني أرمي سبع حصيات مكان الشيطان لأنك اللهم ورسولك ﷺ أمرتمونا بذلك.

الهدى أفضل علامة للحب

ثم يعبر الحاج من رمي الجمره وظهور المحبة.. ويريد الحاج الآن أن يعمل بوظائف وسلوك المحبة، وإن أهل المحبة يعلمون أنّ الشخص إذا أحب آخر فإنه مستعدّ ليعطي قلبه في سبيل ذلك الحب، ومن الطبيعي فإنّ الحب كلما تصاعد؛ فإنّ الاستعداد للتضحية يكون أكبر.

والحاج بعد أدائه لتلك الأعمال، وبعد أن عرف ربه وأحبه، يتمنى أن يقدم كل شيء عنده فداءً في سبيل الله.. وأعزّ شيء عنده هي روحه.. ولكن الله سبحانه وتعالى قال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩] إنني لا أملك أعزّ من روحي.. ولكن ما العمل وقد نُهييت عن قتل النفس.. إنني مستعدّ للتضحية بأولادي أيضاً لأؤكد حبي وعشقي وعلاقتي بك، ولكن ماذا أفعل وقد نُهييت عن ذلك.

إلهي.. إنني أفعل المقدار الذي أتمكّن منه، والذي رضيته لإبراهيم ﷺ، فبعد النفس والأولاد الذين نهيت عن قتلهم في سبيلك يصل الدور إلى المال.. إلهي إنني أهدي إليك هذا الحيوان.. أتقرب إليك به.

الحج من أجل معرفة الله

لقد جاء في القرآن الكريم ولعدة مرات ذكر تشييد الدين ببركة الحج.. مرّة الكعبة المعظمة، الشهر الحرام، والهدى، إنّ الله فرض الحج ومناسكه من

أجل أن يكون الإنسان عالماً بدينه ويعرف الله بالعلم والحكمة، ويعلم الحكمة الإلهية التامة ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكُفْبَةَ الْآبِيَّتَ الْكِرَامَ قِيَمًا لِلنَّاسِ وَالشَّهْرَ الْحَرَامَ وَالْمَهْدَىٰ وَالْقَلْبَةَ الذِّكْرَ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٧] الهدف من الحج إذاً هو العلم بالله وحكمته التامة وعلمه الذي أحاط بكل شيء: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [العنكبوت: ٥٢].

فالإنسان وبأيّ مقدار كان عارفاً بالله، فإنه عندما يذهب إلى الحج يزداد عرفاناً وعلماً به إنّ وتزداد عقيدته القلبية بربه إنّ وتتوضح بصورة أكثر عظمة الخالق.

في هذا الحج، يتعرّف الحاج أكثر إلى الآيات البيّنات على علم الله وقدرته ويتعرّف إلى الدلائل والحجج على قدرة الخالق ويتضاعف عنده الإيمان بالله، ويتخلص عندها من هوى النفس وعبادة الذات.. أو يقلل منها على الأقل.

التغيير في النفس هو علامة قبول الحج

جاء في الرواية: إنّ كلّ من يتشرّف بالحج ويعود، ويجد في نفسه تغييراً، فإنّ ذلك علامة على قبول حجّه.. وعلامة قبول الحج هو تغيير الحال وتزداد المعرفة والإخلاص، والكمالات النفسية كلها.. ويزداد عنده الميل نحو الخير والإعراض عن الذنوب.. وكل ذلك من بركات الحج.

يتذكر تاريخ مكة

عندما يدخل الإنسان إلى (مكة المكرمة) فإنه يشاهدها وهي في هذا اليوم مدينة كبيرة معمورة، ولكن عليه أن يعود إلى الورا، إلى أربعة آلاف سنة من قبل.. إلى بدايتها.. من كان هناك.. وماذا كان.. ومن أين أصلها؟.

هذا الوادي المحاط بالجبال.. ولم يكن فيه مكان معمور.. لا ماء، ولا ساكن.. حتى الطيور لم تكن موجودة.. ولعل بعض الوحوش كانت موجودة.. وعلى كل حال.. كان هناك شمس حارقة.. ثم يصلنا الخبر.. إنّ الله يأمر أعظم

أنبيائه بعد رسولنا الكريم محمد ﷺ أن يأتي إلى هذا المكان الذي لا ترغب فيه أي نفس بشرية.

ومنذ اليوم الأول للتأسيس هنا كان الهدف هو الله فقط.. وكل من يأتي إلى هنا يكون خالياً من هوى النفس، وإلا فإنّ من الممكن اتخاذ أفضل نقاط الأرض معبداً.. إنّ الله يُعرف من الحكمة في هذا التأسيس.. وهو سبحانه وتعالى يقول: ﴿أَنْ طَهَّرَا بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَالْمُكَافِرِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [البقرة: ١٢٥].

إبراهيم وإسماعيل ﷺ بُنَاة الكعبة

إنّ الله سبحانه وتعالى اختار هذه القطعة من الأرض، وأمر النبي إبراهيم ﷺ أن يبني مع إسماعيل ﷺ هذا المكان مسجداً ومعبداً.. وكان الله سبحانه وتعالى قد أوجد الماء من قبل.. عندما كان إبراهيم غائباً.. وكانت (هاجر) قد ولدت إسماعيل، وكان يرضع الحليب، حيث كان إبراهيم ﷺ قد أودعهم الله ووضع عندهم إناءً من الماء كان قد جلبه معه.

وبعد أن انتهى هذا المقدار من الماء عطشت (هاجر)، فماذا تفعل للطفل الصغير، فجاءت إلى (جبل الصفاء) لعلها تجد ماءً، فلم تجد شيئاً. فهبطت من الجبل وذهبت إلى (جبل المروة) فلم تجد شيئاً، وأخذت تسعى سبع مرات بين الصفا والمروة.

ويقولون إنها عندما كانت تقترب من (المروة) كانت تدخل في منخفض بحيث لا تستطيع رؤية الطفل، فتهرول لتطمئن أن لا يكون حيوان قد افترس الطفل، ولذلك جاء استحباب الهرولة.

وفي المرة السابعة كانت عند (المروة) لاحظت كأنّ ماءً يتجمّع قرب الطفل، وعندما اقتربت، أخذ الماء يتفجّر من الأرض من موضع ضربات قدم إسماعيل.. ومن أجل أن لا يجف الماء، ولثلا يذهب هدراً في الصحراء، أخذت تحيطه بالصخور والأحجار، وكانت تقول: زم زم. أي: يكفي يكفي..

إنَّ أولَ فَرَجٍ أنزله اللهُ في هذه الأرضِ الجبليةِ هو (بئر زمزم) وكان ذلك آيةً من آياتِ اللهِ، حيثُ يتبرَّكُ به الخلقُ منذُ أربعةِ آلافِ سنةٍ ولغايةِ الآنِ.

وبعد انبثاق الماء، وجدت (هاجر) الفَرَجَ وأخذت تبحث عن أعشاب لتأكلها.. ووجدت الطيور الماء فجاءت لتشرب منه، وكانت قبيلة تتحرك على بعد عدة فراسخ فشاهدت من البعد الطيور، فقالت: إنها علامة على وجود الماء.

وعندما جاءت القبيلة وجدوا هناك امرأة وطفلاً لوحدهما، فسألوها من أنتم؟ فقالت أنا هاجر زوجة إبراهيم الخليل، وهذا الطفل ابنه، من الله علينا بالماء.. وفرح القوم ونصبوا خيامهم في ذلك المكان، وعندما رحلوا من هناك جاءت قبيلة أخرى.. وشيئاً فشيئاً أصبح ذلك المكان معموراً.

مقام النبي إبراهيم ﷺ آية عظيمة

بأي إخلاص عظيم كان النبي إبراهيم ﷺ يبني البيت، وهنا آية من الآيات الإلهية العظيمة أوجدها الله منذ البداية لتبقى إلى قيام القيامة دليلاً على قدرة الله العظيمة، فقد انطبعت قدمي إبراهيم ﷺ على المكان الذي كان يقف عليه وهو يبني البيت، وكان المكان من الصخر.

﴿وَأَنجِدُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، إنَّ الصخرة التي وقف عليها النبي إبراهيم ﷺ حين بناء البيت لا زالت موجودة منذ أكثر من أربعة آلاف سنة.. وإنه أمر خارق للعادة من جميع نواحيه، وإنَّ مقداره كما كتبوا، ثلاثة أشبار طولاً وشبرين عرضاً، وجهته العليا أعرض من جهته السفلى، وفيه منخفض بمقدار كعبي قدمي النبي إبراهيم ﷺ.

إنَّ هذه الصخرة موجودة الآن ومنذ أكثر من أربعة آلاف سنة قرب الكعبة.. وخلال هذه السنوات كان الناس يأتون ويتلمسون هذه الصخرة تبركاً بها.. هذه الصخرة لم تغيّرهما الأمطار والحرارة والشمس والسيول خلال الآلاف من

السنين.. كما هو الأمر مع (الحجر الأسود) الذي حفظه الله من كل سوء.. حيث أجبر (القرامطة) على إعادته إلى مكانه بعد عشر سنوات من أخذه.

لم يستطيعوا محو المقام من مكانه

الآية الرابعة من آيات الله الشريفة.. هو أن أعداء الدين والكعبة لم يستطيعوا سرقة هذا المقام وأخذه على طوال السنين والأدوار مع وجودهم في كلّ زمان.

ويقال إن المهدي العباسي والد هارون قال إن الشمس والمطر لعلهما يغيّران من هذا المقام ويتلفانه، فصنعوا له غطاء، ثم صنعوا له غطاء من البلور، ليحفظه وليتمكن الناس من رؤيته.

إن الله جعل هذا الأثر من آياته منذ البداية ليعلم الناس أن الله ترك هنا آية من آياته ليعتبر بها الخلق حتى يوم القيامة.

حرم الأمن الإلهي

﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥]، لقد دعا النبي إبراهيم ﷺ منذ البداية بهذا الدعاء؛ فاستجاب الله دعاءه.. فأمر أن تكون حدود الكعبة - إلى أربعة فراسخ - محلاً آمناً. ففكر بهذا المعنى، حين جعل الله هذا المكان آمناً وحوله القبائل التي يغزو بعضها بعضاً.

في زمن الجاهلية لم يكونوا يراعون حرمة لأي شيء سوى مكة.. ولولا ذلك لما كان هذا البناء باقياً.. ففي الحرم كانوا يمتنعون عن السرقة وإراقة الدماء.. والأهم من ذلك أن التاريخ لم يحدثنا أن حيواناً وحشياً افترس حيواناً آخر قرب الكعبة.. حتى أن الحيوانات أين تتجه تتجه نحو (مكة) عندما تصل إلى الكعبة تتحرك إما من جهة يمين الكعبة أو يسارها حتى الطيور، هذه الطيور الموجودة في صحن المسجد الحرام أغلبها يتحرك إما من جهة اليمين أو عن جهة اليسار بالنسبة للكعبة، والأعجب من ذلك أنها لا تلقي بفضلاتها في

المسجد.. وإلا فإن القاعدة تقتضي أن تلوّث هذه الآلاف من الحمايم ستائر الكعبة والمطاف.

نعم يتفق أحياناً أن تلاحظ فضلات قليلة جداً، ولعلها تقع أثناء حركة الطير.. فأبي تعظيم هذا وأبي حرمة هذه ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آيماً﴾ [آل عمران: ٩٧].

إن الله سبحانه وتعالى جعله منذ البداية آمناً، وقذف بهيبته في القلوب، فيعظمه الجميع سواء رغبوا أو لم يرغبوا، إلى حد: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكْمِ يُظَلِّمْ نَفْسَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ [الحج: ٢٥].

(أصحاب الفيل) آيات عظيمة أخرى

أكدت حوادث التاريخ أنّ الله يهلك الذين يريدون السوء بالكعبة، وأفضل شاهد على ذلك هم (أصحاب الفيل) فقد تحرّك (أبرهة الحبشي) بجيش جرّار نحو الكعبة من أجل هدم الكعبة، وقتل من يُعظمها.. وفي طريقه من اليمن إلى مكة تحدّثت معه بعض العشائر.. وكان قد اصطحب معه الفيلة ليُلقي الذعر في النفوس، وكان عددها من أربعين إلى أربعمائة حسب اختلاف الروايات.

وعندما توجه نحو الحرم، وصار قريباً، تزلزلت القلوب، ففرّ الناس إلى الجبال، وإن كان (عبد المطلب) قد طلب من الناس البقاء قائلاً لهم: إنّ للبيت رباً يحميه.. إلا أنّ أكثرهم فرّ.. وبقي في مكة (بنو هاشم) وعدد من الناس، فأمر عبد المطلب ابنه عبدالله أن يصعد (جبل أبي قبيس) ليخبره بما يرى.. فعاد وقال: إنّ أعداداً كبيرة من طيور السنونو تتحرك من طرف البحر.

فأمره بالعودة مرة أخرى ليرى ماذا تفعل الطيور، جاءت الطيور وكل واحد منها يحمل أحجاراً صغيرة ثلاثة، واحدة بمنقاره واثنان برجليه، ووقفت فوق الجيش، ثم ألقت بأحجارها على رؤوس أفراد الجيش راكبي الفيلة، فكان الحجر يخترق الرأس وينزل إلى الأسفل، وكانت تخرج من بطون الفيلة

وتعيقها عن الحركة، حيث يصف القرآن ذلك فيقول: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

على الحاج أن يتفكر

أيها الحاج لا يكن كل تفكيرك في مكة منصباً على شراء الهدايا، أجلس عند بيت الله وتفكر في آياته سبحانه وتعالى، لتجد الإيمان والمعرفة ﴿لِتَعْلَمُوا﴾، لتعلم أن صاحب هذا البيت يعلم كل شيء، ولتدرك الحكمة من خلق هذا الكون، ولماذا هذا الأمن في الحرم، ولتعلم أن الله سبحانه وتعالى حكيم بحيث لا يستطيع البشر أن يدرك الحكمة التكوينية والتشريعية.

لقد جعل الله هذا البيت وهذا المكان ومناسكه ليأتي الناس ويروا الآيات البيّنات، ويروا هذا الحرم الآمن الذي تأمن فيه حتى الحيوانات.

بداية تاريخ العرب

تاريخ قصة أصحاب الفيل من الأمور الضرورية، وقد وردت فيها سورة قرآنية، وأخذ العرب يؤرخون الأحداث بعدها.. مثل تاريخ هجرة النبي، وقبل ذلك كان (عام الفيل) هو بداية التاريخ الرسمي لهم.. فقد كانت ولادة الرسول الأكرم ﷺ في عام الفيل. وكانت بعثته في سنة أربعين من عام الفيل، وكانت ولادة أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في عام ثلاثين بعد عام الفيل.

والخلاصة أنها أصبحت بداية للتاريخ.. لعظم ذلك الحادث بحيث إنهم إذا أرادوا أن يؤرخوا فإنهم يؤرخونه اعتباراً من ذلك التاريخ.. وكانت تلك الإرادة الإلهية لكي لا ينسى البشر تلك الآية الإلهية، ولذلك فإن بقاء الاهتمام بذلك الحدث يعتبر آية أيضاً.

هذا الجيش العظيم والمغرور.. تهزمه صخور أكبر من العدس حجماً وأصغر من الحمصة.. أي حديد بإمكانه أن يفعل ذلك؟

ولم ينج من ذلك الجيش سوى شخص واحد، عاد ليخبر قائد الجيش، وعندما كان يخبره شاهد أحد من تلك الطيور يحلق فوق رأسه فقال له: إنه منها. وفجأة أسقط ذلك الطير ما يحمله من صخور على رأسه، فقتله في الحال..

إنها كلها مراسم إلهية من أجل زيادة الإيمان.. وزيادة الخضوع والخشوع للحق، ومنذ أن وطأت قدمك أرض المسجد الحرام عليك أن تعلم أنّ هذا المكان قد انتخبه الله وجعله حرمه الآمن.. وفي الطواف تقرأ: «إلهي البيت بيتك، والعبد عبدك، والضيف ضيفك».

مناجاة الإمام زين العابدين عليه السلام في جوار الكعبة

قال (الأصمعي): رأيت زين العابدين عليه السلام في حجر إسماعيل ساجداً بعد الصلاة، فقلت ادنو منه لأسمع ما يقول في السجود، فسمعته يقول: «عبيدك بفنائك، مسكينك بفنائك، فقيرك زائرک سائلک بفنائك».

أمّن يجيب المضطر إذا دعاه

عندما نسعى بين (الصفاء والمروة) فإننا نشبه العبد الذليل الذي يتحرّك منتظراً حول دار سيده ليعطيه إجازة الدخول مجدداً، ندور حول بيت الله.. ونحن في حيرة هل أذن لنا المولى أم لا، وكان الإمام الصادق عليه السلام يتلو في المسجد: «أمّن يجيب المضطر إذا دعاه».

إلهي خلّفت ورائي بلدي.. وتركت عملي وكسبي، وأتيتك في هذه الشمس المحرقة حافياً حاسراً.. إلهي إن لم تسمح لي ورود الطريق فمن هو أسوأ مني حالاً؟ إذا قدمت لي أيها المذنب المسودّ الوجه بأيّ شيء أذن لك بالدخول هل بالقلب السليم، بالنية الصادقة، بالقلب المملوء بالحب والإخلاص؟ وكلما أفكر لا أجد ذلك في نفسي والذي يجيز لي الدخول إلى الحرم الآمن هو «أمّن يجيب المضطر إذا دعاه»، فإذا أحسست بالخضوع والذلّة علمت أنّ الإجازة

حصلت للدخول. إذا رأيت قلبك منكسراً حقيقةً، ضعيفاً، باكياً وخصوصاً في (طواف الوداع) حيث تريد أن تودّع حرم الله، فاعلم أنك أصبحت حاجاً حقيقياً.. والحقيقة أنّ الإنسان الذي يتشرف بالحج ولم يتضاعف إيمانه، ولم يتضاعف إخلاصه؛ فإنه يعتبر من المحرومين.

«والعدل تنسيقاً للقلوب»

في كلام الصديقة الطاهرة عليها السلام المليء بالدرر.. ما يأخذ منحى شرح علل الأحكام والأسرار التي أودعها الله في أحكامه.. ومنها موضوع العدل.. حيث يقول القرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ [النحل: ٩٠]، ويقول في مكان آخر: ﴿اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة: ٨]، فما هو الهدف من الأمر بالعدل؟

التنسيق، بمعنى التنظيم.. بمعنى أن تتآلف قلوب المسلمين مع بعضها، ولا يكون بينها تباغض أو تناكر.. وتكون كلها كقلب واحد.

الوسط في كل أمر عدل

في البداية يجب أن نشرح العدل، ثم علاقته بتآلف القلوب.. العدل يعني وضع الشيء في محله، وهو في مقابل الظلم الذي يعني تجاوز الحد، والحد الوسط الذي يجب أن يجرى بحكم العقل والشرع يقال له: العدل.

والتجاوز يعني الظلم.. والعدل هو الحد الذي يأمر به العقل البشري السليم والقانون الإلهي. وللعدل ثلاث شعب: العدل مع الله، ومع النفس، ومع خلق الله.

والعدل مع الله تقدّم معناه في باب العقائد.. والعدل مع النفس قد تقدّم شرحه في علم الأخلاق.. وما هو محل بحثنا هو العدل مع الخلق، حيث أمر به الله سبحانه وتعالى وأوجبه على كل مسلم.

العدل مع الزوجة.. كيف تكون نفقتها، وكيف تكون معاشرتها؟ حتى العدل مع الحيوان الذي هو تحت تصرف الإنسان واجب، فلا يحتمل عليه فوق طاقته

ولا يضره، وعليه أن يقدم له المأكل والمشرب في وقته، والغرض هو أن على الإنسان أن يكون عادلاً في تصرفه تجاه الآخرين.

حديث جامع في ميزان العدل

ورد عن أمير المؤمنين علي عليه السلام كلام في عنوان عام.. إذا دقق فيه أصحاب العقول وأجروه في كل الأمور، فإنهم يكونون كمن أدركوا كل أحكام المعاشرة والعدل.. لكن شرط ذلك هو التدقيق.

يقول الإمام عليه السلام في وصيته لابنه الحسن عليه السلام: «إجعل نفسك ميزاناً بينك وبين غيرك، فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك، واکره له ما تكره لنفسك، واستقبح لنفسك ما تستقبح من غيرك».

عند المعاملة فإن أي شخص يحرص أن لا يُحتال عليه.. إذاً يجب عليك أن لا تحتال على أي أحد. واجعل ميزان عدل فيما ترغب لنفسك.

عندما تشتري من العطار زعفراناً فإنك ترغب فيه أن لا يكون مغشوشاً.. فإذا أراد أحد أن يشتري منك زيتاً فلا تبيعه زيتاً مغشوشاً.

وتحّب أن لا يحاسبك أحد عندما تقول كلاماً يوجب غضب وأذى الآخرين.. وتحّب أن يعفو عنك، فكن أنت مع الآخرين هكذا تعفو عن الآخرين.. وتحّب أن لا يكذب عليك أحد وتعتبر الكذب قبيحاً.. فلا تكذب على أحد، واعتبر كذبك قبيحاً.

إذا قلت لزوجتك قولاً خشناً تتوقع منها أن لا تقول لك شيئاً، فإذا قالت لك يوماً ما قولاً خشناً فلا تغضب واعف عنها.. ولا تحب أن يذكرك أحد بسوء إذا ذكر اسمك في مجلس عام، ولا يستغيبك ولا يتهمك.. إذاً فلا تغتاب أي شخص ولا تتهمه.

إذا أردت أن تتصرف بعدلٍ فهذا هو الميزان العام للعدل.

ترغب أن لا يؤذيك جارك.. ولا يُحدث ضوضاء فيقلق نومك.. فكن معه كذلك..

في باب المحادثة فإنَّ قلب الإنسان يرغب أن لا يصل إليك أذى من أحد.. عليك إذاً أن لا تؤذي أحداً ممن تعاشره.

وأيّ عيب تراه في غيرك، عليك أن تعلم أنك تحمل مثله العيوب.

تقول: فلان بخيل.. فهل أنت بخيل بنظرك.. وتقول: فلان حسود. أفلست حسوداً، فكيف يكون حسد الآخرين سيئاً وحسدك حسناً؟!

من هو غير الظالم؟

في معاشرة خلق الله يجب إجراء هذا القانون العام.. وعلى الإنسان أن يفهم هذه المعاني.. ليعلم من هو الظالم.. إنه كل شخص يريد من الناس أن يكونوا على حال ليس هو عليه.. فكيف يريد من خلق الله أن يحسنوا به الظنّ وهم يرونه هكذا جيداً، إذا ذكر أحد الناس عيباً من عيوبك فدافع الآخرون.. وكان الناس يحملون ما تتصرّف به على الصحة..

وإذا أخذ أحد الناس أموالك، فإنك تضجّ بالقييل والقال وتقول إنه ليس متديناً.. طيب فإذا كنت مديناً لأحد من الناس فهل تؤذي دينك في الوقت المحدد.. أم أنك تسوّف في الأداء؟

وإذا كانت عندك للناس أمانات أفلا تخونها، وهل تعطيها لهم بسرعة؟

على المسلم أن يضع نفسه في مكان الطرف المقابل ويعدل في التصرف.. فيا من تُجحف بحقّ عائلتك؟ عليك أن تضع نفسك مكانها، فأنت تريد أن تتصرّف معها بخشونة فتأمر ليطيعوك.. في حين عندما يصل إليك الدور فلا تكون كما يجب أن تكون.. ترغب أن تكون زوجتك صادقة معك مخلصة لك، فعليك أن تكون معها كذلك.

العدل يُوحّد القلوب

لماذا وجب العدل على المسلمين؟ إنّ الحكمة من ذلك هي أنّ المسلمين إذا عاملوا بعضهم بالعدل، فإن قلوبهم تكون واحدة، وإنّ التناكر والتباغض الذي يحصل بين اثنين أو أكثر إنما يحصل بسبب الاعتداء والظلم من طرف واحد أو من طرفين.

الزوج والزوجة إذا عامل أحدهما الآخر بالعدل، فإنّ قلباهما يكونان واحداً، ويرتبطان في هذه الحياة الدنيا برباط السعادة والسرور.. ويكونان شريكان في الغمّ والسرور، ويساعد أحدهما الآخر.. وتتنظم حياتهما في سلك العادة، ولو كان طعامهما خبزاً وجبنة.. ولكنهما يعيشان بسعادة.. ويكون باطنهما واحداً وتغمر السعادة قلوبهما.. ولن يتمكّن الشيطان من أن يؤثر عليهما بوساوسه، بل لن يجد طريقاً لذلك.

وعندما يصبح مائة قلب مثل قلب واحد فأى بركة ستنزل عليهم.. صلاة الجماعة إذا تجاوزت عشرة أشخاص، فإنّ إحصاء ثوابها عسير، بحيث لو أضحت الأرض ورقاً والأشجار أقلاماً والبحار مداداً والجنّ والإنس كُتّاباً لما أحصوا ثواب ركعة واحدة من تلك الصلاة.

إنّ العدل يوحّد القلوب.. والقلوب التي تتوحّد تنتزل عليها بركات الله.. في حين أنّ أعظم أمانى الشيطان هو إيجاد الاختلاف والفرقة والثغرات بين قلوب المؤمنين.. لينفرد الشيطان بالناس واحداً واحداً ليهلكهم جميعاً؟. فكيف يمكن توحيد القلوب؟ بالعدل: نعم بالعدل يمكن توحيد القلوب.

وعندما يتعامل المسلمون بالعدل مع بعضهم البعض.. تتوحّد قلوبهم.. وعندما يصلّون جماعة بقلوب موحّدة، فإنّ صلاتهم تكون جماعة حقيقية.. وعندها لن تستطيع الوسوس والشهوات أن تبعدهم عن بيت الله.. وعندما تتوحّد القلوب.. تكون الأمة قوية.. وعندها تقضون حياتكم الدنيا بالسعادة وجزءكم في الآخرة معلوم أيضاً.

كلّ أناني ظالم

ولكن إذا أصبحت أنانياً.. تهتمّ بنفسك ولا تهتمّ بالآخرين.. فليس ذلك من العدل.. لأنك في الواقع لا ترى إلا نفسك وهواك.. فسوف تكون في قبرك وحيداً، وفي الآخرة وحيداً، وكلّ أناني، وكلّ من يعبد نفسه، وكلّ من يعبد هواه؛ فإنه ظالم وليس عنده أيّ اهتمام بإقامة العدل، إنه يهتمّ أن يكون هو في سعادة، ولا يهتمّ ما يكون عليه الآخرون، المهم عنده تنفيذ رغبته وهواه.. والظالم هو الذي ينفذ أهواه..

إنّ كلّ أناني لا تميل إليه القلوب ولو كان ذلك موجوداً بحسب الظاهر.. حتى زوجته ليست معه، فالرجل الأناني الطالب للراحة فإنّ زوجته ليست معه فكيف بالآخرين: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ [الفرقان: ٢٧].

تعامل بعدل مع الآخرين لتتحد معك قلوب الآخرين، فإذا اتّحدت معك القلوب تصبح قوياً، وترتاح، ويهدأ بالك: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

والويل من الظلم، فهو ظلمات.. إنّ كلّ إنسان لا يراعي الحق فهو ظالم، حتى بعد الموت لا تطيق الانفراد عن الذي توحد قلبك معه في الحياة: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠] ولا بدّ من التذكير بوجوب رعاية حقوق الآخرين، حقّ العالم وحقّ السادة، وحقّ كبير السن، والزوجة، ورفيق السفر.. وحتى: ﴿الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾ [الحشر: ١٠].

وفي خاتمة هذا البحث لا بدّ من التذكير بهذه النقطة، وهي أنّ السيدة الزهراء عليها السلام في نهاية هذه الخطبة قالت لأبي بكر: «أترث أباك ولا أرت أبي»، فهل هذا من العدل؟

ومثلها قالت ابنتها السيدة زينب عليها السلام ليزيد: «أمن العدل يا ابن الطلقاء تخديرك حرائرك، وسوقك بنات رسول الله سبايا..».

تأمين احتياجات الدنيا والآخرة

«والعدل تنسيقاً للقلوب» في شرح كلمات السيدة الزهراء عليها السلام يستفيد أهل المعرفة فائدة عظيمة من كل كلمة من كلماتها. وقد شرحنا فيما تقدم ما يتعلق بالعدل، ذكرناها كمقدمة لربطها بمسألة الإمامة.. إنّ الإنسان عندما يصل إلى مرحلة التكليف، حيث عليه القيام بما يجب عليه القيام به.. ومن ذلك السعي في الحياة الدنيا وتأمين متطلبات هذه الحياة من: مسكن ولباس وطعام..

والشيء الآخر هو أنّ عليه أن يهتمّ بتحضير وسائل حياته الأخرى.. فكما أنّ لهذه الحياة لوازم ووسائل فإنّ للآخرة كذلك.. وقد جاء في القرآن الكريم تعبير الرزق: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، ولكن مع فارق أنّ لوازم ووسائل الحياة في الدنيا إنما هي للاضطرار ورفع الحاجة، لكن وسائل الحياة في العالم الأعلى إنما هي من أجل السعادة الصرفة.. أي أنّ هذا الإنسان مضطر لتناول الطعام وإلاّ فإنه يموت.. ولكن في القيامة يشعر الإنسان بالسعادة واللذة الدائمة: ﴿أَكُلْهَا دَائِمًا﴾ [الرعد: ٣٥].

والخلاصة إنّ من واجب الإنسان أن يهتمّ بتوفير الاثنين معاً وهو في حياته الدنيا، فكما أنك تتعب في جمع المال من أجل شراء المسكن.. فعليك أن تتعب نفسك من أجل أن تهيب بيتاً لسكنائك في الآخرة.. هنا تريد ضياءً.. وهناك أنت بحاجة إلى الضياء.. هنا النور حسيّ مثل: الشمس أو الكهرباء.. أو مصباح الزيت، وبعد الموت تحتاج إلى ضياء حيث لا يمكن أن تعيش دون ضياء، فمن أين تحصل على هذا الضياء؟.

الإيمان والعمل الصالح يحتاج إلى مجتمع أيضاً

والكلمة الثانية هي أنّ هذه الحياة لا يمكن صنعها بصورة منفردة.. فالإنسان لا يستطيع لوحده أن يهيئ كلّ لوازم ووسائل حياته الدنيوية والأخروية، ولا يستطيع لوحده حتى أن يشيّد بيتاً لسكنه ويهيئ الطعام

واللباس، فهو بحاجة إلى المجتمع.. وعلى الإنسان أن يتصل بالأفراد الآخرين من المجتمع ويتعاون معهم.. يتعاون مع البناء في تشييد الدار، ومع الخياط من أجل خياطة الملابس، ومع الفلاح من أجل تهيئة الطعام.. فلا بد إذاً من التعاون من أجل هذه الحياة الدنيا التي هي أياماً معدودات، والحياة بعد الموت كذلك.. فالإيمان الذي هو أصل الحياة بعد الموت لا يكون من نصيب الإنسان الذي يريد أن يعيش وحيداً في الصحراء.. إلا إذا كان متصلاً بمعدن الإيمان والعلم، لينبثق في داخله الإيمان الذي هو أصل الحياة.. ولذا فمن الضروري الاتصال بعالم الآخرة ليتعلم الأعمال الصالحة.

إنّ عليه أن يفهم كيف يكون العمل الذي يؤدي إلى الحياة بعد الموت.. وأي الأعمال مؤثرة في حياته بعد الموت.. وإنّ كلّ ذلك لا يمكن الحصول عليه ما لم يتمّ الاتصال الروحي العظيم بالذي عنده علم من ذلك العالم الأعلى.. وكلّ ذلك يعود إلى تعاون وتناسق القلوب.

إنّ ما أريد قوله :

من أجل الحياة الأخروية عليك الاتصال والاتحاد مع روح كبيرة وليس ذلك إلا مع محمد وآله ﷺ وعليه أن يدخل في ولايتهم حتى يؤمن حياته الأخرى.. ويرفقاها بالإيمان والعمل الصالح.. من أجل أن تنتظم القلوب في سلك واحد.. ولا يمكن ذلك إذا تناكرت القلوب.. أي مثل حيوانين ليس بينهما أي ارتباط، فكيف يمكن أن يعيشا سوية؟!

ومثال ذلك زوج وزوجة.. فإذا كان كلّ منهما يريد أن يحقق رغباته وشهواته هو، ولا يحاول أن يوحد قلبيهما، فمن المُتيقّن أنهما سيكونان دائماً في جدال وحرب.. فالزوج والزوجة اللذين لا اتحاد بين قلبيهما.. تصبح حياتهما معاً جحيماً لا يُطاق..

إنّ الله الحكيم المطلق الذي أراد للبشر أن يعيشوا سعداء في حياتهم المادية، أوجب عليهم العدل من أجل ذلك.

للظلم أثر وضعي

إنّ من آثار انفصال القلوب في الحياة الدنيا هو التنافر.. وبعد الموت الظلمات.. وقد نقل (المرحوم القمي) رواية جديرة بالتمعّن في كتابه: (منازل الآخرة) مضمونها.. إنّ الإنسان إذا صادفه إنسان آخر محتاج للمساعدة، وكان قادراً عليها فلم يساعده، فإنّ الله سبحانه وتعالى يوم القيامة يأمر أفعى بلدغه باستمرار، سواء كان مغفوراً له أو معدّباً.

أي أنّ الإنسان وإن كان مغفور الذنوب وكانت أعماله حسنة، ولكن لهذا الظلم الذي صدر منه أثره الوضعي.. والعدل يحكم بأنّ على الشخص المتمكّن من تقديم العون والمساعدة لمن هو في حاجة إليها أن يفعل ذلك.. فمن كان يملك عيناً باصرة عليه أن يساعد الأعمى ويدلّه على الطريق.

الغيبة والاتهام والكذب، وانفصال القلوب

عليك أن تساعد الآخرين ما دمت قادراً على ذلك، فإن جاءك المحتاج الضعيف ولم تعتني به فإنك ظالم.. فينقطع ويتنفّر قلبه منك بنفس المقدار الذي عرضت به عنه، الغيبة والاتهام حرام، وهي كلّها من موجبات التناكر والتنافر. فإذا كذبت، فسوف يتنفّر منك قلب الطرف المقابل لك بعد أن تنكشف حقيقة كذبك، فإذا انفصلت القلوب كنت أنت سبباً في إحداث الفوضى والاضطراب في نظم حياتك الدنيوية والأخروية.. وخسرت إعانة الآخرين لك في الدنيا، كما خسرت سلامة حياتك الأخروية أيضاً.

قد يغضب الإنسان من أخيه.. لكن إذا تجاوز ذلك ثلاثة أيام؛ خرج من ربة الإسلام.. وأحياناً قد يغضب الإنسان من ذوي رحمه.. فالتناكر يحدث لسبب الظلم.. ومن أجل أن لا يحدث التناكر أمر القرآن بالعدل.. حتى أنّ الأمر بالعدل شمل العدو ولو الكافر: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٢].

أي.. أيها المسلمون يجب أن لا تكون عداوتكم لشخص ما سبباً في إلحاق الظلم به.. ففي بعض الأحيان نرى أن بعض الناس يتهمون الآخرين ممن يعادونهم.. أو يشهدون عليهم بغير الحق، أو يظلمون في القصاص.. فإذا صفعه صفقة واحدة، فإنه يحاول أن يصفعه عشرة صفعات.. في حين أن القرآن يقول لا يجوز لك أن تظلم حتى عدوك.

لقد أمر القرآن بالعفو، وإذا لم تعف، فاضربه صفقة واحدة، أما إذا ضربك فاحمرّ مكان الضربة، وضربته أنت فاسودّ مكان الضربة، فعليك أن تدفع دينارين ذهباً، وإذا ضربك ضربة قوية فاحمرّ المكان، فعليك أن تحتاط عندما تضربه أن لا تكون ضربتك أقوى ﴿فَمَنْ أَعَدَّى عَلَيْكُمْ فَأَعِدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعَدَّى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: 194].

«٢١»

مقدمة عن الإمامة ونظم الأمة

«وطاعتنا نظاماً للملّة، وإمامتنا أماناً من الفرقة» النظام بمعنى الارتباط، وعكسه التخلف.. ومن أجل التعرّف على موقع إمامة علي بن أبي طالب عليه السلام وأبنائه والأئمة الأحد عشر عليهم السلام في الدين الإسلامي.. فإنّ ذلك يحتاج إلى مقدمة لتتفتح صورة الإسلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

لقد تحمّل هذا الرسول العظيم صلى الله عليه وآله خلال (٢٣) سنة مصاعب جمّة ومشاق كثيرة، وخاض الحروب من أجل إنقاذ الأمة من ارتكاب المعاصي وعبادة الأصنام وقتل النفس والبعد عن الله.

فأمن به عدد من الناس اعترافاً بالحقيقة وإيماناً به.. ودخل البعض الآخر في الإسلام رهبة وخوفاً، وبهذه الروح التي وهبها الله له أدار أمور الآلاف من الناس الذين آمنوا بالإسلام من تجهيز الجيوش للحرب والحضور في الجبهات أحياناً أو إرسال أمير المؤمنين علي عليه السلام مكانه أو آخرين.. والغرض هو نظم أمور المسلمين.

الهداية المعنوية وشرح الأحكام

ومع وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فما الذي سيحلّ بالمسلمين.. فهذا المجتمع الذي دخل حديثاً إلى الإسلام.. سيحلّ فيه الاضطراب إن لم يحتلّ خلافة

الرسول ﷺ شخص مثل الرسول ﷺ ليقوم بتعليم الأحكام وإجرائها وهداية الأمة والناس وإفهامها دينها..

قام الرسول ﷺ خلال حياته بشرح أحكام الإسلام إلى حد ما.. وبعد أن ازداد عدد المسلمين وازدادت المسائل التي ابتلي بها المسلمون ومع مرور الزمان، فإن ذلك يستدعي أن يكون الشخص الذي يحتل موقع الخلافة لرسول الله قادراً على الإجابة على مئات وآلاف الأسئلة واستنباط ذلك من القرآن والسنة النبوية..

أنظروا في الفقه الجعفري.. فالروايات الواردة من (كتاب الطهارة) إلى (كتاب الحدود والديات) فهذه المسائل لم يتم سؤالها كلها من الرسول ﷺ..

إن الهدف من كلامنا هو القول بضرورة الإمام الذي يجب أن يحتلّ موقع خلافة الرسول ﷺ ليطبّق القانون الإلهي والحق إلى الحدّ الذي يستطيع، وأن لا يقصّر في ذلك.. ولذلك فإنّ الواجب يقضي أن يكون هذا الإمام يتمتّع بدرجة علمية كعلم الرسول ﷺ، وأن يكون مثله معصوماً كي لا يقع في الخطأ، معصوماً بقوة قدسية.

وإنّ ذلك منحصر في أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ فإنّ الشيعة والسنة يتفقون على أن علياً ﷺ قد عاش في أحضان التوحيد منذ أن كان عمره عشر سنوات.. لقد وُلد في بيت الله، وقتل وهو ساجد لله في محراب الصلاة.

إنّ التاريخ يحدثنا عن عصمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ﷺ حيث لا يحدثنا عنه أنه أخطأ في شيء، مع وجود هذه الأبواب الكثيرة للعلم.. حتى قال الرسول ﷺ: «أفضاكم علي ﷺ» ومن المعلوم أنّ القضاء يحتاج إلى توافر علوم كان أمير المؤمنين علي ﷺ يعرفها أكثر من الآخرين.

كلّ الأمور كانت واضحة عند أمير المؤمنين علي ﷺ

يُروى أنّ عمر قال لعلي ﷺ: إنك يا أبا الحسن ملجأنا نسألك في كلّ

سؤال، ولكن عيبك أنك تقول دون تأمل. فرجع الإمام سبأته وقال: كم هذا؟ فقال عمر: واحد. ثم رفع أصبعه الثاني فقال: كم هذا. فقال عمر: اثنان. فقال الإمام: لماذا أجب دون تأمل؟ ثم قال: إن كل الأمور بالنسبة لي كذلك.

لقد كان قلبه المبارك مرآة للعلم والحقائق الإلهية.. «ينحدر عني السيل، ولا يرقى إليّ الطير» يقول أحد العلماء.. إنّ المُعلّم إذا أراد السفر فإنه ينتخب شخصاً مكانه.. فأَيّ إنسان ينتخب؟ أنه ينتخب شخصاً مثله، يستطيع أن يلبي حاجة التلاميذ، ويجب على أسئلتهم.

وقد ذكر (الفخر الرازي) في تفسيره وبشكل صريح أنّ عمر قد وقع في أخطاء عديدة، وكان في كل مرة يلجأ إلى علي عليه السلام.

في مكان العالم لا بد أن يجلس العالم، فهل يجوز أن يجلس الضعيف في مكان القوي؟ إنّ كلّ إنسان يغادر الدنيا يجب أن يحتلّ مكانه نظيره، إذا سافر النجّار فإنه يُسَلّم دكانه إلى النجّار، والبقّال يسَلّم دكانه إلى البقّال.

فكيف بالنبي صلى الله عليه وآله وسلم.. الذي بذل خلال (٢٣) عاماً جهوداً مضنية في نظم الأمة.. فلا بد بعد وفاته من حفظ نظم الأمة.. ولمّ شعثها.. ولا يتمّ ذلك إلّا من خلال أن يجلس في مكانه إنسان له القدرة الكاملة على ذلك.

كما أنه لا بد أن يكون عارفاً بكلّ الأحكام السياسية والاجتماعية في الإسلام ليستطيع مواجهة أعداء الإسلام.. ولا بدّ أن يكون عالماً بأحكام الجهاد والحدود والتعزيرات والقصاص..

في عهد أبي بكر وعمر جاء الكثيرون من أهل الأديان الأخرى ليناقشوا المسلمين في دينهم.. فكان المسلمون يرشدونهم إلى بيت أمير المؤمنين علي عليه السلام.. وكان بعضهم يطلب منه المعجزة.. حيث يقولون له إنك إن كنت حقاً خليفة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فاصنع لنا معجزة مثل أوصياء بني إسرائيل.

اتباع أهل البيت، خلاص من الوحدة

«وطاعتنا أماناً من الفرقة» الفرقة تعني الانفصال والانسلاخ والبُعد، و«طاعتنا» إشارة إلى الولاية. لقد أوجب الله سبحانه وتعالى على المسلمين ولاية آل محمد ﷺ ليتوحد المسلمون في هذه الولاية، ولكي لا ينفصلوا عن الروح الإلهية.. ويدخلوا في ولاية الرحمة الإلهية.. وتحذيراً لهم من الوقوع في ولاية الشيطان.. وتيقنوا أن من لم يدخل في دائرة الطاعة للإمام علي ﷺ فإنه مطيع لأعداء أمير المؤمنين علي ﷺ.

إنّ من لا يحبّ علياً ﷺ وآله فهو هالك وإن كان ظاهره إسلام، ولن يكون الإيمان القلبي من نصيبه ما لم يتصل بمبدأ الكمال.. وما لم يدخل تحت ولاية آل الرسول ﷺ، فإنه لن يستطيع التخلص من حكم هوى النفس.. وبالنتيجة فإنه لن يجد لذة الخضوع لله..

كان أحد الرفاق قد أصابه حالة من الخشوع وهو في مسجد النبي ﷺ بعد أداء الصلاة، فكان يبكي وهو ساجد.. فمر به شرطي وسمع بكاءه، فوضع يده على رقبته وضغطها، وقال له: لم تبكي؟؟ هذا الشرطي لم يكن يعرف معنى الخشوع القلبي وبكاء الشوق: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ رَزَقُوا أَعْيُنَهُمْ تَفِيضًا مِّنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣].

ويقول سبحانه في آية أخرى: ﴿وَيَحْزَنُونَ لِأَلَّذِينَ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، ولكن هناك من هو غليظ القلب، لأنهم منفصلون عن ولاية آل بيت محمد ﷺ.. ولن يكون من نصيبهم الإيمان القلبي.

الميل النفسي تابع لعلي ﷺ

إنّ الكثيرين ممّن يدعون التشيع لعلي ﷺ ولكنهم لا يدخلون في ولاية أهل البيت ﷺ.. عندما يدخلون الولاية يتركون هواهم النفسي ويتبعون علياً. إنّ ولاية أمير المؤمنين علي ﷺ هي أن يتصرف الإنسان مترسماً خطى الإمام

ويتبع ما يريده الإمام وما يحبه، يصلّي أول وقت الصلاة.. أمير المؤمنين علي عليه السلام هو الذي قال: «لو أن قطرة من الخمر سقطت في بئر، فلو ملئت البئر ماءً، وزرعت وأينع الزرع لما أكلت منه».

لكم كان أمير المؤمنين علي عليه السلام متنفراً من الخمر.. وعلى الذي يوالي علياً أن يفرّ كذلك من الخمر، ويفرّ من كلّ المعاصي والذنوب، ويشتاق إلى كلّ عمل خير، ليحظى بكلّ الخيرات، ليتوثق ولاءه بعلي عليه السلام شيئاً فشيئاً.. وليكون من الذين يسقيهم علي عليه السلام من الكوثر.

* * *

« ٢٢ »

الجهاد الابتدائي ليس افتتاح البلدان

«والجهاد عزّاً للإسلام، والصبر معونة على استيجاب الأجر» إنّ واحداً من الأحكام الإلهية وضروريات الدين الإسلامي هو الجهاد.. وهو يقسم إلى قسمين:

الجهاد ضد أعداء الإسلام.. وجهاد النفس.

أما الجهاد ضد أعداء الإسلام فهو بذل النفس والمال من أجل إعلاء كلمة الحق.. وهو ينقسم كذلك إلى قسمين:

الجهاد الابتدائي، والجهاد الدفاعي. والابتدائي هو أن يأخذ المسلمون بتجهيز الجيوش بالعدّة والعدد، ويهاجمون بلاد العدو لدعوتهم إلى الإسلام لترتفع راية لا إله إلا الله في بلاد الكفر، ويطردوا الكفر من البلد.

وهذا الجهاد محظور إذا كان الهدف هو الغلبة واحتلال البلدان كما كان يقوم به السلاطين السابقون.. فهذا ليس جهاداً وإنما هو حرام.. لأنّ الهدف يجب أن يكون فقط من أجل إعلاء كلمة (لا إله إلا الله).

يجب أن يأذن المعصوم

إذاً فإنّ ما يجب هو أن يأذن المعصوم، ويكون له الإشراف على هذا الجيش.. وفي زماننا وحيث إنّ الإمام المعصوم غائب فإنّ الجهاد الابتدائي غير واجب.. أي لا يجوز للمسلمين أن يجيشوا الجيوش ويحتلّوا أحد بلدان

الكفر، خصوصاً وأنّ مثل هذا الأمر يحتاج إلى إذن خاص من الإمام المعصوم.

إنّ الإسلام ليس هدفه أخذ البلدان وفتحها، بل هدفه هو أن يتخلّص الناس من الظلم ويكونوا موحدين.. يُحكّم بينهم بحكم الله، وهذا أمرٌ لا يتحقّق إلّا عندما يكون للإمام المعصوم إشراف على مثل هذا الجيش.

الدفاع عن الدولة الإسلامية بالنفس والمال

أما الجهاد الدفاعي فهو موجود دائماً، فإذا أراد الكفّار الهجوم على بلاد المسلمين، فإنّ الواجب على جميع المسلمين حتى النساء والأطفال أن ينهضوا للدفاع عن البلاد كي لا يسمحوا للكفار أن يتسلّطوا عليهم.. والدفاع يعني طرد الكفر من البلدان الإسلامية بالمال والنفس.

ومن أقسام الجهاد الدفاعي: الدفاع عن النفس والمال. فإذا أراد أحدهم أن يقتل شخصاً، فعلى الشخص أن يدافع عن نفسه ولا يسمح له بقتله، أو يريد أن يأخذ ماله يجب أن لا يسمح له، والدفاع واجب إذا كان يستطيع ذلك.

عزّ الإسلام بالجهاد

لماذا أصبح الجهاد الابتدائي في زمان حضور المعصوم، والدفاعي واجب دائماً؟ لأنه «عزّ للإسلام» ومن أجل أن يبقى الإسلام محفوظاً على الدوام.. وعلى المسلمين أن يهتموا كثيراً بعلوّ الإسلام وعزّته، وأن لا يسمحوا في أي وقت من الأوقات للكافر أن يتسلّط عليهم.. إنّ دين الله محترم وعزيز، وعلى المسلمين أن يحفظوا هذا الاحترام وهذه العزّة.. وأن يضخّوا في سبيل ذلك بأرواحهم من أجل أن يهزموا الكفر ويفرضوا عليه التراجع.

الفوز عن طريق جهاد النفس

أما القسم الثاني، فهو: جهاد النفس. وجهاد النفس يتوضّح في الجملة: «والصبر معونة على استيجاب الأجر».

فما هو الصبر وحقيقته وأقسامه: أولاً الصبر بمعنى الصبر والامتناع. وبشكل عام فإنّ له ثلاثة أوجه، أولها: الصبر على المعصية. أي عدم المعصية.. لأنّ نفس الإنسان ميّالة لارتكاب المعاصي، ولكن على الإنسان أن يجاهد نفسه كي لا يرتكب المعصية.

بعض المفسدين يتخيّل أنّ الذنب هو ارتكاب الزنى، فالنظرة الحرام بريية وشهوة حرام أيضاً، وعلى الإنسان أن يصبر وينهى النفس عن ذلك العمل.. ويصون عينه من النظر إلى الحرام، وعليه أن ينظر إلى السماء والأرض.

الحياة الطيبة في ترك المعصية

وإذا كنت تريد حياة الإسلام وعزّته فعليك أن تقاتل الكُفر، وإذا كنت تريد أن تعيش الحياة الطيبة السعيدة كذلك فعليك أن تقاتل هوى نفسك، وإذا لم تستطع ذلك فستكون ذليلاً، غاية الأمر أنك في الجهاد الظاهري تكون ذليلاً للكفر إن لم تفعل ذلك، أما في جهاد النفس فإنك تكون ذليلاً للشيطان وتابعاً له.. وإذا ما اطلّعت على وجودك الملكوتي.. فإنك ترى أن الشيطان قد قضى عليك ويريد قتلك.

في بعض الأحيان تدفعك النفس لتقول شيئاً.. فمثلاً عندما يسبّك شخص ويشتمك، فإنّ نفسك تزيّن لك أن تضيف فوق ذلك كلمات لتقولها له.. وهنا هي الحرب حيث على الإنسان أن يسيطر على لسانه.. ويحبس نفسه من الاسترسال في الهوى.. ويستخدم عقله وإيمانه.. فيخشى الله ويقول في نفسه: إنني إن أجبته بمثل ما قال لي، فسأكون مذنباً.

لا يصح الردّ على القذف بمثله

إذا قذف شخصٌ شخصاً آخر.. أو نسب الزنى لرحمه، فالواجب أن يُجلد بثمانين سوطاً.. فإذا أجابه الشخص الآخر بمثل ما قذف به؛ فإنه يستحقّ أن يُضرب بمثله، ويكون الشخص الثاني مذنباً أيضاً.

لقد قذف ذلك الشخص رحمك بالزنى، ولكنك لا تملك الحقّ أن تردّ عليه بمثل ذلك.. حيث يكون ذلك حراماً.

إنّ كلمة واحدة تقولها جواباً على شخص آخر تجعلك هالكاً.. فعليك أن تصبر وتكون قادراً على كبح جماح نفسك.. الصبر في مقابل المعصية.

نعم.. إذا أردت أن تجيب.. فتشتم الذي شتمك ولكن بشرط أن لا يكون قذفاً.. ولا تهمةً قل مثلاً.. أيها الجاهل.. فلا عيب في ذلك.. قل الحقيقة.. ولا تتهم ولا تقذف.. وإلا.. فإنّ حالك إلى هلاك إذا تجاوزت الحدّ.

إنّ الإنسان بالصبر يكون إنساناً، ويحصل على الأجر عندما يكون صابراً: «والصبر معونة على استيجاب الأجر» أتريد أن تحصل على الأجر دون صبر؟ لا يمكن لأحد أن يحصل على الثواب دون الصبر على المعصية.. وعليك أن تمنع نفسك واحبسها عمّا تريد احبس عينك.. ولسانك، ورجلك، ويدك، فالطريق.. طريق رجال الله: ﴿رِجَالٌ لَا لُئْلِيهِمْ تَجَنُّرٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] إنّ الطفل لا يمكن أن يحقق بعض الأشياء إلاّ أن يكون رجلاً، والرجولة لا تتحقّق إلاّ بالصبر في ترك المعصية.

الصبر في الإنفاق والإمساك

وثانياً: الصبر في أداء الواجبات الإلهية وترك المحرمات. ففي الطاعة لا بدّ من توقّر الصبر.. إنّ الإنسان يتعب حتى يحصل على المال.. وإنّ الله قد أمرك أن تعطي خمس أموالك مما زاد على مؤونة السنة.. في حين أنّ نفسك

تحدثك بأنك قد تعبت في الحصول على ذلك المال، فلماذا تعطي خمسته..
وهنا يحتاج المرء أن يتذكر أنّ ذلك أمر الله.

رحمك يحتاج إلى المال، فإذا لم تعطه وأنت قادر على العطاء، فإنك تقطع رحمك. وهنا يحتاج الأمر إلى جهاد النفس، وصوم شهر رمضان يحتاج إلى صبر أربع عشرة ساعة من الفجر حتى المغرب، ومن لم يصبر؛ فإنه لن يحصل على شيء.

إنّ النوم يحلو في الهواء اللطيف وخصوصاً عند الصباح، ولكن على المرء أن يصبر على طاعة أمر الله، فينهض لأداء الصلاة: ﴿تَجَافَى جُنُوبَهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦]، إنه أمر الله، أن يؤدي الصلاة، وإلا فإنّ الصبر ليس سهلاً، إنّ ذلك الإنسان الذي لا يستطيع أن يستغني عن لذة النوم، لن يصل إلى نتيجة طيبة.

إنّ الإنسان الذي لا يسيطر على رغبة بطنه في تناول الطعام في شهر رمضان لن يستطيع أن ينال الدرجات العالية، إنّ الطاعة للأوامر الإلهية، كالحج والصلاة والصوم والخمس والإنفاقات الواجبة والمستحبة تحتاج إلى الصبر.

الصبر في المصيبة

ثالثاً: الصبر على المصيبة.. فإذا كان الإنسان يجزع عندما تنزل بساحته المصائب والمصاعب، فمتى يستطيع أن يكون كالرجال؟. إنّ الصبر على المصيبة يحتاج إلى قدرة تحمّل آتية.. وعندما لا يكون قادراً على الصبر؛ فإنه يكون ضعيفاً. ويحرمه ذلك من أجر الصبر على المصيبة.

وهناك رواية تقول: إنّ الإنسان الذي لا يصبر عند نزول البلاء به؛ فإنه يكون قد ابتلي بالمصيبة، ويكون محروماً من الثواب كذلك.

والواقع إنّ الذي نزل به البلاء وحلّت به المصيبة ثم لا يكون من نصيبه

الثواب فسيكون خاسراً. ولكنه عندما يصبر على البلاء فإنّ أجره عند الله يكون كبيراً.

إنّ للصبر مراتب ودرجات متعددة.. وإنّ أيّ واحد من الصابرين لن يصل إلى مرتبة الإمام الحسين عليه السلام.. «لقد عجبت من صبرك ملائكة السماء» اللهم بحق الحسين عليه السلام اجعلنا من الصابرين.

* * *

« ٢٣ »

«والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين

وقاية من السخط»

التوصية بالصبر شرط

لقد ذكرت مجموعة من المطالب المتعلقة بالصبر من خلال خطبة السيدة الزهراء عليها السلام ولكنّي تذكّرت أنّ موضوع الصبر جاء في القرآن في أكثر من مائة مكان، حيث أمر القرآن بالصبر واعتبره من الأمور المهمة.

راجعوا فهرست الآيات القرآنية فستجدون أنّ ذلك يتجاوز أكثر من مائة مرة.. وفي (سورة العصر) اعتبر القرآن الصبر وسيلة للتخلّص من الخُسران: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُورٍ * إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَوَاوَّأُوا بِالْحَقِّ وَوَاوَّأُوا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١ - ٣].

ومحلّ الشاهد هنا هو (التواصي بالصبر) لأنّ إحدى واجبات ووظائف المؤمنين الملقاة على عاتقهم: التحلّي بالصبر، إضافة إلى دعوة الآخرين وتشجيعهم وتوصيتهم بالصبر كذلك..

والصبر عبارة عن حبس النفس عن الجزع.. ومنعها من الإتيان بحركات مخالفة للشرع والعقل مثل: الشكوى باللسان، وشقّ الجيوب، واللطم على الرأس والصدر. والصبر هو منع ظهور الاضطراب.. صحيح أنك مريض، ولكن عليك بالصبر، فقد أمر الله بذلك..

«والصبر معونة على استيجاب الأجر» والمعونة من العون بمعنى المساعدة.. متى يقال المساعدة؟. إنه يقال للأمر الذي لا يظهر أثره إلا بالمساعدة والعون، إنَّ الرجل العجوز يحمل العصا بيده.. فالعصا تعينه على الاستقامة.. أو يتكّي على شخص آخر، فيقال لذلك معونة.

الصبر هو سرّ قبول الأعمال

إنَّ السيدة الزهراء عليها السلام تقول إنَّ العمل لا يكفي لوحده لينال المؤمن الثواب والأجر من الله سبحانه وتعالى، وإنما الذي يجعل الإنسان يحصل على ذلك هو الصبر.

إنَّ للصلاة والصوم والذكر والإنفاق ثواب عظيم (وهي بحدِّ ذاتها صبرٌ كما تقدّم) ولكنها مقيّدة بشروط حتى تصل إلى مرحلة الحصول على الثواب.

فمثلاً الصلاة التي لا يتوقّر فيها حضور القلب والإخلاص ليس لها أجرٌ كامل.. صحيح أنَّ للإنفاق والعبادات ثواب، ولكنَّ الوصول إلى مرحلة الحصول على ذلك الثواب له شروط.. وقلّما يتوافر الأشخاص الذين تتواجد فيهم تلك الشروط، وإذا ما وُجدوا فإنهم ينالون تلك المرتبة العالية.

إنَّ الله سبحانه وتعالى - ويحكّمته البالغة - جعل للصبر أثراً سحرياً عظيماً، كما أنَّ الصبر يزيد من ثواب العبادات وأجرها.

ومن الطبيعي فإنَّ مثل هذه الأمور لا يمكن إثباتها عن طريق العقل، إلاَّ أنَّ النصوص الموثّقة هي التي توضح ذلك.. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَنَجْزِيَنَ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٦].

وهذا يعني أنَّ الله سبحانه وتعالى سيجزي المصلّين بأحسن أجرٍ لأنهم كانوا من الصابرين، رغم أنَّ صلاتهم تلك لم تكن ذات بال. والذي تنزل به المصيبة، ثم يصبر فإنَّ هذا الصبر سوف يزيد من أجر صلاته التي لم تكن ذات

قيمة فيجعلها ذات قيمة. كما أنّ للصوم درجات والصبر يزيد من ثوابه وكذلك الأمر مع الإنفاق..

السيدة الصابرة والحج المقبول

جاء في أحد الكتب في زمن السلف الصالح، أنّ امرأة مؤمنة تشرّفت بالذهاب إلى الحج مع زوجها وابنها وأقاربها.. وكانوا يركبون سفينة شراعية. فارتفعت أمواج البحر وتلاطمت، وتحطمت السفينة وغرق ركابها، وكان من الذين غرقوا زوج المرأة وابنها وجميع ما كانوا يحملون من أموال، فتعلّقت المرأة بخشبة فنجت من الغرق، ثم وصلت إلى اليابسة فالتحقت بقافلة للحجاج، وقد فقدت في هذه المصيبة زوجها وابنها وتماث ما تملك، فأحرمت من الميقات.. وعندما وصلت إلى باب المسجد الحرام حاضت، فلم تتمكن من دخول المسجد، فقالت المرأة وهي بتلك الحال وقلبها كسير: إلهي لقد فقدت كل ما عندي فصبرت حتى أصل إلى بيتك الحرام، وعندما وصلت إلى بيتك لم تسمح لي بالدخول؟! فوصل النداء إلى سمعها أو إلى سمع أحد الصلحاء: لم يقبل حجّ أحدٍ في هذا الموسم كقبول حجّها..

ومن هنا فإنّ الشكل الخارجي ليس مقياساً. وإنما العمل إذا كان مقروناً بالصبر فإنّ قيمته تتضاعف.

المصائب سبيل لقبول الأعمال

روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «إنّ للبعد منزلة عند الله، فما ينالها إلا بإحدى الخصلتين: إما بذهاب ماله، أو ببليّة في جسده»^(١)، والأعجب من ذلك ما جاء في القرآن: ﴿إِنَّمَا يُؤَوِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠]، ويقول الرسول ﷺ حول هذه الآية: «إذا نُشِرت الدواوين ونصبت الموازين؛

(١) سفينة البحار للقمي: ج ١، ص ١٠٦.

لم يُنصب لأهل البلاء ميزان، ولم يُنشر لهم ديوان^(١)، ثم تلا هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّادِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

الويل لك أيها الإنسان إذا أرادوا أن يحاسبوك: هل أدت واجباتك أم لا؟ أنه لأمر صعب جداً حقاً.

ولكم كان الإمام زين العابدين عليه السلام يضحّ بالبكاء حين يأتي ذكر الحساب والقيامة.

إنّ المقصود من قول الرسول ﷺ هو أنّ الإنسان إذا كان من الصابرين؛ فإنّ صحيفة أعماله لا تُفتح ليدققوا في ما ارتكبه من الذنوب لشدة ما للصبر من صعوبة ومرارة، بحيث يحبس الإنسان نفسه ويسيطر عليها، ولا يعترض على قضاء الله وقدره، ولا يجزع ولا يفزع مما يلحقه من الأحداث المؤذية غير المتوقعة، سواء كانت من قضاء الله.. أو مما يصدر من بني آدم.

أوصوا ذوي المصيبة بالصبر

الإنسان الذي يلحق به الأذى من أقاربه عليك أن توصيه بالصبر.. والإنسان الذي يؤذيه جاره قل له أن يتجاوز عنه في سبيل الله.. قل له مثلاً إنّ الإمام موسى بن جعفر عليه السلام ذهب ابن عمه إلى (هارون الرشيد) وشكاه إليه، فكان سبباً في تهية أسباب قتله عليه السلام ومع أنّ الإمام عليه السلام كان يعلم ذلك، إلّا أنه أعطاه مائة دينار من الذهب ونصحه.

ويجب أن تذكر الطرف الثاني لكي لا ينسى الصبر ويفقده حين يحاول الانتقام، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَأَنْ تَعَفَّوْا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [آل عمران: ٢٣٧].

إنّ وظيفة الآخرين عندما تحلّ بأيّ شخص مصيبة أن يوصوه بالصبر.

(١) لآلى الأخبار: الباب ٣ في فضيلة الصبر.

حديث الإمام الصادق عليه السلام مع سماعه

كان (سماعة بن مهران) من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وأصبح بعد وفاة الإمام الصادق عليه السلام من الموالين للإمام موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، وقد حقت به المشاكل والمصاعب، ولحقت به الخسائر المادية، وخسر كل أمواله. ولم يستطع لفترة معينة أن يقدم إلى الإمام الكاظم عليه السلام حتى أخذه بعض الشيعة معهم إلى مكة والمدينة. وعندما وصل المدينة المنورة حضر عند الإمام الكاظم عليه السلام فسأله الإمام عن أحواله وعن سبب عدم مجيئه إلى المدينة عدة سنوات. فشرع (سماعة) يشكو من مصائب أيامه، وأخبر الإمام عليه السلام بأنه فقد كل شيء، وأصبح جليس الدار.. وأنه جاء مع بعض الشيعة.

فقال له الإمام عليه السلام: «إن تصبر تغتبط، وإن لا تصبر يُنفذ الله مقاديره راضياً كنت أم كارهاً»^(١).

لقد خسرت مالك فاصبر وتحمل وانتظر الفرج من الله.. لقد جئت عارياً وتذهب كذلك.. لا يسيطر عليك اليأس، ولا تتصور أنّ حياتك تستقيم بالمال والثروة.. فإنّ الله هو الذي رزقك، وما دمت حياً فإنّ الله يضمن لك رزقك، وإياك أن تتصور أنّ المال هو الذي يدبّر حياتك.

إيّاك أن تتجاهل نعم الله

ويجبُ الإمام عليه السلام ذلك الشخص الذي يبكي ويئن من الألم، بأنه كان مصاباً بالحمى ستة أشهر.. وأن ابنه (إسماعيل) مصابٌ بالحمى منذ عام وهي لم تفارقه.. ويوصيه بانتظار الفرج والصبر، وأنّ عليه أن لا يتصور أنه فقد كل شيء بمجرد إصابته بالحمى.

ويقول له: أليس لك أذنٌ فهل صُمّت؟. وهل شلّت قدماك؟. فلماذا الجزع.. لقد فقدت جزءاً من أعضاء حياتك، فهل فقدت العافية؟

(١) سفينة البحار للقمي: ج ٢، ص ٥.

ويقول له الإمام عليه السلام: لو كان عندك مال كثير وفقدت النظر بعينيك فكم هو مقدار المال الذي أنت على استعداد لتعطيه؟ فقال: عشرة آلاف دينار لعُشر العضو، ومائة ألف دينار لكل عضوٍ كاملٍ.

أم عقيل النموذج في الصبر

(أم عقيل) كانت امرأة تسكن البادية.. وكان الحجاج في طريقهم إلى مكة، فرأوا خيمة منصوبة في الصحراء فجاؤوا إليها ووصلوا إلى أم عقيل، وكانوا يحتاجون الطعام.. فقالوا: نريد الذهاب إلى الحج ولا طعام عندنا. فقالت أم عقيل: لقد أخذوا الأغنام والإبل إلى السقاية، فإذا عادوا ذبحت لكم شاة وقدّمتها لكم.

وبقي الحجاج ينتظرون عودة الحيوانات، ثم رأوا من زاوية الخيمة أنّ بعيراً وقطيعاً من الأغنام قادمة من بعيد.. وما أن اقتربت الحيوانات حتى ضجّ الراعي بالبكاء والعيول.. فهرولت (أم عقيل) لتمنعه من البكاء. فقال لها الراعي: ما أن اقتربت الإبل من الماء حتى ضربت ولديك، فألقته في البئر ومات. فقالت الأم: اصمت إنّ عندنا ضيوفاً ولعلهم ينزعجون إن علموا بهذا الأمر، علينا الآن أن نقوم لهم بواجب الضيافة، إذهب حالاً وانحر لهم بعيراً واطبخه للضيوف.. ثم دخلت هي إلى خيمتها.. فعلم الحجاج بالأمر، فتألّموا لذلك الأمر ألماً شديداً، وعندما دخلت عليهم (أم عقيل) أظهروا لها مواساتهم وألمهم بما حدث لولدها.. فقالت لهم: إنها لم تكن ترغب أن يصل الخبر إليهم فينزعجون.. وطلبت من أحدهم أن يقرأ القرآن فتلا قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَنَبِّئِ الرَّصْدِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

فقالت له: يكفي. ثم توضأت وصلّت ركعتين.. وبعد الصلاة توجهت هذه المرأة المحزونة بالدعاء فقالت: اللهم إني امرأة ضعيفة وقد أمرتنا بالصبر، وقد صبرت ما وسعني في هذه الحادثة ولم لا أصبر، وقد مات أشرف الخلق

وآخر الرسل.. وإنّ الموت هو مصير الجميع.. اللهم إنني صبرت على موت ابني، فلا تحرمني اللهم من أجر الصابرين.. ثم نهضت وقامت بواجب الضيافة للحجاج، وكان شيئاً لم يكن.

في ليلة عاشوراء جسّد الإمام الحسين عليه السلام قوله تعالى: ﴿وَوَاصِرًا بِالصَّبْرِ﴾ فأوصى أخته السيدة زينب عليها السلام بالصبر، وأن لا تجزع، وكان مما أوصاها به: «إنّ أهل الأرض يموتون، وأهل السماء لا يبقون، لا يذهبنّ بحلمك الشيطان».

* * *

الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد

وردت في (أصول الكافي) رواية منقولة عن الرسول محمد ﷺ وهي قوله: «الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد» وقد وردت عدة روايات بهذا المعنى حيث شبهت الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد.. ومن المعلوم مقدار أهمية الرأس لجسد الإنسان.. فإذا فصل الرأس عن جسد الإنسان فما الذي سوف يحصل؟ وما الذي يستطيع أن يفعله؟ لا شيء سوى التعفن.. ولذلك يجب دفن هذا الجسد المتعفن مقطوع الرأس تحت التراب كي لا يسبب الأذى للآخرين.

والإنسان المؤمن إذا لم يكن متمتعاً بالصبر، فإنه ليس مؤمناً حقيقياً وعليه أن لا يتصور أنه سيحشر مع المؤمنين بعد الموت.. والخلاصة إن الإنسان الذي لا يملك الصبر فإنه ليس مؤمناً.

درجات الصبر

ثم إن الرسول ﷺ قسّم الصبر إلى درجات ثلاث بيّن كل درجة ودرجة أخرى مراتب ومقامات، حيث يستفاد من قول الرسول ﷺ أن للصبر على المصيبة ثلاثمائة درجة بين كل درجة وأخرى ما بين الأرض والسماء، وأن للصبر على الطاعة ستمائة درجة بين كل درجة وأخرى مثل ما بين تخوم الأرض حتى العرش، وأن للصبر على المصيبة تسعمائة درجة بين كل درجة وأخرى مثل ما بين تخوم الأرض حتى منتهى العرش.

إنَّ كلَّ ذلكَ تعبير عن مفاهيم ومعاني هو يعلمها تتعلق بالدرجات والمقامات المعنوية.. ولذلك فإنَّ مسألة الثلاثمائة والستمائة والتسعمائة هل هي إشارات إلى المقامات والكمال المعنوي، أو شيئاً آخر؟ وهذا ما لا نعلمه.. وفقنا الله لنكون من أصحاب الدرجات الثلاث.

أفضل الأعمال أشقها على النفس

وعلى هامش ذلك أقول، إنَّ أهل العقل، أي الله ورسوله والإمام المعصوم لا يبالغون مطلقاً فيما يقولون.. فهم يتكلمون وفق الميزان الواقعي الصحيح، وهذا التفاوت العظيم الذي ذكره رسول الله ﷺ بين درجات الصبر يوضحه في حديث آخر حيث يقول: «أفضل الأعمال أحمضها».. فإذا أراد الإنسان أن يعرف حقيقة عمل نسبة إلى عمل آخر فعليه أن يرى أيهما أشقَّ على نفسه، ولكلِّ نفس مقدار لتحملها وطاقتها.. ولأنَّ النفس تكره الطاعة.. فليعلم الإنسان أن أيَّ أمر أشقَّ على نفسه، فإنَّ درجته أعلى من غيره. إنَّ أقل درجات الصبر هو الصبر على المصيبة، مثل الصبر على فقدان المال، فالصابر يقول: الله كريم، لقد وُلدنا عُراة ونذهب من هذه الدنيا عُراة.. إنه لأمر صعب، ولكنَّ الإنسان يستطيع أن يسيطر على نفسه في مثل هذه المصيبة.. أو يتلى بمرض عضال فيستطيع أن يسيطر على نفسه حين يعلم أنَّ الجميع معرَّضون للمرض، وأنَّ الدواء موجود، وأنَّ الله قادر على معافاته.

ينظر إلى أشخاص آخرين ابتلوا بأشدَّ مما ابتلي به فيهدأ.. المصيبة بموت الأقراب! هل هي شيء جديد؟ إنَّ الجميع يموتون.. يا من فقدت أبوك أو ابنك.. ألا تريد أن تموت؟ إنَّ هناك من يسبقنا إلى الموت وهناك من يتأخر عنا قليلاً.

لا يقولون لا تبك ولكن يقولون لا تجزع ولا تقل كُفراً، حيث يمكن للإنسان وفق ميزان العقل والشرع أن يسيطر على أحاسيسه، فلا يعترض على القضاء والقدر.. وكذلك المصائب التي تنزل من قبل بني آدم على الإنسان..

فهي سهلة إلى حدٍّ ما.. إنك تسمع من يسبِّك، ويؤذيك جارك وكل ذلك بسيط نسبة ما.

والعاقِل بإمكانه أن يسمع الكلام فلا يجيب عليه.. والجواب يكون أحياناً من الهوى، المهم أن لا يفقد الإنسان وجاهته عند الله.. وإذا ما اعتاد المسلمون على هذه الدرجة من الصبر؛ فسيكونون إن شاء الله ممن يحصلون على الدرجات الثلاثمائة التي وعدهم بها رسول الله ﷺ.

الصبر على الواجب أصعب

إنّ الصبر على أداء الواجبات أصعب درجة من الصبر على فقدان المال والأهل والأقارب.. لأنّ الواجبات والوظائف صعبة على النفس.. والصلاة خمس مرات في اليوم يقول عنها الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، إنّ كثيراً من أولئك الذين لم يتعوّدوا على أداء الصلاة إذا أمرت أحدهم بأداء الصلاة فكأنك تأمره بأن يقلع جبلاً، خاصة أداء صلاة الصبح في الصيف، أو تأمر أحداً بأداء الخمس.. صحيح إنه من الصعب أن يحبّ القلب ذلك، ولكن هل يمكن أن يقطع الإنسان صلته بثروته إلا بالصبر؟

إنّ الإنسان قد توضع عنده أمانات الناس، ولكنه يجب أن يصبر دون التصرّف بها دون حق.. وعليه كذلك أن يصبر فلا يمكث في البيت المغصوب مع أنه بحاجة ماسة إليه، والحج واجب عليه والجو حار وعليه أن يصبر ويتحمّل كي يتكيّف مع الجو الحار في الحجاز.. وعليه أن يتكيّف على فراق الأهل والأحبة والعائلة.

الصبر على ترك المعصية أصعب

والأصعب من كل ذلك هو الصبر عن ارتكاب المحرّمات، عدم ارتكاب الذنب، وإمساك اللسان أصعب.. فأحياناً تضغط النفس على الإنسان أن يردّ على الآخرين، ويصعب عليه أن لا يقول شيئاً، فذلك الشخص سبّتي فارتكب

ذنباً، وإذا أجبته بسبٍ مثله أكون قد ارتكبت ذنباً، فما العمل؟ الصبر.. عليّ بالصبر إذًا.. أو يمنع نفسه من التصرف بالمال الحرام الذي وقع بين يديه مع حاجته الشديدة له.. ولذلك فإنه لا يتصرف بذلك المال دون إذن صاحبه.

قد تكون لك مع أحد الأشخاص عداوة أو منافسة، فعليك أن لا تقول غير الحق تجاهه من أجل أن تُذله.. وإنّ ذلك يحتاج إلى درجة عالية من الصبر مهما كانت العداوة بينهما.. ولكن يجب قول الحقيقة.. وعلى الإنسان أن لا يخون.

إنّ الإنسان يستطيع بالصبر عن ارتكاب المحرمات أن يحصل على الدرجات التسعمائة، لأنّ الصبر عن ارتكاب المعصية أصعب كثيراً من الصبر على أداء الواجب، والصبر على أداء الواجب أصعب من الصبر على المعصية. إن الإنسان يستطيع أن يحقق ذلك بعد الممارسة والتمرين، رغم أنّ ذلك في الأيام الأولى يكون صعباً.

هناك رواية تقول إنّ الميت بعد أن يُدفن، يمنح الله أهله طاقة النسيان، ولكنّ الصلاة والزكاة والحجّ كلّها أخفّ وطأة على الإنسان من السيطرة على اللسان والعين.. إنه ليس من السهل عندما يعلم الإنسان بعيب ما في رفيقه أن لا يفشي ذلك العيب بعد أن يتباغضا.. فبمجرد أن تنفصم عُرى العلاقات بينهما، تحدّثه نفسه بأن يقول ما اطلع عليه من عيوب صديقه، وهنا عندما يسيطر الإنسان على هوى نفسه؛ فقد طوى الدرجة الثالثة من درجات الصبر.

﴿وَيَسِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٤٦] و﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣] لقد وردت في القرآن الكريم بشائر كثيرة للصابرين: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٧].

ويقول في (الكافي) إنّ هذه الآية تضمّنت ثلاث بشارات: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٥٧] وثانياً: الرحمة.. الرحمة الإلهية للصابرين.. وثالثاً: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧] لأنّ كلّ من كان من الصابرين يكون من المهتدين.. والذي ليس من أهل الصبر فإنّه ليس من أهل الإيمان.

إنّ الذي لا يملك الصبر، لا في أداء الواجب، ولا على المصيبة، ولا على الواجب أو المستحب، فهو كالفرّاش المبتوث، لا يُعنى به يوم القيامة، وإنّ المؤمن يجب أن يكون كالجبل الراسخ لا يهزّه أيّ شيء «لا تحركه العواصف».

وفي مجال الصبر أذكر لكم قصة وردت في بعض الكتب نقلاً عن بعض الأخيار حيث قال: كنت واقفاً على باب دكان حدّاد، وكان الحدّاد واقفاً قرب كورة النار مشغولاً بعمله، وإذا بالحدّاد يأخذ بيده الحديد المحمى ويضعه داخل الكورة، ثم يخرجها وهو يفعل ذلك بيده ثلاث مرات، فأصابني العجب والحيرة من أمره، خصوصاً وأنّ جلده ولحمه لم يتأثرا بالحرارة أبداً، فسألته عن السبب، ولم أدعه حتى أخبرني بالأمر حيث قال: إنّ ما تراه هو من بركات دعاء إحدى النساء العلويات، حيث أعطاني الله ذلك ببركة الصبر على ترك المعصية.

بالصبر عن ارتكاب الزنى، لا يحترق بالنار

وكانت قصته كالتالي: في إحدى سنوات القحط والمجاعة، حيث لم يتوفر حتى الخبز، وكان عندي طعام، فجاءتني إحدى النساء العلويات وقالت إنني علوية وعندي عدد من الأولاد ونحن فقراء محتاجون وقد مسّنا الجوع فأقرضنا شيئاً نسدّ به جوعنا.

وكان جمال تلك المرأة قد أسر قلبي؛ فقلت لها: حسناً ولكن بشرط أن تمكيني من نفسك لأنال منك ما أريد، وبعدها أعطيتك الطعام، فقالت: إنني علوية؛ أقسم عليك بفاطمة الزهراء عليها السلام أن لا تلوثني بهذه الفعلة الشنيعة. فأصررت أنا على شرطي وكررت عليها الطلب، فانصرفت. وجاءت في اليوم التالي فكررت طلبها، فأجبتها بمثل جوابي الأول. فقالت: لا حيلة لي وأنا الآن مستعدة للموت، ولكن اشترطت أن يتمّ الأمر في مكان لا يطلع فيه علينا أحد. فوافقت، ثم أخذتها إلى خلوة ليس فيها أحد، وعندما أردت أن أبأشر الذي أريد فرأيتها ترتجف، فقلت لها ماذا دهاك؟ فقالت: أيها الرجل لقد

اشترطت عليك أن يكون مخفياً لا يطلع فيه علينا أحد. فقلت لها: ليس هناك من أحد. فقالت: الله هنا ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾

وعندما رأيت ارتعاش المرأة، قلت في نفسي: أنا أولى بالخوف منها، فهي مضطربة، أما أنا فلا.. فانتبهت، وتنحيت جانباً واعتذرت منها واحترمتها، وأعطيتها ما طلبته من الحنطة والدقيق لها ولأطفالها. وعندها توجهت إلى الله تدعو لي فقالت: اللهم فكما تركني وأنقذني من أن أتلوث بالحرام، اللهم فحرّمه على نار الدنيا والآخرة. ومنذ ذلك اليوم أصبحت النار لا تحرق جلدي.. وإن شاء الله لا تحرقني نار يوم الآخرة.

يحرق أصابعه حتى...

إنه ليس من السهل على الشاب بعد توفر جميع الظروف المناسبة لارتكاب العمل المحرم، وبعد ارتفاع جميع الموانع، أن يصبر عن ارتكاب الحرام من أجل الخوف من الله، وأن لا يصغي إلى حديث النفس، إنها الشجاعة حقاً كما قال النبي يوسف عليه السلام ﴿فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ الْقُرْآنَ مِنْ قِصَّتِهِ: ﴿وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣]، وهناك قصة العابد الذي ابتلى بتلك المرأة.. حيث كان أحد العباد جالساً في صومعته يبتهل إلى الله حين دخلت عليه مساءً إحدى النساء.. وكان الجو بارداً، فلم يستطع أن يخرج من الصومعة، فأراد أن يشغل نفسه عن الوسوسة بإحراق أصابع يديه على النار واحداً بعد آخر.. وقد ذكر (العلامة المجلسي) في كتاب (حياة القلوب) أنّ ذلك العابد أحرق جميع أصابع يديه العشرة، ومع ذلك كان يشعر ببقاء جذوة الشهوة في نفسه.. ولذلك قالوا بحرمة خلوة الرجل مع المرأة الأجنبية.. وعندما أصبح الصباح وأرادت المرأة أن تذهب لحالها، قال لها العابد: لقد كنت ضعيفاً سيئاً.. وعندما خرجت المرأة صاححت على الناس أيها الناس: الحقوا فلان العابد فقد أحرق نفسه.

« والأمر بالمعروف مصلحة للعامة »

إنّ واحدة من واجبات المسلمين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..
وحيثما أوجب الله سبحانه وتعالى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر
فلكي يصلح حالهم.. فالإنسان الصالح بإمكانه أن يصلح الآخرين.

وقد ورد في القرآن الكريم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عدة
أماكن، منها قوله تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، وفي آية أخرى أمر سبحانه وتعالى بلعن
التاركين للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد عبّر عن المسلمين بأنها خير
أمة أخرجت للناس لأنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ
أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ويُفهم من الأحاديث الواردة عن رسول الله ﷺ والأئمة المعصومين عليهم السلام
حول الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنهما من أعظم الواجبات الإلهية،
وأنهما واجبان باتفاق آراء كل علماء المسلمين، ولذلك يجب معرفة المعروف
والمنكر وما هو الأمر بهما أو النهي عنهما ومعرفة مواردتهما.

المعروف في اللغة يعني المعرفة.. أي الشيء الذي عرفه الشارع بالحسن،
وأنه مطلوب من قبله وأمر به، حيث إنّ كلّ شيء أمر به الشارع المقدّس يعتبر
معروفاً، وكلّ عمل قبيح أنكره الشارع أي حرّمه الشارع ونهى عنه بنهي

تحريمي فإنه يُعتبر منكراً ومحرمّاً، أو نهى تنزيهي وفيه كراهة فإنه يقال له مكروه، فالمعروف هو: واجبات ومستحبات، والمنكر: مكروهات ومحرمات. والنتيجة هي أنّ الأمر بالواجب واجب، وإنّ الأمر بالمستحبّ مستحبّ، وفي المحرمّات يكون النهي عنها واجباً، وفي المكروهات النهي عنها مستحبّ، والشيء المهم الذي يجب أن نعرفه هو كيفية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولأي شيء.

الأمر والنهي من أجل الإصلاح وليس من أجل هوى النفس

كما قالت السيدة الزهراء عليها السلام فإنّ الله سبحانه وتعالى قد أوجب الأمر بالمعروف من أجل إصلاح وضع المسلمين، لذا إنّ من واجب كلّ مسلم أن يعرف المعروف ويعمل به، ويشجع الآخرين ويعرفهم بالمعروف ويأمرهم به، وخصوصاً أولئك الذين هم تحت كفالته، حيث عليه أن يأمرهم بالمعروف الواجب، وأن يمنعهم من ارتكاب المُحرّمات، وبعد هؤلاء، عليه أن يمنع تلميذه من ارتكاب المنكر بما يستطيع من الطاقة، وذلك بقصد إصلاحه وليس اتباعاً لهوى نفسه.

فمثلاً عليك أن تأمر ابنك بالصلاة، ولكنه إذا تسامح في ذلك فإنك تحاول أن تزيد من تنفّره فتحاول أن تضربه، وقد يقع أحياناً بسبب رغبة في النفس في التشقي وتنفيساً عن الغيظ لأنه لم يسمع كلامك.. وهنا لا بد من التذكير أنك إذا أردت أن تأمر ابنك بالصلاة عليك أن تقوم بذلك انطلاقاً من الحرص عليه وإطاعة لأمر الله وليس لتنفيس غضبك.

إنّ الأمر حساس جداً، فهؤلاء الذين يزجرون أولادهم انتقاماً لأنفسهم، يجب أن يعرفوا أن نهيهم عن المنكر يجب أن يكون في سبيل الله فيكون نهيهم إلهياً وليس شيطانياً.

إرشاد التائهين واجبٌ بحكم العقل

لو كانت قافلة من الناس تتحرك في الصحراء نحو هدف معين، وقد اكتشفت القافلة الطريق الصحيح وكانوا يسرون عليها.. عليهم بحكم العقل أن يرشدوا كلَّ من يجوده قد ضلَّ عن الطريق الصحيح.

فالعقل يقول أيها المسافر لقد اهتديت أنت إلى الطريق الصحيح.. فلا تطأطئ برأسك، وانظر أمامك وارشد كل الضائعين، فإنهم مثلك بشر وهم رفاقك في السفر، فاحرص عليهم وخذ بأيديهم ودلهم على الطريق.. فلعل حيواناً مفترساً يمزقهم إن ضلّوا عن الطريق.. أو لعلهم يسقطون في بئر عميقة أو وحلي.

ويقول الشاعر إن بني آدم أعضاء يكمل بعضها الآخر، وقد خلّقوا من معدن واحد.

على المسلم أن يزرع في قلبه المحبة، حيث يحب أن يهتدي الجميع إلى الطريق السليم، الطريق السليم الذي هداه الله إليه، وجعله يعرف الواجبات ويتجنب المنكرات، عليك أن تحرص على هداية كل الضالّين نحوه، خذ بيده معك ما استطعت، فإذا لم يأت معك فلا تحتمل أنت ذنباً في ذلك.. طبعاً من المفروض أن يتم ذلك بلسان لطيف وأخلاق طيبة وقلب حريص.

نعم إذا لم ينفع الكلام اللين، وكنت تحتمل أنك تستطيع بالإكراه والقوة جلبه نحو الطريق الصحيح فعليك فعل ذلك مع مراعاة درجة الشدة.

إن الله قد أمر النبي موسى عليه السلام أن يقول قولاً لنا لبناً لطاغية مثل فرعون ﴿فَقَوْلًا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ [طه: ٤٤].

مثلما تركت الذنوب، عليك أن تطلب الخير لكلّ من تراه مذنباً، عليك أن تُفهمه أنّ الدنيا فانية، أما الحياة الآخرة فإنّ فيها جهنم.. اجعله ينصرف عن ارتكاب الحرام، شرط أن تكون نفسك تاركاً للحرام، وإلا فإن الله يلعن الأمرين بالمعروف التاركين له، والتائهين عن المنكر الفاعلين له.

انظر إلى النبي موسى ﷺ كيف تكلم مع فرعون: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَن تَزُكَّ﴾ [النازعات: ١٨]، لقد ترقق النبي موسى ﷺ بالكلام مع فرعون إلى درجة أنه أصبح مهيناً للإيمان، وترك إدعاء الربوبية، ولكن وزيره الملعون هامان لم يدعه أن يستمرّ في الطريق.

لكم هو خطير تأثير جليس السوء، فهذا الرفيق الشقي (هامان)، صرخ بفرعون: ماذا تريد أن تفعل، لقد قلت زماناً إنك الربّ، أفليس قبيحاً أن تقول الآن أنك عبد.. وهكذا بقي يوسوس له حتى أعاده إلى طريق الضلال.

إذاً يجب على الذي يريد أن يهدي الآخرين إلى عمل المعروف وترك الحرام أن يفعل ذلك بلين ورفق، وليس بالتجبر والقوة، فيهلك نفسه والآخرين.

إنّ قلوبنا لتحترق وتتألم، ولأجل ذلك نصرخ ونقول لا تفعلوا ذلك ولا تفعلوا هذا، على النساء أن لا تخرجن عاريات في الشوارع، ولا يعرضن أنفسهنّ للعيون، أيتها المرأة التي تخرج إلى الشارع بهذا الوضع هل تعلمين كم تثيرين شهوة الشبان العزاب خصوصاً، وكم تسليين الأمن والعفّة من المجتمع؟

قبل عدة أيام كان أحد الأشخاص المؤمنين يبكي بشكل حقيقي ويقول: إنّ السوق لا تجري فيه معاملة شرعية صحيحة، وإنّ المعاملات التجارية التي يقوم بها المسلمون اليوم هي خارج الإطار الشرعي، لماذا يحصل كل ذلك؟ إنّ عليهم أن يعرفوا المعروف.

قبل أربعين أو خمسين عاماً كان التجار يرسلون أبناءهم إلى المدارس الحوزوية ليتعلموا آداب التجارة، وبقراء كتاب المكاسب والمتاجرة وأبواب المعاملات.. لكي يكونوا عارفين بالأحكام حين يدخلون السوق ويشتغلون بالبيع والشراء.

كيف هم تجارنا اليوم؟ هل يعلمون شيئاً من الفقه الإسلامي وأبواب
المعاملات؟

وأسفاه!!

لقد تكرر القول إن خصيتي الخروف محرمة في الإسلام، وهي تباع في
الأسواق والشوارع علناً.. وهؤلاء الذي يعلمون بالحرمة لا يقولون شيئاً، يجب
أن تكون حريصاً ومحبباً للخير، فأنت تعلم أن أكل هذا الجزء من الحيوان
حرام، فعليك أن تفهم من يأكلهما بأن ذلك حرام.

لقد كان ذلك مثلاً.. وهناك أشياء أخرى، فالمعاملة الربوية التي تمتنع
أنت من إجرائها عليك أن تمنع الآخرين من إجرائها كذلك.

يُلقي بالنار جانباً

في رواية يبدو أنها من أحاديث المعراج: «أن رجلاً حملت عليه الزبانية،
فجاءه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجعله ملكاً» أي أنقذه الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر وجعله ملكاً، أي نوراً، وأخذ يطير في العالم
العلوي.

لماذا يجعل الأمر بالمعروف من الإنسان من سنخ الملائكة؟ لأن الملك
موجود لا يصدر منه غير عمل الخير، الملك فاعل للخير.. فإذا صرت أنت..
فاعلاً للخير ينطق منك النور، فإنك تصبح من سنخ الملائكة، مثلما إذا كنت
فاعلاً للشر فإنك تصبح في صف الشياطين.. شيطاناً تزيد من عدد الشياطين..
والقرآن الكريم يقول: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ﴾ [الأنعام: ١١٢] تصبح شيطاناً
من الإنس.

بدلاً من أن ينهى عن الغيبة يساعد على الذنب

الشخص الذي يجلس إلى جانبه شخص آخر يشرع بغيبة آخر.. فما هي
وظيفة هذا الشخص؟ إن وظيفة هي أن يمنع هذا الشخص من الغيبة، وأن

يدافع عن الشخص المستغاب، ولكننا نرى الأمر عكس ذلك، نراه يقول: نعم وماذا بعد؟ إنه يأمر بالغيبة والمنكر ويشجع عليها.. أو بدلاً من أن يمنع ذلك الذي يقول الفحشاء عن الآخرين فإنه يشجع الآخر على الإجابة بالفحشاء. إنَّ الإنسان إذا حاسب نفسه يومياً فسوف يعرف كم ترك من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

إنَّ واحدة من فوائد العزلة هي التخلُّص من هذا النوع من الابتلاءات.

إنَّ بعض النساء الجاهلات يضرين أطفالهنَّ.. وبعض الأساتذة يضربون تلامذتهم بإجحاف وهذا ظلم ومنكر.. إنَّ الصفة هذه حرام بشكل عام إن لم تكن بقصد التأديب.

سدَّ الطريق ومضايقة العابرين أمرٌ مُنكر

إنَّ واحدة من المنكرات، هو ما يفعله أصحاب الدكاكين وباعة الفواكه حين يعرضون بضاعتهم على نصف الطريق الذي يسير فيه الناس فيضايقونهم.. وإنني لتصيبني الحيرة حين أرى ذلك، فأقول أيها المسلمون إنَّ تضييق الطريق على المسلمين حرام.. وأحاول أن أهدي نفسي ولكن لا فائدة من ذلك.

في النهي عن الذنوب المسيِّبة للفساد لا يشترط أن يكون المنهي بائعاً..

فمثلاً لعب الأطفال للقمار يجب القضاء عليه مهما كانوا أطفالاً، لا تقل: أنه طفل ولا ذنب عليه. نعم.. الذنب المجلب للفساد يجب النهي عنه.. الكذب. لعب القمار واللواط. نعم لا مانع لو جلس الطفل أثناء التخلّي باتجاه القبلة لعدم وجود المفسدة فيه.. لكن نهيه عن ذلك أمر جيد من باب التربية والتمرين.

كيف سيكون حسابنا غداً؟. إنني لا أعلم كيف سيكون حسابي لأنني لست مطمئناً أنني قد التزمت بترك كلِّ الذنوب.. فكيف الأمر إذا كنت قد ارتكبت

ذنباً.. ولست مطمئناً لكل معروف عملته، فكيف بالمعروف الذي أمرت به الآخرين.

إنّ كل إنسان وقبل أن يموت بإمكانه أن يحاسب نفسه، فيبكي من ذنوبه التي ارتكبتها. استغفر الله من كلّ ذنب أذنبته ومن كلّ واجب فاتني.

قبل أن يأخذوك إلى الحساب عليك أن تحاسب نفسك..

إنّ من واجب النساء أن يعلّمن بناتهنّ الأمور المتعلقة بالنساء.. فالواجب عليهنّ أن يعلمن الحرام.. أنتِ نفسك التي تعلّمتِ وعملتِ عليك أن تعلّمي ابنتك، وأخشى أن تقولي: أنا لا أعلم.. أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم.

الإمام الحسين عليه السلام صابر وأمر بالصبر

لقد صبر الإمام الحسين عليه السلام وأمر الآخرين بالصبر، وأنت إذا عملت المعروف فعليك أن تأمر الآخرين به، الإمام الحسين عليه السلام وأمام تلك المصائب التي حلّت به كان كالجبل.. حينما دخل خيمة النساء وأوصاهنّ بالصبر وكان يرّدّد وسط أصحابه ومريديه: «صبراً بني الكرام، هل الموت إلا قنطرة».. لن يطول الأمر حتى تنتهي المشقّة، وسوف يزول التعب وسنصل إلى الراحة الأبدية.. وأعداؤنا سوف يموتون سريعاً، ويلقى بهم في العذاب الأبدى.

« ٢٦ »

«وبرّ الوالدين وقاية من السخط»

إنّ برّ الوالدين والإحسان إليهما هو إحدى الفرائض والواجبات الإلهية، حيث جاء التأكيد على ذلك في القرآن المجيد والأحاديث الكثيرة الواردة المتواترة.. وكذلك يحكم به العقل.. كما أنّ العقوق يعتبر من الذنوب الكبيرة.. كما يتّضح ذلك من القرآن والروايات وحكم العقل.. وهنا لا بد من معرفة البرّ الواجب والعقوق الحرام.

ما معنى البرّ والعقوق؟

البرّ في اللغة بمعنى الإحسان والجميل. وله مراتب ودرجات طبعاً ترتبط بموارده، فمثلاً عندما لا يملك الوالد أو الوالدة مالاً ينفقانه لمعيشتهما، فالواجب على الابن أن يعطيتهما النفقة، وهذا من البرّ بالوالدين.. وإذا كان المرتب الذي يحصل عليه لا يكفي لتمشية أمره لمدة شهر فالواجب على الأولاد أن يؤمنوا ببقية المصاريف.

والعقوق عبارة عن إلحاق الأذى والإزعاج، أي البرّ بدون عقوق، فالأب والأم العاجزين عن العمل مثلاً يجب على أولادهما أن يقوموا بتأمين مصروفاتهما، وعليهم أن يدفعوا ذلك دون أن يمتنوا عليهما، فإذا متنوا عليهما فإنّ ذلك من العقوق وهو مُحَرَّم.. ويقول الفقهاء بعدم تأخير العطاء لهما حتى يظهر حاجتهما، بل الأولى المبادرة إلى تقديم العطاء لهما قبل أن يطلب ذلك.

والويل للأبناء الذين يتصرّفون مع والديهم بحيث يضطرانهما لإظهار حاجتهما.

وخلاصة القول إنّ على الأبناء أن لا يعقّوا والديهم، وعليهم كما أمر القرآن: ﴿وَصَابِحْتُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: ١٥] فعلى الابن أن يبذل كلّ جهده في سبيل أن لا يُلحق ولو ذرة من الأذى بوالديه، حتى يصل الأمر أن يلاحظ ذلك حتى في نظرتيه إليهما.. وقد ورد عن أبي عبدالله عليه السلام: «من نظر إلى أبويه نظر مامت وهما ظالمان، له فكيف إذا كانا بارّين به، لم يقبل الله له صلاة»^(١)، وجاء في القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آيٌ﴾ [الإسراء: ٢٣].

أما في القول والكلام فلو كان هناك حرف أو كلمة أقل من كلمة (أفّ) لورد ذكرها في القرآن الكريم. فهذه الكلمة إذا سببت لهما الأذى فإنّ قولها يُعتبر من العقوق وخلاف للبرّ والإحسان.. ومن العقوق أن يسير الولد أمام أبيه. عن الإمام السجاد عليه السلام يروى أنه لم يسبق أمه (ويبدو أنها أمه من الرضاعة) إنه لم يأكل الطعام معها من صحن واحد، لأنه كان يحاذر أن تقع يده على لقمة تريد هي أن تتناولها.

لقد ذكرت الروايات آداب معاشرة الأولاد مع الوالدين، وذلك لكي لا يقع الأبناء في ورطة العقوق للوالدين، ولكي يكونوا على اطلاع على آداب رعاية حقوق الوالدين.

إنّ برّ الوالدين وعقوقهما يشمل مساحة كبيرة، فهو يشمل الوالدين مؤمنين كانا أو غير مؤمنين، تاركان للصلاة أم كانا من المصلين، فعقوقهما حرام وبرّهما واجب.. أي لا فرق.. فما داما على قيد الحياة فإنّ الواجب برّهما ويحرم عقوقهما.

وكذلك الأمر بعد موتهما، فالشخص الذي ينسى والده بعد موته، فلا

(١) سفينة البحار للقمي: ج ٢، ص ٦٨٧.

يقضي صلاته وصومه، ولا يقضي دينه ولا يعمل بثلك فإنه يكون عاقاً له. وجاء في الرواية أنّ الإنسان ما دام حياً فإنه يُذكر، ولكن بعد موته يُنسى، فإنّ الابن الذي لا يدعو لهما، ولا يتصدّق ثواباً لهما يكون عاقاً.

ويكفي في حرمة العقوق أنه سبب لغضب الله، حيث تقول السيدة الزهراء عليها السلام: «وبرّ الوالدين وقاية من السخط».

«وبرّ الوالدين وقاية من السخط»

جاء في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا لِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣].. فلماذا أوجب الله ذلك؟ لكي لا يتعرّض الإنسان لغضب الله.

والويل للمسلم الذي يكون عرضة للغضب الإلهي، فمتى يكون كذلك؟ عندما يعقّ والديه، ومن أجل أن لا يكون سبباً لغضب الله، ولكي لا يكون من المغضوب عليهم، فقد أوصى القرآن الكريم بالإحسان إلى الوالدين.

إننا نقرأ عدة مرات يومياً في سورة الحمد عبارة (غير المغضوب عليهم) وندعو الله لهدايتنا إلى الصراط المستقيم.

إنّ الذي يكون من المغضوب عليهم من الله، يغضب عليه الكون حتى الأرض التي يدوس عليها، ولسوف تقول الأرض غداً بعد الموت: لقد مشيت عليّ وكنت أنا غاضبة عليك، أما الآن وقد وضعتك داخلي فإنني سأنتقم لنفسي.. اللهم إن لم يكن غضبك عليّ فلا أبالي، فالعبد الذي يغضب الله عليه تغضب عليه كلّ أجزاء هذا الوجود، وعاقّ الوالدين من المغضوب عليهم.

إنّ أيّ إنسان يؤذي والدته فتغضب عليه يكون شقيماً وجباراً: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٢] إنه يكون ظالماً، والظالم يغضب الله عليه، والإنسان الذي يعقد والديه فلن تكون السعادة من نصيبه، صحيح أنه

يؤدي عباداته، ولكنه بسبب عقوقه، فإن الله يعتبره من المذنبين ولا فائدة من عباداته.

جاء في الرواية: «رضى الله في رضى الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين»^(١).

وفي رواية أخرى تتعلق بقبول الأعمال في الآخرة أنهم يقولون له: «إعمل ما شئت من الحسنات، فلا فائدة لك فيها ما دمت عاقاً لوالديك».

والمسألة التي أشارت إليها السيدة الزهراء عليها السلام في خطبتها بقولها: «وقاية من السخط» وهي من أجل أن لا تكون أيها المسلم عرضة لغضب الله.

السفر مع أذى الوالدين معصية

الإنسان الذي يغضب والديه، ثم لا يرضيهما ولا يزيل غضبهما ولا يتملك قلبيهما، فإن توبته لا تقبل، فعلى الإنسان أن يرضي والديه مما أغضبهما به، وعليه أن يتوب عن ذلك العمل لأنه مخالفة للأمر الإلهي، وما دام الوالدين في غضب على ابنهما فإنه يكون مذنباً طوال تلك المدة.

وعندما تقول الوالدة لابنها: «إنني لا أستطيع تحمل فراقك إذا سافرت» وكان السفر مستحباً فإنه يكون حراماً، نعم في الحج الواجب لا يُشترط رضاهما، وإلا فإن السفر يكون سفر معصية، وهو في كل لحظاته في ذنوب، فمن الذنوب المستمرة هذا القسم من المعصية، وهو أن يقوم الإنسان بعمل فيه أذى لوالديه.

جاء شاب إلى رسول الله ﷺ وقال إنه يريد مشاركة المسلمين في إحدى الغزوات، فقال له رسول الله ﷺ: «إنك إن قُتلت وجبت لك الجنة وإن لم تُقتل يغفر الله لك جميع ذنوبك». فقال الشاب: ولكن لي أم متعلقة بي كثيراً، ولا

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٦، ص ٤٢.

تتحمل بُعدي عنها. فقال رسول الله ﷺ: «لأنسها بك يوماً وليلة خيرٌ من جهاد سنة»^(١).

قصة الشاب المشلول وإنقاذ أمير المؤمنين علي عليه السلام له

نقل (ابن طاوس) في كتابه (مهج الدعوات) رواية عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام قال: كنت مع علي بن أبي طالب عليه السلام في الطواف في ليلة ديجورية، قليلة النور، وقد خلا الطواف ونام الزوّار وهدأت العيون، إذ سمع مستغيثاً مستجيراً مترحماً بصوت حزين محزون من قلب مومج وهو يقول:

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم
يا كاشف الضرّ والبلوى مع السقم
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا
يدعو وعينك يا قيوم لم تنم
هب لي بجودك العفو عن جرّمي
يا من أشار إليه الخلق في الحرم
إن كان عفوك لا يلقاه ذو سرف
فمن يجود على العاصين بالنعم؟

فقال: «يا أبا عبدالله أسمعت المنادي ذنبه، المستغيث ربه؟ فقلت: نعم قد سمعته. فقال اعتبره عسى تراه، فما زلت أخبط في طخياء الظلام وأتخلل بين النيام، فلما صرتُ بين الركن والمقام، بدا لي شخص منتصب، فتأملته فإذا هو قائم. فقلت: السلام عليك أيها العبد المُقرّ المستقيل المستغفر المستجير، أجب بالله ابن عمّ رسول الله. فأسرع في سجوده وقعوده وسلّم، فلم يتكلّم حتى أشار بيده بأن تقدّمني. فتقدّمته فأتيت به أمير المؤمنين عليه السلام فقلت: دونك ها هو. فنظر إليه إذا هو شاب حسن الوجه نقيّ الشباب فقال له: ممن الرجل؟ فقال: من بعض العرب. فقال له: ما حالك وممّ بكأوك واستغاثتك؟ فقال: حال من أخذ بالعقوق فهو في ضيق ارتهنه المصاب، وغمزه الاكتئاب فارتاب، فدعاؤه لا يُستجاب. فقال له علي عليه السلام: ولمّ ذلك؟ فقال: لأنني كنت ملتھياً في العرب باللعب والطرب، أديم العصيان في رجب وشعبان وما أراقب

(١) سفينة البحار للقمي: ج ٢، ص ٦٨٦.

الرحمن، وكان لي والدٌ شفيق يحذّرني مصارع الحدّثان، ويخوّفني العقاب بالنيران، ويقول: كم ضجّ منك النهار والظلام والليالي والأيام والشهور والأعوام والملائكة الكرام. وكان إذا ألحَّ عليّ بالوعظ زجرته وانتهرته، ووثبت عليه وضربته، فعمدتُ يوماً إلى شيء من الورق، وكانت في الخبأ، فذهبت لأخذها وأصرفها فيما كنت عليه، فمنعني عن أخذها، فأوجعته ضرباً ولويت يده وأخذتها ومضيت، فأوماً بيده إلى ركبتيه يروم النهوض من مكانه ذلك فلم يطق يحركها من شدة الوجع والألم، فأنشأ يقول:

جَرَّتْ رَجْمٌ بَيْنِي وَبَيْنَ مَنَازِلٍ سَوَاءٌ كَمَا يَسْتَنْزِلُ الْقَطْرُ طَالِبِهِ
وَرَبَّيْتُ حَتَّى صَارَ بِلَدِّكَ شَمْرَدَلًا إِذَا قَامَ سَاوَى غَارِبَ الْفَجْلِ غَارِبِهِ
وَقَدْ كُنْتُ أَوْتِيهِ مِنَ الزَّادِ فِي الصَّبِيِّ إِذَا جَاعَ مِنْهُ صَفْوَهُ وَأَطَايِبِهِ
فَلَمَّا اسْتَوَى عَنفَوَانُ شَبَابِهِ وَأَصْبَحَ كَالرَّمْحِ الرَّدِينِيِّ خَاطِبُهُ
تَهَضَّمَنِي مَالِي كَذَا وَلَوْ يَدِي لَوْ يَدُهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبُهُ

ثم حلف بالله ليقدمنَّ إلى بيت الله الحرام، فيستعدي الله عليّ. قال: فصام أسابيع، وصلى ركعات، ودعا وخرج متوجهاً على غيرانه يقطع بالسير عرض الفلا، ويطوي الأودية ويعلو الجبال، حتى قدِمَ مكة يوم الحج الأكبر فنزل عن راحلته وأقبل إلى بيت الله الحرام، فسعى وطاف به وتعلّق بأستاره وابتهل بدعائه وأنشأ يقول:

يَا مَنْ إِلَيْهِ أَتَى الْحَجَّاجُ بِالْجُهْدِ فَوْقَ الْمَهَاوِي مِنْ أَقْصَى غَايَةِ الْبُعْدِ
إِنِّي أَتَيْتُكَ يَا مَنْ لَا يَخِيبُ وَمَنْ يَدْعُوهُ مَبْتَهَلًا بِالْوَاحِدِ الصَّمْدِ
هَذَا مَنَازِلَ لَا يَرْتَاعُ مِنْ عَقِيقِي فَخَذَ بِحَقِيٍّ يَا جِبَارُ مِنْ وَكْدِي
حَتَّى تَسْئَلَ بَعُونَ مِنْكَ جَانِبَهُ يَا مَنْ تَقَدَّسَ لَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَلِدْ

قال: فوالذي سمك السماء وأنبع الماء، ما استتم دعاءه حتى نزل بي ما ترى. ثم كشف عن يمينه، فإذا بجانبه قد سُئِلَ. فأنا منذ ثلاث سنين أطلب إليه أن يدعو لي في الموضع الذي دعا به عليّ، فلم يجبني حتى إذا كان العام أنعم

عليّ فخرجت على ناقة عشراء أجدّ السير حثيثاً رجاء العافية، حتى إذا كُنّا على الأراك وحطمة وادي السجّال نفر طائرٌ في الليل فنفرت منها الناقة التي كان عليها فألقته إلى قرار الوادي، وارفصّ بين الحجرين، فقبرته هناك. وأعظم من ذلك أنني لا أعرف إلاّ المأخوذ بدعوة أبيه. فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: أتاك الغوث، ألا أعلمك دعاءً علّمنيه رسول الله صلى الله عليه وآله وفيه اسم الله أكبر الأعظم العزيز الأكرم، الذي يجيب به من دعاه، ويعطي به من سأله، ويفرّج الهمّ ويكشف به الكرب، ويذهب به الغمّ ويُبْرِأ به السقم، ويجبر به الكسير، ويغني به الفقير، ويقضي به الدّين، ويردّ به العير، ويغفر به الذنوب، ويستتر به العيوب، ويؤمن به كل خائف من شيطان مُريد وجبار عنيد، ثم أمر الإمام أمير المؤمنين عليه السلام الإمام الحسين عليه السلام أن يأتي بدواة وقرطاس، وأمره أن يكتب الدعاء وأوله: اللهم إني أسألك باسمك^(١).

بعد كتابة الدعاء قام الشاب بقراءته في تلك الليلة عشر مرات، وعندما نام رأى في منامه رسول الله صلى الله عليه وآله فمسح بيده المباركة على يد الشاب المشلولة فشفي. وفي الغد جاء إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وبشّره وشكره حيث كان سبباً في خلاصه. وهذا هو (دعاء المشلول) لمن أغضب والديه عليه أن يستمر بقراءته ليفرّج الله عنه.

اللهم بحقّ وليّك علي عليه السلام لا تمّنتني عاقاً لوالدي.. ربّ اغفر لي ولوالدي وارحمهما كما ربياني صغيراً اجزهما بالإحسان إحساناً وبالسيئات عفواً وغفراناً.

(١) مهج الدعوات لابن طاوس: ص ١٥١.

« ٢٧ »

«وصلة الأرحام منماة للعدد»

صلة الرحم واحدة من الأحكام الإسلامية التي أوصى بها القرآن، وهي واجبة كما يتضح ذلك من القرآن والروايات المتواترة، وإن قطع الرحم حرام وهو من الكبائر.

الرحم والأقارب

المراد من الرحم، كل شخص له بشخص آخر نسبة من طرف الأب والأم فهو عن طريق الأب مثل: الأخ، العم، الجد، وبنو الأعمام. وعن طريق الأم: الخال والخالة وطبقات الإرث أبناء وبنات الخال والخالة وغيرهم.. حيث يقال لهم بالعُرف: رِجْم.. ومن الطبيعي أن يكون الحكم أشد كلما قلت الوساطة بين الأرحام.

ولا يكون الرحم عن طريق المرأة، فلا يُقال لأخ المرأة وأمها رحماً.. فهؤلاء أقارب بالسبب.. والذين يرتبطون بالأشخاص عن طريق النسب يقال لهم: الأرحام.

الارتباط والانفصال أمر عُرفي

والوصل أو القطع لصلة الرحم كما يقولون.. فإن معنى الوصل هو الارتباط، والانفصال هو القطع، وهذان الأمران عُرفيان، حيث يقال: فلان وصل رحمه أو قطعه.. فإذا ذهبت إلى بيت أخيك فقد وصلته.. وإذا مرض ولم

نزره يقال لك : قطعت رحمك.. وإذا كان أخاك محتاجاً فجاء إليك وكنت قادراً على تلبية حاجته ولم تفعل يقال لك : قطعت رحمك. وهذان الأمران عُرفيان، فليس معنى الوصل هو أن تذهب كل يوم إلى بيوت أقاربك.. فالعرف يقول إنك واصل لرحمك إن ذهبت مرتين أو ثلاثاً إليهم لأنهم يبعدون كثيراً عنك، ويحصل في بعض الأحيان أن يقال إنك قطعت رحمك إذا لم تذهب كل أسبوع مرة واحدة.

قاطع الرحم ملعون ومعذب

جاء في القرآن اللعن لقاطع الرحم: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ اللَّعَنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٥].

ورد عن الإمام الصادق عليه السلام أن الله أوجب على عباده ثلاثة أشياء كل واحدٍ منها مقرون بشيء آخر، فإن أذاهما كلاهما فقد أدى الواجب، وإن أدى أحدهما ولم يؤدِّ الآخر فإنه كمن لم يؤدِّ الواجب. ومن هذه الأشياء الثلاثة: صلة الرحم والتقوى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: ١]، فمن يقطع الرحم فليس خليقاً أن يُقال له بأنه تقيٌّ، كما أمر الله الإنسان أن يشكر الله ووالديه: ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ﴾ [لقمان: ١٤]، فالذي لا يشكر والديه فإنه لم يشكر الله، وعاق الوالدين إنما هو عاقٌّ لله، وكذلك الأمر بالنسبة للصلاة والزكاة، فالذي يصلِّي ولا يزكي أمواله فإنه لم يطع الله.

الآثار الوضعية لقطع الرحم ووصله

وعلاوة على العذاب الأخروي، فإن لقطع الرحم آثار وضعية في الدنيا كذلك، فصلة الرحم لها آثار وضعية، فهي سبب لطول العمر وزيادة الرزق. وقطع الرحم سبب في قلة العمر والرزق.. وهذان الأمران من المسائل المُسَلَّم بها والمُجَرَّبَة.

فالإمام عليه السلام يقول لو أنّ إنساناً كان باقياً من عمره ثلاث سنوات، فوصل

رحمه فإن الله يجعلها ثلاثين. ولعلّ المراد من صلة الرحم هي الدرجة الكاملة، وهذا بعكس الشخص الذي كان مقدراً أن يُعمر ثلاثين سنة أخرى، فإذا قطع رحمه؛ فتصير الثلاثين سنة ثلاث سنوات.

لقد قال الإمام عليه السلام لذلك الرجل المغربي لقد تشاجرت في طريق الحج أنت وأخيك فقلّ من عمركما.. وسيموت أحاك في هذا السفر.. فدخل الخوف قلب الرجل، وقال: وأنا؟ قال: لقد وصلت عمّتك في المنزل التالي، فتأخر عمرك إلى عشرين سنة.

إنّ من يقطع رحمه سيقلّ رزقه ويقصر عمره، أما إذا وقّق لصلة رحمه فسيكون نصيبه طول العمر وسعة الرزق، ومن هنا قالت السيدة الزهراء عليها السلام:
«صلة الأرحام مناة للعدد».

إنّ الإنسان إذا أراد أن يعيش وحيداً، فإنه لن يستطيع أن يؤمّن احتياجات حياته الدنيا ولا آخرته، لذلك فإنّ الارتباط موجب للقوة والمساعدة في أمور الدنيا والآخرة.

إذا مرضت فإنّ أحاك وأقربائك يساندونك.. وعندما تصل رحمك فإنّ الشخص الواحد يكون عشرة وأنت واحد منهم.

وعكس ذلك عندما تنعزل عن الجميع وتتقاطع معهم فإنك واحد ولو كنتم ألفاً.. وستكون وحيداً في هذه الدنيا المليئة بالنكبات والحوادث ولا عون لك، فإذا كنت عاقلاً أنك تعرف مقدار حاجتك للعلاقة مع الآخرين، العلاقة التي وثقتها في هذه الدنيا فهذه العلاقة الدنيوية هي مقدمة للآخرة.

الرفيق الصالح ينفع في كلّ مكان

جاء في (وسائل الشيعة) في (كتاب العشرة)، أنه يستحبّ للإنسان أن يُكثر من الأصدقاء.. وكلّما كانوا أكثر كان ذلك أفضل، ففي كلّ مدينة وفي كل اجتماع عندما تأنس بإنسان ما فإنه يأنس بك.. حتى يكون عوناً لك في عالم

البرزخ.. فالاثنان اللذان يصيران واحداً يأنسان ببعضهما في عالم البرزخ الموحش.

رُوي عن (الأصبغ بن نباتة) أنه خرج مع أمير المؤمنين علي عليه السلام يوماً إلى ظاهر الكوفة حتى وقف أمير المؤمنين عليه السلام والأصبغ وراءه، فلاحظ أن الإمام عليه السلام كان يتحدث، ولكن الأصبغ يقول: إني لم أكن أعرف ما كان يقوله.. وإنه ظل واقفاً حتى تعب، فجلس جانباً والإمام واقف يتحدث، ثم فرش عباته وقال للإمام: اجلس يا أمير المؤمنين فلعلك تعبت، فرفض الإمام عليه السلام أن يجلس، وبقي واقفاً. فسأله الأصبغ مع من يتحدث. فأجابه الإمام عليه السلام بأنه يتحدث مع مؤمنين. فسأله إن كانوا أجساداً أم أرواحاً؟ فأجابه: بأنهم أرواح. ثم أخبره الإمام عليه السلام بأن ستاراً يحجبهم، لو انكشف لرأيتهم «يتحدّثون، يتكلمون، يفرحون» وأخبره الإمام عليه السلام بأنه يلتذّ برؤية هذا المنظر للمؤمنين.

وجاء في القرآن أن قوله تعالى: ﴿إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧] وما يقال عن الأمر بصلة الرحم، وتوحد القلوب والروح والذهاب معاً إلى هنا وهناك، واختر لنفسك صديقاً مؤمناً، وليس الرفيق الذي يأمرك به هوى النفس، ومصالح الدنيا.. فهذان الرفيقان في الدنيا سيكونان أعداء في الآخرة: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فهناك سيكتشفان أن أحدهما كان يخدع الآخر، فأضاع أحدهما عمر الآخر، فهذا واقع الآخر في ارتكاب الحرام وكذلك الآخر، إلا أن تكون علاقتهما قائمة في سبيل الله.. وقد وضعا المصالح الشخصية والمادية جانباً.

الصديق هو الذي يساعدني لتكون في طريق مشترك.. وإذا كان صالحاً فإنه يذكرك بالله ويذكرك بالله، وكذلك أنت تذكره بالله.

إذا كان صديقك مؤمناً فسوف تستفيد من ذلك كثيراً في البرزخ والقيامة إذا

كان عندك مثل هذا الصديق.. صديقك في الإيمان إذا ذهب إلى الآخرة قبلك، فسوف يهيئ لك مكاناً، وعندما تحتضر فسوف يحضر عندك يستقبلك.

إنّ الأمر كما هو في الدنيا، فعندما تأتي من السفر يأتي الناس لاستقبالك.. وسوف يقضيان في عالم البرزخ أياماً يأنس بعضهما البعض الآخر.. وقد وصف الله هذه العلاقة الإيمانية بأنها من أعظم النعم: ﴿وَخَوَّانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

الإمام الحسين عليه السلام يدعو أصحابه

لقد سمعتم أنّ الإمام الحسين عليه السلام يوم عاشوراء أخذ ينادي أصحابه الشهداء: «فنظر ليمينه وشماله، ونادى بأعلى صوته: يا مسلم بن عقيل، يا هاني بن عروة».. لقد كانت اللحظة التي انطلق فيها هذا النداء مملوءة بالقلق والمصائب، فأراد الإمام الحسين عليه السلام أن يستأنس بذكر أصحابه الشهداء: «ما لي أناديكم فلا تجيبون».

أيها الإخوة الحسينيون، يا أصحاب الحسين عليه السلام، لقد كنتم مرتبطين بالحسين عليه السلام فلماذا لا تجيبوه: «قوموا عن نومتكم وانتبهوا وادفعوا عن حرم الرسول».

العُدَّة والعدد كلاهما صحيح

«وصلة الرحم منماة للعدد» (منماة) مأخوذة من مادة (نمو) بمعنى الزيادة، والعدد، تُلفظ بفتح العين بمعنى الجمع، والعدُد بضم العين بمعنى وسائل الاستعداد للحرب.. وكلا القراءتين صحيحة.

وعلى هذا الأساس يكون معنى الجملة، إنّ صلة الرحم في الإسلام واجبة، لأنها وسيلة لزيادة البركة في العُدَّة والعدُد، وهي وسيلة كذلك لزيادة العمر والرزق في الدنيا والآخرة كذلك، وهي وسيلة أيضاً لإخراج الإنسان من وحدته وعزله وعجزه.

الأقارب يترابطون تكوينياً

إنّ الأرحام حين التكوين الطبيعي للخلق ترتبط ارتباطاً تكوينياً، الإخوة والأخوات، والأعمام والعمات وأبناء الأعمام، كل هؤلاء يرتبطون مع بعضهم ارتباطاً تكوينياً.

نقل عن علم التشريح الحديث أنّ الأجزاء الأصلية لجسد الجدّ تنتشر بين ذريته، وعلى هذا الأساس فإنّ ذرّات من بدن الإمام علي عليه السلام تنتشر في أبدان السادة والعلويات.

في الرؤية الصادقة تتضح معاني أسرار الملكوت، فلو أنّ أحداً رأى في النوم أنّ أسنانه تتساقط، فهذا يعني أنّ أحد أقاربه سوف يموت، فالعلاقة والرابطة بين هذا الشخص وأقاربه بحيث إذا مات فكأنما فقد عضواً من أعضائه.. فالأقارب كلّهم يتصلون بشجرة واحدة.

الرحم مثل أحد أعضاء البدن

إنّ علاقة الرحم بالرحم في طريقه وأسلوبه وحياته هي مثل علاقة البدن مع أعضائه فهو لا يرغب بانفصال أي عضو عنه، فلو دخلت شوكة في قدم الإنسان فإنه يستخرجها بيده.. وهكذا فإنّ أحد أعضاء البدن يساعد العضو الآخر، فاليد مرتبطة بالبدن.. والنتيجة فإنه لا فرق عندما تدخل الشوكة في الكف أو القدم، فاليد هي التي سوف تُخرج تلك الشوكة.

أيها الإنسان.. إذا دخلت شوكة في كف أو قدم أخوك أو أختك، أو أحد أقاربك، فعليك فوراً أن تخرجها أنت بيدك.. فالشوكة التي دخلت في قدمه إنما دخلت في قدمك أنت.. فالواجب على كلّ إنسان أن يعتبر رحمه مثله هو.. أي مثل عضو من أعضائه. كما أنّ يدك إذا ألمتك فإنّ كلّ بدنك يتألم لها.. وكما لو التهبت أسنانك، فإنّ كلّ بدنك تصيبه الحمى ويتعطل عن العمل.. إنّ

سنّا من أسنانك قد ألمك فلماذا يتألم كلّ الجسد؟ لأنّ جميع أعضاء البدن متصلة مع بعضها.

يجب أن يكون مثل هذا الترابط والاتصال بين الإنسان وأقاربه، فإذا علم بأن أحد أقاربه قد أصابه المرض، فإنّ تأثير ذلك عليه كما لو كان هو المريض.. وأن يداوي أقاربه مثلما يداوي نفسه، ومثلما يسعى الإنسان لحلّ مشاكله المالية عليه السعي لحلّ مشاكل أقاربه المالية.. أما إذا لم يهتمّ ولم يلتفت إلى مشاكل أقاربه، فإنه يكون قد قطع رحمه، مثل الذي يقطع يده ويلقي بها بعيداً ويقول: لا حاجة لي بها.

واعلم أيها الإنسان أنك إذا أردت زيادة في العمر والمال والأولاد، وإذا أردت أن تتخلّص من الوحدة، فعليك بصلة الرحم، وسوف تُسأل غداً يوم القيامة كيف فعلت مع أرحامك؟ ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ﴾ [النساء: 1].

العقوق وقطع الأرحام من مصائب هذا الزمان

إنّ ما نسمعه من مصائب هذا العصر شيء كثير، فقد راج في أوروبا وأمريكا هذين الذنبيين، وهما عقوق الوالدين وقطع صلة الأرحام، وقد انتقل ذلك إلى الشرق أيضاً، فالبشر اليوم لا يحترمون آباءهم وأمهاتهم حتى يطيعونهم.. وقد قطعوا علاقتهم بهما، وكذلك هو الأمر مع الأرحام.

إنّ منشأ ذلك هو انتشار الزنى، واختلاط الأنساب وفسادها، لأنّ من آثار ذلك أن لا يعرف الابن أباه لكي يرتبط بإخوانه وأعمامه.

كُتِبَ في إحدى المجلات قبل سنوات: يولد في لندن سنوياً خمسة آلاف طفل من الزنى.. والآن لعل الرقم قد تضاعف عشر مرات.. حتى وصل الأمر كما سمعت أنّ بعض أصحاب المليارات يوصون بثروتهم إلى كلابهم، إنه يعطي ماله لكلبه، ولا يعطيه لابنه، لأنه لا يرى هذا الابن امتداداً له.. فأصبحت حياته حياة الوحدة..

هذه الدنيا مصيبة واقعاً، فأَيّ لذة يحصل عليها الإنسان؟ ثم كتبت المجلة، إن أكثر فترات حياة الإنسان في أوروبا وأمريكا تعاسة هي فترة الشيخوخة، حيث يكون الإنسان فيها وحيداً دون أنيس.. ولذلك فقد أسسوا نوادي العجزة ليقضي فيها العجزة شيخوختهم مع بعضهم.. إن سنّ الشيخوخة هي سنّ التقاعد، وعلى الجميع احترام الشيخ، وسنّ الشيخوخة هو سنّ الوقار.. وعلى الشباب أن يتجمّعوا حوله ليستفيدوا من تجاربه في الحياة.. وليأنس هو بجمعهم حوله، فيقدّم لهم النصيحة ويرجو لهم الخير.. فالشباب متحمّسون ويحملون في جنبهم طاقة عظيمة على الحركة، وهم عندما يجلسون بين الرجال الكبار تهدأ حركتهم ويتنفعون منهم.. فيحققون الخير لأنفسهم في الدنيا والآخرة.

الوحدة في الآخرة أصعب

وبعد الموت يكون وحيداً أيضاً، هذه هي الحياة المادية، وتلك هي الحياة المعنوية، إن الارتباط الروحي هو جزء في عالم المادة، وما لم يكن في الحياة المادية له ارتباط مع أحد، ففي الحياة المعنوية يكون الأمر كذلك، والخلاصة فإنّ الحياة المادية هي مقدمة للتخلّص من حياة الوحدة في الحياة المعنوية.

فإذا كان في الحياة الدنيا لا ارتباط له بمحمد ﷺ وبأئمة الهدى ﷺ والأخيار والمؤمنين، فإنه بعد الموت لن يحظى بالارتباط والتواصل معهم.

هنا في هذه الحياة جاءت التوصيات الكثيرة بالتوسل بمحمد ﷺ وآله ﷺ من أجل هذا الأمر لتنالك الرحمة بعد الموت، أطع أباك لتكون غداً مع أبيك الصالح، فقد وعد الله بأن يلحق الأبناء المؤمنين بأبائهم الصالحين يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [النساء: ٨] ﴿حَتَّىٰ عَدِنَ يَلْقَوْنَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ [الرعد: ٢٣].

الذنوب التي تسببها العزلة والانفصال

إذا انفصلوا هنا فهل تعتقد بأنه من الممكن وصلهم في وقت ما؟ الويل للانفعال، جاء في الشريعة تحريم الغيبة لأنها تسبب الانفصال والتقاطع، وجاءت التوصيات الكثيرة والأكيدة على حسن الظن لأنّ سوء الظن يقطعك عن الآخرين، وحسن الظن يربطك مع الآخرين.

كما تمّ التأكيد على زيارة المؤمنين واستضافتهم وإطعامهم.. وكلّ تلك الأمور هي مقدّمات للوصل والارتباط، بل لعلها تخرج من الوحدة والعزلة. دع العزلة والوحدة هنا وهناك، آه من القبر والوحدة.

وداؤك فيك وأنت لا تشعر وداؤك فيك وأنت لا تبصر^(١)

لا مفرّ من ربط العظم المكسور

هذه العظام التي تراها، إذا كانت متّصلة فلن تشعر بالألم، بل يمكن الاستفادة والانتفاع منها لأنها متّصلة مع بعضها.. فالانفصال يزرع الأمل بكل أنواع الخير، أما إذا انفصل هذا العظم لا قدر الله.. فأيّ مصيبة ستحدث، لأنّ الأمر لا يتوقف على عدم القدرة على الانتفاع؛ بل ستكون هناك مبرّحة، وعند ذاك ما الذي يجب عمله؟ يجب وصل العظم المكسور وربطه مع العظم الآخر.. وعندها يشعر الإنسان بالراحة.

وأنت يا من قطعت صلتك بالله ورسوله محمد وآله ﷺ، والرحم، والأخيار، والوالدين، أيّ نوع من القطع المحرّم، عليك أن تصله فوراً وأنت بكمال الوعي والانتباه، فالعظم المقطوع حتى بعد ربطه تجب المحافظة عليه ولا يضغط عليه بالعمل..

وإن كنت قد اغتبت أحداً من الناس، فعليك أن تذكره بخير بدلاً عن

(١) من الديوان المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام.

ذلك، وأن تعتذر منه، فلعل القلب الذي تنفّر يعود مرة أخرى إلى حالته الطبيعية.

السيدة الزهراء عليها السلام عند قبر الحمزة

نقل عن السيدة الزهراء عليها السلام أنها كانت في الفترة التي أعقبت وفاة رسول الله صلى الله عليه وآله مريضة، ومع ذلك كانت تذهب كل يوم اثنين إلى قبر الحمزة سيد الشهداء.. حيث كان بيتها يبعد عن القبر بفرسخ واحد.

كانت السيدة الزهراء عليها السلام تطوي هذه المسافة لتأتي عند قبر الحمزة فتزور وتدعو وتطلب الرحمة، لماذا؟ بسبب نفس النقطة التي ذكرتها، كانت تعلم أنها أسرع الناس لحوقاً برسول الله صلى الله عليه وآله كما أخبرها الرسول صلى الله عليه وآله بذلك، فأرادت أن تصل رحمها، وتجعل ذلك الوصل والارتباط أقوى وأكثر إحكاماً.. ولذلك عندما حضرته ساعة الوفاة نظرت بعينيها وقالت: «السلام عليك يا أبتاه يا رسول الله».

وعندما يُقال لك: اذهب إلى قبور أرحامك وأبوك، فإنه من أجل زيادة الوصل.

* * *

«٢٨»

«والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالذّدر تعريضاً للمغفرة»

العفو أو القصاص أو الدية

من جملة المسائل التي شرّعها الإسلام قضية القصاص وتشريعه.. أي الردّ على الجناية.. فلو أنّ أحداً اعتدى على أحدٍ من الناس بقطع عضوٍ من أعضائه، كأن يكسر أسنانه، أو يكسر رجله ونظائر ذلك، فإنّ الإسلام أعطى الإذن بالقصاص.. فإنّ أيّ جناية تُرتكب عمداً، فللمجنيّ عليه أو أولياءه أن يختاروا بين ثلاثة أشياء: إما أن يعفو.. أو يقتصّ.. أو يأخذ الدية.. وإنّ لكلّ عضو من الأعضاء ديةً الخاصة ذُكرت في الكتب الفقهية الخاصة.

فالذي يقتل إنساناً عليه أن يدفع ديةً القتل، وهي ألف مثقال من الذهب، أو عشرة آلاف مثقال من الفضة.. ومن قطع أنف شخص آخر فعليه أن يدفع كلّ الدية كما لو قتله.. ومن أعمى عين شخص آخر فعليه أن يدفع نصف دية القتل.. والخلاصة فإنّ الإسلام أعطى الإذن بالاعتصاص، وإذا لم يقتصّ المجنيّ عليه فيمكنه أن يأخذ الدية.

ومع أنّ الإسلام قد عيّن مقدار الديّات، إلّا أنّ المصالحة على مقدارها ممكنة بأقلّ مما هو معيّن، إذا تراضى الطرفان.

الكفارة واجبة من أجل المغفرة

القاتل إذا أعطى الدية.. وأراد أن يغفر الله له، فعليه أن يدفع الكفارة.. وهي صيام شهرين متتابعين وإطعام ستين مسكيناً وعتق رقبة إذا توفر وجود العبيد.. فهذه هي كفارة القتل العمد. أما المجني عليه إذا أراد أن يقتصر فعليه مراعاة العدل.. فمثلاً إذا سقطت أسنانه الأمامية بضربة من أحدهم، فإنه لا يستطيع أن يضرب الأسنان الجانبية للذي ضربه.. عليه أن يضربه، بمثل ما ضربه وأن لا يزيد على ذلك.. فإذا كان قد سقط منه سنّ واحد.. فأسقط هو ستين من الضارب فعليه أن يدفع دية السنّ الثاني.

ولذلك قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [البقرة: 237] ولذلك فالأفضل هو العفو أو أخذ الدية، فإذا أراد أن يقتصر فعليه أن يتحرى الدقة كثيراً كمّاً وكيفاً.. فلو كان القاتل شخصاً واحداً فلا يمكن قتل اثنين، بل يجب قتل شخص واحد، وكذلك الأمر في كيفية القتل، ولا تجوز المُثَلَّة: ﴿وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا﴾ [الإسراء: 33].

والسيدة الزهراء عليها السلام العالمة غير المعلّمة تقول في خطبتها هذه «والقصاص حقناً للدماء». لماذا سمح الإسلام بالقصاص؟ من أجل المحافظة على الناس.. ولكي يراعي الإنسان الشرير ذلك، فيمتنع عن الطغيان.. أما إذا كان لا يخشى الله والعقاب الأخروي ولا يخشى القصاص فإنه يستعمل القوة حتى في الأمور البسيطة الجزئية، ويمارس القتل لأتفه الأمور، ولكنه عندما يعلم أنه إذا قتل إنساناً فسوف يُقتل، عندها سيرتدع عن ارتكاب جريمة القتل خشية أن يُقتل هو نفسه. لقد جعل الله القصاص من أجل حقن الدماء: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ﴾ [البقرة: 179].. إنّ قتل القاتل إنما شرّع لكي يحافظ الشارع المقدس على حياة البشرية، ولكي لا يقتل الناس بعضهم بعضاً عن

عمد وقصد.. إنه من أجل أن تخاف القلوب، وتُحقن الدماء.. وهذا من العدل الإلهي الذي تستمر الحياة ببركته، وإلاّ فإنّ أحداً سوف لن يأمن على حياته.

من متّا ليس له حُساد وأعداء، إنّ أغلب الناس لم يُزكّوا أنفسهم.. فهم حيوانات تسعى على قدمين، إلاّ أن يخافوا من الله.. وما لم تكن هناك خشية من عذاب الآخرة فسوف يُزهق بعضهم دم بعض، ويسرقون أموال بعضهم.. ولعلّهم من خشية القصاص يمتنعون عن ارتكاب جرائم القتل.

الملاكمة لعبة خطيرة

لقد اتضحت حكمة تشريع القصاص مما تقدّم.. ولكننا نلاحظ شيوع إحدى الألعاب القذرة في هذا الزمان وهي: الملاكمة.. إنّ هذا العمل خطير، فكيف يجوز لك أن توجه لكمة إلى شخص آخر فتذهب بعينه، إنّ الوحشية والطباع الحيوانية يجب أن يُنقى الإنسان منها، ليكون إنساناً.

ثم تقول السيدة الزهراء عليها السلام: «الوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة».

إنّ النذر واحد من القضايا الإسلامية، وسوف نشرح فيما بعد أصل النذر ووجوب الوفاء به.. وقد أمر الله عزّ وجلّ في عدّة أماكن بالوفاء بالنذر: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾ [البقرة: ٢٧٠].

ولم يكن الوفاء بالنذر مُشرّع في الإسلام فقط، بل إنه كان موجوداً في الأمم السابقة: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: ٣٥].. والنذر معناه أن يشغل الإنسان ذمته لله بشيء: «لله عليّ».. وهو مثل أن يكون الإنسان مديناً بمال لشخص ما عليه الوفاء به.. وهذا الأمر كان موجوداً في الأمم السابقة.

المقايضة أم إطاعة الأمر

إنّ النذر الذي يقوم به الإنسان على نوعين عند الوفاء به، فمرة يكون بعنوان المقايضة كأن يقول الإنسان: اللهم إني نذرت أن أنفق في سبيلك

المبلغ الفلاني إذا شفيت مريضى. والوفاء بهذا النوع من النذر له صفة ومنفعة مادية فقط. أما الوفاء بالنذر الذي يكون له نفع أخروي معنوي علاوة على النفع الدنيوي فإنه يكون عندما يندفع الإنسان نحو ذلك بعنوان الطاعة لله.

ما لم يذكر اسم الله فلا ينعقد النذر

«الوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة» النذر الذي ينذره الإنسان لا تشغل به ذمته الله ما لم يذكر اسم الله.. ونذره ليس صحيحاً مهما ذكر اسم النبي أو الإمام.

وبناءً على هذا عليه أن يقول مثلاً: نذرٌ عليّ الله أن أطعم الطعام ثواباً للحسين عليه السلام وعند ذلك إذا كان الوفاء بعنوان المقايضة.. وحصل أن عافى الله مريضك فعليك الوفاء بالنذر. وهذا جيد جداً، ولكن ليس فيه فائدة أخروية. والخلاصة أنك حصلت على جزائك في الدنيا وهو شفاء المريض.

عابد الصنم والنذر للحسين عليه السلام

يوجد في الهند من يعبد الصنم وينذر للإمام الحسين عليه السلام فهو يصرف كلّ عام مقداراً من المال في ثواب الإمام الحسين عليه السلام، وخصوصاً أيام عاشوراء، وعندما يكون الجوّ صيفاً والهواء حاراً فإنهم يستدعون بعض الشيعة لكي يعملوا المرطبات على حسابهم، ثم يقدمونه مجاناً للمشاركين في مواكب العزاء، وقد وجدوا بالتجربة أنّ البركة تنزل عليهم بسبب عملهم هذا.. وهي فائدة مادية، وليس لهم أي فائدة أو أثر معنوي، كما هو الأمر مع الشيعة الذي ينذر من أجل شفاء مريض.

نذر النصراني للإمام الهادي عليه السلام

نقل (القطب الراوندي) عن (هبة الله الموصلي) في (كتاب الخرايج) أنّ أحد النصراني في إحدى قرى الموصل، وكان اسمه يوسف بن يعقوب، كان صديقاً لأبيه، جاء مرة في غير الموسم من القرية ليحلّ ضيفاً علينا.. فسأله

والذي أنّ الوقت ليس وقت الموسم فلماذا جئت؟ فقال: إنّ (المتوكل) أرسل رسولاً طلب منّي الحضور لديه، فأحسست بالخوف والخطر الشديد.. وتساءلت ما الذي سيحل بي؟ ولكن ضمننت نفسي، فقد خصّصت مبلغاً من المال، وهو مائة دينار ذهب لإمام الشيعة ابن الرضا.. فقد علمت أنّ في سامراء واحداً من أحفاد الرسول ﷺ فنذرت له مائة دينار من الذهب، ليفرّج الله عنّي هذه الكربة. فقال له والذي: إذا كنت قد نذرت ذلك فلا تخف واذهب.

وعندما ذهب من الموصل إلى سامراء التي لم تكن له بها معرفة سابقة.. كان أول شيء فكّر به هو الذهاب إلى الإمام الهادي ﷺ ليسأله الدعاء، ثمّ يذهب إلى (المتوكل) ولكنه شاهد أنّ الإمام ﷺ مُراقب، ووضعوا حوله العيون والجواسيس، فإذا أراد أن يقترب من الإمام ﷺ ويسأله أحواله فلعلّ الأمور تسوء أكثر.. ثمّ قرّر أن يركب حماره ويدعه يسير على رسله ليرى ما الذي يحدث. وكان غلام له يرافقه، ولم يحدث أحداً بشيء، فعبّر السوق حيث لم يعرفه أحد، وفي أحد الأزقة كان حماره يقف عند باب إحدى الدور، وكلما حاول الغلام أن يحركه لكنه لم يتحرك.. فقال لغلامه أسأل عن صاحب هذه الدار، فقال أحد العابرين: هذا بيت علي الهادي ابن الرضا ﷺ.

فقال هذه أول العلامات.. ثمّ أمر غلامه أن يطرق الباب، فظهر عليها غلام أسود وقال: هل أنت يوسف بن يعقوب النصراني؟ فقال في نفسه: وهذه علامة ثانية. فقال الغلام: انتظر قليلاً، ثمّ ذهب وعاد وقال: إنّ الإمام أذن لك بالدخول إلى الدهليز، وأعطنا المائة دينار من الذهب التي نذرتها لنا.

ثمّ ذهب وعاد وقال: إنّ الإمام أذن لك بالحضور بين يديه.. فقال في نفسه: هذه علامة الثالثة.. فقال له الإمام ﷺ: إنك لن تصير مسلماً رغم هذه العلامات التي رأيتها، ولكنّي أبشرك بأنّ الله سيرزقك غلاماً يكون من شيعتنا، وإنّ الله سينقذك من المتوكل لأنك توسّلت بنا، وستعود إلى وطنك آمناً ومرتاحاً، وقد كذب من قال: إنك لن تنتفع ممّا مادياً.

شخص يطلب من أبي الفضل العباس عليه السلام سلامة سيارته، والآخر يطلب منه حسن العاقبة وعبور الصراط!

تقيم مجالس العزاء بقصد البركة، أو تقيم مجالس العزاء بقصد وفاء النذر، إن كانت إقامة المجالس معاملة فستكون النتيجة مادية. لكن عندما يكون النذر شكراً لله وطاعة لأمره تعالى فستكون تلك المجالس والنذورات «تعريضاً للمغفرة».

لديك مريض أو عندك ابتلاء ما، فتقول: يا رب إن شفيت مريضى هذا فلك بذمتي أن أصوم قربة لك ثلاثة أيام، أو أن أذبح شاة شكراً لهذه النعمة التي أنعمتها عليّ، وعندما تقضى حاجتك ابدأ بالصيام شكراً لله وطاعة لأمره: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ أي بالعهود، فتقضى نذرك وتفي به طاعة لله وشكراً له، عندئذ تتعرض لمغفرة الله علاوة على الفائدة المادية.

السيدة الزهراء عليها السلام تفي بنذرها

لقد سمعتم أو قرأتم.. أن الحسن والحسين عليهما السلام أصابتهما الحمى فجاء الرسول ﷺ لعيادتهما، وقال لأمير المؤمنين عليه السلام: «يا عليّ أنذر من أجل شفائهما» فنذرت السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام فشفاهما الله، فاقترضت السيدة الزهراء عليها السلام مقداراً من الشعير وصامت، واقتدت بها فضة، وصام الحسن والحسين كذلك، وفاء بالنذر وشكراً على النعمة.

وفي اليوم الأول من الصوم وعند وقت الغروب سمعوا استغاثة مسكين، وفي اليوم الثاني سمعوا استغاثة يتيم، وفي اليوم الثالث استغاثة أسير.. فأعطوهم في الأيام الثلاثة ما عندهم من خبر الشعير، وأفطروا هم بالماء.. وهذا النوع من العمل لا تمثّل قيمته قرص الشعير؛ بل يعبر عن الإخلاص الحقيقي لله: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حَيْدٍ مَّسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا * إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا﴾ [الإنسان: 8 - 9].

نحن نسمع وهم يرون

إن أهل البيت عليهم السلام يخافون يوم القيامة.. أما أنت أيها المشايخ لعلّي فأبي شيء تعلّمت منهم؟ هل في قلبك ذرّة من الاطمئنان عندما يُذكر أمامك إسم يوم القيامة؟ ذلك اليوم التي تعنو فيه الوجوه كلّها لربها، ويركع الجميع لله.. حيث تسيطر الدهشة وتلفّ الحيرة الجميع.. في ذلك اليوم لا ينجو من النار إلاّ الذين أحسنوا ما بينهم وبين ربهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

إنّ هناك بعض الجهلة يعترضون على بكاء المعصوم.. نحن نسمع.. أما المعصومون فإنهم يرون.. فالزهراء عليها السلام أوصت علياً عليه السلام حين قاربت الوفاة بأن يبقى على قبرها، ويقرأ القرآن، لأنّ الأموات يحتاجون في تلك الساعة إلى مثل ذلك.

« ٢٩ »

«الوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازين تغييراً للبخس»

كفارة النذر مثل صيام شهر رمضان

كان الكلام حول الوفاء بالنذر.. وقلنا إنَّ الإنسان عندما ينذر فإنَّ ذمته تكون مشغولة بأداء ذلك النذر، حيث يجب عليه الوفاء بذلك النذر، فالإنسان بإمكانه أن ينذر الله نذراً يكون ثوابه للإمام، مثل أن ينذر أن يذبح خروفاً يطعمه الفقراء في سبيل الله ويكون ثواب ذلك لأبي الفضل العباس عليه السلام.

على من ينذر الوفاء بالنذر، وإلاَّ فإنَّ عليه أن يدفع الكفارة، وكفارته على الأقوى مثل كفارة صوم شهر رمضان.. صيام ستين يوماً، أو إطعام ستين مسكيناً.. أو تحرير رقبة إذا كان ذلك متوفراً.. فلماذا وجب الوفاء بالنذر؟ لقد ذكرت السيدة الزهراء عليها السلام حكمة ذلك بقولها: «الوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة».. حيث المسلمون أنفسهم في موقع المغفرة عند أدائهم ووفائهم بنذرهم.. وإطاعة الله لأنَّ: ﴿الْحَسَنَاتُ يُدْهِنُ أَلْسِنَاتٍ﴾ [هود: ١١٤].

العبودية والمغفرة

والوجه الآخر لـ«تعريضاً للمغفرة» هو أنَّ الإنسان عندما يسير نحو الله على صراط العبودية والطاعة لأوامر الله، فإنَّ هذا الحال يقتضي أن يغفر الله له ذنوبه، ومتى ما انحرف عن هذا الصراط، فسوف لن ينال المغفرة.. وهذه هي

حالة الابتعاد والبعد عن المغفرة.. إنّ مقدمة القرب من الله هي أن يفِي الإنسان بنذره عندما ينذر.. لأنّ الوفاء بالنذر صورة من صور العبودية لله والطاعة له.

البخس في البيع حرام في كل الأديان

«وتوفية المكائيل والموازين تغييراً للبخس»

إنّ من جملة الأحكام الضرورية في الإسلام حُرمة البخس في الميزان، وهو من الذنوب الكبيرة حيث وعد الله من خلال القرآن من يفعل ذلك بالعذاب.. جاء في القرآن ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَكَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وُزِنُوا يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣]، إنّ الآية تخاطب أولئك الباعة الذين هذه صفاتهم، والباعة الذين يخلطون الجيد مع الرديء من البضاعة، أو يبيعون الناس بضاعة مغشوشة.. والخلاصة فإنّ البخس هو أن يعطي البائع بضاعة لا تعادل قيمة المال الذي يأخذه.. سواء كان ذلك بسبب عدم المطابقة من ناحية القيمة، أو من ناحية نوع المادة، أو أن تكون البضاعة مغشوشة.

إنّ البخس في البيع مُحرّم في جميع الأديان السماوية.. حيث يخاطب النبي شعيب عليه السلام قومه: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطِ أَلْتَسْتَقِيمَ * وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ﴾ [الأعراف: ٨٥ - ٨٦].

لماذا قالت السيدة الزهراء عليها السلام: «تغييراً للبخس» والتغيير بمعنى الرفع.. والبخس بمعنى النقصان.. كما أنّ التوفية بمعنى التكميل.. ومن أجل رفع البخس.. فإنّ لتغيير البخس ثلاثة أوجه ولا منافاة أن تكون جميعها موجودة:

الوجه الأول: أن لا يعطي للمشتري بضاعة أقل، مما يكون مخالفاً للعدل.. فيكون ظلماً.. والعدل يعني التساوي بين المال المدفوع والبضاعة المعطاة، ولكن البخس ظلم وحرام.

والوجه الثاني: أن كلّ من يبخر الناس أشياءهم.. فإنّ من نتائج ذلك أن يحدث النقص عنده، فمثل هذا الشخص يعتقد أنّ مقداراً من المال قد أضيف

إلى ماله بما أنقص من وزن البضاعة التي يبيعها، ولكن الحقيقة هي أنه ينقص من نفسه، فلو تأمل ذلك الإنسان الذي يبخر في الميزان في حياته فسوف يتضح له ذلك الأمر.. مما يقلله من وزن البيع تنتج قلة في مدخوله اليومي.. وهذا من تجارب الحياة.

فما أكثر الأشخاص الذين أخسروا في الميزان، فوجدوا قلة في الرزق بنفس المقدار.. ولو عملوا العكس فإنّ الله يزيد في بركة مالهم أكثر.. يقول بعض العلماء والمحققين: إنّ المقدار من المال الذي يأخذه الباعة من الناس ظلماً يأخذه منهم الشياطين والجنّ دون أن يعلموا.

عصير الليمون المغشوش ونتيجة العمل

نقل أنّ شخصاً كان في (دار السلام) يبيع عصير الليمون الحامض.. واتفق أن اجتاحت مدينة كربلاء في العراق وباء عام (الحصبة أو الملاريا) اعتقد الأطباء حينها أنّ أفضل علاج لذلك الوباء هو استعمال عصير الليمون، وقد لاحظ ذلك البائع ازدياد الطلب على العصير، فلجأ إلى الغش بإضافة الماء إليه، فأصبح نتيجة ذلك مليونيراً.

وبعد سنوات ابتلي بمرض أعده وأصبح طريح الفراش.. فأخذ يبيع ما عنده من أجل أن يوفر المال اللازم للعلاج.. نقل أحد أصدقائه: كنت يوماً عنده فجاء ولده وقال له: لم يبقَ لدينا مال نشترى به الدواء.. فقال الأب: خذ هذه الوسادة التي أنام عليها فبعها واشترى الدواء بثمانها.

الماء المخلوط بالحليب يقتل البقرة

وتشبه تلك القصة قصة بائع الحليب الذي كان يضيف الماء إلى الحليب دائماً ثم يبيعه.. حتى جمع مالاً كثيراً، فاشترى بقره، ولكن ما أسرع ما جاء السيل فأخذها معه وأغرقها.. وكانت كل ما يملك من رأسمال، ولكنها لم تكن مباركة..

أيها المسلمون لا تخسروا الميزان.. ولا تتصوّروا أنكم خدعتم المشتري؛ بل خدعتم أنفسكم.

كفة الحسنات تقلّ

والوجه الثالث: إشارة إلى البخس في ميزان عمل الإنسان الذي يُخسر الميزان.. فكل إنسان يُخسر الميزان في الحياة الدنيا، فسوف تقل كفة حسناته غداً يوم القيامة، ومن المتيقّن أنّ كلّ من تتعلق بذمته حقوق الآخرين سوف لن يستطيع أن يعبر الصراط غداً حيث يجب أن تؤخذ من حسناته ما يوفي به دينه للآخرين.. إنّ مثقالاً يأخذه الإنسان من الآخرين دون حقّ سيحاسبُ عليه غداً.

جاء في الأخبار أنّ الحسنات تؤخذ من المدين فتضاف إلى الدائن.. والإنسان الذي كان في الدنيا يُخسر في الميزان فسوف يقلل من حسناته في الآخرة.

مثل هذا الإنسان سوف لن يرى حسناته غداً فيسأل: إلهي لقد قمت بأعمال الخير الفلانية.. فيقال له مكتوب في سجلّ أعمالك أنك مدين ومال أخذته من الآخرين في الدنيا فإنهم يُعوّضون في الآخرة بأفضل مما أخذ منهم.

تنتقل حسنات المغتاب إلى من اغتابه

كان هناك أحد العلماء الأتقياء قد ابتلي بجاهل يذكره بسوء في غيابه.. وكان العالم يُقابل تلك الإساءات بالإحسان إليه، ويرسل له الهدايا لعله يهتدي، وكان الجاهل يستهزئ بذلك، ويزداد إصراراً على الإساءة.. وبعد مدة ندم على كان فعله.. وتوقف عن الإساءة.. فتوقف العالم عن إرسال الهدايا إليه.. فقالوا له: لقد كان يسيء إليك فترسل إليه الهدايا، وعندما توقف عن ذلك انقطعت عن إرسال الهدايا إليه؟! فقال: لقد كان سابقاً يعطيني من حسناته فأنتفع منها ربحاً أبدياً، أما الآن فقد توقف عن ذلك.

حقوق الأفراد والعائلة

لكلّ إنسان حقّ على الله، ولله على كلّ إنسان حقّ أيضاً، فالنبي والإمام لهما حقّ عليه وبالعكس أيضاً، والزوج له حقّ على زوجته وكذلك لها حقّ على زوجها، والأب والأم لهما حقّ على الولد.. وللولد حقّ على الوالدين.. والجار له حقّ على جاره.. والمشتري والبائع بعد إتمام المعاملة لكلّ منهما حقّ على الآخر.. وبصورة عامة فإنّ للبشر في معاملاتهم وعلاقاتهم حقوقاً على بعضهم البعض.

فالحقّ الذي للبائع على المشتري هو أن يدفع المشتري المبلغ المعيّن كاملاً في موعده المحدّد، والحقّ الذي للمشتري على البائع هو أن يُسَلِّمَ البائع المشتري البضاعة المعيّنة سالمة صحيحة غير منقوصة في موعدها المحدّد، والتطفييف والبخس في أداء الحقوق هو أن يطلب أكثر من حقّه المعيّن على الطرف الآخر.. أو يسَلِّمه أقلّ مما وجب عليه من الحقّ.

حقّ المخلوق على الخالق، وحقّ الخالق على المخلوق

ولا بد من ذكر مثال ليتضح ذلك، وهو الحقّ بين الخالق والمخلوق، أيها الإنسان: إنّ لك حقاً على خالقك بأن يعطيك رزقك: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦]، ومن حقوقك الأخرى هو أن يستجيب لك عندما تدعوه في الأزمات والصعوبات التي تعترضك.. ومن يجيبك غير الله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ [النمل: ٦٢]، ومنها أن يهديك سواء السبيل.. حيث أرسل الله الأنبياء والرسل لهذه الغاية: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَقَّ نَبَعْتَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

أما حقّ الله عليك، فإن تشكر نعمته التي أنعم بها عليك لتؤدّي حقه.. وأن تطيع أوامره وتخضع له وتخشع وتعبد حقه عبادته، إنّ أهل التطفييف والبخس يطلبون من الله أكثر مما هو حقهم.. إنّ الله يعطي للإنسان بمقدار حاجته..

ولكنّ الإنسان يطلب منه أكثر من ذلك، فيوقع نفسه في المهالك والمشاكل.. في حين على الإنسان أن لا يوقع نفسه في التهلكة. والخلاصة إنه ليس من الصواب أن يطلب الإنسان من الله أكثر من حقه.. فلماذا هذا الحرص أيها الإنسان؟ ثم إنك عندما تقع في المشاكل والمصاعب تتصوّر أنّ كلّ ذلك من الله، في حين منك وبسببك.

أما في مقام أداء حقّ الله على المخلوق، فمن منّا ليس من أهل البخس؟ أيها الإنسان عليك بالإنصاف.. عليك أن تشكر الله على ما نعم به عليك: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كان رسول الله ﷺ يقول في مجلس واحد: «الحمد لله رب العالمين كثيراً، الحمد لله رب العالمين كثيراً» وكان يقول إنها أصول عظام البدن. العجب كلّ العجب، أنك عندما تريد المطالبة بحقّ فإنك تُلحّ في ذلك، أما في أداء حقّ الله فإننا جميعاً نتقاعس عن ذلك. وعندما تريد استيفاء مالك فإنك تستخدم هذا الأسلوب البغيض في الإلحاح، أما عندما يقال لك إُدفع الخمس أو إُدفع الزكاة؛ فإنك تبتكر ألف حيلة وحيلة.

كيف تريد من الله أن يرزقك وينفق عليك، ولكنك لا تؤدي حقّ الذي يجب عليك الإنفاق عليهم فتكون مطلقاً، في حين أنّ الله أمرك بالوفاء بالعهد ليفي لك الله بعهده: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠].

شروط استجابة الدعاء

جاء في الرواية أنهم سألوا الإمام كيف قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، في حين أننا ندعو فلا يُستجاب لنا، فكانت خلاصة قول الإمام عليه السلام ألم تقرأوا القرآن حيث يقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] إنكم في موقع الأمر والنهي تضعون عهد عبوديتكم لله وراء ظهوركم ألف مرة، لكنكم تتوقعون أن يستجيب لكم الله بمجرد قولكم يا الله.. عليكم أن تؤدّوا حقّ الله حتى يستجيب الله لكم، طبعاً نحن لا نستطيع أن نؤدي حقّ الله

كما هو المطلوب، ولكن علينا أن لا نقصّر في ذلك حسب إمكانياتنا.. اللهم
إننا نعترف إليك بتقصيرنا.. فاعفُ عَنَّا بجودك وكرمك، وهب لنا أن نشكر
نعمتك، وأن نعبدك ولا نشرك بك شيئاً.

حقّ الناس على النبي والإمام وحقهما على الناس

الحقّ الذي بيننا وبين الرسول ﷺ هو أننا نملك على الرسول حق هدايتنا
في هذه الدنيا، والشفاعة لنا بعد الموت. وحق الرسول ﷺ على الناس هو
التخلّي عن هوى الناس في مقابل أمر الرسول ﷺ وإطاعة أمره وأمر الإمام.

إنّ حقّ أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هو أن تدخل في ولايته وتتبع حقّه، لكي
لا يتركك وحيداً عند ساعة الموت، إنّ القلب الذي يميل إلى كلّ الجهات
وينصرف عن آل محمد ﷺ ويقضي حياته في هذه الدنيا في الشهوات فهو من
أهل التطفيف.. وهو مقصّر في عدم أدائه لحق آل محمد ﷺ.

إننا نتوقع الكثير منهم ﷺ.. وفي زيارتنا لهم نقول: «إني حربٌ لمن
حاربكم» فهل أنت سلم لكلّ من سالم آل محمد ﷺ أم أنك سلمٌ لمن
سالمك؟ إنك أيها الإنسان تقول بلسانك: «إني سلمٌ لمن سالمكم» ولكنك في
الحقيقة ومن خلال تصرفاتك وسلوكك سلمٌ لمن سالمك.. وإذا كان هناك
مؤمن حقيقي ومحبٌ لعليّ عليه السلام ولم يكن معك على حال.. فإنك تجعل من
عدوانه شعاراً لك حيث تصبح أسير هواك.

الأب والابن لكلّ منهما حقّ على الآخر

لنتحدث عن حقوق بعضنا تجاه البعض الآخر، فأنت أيها الأب لك على
ابنك حق.. وتتوقع منه أن يسمع قولك ويطيع أمرك. ولكن لابنك عليك حق
أيضاً، عليك أن تُنفق عليه، وعليك أن تربيته تربية دينية سليمة، ويحدث أحياناً
أن تهمل أولادك من زوجتك الأولى في حين أنّ الواجب يأمرك أن لا تفرّق
بينهم.

نعم، إنّ الشفقة تكون أكثر على البنت، حيث إنّ المستحب أنك عندما تشتري من السوق هدية أن تعطيتها للبنت أولاً ثم تعطيتها بعد ذلك للأولاد، لا تفرّق أو تُمايز بين البنات، وكذلك بين الأولاد، فمن الممكن بتمييزك بينهم في المعاملة توجد الحسد فيهم.. وسيكون ذنبهم برقتك.. أو تحرم بعض الأولاد من الإرث حيث لا يكون ذلك مقبولاً من الناحية الشرعية، نعم إذا كان أحدهم أضعف من الآخرين فلا مانع من تمييزه عن الآخرين عن طريق الثلث.

إنّ لابنك حقاً عليك، وما دام لم يستقلّ في حياته عليك أن تنفق عليه في الملابس، والمأكل والملبس عليك أن تؤمّن له كل ذلك.. عليك أن لا تهمل تزويجه عندما يبلغ سنّ الزواج، وكذلك البنت عليك الإنفاق عليها ما لم تزوج، ويتحمّل والدها شؤون تربيتها الدينية.

إنّ بعض الآباء والأمهات يطلبون الكثير فيما يتعلق بحقوقهم، ولكنهم يهملون أداء حقوق أبنائهم، وكذلك الأولاد، يطلبون الكثير من حقوقهم من والديهم، ولكنهم يقصرون كثيراً في مقام التأدّب واحترام والديهم وتوقيرهم.

حقّ الناس على بعضهم

إنكم ترون أنّ بعض الباعة يحاولون خداع المشتري، حيث يغشّون ويدسّون في البضاعة التي يريدون بيعها، فيخلطونها بالشيء الرديء.. وبعضهم عندما يريد شراء شيء، فإنهم يخدعون الطرف الثاني.

إنّ الجار يتوقع من جاره أن يؤدّي حقّ الجيرة نحوه، لكنه لا يراعي ذلك الحق تجاه جاره، حيث يترك مكبر الصوت مفتوحاً حتى وقت متأخر من الليل، فيؤذي جاره.. إنّ جلسة القرآن وتلاوته شيء حسن بحدّ ذاته، ولكن إلحاق الأذى بالجار حرام.. إنك تزاحم الآخرين وتؤذيهم حتى منتصف الليل، ثم تتوقع أن لا يؤذيكَ الآخرون؟

«والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس»

إنّ أحد الأحكام الضرورية في الإسلام الذي حرّمته مسلمة بالأدلة الأربعة: القرآن والسنة والعقل والإجماع. هو شرب الخمر.. الشراب الذي يسبب فقدان العقل، حيث ورد تحريمه في كلّ الأديان الإلهية، وليس تحريمه مختصاً بالإسلام فقط، ولم يُرسل نبي إلا وكان تحريم الخمر واحداً من أحكام الدين الذي أتى به.

وإذا كان هناك دين لا يحرم شرب الخمر فهو ليس ديناً إلهياً، وقد ذكر الله سبحانه وتعالى تحريم الخمر في ثلاث آيات من القرآن الكريم.. في واحدة من الآيات حرم الخمر والقمار والأصنام: ﴿إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٩٠] وفي آية أخرى عدّ ذلك من الذنوب الكبيرة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]. وفي آية أخرى يقول عزّ اسمه: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

ووصف الله سبحانه وتعالى في الآية التي سبقت الخمر بالإثم.. وحرّم الإثم في هذه الآية.. وهناك روايات كثيرة عن الرسول ﷺ والأئمة عليهم السلام في حرمة شرب الخمر.

الخمرُ ضرره أكثر

جاء في الرواية ليس فيه قليل أو كثير، فلو وقعت قطرة من خمر في جرة ماء، فإنّ جميع الماء يتنجس، ولو تلوّثت شعيرة من نسيج، ثم ألقيت في جرة ماء فإنه يتنجس ويحرم تناوله سواء كان مسكراً أو غير مسكر، ولو كان مخلوطاً ببعض السوائل المقوية، خصوصاً وأنّ الاستقاء لا يكون عن طريق الحرام، إلا أن يكون كلّ مريض قادراً على تناول الشراب النجس الحرام؟ وهل في الدواء قحط؟ استعمل قرصاً آخرأ إبرة أخرى، وهل سيموت المريض

إذا لم يشرب هذا الدواء إذا كان مرضه قاتلاً؟ فإنه مضطر مثل أكل الميتة؟ وعلاوة على الحرام فليس فيه شفاء.. والروايات الواردة في هذا المجال كثيرة.

وقبل عدّة سنوات كان البعض يتصوّر أنّ الخمر يستطيع القضاء على بعض الأمراض، ولكن الأطباء الحاذقين اكتشفوا أنّ الشراب عبارة عن مادة ليست للشفاء، وقالوا أنّ الشراب يسبب تلف الكريات البيضاء في الدم ويؤدي بالتالي إلى ضعف المناعة.

أي أنه ليس فقط لا ينفع في علاج الأمراض؛ بل إنه بسبب ضعف البدن، وإعطاؤه حرام حتى للطفل، من الرضيع فما فوق.. ولا يجوز إعطاؤه ولو قطرة واحدة للحيوان، وفيما يتعلّق بالحيوان فإنّ النهي عنه محمول على الكراهة، ولكنّ النهي تحريمي بالنسبة للإنسان.

أثر شرب الخمر عند الموت

جاءت (أم خالد المعبدية) إلى الإمام الصادق عليه السلام وهو في المدينة المنورة، وأخبرته بأنها مصابة بمرض الانتفاخ وآلام المعدة.. وقالت إنّ بعض أهل المعرفة في الطب نصحوها بتناول الشراب، فجاءت لتعرف فيما إذا كان الإمام الصادق عليه السلام يجيز لها تناول الشراب لأجل المعالجة أم لا؟

فكان جواب الإمام الصادق عليه السلام لم تسأليني؟ فقالت: من أجل أن أجعلك حجة بيني وبين ربي، فإذا سألني يوم القيامة عن ذلك، أقول قال جعفر بن محمد عليه السلام فقال الإمام: إني لأقسم بالله أن لا أعطيك الإجازة بذلك، وإني لأخاف عليك إن شربت أن تصل روحك إلى حلقومك.. إنّ كلّ من يشرب في هذه الدنيا جرعة من شراب، ثم يموت قبل أن يتوب فإنه ينكب في روحه وذاته، حتى إذا جاءه الموت ظهرت نكبته تلك. وهذه هي حقائق تراها عين النبوة والإمامة، وإن كل ما قالوه حق وصدق.

عطش الموت والقبر والقيامة

وجاء عن الرسول ﷺ تعبير آخر: «يموت عطشاناً، ويدخل في قبره عطشاناً، ويحشر عطشاناً» طبعاً العطش هنا ليس مثل عطش الدنيا.. إنه عطش تصاحبه حرارة بحيث تجعل الإنسان مسلوب الإرادة.. فيسقى من الحميم المليء بالصديد والرائحة النتنة.

ولست أدري أيّ عطش هذا الذي يجعل الإنسان يشرب من الماء الحميم الذي يفور ويغلي من الحرارة ورائحته نتنة: ﴿يَشْرِي الْوُجُوهَ بِسُكِّ الشَّرَابِ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩].

«والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس» ولهذا فقد جاء الأمر والنهي عن شرب الخمر، لكي لا تبتعد عن آل محمد ﷺ والملكوت الأعلى.. فلا تسقط أيها الإنسان من إنسانيتك.

إنّ شرب الخمر يُحدِث تغييرات في الإنسان لعل فيها من ظواهر القيامة مثل تدلّي اللسان، وتدقّق اللعاب من الفم، واحمرار العينين.

إنّ الجنة والنار هما مكانان متضادان: ﴿الْحَيْثُ لِلْحَيِّينَ وَالْحَيْثُ لِلْحَيِّثِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ [النور: ٢٦].

على كل فردٍ منا أن يتذكّر وفي كلّ ساعة أنّ رأس ابن السيدة الزهراء الإمام الحسين ﷺ قد وضع في مجلس يزيد شارب الخمر في تلك الساعة، في حين أنّ آل محمد ﷺ «إنّ ذكّر الخير كنتم أوله وأصله وفرعه ومعده ومأواه ومنتهاه»^(١) وإذا ذكّر الشر فهو في أعدائهم.

لقد أمر يزيد المتهتك بتهيئة مجلس للشراب والقمار في الساعة التي جلبوا فيها بنات رسول الله ﷺ ليتناول المنكر أمامهنّ.

(١) مفاتيح الجنان للقمي، الزيارة الجامعة الكبيرة.

«٣٠»

«والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس»

ورد عن أهل البيت عليهم السلام أن ليس هناك ميثاق بيننا وبين كل من يشرب الخمر، أي أن أهل البيت عليهم السلام لن يشفعوا لشارب الخمر، فهو مفصول ومعزول عنهم، لأنه رجس لا علاقة له بأهل البيت عليهم السلام.. لأنّ نفس شارب الخمر قدرة لا طريق لها إلى أهل البيت عليهم السلام.

وورد في صريح الرواية أنّ طائفتين من الناس تحرمان من شفاعة أهل البيت عليهم السلام وهما: شارب الخمر وتارك الصلاة.. وهما لا يملكان أرضية للشفاعة أصلاً: ﴿فَمَا تَفَعُّهُمُ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدرثر: ٤٨].

الذين لُعِنُوا على لسان النبي صلى الله عليه وآله

لعن رسول الله صلى الله عليه وآله عدة أقسام من الناس، ومنهم: من يزرع العنب لأجل أن يعمله خمراً، وغارس العنب، وحامله، وعاصره، وبائعه والذي يشتريه، والمحل الذي يباع فيه، والذي يستأجر محله لبيع فيه، فكيف الحال بمن يشتريه؟

يجب طرد شارب الخمر من المجتمع

إنّ المائدة التي يجتمع حولها الناس وفيها الخمر فإنّ الجلوس حولها وتناول الطعام منها حرام، وإذا رأى المسلم شارب الخمر فلا يُسلم عليه،

وعليه أن يصدّ بوجهه عنه، وإذا خطب منه ابنته فلا يعطيه، ومن زوّج ابنته من شارب الخمر فكأنما ساعدها على الزنى.

فمن الضروري أن يرى الإنسان إلى أيّ فرد يعطي ابنته، هل هو مُصلّ أم لا؟ ولا يكونن شارباً للخمر ولا عباً للقمّار، فعليك أيها المسلم أن تختار الأصل الصحيح للعمل.. فإذا كان هذا الإنسان تقياً فإنه يُصلح لابنتك.

إنّ هذا الموضوع مهم جداً.. حتى أنّ الرسول ﷺ ينهى عن زيارة شارب الخمر إذا مرض، وإذا مات فلا تشيّعوه، وعلى المسلمين أن يبعده عن المجتمع الإسلامي.

وإنّ المسلمين إذا عملوا بهذه التعاليم وطبقوها بحذافيرها؛ فإنهم بذلك يقضون على الخمر ويقتلعونه من جذوره.

ولكن مما يؤسف له ما نراه من تسامحٍ وتماهليّ تجاه هذا الخطر العظيم في الدول الإسلامية.

النهي عن شرب الخمر للابتعاد عن القذارة

جاء النهي عن شرب الخمر مع كل هذه التأكيدات، فلماذا هدّد الله سبحانه وتعالى شارب الخمر بكلّ هذا التهديد والتأكيد، وما هي الآثار السيئة التي ذكرها والمترتبة على الإقدام على هذا العمل، إنّ السيدة الزهراء عليها السلام توضّح في خطبتها علّة ذلك: «تنزيهاً عن الرجس» وليس لأنّ الله يريد أن يُبعذك عن الخير والنفع، وأن لا تُسعد؛ بل من أجل أن لا تكون قذراً تنتأ، وأن لا تكون عفناً، فتخسر روحك بذلك.

إنّ الرجس أشمل من النجس، والقذر الذي يحكم العقل بضرورة الابتعاد عنه، هو الرجس.. وهي كجيفة الحيوان الذي يأكل الجيف.. فإنّ العقل يقضي بضرورة الابتعاد عنها.. والشرع يأمر بذلك أيضاً، والشراب.. رجس بكل معنى الكلمة.

أما الآية التي تقول: ﴿وَمَنْعُ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢١٩] فهي المنافع التي يتوهمها الناس في معاملاتهم، فبائعهم وصابغهم قد ربحوا مادياً كبيراً عن هذا الطريق.. ولكن ضرره وذنبه أعظم من أيّ ربح آخر.

الخمير يضرّ جميع أجزاء البدن

أما بالنسبة للبدن، فإنّ الخمير مادة تترك آثارها السيئة على جميع أجزاء البدن، وقد كتبنا في كتاب (الذنوب الكبيرة) الخسائر البدنية الناتجة عن الخمير، حتى أنّ الضرر يصل إلى الجيل الثالث من الذرية، أو يسبب الشلل أو العمى أو الصمم أيضاً لقد صرح أهل الخبرة والاطلاع أنّ الأضرار التي يسببها الخمير ليست من الأضرار التي يمكن تحمّلها.. فأيّ شيء هذا الذي يترك كل هذه الآثار السيئة على الإنسان.. إنه مضرّ للكلى والكبد والمعدة، والأكثر من كل ذلك أنه يُذهب بالعقل.

إنّ الله سبحانه وتعالى - بقدرته العظيمة - جعل لقوى البدن قوة حاکمة.. تتحكم في تصرفاته وسلوكه، وهي ما نعبر عنه بالقوة العاقلة، لتشخّص ما ينفعها وما يضرّها، إنّ عمل العين واللسان والأقدام ليست بذاتها، وإنما هي تتحرك بواسطة تلك القوة المسيطرة وهي العقل.. فالأمر إذاً ليس أمراً مادياً، وإنما هو أمر معنوي حقيقي.. ومن خصوصياته أنّ يُشخّص الصحيح من الخطأ، النفع والضرر.. وإذا ما فقدت هذه القوة العاقلة.. فإنّ جميع القوى البدنية الأخرى تكون في خطر، فالقوة العاقلة تمنع الإنسان من تناول الطعام إذا كان فيه ضررٌ.. وتمنع الإنسان من التقرّب من الأعمال التي فيها خطر على حياته.

لماذا يضع الطفل يده في فم الأفعى؟. لأنه ضعيف العقل أو لا عقل له يميّز بين الأشياء الضارة والنافعة، ومن هنا فإنّ القوة العاقلة هي بمثابة الحارس الأمين لكل هذا البناء - الإنسان - وما يؤمن حياة الإنسان الأبدية والمادية هو هذه القوة العاقلة.

إنّ الخمر يؤثر تأثيراً سلبياً كبيراً على هذه القوة العاقلة، ولو لم يكن من مضار الخمر سوى النهي بالابتعاد عن شاربها لكفاه أن يكون ضرراً عظيماً، فما الذي يبقى للإنسان إذا ابتعد عنه أبناء جنسه، إن أسوأ السيئات هو أن لا يميز الإنسان بين ما يضرّه وما ينفعه.

موضعاً للسخرية في حال السكر

روي عن أحد الحكام العرب قبل الإسلام أنه كان مغرماً بشرب الخمر، وفي إحدى الليالي المقمرة أكثر من الشرب حتى ثمل فدعا وزراءه ومساعديه وأوقفهم حوله في حلقة وأخذ يرقص ويأتي بحركات مضحكة محاولاً الإمساك بالقمر وأخذ يدور ويرقص حتى وقع على الأرض فضحك منه الوزراء والمعاونين، وفي اليوم التالي قالوا له فعلت بالأمس كذا وكذا، فعاهد نفسه منذ تلك اللحظة أن لا يشرب الخمر أبداً، وكان اسم ذلك الحاكم زهر بن جذعان.

الجرائم العظيمة في حال السكر

إنّ هذه المادة (الخمر) فاسدة كبيرة إلى حد أن من يتناولها تسلب قدرته على التمييز وهي العقل، مثلما نُقل عن أحد الحكام في زمن الجاهلية حيث زنى بابنته وهو سكران.

لقد سمعتم وتسمعون دائماً أن بعض السكارى يأخذون بنادقهم ويقتلون أقرب الناس إليهم، ابنته، زوجته، كما كتب في إحدى المجلات أنّ أحد السكارى قتل من أفراد عائلته بعدد ما هو موجود فيها من الإطلاقات النارية.

إنّ العقل يقول إنّ هذه المادة رجس وقدر بتمام معنى الكلمة.. وأنها (أم الخبائث).. وإنّ الله سبحانه وتعالى حرّم على المسلمين شرب الخمر من أجل تنزيههم عن القذارة.

القذارة المعنوية تدوم أربعين يوماً

ولكن ما معنى الرجس المعنوي، والذي يسببه الخمر في روح الإنسان، وإن أفضل ما وصف ذلك هو ما ورد في ثلاث روايات تؤيد ما ذكرناه، وهي أنّ المرء إذا شرب خمراً فسيبقى أثرها فيه أربعين يوماً، ولا تقبل صلاته ولا أعماله فيها. فالصلاة التي هي تقرب من الله، لا تقرب من كانت في نفسه قذارة أربعين يوماً، فيسأل الراوي: لماذا أربعين يوماً؟ فيخبره الإمام عليه السلام أنّ خلق الإنسان من نطفة إلى علقه يحتاج إلى أربعين يوماً حتى يكسوه الله لحماً.

«واجتناب القذف حجاباً عن اللعنة»

ويعني ذلك الابتعاد عن قذف الناس الطيبين واتهامهم بالزنى واللواط لئلا يتعرّض القاذف إلى اللعنة الإلهية.

كم خالفنا التكليف؟

ولو أنكم تحاسبون أنفسكم فسوف تكتشفون حجم المخالفات التي ترتكب، فبعضنا يسمع القذف بحق الآخرين، ثم يتقبل ذلك، في حين أنّ الحكم الإلهي هو وجوب الردّ على ذلك ورفضه، وعلى من يسمع القذف بحق الآخرين أن يزر القاذف وينهاه ويكذّبه. والويل لك إن صدقت أو قبلت ذلك لأنك ستكون شريكه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ١٩] وعلى هذا فإنك تستحق مثله ثمانين سوطاً، وحين تحاول أن تعترض فتقول إنني لم أرَ، فقط سمعت فلاناً يقول ذلك، فيقال لك: خسئت حين استمعت إلى قوله.

اللعنة عليك حين صدقت، والآن تحاول أن تشيع ذلك.

إنك تقول إنني أنقل قول فلان، في حين أنّ الله يأمرك أن تكذّبه.. يقول: إنّ الجميع يقولون ذلك، وإنه مشهور.. وإنّ أهل المدينة كلّهم يعلمون.. إنهم جميعاً يتعرّضون إلى اللعنة الإلهية: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣].

وعند ذلك يقول الإنسان: لماذا أدعو الله فلا يستجيب لي؟ وهل الذي تحلّ عليه اللعنة الإلهية تقبل صلاته ويُستجاب دعائه؟ إنه يكون ذليلاً في الدنيا والآخرة، ولا بدّ من أمره بالتوبة، حتى إذا قال: لقد رأيت بعيني، يجب تكذيبه: ﴿لَوْلَا إِذْ سَعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

وإذا لم يستطع أن يثبت مدّعاها بأربعة شهود عدول، فيجب أن تعتبره كاذباً.. لقد وردت في القرآن الكريم حول هذا الموضوع أكثر من ست عشرة آية شريفة، وإذا كان القائل مخطئاً فإنّه على المستمع أن لا ينقل ذلك إلى الآخرين، وعلاوة على ذلك فإنّ من واجبه أن يأمر القاذف بالتوبة وينهاه عن تكرار هذا العمل، فإنّ من واجبه أيضاً أن لا يسيء الظنّ بالمقذوف، ولكن ما هو واجب القاذف حيث يجب عليه أن يتوب فما هو طريق التوبة؟

ليس قوله كلمة (أستغفر الله) علاجاً نهائياً للموضوع، فبالإضافة إلى التضرّع لله والاستغفار منه، عليه أن يذهب إلى المقذوف ويضع نفسه تحت تصرفه، ويقول له: لقد أخطأت بحقك، فإما أن تعفو أو تضربني ثمانين جلدة. وعليه أن يسلم نفسه للمقذوف حتماً، وإلا فلا فائدة من توبته. أما إذا لم يستطع باللسان الناعم والرجاء منه في أن يعفو أو أن يضربه ثمانين جلدة، فسوف يترك هذا الأمر إلى يوم القيامة.. وسيطأ الآخرة ليست مثل سيطأ الدنيا.. إنها مما لا تقوم له السماوات والأرض.

المرأة التي قذفت جاريتها

جاء في الرواية أنّ امرأة جاءت إلى رسول الله محمد ﷺ وقالت له: أنني ارتكبت ذنبا وأريد أن أتوب، فقد قذفت جاريتي بقولي لها: يا زانية. فماذا أفعل؟ وما أن قالت ذلك حتى أخبرها رسول الله ﷺ إنّ الطريق إلى ذلك منحصر بإرضاء الجارية. فذهبت المرأة ووضعت السوط أمام الجارية، وقالت لها: لقد قذفتك بالقول في ذلك اليوم، وهذا السوط وهذا بدني، ولن أؤخذك، أو تعفيني. فعفت الجارية عن سيدتها، فأحسنت إليها السيدة بعقت

رقبتها، مع أنها اشترتها بثمانٍ غالٍ. إنَّ بعض النساء يسألن أحياناً وهنَّ خائفات مما يُتهمن به، إنَّ على الرجال أن ينتبهوا أنَّ الأمور لا تنتهي عندما يتهمون النساء، لأنَّ غداً يوم القيامة وسوف يحاسب على كلِّ ما قذف به الآخرين، وكل ما اتهم به الآخرين، وسوف يشهد اللسان على صاحبه: ﴿يَوْمَ نَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النور: ٢٤].

القذف لغير المخاطب أكثر خطراً

إنَّ للمقذوف الخيار: إما أن يضرب القاذف بالسوط، وإما أن يعفو. أما إذا كان المقذوف غير المخاطب، أي غير حاضر، فإنَّ المشكلة أكبر.. مثل أن يقال إنَّ أمك.. وحينها يكون الأمر أصعب، حيث يكون في القضية طرفان.. الأول الشخص المخاطب حين توجه نحوه الشتائم.. وحتى القذف للأُم أو الأخت، وإذا فعلت ذلك فعليك أن تطلب من المخاطب أن يسبِّك، أو يضربك، أو يعفو عنك.

انتقال حقِّ القذف بالإرث

أحياناً يسعى الإنسان من أجل أن لا تنتقل هذه الأخطاء وعقوبتها إلى الآخرة، لأنَّ الحدود التي لا تُجرى هنا سوف تجرى في الآخرة.. وما دام الطرف الثاني المقذوف حياً فعلى القاذف أن يسترضيه أينما كان، لأنَّ العلاج منحصر بهذا الطريق، وإذا كان ميتاً فإنَّ الحق ينتقل إلى وارثه.

وبعبارة أخرى فإنَّ من الأشياء التي تنتقل بالإرث هو القذف، حيث يستطيع ابن المقذوف أن يضرب ثمانين سوطاً أو أن يعفو.

وبناءً على ذلك، عليك أيها الإنسان أن تمسك لسانك.. وإذا رأيت شيئاً فلا تقله لثلاثٍ تتعرّض إلى لعنة الله.. وليست اللعنة الإلهية إلاَّ خزي وعار في الدنيا والآخرة، ولا ترتفع اللعنة إلاَّ بإقامة الحد أو عفو المقذوف أو وارثه.

اللسان البذيء والخلل في النطفة

إنّ الذي يقذف الآخرين بكثرة، وينسب الزنى واللواط للذين هم أبرياء منها، يُفهم من الروايات أنّ عيباً ما في نطفته.. فالشخص الذي يتهم الآخرين كثيراً.. إما أن يكون ابن حرام أو نطفة حيض.. وعلى كل حال فإنّ نطفته ليست طاهرة.. إنه يفضح أسرار الآخرين في غيابهم.. والويل له إن كان يقول ما لم يره.

لقد كان الفحش في القول من صفات (هشام الأموي) الذي تناول على (زيد الشهيد ابن الإمام زين العابدين عليه السلام)، وكان يعتبر نفسه خليفة للمسلمين، وكان حينما يتكلّم مع ابن رسول الله صلى الله عليه وآله يقول له: (يا ابن الفاعلة) حتى ترك ذلك تأثيراً بليغاً في نفس (زيد) فأعلن ثورته بعد أن خرج من الشام إلى الكوفة، ثم استشهد (رضوان الله عليه).

وعندما جاء (السفاح العباسي) نبش قبر (هشام) وأخرج ما تبقى من جنازته، وأمر بأن تضرب بالسوط ثمانين جلدة، فقالوا: لماذا؟ فقال: لما قذف به زيد.. والخلاصة فإن: «سنة اللثام قبح الكلام».

(ابن زياد) كان فاحش القول أيضاً

ومثل ما جرى في قضية (زيد).. مرّ بذهني ما جرى على (مسلم بن عقيل) حيث قيّدوا يديه وجاؤوا به إلى (ابن زياد) وهو في حالة مأساوية.. وفي الواقع فإنّ (ابن زياد) كان عديم النظير في شقاوته.. فقد كان منظر (مسلم بن عقيل) يدعو إلى إشفاق كل من رآه وهو على ذلك الحال، إلّا ابن الحرام.. فقد شرع يكلمه بلسان بذيء ويتهمه، وقال له: كنت تُعربد في أزقة المدينة.. ثم جئت إلى الكوفة تقود الاضطرابات والفتن. فقال: إن الله يشهد أنني لم أذق للخمر طعماً.. ولكنّ أعداء آل محمد صلى الله عليه وآله لثام بذيئي اللسان يتهمون بالباطل.. ومحبي آل محمد صلى الله عليه وآله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٣].

إنَّ الإمام الحسين عليه السلام حين نادى على أصحابه الشهداء يوم عاشوراء كان أول من نادى باسمه (مسلم بن عقيل)، لأنه كان أول من قتل في ثورة الحسين عليه السلام.

* * *

«٣١»

«وترك السرقة إيجاب للعفة»

ما هي السرقة، والأكل من بيوت المحارم؟

إنّ واحداً من الأحكام الضرورية في الإسلام والمستمدّة من القرآن والروايات وإجماع العلماء هو حرمة السرقة، وهي من الذنوب الكبيرة. ولكن أيّ سرقة؟ أخذ مال الغير دون علمه أو اطلاعه، التقليل أو الزيادة بأيّ مقدار كذلك حرام قطعاً سواء كان صاحب المال من الأقارب أو أجنبياً حتى بين الزوج والزوجة فهو حرام، حتى حينما تمتدّ يد الزوجة إلى جيب زوجها فتأخذ المال ما لم يكن ذلك بموافقة.. أو ما يفعله الأب تجاه أولاده.. أو العكس.. سواء كان ذلك مالاً نقداً أو لباساً أو طعاماً.

وفي باب الطعام فإنه حلال بالمقدار الذي أذن به الله سبحانه وتعالى في القرآن، وما زاد على ذلك فهو حرام: ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَاتِكُمْ﴾ [النور: ٦١].

ففي بيت الأب والأم والأولاد والعمّ والعمّة والخال والخالة، حينما يدخل الإنسان يستطيع أن يتناول الطعام الموجود على المائدة، أما إذا لم يكن موضوعاً في معرض التناول كالشلاجة (البرّاد) فلا يجوز تناوله دون إذن.. خصوصاً وأنه كان مخفياً..

نعم إذا لم يكن الطعام مخفياً فلا مانع من تناوله بمقدار الحاجة للطعام

والشعب، وليس أخذه إلى بيوت الأقارب والأصحاب، لا مانع من الأكل مع إذن صاحب الدار.. فقد تواتر في الروايات قول الرسول محمد ﷺ: «لا يحلُّ مال امرئٍ إلاّ عن طيب نفسه».

الرؤيا الصادقة في كتاب الشهيد الثاني

ورد في كتاب الشهيد الثاني (رحمه الله) حول (سليمان الداراني) وكان من الأخيار، رآه في النوم بعد موته أحد الرجال فسأله عن أحواله، فقال: منذ أن فارقت الدنيا ولغاية الآن حيث مضت سنة على ذلك وأنا في حساب لأنني ارتكبت ظُلماً.. وهو أنني أخذت من كومة من قشور الحنطة حين ورد بها صاحبها لبيعها في المدينة، أخذت قشة صغيرة لأتخلّل بها، وهي لا قيمة لها، ولكنني الآن أحاسب عليها منذ عام: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧ - ٨].

حجرٌ برجل الطائر

واعلموا أنّ المظالم التي للناس عليكم إنما هي بعد الموت مثل الحجر حينما يُربط برجل الطائر.. والطائر الذي تعلق برجله حجارة هل يستطيع الطيران؟ كلا، إنه يحاول ولكنه لا يستطيع.

أيها المؤمن إذا مُتَّ وكان لأحد عليك حقٌّ فإنك لن تستطيع التحليق في العالم العلوي.. وستكون في مضيقه لا يمكنك الوصول إلى منزلة الأبرار والعليين.

إنّ هذا الموضوع مهم إلى درجة يتساوى فيه الصغير والكبير.. فالطفل ذو العشر سنوات إذا سرق في قاعة الدرس من زميله قلماً للكتابة فعليه ضمانه، وعليه حتى آخر عمره أن يُعيده إلى صاحبه وإن كان هذا العمل قد وقع في زمن الطفولة وقبل سن التكليف.

وجوب معاقبة الطفل إذا سرق

ولذلك فإنّ من الأمور الواجبة في النهي عن المنكر ولو لغير المكلف هي مسألة السرقة، فإذا علم الأب أن ابنه أخذ مال غيره فعليه أن يزجره وينهاه عن ذلك العمل، لثلاث مرات، وفي المرة الرابعة له حق إجراء حدّ السرقة عليه.

ولأنه غير مكلف.. ولم تتوفر شرائط قطع اليد، ولكن يجب أن يُعاقب ويُفهم أنه لو كان كبيراً لُقِّطعت يده، بل لا بدّ من نصحه بعدم التقاط الحاجات من الأرض إذا ما وجدها في الشارع أو الزقاق فلعل صاحبها يعود بعد قليل ويأخذها.

إذا رأيت مالا فلا ينبغي عليك أن تأخذه إلا أن تعلم أنك قادر على إيصاله إلى صاحبه، وعند ذلك خذه بهذا القصد، وليس بنية التملك والتصرّف به (إلا في المورد الذي ورد في الرسائل العملية).. وليس من الصحيح أن أترك أنا التقاط المال فيأتي الآخر فيلتقطه.. إذا أنا لم أسرق حتى الآخر يسرق.. فالإنسان لا يحقّ له التقاط المال إلا أن يكون مهماً يبحث عنه صاحبه المسكين، وعند ذلك يلتقط المال بشروطه.. ويجب الاعلان عنه لمدة عام واحد إعلاناً عاماً.

شروط قطع أصابع السارق

إنّ الإقدام على السرقة حرام.. وبشكل عام يجري عليه ما ذكره القرآن الكريم من جزاء: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: ٣٨].

ويجب أن تجتمع في ذلك السارق خمسة عشر شرطاً لتقطع يده، وإلا فهو الحرمة والضمان، وقد ذكرنا الشروط الخمسة عشر في كتاب (الذنوب الكبيرة)، ومنها: أن لا يكون المسروق أقل من ربع مثقال من الذهب، وأن يكون المال محروزاً، وأن لا يكون السارق مضطراً، وأن يكون بالغاً، وأن

يثبت ذلك عند الحاكم الشرعي بالبيّنة أو الإقرار، وأن لا يكون قد تاب، وإذا ندم وتاب قبل إثبات الحكم وأعاد المال إلى صاحبه فلا يُجرى عليه الحد.

﴿تَكْلَأًا مِّنَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٣٨] حتى يترك السارق هذا العمل، ولكي يكون عبرة للآخرين.

﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ﴾ [المائدة: ٣٩] فَإِنَّ الْحَدَّ يَسْقُطُ عَنْهُ.

في رواية عن الإمام عليه السلام ذكر عدة ذنوب: إذا زنى الإنسان، أو سرق أو شرب الخمر، ثم تاب قبل الحضور عند الحاكم، وأصلح ما بينه وبين ربه، وأعاد ما سرقه في مثل السرقة فإنّ الحدّ يسقط عنه، والخلاصة فإنّ باب التوبة واسع.

وتقول السيدة الزهراء عليها السلام «إيجاباً للعفة» إنّ السرقة خطيرة وصعبة إلى حدّ أن تركها موجباً للعفة، والإيجاب بمعنى الإثبات.. والمسلم الذي تكون العفة من صفاته تتحقق إنسانيته، أما الذي يفتقد العفة فإنه مع الحيوان سواء.

إنّ الفاصلة بين الحيوان والإنسان هي عفة النفس.. وهي من اختصاص وشؤون العقل الإنساني، والذي تُسلب منه العفة فما هو اختلافه عن الحيوان؟ الحيوان الذي ليست لديه عفة نفس، فإذا صار الإنسان مثله فإنّ الآية تصفهم: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

عفة النفس

عَفٌّ، أي كَفٌّ؛ إنّ الإنسان منذ ولادته حتى وصوله إلى قبل سن التكليف والرشد لا يستطيع أن يمنع نفسه من الانغماس في الشهوات والملذات، أي أنه يحاول تناول كل ما يشتهي.. إنّ القطة عندما ترى الفأر هل هنالك من يستطيع منعها، وهي بمجرد أن ترى الفأرة فإنّ شهيتها تفتح.. والطفل عندما يريد شيئاً ما فإنه يقيم الدنيا من أجله.. أنه طفل وليس له إدراك كامل، فالطفل

بمجرد أن يرى في يد طفل آخر حاجة ما، تميل نفسه إليها ويحاول أن يأخذها منه مهما حاولت إقناعه بترك ذلك الإصرار.

إنّ الطفل ذو السنوات الثلاث لا يفهم معنى السرقة إلا أن يمنعه بالقوة.. فهو يميل نحو تحقيق رغباته النفسية، ولا يعرف معنى للحسن والقيح.. فهو لا يفهم معنى أنّ هذا مال الآخر وليس ماله.. وهذا العمل قبيح وخلاف الحياء.. ويستمرّ الأمر معه كذلك حتى يأخذ إدراكه بالنمو والتكامل، وهنا يشرع بالتحكّم والسيطرة على شهواته.. تقع عينه على قلم الكتابة الجميل مثلاً لمن هو في عمره.. ولكنّ الحياء والعقل اللذان وهبهما الله له يمنعه من أخذه، ويرتدّ بصره ولو كان ذلك القلم جميلاً وجذاباً.. وإذا وقعت عينه على أطيب الطعام وألذّه فإنه لا يتناول منه شيئاً لأنه ليس له، وبهذا التمرين والرياضة تنمو عنده عفة النفس.. فهي لا تحصل دفعة واحدة.

إنّ على الإنسان أن يسعى وبالتدرّج إلى تحصيل عفة النفس في مسائل مثل: شهوة الطعام وشهوة الجنس. حتى يصل به الأمر إلى حدّ لو كان جائعاً للأميرين وتيسّر أمامه المال الحرام؛ فإنه يكون عفيف النفس ولا يتناول منه شيئاً.

التمرين لاكتساب عفة النفس

لقد وضع الشرع المقدس مجموعة من القوانين من أجل استكمال عفة النفس، ففيما يتعلّق بالبطن قالوا: علّموا أطفالكم أن يأكلوا الطعام مما وضع أمامهم، ولا يمدنّ بيده أمام الآخرين.. بل ولا حتى النظر إلى هنا وهناك وما يأكله الجالسون معه.. لتقنع نفسه بما يتناوله من طعام، ولا يأكلنّ سريعاً، ولا يزدرد الطعام دون مضغه جيداً.. ويترك الطعام وهو ما زال يشتهي.. وهذه التعليمات كلّها مما تنمّي العفة في نفس الإنسان.

يقال إنّ أحد الأشخاص مرّ على قصاب كان يشتري منه اللحم، واجتازه، فناداه القصاب: يا فلان ألا تريد لحماً اليوم؟ قال لا. قال: إنّ لك عندي اليوم لحماً طازجاً. فقال: ليس عندي مالاً. فقال القصاب: أبيعك قرصاً. فقال: إذا

وعدتك بالمال! فالأولى أن أعدَ بطني باللحم، فلماذا أكون مديناً لك بالمال،
وأتحمل منك عليّ.

التمرين على العفة في القضايا الجنسية

فيما يتعلّق بعفة النفس في الأمور الجنسية على الإنسان أن يسيطر على
شهواته، وأن لا يتعدّى ميزان الشرع والعقل.. أيها الذين لم تتزوجوا بعد ولا
قدرة لكم على الزواج، عليكم أن تسيطروا على أنفسكم. ورد في الرواية النهي
عن النظر إلى عقب المرأة، فإذا أبصرتها فلا تكرر النظر إليها، ولا تمزج مع
المرأة الأجنبية، ولا تصافح المرأة الأجنبية: ﴿وَلَيْسَتَغْفِبَ الَّذِينَ لَا يُحِدُونَ نِكَاحًا﴾
[النور: ٣٣].

روي عن لقمان أو داود عليهما السلام: انظر إلى عقب الأسد ولا تنظر إلى عقب
المرأة الأجنبية، لأنّ النظر إلى عقب الأسد معه احتمال عدم لحوق الأذى
بك، ولكن المرأة إذا نظرت إليها فسوف يصل إليك البلاء حتماً.

إذا نظرت بعين الشهوة، فإنك حيوان.. إنّ ذكر الحمار عندما يقترب من
أنثاه فإنه ينزو عليها.. والعفة تمنع من طغيان الشهوة والسعي وراءها. اترك
المكروهات كي لا تقع في المحرّمات «إيجاباً للعفة» وما أن تكون عفيف
النفس، فإنك تحقّق إنسانيّتك وإلاّ فهو محال.

إنّ ما يميّز الإنسان عن غيره هو عقله الإنساني، وإذا لم يتحقّق ذلك فإنه
حيوان، وإذا لم يفعل العقل فعله ولم تنضبط به حركة الإنسان، ولم يسيطر
على الإنسان به على شهواته الحيوانية فسيكون: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ
أُولَئِكَ هُمُ الْفَاقِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

إنّ الصور في المحشر تتطابق مع السريرة، حيث كان ذلك مكشوفاً،
وبعض الناس يحشرون يوم القيامة على صورة أبشع من الخنزير والقرود:
«يحشر الناس على صور تحسن عندها القرود والخنزير».

إن عفة النفس عندما تُسلب، فإن من تُسلب منه ليس إنساناً، إنما هو حيوان أكثر قذارة من الحيوان.. وصورته مثل باطنه أقيح من القرد والخنزير.

عدم التعقل يجعل من الإنسان حيواناً

يقول القرآن الكريم: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]. وإن خزنة جهنم ليقولون لأهل النار: لِمَ أصبحتم من أصحاب السعير؟ ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ * فَأَعْرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠ - ١١].

اللهم أيقظنا قبل الموت.. ووقفنا أن نسمع القول فتتبع أحسنه.. وأن نعقل أوامرنا ونواهيك ومواعظك، وأن نعمل بذلك.. لنصل إلى درجة الإيمان والإنسانية.. ولنحشر مع الطيبين.

الثرثرة في الكلام من عدم العفة

إذا ما وجدت العفة في شخصية إنسان ما، فإنك تجدها واضحة في كل تصرفاته وسلوكه، وإلا فإن الحيوانية المفترسة تسيطر على جميع شؤونه، وإحدى فروع العفة هي العفة في الكلام.. إن هناك علامة فارقة عندما تراها في بعض الناس، وهي كثرة الكلام القبيح، فاعلم أن العفة معدومة في مثل هذا الشخص، والإنسان الذي يؤدي الناس بكلامه ولسانه، فاعلم بأنه ساقط من درجة الإنسانية.. وإنه عديم الخجل من يجرح الآخرين بلسانه.

السيدة زينب عليها السلام عندما وردت إلى مجلس (ابن زياد) كانت تتخفى بين النساء. لأنها كانت تعلم أن ابن الحرام هذا سوف يتناولها بلسانه البذيء، وسيشتم بها، ويفحش في القول، وإياه وللألم المحض الذي سيطر على قلب السيدة زينب عليها السلام حينما تساءل (ابن زياد) من هذه المرأة؟! يكرّر ذلك ثلاث مرات، حتى قالت جارية: إنها زينب أخت الحسين. فقال: الحمد لله الذي فضحككم، وأكذب أجدوثكم.

«٣٢»

«وحرّم الشرك إخلاصاً له بالربوبية»

الشرك أكبر الذنوب الكبيرة

وبعد أن أوضحت السيدة الزهراء عليها السلام مقداراً من علل الشرائع والأحكام وأسرارها، ختمت هذا القسم من خطبتها بأكبر الذنوب الكبيرة، وهو أصل لكلّ الذنوب، وأصل الدعوة الإسلامية لمحاربتة، بل جميع الأديان والرسل تحركوا حول هذا المحور بهدف أن تترك البشرية هذا الذنب العظيم، حيث تتحقق سعادة كلّ إنسان يكون خلّواً من الشرك، ويكون شقيماً كل من يُبتلى بذلك، وذلك هو (الشرك بالله).

أكدت الروايات الكثيرة على أنّ الشرك هو أكبر الذنوب الكبيرة وفي رواية أخرى أنّ هناك سبعة ذنوب قاتلة أولها: الشرك. وأكد القرآن الكريم على حرمة هذا الذنب الكبير بشكل قلّ نظيره، وهو ذنب لا يُغتفر، وليس له علاج، حيث وردت أكثر من مائة آية في القرآن الكريم في ذمّ المشركين والشرك وعواقبهما الوخيمة.. وسأذكر هنا ثلاثة نماذج لتتضح أهمية هذا الموضوع.

الجنة حرام على المشرك ولا يُغفر له

إنّ الله ذكر تحريم الجنة على المشرك دون تخصيص، وإنما بشكل عام: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَهُ النَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، والأكثر من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾

[الأعراف: ٤٠]، وفي مكان آخر قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨].. ويقول عزّ شأنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨].

وإذا مات الإنسان وهو مشرك فإنه يُحشر يوم القيامة أعمى.. والجنة ليست مكاناً للمشرك إلا بتركه، ومن الممكن أن يعفو الله ويتجاوز عن بقية الذنوب التي ليس لها منشأ من التكبر والجبروت، بل من الهوى، ولو مات الإنسان دون توبة فلعلّ الله يعفو عنه، وهذا حتماً يرتبط بمن أراد الله أن يعفو عنه، ولكنّ الشرك لا يُغْتَفَرُ.. إنّ القرآن إذا نزل على جبل فإنه يخشع ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

ولكنّي لا أعلم لِمَ لا تهزّ هذه الآيات الناس، ولا تدفعهم للتدبّر والتأمل والتفكير.

دعاء: أن لا أموت مُشركاً

قبل ما يزيد على عشرين عاماً كان هناك أحد رجال العلم الكبار من الأتقياء الصالحاء الزاهدين.. كان مثلاً للعلم والتقوى.. كان يقول: إنّ لي حاجة واحدة عند الله، وهي أن لا أموت مشركاً.

ولم ألقِ بالاً وأهمية حينها لهذا القول.. ولكنّي الآن فهمت كم كان ذلك الرجل عظيماً، وموحّداً حقيقياً بمعنى الكلمة، حيث أثر فيه هذا المعنى.. وقد نقل قصة مفادها أنّ أحد أصدقائه سافر إلى (مكة) أو إلى (العتبات المقدسة) فسأله هل لك من حاجة؟ فقال: إذا كنت تريد أن تقضي لي حاجة فأرجوك أن تتوسّل إلى الله أن لا أموت مشركاً.. بل أموت وأنا على التوحيد، لأنّ أساس النجاة هو في كلمة «لا إله إلا الله».

إنّ الشرك ليس قابلاً للشفاعة، وقد ذكرنا في كتاب (القلب السليم) آيات كثيرة حول الشرك.

يجب أن لا يكون الإنسان مشركاً في أي وقت

﴿قُلْ تَكَاوَلُوا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

يقولون في الأدب إنّ النكرة في سياق النفي يفيد العموم، والنكرة يعني أن لا يكون فيك ولا ذرة صغيرة، ولا أي مرتبة من مراتب الشرك، وأنت تكون من الهالكين إذا اعتقدت أنّ نعمة مهما صغرت هي من فضل مخلوق، وإذا اعتقدت أنها من غير الله فإنك تكون مشركاً.. ومهما كنت محمواً، ثم ذهبت إلى الطبيب، وأعطاك دواء ثم شربته، فإذا اعتقدت أنّ شفاءك كان نتيجة مستقلة للطبيب، والدواء فقد أشركت لأن الشفاء من الله فهو الشافي والطبيب والدواء إنما هما من أسباب الشفاء.

الربوبية من خصوصيات الخالق

وتقول السيدة الزهراء عليها السلام: «وحرّم الله الشرك إخلاصاً له بالربوبية» إنّ الله نهى عن الشرك وحرّمه من أجل أن يكون البشر موحدين لله، ويؤمنوا بأن صفات الربوبية منحصرة بالله.

ما هي الربوبية؟ هي الخلق.. فهو الخالق، وهو الرب.. كما أنّ أصل خلق البشر منه هو عزّ شأنه، وأنه هو العليم الخبير بكل أمور هذا الإنسان، فإنّ الله هو ربّه، وليس غيره، ليس الأب ولا الأم، ولا الصديق أصحاب القدرة.. وإنما هو الله.. وليس هناك من ربّ غير الله، حتى أنت لست ربّ نفسك.. لا تقل أحياناً قلّمي، فهناك من يقول: أنا الذي كبرت فلاناً، لم يكن يملك شيئاً فأعطيته كل ما يملك الآن.. فهذه دعاوى الربوبية بحيث يجعل الإنسان نفسه شريكاً لله في أعماله. الشرك في الربوبية أن يجعل الإنسان من نفسه شريكاً لله في تربية الإنسان.. والمنهي عنه والمحرم هو أن يجعل الإنسان من نفسه شريكاً لله.

ماذا تفعل يد القدرة من التراب؟

منذ البداية أخرج من هذه الأرض ومن هذا التراب بيد قدرته الزرع والحبوب.. وحين أكل الإنسان مما أنبتت هذه الأرض وهضمت معدته الطعام تكونت النطفة، ووضعت يد القدرة تلك النطفة في الرحم: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢]، هذه القطرة التي تدخل الرحم يجب أن تبقى هناك محفوظة مستقرّة، وإلاّ فإنها مثل البول الخارج من الجسم، فإنّ هذه القطرة يجب أن تخرج من البدن.

من أجل أن تستقرّ النطفة داخل الرحم، جعلت القدرة الإلهية في الرحم قوة جاذبة.. ولولا هذه القوة الجاذبة لكانت النطفة تلقى ثم تخرج، ولكنها يجب أن تستقرّ عدة أشهر في مكانها، وبعد مرور أربعين يوماً نتحوّل تلك النطفة إلى علقة، ثم مضغة، ثم عظاماً، وعند ذلك وفي هذه الظلمات الثلاث.. وفي هذا العمل.. يتمّ ظهور بقية الأعضاء: العين، والسمع، وجهاز الهضم، الكبد، الكليتين، القلب.. وهي كلها تدلّ على قدرة الله في تكوين جسد الإنسان، إنّ كلّ إنسان يتأمّل في معاني هذه الأشياء الموجودة فيه، فسوف يصل إلى الإيمان الذي لا تشوبه شائبة بأنها كلها من الله.

في هذا المكان المظلم (الرحم، والبطن والمشيمة). كيف يتمّ صنع وتصوير هذه الأشياء بكلّ تلك الدقة والجمال.. ويكون كلّ شيء في مكانه الطبيعي، فلو كانت العين فوق الرأس فهل يكون ذلك جميلاً؟

الخالق وتهيئة حليب الأطفال

الله أكبر، إنّ الطفل عندما يولد تكون معدته غير مستعدّة لاستقبال الغذاء والأطعمة المركبة.. فهذه المعدة لا تستطيع أن تهضم الحنطة والأرز وبقية الحبوب.. لكن الله منحه ألطف غذاء وأخفه وهو الحليب.. ولكن من أين يجري هذا الحليب، ليربط هذا الطفل بالعطف؟ إنه يجري من قلب أمه.. من

الذي أودع هذا الحليب في ثدي الأم؟ حتى أن حلمة الثدي خلقها الله بشكل إن خرجت إلى الأمام فسوف يستطيع الطفل أن يأخذ من أمه الحليب.. ولكن كيف إذا ضغط أو مصّ هذه الحلمة يندفع الحليب إلى فمه، وإن لم يفعل ذلك ينقطع جريان الحليب؟

قالوا إن سقاءً أجاب على هذا السؤال: كيف عرفت ربك؟ قال: إن هذه القربة التي ليس فيها ثقب سوى هذا الثقب.. وأنا أشدّه بإحكام وقوة، ولكنني عندما أسير في الطريق يبدأ الماء بالخروج قطرات قطرات.. ولكن مجرى البول عندي لا يخرج منه البول قطرة قطرة.. وذلك هو الله الذي خلقني بهذا الإحكام.

لا تنس شؤون الخالق

إلى أي حدّ على الإنسان أن يكون خاضعاً لله خاشعاً، وكم عليه أن يكون محبباً.. وكم عليه أن يفهم القدرة اللامتناهية لله.. ويعلم حكمته..

والخلاصة هي أنك كلما كبرت، فلا بدّ أن تعلم أكثر وتتربّي أكثر.. لا أن تتخيّل أن أباك هو الذي أنماك، أو أمك هي التي فعلت ذلك، فالأصل منه.. هو الذي أجرى الحليب في بدنك، وهو الذي يقدر نمو بدنك..

إنّ الأب والأم هما وسيلة ليجري في عروقك الحليب الذي وهبه الله لك.. وجعل أمك وسيلة لتحافظ عليك.. ومع كلّ هذا تقول: (أنا) فعلت كذا وكذا.. استغفر الله العظيم.. من أن يجعل الإنسان نفسه شريكاً لله.. إنه من الشرك أن تقول: فعلت كذا وكذا.. أنت نفسك من أين أتيت؟ ومن الذي نمّاك؟ ومن الذي أوصلك إلى الرشد؟ ومن الذي أعطاك هذه القوى البدنية؟ إنّ الإخلاص في الربوبية واجب من البداية حتى الآن.. وهذا الواجب يشمل كلّ مسلم معتقد بالله «لا رب لي سواه».. ويجب على الإنسان أن لا يعتقد أنّ أحداً ولياً لنعمته غير الله، لا هو ولا الآخرين.

المأكل والملبس كلّها تعود لله

أيها الإنسان، إنّ طعامك من (الله) فهو الذي أخرج لك من الأرض والتراب عنباً حلواً.. من الحامض إلى الحلو. وعندما ينضج يُصبح لك غذاء.. وبعد كلّ ذلك إذا اعتقدت أنّ ذلك ليس من الله.. فإنك عديم الشعور والفهم والإدراك.. منكرّاً للفضل والنعمة.. إنّ ما يحفظ لبدنك الاستمرارية في الحياة، ويقوّيه إنما هو من خلق الله وتربيته.. وهو من إرادة الله وفضله أن يبقى في بدنك ما يوجب تقويته من الطعام، أما الذي لا ينفع فإنه يخرج منه على شكل بول وغائط، وما تلبسه فهو منه، سواء كان قطناً أو صوفاً.. وفي نهاية المطاف عليك أن تحاسب نفسك هل هناك شيء ليس من الله.. ذكاء ذلك الخياط.. ویده من الله وقدرته وقوته من الله.. والفرش الذي تجلس عليه لمن هو؟ لا تقل: اشتريته.. لا تكن مدّعياً للربوبية إلى هذا الحد.. وإذا كان الفرش مصنوعاً من الصوف الذي خلقه الله.. هذا الصوف إذا أردت أن تحوكه ليكون فرشاً فإنّ الأيدي التي تحوكه هي من صنع الله.. وإذا كنت تملك مالاً فعليك أن تقول إنّ ذلك لا يكون إلا أن يشاء الله: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣] ﴿وَالِلَّهِ اللَّهُ رُجْعُ الْأُمُورُ﴾ [البقرة: ٢١٠] و﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣].

ويكفي أن نعلم من شؤون الربوبية أننا يجب أن نتوب مما نعتقد أنه متنا أو من مخلوق مثلنا، أنّ كلّ شيء يحصل عليه الإنسان فهو من الله، وكلّ شرٍ يتعد عن الإنسان فهو من الله، وإذا كانت عقيدتنا غير ذلك فالخراب حليفنا.. والويل لك إن اعتقدت أو آمنت أنّ الخير إنما يصل إليك بفضل مخلوق مثلك.. إنّ دفع الضرر والحصول على النفع هما من الله سبحانه وتعالى.

فقرات من دعاء في ذكر النعم

عندما تقرأ دعاء (أبي حمزة الشمالي) عليك أن تدقق في معانيه خاصة في الفقرات التالية:

«سيدي أنا الصغير الذي ربّيته، وأنا الجاهل الذي علّمته، وأنا الضالّ الذي هديته، وأنا الوضع الذي رفعته، وأنا الخائف الذي آمنته، والجائع الذي أشبعته، والعطشان الذي أرويته، والعارى الذي كسوته، والفقير الذي أغنيته، والضعيف الذي قوّيته، والدليل الذي أعزّزته، والسقيم الذي شفّيته»^(١).

«ثمّ أخرجتني للذي سبق لي من الهدى إلى الدنيا تامّاً سوياً، وحفظتني في المهد صبيّاً، ورزقتني من الغذاء لبناً مريّاً، وعظفت عليّ قلوبَ الحواصن، وكفّلتني الأمهاتِ الرّواحم»^(٢).

إلهي كما أعزّزتني عندما كنتُ طفلاً ذليلاً، فهل ستعزّزني عندما أخرج من هذه الدنيا وأرد عالم البرزخ أم لا؟ هل ستدعني وحيداً، أم ستجعل لي رفاقاً من أرواح المؤمنين وملائكة الرحمة؟ «إلهي لم يزل بركٌ عليّ أيام حياتي، فلا تزل بركٌ عني بعد مماتي».

إلهي لقد أحسنت إليّ وأعزّزتني في حياتي، وقد اعتدت على نعمك فلا تحرمني نعمك بعد مماتي.

إذا أراد الله أن يعزّز أحداً هناك، فإنه يوفّقه للقاء الإمام الحسين عليه السلام ويجعله مصداقاً للآية المباركة: ﴿فَادْخُلِي فِي عِزِّي * وَأَدْخِلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩ - ٣٠].

* * *

(١) مفاتيح الجنان للقمي: دعاء أبي حمزة الثمالي.

(٢) مفاتيح الجنان للقمي: من دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة.

« فاتقوا الله حقّ تقاته، ولا تموتنّ إلا وأنتم مسلمون.
وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه ﴿ إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ »

ذكرنا أن خطبة السيدة الزهراء عليها السلام احتوت على مجموعة من العلوم الإلهية، وهي من العلوم اللدنية: ﴿الَّذِينَ رَحِمَهُ مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: 65] حيث كان والدها عليه السلام قد علّمها من علمه.. ولذلك ورد عن أهل البيت عليهم السلام الوصية بالاهتمام بهذه الخطبة.. وورد الأمر بتدريسها والانتفاع مما فيها من علوم.

الانحراف عن الإسلام الحقيقي

من جملة ما أمرت به هذه الآية القرآنية المتقدمة هو تربيته المسلمين إلى ضرورة اتباع أوامر الرسول عليه السلام.. وكأنها كانت تتحدث عن حال المسلمين بعد وفاة الرسول عليه السلام.. فأولئك الذين غفلوا عن الإسلام الحقيقي.. إنما وقعوا في الانحراف.. وسقطوا في أحضان حبّ الرئاسة والدينا.. فقد أخذت كل فرقة تنصبّ منها من يترأس المسلمين بعد الرسول عليه السلام فاجتمعوا في (سقيفة بني ساعدة) وارتفعت هناك الأصوات والمشاجرات.

حتى أن (سعد بن عباد) كاد أن يُداس بالأقدام لو لم يُنقذه قومه، من أجل أي شيء؟ من أجل الرئاسة.. قال الأنصار: منّا الأمير.. وكذلك قال

المهاجرون.. وهذا هو الانحراف الحقيقي عن الإسلام وطريقته.. إنه الارتداد..
ولذلك تلت فاطمة السيدة الزهراء عليها السلام هذه الآية، فكيف حدث ذلك مع أن
رسول الله صلى الله عليه وآله قد مات توأماً؟

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٠٢] توجد في القرآن الكريم
التوصية بالتقوى في أكثر من مائة آية.. التقوى التي أوصت بها كل الأديان
الإلهية.

فالدين يعني التقوى، والإسلام يعني التقوى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ ءَاتُوا ءَلْكِتَابَ
مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٢١]. إن الأنبياء من آدم عليه السلام حتى
نبينا محمد صلى الله عليه وآله كلهم حملوا الدعوة للتقوى.. والسعادة والصراط المستقيم.. إن
التقوى طريق الجنة.. والجنة لأهل التقوى: ﴿وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُنْفِقِينَ﴾ [الشعراء:
٩٠].

افهم حقيقة التقوى

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] بعد أن يصل الإنسان إلى مرحلة
التعقل والإدراك يجب أن يرى نفسه مخلوقاً مرزوقاً عبداً لله، ويمسك بأزمة
نفسه من أن تتهور فترى أنها شريكة لله، ويتصور أنه حرّ مطلق يفعل ما يشاء،
فهذا الاستقلال إنما هو خلاف التقوى وهو خلاف وظائف العبودية لله،
وليعلم أن كل ما عنده هو من الله.

إذاً فلا هو مستقل ولا الآخرين.. والمتقي هو الذي لا توجد فيه صفات
الجبروت والتفرعن.. وليست فيه الأنانية.. ولا يرى في نفسه أنه مستقل عن
الذات الإلهية المقدسة، أما ما يخالف التقوى.. فهو كل أمر يخالف العبودية
لله، وكل شر يصدر منه.. لقد قلت مراراً إن المرء يشرك في اليوم أحياناً مائة
مرة، وينحرف عن الصراط المستقيم. كيف تخلى المسلمون في الصدر الأول
للإسلام عن طريق العبودية لله والتقوى. لقد تصور أن صلاح الأمة في إبعاد
أمير المؤمنين علي عليه السلام عن الخلافة بحجة أن المنافقين يبغضون علياً عليه السلام

وسوف لن يطيعوه.. والشيء الآخر الذي دعاهم إلى ذلك التصرف هو قولهم:
نحن الذين ضحينا من أجل الإسلام، ولذلك فلا بد أن يكون الخليفة منّا.

أنت عبد، أم مستقل وصاحب رأي؟ حتى تقول رأيك هكذا.. وهذا هو
الاستقلال، والذي يستطيع أن يفعله العبد أمام مولاه.. هل يعطي رأيه.. هل
أنت عبد أم حُرٌّ؟ إن كنت عبداً فعليك بالطاعة.. هل تلهث وراء الرئاسة أم وراء
الآخرة؟ التقوى تعني أن يُصلح الإنسان آخرته.

قال الأنصار إذا كان الخليفة منّا فسوف نريح، وكذلك قال المهاجرون..
إنّ الدين والتقوى والطريق والأسلوب الذي علّمه الله والرسول ﷺ للبشر ليس
كذلك.. فعلى الإنسان أن يرى نفسه دائماً أنه مخلوق مرزوق.. وعليه أن يعتقد
أنّ نجاته من كلّ مشكلة أو ورطة إنما هي بفضل الله، وإياه أن يعتقد أنها من
غير الله.. حتى يقول: إنها بتدبيرى.

لا تموتوا إلا على الإسلام

«ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» عليكم الاستمرار بإسلامكم، وعندما تصل
ساعة موتكم، تموتون وأنتم مسلمون.. فلعلّ الإنسان يموت فجأة بالسكّنة
القلبية.. أو تدهسه سيارة فيموت.

ومعنى لا تموتن إلا وأنتم مسلمون.. هو ما ذكرناه في البداية في كلمة
واحدة هي: التقوى. وقد أوصى الأنبياء جميعهم أبناءهم مثل إبراهيم
ويعقوب ﷺ أن لا تصل ساعة موتهم وهم في شقاق وبُعد عن الله سبحانه
وتعالى، وحذروهم من الموت على غير الإسلام.. لقد بكى إبراهيم وبكى
يعقوب ﷺ وهما يتحدثان مع أبنائهما أن موتوا وأنتم مسلمون: ﴿وَوَصَّى بِهَا
إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ آم﴾
[البقرة: 132].

ما هو الإسلام؟ إنه ببساطة يعني أن لا تكون في حرب مع الله.. فأحياناً
يموت الإنسان وهو في حال المعصية لله، أي يكون في حالة حرب مع الله،

وعليك أن تستمرّ بهذا السلم مع الله، حتى إذا جاءك الموت تموت مسلماً.. وهذا هو روح وحقيقة الإسلام: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٩].

ويقول النبي إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

وعلى الجميع أن يكونوا كذلك، فيموتوا وهم مسلمون.. يموتوا وهم في سلم مع الله، والسلم مع الله يُصاحبه عادة السلم مع الخلق.. وهذا أقلّ الدرجات.. حيث يحدث أحياناً أن يكون الإنسان في حرب مع الله، ويكون حينها في حرب مع عباد الله أيضاً.

المسلم من سلم المسلمون منه

لقد سمعتم الرواية المشهورة حيث تقول: «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه»^(١).

الإسلام: من السلم والسلامة.. والمسلم يجب ألا يكون مصدراً وسبباً لشكوى أيّ إنسان منه، وكن على يقين أنّ إنساناً ما قد تألم وتأذى من لسانك أو يدك فإنّك حينها لست بمسلم.. لأنك لا تحمل السلم والسلامة للآخرين.. ولأنك مؤذٍ لخلق الله وعباده.

ولا بأس هنا بأن أنقل حديثين وردا عن السيدة الزهراء عليها السلام نقلتهما عن أبيها الرسول ﷺ دون واسطة.

جاء في الرواية أنّ السيدة الزهراء عليها السلام حينما أرادت هذين الحديثين قالت لفضّة: هاتيهما. قالت فضّة: لا أجد لهما أثراً. فتألّمت السيدة الزهراء عليها السلام وأمرت فضّة بالبحث عنهما.. فوجدتهما وهذان الحديثان هما:

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج١٦، ص١٣٢ باب الرفق بالوالدين.

المؤمن لا يؤذي الجار

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليؤمن جاره بوائقه» أي أن المؤمن لا يؤذي جاره، وأن يكون جاره، في أمين منه، أما إذا كنت تؤذي جارك بلسانك وتصرفاتك، فأبيّ إسلام تحمل؟

وإذا كان الإنسان في حرب مع عباد الله، فإنه مع الله في حرب كذلك.. وإذا كان في سلمٍ مع عباد الله، فهو مع الله في سلم كذلك.

والحديث الثاني: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليسكت» وهذا منعٌ عن قول الشرّ.. نحن آيسون منك.. أو إما أن يمدح المرء المؤمن، أو أن يسكت فلا يغتاب ولا يتهم.. وعلى المرء أن يسيطر على نفسه كي لا تكون لأحدٍ شكوى ضده، وإلاّ فإنه خارج عن الإسلام.

وما أريد قوله هو وجوب الاستمرار على الإسلام، وأن يكون الإنسان في سلم مع الله وخلقه، وقد سمعنا أنّ هناك من مات وهو في حالة تخاصم ونزاع.

لا اعتراض لنا على الموت

على المرء أن يتوسّل إلى الله ويدعوه، اللهم بحرمة محمد وآل محمد ﷺ اجعلنا على الجادة المستقيمة، أي على الإسلام حتى آخر عمرنا.. وأن يكون حالنا حال السلم مع الله.. يوم أمس ذكر شخص اسم أحد الأموات قائلاً: مسكين فلان كانت عاقبته سيئة، فقد مات بالسكتة قبل ثلاثة أيام، ولم يردّ لسانه كلمة: لا إله إلا الله.. فقلت: ما يدريك فلعلّ قلبه كان مع ربه ثم مات، ولا أحد يعلم بذلك، فلعله مات وهو على الإسلام. والميزان هو حال الإنسان، وهو أن يكون في سلم مع الله.. لا أن يكون عابداً لهواه.. بل عليه عندما يقترب الموت منه أن يرى نفسه عبداً لله.. وأن يعلم أنّ الذي جاء به سيأخذه ﴿وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: 65] لا اعتراض في حال الموت.. وعلى

المرء أن يتدمّر وهو يعاني من سكرات الموت، لأنه إن اعترض على ذلك فإنه يكون ضد الإسلام.

لا ندري كيف سنكون في الساعات الأخيرة من أعمارنا، هل نموت ونحن مسلمون للحق، أم نموت ونحن متدمّرون لا قدر الله؟. إنّ الغفلة من الأخطار على الإنسان أن يتوجه بها إلى الله ليحميه منها.

هذه الآية التي تلتها السيدة الزهراء عليها السلام وقد قرأتها لكم على أمل أن نستوعبها بتفكيرنا.. اللهم أعنا كي نكون من المسلمين، وأن نكون من المتقين دائماً، وأقلّ عثرتنا، ووقفنا للتوبة، وأعدنا إلى الصراط المستقيم.

أدعية السيدة الزهراء عليها السلام عند الموت

وبمناسبة الحديث عن آخر ساعة من حياة السيدة الزهراء عليها السلام أقول: إنّ السيدة الزهراء عليها السلام عندما كانت في (بيت الأحزان) وهي في حالة الاحتضار ووجهت نظرها نحو القبلة، ثم أخذت بالسلام أولاً على أبيها رسول الله صلى الله عليه وآله فقالت: السلام على أبي، ثم على جبرائيل وميكائيل وملك الموت، ثم عمّها حمزة وجعفر، ثم ردّدت ثلاث كلمات: «اللهم إلى جوارك، اللهم إلى دارك، اللهم مع رسولك».. إنّ السيدة الزهراء عليها السلام تظهر شوقها إلى جوار الرحمة الإلهية، وأن تكون مع رسول الله صلى الله عليه وآله.

وأتمنّى أن نكون نحن كذلك، لا أن نكون مستغرقين بالتفكير الدنيوي والخيالات والأوهام، فانظر أيها الإنسان كيف تقضي عمرك، فإذا كنت قد صرفته في هواك فإنك ساعة الموت تكون كذلك، لقد قضت السيدة الزهراء عليها السلام عمراً قصيراً، ولكنه كان مليئاً بذكر الله والرسول والآخرة فكانت آخر ساعاتها كذلك.

حبّ آل محمد طريق النجاة

إنّ الإنسان عندما يحاسب نفسه، يصل به الأمر إلى حالة من اليأس بالفوز

والنجاه، ولكنه عندما يتذكر حب آل البيت عليهم السلام فإنَّ آماله تنتعش، لقد قال ابن عباس البالغ من العمر تسعين عاماً وكان يُعرف بحبر الأمة، حين جاءه الموت: «اللهم آل محمد عليهم السلام اللهم علي بن أبي طالب عليه السلام».

وفي رواية منقولة، إنَّ السيدة الزهراء عليها السلام عندما تستقر في الجنة يأتيها النداء يقول: أطلبي ما تريدين أعطيك. فتقول: حاجتي أن لا تحرق من أحبتي وأحبّ ذريّتي.. فيصل النداء: أقسمت بعزّتي وجلالي بألّفي عام قبل الخلق أن لا أحرق من أحبّك بالنار.

تقوى كلّ شخص تتناسب مع عقله وعلمه

لقد تکرّر القول إنَّ التقوى بمعنى اجتناب المعصية و(حق تقاته) بمعنى اجتناب مخالفة أمر الله ونهيه كما يستحقّه.. وهي تختلف باختلاف مراتب ودرجات معرفة الأشخاص.. فالناس ليسوا سواء.. وهناك تفاوت في عقول الناس، وكلما كان عقله أكمل كلما كان تكليفه وحسابه أصعب.

إنَّ على كلّ شخص أن يراعي هذا المعنى وهو (حق تقاته) بما يملكه من عقل وعلم. إنَّ أكثر البشر معرفتهم بالله معرفة إجمالية عامة، وهم مسلمون بشكل عام، ويعلمون أنّ هناك خالقاً رازقاً مدبراً، وأنَّ خالقهم أمرهم بأشياء ونهاهم عن أشياء وأنَّ القرآن كلامه، وهذا هو أقل حدّ العقل والإيمان والإسلام والتقوى. إذأ فعلى المرء أن يتجنّب ارتكاب المعاصي وهي موجبة لغضب الله وسخطه، ولأنَّ الإنسان يخشى النار فإنه يتجنّب أن تصدر منه المعصية التي تؤدي به إلى جهنم، إنَّ الإنسان الذي يؤمن بشكل عام ويتقي الله بهذا المقدار فإنه يتجنب المعاصي بمقداره، يقول عزّ وجلّ: ﴿فَأَقْوَا لِلَّهِ مَا اسْتَطَقْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

تلك التقوى التي هي في حدود استطاعتك يجب عليك أن توفرها في نفسك بالصورة التي تليق بك.. والمرتبة التي هي أقل من ذلك يجب توفرها لدى كل المسلمين، وهي ترك المعصية، وهي أي شيء يؤدي بك إلى النار،

وعلى هذا الأساس فإنك حينما تعتقد بأن (الجنة حق والنار حق) فإنّ الحدّ الأدنى من التقوى وهي في تناول الجميع يجب أن تتوفر في جميع البشر.

مقام الحضور وإدراك الحق

كلّما تسامى العقل والإدراك، فإنّ أداء معنى (حق تقاته) يرتفع أيضاً حتى يصل إلى المرتبة العليا من المعرفة، حيث تصاحبها أعلى مرتبة من التقوى، إنّ قلب المؤمن يستضيء بالنور يوماً بعد يوم، ويزداد علمه يوماً بعد آخر، حتى يصل به الأمر إلى أن يحظى بمقام الحضور، أي يطمئن تماماً إلى أنّ الله معه دائماً.

في البداية لا يحصل الإنسان على هذه المرتبة من العلم، لكنه يحصل على ذلك بالتدريج: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ [الحديد: ٤]. ويحصل عنده اليقين أنّ كلّ ما عنده في الدنيا هو من عند الله، وأنّ كلّ فعل من أفعاله إنما هو مما أعطاه الله بقدرته وتوفيقه، سواء كان يمشي، أو يتكلّم أو يعطي الآخرين. فهو يعلم ويؤمن أنّ كلّ شؤونه وما يملكه.. إنما جاء بها ليس من عند نفسه، وعند ذاك يفهم معنى (دائم الربوبية) أي أنّ الله إذا تركه لحظة واحدة لنفسه فإنه يتحوّل إلى لا شيء، والتقوى هي هذه، أي أن لا يغفل الإنسان ولو لحظة واحدة عن الله جالساً كان أو واقفاً، ماشياً أو نائماً، فهو في كل الحالات والأوضاع في ذكر دائم لله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٩١].

لا ينبغي أن تتسرّب الغفلة إلى نفسه.. أن ينفي الغفلة والأعمال المخالفة للعبودية بالشكل الذي ينسجم مع كونه عبداً مخلوقاً.. ولا ينسى هذا الأمر، والخلاصة أنّ هذه المرتبة من التقوى هي من نصيب من يحملون تلك الدرجة من العلم.

تذكّر الدرجات العالية تُذهب الغرور

﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] إنّ ترك الذنب من خصوصيات

المرحلة الأدنى التي ترتبط بالجميع حتى تصل إلى تلك المرحلة التي يُعدّ أصحابها بعدد الأصابع وهي المرحلة العليا، حيث تكون التقوى هناك دوام الذكر حتى يصل الأمر إلى الإيمان بأنه هو نفسه وكل موجود آخر ليس مستقلاً بنفسه، ويتنقّر من الأنانية والاستقلال حتى أنه ليعتقد أنه هو نفسه وكل مخلوق آخر لا يمكن أن يكون له تأثير مستقلّ. نكتفي هنا بإيضاح معنى التقوى ونتوجه الآن لإيضاح معنى الإسلام.

أنا وأنتم نسعى مثلاً للوصول إلى المرحلة الأولى من التقوى والمعرفة الناقصة، ونحذر من مخالفة الأوامر وارتكاب النواهي الإلهية، نعرف الدرجة العالية ونحذر من الغرور، وعلى الأغلب، فإنّ هذه الدرجات العالية تُذكر من أجل أن لا يصيبنا الغرور. أرجو الله أن تزداد معرفتنا، وأن ترتفع تقوانا إلى الدرجات العالية.

المسلم هو الذي يُسلّم لحكم الله

إنّ للإسلام مراتب، بسيطة وعالية، أما المرتبة البسيطة للإسلام فهي توحيد الله: (لا إله إلا الله)، ومحمد رسول الله وخاتم الأنبياء، وإنّ القرآن كتاب سماوي، ويُسلّم بأحكام هذا الدين، الأحكام التي لا شك في كونها إسلامية، مثل: الصلاة والصوم.. ويترك المحرمات التي ورد النهي الصريح عنها في القرآن.. هذا هو المسلم الذي تكون مرتبته هي المرتبة الأساسية، خصوصاً وأنّ المسلم هو الذي يُسلّم للحكم.

بعد الإسلام نحو تحصيل الإيمان

وبعد ذلك فإنّ الواجب هو عدم الاكتفاء بهذا، بل يجب تحصيل الإيمان أيضاً، أي أن يحصل الخشوع القلبي عند الإنسان تجاه خالقه، وليس فقط باللسان، بل لا بد من أن يجد بقلبه الطريق مفتوحاً بينه وبين الله، وأن يخضع ويخشع قلبه للرسول والإمام، وأن تكون له رغبة بالجنة وثواب الله.

الإيمان يعني خشوع القلب من أجل الحق، إنَّ ما تقوله من: (أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ الجنَّة حق والنار حق) إنما هو إسلام، ولكن الإيمان هو أن تتحسَّس ذلك بقلبك، فمثلاً وفيما يتعلَّق الأمر بالآخرة يجب أن يكون الأمر كما تقوله من أنَّ الحساب حق، والميزان حق، ولا بدَّ من أن يحيط قلبك الاضطراب من وصول ساعة الحساب.. أي حساب الآخرين وحسابك.

وأنت عندما تقول: والميزان حق. هل تعني ميزان الآخرين، أم ميزانك؟ عليك أن تؤمن بأنك غداً سوف تحاسب عند الميزان.. وهذا يؤدي إلى سريان الخشوع إلى قلبك.. ومن آثار ذلك أن يدخل الاضطراب والويل لي إذا كانت حسناتي قليلة: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٣].

عندما تقول: الميزان حق. فإنك مسلم، ولكنك تصير مؤمناً عندما تضطرب، وتذكر هذه الحقيقة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَأَيُّهُ لَأَرْبَبٌ فِيهَا﴾ [غافر: ٥٩] فإذا أخذ الخشوع بمجامع قلبك فأنت مؤمن.

يُروى عن الإمام علي المرتضى عليه السلام أنه كان «إذا ذكر الجنة والنار اضطرب اضطراب السليم» لقد كان قلبه عليه السلام خاشعاً للحق.. نسأل الله أن يكون في قلبنا إيماناً يزيده الله.

وحسب الروايات الواردة، إنَّ الإنسان أحياناً عندما يسير على الصراط حتى يصل قرب باب الجنة يسقط.. وهناك رواية أنَّ المرء يسير خمسين عاماً حتى يقترب من الجنة، ولكنه يكون في نهاية الأمر من أصحاب جهنم، إنَّ الإنسان لا يعلم ماذا سيكون في الآخرة؟ هل يستقيم على الحق؟ وهل يُطهر هناك مما تلوث به في دنياه؟

ميل القلب والإيمان

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا﴾ [النساء: ١٣٦] يقول البعض: إنَّ كلمة (آمنوا) الأولى تعني أسلموا، ولتخشع قلوبكم للحق.. إنَّ اسم (حوض الكوثر) عندما يذكر كلنا يتمنى أن يكون ممن يشرب منه فيروى.

لكن أمام أولئك المتعلقين بالدنيا، تذكر تلك الأشياء مثلاً إن فلاناً اشترى أرضاً قيمة المتر الواحد تومانياً واحداً، وأصبح سعره الآن عشرة آلاف تومان. وسوف يقول هؤلاء: هنيئاً لفلان على هذا الربح، ويا ليت لنا مثل ما حصل عليه فلان.. ولكن إذا قالوا لك: إن فلاناً وفقه الله لكي ينفق نصف ماله في سبيل الله. فإنك تتأوه وتتمنى أن يكون هذا التوفيق والخير من نصيبك أيضاً. إن للإيمان أثره الواضح وهو الخشوع في القلب.

طموح الغلام الأسود يوم عاشوراء

في يوم عاشوراء كان هناك غلام أسود شاهد رؤيا عجيبة، حيث كان يرى بساطاً ينتقل بالشهداء إلى الجنة واحداً بعد الآخر.. فأخذ يفكر أمن الممكن له وهو الغلام الأسود أن يستشهد في طريق الإمام الحسين عليه السلام ليحصل على تلك الرحمة.. إن القتل في سبيل الله يحتاج إلى مقام عالٍ.. ولقد ذكر الله الجنة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ نَمَّ رَأَيْتَ نَعِيماً وَمَلَكاً كَبِيراً﴾ [الإنسان: ٢٠] ولذلك فقد ذهب إلى الإمام الحسين عليه السلام وقال: (إنَّ حسبي لثيم وريحتي نتن ولوني أسود) هذا هو الإيمان.. أي أن قلبه خضع من أجل الجنة، وأنَّ الإنسان يسير نحو ما يميل إليه قلبه.

«اللهم أسألك إيماناً تباشر به قلبي، و يقيناً صادقاً حتى أعلم أنه لن يصيبني إلا ما كتبت لي».

ولم يكن عبثاً حين استشهد هذا الغلام أن يترك أثراً أليماً جداً في قلب الإمام الحسين عليه السلام.. إنَّ أيَّ إنسان يكون خشوعه أكثر فإنَّ الله يرعاه أكثر، وأخيراً فإنَّ الإمام الحسين عليه السلام حضر عند ذلك الشهيد.. هل يمكن أن نكحل أنظارنا ساعة موتنا برؤية الإمام الحسين عليه السلام؟ لقد دعا الإمام الحسين عليه السلام للغلام الشهيد: «اللهم بيض وجهه، وطيب ريحه، وعرف بينه وبين محمد عليه السلام».

«٣٤»

«فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»

لقد عرضنا فيما تقدم خلاصة البحث في معنى الإسلام، وهو قبل الإيمان: القبول بالشهادتين واتباع القرآن، والقبول بالأحكام الضرورية للإسلام.

لا إيمان دون خشوع

الإيمان هو المرتبة التي تلي الإسلام في السير التكاملي، وهو عبارة عن الخشوع لله بالقلب، ما دام يعتقد أن (لا إله إلا الله) فإن قلبه يخشع لله، فالإنسان الذي يعتقد بالقيامة فلا بد إذاً من أن يؤمن بيوم القيامة ويخشع لذلك قلبه متمنياً الجنة، إن طلب الجنة هو غير الاعتقاد بها، والاعتقاد بأصلها وهو الإسلام، ولكن طلب الفرار من النار ممكن مع الإيمان.

إذاً فالإيمان عبارة عن خشوع القلب لأنه مملوء بالاعتقاد.. وبتعبير آخر فإنه يكون طالباً للسعادة، ويكون ذلك عن طريق طلب واتباع ما يأمر به الإيمان.

وهذا هو نفس ما جاء في الآية الكريمة: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ ءَأَمْنَا قُل لَّمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ١٤].

ومع أن الكثير من المسلمين يدعون الإسلام، ولكنهم لغاية الآن لم يصلوا إلى درجة الإيمان، أي أنهم بدرجة الإسلام الاعتقادي، فهم حقيقة يعتقدون بأن القرآن والآخرة حق، ولكنهم ليسوا مؤمنين.. أي أن القلب غير خاشع لما آمن به من الحق.

التسليم للحق

ومما تقدم يتضح أنّ الإيمان هو الدرجة الكاملة للإسلام.. وأنه هو أصل الدين وروحه، بمعنى التسليم للحق.

إنّ الإسلام يعني أن يفهم الإنسان فهماً حقيقياً كونه عبداً مخلوقاً هو وكل الكائنات: ﴿إِنَّ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، وإنّ كل شيء في هذا الوجود من أعظم شخص وجد في هذا العالم وحتى أبسط الأشياء إنهم جميعاً عبيد لله، وإنّ هذه المخلوقات جميعها لا تملك لنفسها شيئاً، وإنما الأمر كلّه بيد الله (لا إله إلا الله) يعطي ويأخذ هو الخالق والمميت، والمنجي هو وحده فقط.

الوصول إلى السعادة بتوفيقه.. والوصول إلى الشقاء الأبدي بخذلانه.

وهذا هو ما تؤكده الآية: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾ [لقمان: ٢٢].. التسليم إلى وجه الحق.. والمراد من الوجه هو القلب والذات، فكل من يُسَلِّم ذاته وكل شيء في وجوده إلى الله، فقد استمسك بالعروة الوثقى، وهذا هو الدين الإلهي منذ أول الخليقة وإلى الآن، وهذا هو دين الأنبياء: إبراهيم ونوح وموسى وعيسى ﷺ ومحمد ﷺ.. ولذلك فإنّ كلّ دين يقوم على الحق يقال له: (إسلام) وهذه التسمية موجودة منذ البداية.. وليس الإسلام اسم قد تعارف عليه الناس بعد بعثة الرسول محمد ﷺ. كما يؤكد ذلك القرآن الكريم: ﴿هُوَ سَمَنُكُمْ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨].

إنّ أول من أطلق اسم (الإسلام) على دين الله هو النبي إبراهيم ﷺ حيث يقول: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨].

ولم يكن النبي إبراهيم ﷺ نصرانياً ولا يهودياً: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَتْ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

فالجميع يجب أن يكونوا مسلمين، أي يسلموا لله: ﴿وَلَهُ اسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [آل عمران: ٨٣].

وكما أنّ عالم الوجود قد أسلم لله، يجب على البشر أن يسلموا لله طواعية، فقد دعا جميع الأنبياء البشر إلى التسليم للحق.

الجميع يسلمون لله تكوينياً

يا بني آدم دعوا الأنانية وعبادة الذات جانباً، إنّ النزاعات والتخاصم الناشئة من حب الدنيا ليست من صفات المسلمين. فتعالوا لتكونوا مسلمين حقيقيين.. أي أن تسلموا للحق مثلما سلّم الله ما في السماوات والأرض تكوينياً، وها أنتم ترون هذه الكرة الأرضية، هل تقف عن حركتها لحظة واحدة؟ أم هل تخرج عن مدارها الذي عيّنه الله لها؟

وهذه المنظومة الشمسية: الشمس والقمر وبقية الكواكب الأخرى هل خرجت ولو للحظة واحدة عن مدارها المقرّر لها.. وكذلك الموجودات المخلوقة على هذه الكرة الأرضية لا تتخلف عن ما خلقت لأجله.

فهل يمكن أن تثمر بذور الحنطة بطيحاً.. أو أنها لا تثمر مع توقّف جميع الظروف والشروط اللازمة؟

إنّ كلّ موجود منقاد تكوينياً لما خلق له.. فيا أيها الإنسان عليك أنت أيضاً أن تكون منقاداً في أفعالك الاختيارية، لله، إنّ بدنك تكوينياً طوع إرادته.. ومعدتك بأمر منه تهضم الطعام الواصل إليها من البلعوم.

ويعد جهاز الهضم فإنّ أيّ واحد من أعضاء البدن الأخرى لا تتخلف عن أداء وظائفها المعيّنة لها.

أيها الإنسان كن في أعمالك مسلماً لله، فالمهم في التسليم أن يكون طواعية ورغبة إنسانية، وما أريد قوله أنّ الإسلام بالمعنى الأخص هو التسليم لله بعد قبول الأحكام، والإسلام هو التسليم لله في كل الأعمال، والرضا بالقضاء والقدر.. وتعلق الأمل كلّّه بالله.. فهذا هو الإسلام.

دعاء الأنبياء ووصاياهم هي الإسلام الحقيقي

إذا أردت أن تكون سعيداً وتكون عاقبتك على خير.. فعليك أن تموت على الإسلام، هذا الدين الإلهي والتسليم للحق مع حالة العبودية لله كان مهماً إلى درجة أن الأنبياء ﷺ كانوا يتمنون، وهذا ما وصل إلينا عبر أدعيتهم.

ومن الأنبياء إبراهيم ويعقوب ﷺ فقد أوصيا أبناءهما، كما قص ذلك القرآن في الآية الكريمة: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ آمَنُ﴾ [البقرة: 132] وابتعدوا عن التجبر والاعتراض والغضب، وموتوا على الإسلام.

وفي آخر سورة يوسف ﷺ وبعد ذكر قصته ووصوله إلى السلطة وجهازها، دعا الله بعد أن ذكر ما أنعم الله به عليه فقال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: 101]. إنه هنا يتمنى أن يكون مسلماً للحق حين اقترب أجله، ولذلك فقد كان العظماء الأتقياء يخشون عواقب الأمور.. ويخشون أن يتخللوا في آخر عمرهم عن الالتجاء إلى الله، ويموتوا على الكفر..

فقدان الدين عند الموت

نقل أحد المراجع الكبار أنه كان حاضراً إلى جانب أحد الذين قضوا عمرهم في خدمة الإسلام.. وفي ساعة الاحتضار قال ذلك الشخص - ونعوذ بالله -: إذا أراد الله أن يميتني، فقد جنى عليّ أكبر جناية، خصوصاً وأن لي عائلة كبيرة ستبقى دون معيل.. كما أنّ أعمالِي الفلانية ستبقى معطلة!! إنّ كلّ تلك الأقوال إنما تدلّ على فقدان ذلك الشخص لإسلامه.. والآن فإنّ عليك أيها الإنسان أن تموت مسلماً مع التسليم للحق.

فهل أنت من تدير عائلتك؟ إنّ الله ربّ الجميع ومدبّر الجميع.. وأنت من الذي دبّرك وأدارك، والذي تراه ليس سوى كونك واسطة.. وعندما تموت

فسيهئ الله معيلاً آخر: وكل ما تتصوره أنت إنما هي تخيلات شيطانية حيث تقول: إذا متّ فمن لهؤلاء الأطفال.. هذه الاعتراضات إنما تدلّ على عدم الإسلام.

ويا ليت الأمر يقف عند حدّ فقدان الإسلام.. لكن ذلك يتطور بعض الأحيان عند الإنسان، فيصل إلى حدّ ظهور النزعة الربوبية، حيث يعمل الإنسان خلاف المصلحة الإلهية بحجة العمل الإصلاحي.. إنه يقرأ ويتعلّم.. ولكنه لا يجد في نفسه الإسلام الصحيح، إنّ الإسلام لا يتوقف على الدرس.. بل لا بدّ من جهاد النفس عمراً، فلعل الإنسان يجد إنسانيته.. فيسلم لله.. ويعلم أنه غير قادر على إنجاز أيّ عمل ما لم يشأ الله ذلك. حتى نومك ليس بإرادتك.. شيخوختك وشبابك، الصحة والمرض، الغنى والفقر، كلّها ليست طوع أمرك.. يجب أن يفهم الإنسان هذه الأمور، إنّ تكرار كلمة: أنا فعلت، أنا فعلت. ليست نتيجتها سوى سوء عاقبة البشر، فمن يقول ذلك يضع نفسه في موضع الله، وآخرته تكون معلومة، حيث لا يتحقّق الدعاء: «توفّني مسلماً».

لا أترك أهلي عند غير الله

والمقال الجيد على ذلك، هو ما نقل عن أحد العارفين حيث إنه مرض، فجاءه (الحكم) بعوده في مرضه، فعلم من حالته أنه سيموت، فقال للعارف: إنني لا أستطيع أن أعمل لك شيئاً سوى أن تُودعَ عندي عائلتك، فاجعني وصيك عليهم. فقال ذلك العارف الكبير: إنني أخجل من ربي أن أودع عائلتي عند غيره. ثم تلا الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَّهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٣].

إنّ الذي يسلم للحق لن يكون مستعدّاً في أيّ وقت من الأوقات أن يتمسك بالمخلوق، لأنه يرى المخلوق مستخراً للعمل.

إنّ بعض الناس - حين يصيبهم مرض الموت - يتوسلون بالطبيب.. وهذا ليس تسليماً للحق، ففي بعض الأوقات ينسى الإنسان هذا الأمر، وهو نوع من

الابتلاء أيضاً. وإذا دخل روعك الخوف في نهاية المطاف فقل دائماً: «توفني مسلماً» ولكن ليس فقط أن تقرأ، ولكن ادع الله مخلصاً بالأدعية التي كان يقرؤها الأنبياء إبراهيم ويعقوب ويوسف وغيرهم من الأنبياء عليهم السلام.

والإمام الحسين عليه السلام أيضاً أودع عياله عند الله

إن الإمام الحسين عليه السلام في آخر وداع له عندما تعلقت به النسوة والأطفال وهم يقولون ماذا نعمل، والقوم قد أحاطوا بنا. قال: «الله خليفتي عليكم» الله سيحميكم، ولولا الحماية الإلهية فهل كان هؤلاء الأشرار سيتعقّفون عن قتل النساء والأطفال والأبرياء؟ هذه الحماية الإلهية هي التي أدت إلى أن لا يقتلوا الإمام علي بن الحسين عليه السلام.

* * *

«٣٥»

«اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ»

جاء ذكر هذه الجملة «لا تموتن إلا وأنتم مسلمون» في عدّة أماكن من القرآن الكريم، إنّ ميزان السعادة والشقاوة للإنسان هي ساعاته الأخيرة، فمن الممكن أن يقضي عمره في خدمة الإسلام، ولكن في نهاية المطاف يموت دون إيمان والعياذ بالله، ويجب أن لا يصل وقت موتكم إلا وأنتم مسلمون.. كما ذكرنا من قبل.

طريق العاقبة الحسنة في القرآن

ماذا يجب أن نفعل لكي نحصل على الاطمئنان بحسن العاقبة، فهل ذكر القرآن الطريق إلى ذلك؟ نعم في القرآن الكريم يقول عزّ شأنه إنّ عاقبة الأمور بيد الله: ﴿وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

إذاً فالطريق إلى ذلك هو التسليم لله.. التسليم بالقلب والروح وأمالك وأمنياتك الباطنية كلّها تسليم لله.. وأن تدع أنانيتك جانباً، وتكون عبداً لله تماماً، وتتعلّم طريقة العبودية لله وأسلوبها طوال عمرك.. وأن تحسن في أعمالك، فقد وصف القرآن المحسنين بأنهم ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ [البقرة:

[٤]، وعندما تريد أن تفعل خيراً.. فهو إحسان إذا فعلته وأنت على يقين بالله واليوم الآخر: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك»^(١).

العبادة مع اليقين تصدر من المحسنين

ليس في سريرة المحسن شك ولا ريب ولا وسوسة شيطان، لأنه يعلم أنّ المعاملة مع الله، وأنّ عبادته البدنية وما ينفقه من مال يأخذها الله منه ﴿وَيَأْخُذْ أَلصَّدَقَاتِ﴾ [التوبة: ١٠٤] ومن هنا فإن الإمام السجاد عليه السلام كان يقبل يده عندما كان ينفق المال في سبيل المال، وكان يردّد أنّ الله يأخذ الصدقات.

إنّ الظاهر هو أنها يد الفقير، ولكنها في الواقع يد اللطف والعناية الإلهية التي توفقتنا.

وعندما يكون الإنفاق عملاً صالحاً فإنه يكون على يقين بأنه يعطي لله وليس العمل الصالح أن يعطي لما يتخيّله من أوهام.

إنّ الناس يعطون المال في سبيل الله من الناحية الإسمية، ولكنه عمل ليس في سبيل الله، بل إنه من نتائج الهوى.. إنّ كلّ عبادة بدنية أو مالية إذا كان الإنسان أثناء أدائها حاضر القلب مع اليقين بالله فإنه يكون محسناً، ويكون قد أسلم وجهه، فمثل هذا الشخص الذي أسلم وجهه لله.. ليس في نفسه أيّ أنانية ولا طمع ولا هوى في العمل، وإنما السلم لله والقضاء والقدر، وكلّما يعطي.. وأينما يؤخذ فإنه يعمل صالحاً كما في الآية: ﴿فَقَدِ اسْتَمَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ [البقرة: ٢٥٦].

مثل هذا الشخص يموت على الإسلام، وإذا كان عمله وسلوكه على هذا المنوال فإنّ الله لن يضيع أجره: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة: ١٤٣]. إنه لمن الصعب جداً إلاّ أن يُعين الله الإنسان ليكون مسلماً له.. لأنّ هوى

(١) الكافي للكليني: ج ٢، باب الخوف والرجاء.

الإنسان ورغباته النفسية لا تدعه، وهي تقف أمامه كالسد العظيم بين الإنسان وبين ربه، وما يراه الإنسان أحياناً صالحاً من الأمور ومناسباً ومع أنّ الله لا يراه كذلك: ﴿وَعَسَى أَنْ تَحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦].

اختلاف الدعاء والحكم

لقد تعرّض (الشيخ النوري) في آخر كتاب (دار السلام) إلى جملة لطيفة فهو يقول: إنّ الكثير من المؤمنين يدعون، وأكثرهم متضرّرون. ولذلك فإنّ دعاءهم في الحقيقة حكمٌ وليس دعاء، فالدعاء هو إظهار العجز، أما هذا الشخص فإنه يحكم حين يقول: لا بدّ أن ترزقني المال يا الله، وهو يتصوّر أنه يدعو الله بهذه الطريقة.. وهذا دون شك شيء مذموم، والإنسان عندما يحكم على خالقه، فإنّ ذلك يعني أنه يقول: اللهم إني أفهم الصلاح من الأمور أفضل.. كأن يشفى المريض هذا المساء.. وإذا لم يحصل ذلك فإنه يعترض ويقول: لماذا لم يحصل الأمر الفلاني.. مع أنني قرأت (زيارة عاشوراء) ودعوت الله؟ متى دعوت فلم يستجب ربك؟ إنك تمدّ رجليك إلى أبعد من غطائك.. وتجاوزت طريق العبودية، إنّ المولى هو الذي يعرف الصلاح وليس العبد.

اللهم إني عاجز فأعني بفضلك.. إنّ لي إليك حاجة، وأنت تعلم الصلاح: «ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة لك فيها رضى، ولي فيها صلاح إلا قضيتها».

وإذا لم ترّ لي فيها صلاح فليس لي أن أقول شيئاً، اللهم ارحمني واغفر لي، وهذا يجب أن يتجسّد فيه حال الدعاء وليس الحكم.. وهذا المعنى دقيق جداً.. حتى الإنسان يشتهه أحياناً.. ومن هنا فعلى الإنسان أن يصل إلى المقام العالي لكي يُسلم لربه.

ما تحكم به أطيعه

يقال إن شخصاً رأى عبداً لأحد الشخصيات المرموقة، وكان الهواء بارداً وليس على العبد ملابس شتوية.. ولاحظ ذلك الشخص إنَّ العبد يرتجف من البرد، فسأله: لماذا لا ترتدي الملابس الشتوية؟ فقال: ليس عندي ملابس شتوية. فقال: ألم يشتري لك مولاك. فقال: لا. قال: لماذا لا تقول له شيئاً؟ فقال: إنه يرى.. أي إنه يعلم أمري، فإن أعطى أعطى، وإن لم يعطِ أصبر.

والخلاصة فإنَّ العبودية تتنافى مع الحكم، والدعاء يعني إظهار العجز والطلب إلى الله، وهذا أيضاً بعد موافقته وإجازته: ﴿أَدْعُوهُ اسْتَجِبْ لَهُ﴾ [غافر: ٦٠] ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

إنَّ على رأس المسلمين المحسنين الأنوار الطيبة الطاهرة لآل محمد ﷺ ولا بدَّ هنا من ذكر كلمة عن عبودية السيدة الزهراء ﷺ وإحسانها.

ورد في وصف النبي ﷺ للزهراء ﷺ في عبادتها، أنها عندما كانت تقف في محرابها للعبادة، كان النور ينبعث منها إلى السماء مثل نور النجوم لأهل الأرض، فيباهي الله الملائكة بعبادتها، وكان بدنها يرتجف من خشية الله.

إنَّ هذه العبادة هي التي جعلتها عندما حضرته الوفاة تقول: «اللهم إلى جوارك، اللهم مع رسولك» ثم سلامها على أرواح عمَّها وجبرائيل وميكائيل.. وكيف أنها سترد المحشر غداً مع الوفار والهيبة وسيأتي اثنا عشر ألف ملك لاستقبالها.. واثنا عشر ألف حورية لخدمتها، جبرائيل عن يمينها وميكائيل عن يسارها، وينادي منا في أهل المحشر: يا أهل المحشر غَضُّوا أَبْصَارَكُمْ.. وأبشركم وأنا أنقل هذه الرواية أنَّ الله يقول: اشهدوا يا ملائكتي أنني غفرت لشيعتي ومحبي الزهراء ﷺ.

إنَّ قلوبنا تطمئن وآمالنا تتعلق بأمل نيل الشفاعة، وأن تكون عواقب أمورنا خيراً بفضل محبتنا لأهل البيت ﷺ تذكروا تلك الساعة التي وضع فيها أمير المؤمنين علي ﷺ جسدها الشريف في القبر.. بكى وانحدرت دموعه وأنشد:

نفسي على زفرتها محبوسة ياليتها خرجت مع الزفرات
لا خير بعدك في الحياة وإنما أبكي مخافة أن تطول حياتي
لا يرى أن له على الله حقاً

لقد سألت واحداً أو اثنين حول معنى الجملة السابقة، وهي القول بأن الدعاء يجب أن يكون دعاء وليس حكماً حينما يطلب الإنسان حاجته.. وكان سؤالهم: إن الأمر إذا كان كذلك (أي أنه إذا كان حكماً) فإن الإنسان بعد أن يخرج من الدعاء يستحق الخذلان، فما معنى أن لا يكون الدعاء حكماً؟

حال الدعاء، هو أن يرى الإنسان نفسه فقيراً مطلقاً، وأنه لا شيء في الأصل، فهو لا يملك ذاته، ولا صفاته، ولا أفعاله، وأن كل ما لديه من وجود إنما هو من الله وفضله، لا أن يرى أن له حقاً على الله.. بل أنه لا يرى أنه شيئاً، فكيف يصل الأمر ليتصور أن له حقاً على الله. وعندما يقول: يا الله اقض لي تلك الحاجة.. لا أن يقول إنني أرى الصلاح في أن يكون الأمر الفلاني، ويجب أن يكون الأمر كذلك، فهذا هو الحكم.

الدعاء معناه هو أن يرى الإنسان نفسه عاجزاً، بعجزٍ مطلق وجهل مطلق، حتى أنه لو لم يرد الأمر بالدعاء لما دعا، ولكن لأن المولى نفسه أمر بالدعاء فإنه يدعو الله ومع إظهار تمام العجز والضعف.

الدعاء عبادة

لا تقل إن كل ما هو صالح يحدث، فالدعاء عبادة جاء الأمر بها.. وعلامة ما تقوله إن كان دعاءً أو حكماً، هو حالك بعد ذلك.. فإذا أعطاك الله حاجتك فإن شكرك وتواضعك لله يزداد، وإذا كانت حالتك باتجاه التجبر والسخط فإنه كان حكماً، أو إذا لم يستجب دعاؤه فإن غفلته تتعاضم وتزداد.. فترك باب بيت الله، أو يزداد غروره وكبره، ومن كل هذا يعلم أن ما قاله كان حكماً، وإلا فإن كان دعاءً فإنه يظهر العجز والخجل أكثر.

وإذا لم يعط حاجته.. فإذا اعترض في قلبه وجرى ذلك أحياناً على لسانه.. نعم لقد صلينا (صلاة جعفر) وقرأنا (زيارة عاشوراء) ولكن لم يحدث ما نريد، فلأنه لم يدع بل حكم، ولكن إذا لم يحصل على ما طلب، فإنه لا يعترض، بل يقول إن المولى لم يرّ الصلاح فيما طلبت، ولا بد من وجود مصلحة في عدم تحقيق ما طلبت، ولا يعترض بقلبه فهذا هو الدعاء، فهو يعرف نفسه بالعجز والجهل، والله بالغنى والحكمة.

«وامثالاً لأمره» يدعو الله ليس من أجل أن يعين الصلاح من الأمور.

الردّة عن الإسلام الحقيقي وليس الظاهري

في بحث الردّة بعد وفاة الرسول محمد ﷺ قلنا إن الارتداد لم يكن ظاهرياً، بل كان الارتداد عن الإيمان والتسليم لدين الله الحق، وإلاّ فما هو الإيمان؟ إنه عبارة عن الخشوع والخضوع لله واليوم الآخر.

إنّ على المسلم أن يقوّ ويوثق إيمانه بالله وبالآخرة.. وأن يكون دائماً في سعي حثيث في نيل رضى الله عزّ وجلّ، وأن يتعد عن غضبه وسخطه.

بعد رحلة الرسول الأكرم ﷺ توجهت الأذهان كلّها نحو الإمساك بالرئاسة والسلطة والمال والجاه، إنّ الصلوات الخمس بقيت على حالها، ولكنهم اجتمعوا في (السقيفة) ليختاروا لأنفسهم حاكماً يستطيعون من خلاله تحقيق مصالحهم.

نموذج من التفكير بالآخرة في زمان النبي ﷺ

ما دام النبي ﷺ في الحياة، كان البكاء والتضرّع طلباً للآخرة موجوداً لدى المسلمين، فما الذي جرى؟ ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ [الحج: ١]، وجاء في تفسير هذه الآية أنها نزلت في السفر، وتلا النبي الآية فوصلت إلى كل الأسماع.. ولم يستطع أحد النوم إلى الصباح،

وكانوا كلهم قد باتوا ليلتهم وهم في بكاء خوفاً من القيامة وزلزلة الساعة.. ودخل هذا الاضطراب القلبي على الجميع.

وبعد أن انتقل الرسول ﷺ من هذه الدنيا، سلب القلق النوم من المهاجرين، خوفاً من أن يتقدم عليهم الأنصار: الأوس والخزرج.. فيكونوا حكاماً عليهم.. وكذلك كان شعور الأنصار، فأين ذهب الإيمان؟ إن القلب الذي هو محل الإيمان، قد امتلأ بحب الدنيا: «حب الدنيا رأس كل خطيئة».

الجنة للذين لا يريدون علواً

﴿يَلَاكُ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

إن كل مسلم يريد علواً في الأرض، فهو في الآخرة من الخاسرين.. إنه يريد أن يعمل عملاً ليكون أعلى من الآخرين.. أن يكون رئيس الرؤساء.. رئيس المحلة.. إذا كان من أهل الفساد فلا نصيب له من نعيم الآخرة، فالإسلام الحقيقي هو: ﴿وَلَا تُمُونَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢] أي خاشعون.

سبب تلاوة الآية من قبل السيدة الزهراء عليها السلام: ﴿يَتَأَيَّأُ الَّذِينَ ءَامَنُوا أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تُمُونَنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢].

بعد أن أوضحنا فيما سبق معنى الآية، نريد الآن أن نتعرف على السبب الذي دعا السيدة الزهراء عليها السلام لتتلو هذه الآية في ذلك الاجتماع للمهاجرين والأنصار. إن السبب في ذلك هو أن تجعل المسلمين يُدركون أنهم قد تراجعوا عن الإسلام.. وأداروا أعناقهم عن التقوى، مع أنهم أمروا أن يكونوا على تقوى دائماً ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

فالمسلمون يجب أن يستمرّوا على إسلامهم، بحيث إذا وصلت لحظة موتهم كانوا مسلمين أتقياء، مسلمين لله، وإذا وصلت لحظة الموت أثناء لحظة

من الهوى وعبادة الذات والوقوف ضد الحق، فإنه يكون قد خرج من ربة الإسلام.. أي أنه يموت وهو غير مسلم للحق.

ماذا عمل المسلمون عملياً بعد وفاة الرسول الأكرم ﷺ لقد وضعوا التقوى جانباً، وتركوا الإسلام الحقيقي ومرتبته العالية (وليس الإسلام الظاهري).

إن الواجب على المسلم أن يتبع ما يرضي الله وليس هواه، ولا الحكومة والرئاسة والمال والثروة.

اتقوا الله تعني اجتنبوا المعصية

وما دمنّا في آخر بحث من الخطبة فإننا لا بد أن نشير إلى المعنى المستفاد من هذه الآية فلعلها تنفع القارىء.

فهي في البداية تقول: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ ثم تقول: ﴿وَلَا تُؤْنَسُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقد وردت لفظة ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ كثيراً في القرآن.. وهي أمر من مادة: تقوى، وهي بحسب اللغة من مادة الوقاية بمعنى المحافظة والاجتناب من أي خطر. وعندما تُنسب إلى الله فهي بمعنى (اتقوا سخط الله وعذابه وقهره).

وعندما يُقال (التقوى من الله)، فهي بمعنى: عدم مخالفة أمر الله، بالخوف من عذاب الله وانتقامه وسخطه، ومن البعد من رحمة الله، وهذا معنى اتقوا الله، أي اجتنبوا عذاب الله.. ولذلك وبعد هذه الجملة يقول ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ﴾ أي نَقِّدُوا ما أمر به الله وابتعدوا عن ما نهاكم عنه.

دائم الربوبية يستحق أن يعبد دائماً

إنه لمن الصعب وليس سهلاً أن يتقي الإنسان ربه ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، بمعنى الحق كما يليق به من الاجتناب والمخالفة، لأن الله يستحق أن لا يخالف أمره وأن يطاع، وأن يتقى. ما هو حق الله في التقوى على العبد؟ هو مثلما أن الله

تعالى أعطاك القوة دائماً، وأنعم عليك دائماً وأعطاك الحياة، فإنّ من حقه عليك أن تكون له عبداً على الدوام.

وأوضح ذلك أكثر: إنّ جهاز الخلق كما قال عنه المتكلمون ليس مثل البناء والبناء، بل هو مثل الشمع وزيته، فالبناء يمكن أن يُشيد بالطين والطابوق والخشب، ثم يقوم البناء بذاته ولا حاجة إلى البناء بعد بنائه، أما الشمعة فهي بحاجة إلى النفط والزيت لحظة بلحظة حتى تضيء وإلاّ فإنها تبقى مُطفأة.

وهذا الضوء الذي تشاهده ينطفئ بمجرد انقطاع مروره من المصدر الرئيسي.. وهذا البرق ليس شيئاً ثابتاً ولا مستمراً، فهو إذا انقطع ولو لحظة واحدة فسوف يحلّ الظلام.. إنّ خلقة الإنسان هي من النوع الثاني وليس الأول.. فقد خلقت أيها الإنسان بشكل تستطيع معه الوقوف على قدميك، وحياتك التي أعطها الله الوهاب والمعطي لك تستمر إذا استمر عطاؤه.. وإلاّ فإنك تعود إلى العدم.

إنّ جميع ذرّات الوجود تعود في أصل حياتها إلى الله ويبد الله.. واستمرارها لحظة بلحظة بيد الله كذلك.

طاعة دون معصية، وذكر دون نسيان، وشكر دون كفر

نقل في (تفسير الميزان) عن (تفسير العياشي) أنّ شخصاً سأل الإمام الصادق عليه السلام عن معنى ﴿حَقُّ تَقَاتِهِ﴾.. فقال الإمام عليه السلام: «أن يُطاع ولا يُعصى، أن يذكر ولا يُنسى، أن يُشكر ولا يكفر».

الكلمة الأولى تعني الطاعة، حيث يجب على الإنسان أن يطيع ربه على الدوام، وإذا مرّت لحظة على الإنسان وهو على غير طاعة ربه فإنه لم يؤدّ حقه كما يجب.

والكلمة الثانية تعني.. أن الله عزّ شأنه لا ينساك ولو لحظة واحدة.. فإنه لو نسيتك فإنك تتحوّل إلى لا شيء، إلى العدم، وعليك أن لا تغفل عن ذكر الله

ولو للحظة واحدة.. وأن تراه حاضراً في كل ما تقوم به من عمل، عندما تتكلم عليك أن تعلم أنّ قدرة الله معك.. وعندما تنظر بعينيك كذلك.. إنّ العين ليست أكثر من عدسة، ترى بها الأجسام، عليك أن لا تنسى الله في كل ما تفعله.

والكلمة الثالثة.. هو الشكر دون كفر.. فبعض الأحيان يحصل أن يكون الإنسان في ليله ونهاره كافراً.. فإنه مثلاً يرتكب معصية إذا أظهر انزعاجه وكان الله لم يعطه شيئاً.. لقد أعطاه الله مئات الآلاف من النعم فينساها ولا يحسبها.. ولكنّ نعمة واحدة سُلبت منه، فلم لا ترى النعم الأخرى؟ كل هذه النعم التي أعطيت لك لماذا تنكرها.. مع أن نعم الله لا تحصى: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ [إبراهيم: ٣٤].

كل لحظة في معصية وكفران

تلك الحالات.. ليس فيها أي أثر للتقوى.. وما تسمعونه من أنّ فلاناً ذكر فلاناً.. هل تصورتم أنّ الذنوب هي فقط شرب الخمر والزنى، فهذه كبائر في محلها.. يقولون إنّ معدل نفس الإنسان في ٢٤ ساعة يصل إلى ٢١٥٠٠ نفس، وكل نفس من أنفاسه في كفران.. الإنسان الذي لا يعترف بنعمة الله عليه.. ولكن عندما تُسلب منه إحدى النعم فإنه يراها.

إنّ كفران النعمة من الذنوب الكبيرة، وقد ذكرنا ذلك في كتاب (الذنوب الكبيرة)، إذأ، حقّ تقاته هي كما قال الإمام الصادق عليه السلام «أن يطاع ولا يعصى، أن يذكر ولا ينسى، أن يشكر ولا يكفر».

البقاء على التسليم للحق

والأصعب من الجميع هو «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» حيث يجب البقاء على التسليم، وهو من حق التقوى إلى آخر لحظة من لحظات حياة الإنسان، أي إلى اللحظة التي ينقطع فيها نفس الإنسان، أن يموت وهو

مشغول بذكر الله، وأن يعلم أنّ المحيي هو الله، وأنه هو الذي أعطاه الحياة والروح، جاء بك إلى الدنيا، والآن يريد أن ينقلك إلى عالم آخر.

أيها المسلم لا تكوننّ في غفلة حين يأتيك الموت.. ولا تمت وأنت معترض على قضاء الله وقدره.. وأن تموت وأنت غير راضٍ وغير مُسَلِّم.. وأن تكون قد انحرفت عن صراط العبودية، فقد جاء التأكيد الكبير «ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون» وقد جاء في (مجمع البيان) أنّ الإمام الصادق عليه السلام كان يقرأ بتشديد اللام في مُسَلِّمون، كونوا مسلمين للحق عند نزع الروح.

آخر ساعات العمر والغفلة

جاء في (شرح الصحيفة السجادية) أنّ شخصاً حين وفاته كان يسأل: كم هو ثمن حمل الحطب هذه الأيام..؟ إنّ ذهن الإنسان وإحساسه ساعة الموت ينصرف إلى نفس المكان الذي كان يفكر به الإنسان أثناء حياته.

قبل عدة سنوات كان هناك شخص من أهل الجماعة.. وفي يوم من الأيام جاءني شخص فقال إنّ فلاناً يعاني من سكرات الموت.. وكان كلما يفيق نقترح عليه أن يوصي، فكان يطلب حضورك.. فذهبت وكان في إغماء.. فعاد إليه وعيه ولكنه لم يكن ينطق بحرف.. فقلنا بعون الله ينطق، فنطق قائلاً: متى ينتهي ملفي؟ أين كان ذهنه، فلا يسمع حرفاً مما يقال.

لقد قال تلك الكلمة، ثم خرس لسانه، وكان دون حواس، فخرجت من الدار وسرت عدّة أقدام، فجأؤوا خلفي مرة أخرى، وقالوا عد فالمريض قد مات.

إنّ هناك آية تقول: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] أي اتقوا الله بمقدار استطاعتكم ونحن نعينكم.. فإن صدر منكم ذنباً جهلاً فإنّ الله يعفو.. ولكن يجب أن تتقوا الله بمقدار ما تستطيعون.. إذاً يجب أن لا ننسى هذه الكلمات الثلاث التي ذكرناها نقلاً عن الإمام الصادق عليه السلام.

ينتبه قبل الموت

كان (الميرزا فضل الله الفيروز آبادي) وهو من الأفاضل المحترمين، قبل أربعين عاماً مدرساً في المدرسة الهاشمية بشيراز، وكانت إحدى خصائصه استمراره على قراءة المناجات الخمس عشرة في السحر، ثم يتهجّد ويصلي، ثم يقرأ القرآن.. ثم يُدرّس العلم.

وقد نقل عنه في آخر عمره، (السيد خلوصي) وهو صاحب دكان مجاور للمدرسة. فقال: إنّ الميرزا كان له معنا حساب، وكان دائماً يقترض.. ويسدّد ما اقترضه في رأس كل شهر، وكان أحياناً يسدّد حساب عدة شهور مرة واحدة.. وجاءني مرّة في وسط الشهر وسألني: كم أنا مدين لك؟ فقال له والدي: إنّ رأس الشهر لم يحلّ بعد. فقال: كلا، فاليوم آخر أيامي، ويجب أن أسدّد ما بذمتي. فقلنا نصبر حتى آخر الشهر، فلم يوافق، ففتحنا الدفتر وحسبنا ما بذمّته، فسدّد الدين، وطلب منا براءة الذمة، ثم ودّعنا وانصرف.

فقلنا: إلى أين أنت ذاهب؟ فقال: إلى سفر طويل. ثم ذهب إلى السوق فاشترى خبزاً وخسّاً وخلاً وعاد إلى بيته.. وعند أول الظهر أوصانا أن نصلي في أول الوقت لكي لا تفوتنا الصلاة في وقتها ولثلاث تصير قضاء.. ثم قال: تغدّوا..

فقالوا له: ما الخبر؟ فقال: ستقع حادثة.. فلم يفهموا ماذا كان يقصد الميرزا العظيم بقوله، وقال للجميع إنّ عندي سفراً طويلاً.. ثم أوصى.. ودخل إلى غرفته..

فلاحظوا أنّ الميرزا لم يخرج من غرفته.. فدخلوا فيها وشاهدوا سجادة الصلاة ما زالت مفروشة، والميرزا قد مدّد رجليه باتجاه القبلة ومات..

إنّ الشخص الذي انشغل طوال عمره بذكر الله سيموت وهو ذاكراً لله، والشخص الذي قضى عمره وهو خاضع لهواه ولا شأن له بعبادة الله ولا يرى نفسه عبداً لله، فإنه ساعة الموت يفارق الدنيا وهو محاطّ بالبلاء.

لا أعلم كيف أموت؟

لا تكن مغروراً أن يقال بعد موتك إنَّ المرحوم فلان.. فلعلنا نكون مبعوضين.. وكن على يقين أنك إذا كنت متعلقاً بالله فإنك تكون مورداً رحمته وعنايته منذ أول ساعة من ساعات الموت: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤]، وإذا كنت متعلقاً بهواك ورغباتك فإنك تكون ومنذ الساعات الأولى للموت معرضاً للمصائب والوحدة والخوف والمصيبة والوحشة.. وامصيبته! فأبى حياة سيحيا بعد الموت مثل هذا الإنسان.. مقطوع عن الله وعن الرسول وعن الإمام.. وإذا كان له من أنيس فهو الشيطان.. حيث يصبح ذلك الإنسان: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَسَّ الْقَرْيُنَ﴾ [الزخرف: ٣٨]. في هذه الحياة من كان رفيقك؟ ملك أو شيطان؟ خلال الأربع وعشرين ساعة من كان معك؟ ملك أم شيطان؟ وسيكون الأمر كذلك بعد الموت.

ولذلك فإن المرء عندما يفهم كل هذه الأمور يضطرب فيقول: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ والواقع أننا جميعاً لا نملك شيئاً وعاجزين.. لقد كان الإمام السجاد عليه السلام يدعو الله فيقول: «سبحانك نحن المضطرون الذين أوجبت إجابتهم وأهل السوء الذين وعدت الكشف عنهم»^(١)، وأنا كذلك ذلك العاجز الذي يدعو «أمن يجيب المضطر إذا دعاه» من هو أكثر مني عجزاً.. تحيط به النفس وأهواء الشيطان، وزخارف الدنيا، فلا أدري كيف سأموت؟

أو كما الشيخ، أخشى أن تكون ساعة موتي أسوأ ساعات حياتي.. وأن تكون غفلتي أكثر من بقية ساعات حياتي، وعند ذاك يقول الإمام زين العابدين عليه السلام: «يا مجيب المضطر أجب المضطر ونحن المضطرون».

كم من الأيام مرّت علينا ونحن فيها نرتكب المعاصي والذنوب.. ونحن لا نعلم إلا أن ننظر إلينا برحمتك اللهم، وتغسل عنا هذه الذنوب العظيمة.. وأن

(١) الصحيفة السجادية.

توقظ قلوبنا من الغفلة.. وأن تمنحنا الذكر فلا ننسى.. وتوفيق الطاعة التي ليس معها معصية.. وتوفيق الشكر الذي لا كفر معه.. إنّ الدعاء الجماعي له أثر كبير: «يا الله يا رب، يا أمان الخائفين».

اللهم يا أمان الخائفين.. اشملنا بلطفك وعطفك لنموت على الإسلام والتسليم، اللهم وذكّرنا بما دعاك به الإمام الحسين عليه السلام في آخر عمره «ما لي ربّ سواك» اللهم إنّ الإمام الحسين عليه السلام ليس له أحد غيرك: «ولا معبود لي غيرك».. لقد كان دائم الذكر حتى وهو محمول الرأس فوق الرمح.

* * *

«٣٦»

«إنما يخشى الله من عباده العلماء»

وبعد أن تلت السيدة الزهراء عليها السلام الآية الشريفة: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [البقرة: ١٣٢] وذكّرت المهاجرين والأنصار بأنهم تركوا التقوى مع أنّ القرآن والإسلام قد أمرا بالتقوى، وأنّ الأمر جاء باستمرار التسليم والإسلام، أما الرئاسة فـ«ملعون من ترأس»^(١)، وطلب الحكم فهو مذموم. وإنّ الحكومة لله ﴿إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام: ٥٧]، وإنّ الأحقّ بالحكم والخلافة هو من عينه الله فقط، لأنّ ذلك التعيين بأمرٍ من الله.

العلماء فقط يخافون الله

ثم تلت الآية الثانية لتنبّه المسلمين: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] وهنا لا بد أولاً من فهم معنى الآية الشريفة، ثم سبب تلاوة السيدة الزهراء عليها السلام لها.

أولاً يجب إدراك معنى (العلماء)، ثم (الخشية) التي هي من توابع ونتائج العلم.. أي إذا كان العلم موجوداً فإنّ الخشية موجودة أيضاً، والفرق بين الخوف والخشية واضح وبيّن.. فالعالم الذي يترك رغبات النفس وهوها، إنما يكون من أهل الخشية حينها.

(١) سفينة البحار للقمي: ج ١، ص ٤٩٢ أي ادعى الرئاسة بغير حق.

العلم بالله والآخرة وما يرتبط بهما

في إطلاقات القرآن وكلمات أهل البيت عليهم السلام عندما يعبرون عن العلماء، فإنّ المقصود هم العلماء بالله وأمره، فالعلم الأكبر متعلق باللغة والجغرافيا والفيزياء والأدب وغير ذلك، الشخص الفلاني رياضي، وآخر فلكي، لكن ليس أيّ من هذه العلوم هو المراد، بل المراد هو العلم بالله واليوم الآخر.

إنّ كلّ من يعرف أسماء الله وصفاته من خلال العقل والقرآن المجيد، ويعرف اليوم الآخر والمعاد كما بيّنه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم، فهو من العلماء، سواء كان محيطاً بالعلوم الأخرى أو لم يكن محيطاً.

فميزان العلم في الدين هو العلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالنبى والإمام ومعرفة الأحكام الإلهية، الواجبات والمحرمات، والخلاصة هي العلم بالقرآن، حيث يجب على كل مسلم أن يكون عالماً دينياً، وليس صحيحاً ما يتبادر إلى ذهن البعض عندما يُقال (علماء) أنها تعني المتخصّصين في علم الدين (ولو كان هذا الاصطلاح في محله).. فعلى كلّ مسلم ما وسعته طاقته أن يقرأ القرآن، وأن يكون من خلاله عارفاً بالمعاد والله والحكم.

أنظروا إلى تاريخ الإسلام.. فكلّ شخص يصبح مسلماً كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقول لأحد أصحابه: علمه شيئاً من القرآن.

إنّ في القرآن أكثر من (٧٥٠) باباً من أبواب المعرفة، والآيات التكوينية، وعلى كلّ مسلم أن يتدبّر فيها ليكون عارفاً بالله، وعلى أصحاب العقول أن يتدبّروا في آيات الله في السماوات والأرض ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَنْجَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَيَّنَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيْحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

وانظر إلى حكمة جرت في خلقها.. إنّ الإنسان ليحير في وصف أيّ قسم منها.

إنّ بعض أقسام الوجود جاء ذكرها في القرآن المجيد، أنظروا إلى هذه الحيوانات: ﴿وَإِنَّ لَكُم فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ [النحل: ٦٦] إنّ هذا الحليب الذي يشربه الإنسان إنما خرج من بين فرث ودم، وإنّ هذا الغذاء الذي يتناوله الحيوان يتحوّل قسم منه إلى حليب أبيض وبعضه إلى دم أحمر وبعضه الآخر إلى فرث عفن.. ولكن الحليب تلك المادة اللطيفة تخرج من بين العفونة والدم، وفي ذلك عبرة للإنسان - فكروا بنحل العسل والعنكبوت.

القرآن للتدبّر

يجب على المسلمين التدبّر: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء: ٨٢] وليست القراءة وحدها.

جاء في تفسير (مجمع البيان) وسائر التفاسير أنّ رسول الله حينما نزلت الآية الكريمة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ﴾ [البقرة: ١٦٤] قال: «ويل لمن لاكها بين لحييه ولم يتدبّرها».

إنّ القراءة للقرآن جيدة ومطلوبة وفيها ثواب أيضاً، ولكن لا أن تتصوّر أنّ المقصود من التدبّر هو هذا فقط، أو يكفي ما تمّ التعارف عليه من ختم القرآن وقراءته عند قبور الموتى، ومع أنّ هذا فيه ثواب، لكن الهدف أعلى وأكبر من ذلك، فالقرآن نزل للأحياء وليس للأموات.

نور آية الكرسي في المقبرة

القرآن لك يا من لا زلت تعيش فوق هذه الأرض، قلت سابقاً إنّ من المستحسن أن يقرأ الإنسان القرآن وهو مخلص، ويهدي ثواب القراءة لأمواته.. ويقال: إذا قرأ المؤمن آية الكرسي في مقبرة فإنّ الله يغفر لكلّ أهل المقبرة.. ولكن من هو القارئ، ومن هم أهل المقبرة؟

في الرواية إنّ كلّ قبر يدخل إليه النور.. وكل من لم يفهم أصل آية الكرسي: «الحي القيوم» فإنه لم يفهم قيومية الله في الدنيا.

العلماء يتعلمون من القرآن

ما أريد قوله حول العلماء، إنّ أمة النبي محمد ﷺ عليهم أن يكونوا علماء، فالقرآن للعلم، فأحياناً يعلّمنا بالصفات الإلهية من خلال آية، ففي موضوع النوم مثلاً، هناك عدة آيات تتحدث عن النوم، وهذا ما يدعو إلى التدبّر والتفكّر، فعن طريقه يمكن معرفة أنّ الله قاهر وأنت المقهور.. وأنه المحيي بعد الموت، هل هناك من يستطيع أن لا ينام؟ إذاً فالإنسان مقهور.. فهناك من يسعى أن لا ينام، ولكنه لا يستطيع المقاومة ولا بد في النهاية أن يستسلم للنوم.. كما أنّ استيقاظك ليس باختيارك.. إنّ موتك وبعثك ليس بيدك أيها الإنسان.. وإنك تموت وتحيي متى ما شاء الله ذلك.

شهادة العلماء بعد شهادة الله وملائكته

إنّ أهل التوحيد هم الأشخاص الذين تيقنوا أنّ عالم الوجود المرئي وغير المرئي إنما هو رشفة من رشحات فيض الخالق العظيم، وهم يشهدون بوحدانيته، والشهادة لا بد أن تكون حتماً عن علم ويقين: «أشهد أن لا إله إلا الله» إنّ الله يشهد والملائكة وكذلك أهل العلم يشهدون بوحدانية الله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨].

وقد نقل في تفسير (مجمع البيان للطبرسي) في ذيل الآية، عن (غالب القطان) أنه قال: ذهبت إلى الكوفة للتجارة، وأخذت منزلاً قريباً من (سليمان الأعمش) وحضرت مجلسه، وفي الليلة التي كنت عازماً في نهارها على مغادرة الكوفة بقيت عند (الأعمش) وعندما حلّ السحر، نهض (الأعمش) للتهجد والعبادة، وتلا قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران: ١٨] ثم قال: (وأنا أشهد بما شهد الله به، وأستودع الله هذه الشهادة، وهي لي عند الله وديعة) وأخذ يكرر هذه العبارة عدة مرات.

فقلت في نفسي: لا بدّ أن (الأعمش) قد سمع شيئاً في هذا الأمر ودعاه، وبعد أن فرغنا من التهجد وصلاة الصبح، وحن وقت الوداع، قلت له: سمعتك تتلو آية (شهد الله) ثم تقول: أشهد بما شهد الله به.. فما عندك من العلم بها..؟ قال: بعد مرور عام سأخبرك. فأثبتت تاريخ تلك الليلة على باب داره وبقيت في الكوفة إلى عام، وما أن مرّ عام على ذلك التاريخ قلت له: يا أعمش لقد تمّ عام. قال: حدثني أبو وائل عن عبد الله قال، قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بصاحبها يوم القيامة، فيقول الله إنّ لعبي هذا عهداً عندي، وأنا أحقّ من وفي بالعهد، أدخلوا عبي هذا الجنة».

ويفهم من هذا الحديث أمران: الأمر الأول هو أنّ مسلمي الصدر الأول للإسلام كانوا يولون حديث النبي ﷺ وتعلّمه أهمية كبيرة حتى أنهم يبقون في الكوفة لمدة عام من أجل تعلّم الحديث، ولعل (الأعمش) أخّره إلى عام ليكون مستعدّاً أكثر لسماع الحديث.

وهناك علماء مثل العلامة المجلسي (رضوان الله عليه) قد تحملوا المشاقّ، فجمع الأحاديث النبوية، وأثبتها في كتاب، وهذه نعمة عظيمة وضعت تحت أيدينا بالمجان.. ثم لا نقدر هؤلاء ولا نعرف قيمة هذه النعمة.. وفي هذا خسران لنا وحرمان..

والمطلب الثاني فإنه يُفهم من هذا الحديث أهمية الشهادة بتوحيد الله، وفي المجلد ١٩ من كتاب (بحار الأنوار) وردت أحاديث كثيرة ويكفي أن ننقل رواية من (عيون أخبار الرضا عليه السلام)، عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه الكرام عليه السلام عن رسول الله ﷺ عن الله عز وجل قال: «لا إله إلا الله حصني، فمن دخل حصني آمن من عذابي».

الشهادة بالتوحيد عند تسليم الروح

العبد الترابي يصل عمله إلى حدّ الشهادة بوحدانية الله، ثم إنّ الله يتقبّل منه ذلك، وهذا مهم، حتى أنّ كلمة (لا إله إلا الله) أثقل من السماوات والأرض:

«لو وضعت السماوات والأرضون السبع في كفة، ووضع لا إله إلا الله في كفة أخرى؛ لرجحت بهن»^(١).. ويقول الشهيد الثاني في (شرح اللمعة الدمشقية): إن من تكون آخر كلمة يقولها قبل موته (لا إله إلا الله) وجبت له الجنة^(٢).

وهذا لا يمكن أيضاً إلا مع ولاية أهل البيت عليهم السلام.. وقبول ولاية أهل البيت غير ممكن إلا بالتخلي عن هوى النفس والخروج عن حب الذات والأنانية.

العالم الإلهي لا ينسجم مع هوى النفس

العلماء هم العارفون بالله وأسماء الله وصفاته، والإيمان بالقدرة اللامتناهية لله.. وبالعلم والحكمة اللامتناهية.. ومعرفته بعزته وغلبته وقهره.. حيث ورد في القرآن (١٩٩) اسماً من أسماء الله.

العلماء إذاً هم الذين يعرفون الله بتلك الصفات والأسماء، ويحصل عندهم اليقين بالميزان والصراف والجنة وجهنم والثواب والعقاب، والعلم بهذه المعارف والحقائق ليس أمراً سهلاً.. فعلاوة على ضرورة مراجعة القرآن بصورة مستمرة والتدبر والتفكير، فتجب أيضاً مجاهدة النفس ومخالفة الهوى.. وما دامت النفس مسيطرة؛ فإنّ تحصيل العلم غير ممكن.. إنّ فهم هذا المعنى مشكل، والعمل به أكثر صعوبة.

إنّ النفس والهوى يشكّلان حاجباً قوياً دون تحصيل العلم.. فمن الممكن أن يفهم الإنسان جيداً تفسير القرآن، ويستطيع إيضاح المعارف.. فيعطي ما سمعه وقرأه، أما العلم الداخلي الذي يضيء القلب.. فإنّ الإنسان ما دام مطيعاً لهواه عابداً لنفسه فإنّ ذلك لا يسمح له بتحصيل العلم.. ومن هنا فإنّ أعظم حجاب بين الإنسان وربّه هو هوى النفس وعبادة الذات.

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ١٩، ص ١٤.

(٢) الروضة البهية في اللمعة الدمشقية.

وقد كرّر سبحانه وتعالى في القرآن الكريم القول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

والمسلم الذي يتبع نفسه وهواه، ويعمل وفق رغباتها وطلباتها من قبيل: السعي وراء الثروة والشهرة، وطلب المكانة والجاه، وهي أمور ليست للأخرة.. فإنه لا يستطيع تحصيل العلم. لقد مرّ عليكم قبل هذا قصة المسلم الذي طلب من (سليمان الأعمش) أن يفسّر له معنى ذلك الحديث، فقال له: تعال بعد سنة. فلماذا طلب منه ذلك العابد الكبير أن يعود إليه بعد سنة؟ لعلّ حكمته في ذلك هو أن يذهب ذلك المسلم ليجاهد نفسه لمدة سنة، ويزيد في تمسّكه بتوحيده لله، وتزداد معرفته وعلمه، ويترك الرغبات الدنيوية الأخرى.

لكي يقوي رغبته بالعلم ليكون من أولي العلم، ومن أصحاب العلم أهل الشهادة.. فهؤلاء هم الذين يشهدون: «لا إله إلا الله العزيز الحكيم» وإلا فإنّ كلّ ما هو موجود إنّما هو ظنّ واحتمال، وليس علماً. وسيكون فيلسوفاً من الدرجة الأولى، ولكن كل أفعاله قائمة على أساس الظن، ﴿وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية: ٢٤].

أما إذا تخلّص من نفسه وهواه، فمن الممكن أن يصل إلى العلم.

علامات القلوب العارفة

إنّ الوصول إلى العلم له علامات، روي عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «العالم من صدّق فعله قوله، ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم». أن يكون مؤدّباً في خلوته مع نفسه وفي علانيته، وأن يعتقد بوجود الله في كل مكان وأينما كان فهو معه، فإنه يبادر إلى كل خير.. ويتجنّب ويرتجف من كلّ ذنب ومعصية، لأنه عالم فاهم أنّ هذه المعصية سبب للهلاك.. وبالنتيجة فإنه يفرّ من المعصية، وهذه من علامات علمه.

وأضرب لكم مثلاً عن علامات العلم والظنّ والشك: فمثلاً إذا قرأ أو سمع من بعض أهل المعرفة أنّ تناول اللبن مع المشمش يؤدي إلى حدوث آلام

في القلب، ويكون أحياناً قاتلاً.. أو يقرأ أو يسمع أن خلط البطيخ مع العسل وأكلهما يؤدي إلى فساد المعدة ومرضها، ثم الموت.. إن علامة وصوله إلى العلم أو أنه في الشك والظنّ هو أنه يتجنّب ذلك، فلو كان حقاً قد وصل إلى مرحلة من العلم، فإنه لن يمدّ يده إلى العسل والبطيخ، فكيف يجروا أن يأكل مع علمه بهذا الأمر، أما إذا لم يكن عالماً فإنه يقول: من قال ذلك.. فقد يكون هناك من أصيب بذلك، فأنا شاب ولديّ من القوّة ما أقاوم به.. ولا يمكن صرف النظر عن العسل.

علامة العلم هي تجنّب الحرام

وكذلك هل يجوز للمسلم أن يكون كما نهى عنه القرآن: ﴿أَيُّبٌ أَهْلَكُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢] أو كما قال القرآن الكريم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْفُونَ سَعِيرًا﴾ [النساء: ١٠] إنّ علامة الوصول إلى العلم هي تجنّب المعصية.. فلو وضع تحت يده درهماً واحداً أو لقمة واحدة من مال اليتيم فإنه يحتاط.. لأنه وصل إلى مرحلة العلم، ولكنه إذا لم يكن عالماً فإن علامة ذلك هي اختلاق المعاذير والمبررات من أنه الآن محتاج، ثم سأعيده فيما بعد.

إذاً فالعالم هو «من صدق فعله قوله» إنّ هناك أشخاصاً يقولون إننا مسلمون، لكن ألسنتهم غير منضبطة.. يقولون أشياء لا عن علم وبصيرة.. يسبّون المؤمن أو يهتكونه وهم لا يعلمون.. وهذا دليل على أنهم لم يصلوا بعد إلى مرحلة العلم والإيمان.. وهذا هو الظنّ والوهم والشك ﴿فَهُمْ فِي رَبِّهِمْ يَرْتَدُّونَ﴾ [التوبة: ٤٥].

إنه ومن أجل تحقيق مصالحة الدنيوية يتخلّى عن النوم ويبقى حتى الصباح يقود سيارته.. ويتخلّى عن الراحة والطعام.. وأهل العلم يفعلون نفس الشيء من أجل آخرتهم.. إنّ أمة رسول الله محمد ﷺ يجب أن تكون كلها عالمة.. وشيعة أمير المؤمنين علي عليه السلام يجب أن يكونوا جميعاً علماء، وإلا فهم ليسوا بشيعة

«متعلمين على سبيل نجاه» إِنَّ الشك والظنَّ لا ينفع في أيِّ شيء، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

الخشية

والعلامة الأكيدة للعلم هي: الخشية. والخشية غير الخوف المطلق، فالخوف خاص.. والخشية أن يجتمع الخوف من أشياء أخرى.

وبمعنى آخر فإنَّ الذي لم يصل بعد إلى مرحلة العلم فإنَّ الخشية لن تكون من نصيبه.. ومن يدرك ويفهم عظمة الله فإنَّ من لوازم ذلك استقرار الهيبة والخشية في القلب.. وأذكر لذلك مثلاً:

إنَّ من يكون مقرَّباً من مسؤول في الدولة.. فإنه في كل يوم يزداد معرفة بنفوذ السلطان وعظمته وقوته.. ويقيناً فإنَّ قلبه يمتلئ بالهيبة للسلطان عند حضوره لديه. وأهل العلم الذين عرفوا عظمة الله.. الله الذي خلق هذه الكواكب وهو يديرها.. هذه الشمس التي هي أكبر من الأرض بمليون وثلاثمائة ألف مرة.. وتسير مع مجموعتها في كل دقيقة بمقدار سبعين ألف كيلومتر نحو كوكب عظيم باسم: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [يس: ٣٨].

وفي (دعاء الجوشن الكبير) تقرأ: «يا من في السماء عظمته» يا من الذي يمسك بملايين الشمس مع هذا الجهاز العظيم وسرعة السير والنظام وبدون توقف.. أو اصطدام.. وكل واحدة منها تدور في فلك خاص.. ومدار خاص دون أن تزاحم إحداها حركة الأخرى، ولا تصطدم كرة بأخرى. إنَّ الإنسان الذي يتخلَّص من نفسه وهواه فإنه يكون قد وصل إلى العلم ويتبع ذلك بالخشية، إنَّ إدراك عظمة الخالق وهذا الكون العظيم يسبب الخشية.

إدراك لطف الله وقهره يوجب الخشية

وبالإضافة إلى ما تقدَّم، فإنَّ إدراك لطف الله ورحمته، وقهره وغضبه يوجب الخشية.. إنَّ الإنسان ليرتكب الذنب فيسعه الله بلطفه وفضله وكرمه. لقد

وقع النبي موسى ﷺ دفعة واحدة بيد فرعون، فكبر عنده حتى وصل إلى مقام النبوة.. وفي مقام التجبر دعا فرعون إلى نفسه إلى درجة عالية من التجبر والطغيان.. حتى وصل إلى أسفل السافلين.

إن الشيطان الذي كان من بين ستة آلاف من الملائكة.. عندما خالف أمر الله وسقط أو خرج عن لطف الله، بات في دائرة غضب الله وسخطه وقهره. فماذا كان مصيره: ﴿فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

أعطى جبلاً

أحياناً يحدث أن يرقى المرء بعمل جزئي إلى الأعلى، فيحصل على المقامات والدرجات العالية.. ويصل أحياناً غضب الله إلى الحد الذي يصل النداء إلى النبي موسى ﷺ اشفع لكل أحد من الأولين والآخرين يستجاب لك.. إلا قاتلي الإمام الحسين ﷺ فهؤلاء غضب الله عليهم كما لم يغضب على غيرهم.. وكما أن الإمام الحسين ﷺ ولسبب شهادته وصل إلى درجات لامتناهية من السعادة واللطف الإلهي. فإن قاتليه لا نهاية لشقائهم وإن عذابهم أشد من الجميع.

يجب اجتناب الذنب بعد ارتكابه

هناك رواية وردت في (أصول الكافي) مروية عن الإمام ﷺ ينهى فيها عن الاستهانة بالمعصية مهما كانت صغيرة، فإنه لو فعل يأتيه النداء: «لا أغفر لك أبداً» ويقول (المجلسي): إن الذنب الذي يرتكبه الإنسان فلا يغفره الله له أبداً، هو ذنب الاستهانة بالذنب.

ونحن ليس عندنا من هو أشقى من قتلة الإمام الحسين ﷺ لماذا؟ لأن الذي يُقتل يجب أن لا يمثل ببدنه، ولا أن ينال أطفاله السوء، ولا نساءه كذلك، فماذا فعلوا بالحسين ﷺ؟! *

* * *

بكاء الطاهرين مع عدم الذنب

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ لقد مرّ وبشكل تفصيلي شرح هذه الآية الشريفة، وانحصار خشية الله بالعلماء يعني هذا ولا شيء سواه. فإنّ الخشية مختصة بأهل العلم، والخوف من الله منحصر بأهل العلم، ولا شك بأنّ أهل البيت عليهم السلام هم على رأس العلماء.. فالعلماء والعارفون من الطراز الأول هم آل محمد عليهم السلام وبعدهم كل من كان قريباً إليهم، حيث يمتلىء قلبه بنور علومهم. وهنا يطرح سؤال وهو أنّ الأنبياء والعلماء لا يذنبون، فلماذا إذاً يبكون ويرتجفون ويخافون؟ فإذا كان قد صدر منهم الذنب، فهم لم يصلوا إلى مرحلة العلم بالصورة التي تمّ شرحها في: «من صدق فعله قوله».. وعدم تقيده دليل على عدم الوصول إلى العلم، وإنما تعلّم المصطلحات، ونور العلم غير ممكن تحصيله واجتماعه مع ارتكاب الذنب، فلماذا إذاً كانوا من أهل الخشية.. مع أنّ القاعدة هي كل من كان أكثر علماً كان أكثر طهراً وخشية أكثر.

أدعية (الصحيفة السجادية) ودعاء أبي حمزة وغيرها الواردة عن الإمام السجاد عليه السلام كيف اجتمعت، وكذلك الآية الشريفة التي تخاطب النبي صلى الله عليه وآله: ﴿وَأَسْتَغْفِرُ لِدُنْيِكَ﴾ [غافر: ٥٥] ما معناها؟

والآن نذكر ما يتعلّق بخوف الإمام وخوف العلماء.

الخوف والأمل يتبعان الرغبة

النبي ﷺ والإمام عليه السلام، وبقية العلماء الذين وصلوا إلى مرحلة العلم كيف يخافون؟ وفي البداية لا بدّ من ذكر مطلب مهم وهو: إنّ الإنسان ما دام قلبه مملوء بحبّ الدنيا وتابِعاً لشهواته، وكلّ همّه وسعيه العيش فقط في الدنيا، فكونوا على يقين من أنّ رأس إبرة من الخوف سوف لن يستقرّ في قلب مثل هؤلاء، عندهم خوف ورجاء، ولكن على دنياهم.. خوفاً أن يقلّ ماله ومقامه واعتباره، رجاؤه إن كان لديه رجاء فهو الوصول إلى الثراء وتحقيق الشهوات. فالإنسان الذي ليس في قلبه سوى حبّ الدنيا وتأمين متطلباتها المادية والحصول على زبارجها فإنّ خوفه ورجاءه أيضاً يتعلّقان بالدنيا.

كلّ قلب فيه حبّ لله فليس فيه حبّ للدنيا

هناك جملة مروية عن كشاف الحقائق الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام حيث يقول: «إنّ حبّ الذكر والشرف لا يكونان في قلب الخائف الراهب»^(١).

وعلى سبيل المثال فإنّ زيداً من الناس يصدر منه في الصباح ذنب، فإن كان مؤمناً ترى الخوف يملأ قلبه من عذاب الله أما إذا لم يكن كذلك وأجرى في الصباح معاملة رابحة فإنه يفرح كثيراً.. وإذا كان في صباح ذلك اليوم قد أذى أمه، وهذا ذنب كبير، حيث يجب أن يخاف ويخشى خوفاً من عقاب الله.. ولكنّ هذا الخوف لا نراه فيه، لأنّ حبّ الدنيا قد ملأ قلبه.. وبعد أن يحقق أمنياته في جمع الثروة فإنه لا يملك بعد ذلك أيّ أمنية.. لأنّ هذا القلب ليس فيه أيّ خوف من جهنم ليدفعه لأن يعود إلى أمه ويعتذر إليها، ويبكي الليل والنهار خوفاً من نتائج ذلك الذنب الكبير.

ولهذا ورد القول: «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» فمع حبّ الدنيا، لا يدخل الإيمان إلى قلبك، وما دام الإنسان غارقاً في شهوات النفس الأمارة بالسوء

(١) سفينة البحار للقمي: ج١، ص٤٣١.

وقلبه مأخوذ تماماً بجمع المال والثروة والمنصب والذكر المادي، فاعلم أن لا مكان في هذا القلب للإيمان والخوف والرجاء.. وإذا ما تحدّث يوماً عن الله والآخرة، فاعلم أنّ ذلك باللسان فقط وليس هناك أيّ تأثير على القلب.. إلّا أن يتخلّص من وسوسة النفس الأمّارة بالسوء، ويستمع إلى ما تقوله النفس اللوامة، عندها يلوم نفسه ويؤنبه ضميره.

أيها الإنسان.. إنك في نهاية المطاف ستموت، وهناك آخرة وقيامة.. وهناك حساب.. إنّ العلم إذا كان موجوداً فما هي علامة ذلك.. الخوف من أعماله.. ويتنصب الخوف في قلبه من سوء أعماله.. فقد كان في بدايته عابثاً غير ملتزم، وفي نهاية الأمر ستأخذ القيود بمجامعه، وعندما يتوب عن أعماله الماضية، عندها يكون الإيمان قد سرى في قلبه. ومن آثار ذلك: خوفه ورجاؤه.. يخاف من الذنب فلا يجرؤ على ارتكابه.. إذ إنّ الخوف لا يدعه يفعل ذلك، وإذا ما صادف أن ارتكب ذنباً.. ولكن الخوف لا ينسجم مع ارتكاب الذنب.. وكلما كان الإيمان أكثر كلما كان الخوف أكثر أيضاً.. الخوف من العذاب الإلهي.. والأمل بثواب الله.. عمل الخير يتبعه الخير.. والأمل من علاماته: العمل وإلا فهو غرور.

وعلامة صدق الرجاء: السعي في الأعمال، وعلامة وجود الخوف، هو الخوف من اقرار الذنب: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، وعلامة وجود الرجاء في القلب، أنه «لكل باب رغبة إلى الله يد قارعة»^(١).. فيكون الخير من نصيبه لأنّ أمله معلق بالله، ولذلك فإنه يبحث عن كلّ خير. أما الإنسان الضعيف فإنه يفرّ لأنّ أمله غير متعلق بالله.

وهنا أوضح الفرق بين الخشية والإيمان: إنّ الإنسان إذا ابتعد ولو بمقدار قليل عن العبث وعن حبّ الدنيا، فإنّ ذرّة من الإيمان تدخل القلب شيئاً شيئاً، وعلامة ذلك أن يخاف من الذنب ويتعلّق رجاءه بثواب الله والجنة، وإذا ما

(١) نهج البلاغة: الخطبة/ ٢٢٢.

تصاعد عنده هذا الأمر فإنه يتم مع التقوى وترك هوى النفس والتأمل في آيات القرآن المجيد أيضاً والتدبر في أسماء الله الحسنى.

وفي نفس هذه الآية، وبعد ذكر الخشية نتعرض إلى ذكر صفتين من صفات الله: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْفَقُورُ﴾ [الملك: ٢] وشيئاً فشيئاً يخرج الإنسان من أنانيته.. حتى يصل إلى مرحلة العلم.. أي يحصل عنده اليقين بالعزة الإلهية.. وذلة الخلق.. ما الذي يستطيع أن يفعله المخلوق: «مولاي يا مولاي أنت العزيز وأنا الذليل، فهل يرحم الذليل إلا العزيز»^(١).

قلنا سابقاً إن العالم هو الذي يعرف معنى (العلي العظيم) ويعرف ويدرك معنى (هو الحق) وتقوده المشيئة الإلهية: «يا من نفذ في كل شيء أمره»^(٢)..

ويعلم نفوذ أمر الله ومشيئته في كل الخلق: «يا من كل شيء خاضع له»^(٣) ويرى أن كل ذرات هذا الوجود خاشعة لله.. ولا يمكن أن يكون هناك شيء خارج عن الخشوع، أجزاء جسمك والموجودات الأخرى تصبغ كلها خاشعة لله.

ويدرك قيومية الله: «يا من كل شيء قائم به»^(٤).. وأن قوام وقيام كل موجود إنما قائم به.. أي أن كل موجود مخلوق ليس وجوده ذاتياً.. فهو لا يملك لنفسه شيئاً: ﴿وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا شُورًا﴾ [الفرقان: ٣] فهي مع التفكير والتدبر تصبح عالمة بشرط أن يكون ذلك مصحوباً بالتقوى.. ليكون نور العلم من نصيبها، وإلا فإن الإنسان أقرب إلى ترك التقوى فإن من المستحيل أن يوصله العلم بآيات القرآن والتفسير والكلام والفقه والأصول إلى العلم الحقيقي.. لأن الذنب يخرب القلب، وليس أضرّ بالقلب من الذنب.

(١) من مناجاة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

(٢) مفاتيح الجنان للقمي: دعاء الجوشن الكبير.

(٣) مفاتيح الجنان للقمي: دعاء الجوشن الكبير.

(٤) مفاتيح الجنان للقمي: دعاء الجوشن الكبير.

كما روي عن الإمام الباقر عليه السلام.

لقد أردت أن أقول: إذا أردت أن تكون عالماً فلا بد أن تكون مُتْقِياً: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢] وكلّما كانت التقوى أكثر كلما كان التدبّر أكثر قدرة على إيصالك إلى العلم.. أما إذا لم يكن متقياً فإنه يكون فيلسوفاً يعرف خواص جميع المواد.. ولكنه ليس عالماً..

فالآن يوجد بعض المتجدّدين ممن توغّلوا في علّة التشريح، والخبرة بالحيوان، واطلعوا على أشياء عجيبة، ولكنهم ما زالوا يشككون بالله لأنهم ليسوا أتقياء.. إنهم يرون ويفهمون، والأشياء أمام أعينهم.. ولكنهم لا يدركون.. فهم في شك، لأنّ كلّ تفكيرهم منحصر بتحقيق الشهرة والتقدم العلمي وجمع المال.

إنّ أذهان هؤلاء ليست منصرفة لمعرفة الله حتى يعرفوا الله، وإلا لو كانوا يريدون معرفة الله، لما كانوا على هذا الشكل من التحلّل.. بل لحصلوا على اليقين ولكانوا من أهل العلم.. يراحمون الملائكة في ترديد كلمة: «لا إله إلا الله» ولأدركوا عظمة الله، ولكن ومع الأسف فإنهم يتحرّكون لتحقيق الشهرة وجمع المال.

وخلاصة البحث هي أنّ السبب الذي دعا السيدة الزهراء عليها السلام لتلاوة الآية الشريفة أمام الأنصار والمهاجرين هو أن تذكّرهم بجهلهم.

للعلم أثرٌ حتمي

إنّ لكلّ علم وإدراك أثراً عملياً، وإذا لم يكن له أثرٌ عملي فإنه يكشف عن أنه لم يكن علماً، سواء كان من جهة النفع أو من جهة الضرر.. ونذكر هنا أمثلة ليتّضح المعنى: إذا كان شخص ما قد أدرك أنه عطشان، وعلم أنّ الماء موجود في وعاء موضوع في المكان الفلاني.. فإنّ هذا العلم يدفعه إلى الذهاب إلى الماء وشربه، وفي جهة الضرر إذا علم أنّ هذا الأكل مسموم، فهذا الفهم يترك أثره على الإنسان في أن لا يمدّ يده إلى مثل هذا الطعام.. حتى لو أعطوه

المال فإنه يرفض أن يأكله لأنه يعلم أنه مسموم، وإذا أكل الطعام المسموم فهذا يوضح أنه غير عالم.

والشخص الذي يعلم أنّ في رأس الشارع هناك مفتش شرطة يتشدّد في تفتيش الناس، فإنه لا يجازف باصطحاب بضاعة مهريّة معه ويقول في نفسه إنهم يمسونني، وسوف يعتقل، ولن يحصل على فائدة.. والخلاصة إذا لم يكن هناك أثر عملي، فإنه يُعلم أنّ الإدراك كان مفقوداً.

والفلاح الذي يعلم أنه لو بذر البذور فسوف تنتج محصولاً.. فإنّ من آثار هذا العلم أن يتحرّك الفلاح ليقوم بعملية الزراعة، لا أن يتماهل في السقي والزرع. والتاجر ينطبق عليه نفس الشيء، وهكذا ينطبق هذا الأمر في مختلف أنواع السلوك الإنساني، فهناك نوع من الإدراك للنفع والضرر.

إدراك أنّ المعصية في النار يوجب الاجتناب

وإذا أدرك شخص أنّ المعصية نتيجتها إلى النار والخسران، فهل ينفصل هذا الإدراك عن تجنّب المعصية، وكونوا على يقين أنّ كلّ من يرتكب الذنب والمعصية فلأنه جاهل بالآخرة ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِالَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهِدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل: ١١٩].. فالمذنب جاهل.. ولو كان عالماً لكان من المستحيل أن يذنب.. وإذا تيقّن شخص أنّ الحساب غداً عسير كما هو في مثال صاحب البضاعة المهريّة، فمن المستحيل أن يرتكب الذنب.

وإذا تيقّن شخص بما جاء في القرآن من أنّ كلّ كلام ينطق به الإنسان يسجله ملكان: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٩]، فإنّ من لوازم ذلك اليقين أن يسيطر على لسانه، والشخص الذي يعلم ما علّمه أمير المؤمنين علي عليه السلام كما قال: «اعلموا عباد الله أنّ عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحقاظ صدق يحفظون أعمالكم»، وكما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَنُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلَهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، إذا

علم الإنسان كل ذلك فإنه من المحال إن كان عالماً أن يرتكب معصية بجوارحه.

حقيقة العلم: التصديق

إنَّ المسجل الإلهي معك، عيونه معك، ولكن من يصدّق، إذا حصل العلم فتيقن أنه يتخلّف عن اجتناب المعصية: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] وهذا يعني أنّ العالمين بالقرآن هم أولئك المصدّقين به، وليس أولئك الذين فهموا محتواه، فالقرآن محفوظ له مكانه من الفصاحة.

تناول السمّ بأمر الطبيب والهوى

إذا قدم عدّة أطباء حاذقين لشخص ما - وكانوا من أقاربه - طعاماً مسموماً، وقالوا له: كُل منه. وإن كان المستشفى قريباً والأطباء من الأصدقاء، فهل سوف يتناول من ذلك الطعام؟ إنه لن يتناول الطعام أو الدواء المسموم مطلقاً.. إنَّ الذي يعلم أنّ الذنب نتيجته إلى النار.. ثم يرتكب الذنب فإنه يفعل ذلك بأمل نيل الشفاعة (وهذا في واقع الأمر غرور) لأنّ النفس تزين له ذلك.. وهذا من الجهل ﴿ عَمِلُوا الشُّوْءَ بِجَهْلَةٍ ﴾ [النحل: ١١٩].

والأفضل أن أقول.. إنَّ العالم هو الذي يخشى ارتكاب الذنب ويتحرّك نحو كلّ خير لأنه يعلم أنّ النفع في الخير، مثلما يتحرّك التجار طمعاً بالربح.. فالشخص الذي يعلم أنّ الربح في ذكر الله، وفي الإنفاق في سبيل الله، فإنه يتحرّك باتجاهه.. والإنسان الذي يجمد عن الحركة فاعلم أنه عديم الأمل وإيمانه ضعيف جداً، إنه يتحرّك جيداً من أجل نيل وطره ورغبته الدنيوية، ولكنه لا آخرته لا يفعل ذلك. بل هو في شك ولذلك فإنه يتماهل، الويل للإنسان من عبادة الهوى: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٢]، والويل للعالم الضال: ﴿ وَأَصْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ ﴾ [الجاثية: ٢٣] أن الله يضلّ كلّ من يعبد هواه.

مع علمهم لم يُصدّقوا

إنّ كلّ من يتّبع هواه فإنه يضلّ ولو كان قد تعلّم العلم.. يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، إنّ كلّ من يكون ساحراً فليس له في الآخرة من نصيب.. وهو يشتري لنفسه أسوأ الأشياء.. وأنهم يعلمون من خلال التوراة أنّ السحر حرام، ولكنهم لا يصدّقون ذلك.

إذاً فهؤلاء لم يصلوا إلى العلم الحقيقي، والدليل على ذلك أعمالهم.. وإلاّ فإنه من المحال أن يذهبوا وراء السحر إذا كانوا يعلمون أنّ نتيجة هي الخسران في الآخرة، إنّ هؤلاء الذين جاؤوا إلى كربلاء ليقاتلوا الإمام الحسين ﷺ هل كانوا يعتقدون بالآخرة؟ ومع الإيمان والعلم بالقيامة فكيف يجرؤون على قتل ابن رسول الله.. حين قال لهم: بأيّ ذنب تقتلونني.

الجاهلون ينتخبون الجاهل

لماذا قالت السيدة الزهراء ﷺ في خطبتها هذه الآية الكريمة: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّكَ اللَّهُ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٨] أمام الأنصار والمجاهدين.. وما هو هدفها ﷺ؟ إنّ ما نصل إليه بعد التأمل والتدبّر هو أن هدف السيدة الزهراء ﷺ من هذه الخطبة هو تحذير المسلمين وقرع أجراس الخطر.. وإعلامهم بالباطل الذي فعلوه.. أيها المهاجرون والأنصار، يا من كنتم أصحاباً لوالدي.. وكنتم من أصحاب العلم، وسمعتم القرآن وآياته وعلمتموها.. كيف أصبحتم فجأة من أهل الجهل.. تركتم العالم الحقيقي في بيته، واجتمع الجهلة حول أنفسهم.. فهل يليق أن يُترك العالم وينتخب الجاهل؟ لماذا أنتم جهلة.. وعلي بن أبي طالب عالم؟ وذلك لأنّ الله يصف أهل العلم بقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] فالعلماء هم الذين يخشون الله.. وإذا لم تكن عندهم خشية، فهم ليسوا بعلماء.. مهما كانوا قد قرأوا القرآن وعلموه.. ولكنّ عدم الخشية تشهد على عدم وصول نور العلم

إليه.. إنّ الخشية تعني الخوف الذي يستقرّ في القلب إدراكاً منه لعظمة الخالق الحق، وإنّ هذه الخشية لا تحصل ما لم يترك العبدُ الذنب، وعندها يحصل على المعرفة، ومن آثار المعرفة الخشية.

لا طريق للخشية في قلب المذنب

قلنا ليس هناك أكثر من الذنب مجلبة للخسارة إنه نقطة سوداء في القلب تمنع اكتسابه للمعرفة.. ولذلك فلا طريق للخشية لمثل هذا القلب.. لأنّ الذنب وارتكابه لا يجتمع مع المعرفة: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

لقد قلنا إنّ في زماننا هذا عدد كبير من المفكرين ممن يجيدون فهم المصطلحات، ولكنهم لا يملكون نصيباً من المعرفة.. لأنّ المعصية لا تترك قلب الإنسان يتعرّف إلى الله، فالقلب إذا كان طاهراً تشرق فيه شمس المعرفة، وإذا ما صدر منه الذنب فليس فيه سوى الظلام والجهل ولو كان الإنسان المذنب يرى بعينه، ويسمع بأذنه آيات وعجائب الله ويعرف جيداً أحكام الحلال والحرام.

إنّ القلب يصير مظلماً بسبب ارتكاب المعاصي.

فيا أصحاب النبي لو كنتم بلغتم نور العلم لكانت عندكم الخشية.. ولو كانت عندكم خشية لما صدر منكم الذنب.. إنّ علامة الخشية الحقيقية تجدونها عند العالم الحقيقي علي بن أبي طالب عليه السلام.

فأمير المؤمنين علي عليه السلام يقول: «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحتها أفلاكها على أن أعصي الله في نملة أسلبها جلب شعيرة ما فعلته»^(١).

تلك هي علامة العلم والعلماء، إنها علامة الخشية من الله والخوف منه، فهو يعلم أنّ هذه الدنيا لا قيمة لها، والويل من عذاب الآخرة، فالدنيا تنقضي، ولكن الظلم الذي يلحق بالنملة يجرّ إلى الغضب الإلهي.

(١) نهج البلاغة: الخطبة/١٥٧.

لا تُقاس اللذة والعذاب الباقي مع الفاني

يروى أنّ عقارب جهنم إذا لدغت تبقى آثار لدغتها سبعين عاماً.. وكذلك إذا شرب أيّ شخص كأساً من حوض الكوثر فإنّ لذّته تبقى إلى الأبد، اللذة التي يتذوّقها بضمه تبقى إلى الأبد، حتى لو لم يتذوّق بعدها أيّ لذّة، وهكذا تبقى ولا تتمحي.. إنه عكس ما هو موجود في الدنيا، فالحلوى التي يتناولها الإنسان في الدنيا تكون لذتها في فمه، وبمجرد أن تعبر حلقومه إلى الأسفل فإنها تكون سبباً للمتاعب.. ولذلك فهي لذة آنية.

إنّ حلاوة الدنيا ولذاتها كلّها مؤقتة، ولكن وضع الآخرة يختلف عن ذلك: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الأعلى: ١٧] سواء في خيرها، أو شرّها، وإذا كان الإنسان قد وصل إلى مرحلة العلم فإنّ من المستحيل عليه أن يبيع آخرته بدنياه.. وإذا ما فعل أحد مثل ذلك فإنه جاهل.

فالمراد من العلماء في الآية المذكورة هم أولئك الذين تنوّروا بنور العلم. فإذا استقرّ نور المعرفة والتوحيد والتقوى في القلب؛ فإنّ الخشية ستكون موجودة قطعاً.

الإنسان الذي يعرف السلطان والحاكم هل من المعقول أن لا يراعي ذلك؟ والإنسان الذي يعلم أنّ الآخرة خير وأبقى هل يسيطر على قلبه حب المال؟ وإذا حدث ذلك فإنه علامة الجهل وليس العلم.

العلماء لا يفرّون من الموت

نضرب مثلاً لعلامة نور العلم.. عندما اقتربت ساعة وفاة النبي ﷺ كانت السيدة الزهراء ﷺ تبكي حزناً على فراق أبيها ﷺ فدعاها الرسول ﷺ وهمس في أذنها.. فابتسمت.. وعندما سُئلت فيما بعد قالت إنّ أبي بشرني أنني أول من يلحق به. إنها تعلم أنّ العمر في هذه الدنيا لا قيمة له، إنك عندما تقول لأحد من الناس إنه سوف يعمرّ مائتي عام فإنه يفرح بذلك.. ولكنك إذا

قلت لواحد من العلماء إنَّ موتك اقترب وسوف تلحق بالأبرار فإنَّ جميع الآمة تسكن.. ويكون الموت أنيسه وأليفه.. وهذا هو معنى ما ورد في دعاء الإمام السجاد عليه السلام.

ماء الكوثر بشارة للباكين على الإمام الحسين عليه السلام

هناك رواية وردت عن حوض الكوثر، وهي مروية عن الإمام الصادق عليه السلام أنه سأل أحد أصحابه واسمه (مسمع) إن كان يذهب إلى كربلاء لزيارة الإمام الحسين عليه السلام فأجابته (مسمع) بأنه رجل معروف ولا يجرؤ على الذهاب إلى الزيارة، لأنَّ ذلك سيسبب له الأذى والهلاك من قبل جهاز الدولة الحاكم. فسأله الإمام عليه السلام بأنه ما دام لا يستطيع الذهاب فهل يبكي على الإمام الحسين عليه السلام فقال يحدث أحياناً أن أظماً فأطلب من أهلي الماء، وهنا أتذكر ظمأ الإمام الحسين عليه السلام فأبكي ولا أستطيع الشرب حتى يعرف ذلك أهل بيتي. فبشره الإمام عليه السلام بأنه عندما تقترب ساعة موته، سيحضر عنده رسول الله وفاطمة وعلي والحسن والحسين وعلي بن الحسين والباقر عليهم السلام وسيسقونك بماء الكوثر.

نعم إذا شرب الإنسان من ماء الكوثر، فإنَّ لذته لا تفارق فمه أبداً.. ومثل هذا الماء ألا يستحقُّ أن يعشقه الإنسان أم لا.. علامة العلم هي هذه.. وما دمنا لا نستطيع أن نقدّم عملاً، فلا أقلَّ لنبكي على الإمام الحسين عليه السلام ونتذكر عطش الإمام الحسين عليه السلام.

«٣٨»

«أيها الناس اعلّموا أني فاطمة وأبي محمد. أقول
عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما
أفعل شططاً»

الأمانة وليس الخيانة

وبعد أن تلت السيدة الزهراء عليها السلام: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ ﴾ وأفهمت القوم بأنهم
ببركة الصحبة لرسول الله صلى الله عليه وآله أصبحوا عالمين بالقرآن.. وتعلّموا آيات الله..
وتعلّموا العلوم.. فأين خشيتكم من الله ومخالفة الهوى، وأين هو الخوف من
العذاب والشوق إلى الثواب؟

لقد قلنا إنّ كلّ علم لا يصدّق العمل، فإنه ليس علماً، لأنّ علامته العمل،
وأنتم أيها المسلمون حين أصبح العلم من نصيبكم عليكم أن تعملوا وفق ما
يأمركم به.. ثم عليكم تعليمه للآخرين. وقد قالت السيدة الزهراء عليها السلام في
الجميل السابقة: «أنتم أمناء الله على أنفسكم، وبلغاؤه إلى الأمم» وإذا لم
تعملوا أنتم أنفسكم بالقرآن، فقد خنتم أنفسكم أولاً إنّ خطاب السيدة
الزهراء عليها السلام لكل المسلمين حتى قيام القيامة. إنّ المسلمين هم أمناء الله في
أداء ودائع الله.. في البداية تجب المحافظة على الأمانة ثم أداءها، والحفاظ
على الأمانة العمل بها، ثم تعليم الأجيال القادمة، وإيصالها لهم أن تأمروا
بالمعروف وتنشروا الدين، وإذا لم تفعلوا ذلك فإنكم خونة.. وأنتم يا من

خنتم.. إنّ هذا العمل الذي أعطي لكم عليكم أن تصونوه، لأنه أمانة الله في أعناقكم، لا أن تعبدوا هواكم بعد وفاة الرسول ﷺ.

أنا فاطمة بضعة الرسول

ثم شرعت السيدة الزهراء ﷺ بعد ذلك بأصل الموضوع، وهو إحقاق الحق وإبطال الباطل.. فعرفت في بداية الأمور نفسها، فقالت: «اعلموا أنني فاطمة» أي إنني أنا نفسها التي قال عنها الرسول ﷺ «فاطمة بضعة مني».. «أقول عوداً وبدواً» لقد قلت منذ البداية وأعود فأقول: «أنا فاطمة، وأبي محمد».

«لا أقول ما أقول غلطاً»، أقول الصحيح، وكل ما أقوله فهو الحق، إنّ فاطمة لا تقول شيئاً مخالفاً للحق: «ولا أفعل ما أفعل شططاً» أنا لا أتجاوز حدود الحق.. وكل ما أفعله إنما أفعله وفق العقل.. وإحقاق الحق يكون بالحق وليس بالباطل.. وعندما تقول السيدة الزهراء ﷺ وبهذا المعنى أريد أن أقول لكم أنكم تسيرون في طريق الباطل، فهذا إحقاق للحق وإيضاح الحق ومحو الباطل.

فاطمة.. تعني البُعد عن كل نقص

فاطمة، من مادة فطم، وهي بمعنى المنع.. والشخص الذي يمنع أو يحفظ من شيء يقال له: فُطِمَ.

ولذلك فإنّ الطفل الذي يمنع عنه الحليب يقال له: مفظوم.

فاطمة إذاً تعني المحفوظة عن كل نقص وشرّ وعيب، ظاهراً وباطناً، دنيا وآخرة، إنها تتمتع بطهارة مطلقة، ومن جملة تلك النقائص هي النقائص والعيوب النسوية.. فالزهراء ﷺ لم يعترضها ما يعترض النساء من العادة الشهرية، والشيء الآخر إنّ الله منحها مقام العصمة.. فهي مصانة من كل عيب أو خطأ أو ذنب، أو اشتباه أو سهو.. «إنها فُطمت هي وذريتها وشيعتها من

النار» ففاطمة نفسها محفوظة من النار، وليست وحدها فقط؛ بل إن ذريتها كذلك، وليس ذريتها وحدها أيضاً، وإنما الذين يموتون من شيعتها وهم على حبا.

ورد في الرواية أنّ السيدة الزهراء عليها السلام حين تأتي المحشر يوم القيامة تحيط بها اثنا عشر ألف حورية، فتأتي حتى تأخذ بقائمة العرش.. وتقول: اللهم أظهر شرفي اليوم. فيأتيها النداء: اشفعي لمن تشائين من شيعتك وذريتك.. ثم من أحبّ شيعتك. بسبب فاطمة، وليس لأسباب شخصية. فبعض الأحيان يحدث أن يحبّ شخص سيّداً من أولاد فاطمة، ولكنه من أجل أسباب شخصية لأنه ينسجم معه في الميول والرغبات الشخصية فيحبه ويتواضع له، وهذا النوع من الحب ليس حبّاً لأولاد فاطمة ولا من أجل أولاد فاطمة، وإنما الحب لأولاد فاطمة يكون عندما تحبّ سيّداً قام بعمل مخالف لميلك، ولكنك تحبه لأنه سيد من أولاد فاطمة.

إنّ أولاد فاطمة وإن كان واحداً منهم مرتكباً للمعصية.. فالواجب أن تحبه لسبب سيادته مع اعتقادك بسوء عمله وذنبه.. فالذنب عرضي، وأما ذاته فهي طاهرة، فلا يحق لأحد أن يعتبر واحداً من أولاد فاطمة عدواً له، طبعاً يجب أن يتنفر من ذنبه.. وأن يتمنّى أن يتطهّر أولاد الرسول عليهم السلام من الذنوب، لا أن يتخذ عدواً لأنه أذنب.. ويحاول أن يقتله، فلو أن أحداً أبغض سيّداً، فهذا يدلّ على أنه لا يحبّ أولاد فاطمة.

إنّ الإنسان المؤمن يحبّ المتّقين بسبب تقواهم.. أما أولادك فإنك تحبهم حتى لو أخطأوا فإنك تحبهم، ولكنك تتنفر من ذنوبهم، ويجب أن تكون العلاقة مع أولاد فاطمة كذلك.

كتب (العلامة الحلي) في آخر (قواعده): ينادي المنادي يوم القيامة عن الرسول عليه السلام ليقوم كل من كان له عليّ حق أو منّة لأجزيه.

هنيئاً لمن كان يحبّ سادات آل محمد عليهم السلام.. إنّ الشيعة بين أيديهم هذه

البركة، ولكنهم لا يستغلّون هذه الفرصة، فلا ينتفعون من هذه النعمة أي من حبّ خدمة هؤلاء، والعلاقة مع هؤلاء بسبب سيادتهم.

ورد في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام إنّ كلّ من يحب أهل البيت حباً قلبياً يأتي يوم القيامة وعلى جنبه مكتوب ذلك، ويأتي النداء: يا فاطمة اشفعي لكل من كتب على جنبه حبك.

وهذا أملنا الوحيد.. اللهم ارزقنا شفاعتها، وأمتنا على حبّ محمد وآله، أمتنا على حبك وحب كل شيء إلهي وليس حب الدنيا.. والويل لمن يموت وهو على حب الدنيا والمال.

ورد في (دعاء أبي حمزة الثمالي) ما يلي: «سيدي أخرج حبّ الدنيا من قلبي، واجمع بيني وبين المصطفى وآله خيرتك من خلقك».

نعم، ثم أخذت السيدة الزهراء عليها السلام تعرّف بنفسها.. أنا بنت النبي، فكيف تعاملتم معي.. لقد قلت في أول الأمر إنني بنت رسول الله صلى الله عليه وآله وأعود لأكرر القول.. أنني أنا فاطمة بعينها التي قال لكم رسول الله صلى الله عليه وآله إنها بضعة مني، كل من آذى فاطمة فقد آذاني، ورضا الله في رضا فاطمة، وغضبه في غضب فاطمة.. أنا لا أقول خطأ ولا أفعل ما أفعل شططاً، ولا أتجاوز الحدّ فيما أعمل.. وإنما أحقّ الحقّ وأثبتّه.

الرسول صلى الله عليه وآله بشر

ثم تتلو بعد ذلك آية من القرآن الكريم، تصف فيها النبي صلى الله عليه وآله، وكان هدفها تهييج المسلمين، هل من الصحيح أن يتعاملوا مع حقوق الرسول بهذه الطريقة، وكانت الآية: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: 128] وكانت الآية تخاطب جميع المسلمين حتى قيام القيامة، وهذا خطاب يقول للناس إنّ الرسول من جنسكم، إنه بشر.. إنه من أنفسكم، ولو أنه كان من غير البشر لما كان ممكناً الاستفادة منه من قبلكم.. فلو أنّ الله أرسل إليكم ملكاً.. لكان من

الضروري أن يراه الناس ليتحدثوا معه ويجلسوا إليه، والملك ليس في الزمان
والمكان مثل البشر يسمع ويتحدث.

من أشرف قبائل العرب

وبالإضافة إلى أن الرسول ﷺ كان من العرب، فإنه كان من قبيلة هي من
أشرف قبائل العرب.. حيث كانت منذ البداية موضع حفاوة وتقدير واحترام من
قبل العرب، وهي قبيلة قريش.. وهم من أبناء النبي إسماعيل عليه السلام.. حيث كانوا
يمسكون بمفاتيح الكعبة.. وضيافة الحاج.. وسقايتهم في عرفات ومنى عند
موسم الحج.. وهناك قراءة أخرى للآية مروية عن السيدة الزهراء عليها السلام من
أنفسكم بفتح الفاء.. والأنفس بمعنى النفيس..

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ والشيء الثاني الذي أراد القرآن أن يضع حقيقته
أمام العرب هو وصف الرسول ﷺ بأنه يحنو عليهم.. حتى أنه ليتألم حين
تعصف بهم المشاكل والمحن.. وأنه ليصعب عليه أن يلحق بأمتة أي أذى.

إنه لكم أبٌ حريص على هدايتكم وإرشادكم.. أي أنه لم يهدأ ولم يستقر..
فقد كان في حركة دائمة من أجلكم ومنذ أول بعثته حتى آخر أيام حياته، قضى
أيام حياته كلها من أجل هداية البشرية.

إن حرصه عليكم سلب منه راحة النوم، حضر أكثر من عشرين غزوة من
مجموع ثمانين غزوة ومعركة، وقد تحمّل كل تلك العذابات من أجلكم.. كان
يجلس في المسجد دائماً، فلعل قادماً يريد أن يهتدي فيهديه.

ذهب في أول بعثته إلى (الطائف) التي تبعد عن (مكة) أربعة عشر فرسخاً
من أجل أن يهدي أهلها فأذوه ورموه بالحجارة، حتى سالت الدماء من قدميه،
وذهب يتوكأ على حائط تخلّصاً من حرارة الشمس، وقد بني هذا المكان الذي
اتكأ عليه رسول الله فيما بعد مسجداً.. ذهب إلى هناك جلس واستراح.. فلم
يدعوه يرتاح.. لقد كان حريصاً عليكم.

اشتياق الله إلى توبة عباده

إذا أراد أحد أن يفهم معنى حرص النبي ﷺ على هداية الخلق، فليرجع إلى فهم معنى تأكيد الله سبحانه وتعالى على توبة عباده.. النبي ممثل الله سبحانه وتعالى، إنّ الله يؤكد على البشر أن يتوبوا حتى لا يكونوا من أهل الجحيم.. وأنتم يا من تقرأون القرآن أنظروا إلى الآيات التي يخاطب بها البشر.. حتى أنّ الإمام زين العابدين عليه السلام في دعائه يعبر عن ذلك بقوله: «حتى كأنك المحتاج إلينا».

لكم يحبّ الأب أبناءه.. وعلاقة الله بعباده هي أرفع من تلك العلاقة بملايين الدرجات.. فكيف يرضى الله عزّ وجلّ أن ينحرفوا عن الطريق الصحيح.. وأنتم يا من ظلمتم أنفسكم لا تقنطوا من رحمة الله: ﴿قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ﴾ [الحجرات: ٥٣] و﴿وَأَيُّبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾.. ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣].

إنّ الذي يرتكب المعصية إنما يظلم نفسه.. وإنّ تأكيد الله على التوبة كي لا يظلم الإنسان نفسه.. فالسلطان الكريم يفتح بابه وينادي يا أيها الناس.. يا أيها الجائعين تعالوا ادخلوا داري وكلوا طعامي.

والويل للجائعين إذا امتنعوا.. والويل لهم إن تصوّروا جهالة أنهم لا يحتاجون إلى الطعام ما دام المنادي ينادي!

لقد كان النبي إبراهيم عليه السلام عندما يكون بيته خالياً من الضيوف، يقف على قارعة الطريق ويدعو المارين أن يكونوا ضيوفه.

والآن إذا قلت إنّ الرسول ﷺ يدعوكم أن تطلبوا من الله أن لا ترتدّوا على أعقابكم، فإنّ بعض الجهلة يتصوّرون أن بإمكانهم أن يفعلوا ما يشاؤون، ويرتكبوا من المعصية ما يشاؤون بحجة أنّ الله غفور رحيم.. في حين أنّ الأمر

ليس كذلك.. وإنما المقصود هو عدم اليأس من رحمة الله.. بمعنى منع الانصراف عن التوبة.

اليأس هو الشخص الذي لا معاملة عنده مع الله: ﴿قَدْ يَسْأَلُونَ مِنَ الْآخِرَةِ﴾ [الممتحنة: ١٣] ووجود الأمل علامته الحركة والعمل.. وإن الخلق أكثرهم أهل يأس وقنوط.. والله سبحانه وتعالى ينادينا دائماً: عودوا وليكن عندكم أمل بالإصلاح وتغيير الحال.

لا جبر في الأمر

إن كل من ينقلب على عقبيه لا يُعاد إلى وضعه السوي بالإجبار.. فمن كانت يده ممدودة يضعون له فيها شيئاً.. ومن يضع يده خلفه بإحكام، فليس من الجبر حين لا يضعون فيها شيئاً.. وما لم تأت بنفسك فإنك لن تكون من أهل جهنم دون اختيارك ولا من أهل الجنة.. فباتجاه أي طرف تتحرك تصل: ﴿تَوَلَّيْهِ مَا تَوَلَّى﴾ [النساء: ١١٥] اتباع الشهوات نتيجته جهنم، واتباع الله والآخرة والإيمان والتقوى نتيجته الجنة.. أينما تريد الذهاب تصل.

لكن لا تكن يائساً من الآخرة، إن كل من يتباطأ في عمله للآخرة فإنه يكون من القانطين واليائسين.

أداء الوظيفة حتى النفس الأخير

إن محمداً ﷺ حريص على هدايتكم.. حتى أنه وهو في أنفاسه الأخيرة والمسلمون حوله مجتمعون يعودونه، كان يدعو لهم ويوصيهم.. وكان يردد: «نصركم الله، سلمكم الله، أيدكم الله» وكان يوصيهم بقوله: «أوصيكم بتقوى الله، وأن لا تعلوا على الله في بلاده» فهل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام كان غير ذلك؟ لقد كان متقياً منذ أول حياته حتى آخرها.

فهل يليق مع هذا الحرص الكبير الذي أولاكم إياه النبي ﷺ من أجل هدايتكم.. أن تهجموا على بيت بضعة الرسول ﷺ وكفنه ما زال رطباً من ماء

الغسل.. أيّ تقوى هذه؟ بدلاً من أن تتألموا لمصابكم وتعزّوها بأبيها، وأيّ أب، حتى لكأنه لم يؤثر في تلك القلوب ولو بمقدار ذرة.. وهل يمكن أن يكون الإنسان محبباً لشخص آخر، ثم لا يترك فراقه وموته أيّ أثر عليه.. ما زالت الجنازة مطروحة على الأرض والسادة كانوا مشغولين بتنصيب من يكون الرئيس عليهم، فهل هذا هو طريق التقوى، أم أنه طريق الدنيا والسعي وراء المناصب والرئاسة.. كما قال الرسول ﷺ: «وكأنني بها وقد دخل الذلّ بيتها، ومنع إرثها، وغضب حقها، وأسقطت جنينها، لا تزال حزينة كئيبه».

* * *

«٣٩»

«فإن تعزّوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المعزّي إليه ﷺ فبلغ الرسالة، صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة»

الحكمة: برهان يطابق الفطرة

خلاصة كلمات السيدة الزهراء عليها السلام حول أبيها، أنه أوصل رسالة الله إلى البشر، وأنه كان معرضاً عن عقائد وسلوك الكافرين.. وأنه حطمهم وانتصر عليهم. «وداعياً إلى سبيل ربه» وهي إشارة إلى الآية: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ [النحل: ١٢٥] وهناك أمر إلهي للرسول بدعوة الناس إلى الدين عن طريقين: الأول طريق الحكمة، والثاني الموعظة الحسنة.

والحكمة كما يذكرها المفسّرون والمحقّقون، المراد بها الدليل الواضح والأدلة العقلية التي تنسجم مع الفطرة السليمة.. وقد وردت في القرآن حكماً كثيرة تشكل شواهد وبراهين على التوحيد والمعاد يعتقد بها كل عقل سليم.

فمثلاً يذكر القرآن حكماً في باب التوحيد بذكر خلق السماوات والأرض وحركة الأرض، ووجود الليل والنهار ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ١٩٠]، وحركة الشمس التي لا تتوقف، وتعاقب الليل والنهار.

ثم يتساءل القرآن: هل هناك أوضح من هذا الدليل..؟ وهل يمكن أن يتم تكوين هذا الجهاز العظيم دون علم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤].

علم البشر بصناعته

إنَّ علم الله لما صنعه وخلقه واضح وجليّ... إنَّ كلَّ إنسان إذا صنع شيئاً.. معملاً أو ساعة أو... فإنه ليس خالقاً لذلك الشيء، وإنما هو ركبته.. فهو لم يخلق ذلك من العدم، فهو إذاً ليس خالقه وإنما الذي خلقه هو الله. فإذا قال شخص إنه وُجد هكذا وإنَّ الصدفة هي التي خلقت وعاء الخزف وجاء الماء فاختلط بالتراب وصار طيناً وحرَّك الطين نفسه.. فهل يجوز أن يأتي شخص ليقول: شيء صنعته أنت، إنَّ من صنع هذا جاهل، وقد صنَّع هذا الشيء دون إرادة! فهل يقبل عقلك بذلك ويرضى؟

هل من الممكن أن يكون هذا الكون العظيم وأنت جزء منه، أن يكون قد وجد دون إرادة وتخطيط دون قيوم أو جده.. فهل يقبل عقلك ذلك ويصدِّقه؟

﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ [الملك: ١٤] الخلق أعلى درجة من الصنع، الخلق هو الإيجاد من العدم، فهو الذي خلق النطفة فأوجد من هذا البدن البديع الصنع، فهل يمكن نسبة ذلك إلى الصدفة: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ * ءَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٥٨ - ٥٩].

والماء الذي ينزل عليكم هل أنتم خلقتموه: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨ - ٦٩].

﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ * ءَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ﴾ [الواقعة: ٧١ - ٧٢].

وأنت يا من تزرع الورد والبذور، هل أنت الذي ترعاها أم الله؟ من يجعل الجميع يتعاقد لتنمو هذه البذرة.. الماء والهواء والتراب والحرارة، كلها تتعاقد في ذلك، وتنتصف البذرة نصفين أحدهما إلى الأسفل فيكون جذراً،

والآخر يتجه بحركته نحو الأعلى فيكون ساقاً وأغصاناً ومن ثم ثمرأ.. من الذي يفعل كل ذلك؟

براهين مهمة حول المعاد

وردت البراهين والحكم المتعددة في القرآن الكريم حول المبدأ والمعاد.. والبرهان الذي ذكر عن المعاد.. هو أنه لو لم يكن المعاد لكان هذا الخلق عبثاً ولهواً: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] فإذا كان هذا الكون مخلوقاً فقط لمدة محدودة من العمر أفلا يُعد ذلك لغواً؟.

مواعظ القرآن الفريدة

الموعظة هي تذكير واستثارة للفطرة السليمة التي ما إذا انتبهت.. فإنها تدرك طلب الخير.. والابتعاد عن الغفلة.

لقد قدّم القرآن الكريم مواعظ كثيرة، فيا أيها المسلمون، يا أهل القرآن إن الله يعظكم، إنها الموعظة الإلهية التي تهزّ الجبال، ويذكر لكم قصص الأولين، يبحثوا عن مصير أولئك الذين كفروا وانقلبوا على أعقابهم، وإلى أين انتهى أولئك الذين ساروا على طريق الفجور: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُتَدْرِبِينَ﴾ [الصفات: ٧٢].

إن قصة النبي يوسف عليه السلام عبارة عن موعظة من أولها إلى آخرها، الحسد كم جلب من المصائب والخسائر على إخوة يوسف، وأي مصائب ابتلوا بها بسببه، وانظروا إلى يوسف وبسبب عفته وامتناعه عن اتباع الشهوة كيف وصل إلى نتيجة جيدة ﴿إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

وفي القرآن يذكر قصة فارون الذي امتنع عن دفع الزكاة، إن حرصه على المال في الدنيا أوصله إلى أن يُنكر نبوة النبي موسى عليه السلام ولكن ماذا كانت نهايته؟ لقد ابتلعت الأرض مع ماله: ﴿لَحْسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضُ﴾ [القصص: ٨١].

أيها الأثرياء اعتبروا.. وانظروا إلى عواقب الأمور، ستذهبون إلى القبور في نهاية المطاف وتلطف أموالكم، فاعتبروا، فالموعظة من أجل هذا، من أجل أن يتذكر أنّ العاقبة الحسنة إنما هي من نصيب المتّقين، إنّ كلّ من سار على طريق التقوى فستكون عاقبته حسنة، وإلاّ فأيّ مصائب ونكبات سيلقى أمامه!!

إنّ أصحاب الإمام الحسين عليه السلام هم نموذج لأولئك الذين انتخبوا طريق التقوى، فقد نالوا السعادة العظيمة، وأما الذين جاؤوا لقتال الإمام الحسين عليه السلام حيث كتب المؤرخون أنهم ابتلوا بالمصائب العظمى في هذه الحياة، ومنهم ذلك الملعون الذي سرق عمامة الإمام الحسين عليه السلام وأخذها معه إلى بيته، وأعطاهها ليغسلوها حيث كانت مدماة، وبعد جفافها لبسها، فأصابه صداع دائم، وكان دائماً يشنّ من الصداع حتى مات. وكذلك حدث لأمثاله، هذا عذاب الدنيا، أما في الآخرة فسوف ينالون نصيبهم من العذاب الأليم.

صفات الكمال لخاتم الأنبياء عليه السلام

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٩].

كان الكلام حول هذه الآية الشريفة التي ذكرتها السيدة الزهراء عليها السلام ضمن خطبتها، تريد أن تذكر القوم بما وصف القرآن به النبي عليه السلام حيث ليس هناك نبي من الأنبياء يحبّ أمته مثلما أحبّ الرسول الأكرم عليه السلام أمته، ولذلك فهو حبيب الله، ومظهر حبّ الله، وكما أنّ الله سبحانه وتعالى يحبّه؛ فإنّ محمداً عليه السلام رسوله يحبّ أمته ومتعلّق بها.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ العنت بمعنى الضرر والمشقة والصعوبة، يعني أنّ عدم الإيمان وارتكاب المعاصي يشقّ على الرسل والأنبياء، والذنب الذي يرتكبه واحد من الأمة أو إذا انقلب عن الإيمان إلى الفكر فإنه يشقّ على رسول الله كثيراً.

ثم يقول: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ﴾ فهو يخاف عليكم ويشتاق إليكم، يهتم

بإيمانكم وبصلاحكم وبوفودكم إلى الله، إنه مُصَرَّ على أن تؤمنوا وتصلحوا
وتتقوا، إنه حريص على إيمانكم وصلاحكم وتقواكم.

والصفة الثالثة: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَجِيمٌ﴾ أن كلَّ واحد من أمة هذا الرسول
أمن حقيقة بالله وبالرسول وبالقيامة، فإنه يكون مورداً لرحمة هذا الرسول
الأكرم بحيث يقول فيه سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا
رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

رحمته العامة تشمل الجميع، لكن السائرين على نهجه من أهل الإيمان
سينالون رحمته الخاصة، وقد ذكروا أن آية: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾
[الضحى: ٥] إنما هي بخصوص الرحمة التي ستنال السائرين على نهج
الرسول ﷺ من المؤمنين.

عندما سأل جبرائيل ﷺ من النبي محمد ﷺ أن يطلب حاجته أخبره
الرسول ﷺ بأنَّ همَّه وغمَّه في أمته، فنزلت هذه الآية الشريفة لطمأنة خاطر
الرسول الأكرم ﷺ لقد بلغت رافة الرسول ورحمته بأتمته إلى درجة عبَّر عنها
القرآن الكريم بالقول: ﴿فَلَعَلَّكَ بِنِعْمِ نَفْسِكَ عَلَيَّ آثَرِهِمْ إِن لَّرَ يُؤْمِنُونَ بِهَذَا الْحَدِيثِ
أَسْفًا﴾ [الكهف: ٦].

وفي آية شريفة أخرى يقول عزّ من قائل مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ
هُدَاهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

إنَّ الأب الظاهري الجسماني كم يحبّ أولاده ويتعلّق بهم، لكنَّ الأب
الروحاني علاقته أكثر مئات المرات، إنه ليتألم من ارتكابهم الذنب، وإمام
الزمان ﷺ هو الآن كذلك، فكل شيوعي مؤمن يرتكب معصية يتألم منها الإمام
ويتأذى.. وفرح الإمام وسروره أن يُحسن مدّعي التشيع أعماله.

ذكر (الشيخ النوري) في آخر (النجم الثاقب) ماذا يجب على المرء أن
يفعله حتى يرضى إمام العصر والزمان ويُسَرّه. فيقول ساعد إمام زمانك
لهدايتك، إنَّ أعظم توسّل وتقرّب إلى ولي العصر هو مساعدته في الهداية، وإن

كان نفسك أو زوجتك أو ابنك، في البداية لتكن أنت من أهل التوقّي لتتقرب إلى الإمام، ثم اهد من تستطيع.

ويقول رسول الله ﷺ لعلي عليه السلام: «يا علي لئن يهدي الله بك رجلاً خيراً لك مما طلعت عليه الشمس».

ومن الواضح أنّ جبل أحد لو طلي ذهباً لاستطاع أن يكسو مئات الآلاف من العراة ويشبع الجياع.. وآلاف الخيرات الأخرى مما يمكن إنفاقه.. ولكن كل ذلك يمرّ سريعاً، فالبطون تملأ على كل حال، ولكن في العالم الأبدي فإنّ إنقاذ الإنسان من الجوع والعطش أكثر أهمية، إنّ نار جهنم سنة واحدة وعشر سنوات ومائة سنة، وإنّ الجوع ليضغط على الإنسان حتى يكون مستعداً لتناول الزقوم، ويضغط عليه العطش حتى يكون مستعداً لتناول حميم الجحيم: ﴿يَشْوَى أَلْوَجُوهُ يَنسُكَ الشَّرَابَ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف: ٢٩] إذاً فإنّ من يستطيع أن يحفظ الآخرين من ارتكاب المعصية فإنه غير قابل للمقايسة مع الإنفاق المالي، مع أن الإنفاق المالي بحد ذاته مطلوب وجيد جداً.

محمد ﷺ أبي وحدي

وهنا تخرج السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بنتيجة، وهذه الصفات التي عند محمد ﷺ «فإن تعزّوه وتعرفوه تجدوه أبي..» محمد ﷺ الذي وصفه الله في القرآن بتلك الأوصاف هو محمد ﷺ المحبّ لأُمَّته، الرؤوف الرحيم، أنظروا من خلف، فسوف تجدون أنه أبي، وليس أب للنساء الأخريات، محمد ﷺ أبي وأنا ابنته الوحيدة.

«وأخا ابن عمي» وعليّ ابن عمي أخو أبي، إذاً فإنّ ما تبقى من الرسول ﷺ هو أنا وعليّ عليه السلام وهي بذلك تريد تويخ المسلمين، وكأنها تسألهم: أيجوز لكم أن تتعاملوا بهذه الصورة مع ابنته وصهره رغم أنه كان حريصاً إلى هذه الدرجة على هدايتكم ونجاتكم؟

يجب ردّ إحسان الأب بالإحسان إلى أولاده

شرح (السيد ابن طاوس) في كتاب (كشف المحجة) هذا الأمر حيث يقول: ليس في التاريخ سابقة، أنّ نبياً أو سلطاناً تعامل بحسن الأخلاق مع رعيته ثم مات وخلف أولاداً، فإنّ قومه وبدون شك وبعد عمر من الاعتراف من مائدة إحسانه، يحسنون إلى أولاد ذلك العظيم.

ثم يقول السيد: أيها المهاجرون والأنصار، لقد أنقذكم رسول الله ﷺ طوال (٢٣) سنة من الذل، وأعزكم وأخرجكم من الجهالة إلى العلم.. ولم يكن عنده سوى بنت واحدة، ولو كانت عند قوم آخرين لأكرموها غاية الإكرام والإعزاز.

ويقول (ابن أبي الحديد): نحن لا نقول إنّ فذك ملك للزهراء ﷺ وإنما هي إرث، نقول واستغفر الله، أنها كانت مدّعية فقط، فقد كان من اللائق أن لا تتصرفوا بفسادك، فكيف والحال أنها كانت ملكها، فالواجب إعادتها لها.

فما الذي كانت تفعله السيدة الزهراء ﷺ؟ كانت توزع المال على الفقراء، فأخذتموها وقلتم يجب أن نعطي نحن، قلتم إنّ فذك جزء من بيت المال ويجب أن تُعطى للفقراء، فهل كانت السيدة الزهراء ﷺ تفعل غير ذلك، إنها هي فاطمة التي كانت فرشت بيتها بجلد الشاة حيث ينام الحسان ليلاً عليه.

لقد أخذتم فذك وقلتم: يجب أن نُعطي نحن! وهذا أمر عجيب جداً، إنّ بعض علماء السنة يقولون: إنّ الله يعفو عن الخلفاء، والبعض الآخر يقول: إنها لم تكن من الذنوب الكبيرة، ولكنها كذلك لم تكن صحيحة.

إذا أردتم اليوم أن تبحثوا عن من ينتسب إلى رسول الله ﷺ فليس بين الرجال من يتمتع بذلك سوى علي ﷺ ومن هو الأقرب نسباً منه إلى النبي ﷺ حيث أخذتم الخلافة منه بحجة القرب من رسول الله ﷺ حيث قلتم كُنّا قريبين من رسول الله ﷺ فهل قربكم منه أكثر من قرب علي ﷺ منه، وقد كان أخاه؟

« ٤٠ »

«يكسر الأصنام، وينكت الهام، حتى انهزم الجمع
وولّوا الدبر، حتى تفرّى الليل عن صبحه، وأسفر
الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست
شقائق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد
الكفر والشقاق»

في هذا القسم من الخطبة تلفت السيدة الزهراء عليها السلام أنظار المهاجرين
والأنصار إلى ما تبقى من آثار أبيها عليه السلام وإلى ما بذله رسول الله صلى الله عليه وآله من جهود
في سبيل إنقاذهم، وكيف ردّوا إليه الجميل في بقيته، وهم: من النساء السيدة
الزهراء عليها السلام ومن الرجال أمير المؤمنين علي عليه السلام.

قطع جذور عبادة الأصنام

«يكسر الأصنام، وينكت الهام» كان تكسير الأصنام عملاً ليس عادياً، وهو
أمرٌ كان يشبه المستحيل، فعبادة الأصنام هو الدين الذي كان يمتدّ إلى آلاف
السنين في نفوس متجبرة، كانت ثلاثمائة وستين صنماً، وكل صنم خاص بقبيلة
من قبائل العرب، وهناك أصنام كبيرة منصوبة في أطراف الكعبة في أماكن لا
يستطيع أحد أن يصل إليها وهي محلاة بالجواهر، أما القبائل البعيدة عن

(مكة) فكانت كل واحدة منها تملك صنماً خاصاً تعبده وتعظمه وتطلب منه وتنحر له القرابين.

والمهم فيما يتعلق بمكة هو أنّ رؤساء قريش ومكة كانوا جهلاء بما يفوق الوصف، وكانوا ينتفعون مما يجلب إلى تلك الأصنام كندورات، ولذلك كان أمثال (أبي جهل) و(أبي سفيان) يدافعون عن الأصنام، لذلك فإنّ المتمولين وأثرياء الجزيرة العربية كانوا من أهل مكة، وكانوا يبثون الدعايات الكثيرة عن إعطاء الأصنام لما يطلبه الناس من تحقيق رغباتهم، وفي (حرب أحد) وعندما رفع (أبو سفيان) وبقية المشركين شعار (اعلُ هبل) أمر رسول الله ﷺ أصحابه أن يرفعوا شعار (الله أعلى وأجل). رسول الله ﷺ منذ البداية كان قد سفّه الأصنام وعبادتها، وكان ذلك العمل يحتاج إلى شجاعة وجرأة كبيرة، والله هو الذي حفظه، وفي ظاهر الأمر (أبو طالب).

وبعد أن تقوى الإسلام وفتح الرسول ﷺ مكة، وانكسر المشركون، عند ذلك قال ﷺ لعليّ عليه السلام: «ضع قدمك على عاتقي وحطم هذه الأصنام. فسوى (هبل) مع التراب في (باب الصفا) ليدوس عليه بقدمه كل من يدخل من هناك: ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفات: ٩٥ - ٩٦].

وبعد ذلك أرسل رسول الله ﷺ المسلمين إلى القبائل ليكسروا الأصنام أينما وجدت، وعندما بعث ﷺ علياً عليه السلام إلى (اليمن) قال له: «لا تدع صورة إلّا محوتها» وعرف البشر الإيمان بالغيب، ونضجت عقولهم، وعرفوا أنّ الأجسام كلها مثلهم أو هي دونهم.

«وينكت الهام» بمعنى أنه أخضع وقضى على كل الرؤساء المتجبرين.. وهذا أمر فوق العادة كذلك، أيها المسلمون لو لم يكن الرسول ﷺ قد فعل كذلك، فكيف وجد أهل «لا إله إلا الله» أمثال (أبي جهل) و(عتبة) مع أولئك الرؤساء من اليهود أمثال (مرحب) و(عمرو بن عبد ود) لقد قضى على كل هؤلاء لتقولوا بحرية: «لا إله إلا الله».

ثم قالت ﷺ: «ضارباً ثبجهم» أي أنّ رسول الله ﷺ قضى على معظم رؤساء المشركين وأهلكهم، وأذل الشرك والمشركين «حتى انهزم الجمع وولوا الدبر».

«حتى تفرّى الليل عن صبحه» حتى انقطع ليل الجاهلية المظلم ببركة الرسول العظيم، وأشرقت شمس الحقيقة ونور الشريعة المحمدية «وأسفر الحق عن محضه» حيث أشرقت الحقيقة الخالصة، وأزال حجاب الجهل عنها «ونطق زعيم الدين» وهو محمد ﷺ حيث قال الحق. «وخرست شقاشق الشياطين» أي صمتت ألسن الشياطين والمشركين، «وطاح وشيظ النفاق» وكان ظهور الإسلام وقوته وشوكته سبباً في هلاك واضمحلال رذالة أهل النفاق والشرك «وانحلت عقد الكفر والشقاق».

«وفهتكم بكلمة الإخلاص»

في مقابل هذه الخدمات التي قدّمها الرسول، نطقتم أنتم بكلمة التوحيد بلسانكم، إنّ كلمة الإخلاص تتمثل بكلمة: «لا إله إلا الله».

إنّ المعبود واحد، وهو المغيث والمنجي والرازق والمحيي والمميت وكل شيء بيده: «لا إله إلا الله وحده، لا شريك له» وليس له شريك في أفعاله.. وكل شيء في الوجود طوع إرادته.

«فهتتم» يقول بعض العلماء والمحققين إنها كناية عن القول باللسان، أي قلتم: لا إله إلا الله. ولكن حقيقتها غير واضحة فيكم، وشاهد ذلك هو ما إن غاب الرسول ﷺ عن أنظاركم؛ حتى حلتّ عبادة الأهواء والذات محل عبادة الله. لقد فهتتم بها بلسانكم، وإلا فلو كانت قلوبكم قد انصهرت بها لما كنتم تركتم طريق العبودية لله، في حين أنكم سلكتم طريق حبّ الذات والأنا والرئاسة، ولهتتم وراء المال والدنيا وملذاتها.

الذين ابيضت وجوههم هم المؤمنون الحقيقيون

«ونفر من البيض الخماص» إنكم يا معشر المسلمين تقفون في طرف، ويقف أهل بيت العصمة والطهارة عليهم السلام في طرف آخر، أنتم أهل: «لا إله إلا الله» باللسان، ولكن أصحابها الحقيقيون هم عدة أنفار من أهل بيت العصمة والطهارة، إنهم: علي وفاطمة والحسين عليهم السلام وعدد من الأنفار الموالين والمرتبطين بهم أمثال: سلمان وأبي ذر والمقداد وعمار.. لقد كانت وجوههم بيضاء مطلقاً دون أي ذرة من الظلام في جميع مراحل حياتهم، وليس هناك أي مغمز في نسبهم: «لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها» فنسبهم في منتهى الطهارة والوضوح.

أهل البيت الذين طهرهم الله حيث قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ [الاحزاب: ٣٣] وهم الذين قال إنهم ابيضت وجوههم: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٧] ليس في حياتهم وسيرتهم أي مغمز، ولم ينحرفوا ولو للحظة واحدة في حياتهم عن صراط العبودية لله..

اللهم بيض وجوهنا يوم القيامة، عندما تتوضأ أيها المسلم، فإن من المستحب أن تدعو الله وتقول: «اللهم بيض وجهي يوم تسود الوجوه، ولا تسود وجهي يوم تبيض فيه الوجوه».

الروحانية لا تنسجم مع الإسراف في الأكل

«الخماص» من خميص، وهو في اللغة بمعنى لصيق البطن، وهي كناية عن النحافة، أي أنها خالية من الحرام، فإن أي لقمة من الحرام لم تدخل في أي لحظة في بطون هؤلاء الطاهرين البيض الوجوه، أما المعنى الظاهري لخمص البطون، فهو أن الإنسان كلما كان قليل الأكل؛ فإن روحه تكون أكثر لطفاً وقلبه أكثر رقة، فالأكل القليل يساعد على رقة القلب ولطافة الروح.

وفي رواية نقلها في (الكافي) أنّ العبد أبعد ما يكون من ربه عندما يكون ممتلئ البطن ففي تلك الحال يكون القلب غليظاً، والشخص الأكل مدموماً.

وهذه الصفة «الخصائص» التي تذكرها السيدة الزهراء عليها السلام لأهل البيت عليهم السلام لتقول إنني عندما أطالب بفدك، فليس من أجل إشباع بطن، فسواء كانت (فدك) تحت تصرف السيدة الزهراء عليها السلام أو ليست تحت تصرفها، فإن ذلك لن يغيّر من طريقة حياتها، وسواء كانت في حياة أبيها أو بعد حياته - لقد طالبت السيدة الزهراء عليها السلام بفدك من أجل أن تكون ذريتها عزيزة.

والشيء الآخر هو من أجل أن تنفق ما زاد منها على الفقراء، كما كانت تصلهم.

إن هؤلاء الجهلة رأوا أنّ بقاء (فدك) تحت تصرف (عليّ وفاطمة) لا ينسجم مع متطلبات حكمهم.

يروى أنّ الرسول صلى الله عليه وآله عندما ذهب لرؤية السيدة الزهراء عليها السلام لاحظ أنّ عينيها غارتا في منخفض، وحولهما لون أصفر. فسألها عن ذلك وسبب ما شاهد فيها من الضعف، فأخبرته بأنّ شيئاً لم يدخل بيتها منذ يومين لتأكله.

أردت أن أوضح وضع السيدة الزهراء عليها السلام وسيرتها حيث تطوي على الجوع يومين، أو ثلاثة أيام تصومها، ثم لا تفطر إلا على الماء، حيث تعطي طعامها عند الإفطار إلى الفقراء ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ﴾ [الإنسان: ١] وفي اليوم الرابع وحينما أتى الرسول صلى الله عليه وآله إلى بيت السيدة الزهراء عليها السلام كان الحسنان يرتجفان من الجوع.

إنّ الجوع يقوّي الروح وينمّيها لدى الإنسان ويؤدي إلى لطافة الروح ورقة القلب، ولذلك فإنّ أهل البيت عليهم السلام كانوا يحبّون الصوم.

« ٤١ »

«فإن تعزّوه، وتعرفوه، تجدوه أبي دون نساءكم،
وأخا ابن عمّي دون رجالكم، ولنعم المُعزّي إليه ﷺ
فبلغ بالرسالة، صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة
المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً
إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة»

أخوان كموسى وهارون

كان كلام السيدة الزهراء ﷺ المتقدم شرح لطبيعة الخدمات التي قدّمها
الرسول ﷺ وحقوقه على هذه الأمة، وما لاقاه من المصاعب والمشاق، ثم
تذكر الآية الكريمة في وصف والدها ﷺ.

ثم تذكر السيدة الزهراء ﷺ أخوة النبي ﷺ مع زوجها وابن عمها أمير
المؤمنين عليّ ﷺ.. هناك روايات كثيرة ومتواترة من طرق الشيعة والسنة، فقد
وردت عن طرق السنة في (صحيح الترمذي)، و(مسند أحمد بن حنبل)، وفي
(كنز العمال) و(ينابيع المودة)، حيث يتصل سندها بعمر حيث نقل (عمر)
حديث الأخوة، نقلها عنه ابن عمر، كما وردت عن طريق الشيعة أيضاً.

حديث الأخوة

في (غزوة تبوك) وعندما أراد الرسول ﷺ أن يهيئ الجيش للحركة صمّم

على المؤاخاة بين كل اثنين من المسلمين، حتى إذا استشهد أحد الأخوين يقوم أخوه (الذي عقد بينهما الرسول عقد الأخوة الدينية الإيمانية) بإدارة شؤون عائلة الشهيد، ولذلك فقد عقد الرسول بين كل اثنين عقد الأخوة، ولم يُعَيِّن لعلِّيّ أخ؟ واستغلّ المنافقون الذين كانوا موجودين في تلك الآونة هذه الفرصة، وأشاعوا أنّ علياً ليس بشيء حتى يعقد له الرسول ﷺ عقد الأخوة مع أحد من المسلمين، وعندما وصل الخبر إلى رسول الله ﷺ فصعد الرسول ﷺ المنبر وأخى بينه وبين علي ﷺ.

وفي رواية أخرى، إنّ الرسول ﷺ رأى علياً ﷺ محزوناً كثيراً، فسأله عن ما يحزنه، فأخبره بما يقولون.. فقال الرسول ﷺ حسب رواية عمر: «أنت أخي ووصيي وخليفتي ووارثي وقاضي ديني» وقد قرأ المحقق الطوسي (قاضي ديني) بكسر الدال.

ولا يقولونَ أحدٌ إذا كان (عمر) هو الذي يروي الحادثة، فلماذا لم يُطع؟ فجواب هذا السؤال هو أن (عمر) يؤمن بذلك، ولكنه قال إنه ليس من الصلاح أن يتولّى عليّ ﷺ بعد الرسول ﷺ الخلافة، لأنه ما زال شاباً وله أعداء كثيرون.

إنّ عقد الأخوة هذا من الأمور المسلّم بها عند جميع المسلمين، فقد روى العامة والخاصة هذه الرواية، ولذلك تذكر السيدة الزهراء ﷺ هنا «وأخا ابن عمي دون رجالكم» أيها المهاجرون والأنصار من منكم وصل إلى هذه السعادة، حيث محمد ﷺ أخوه، ثم ها أنتم تركتم أخا محمد ﷺ جانباً.

ثم تقول ﷺ: «ونعم المعزى إليه» إنني أنتسب وعليّ إلى محمد ﷺ وإنه لعظيم جداً أن ينتسب الإنسان إلى محمد ﷺ الذي هو أشرف الكائنات، ومن ينتسب له يكون له نصيب من الشرف.

«فبَلِّغِ الرِّسَالَةَ» لقد تحمّل أبي (٢٣) سنة أعباء الرسالة على عاتقه وأوصلها، ومع أنه واجه الصعوبات والمشاكل والعذابات، إلّا أنه صمد أمام

كل ذلك «صادعاً بالندارة» وهذه إشارة إلى الآية الشريفة ﴿فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ [الحجر: ٩٤]، أي يا محمد أعلن ما أمرت به من الدين.

لقد كان وضعاً صعباً للغاية، فلو طالع الإنسان تاريخ أول البعثة النبوية، فسيجد أن عدداً من مشركي مكة المتجبرين الذين ليس فيهم ذرة تُظهر.. أنه قال لهم: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨].

لقد كان ذلك في الحقيقة موقفاً صعباً للغاية، إلا أن رسول الله ﷺ بما كان يتمتع به من شجاعة عظيمة ودعم إلهي فقال صدح بالنداء بكلمة «لا إله إلا الله» إن كل ما تعبدون من دون الله، باطل، وإن ما تفعلونه غلط.

«بالندارة» من مادة إنذار، إذا عرض المشركون فأنذرهم العذاب الأليم ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ..﴾ (١) ..

فهذا الرسول ﷺ قد تجنّب منذ البداية وحتى النهاية «مدرجة المشركين» وعقائدهم، والمدرجة: الطريقة. نعم فقد تجنّب طريقة المشركين وأعمالهم القبيحة التي تُعدّ، سواء في معاملاتهم التجارية، أو في زواجهم، أو في لعبهم القمار، أو شرب الخمر، أو الزنى، وعبادتهم التي تدعو للسخرية.. كانوا إذا أرادوا الطواف حول الكعبة خلعوا ملابسهم وقالوا إننا ارتكبنا الذنوب ونحن نرتديها.. كانوا يطوفون عراة، وإذا كان أحدهم يملك ملابس أخرى ارتداها، وإلا فإنه يطوف وهو عار حول الكعبة.. نساءً ورجالاً، وكانوا يهرولون حول الكعبة وهم يصفقون بأيديهم ويصفرون بأفواههم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً﴾ [الأنفال: ٣٥].

«ضارباً ثبجهم» بمعنى الرقبة أي ضرب رقابهم بقوة، كم من المشركين قتلوا في الحرب.

«أخذاً بأكظامهم» قطع أنفاسهم، كأنه أمسك بهم من أنوفهم.. ولا يعني

(١) سورة الأنفال، الآية ٣٥.

هذا أنه أكرههم.. لأنّ البعض ممن استخدم معهم الشدّة لم يكونوا أنفسهم من أهل التوحيد، وما كانوا يدعون الآخرين لكي يصيروا من أهل التوحيد. إنّ كلّ الحروب التي وقعت، لم يكن الرسول ﷺ فيها البادىء بالحرب وإنما هم الذين ابتدأوا الحرب ضده.

إذا فليس في موقفه ﷺ منافاة مع: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦] إن أردتم أن تؤمنوا أو لا تؤمنوا، لكنهم جاؤوا للحرب بأنفسهم وشتوا هجومهم على الرسول ﷺ لقد أعلنوا الحرب على الرسول ﷺ وعلى كل من تبعه، حتى أنّ الرسول ﷺ تعرّض وهو في (مكة) إلى ثلاث سنوات من الحصار في (شعب أبي طالب)، ثم عندما هاجر الرسول ﷺ كان المشركون يصادرون أموال كل مسلم يهاجر إلى المدينة، حتى انتهى الأمر إلى (صلح الحديبية) وتمّ الاتفاق على أن أحداً من أهل مكة أن جاء إلى المدينة فإن الرسول ﷺ لن يقبله.

أما الذين كانوا يريدون اقتلاع جذور وأصل الإسلام وهو التوحيد، فقد أصرّوا على البقاء على الأوضاع السابقة.

ولذلك فإنّ الرسول محمداً ﷺ ضرب أعناقهم وقطع أنفاسهم، وفي نفس الوقت: «داعياً إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة».

إنّ المسلمين بعد كل صلاة يسلمون على النبي ﷺ ويقولون: «أشهد أنك رسول الله، وجاهدت في سبيل ربك، فجزاك الله يا رسول الله أفضل ما جرى نبياً عن أمته».

إن من واجب كلّ مسلم أن يدعو لهذا النبي العظيم، إنّ الأمة عاجزة عن الإيفاء بدينها لما قدّمه الرسول ﷺ إليها من خدمة عظيمة.. ولا يتمكّن من ذلك إلاّ الله، والمقدار الذي تستطيع الأمة الوفاء به هو حبّ أولاد الرسول ﷺ وذوي القربى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣].

« ٤٢ »

« وفهتَم بكلمة الإخلاص في نفرٍ من البيض
الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار مُدقة
الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ
الأقدام، تشربون الطَّرْق، وتقتاتون القدَّ، أذلة
خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم
فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد عليه السلام »

لقمة لإيران وروما القديمة

تقول الآية الشريفة: ﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي أيها المسلمون أنظروا إلى ما كنتم عليه قبل الإسلام، وكيف أصبحتم بعد الإسلام، يا أهل مكة والمدينة، ويا قبائل العرب.. كيف كانت حياتكم قبل الإسلام، ثم كيف أصبحت؟ أما آخرتكم «وكنتم على شفا حفرة من النار» كنتم على حافة جهنم تكادون تحترقون بها لو مَتَم في زمن الجاهلية، لقد كنتم مشركون، ما كنتم تعرفون، ما هو التوحيد، وماذا كان عندكم من علم عن لا إله إلا الله، كنتم تعبدون الصنم وترقصون.. وتقومون بأعمال مخجلة.

أما دنياكم فقد كانت مليئة بالمصائب وفي منتهى سوء الحظ، حيث تعبر السيدة الزهراء عليها السلام عن ذلك تعبيراً دقيقاً «مُدقة الشارب» أي لقد كنتم ضعفاء

جداً، بغير تمدّن، كنتم وحوشاً، مقسمين ليس لديكم حكومة تجمعكم، ولا قدرة لكم على حفظ كرامتكم.

الحروب الداخلية مصيبة إلى جانب المصائب الأخرى

وعلاوة على ما تقدّم كانت الحروب الداخلية التي تجلب الدمار والويلات، وهذه المدينة ويثرب كانت الحرب فيها قائمة لمدة مائة عام بين قبيلتين هما: قبيلتا الأوس والخزرج، ولم تكن حياتكم حياة، بل كنتم طعمة لمن يطمع فيكم.

«وموطئ الأقدام» أذلاء «تشربون الطّرق وتقتانون القدّ» قبل أن تدخلوا الإسلام كنتم تشربون الطّرق، وهو ماء المطر المتجمّع في منخفض والملوث بالقاذورات، وتأكلون أوراق الشجر، لم تكونوا شيئاً ذا بال.

تذكرهم السيدة الزهراء عليها السلام بتاج العزّة الذي وضعه الإسلام على رؤوسهم، حين أخرجهم من الوحشية، والأخطار الظاهرية والباطنية وأنجاهم، ورفع رؤوسكم من بعد تلك الصفعات، وأعطاكم الشرف العظيم حيث جعل أعداءكم أذلاء لكم، وأعطاكم ما يملكون من غنائم لكم.. وكانت السيدة الزهراء عليها السلام تريد أن تقول: فهل بعد كلّ هذا تتعاملون بهذه الطريقة مع ابنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم الوحيدة؟.

الإسلام ليس دين القوة، إنه دين الفطرة

وعلى هامش الموضوع اذكروا ما يلي: إنّ النصارى من جملة ما يكتبونه ضد الإسلام هو أنّ الإسلام دين القوة، وأنه انتشر بقوة العرب والسيف، وهذا الكلام خطأ وخلاف للحقيقة والواقع، وهو كذب في نفس الوقت وتهمة باطلة، فالإسلام في حقيقته مطابق للفطرة البشرية السليمة، وهذا ما جعله ينتشر بسرعة، وهل نسي النصارى الحروب الصليبية التي استمرت مائة عام..

إما أن تصبح مسيحياً أو تُحرق بالنار.. لقد فعلوا ذلك أمير المؤمنين ثم يتهمون الإسلام بمثل هذه التهمة!!

وأين ومتى فعلت الحكومات الإسلامية مع النصارى بمثل هذا العمل: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وإذا كانت هناك حروب قد وقعت، فإنها من أجل إزالة الموانع عن طريق التوحيد، إنهم يقاتلون الحكومات التي تمنع شعوبها من التعرف على الإسلام، إنهم يقاتلون من أجل أن يصل الإسلام إلى البشر ليكونوا مسلمين موحدين متدينين.

أفضل القرون زمان النبي ﷺ

في الرواية إن (أصحاب الصفة) كانوا أربعمئة نفر من المسلمين الذين هاجروا إلى المدينة، وكان الرسول ﷺ يدير شؤونهم المعاشية من الزكاة وكان يقسم بينهم الشعير والتمر، وفي أحد الأيام شكوا أحدهم الرسول ﷺ من أن طعامهم يوماً شعيراً وآخر تمرّاً أو قد مرّ على هذا الحال مدة طويلة، فأظهر له الرسول ﷺ أن الدنيا سوف تفتح عليهم بعد رحلته ﷺ عن هذه الدنيا.

فقال الجاهل: وهل أنا حيّ عندها؟ فأجاب الرسول ﷺ بأنّ هذا الزمان الذي هو فيه أفضل الأزمنة، وإنه ﷺ يخشى أن يقع المسلمون في حبّ الدنيا إذا انفتحت عليهم، ويترك المسلمون الخوف من الله، ويزول الخشوع من الله.

ولذلك فإن السيدة الزهراء ﷺ تذكر في آخر خطبتها هذه الآية الشريفة: ﴿أَفَايِنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَيَّ أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤] لقد تحمّل الرسول ﷺ مشاقّ وصعوبات ثلاثة وعشرين عاماً من أجل أن تؤمنوا بقلوبكم بالله واليوم الآخر، وأن تتذكروا دائماً الله والآخرة، ولكن ما أن انتقل الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى؛ حتى تكالبتهم على الرئاسة والدنيا، فذاك يقول: منا رئيس. وآخر يقول مثل مقالته.

وما دام الرسول ﷺ موجوداً، فإنّ دم المسلم محترم، ولكن ما إن انتقل

الرسول إلى الرفيق الأعلى؛ حتى أخذوا يقتلون المسلمين بشتى الحجج والمعاذير والمبررات.

إنّ السيدة الزهراء عليها السلام تحذّر المسلمين.. ماذا أنتم فاعلون؟ لقد أضعتم طريق الإسلام، هذا البناء الظاهري ليس إسلاماً، هذا البناء يحتاج إلى الخوف والرجاء، الخوف من العذاب والرجاء بثواب الآخرة.

وحين اقتربت ساعة الوفاة من الرسول صلى الله عليه وآله قال: «وأن لا تعلقوا عن الله في بلاده» إياكم والسعي نحو التحكّم بعباد الله، وماذا فعل (معاوية) غير العلوّ في الأرض.

إنهم يدافعون عنه فيقولون: إنه كان مجتهداً!

ثم تقول السيدة الزهراء عليها السلام: «فأنقذكم الله تعالى بمحمد صلى الله عليه وآله» فببركة محمد صلى الله عليه وآله انتصرت أيها المسلمون في الحروب، ونجاكم من عذاب جهنم ونكبات الدنيا، فهل جزيتموه جزاءً حسناً؟ وهل أظهرتم المودة لذريته؟ ماذا فعلتم بابن عمه وأخيه؟ إلى أين عدتم؟ لقد تحمل محمد صلى الله عليه وآله المشاق والتعب حتى هداكم ووجهكم نحو الله والجنة والآخرة، ولكنكم عدتم إلى حبّ الرئاسة.

طبعاً فيما بعد تاب بعضهم، والآن الأمر كذلك ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ﴾ [الأنعام: ٩١] فلا تأسوا من العودة إلى الصراط المستقيم. اللهم بحق محمد صلى الله عليه وآله وفقنا للاستقامة على طريق العبودية.

* * *

«وبعد اللّيا والتي ، وبعد أن مني بيهم الرجال ، وذؤبان العرب ، ومردة أهل الكتاب ، كلّما أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله ، أو نجمَ قرن للشيطان ، وفغرت فاغرة من المشركين ، قذف أخاه في لهواتها».

وصلت السيدة الزهراء عليها السلام في كلامها إلى بيان جهود النبي محمد صلى الله عليه وآله وحقوقه على الذين بذل جهده في سبيل هدايتهم ، وأين وصل بالعرب ، كيف كانوا وكيف أصبحوا؟ كانوا خاسرين لدنياهم وآخرتهم ، فأصلحهم .

فقد جاء الرسول صلى الله عليه وآله فأنقذهم من نار جهنم والكفر والنفاق : ﴿ وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا ۗ ﴾ [آل عمران : ١٠٣].

جهود أمير المؤمنين علي عليه السلام في الإسلام

وبعد كلّ هذه الحوادث الجسيمة ، والنصر الذي منحه الله لرسوله «وبعد أن مني بيهم الرجال» ومن هنا بدأت السيدة الزهراء عليها السلام باستعراض الجهود التي بذلها أمير المؤمنين علي عليه السلام.

أيها المسلمون الذاكرون للحق ، هذه هي حقوق محمد صلى الله عليه وآله أما حقوق أمير المؤمنين علي عليه السلام ففي كلّ وقت كان ذؤبان العرب يشعلون نار الحرب ليحرقوا جذور الإسلام أو «نجم قرن للشيطان» أمثال : عمرو بن عبد ود حينما

جاء للحرب ضد المسلمين، هل كان فيكم من يجرؤ على قتاله؟ لقد قرأتم وسمعتم أنه عندما جاء للحرب أخذ ينادي المسلمين: أستم تزعمون أن من يُقتل منكم يذهب إلى الجنة؟ فلم يجرؤ أحد أن يبرز لقتاله.

أمير المؤمنين عليّ عليه السلام في المواجهات الصعبة

«وفغرت فاغرة من المشركين» وإذا فتحت أفاعي المشركين أفواهاها لتبتلع المسلمين «قذف أخاه في لهواتها» أي أرسل الرسول ﷺ بأخيه علي بن أبي طالب عليه السلام لمواجهةها والقضاء عليها.

يقول ابن أبي الحديد: إنني لا أنسى فرار (عمر) يوم أحد عندما ارتفع صوت يقول: قُتِل محمد. الجميع ذهب، والشخص الذي بقي صامداً، كان عليّ عليه السلام وعدة من الصحابة، مثل: أبي دجانة، وسهيل، وعشرة أنصار آخرين. والخلاصة إنَّ الرسول ﷺ عندما وقع على الأرض فرَّ الجميع من المعركة، وجاء المشركون من كلِّ جهة للإطاحة بالرسول ﷺ وكان الرسول ﷺ يقول: يا عليّ من هذه الجهة، يا عليّ من هذه الجهة.

إنكم جميعاً تعرفون قصة (عمر بن عبد ود)، وكان أمير المؤمنين عليّ عليه السلام هو الشخص الوحيد الذي ذهب لمواجهة الفارس الصنديد، وقته.

لم تراعوا حق أمير المؤمنين عليّ عليه السلام

ثم تقول السيدة الزهراء عليها السلام كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يقذف به رسول الله ﷺ في أتون هذه الأخطار وأمثالها، وكان فدائياً، أما أنتم فقد آثرتم الراحة والسلامة، وما أن انتقل رسول الله ﷺ إلى ربه؛ حتى انقلبتم وأخذتم تحتالون للوصول إلى الرئاسة والسلطة، نحن قريبين من رسولنا، فيا مهاجرين وأنصارنا أين حقوق أمير المؤمنين علي عليه السلام؟

«مجتهداً في طاعة الله، مكدوداً في ذات الله، قريباً من رسول الله ﷺ سيداً لأولياء الله».

وكان أمير المؤمنين علي عليه السلام مع كل هذا الجهاد، يسعى ويتحمل المصاعب في ذات الله في سبيل إعلاء كلمة التوحيد، وكنتم في تلك الآونة قد اختفيتم، ولكنكم الآن انقلبتم أسوداً، وبقطع النظر عن قضية الغدير وغيرها، ولكنكم لشد ما اتبعتم هواكم وكفرتم بالنعمة؛ دُستم حقوق الله، إن عبادة الدنيا ضد الإيمان، إن الإيمان بالله لا ينسجم مع عبادة الدنيا، ولا تجتمع عبادة الله وطلب الآخرة مع طلب الدنيا، يجب أن تكونوا موحدين، أو مشركين، كان الرسول صلى الله عليه وآله يدفع بأمر المؤمنين علي عليه السلام لمواجهة كل مشكلة، ليقضي على كل ذنب.

وكنتم أنتم حاضرون.. وكانت خدمات علي عليه السلام أمام أعينكم.. حتى تمكنتم أن تعلنوا كلمة لا إله إلا الله.

نماذج من فداء أمير المؤمنين علي عليه السلام

أكتفي هنا بنموذج واحد أنقله من (كتاب البحار) المجلد التاسع، وهو بصورة مختصرة، أن ثلاثة من عتاة المشركين، تعاهدوا في مكة وأقسموا بالللات والعزى، أن لا يرتاحوا حتى يقتلوا محمداً صلى الله عليه وآله. فصمّموا على ذلك، وذهبوا بصورة سرّية ووصلوا إلى المدينة ليقتلوا محمداً صلى الله عليه وآله وكان جبرائيل عليه السلام قد أخبر الرسول بالأمر حين تحركوا من مكة حتى وصلوا المدينة. وأمره جبرائيل أن يرسل علياً عليه السلام إليهم.

صلى الرسول صلى الله عليه وآله صلاة الصبح والتفت إلى المسلمين وقال: أيها المسلمون أخبرني حبيبي جبرائيل أن ثلاثة من المشركين صمّموا على قتلي، وأقسم بالله أنهم لا يستطيعون ذلك، فهل هناك من شخص يدفعهم عنا ويقتلهم؟ فلم يجب أيّ أحد. فقال الرسول صلى الله عليه وآله كأنّ عليّ غائب؟ فقال أبو رافع: كان الليلة الماضية محموماً يا رسول الله صلى الله عليه وآله فلم يحضر اليوم صلاة الصبح جماعة، فهل تأذن لي أن أذهب فاخبره؟ قال: نعم.

فذهب فوراً إلى دار أمير المؤمنين علي عليه السلام وأخبره بالقصة، وأخبره أنّ

رسول الله ﷺ يطلبه من أجل هذا الموضوع. فلبس أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قميصه مسرعاً، ووصل عند رسول الله ﷺ فأخبره رسول الله ﷺ بالموضوع، فقال: يا رسول الله أتأذن لي أن أذهب وأتي بسيفي ودرعي. فقال: لا أريدك أن تذهب. ثم وضع عمامته المباركة فوق رأس أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وألبسه سيفه ودرعه وأعطاه فرسه.

فتحرك أمير المؤمنين عليّ عليه السلام وانقطع خبره ثلاثة أيام، وكان الرسول ﷺ ينتظر وصول الوحي، وفي اليوم الثالث جاء جبرائيل الرسول ﷺ وأخبره بأن عليّاً سيعود اليوم مكللاً بالظفر والنصر. فقال رسول الله ﷺ: هل من يأتينا بخبر عليّ؟ فتطوع أبو رافع وذهب، وأخيراً جاء أمير المؤمنين عليّ عليه السلام يحمل بيده رأساً ويسوق أمامه أسيرين، ومعه ثلاثة جياذ وثلاثة جمال.

فقال الرسول ﷺ: يا عليّ إنّ حبيبي جبرائيل أخبرني بما فعلت، ولكن قل أنت. قال: عندما وصلت إليهم في الوادي الفلاني، فهجم عليّ الذي رأسه بيدي، وقال: من أنت؟ قلت: عليّ ابن عم رسول الله. فقال دون حياء أو خجل: لا نعرف الله من رسول لقد جئنا لنقتل محمداً، ولا فرق بينه وبينك، وسوف نقتلك ثم نقتل محمداً.. فسمعت نداءً يقول: يا عليّ نحن نضرب الدرع من جهة الرقبة، فاضرب أنت هناك. فضربته. ثم جاء النداء: نحن نضرب على فخذك، فاضرب أنت هناك. فضربته، فسقط.. فقال الرسول ﷺ: هذا نداء جبرائيل. وأتمّ عليّ عليه السلام القصة، فقال: وأردت قتل الاثنين. فالتمساني أن لا أقتلها، وطلباً مني أن أخذهما إلى محمد ﷺ وقال: نعرفه رؤوفاً رحيماً.. فجئت بهما أسيرين.

فقال أحدهما: قربني. فقال له: تعال وأسلم وقل لا إله إلا الله. وكان الرسول ﷺ يحاول تخليصه من الشيطان عن طريق الإيمان، فقال ذلك الشقي: لأن تقول لي احمل جبل أبي قبيس، فهو أهون عليّ من قول لا إله إلا الله. فأمر الرسول ﷺ بقتله. وأمر بجلب الثاني، وطلب من عليّ أن يعرض

عليه الإسلام فلعله يقبل، وإن لم يقبل فليقتله، فعرض الإسلام على الثاني، فقال أريد طريق رفيقي، فأمر الرسول ﷺ علياً بقتله، فنزل الوحي يقول: إن لهذا الرجل صفتان وهما محبوبتان عند الله: الأولى حسن الخلق، والثانية السخاء والكرم، فلا تقتله. فأمر الرسول ﷺ علياً ﷺ أن لا يقتله، وأطلقه، فقال: لماذا تركتموني، أستم أردتم قتلي؟ فقصّ عليه عليّ ﷺ الواقعة، وأنّ الوحي نزل على الرسول ﷺ وأنه بسبب كرمه وحسن خلقه أعفاه الله من القتل.

فقال: وما يدري محمداً بحالي، فأنا لا أملك درهماً، وكلّ ما عندي هو عند قومي، وما دام محمداً ﷺ قد عرف أنه يقول الحق، فأسلم وقال: لا إله إلا الله. وأصبح واحداً من المسلمين.

أمير المؤمنين عليّ ﷺ أخ الرسول ﷺ دون غيره

خلاصة حديث المؤاخاة هي أنّ رسول الله ﷺ قد آخى بين كل اثنين من المسلمين فأخى بين أبي بكر وعمر، وعثمان بن عفان مع عبد الرحمن بن عوف، وبعد أن فرغ من مؤاخاة أصحابه قال لعليّ: «يا علي أنت أخي وأنا أخوك» وكان أمير المؤمنين عليّ ﷺ عندما يخطب وهو على المنبر يقول: «أنا عبداً لله وأخو رسول الله».

والخلاصة إنّ السيدة الزهراء ﷺ قالت: «قذف أخاه في لهواتها» إشارة إلى الصعوبات والأخطار التي واجهها أمير المؤمنين عليّ ﷺ في سبيل الدفاع عن الإسلام وتثبيت الدين، وأنه لم يكن يرجع حتى يخمد الفتنة ويطفىء نار المشركين بماء سيفه البتار.

«مكدوداً في جنب الله» وهي إشارة إلى الإنهاك والتعب الذي كان عليّ ﷺ يعانيه بعد عودته من الحرب ضد المشركين.

فقد رُوي عنه ﷺ أنه جرح في (معركة خيبر) خمسة وعشرين جرحاً حتى أنّ رسول الله ﷺ دمعت عيناه لحاله، وداوى جروحه بدموعه ﷺ فشفيت.

وفي (أحد) أصابته أربعين جراحة: وفي رواية أخرى سبعين، وفي غيرها تسعين.

«مجتهداً في أمر الله» أي كان ساعياً باذلاً نفسه في تنفيذ أوامر الله.

القرب الصوري والمعنوي بالرسول ﷺ

«قريباً من رسول الله ﷺ» كان أمير المؤمنين علي عليه السلام قريباً من خلق رسول الله ﷺ أما القرب الصوري، فقد كان ابن عم رسول الله ﷺ ابن عمه من الأب والأم بالإضافة إلى كونه صهرًا للرسول ﷺ. ويكفي لتأكيد هذا القرب المعنوي (واقعة المباهلة) حيث عبّر الله سبحانه وتعالى عنه ﷺ بأنه نفس النبي ﷺ.

الصفات الحميدة لأمير المؤمنين علي عليه السلام

«سيداً في أولياء الله» فكما أن رسول الله ﷺ هو سيد الأنبياء، فإن أمير المؤمنين عليه السلام له الأفضلية على أولياء الله وهو سيدهم، وإن لقب أمير المؤمنين علي مختص به، وقد ورد عن الرسول ﷺ قوله: «عليّ خير البشر، فمن أبى أو شكّ فقد كفر».

مُشمرًا ناصحاً مُجدِّدًا كادحاً

«مُشمرًا» تفيد معنى الاستعداد والتهيؤ، الاستعداد لتنفيذ الأوامر الإلهية وأمر الرسول ﷺ.

«ناصحاً» من نصح، والنصيحة هي ضدّ الغشّ والخيانة، وبمعنى طلب الخير، والعمل انطلاقةً من الصدق والإخلاص، والنصح مع الله والرسول والقرآن والإمام والخلق تأتي بهذا المعنى. النصح مع الله، هي أن لا يجعل له شريكاً، وأن لا يحتال بمعنى الابتعاد عن الرياء في العبادة، وأن يحذر من عبادة هوى النفس والشيطان، وأن لا يحب المنكر وأعداء الله والرسول.

والنصح مع القرآن الكريم أن يعتقد به بأنه كلام الله، وأن يُعزّه ويحترمه، وأن يعمل بما جاء فيه، وأن ينتفع مما فيه من النصائح، وأن ينتفع ويستفيد من قراءته والتدبّر في آياته.

والنصح مع الرسول، هو تصديق نبوته وأن نطيع أوامره، وأن لا ينظر إليه كبشر عادي، بل إنه منتخَب من الله سبحانه وتعالى، وأنه رسول الله، وأنه معصوم، وإنّ كل ما يقوله فهو من الله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾ [النجم: ٤].

والنصح مع الإمام، هو أن يعتقد به بأنه وصي رسول الله ﷺ وأنه منصوب من قبله، وأنه حجة الله، وأمره أمر الله والرسول.

ما هو النصح مع المؤمنين؟

أوجبت بعض الروايات النصح على المؤمنين لبعضهم، فقد روي في (الكافي) عن الإمام الصادق عليه السلام قوله: «يجب للمؤمن على المؤمن النصيحة في المشهد والمغيب».

كما روي عن الإمام الباقر عليه السلام قوله: «لينصح الرجل منكم أخاه كنصيحته لنفسه» ومعنى النصيحة للمؤمن هو إرشاده لما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة، فإذا كان لا يعلم يُعلّمه، وإذا كان غافلاً عن ما هو أصلح له فإنه ينبهه، ويساعده إذا كان يحتاج إلى المساعدة في حفظ ماله وجاهه وكرامته، واجتناب خيائته أو حسده، وأن يسعى في دفع الضرر عنه وإيصال النفع إليه.

وإذا لم يقبل النصيحة، فيجب بذلها عن طريق الرفق والعطف حتى يقبل، وإذا كان في أمر الوالدين، فالواجب أن يكون ذلك عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع مراعاة درجات ذلك.

وفي نفس الوقت الذي تكون فيه تقديم النصيحة واجبة على المؤمن، فإن قبولها واجب على المؤمن.. وذكر شواهد ذلك موجب لطول الكلام هنا.

النصح مع النفس اجتناب ما يضرّها

والنصح مع النفس، هو طلب الخير دائماً للنفس، أي اجتناب كل ما يضرّ دنياه مثل إيصال الضرر إلى البدن والمال.

وكذلك اجتناب ما يسبّب الضرر لآخرته، وهو في المرحلة الأساسية - الذنب - حيث يجب أن يراعي أداء الواجبات وأن لا يرتكب حراماً.

وعندما يتوب من الذنب فالواجب أن يكون ناصحاً في توبته، كما ورد الأمر بذلك في القرآن الكريم ﴿يَتَّئِبُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨].

المعاني المختلفة في معنى التوبة النصوح

وردت عدّة وجوه في معنى التوبة النصوح، الأول: أن يتوب توبة إذا رآه أي أحد وهو عليها يعرف أنه من أهل التوبة، وذلك بسبب الآثار الحسنة التي تظهر عليه بسبب التوبة. والخلاصة فإنه يدعو الآخرين إلى التوبة عن طريق سلوكه وعمله، وفي هذه الحالة فإن توبته بمثابة نصيحة الخلق ودعوتهم إلى التوبة.

والوجه الآخر: أن يكون في توبته ناصحاً لنفسه، وأن لا يكون خائناً لنفسه، وأن ينصرف تماماً عن ذلك الذنب الذي تاب منه ولا يقترب منه.

والوجه الثالث للتوبة النصوح: أن تكون خالصة فقط لله، أي أنه يستحي من الله مما ارتكبه من ذنب، وليس بسبب ما ألحقه الذنب به من ضرر دنيوي.

نصح أمير المؤمنين علي عليه السلام مع الإسلام والمسلمين

والآن بعد أن أصبح معنى الناصح معلوماً بصورة عامة، نقول إن أمير المؤمنين علي عليه السلام كان ناصحاً بكل معنى الكلمة.. وإن شرح ذلك يطول، ولكن فقط نشير إلى نصحه مع الإسلام والمسلمين.

بعد تقدّم أبي بكر وعمر لتستّم منصب الخلافة بعد الرسول ﷺ وطالبوا المسلمين بتقديم البيعة، وبعد أن بايع أكثر المسلمين، رأى الإمام علي عليه السلام أنّ الامتناع عن البيعة مع قدرته على ذلك، ليس وراءها سوى الفتنة وإراقة الدماء، والأسوأ من ذلك هو عودة المتظاهرين بالإسلام والمنافقين إلى حالتهم الأولى من عبادة الأصنام، ولذلك فقد صبر، وارتأى أنّ صلاح الإسلام والمسلمين أن يصبر خمسة وعشرين عاماً مع كل المصائب والمصاعب التي تحمّلها، حيث أوضح بعضاً من تلك الآلام التي تحمّلها في خطبته المعروفة بالشقشقية.

وفي هذه المدّة كان يقدّم النصيحة، ويعلم الخلفاء الثلاثة فيما أشكل عليهم من المسائل ويرشدهم إلى الحلّ الصحيح، ومن كلمات (عمر) المشهورة التي قالها في مواقع كثيرة مختلفة: «لولا عليّ لهلك عمر».

وعندما ضاقت على المسلمين السبل في (معركة نهاوند)، وقالوا لعمر: إنّ الطريق الوحيد لتحقيق الانتصار هو أن تتحرك من المدينة، وأن تعطي أمراً بالتعبئة العامة، وتذهب بنفسك لفتح نهاوند.

لكن أمير المؤمنين علياً عليه السلام نهى عمراً عن ذلك معللاً ذلك بأن المدينة عاصمة الإسلام وأنتك زعيم المسلمين فلا يجب أن تترك العاصمة، وطلب منه البقاء في المدينة، وأن يصدر أمراً بالجهاد والتعبئة العامة، ويبعث به إلى الأطراف ليستعدّ المسلمون جميعهم للجهاد.

وتعامل مع الخوارج الذين بلغ عددهم اثنا عشر ألفاً بأن أرسل إليهم (ابن عباس) لينصحهم، ولكنهم لم يسمعوا النصيحة، فذهب إليهم بنفسه ووعظهم طالباً لهم الخير، فتاب منهم ثلاثهم، أي ثمانية آلاف وانضموا إلى معسكره عليه السلام.

وللاطلاع أكثر على نصح أمير المؤمنين علي عليه السلام يحسن مراجعة (نهج البلاغة).

«مُجَدِّدًا كَادِحًا» كان جاداً في عمله متحملاً للمصاعب والآلام.

إنّ مراجعة سيرة حياة أمير المؤمنين علي عليه السلام المثبتة في الكتب تكشف عن أنه كان لا يرجع عن أمر حتى ينجزه، كان ينفذ أوامر رسول الله صلى الله عليه وآله بجدية تامة، ولم يولّ الدبر مطلقاً في الحروب التي خاضها.

«وأنتم في رفاهية من العيش، وادعون فاكهون آمنون»

وبعد أن أوضحت السيدة الزهراء عليها السلام سيرة أمير المؤمنين علي عليه السلام في مدّة بعثة الرسول صلى الله عليه وآله حيث كان يعاني دائماً من المصاعب والآلام والمشاق، ولم يكن يهدأ له بال، وتحمل المآسي في سبيل الدفاع عن الدين والرسول، قالت عليها السلام: «وأنتم في رفاهية من العيش وادعون فاكهون آمنون».

ففي (معركة بدر) عندما كان أمير المؤمنين علي عليه السلام يخوض غمار القتال ضد المشركين مضحياً بنفسه، كان بعض الصحابة يستريح تحت المظلة، ثم قالت السيدة الزهراء عليها السلام: «تتربّصون بنا الدوائر وتتوكّفون الأخبار وتنكصون عند النزال، وتفرون من القتال».

الجميع فروا، ما عدا علي عليه السلام وعدد قليل

في (غزوة حنين) تحرك الرسول صلى الله عليه وآله بألف مقاتل من المسلمين، حتى تعجّب (أبو بكر) من كثرة الجيش وقال: لن نُغلبُ أبداً، ولن ينتصر المشركون مع قلة عددهم.

وما أن اشتعلت نار الحرب، حتى فرّ جيش الرسول صلى الله عليه وآله كلّ ما عدا علي عليه السلام وبعض المسلمين وهم: العباس بن عبد المطلب، وأبو سفيان ابن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن مسعود. حيث ثبتوا مع رسول الله صلى الله عليه وآله واستمروا في قتال المشركين، وأعادوا المسلمين الفارين وحققوا النصر في نهاية الأمر.

ويقول بعض المحدثين إنّ الجيش كلّ فرّ ما عدا تسعة أنفار.

قال في (تاريخ روضة الصفا): (وكان رسول الله ﷺ يأمرهم بالصبر والثبات، ولكنهم لدهشتهم كانوا يفرّون دون أن يصغوا لحديث رسول الله ﷺ وكلّما طلبهم الرسول، لكنهم لم يجيبوه، حتى ظهر الغضب على وجه رسول الله).

وحدث الأمر نفسه في (معركة أحد) حيث فرّ جميع الأصحاب ما عدا الإمام علي عليه السلام ثم عاد من الفارّين أربعة عشر شخصاً.. وكذلك الأمر في (غزوة خيبر والأحزاب).

وقد تركوا المختار في الحرب مفرداً وكان عليّ غائصاً في جموعهم وفرّ جميع الصحب عنه وأجمعوا لهاماتهم بالسيف يفري ويقطع

« ٤٤ »

«ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار ورغبة وإيثار»

كانت السيدة الزهراء عليها السلام أوضحت أنّ الله سبحانه وتعالى قد أرسل رسول الله صلى الله عليه وآله في زمان كان الشرك يخيم بظلماته وجهله على البشر، وكانت الأمم والشعوب جميعها تعيش وتسير في طريق الضلال، كان بعضهم يعبد الصنم، وكان الآخرون: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

غفران الذنوب من قبل قس النصرارى

لم يكن على الأرض موحد، بل كان المعبود بشر، وحتى الآن وبعد مرور أربعة عشر قرناً من رفع راية التوحيد من قبل رسول الله صلى الله عليه وآله أنظروا إلى النصرارى ماذا يفعلون بعبادتهم الباطلة، بالإضافة إلى إيمانهم بالأقانيم الثلاثة: (الأب والابن والروح القدس) وأنّ عيسى ابن الله.

ومن السخرية أنهم أوجبوا على المسيحي أن يذهب إلى الكنيسة ليعترف بذنوبه، ثم يعطي للقس مالا حتى يغفر له ذنوبه! أيها القس من أنت؟ لست سوى مخلوق مذنب، من الذي يجب أن يغفر ذنبك؟ ما لك ولغفران ذنوب الآخرين؟

قال أحد الأصدقاء ممن ذهبوا إلى إيطاليا بعد أن درس هذه المسائل:

إنّ قسم غفران الذنوب في الكنيسة هو عبارة عن بناء ضخّم، حيث يأتي

المذنب ويقف أمام بائع التذاكر، ثم يأخذ قلماً ويكتب به ذنوبه على الورقة، ثم يذهب إلى مكان آخر ليدفع الثمن، وبعدها يذهب إلى مكان آخر حيث يوقع القس بالعبرة التالية: غفرت ذنبه.

إنكم لم تعرفوا قيمة رسول الإسلام، فأَيُّ نور كان محمد ﷺ لقد أنقذكم من الشرك وعبادة البشر والجماد والنبات، حتى هوى النفس أنقذكم من عبادته، لقد أرسل الله أبي ليهديكم إلى الطريق الصحيح، إنَّ نهاية عبادة الذات في الهاوية، لا تتبع أهواء نفسك، فسوف تنحرف عن الصراط.

قبض روح الرسول برأفة

ثم قالت السيدة الزهراء عليها السلام: «ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار ورغبة وإيثار».

لقد ذكرت عليها السلام أربع كلمات حول قبض روح أبيها عليه السلام.

أولاً القبض في اللغة بمعنى أخذ، وقبض الروح بمعنى فصل الروح عن البدن.. وملك الموت يسمونه (قبض الأرواح) لأنه يفصل الروح عن الجسد.

الملائكة بقيادة عزرائيل يقبضون الأرواح بأمر الله

هناك رواية تقول إنَّ بعضهم سأل أمير المؤمنين علي عليه السلام عن قبض الروح، إنَّ القرآن ذكر: ﴿قُلْ يَتُوفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١] وقال: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّيْتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [محمد: ٢٧] وقال: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢] فهل ملك الموت، أم الملائكة، أم الله، هو الذي يقبض الأرواح؟ فكل آية نسبت ذلك إلى واحد.

فأوضح عليه السلام أن ما جاء في الآيات الثلاث صحيح، لأنَّ الملائكة تقبض الأرواح بقيادة عزرائيل، وبأمر من الله.

حتى روح البعوضة لا تقبض دون إذن من الله

قال (عزرائيل) للرسول ﷺ: إنه لا يستطيع أن يقبض روح بعوضة دون أمر من الله.

وعندما يموت شخص، يبكي أهله، فيخاطبهم ملك الموت. تبكون وتتألمون، ولم أفعل ما فعلت ظلماً ولكن بأمر الله. إنني لا أقبض روح بعوضة إلا بأمر الله، ثم يقول: «إن لي عودة، ثم عودة، ثم عودة» فهذه ليست هي المرة الأخيرة.. فسوف أجيء مرّات أخرى، وسيصل الدور لكم ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بَصْرِيُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبُرُهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

قبض الروح برأفة أم بغضب

«قبضه الله قبض رأفة» أي قبض محبة.. وقبض الأرواح له طريقتين، طريقة فيها محبة ورأفة ورحمة، وأخرى فيها شدة وغضب وعذاب، وللاثنين درجات طبعاً، حتى يصل الأمر إلى درجة أنّ عزرائيل والملائكة يأتون ومعهم الحراب النارية لقبض أرواح الكفار ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُ الْمَلَائِكَةُ بَصْرِيُونَ وَجُوهُهُمْ وَأَدْبُرُهُمْ﴾ [محمد: ٢٧].

وأخذ الروح بالرأفة والمحبة له درجات أيضاً، حتى يصل الأمر إلى درجة أن: ﴿الَّذِينَ تُوَفَّقَتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [النحل: ٣٢].

إنّ ملك الموت يحضر عند كل شخص بشكل يطابق جمال المحتضر نفسه، فكم هو مقدار جماله يتجلّى أمامه (عزرائيل) بذلك المقدار.

إنّ العلم والفهم جمالاً، وبمقدار جمالك ترى علياً ﷺ، وأما إذا كنت شقيماً، فسوف ترى قبح ملك الموت بمقدار شقاوتك وغلظتك وقساوتك، وسوف ترى من عليّ ﷺ غضبه وشدّته، وكذلك الحال في قبرك حيث (منكر ونكير)، ولا يعتقدن أحداً أنهما على سواء، أنهما يأتيان إلى كل إنسان بما

يتطابق مع وضع الميت نفسه، إلهما نفس الملكين ولكنهما يأتيان بما يتناسب معك أنت.

في الدعاء تقرؤون: «وأر عيني مبشراً وبشيراً» وهذا حسب وضعك، أكنت في الدنيا إنساناً أم مُفترساً، فهما يأتيان للبعض، وهما على هيئة مهيبة مخيفة شعورهم تخط الأرض تنبعث النار من فيهما، ومن عينيها ينطلق الدم، وشعلة النار تتناسب مع باطن الميت كم كان مؤذياً ومزعجاً وشريراً.

إنه لعجيب جداً عالم الملكوت والبرزخ، كله حقائق..

أما المؤمن فإنّ بشيراً ومبشراً، يبشرانه بالرحمة والثواب اللامتناهي عند

الله.

«ثم قبضه الله إليه قبض رآفة واختيار ورغبة وإيثار»

لقد قلت إن قبض الأرواح وخروجها على طريقتين، إما برحمة وشفقة، وإما بغضب وشدة، وهي تتناسب مع طبيعة الشخص وأعماله وسلوكه.

وقد نقل (القطب الراوندي) أن علياً أمير المؤمنين عليه السلام ألمّ به وجع العين، فجاءه النبي صلى الله عليه وآله لعيادته، وفي ذلك المجلس أخبر الرسول صلى الله عليه وآله أن جمعاً من الناس تُقبض أرواحهم بحرابٍ من نار، فأرعب الخبر علياً عليه السلام فجلس وسأل الرسول صلى الله عليه وآله فيما إذا كان أحداً من أمته صلى الله عليه وآله ستؤخذ روحه بهذه الطريقة، فأخبره الرسول صلى الله عليه وآله بأنهم من أمته وأنهم ثلاثة طوائف وهم: الحاكم الظالم، وأكل مال اليتيم، وشاهد الزور^(١).

المرأة المشوّهة تعكس صورة مشوّهة

إن كلّ واحد منا يرى ملك الموت على هيئة مختلفة، وكذلك رؤية (نكير ومنكر) وهي تتناسب مع حال كل إنسان، ونوضح الأمر بمثال:

المرأة التي لم تُصقل جيداً تعكس بعض الأحيان صورة الإنسان العادي بشكل مضطّح ومهول، أما المصقولة بشكل سليم فهي تعكس الصورة الصحيحة كما هي، وفي ساعة موتك يتجلّى في مرآة قلبك أمير المؤمنين

(١) لب اللباب للقطب الراوندي.

عليّ عليه السلام والملائكة، وسوف تعكس مرآة قلبك الصورة بمقدار صفاتها أو كدورتها.

إبراهيم عليه السلام وصورة ملك الموت الحسنة والقيحة

ورد في (البحار) في المجلد الثالث مروياً عن كشاف الحقائق الإمام جعفر الصادق عليه السلام وهي أنّ ملك الموت عزرائيل جاء لرؤية النبي إبراهيم خليل الرحمن عليه السلام قال له إبراهيم: أريد أن أرى صورتك عندما تأتي لقبض روح المؤمن، فكشف ملك الموت عن جماله، فسّر إبراهيم عليه السلام وقال: يكفي المؤمن أن يرى جمالك ساعة الموت. ثم قال له: أريد أن أرى صورتك وأنت تقبض أرواح الكفار والفجار. فقال له: لا طاقة لك أيها الخليل.

فأصرّ النبي إبراهيم عليه السلام، فتغيّر شكل (عزرائيل) فصار مهيباً مخيفاً موحشاً، فغشي على إبراهيم، وسقط على الأرض، وبعد أن أفاق، قال: لو لم يكن للكافر من عذاب سوى رؤيتك لكفاه.

العلماء ينتخبون الآخرة

«قبض رافة واختيار ورغبة وإيثار».

يقال للانتخاب والتفضيل، الإيثار والاختيار، وكلمة الاختيار هنا تعني انتخاب الآخرة على الحياة الدنيا، والنبي عليه السلام عندما ذهب عن هذه الدنيا فإنه اختار الحياة الخالدة.. وقدمها على الحياة في هذه الدنيا، بعد أن خيّرته وفاعل اختيار وإيثار له احتمالين، الأول: أن يكون فاعله الله سبحانه وتعالى. والثاني: أن يكون فاعله الرسول وبناءً على الاحتمال الأول. إنّ الله جلّ جلاله رجّح لرسول الآخرة، وآثر له الحياة الآخرة على الدنيا، وبناءً على أن يكون فاعله محمداً عليه السلام فيكون الرسول عليه السلام هو الذي انتخب الآخرة على الدنيا.

إنّ أهل الجهالة يرجّحون الحياة الدنيا على الآخرة: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى: ١٥]، والذين لا يعلمون بلذة وسعادة عالم البرزخ والآخرة لا

يدركون غير هذه اللذات الدنيوية، ولذلك فإنهم يؤثرون الحياة الدنيا، ولذلك أيضاً فهم ينزعجون من الموت، ويتصوّرون أنّ كلّ السعادة هنا، فإذا فارقوا الدنيا فلا سعادة، ومثل هؤلاء يتصوّرون أنّ التوفيق هو عبارة عن الأكل والنوم والشهوة. ولذلك إذا مات شاب قالوا عنه إنه غير موفق.

التوفيق في الآخرة وليس في الدنيا

إنّ بعض الجهلة عندما يذكرون اسم الإمام الجواد عليه السلام الذي توفي في سن الشباب، حيث انتقل إلى جوار ربه وعمره (٢٥ سنة) حيث يصفونه بأنه غير موفق من آل محمد عليهم السلام (نستغفر الله) ويقصدون بذلك أنه لم يحقّق أمانيه، إذا كان المراد هو أنّ آل محمد ليسوا من أهل الجهل حتى يطلبوا اللذات الدنيوية، والوصول إلى ذلك علامة التوفيق وعدم الوصول دليل على عدم التوفيق.

هي عندك خير من الآخرة - الحياة بعد الممات - فإن قلبك لا يقبل البقاء في هذه الحياة ساعة واحدة حتى تصل إلى ذلك العالم بسرعة، فهنا موت اسمه الحياة، وهذه الحياة ظاهرية، ومظهر اللذة.. لأنك لا تملك خبراً عن أصلها وإنما تتصوّر أن فيها تتحقّق الآمال.. في علّة تفسير الأحلام يقولون أنّ أحداً إذا رأى في النوم أنه ميت فتفسير ذلك أنك حي، لأنّ الموت علامة أنك ما زلت على الأرض.

ما أردت قوله هو الاختيار والإيثار، فأهل الجهل يختارون ويؤثرون الحياة الدنيا على الآخرة، ولكنّ أهل العلم والتقوى والعقل وعلى رأسهم محمد عليه السلام وآله يختارون الآخرة على الدنيا، فهم يطلبون العالم الأعلى، ويطلبون النجاة من الحياة على التراب، مثل الطيور المحبوسة في القفص تحاول الإفلات من حبسها والطيّان، ولا قيمة للملذات عندهم، وإذا ما أخبروا أنهم سيموتون فسيفرحون.

لقد سمعت مرات عديدة أنّ الصديقة الكبرى فاطمة الزهراء عليها السلام جاءت

إلى بيت أمير المؤمنين علي عليه السلام وكان عمرها تسعة أعوام وعدة أيام، وكان عمرها ثمانية عشر عاماً عندما اقتربت ساعة وفاة الرسول صلى الله عليه وآله فبكت السيدة الزهراء عليها السلام كثيراً لذلك وتألمت، فقربها الرسول صلى الله عليه وآله منه ووضع على رأسها بُرد قطيفة وقال لها شيئاً ما.

فنهضت السيدة الزهراء عليها السلام وهي تبتسم، فسألوها فيما بعد بماذا بشرك رسول الله صلى الله عليه وآله حتى ابتسمت؟ قالت: بشرني بأني أول الناس لحوقاً به: ﴿إِنْ رَعَمْتُمْ أَكْكُمْ أَوْلِيَاءَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا أَلْوَتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجمعة: ٦]. وهذا الفرح والسرور الذي ارتسم على محيّا السيدة الزهراء عليها السلام إنما يُعبّر عن العلم واليقين، فهي تعلم أنّ الحياة ليست هنا، فالوضع هنا مثل حالة الطير في القفص.

وجاء في المجلد الثالث من (كتاب البحار) أنّ الميت المؤمن عندما يوضع على الخشبة في المغتسل يغسلونه، تكون روحه فوقه، فيقول لها الملك: تحبين أن تعودي إلى جسدك ثانية فتقول الروح: هيهات لقد نجوت حديثاً، كنت أرغب بالآخرة قبل أن أرى؟ فكيف بي الآن وقد رأيت؟!

أما هؤلاء الذين لا تنصرف قلوبهم عن الدنيا، فلأنهم لا يعلمون ما في العالم الآخر من النعيم، أما أهل العلم فيعلمون أنّ ذلك ليس قصة وإنما هي الحقيقة، إنه في الليلة الأولى في القبر يُقال له: «نم نومة العروس».

فهنالك، تمتد أنظار المؤمن إلى سعة لامتناهية: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]، حيث رائحة الجنة التي تصل إلى بُعد خمسمائة عام، والنوم والسعادة والسرور اللامتناهي، كل شيء فيها، الحياة ولوازمها وكما قال الإمام علي عليه السلام: «ولولا الأجل الذي كُتب الله عليهم، لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين، شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب»^(١).

(١) نهج البلاغة: الخطبة/١٩٣ يصف فيها المتقين.

ولذلك فإنّ من حكمة الله العظيمة أن جعل ستاراً بين العالمين، حتى أنّ بعض المفسرين يفسرون الآية: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] بهذا المعنى، وهو أنّ الله جعل حائلاً بين العالم العلوي وبين المؤمن حتى يتمكّن من الاستمرار في حياته الدنيا، لأنك ما أن تسمع نعمة من نعمات الجنة حتى تذوب شوقاً إليها.

إنّ أهل العلم يختارون ويؤثرون الحياة الآخرة على الحياة الدنيا، لأنهم علماء.

* * *

«ثم قبضه الله قبضة رافة واختيار ورغبة وإيثار»

الموت الاختياري والاضطراري

حول قبض روح الرسول العظيم ﷺ تقول الصديقة الطاهرة الزهراء عليها السلام إن روح أبيها الطاهرة قبضت عن اختيار وإيثار، فإذا كان فاعل الاختيار والإيثار هو الله، فهذا يعني أن الله اختار لرسوله الحياة الآخرة، كما قال ذلك جل جلاله في القرآن: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ﴾ [الضحى: ٤] فهو يعلم عز وجل أن الأصلح لرسوله أن يصعد بسرعة إلى العالم العلوي.

والاحتمال الثاني، هو أن الفاعل في الاختيار والإيثار هو النبي نفسه، فهو اختار الموت والذهاب عن هذا العالم للوصول إلى العالم العلوي، وهذا يشير إلى أن قبض روح البشر نوعين: منه الاختياري، ومنه الاضطراري. قبض الروح بهجة وسرور، وقبضها بصعوبة وآلام. ولذلك يُقال لمن هو في ساعات الموت (يوجد بنفسه) وهو تعبير عن الذي يموت في حالة البهجة والسرور.

وقليل هو الموت عن طريق الاختيار والإيثار، حتى بين المؤمنين، فالقليل جداً منهم من يموت عن اختيار وإيثار، وليس بالقهر والاضطرار، إن البشر لا يقطع قلبه عن الدنيا، ومع أنه يؤمن بالآخرة وثوابها، ولكن حب الدنيا يبقى في قلبه، فهو لا يقطع حبه عن زوجته وأطفاله، ولا يستطيع أن يصرف نظره عن الدنيا ومصالحها، ولذلك فهو عندما يموت، يموت مقهوراً مغلوباً.

إنَّ كلَّ إنسانٍ وخلال مدة حياته، إذا كان سلوكه، وأخلاقه يدلّان على اختياره للأخرة على الحياة الدنيا، فهذا يعني إثاره للعالم العلوي على العالم المادي، وإيثار رضا الله على هوى النفس، فسوف يكون موته باختيار ورغبة. وإذا جاد بنفسه عن طيب خاطر في سبيل الله، فسوف يموت وهو طيب خاطر.

عندما أخبر النبي ﷺ علياً عليه السلام بأنهم سوف يفلقون رأسه بالسيف، ويسيل الدم على وجهه ولحيته، قال الإمام علي عليه السلام: «أفي سلامة من ديني؟»، وعندما أجابه النبي ﷺ بالإيجاب، فرح الإمام بذلك.

إنَّ المهم هو رضى الله، لقد سمعتم السيدة الزهراء عليها السلام كيف أعطت في ليلة زفافها قميصها الجديد إلى سائل فقير.

وأمر المؤمنين علي عليه السلام اشترى قميصين أعطى أحسنهما إلى مولاه قنبر، ولبس الأقل ثمناً: ﴿وَيَطْعَمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حَيْثُ مَسْكِنًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الدهر: ٨].

يروى أنَّ الوفاة عندما حضرت الإمام الحسن عليه السلام كان الإمام الحسين عليه السلام يبكي وسأل أخاه: «كيف حالك يا أخي؟» قال الإمام الحسن عليه السلام: «على كره متي لفراقك وفراق إخوتك وفراق الأحبة، وأستغفر الله من مقالتي هذه وأتوب إليه، بل على محبة مني للقاء رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأمي عليّة عليها السلام وحمزة وجعفر».

أما نحن فلا نتخلّى عن أيّ حظ من حظوظ النفس، فعن أيّ شيء من أشياءنا نتخلّى؟ عن المال الحرام، عن المعاملة الحرام، عن المجالس الحرام، عن النظر الحرام، حتى يكون موتنا اختيارياً؟

جمال محمد ﷺ وعلي عليه السلام للمؤمن المحتضر

لقد ذكرت، أنَّ الذي يعيش عمره وهو متعلّق بالدنيا وينتخبها ويؤثرها على الآخرة، فإنَّ موته يكون على كراهة منه، ولكنَّ البشارة التي جاءت عن طريق

الروايات، تقول إنّ الموت يأتي إلى المؤمن باختيار وإيثار ولو لم يكن طول عمره كذلك، ولكنّ ذلك يحصل له ببركة أهل البيت عليهم السلام وقد ذكر (الشيخ المفيد) في كتاب (الاختصاص) وخلاصتها، إنّ المؤمن عند موته يتألم بسبب ابتلائه بالفراق، فيرسل الله نسيمين: الأول يمحو من ذهنه حبّ المال والأولاد والأهل والحياة، ويأتي بعده النسيم الثاني فيجعله مستعداً وحاضراً لتسليم روحه.

ويقول إنّ ملك الموت يقول للمؤمن: انظر إلى يمينك ويسارك. فيشاهد في اليمين رسول الله صلى الله عليه وآله وفي طرف اليسار يرى أسد الله الغالب علي بن أبي طالب عليه السلام وفي هذه الرواية يقول إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يسأل المؤمن بحنوٍ ولطفٍ ومحبةٍ إن كان يريد العودة إلى الدنيا أو البقاء مع رسول الله صلى الله عليه وآله فيقول المؤمن: إنّ جوارك وجوار علي بن أبي طالب أفضل. ويُسلم بعدها روحه.

هل نحن أهلٌ لمثل هذه المحبة أم لا؟ إنّ الذي قضى عمره في حبّ آل محمد عليهم السلام مخلصاً صادقاً تمتّى له مثل هذه النتيجة، وتمتّى أن لا نُحرم نحن كذلك من مثل هذه النتيجة.

الرسول صلى الله عليه وآله أذن أن يقبضوا روحه

والمعنى الآخر الذي يأتي في الذهن، ولعله أولى: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله له خصائص ليس له فيها شريك من بين الأنبياء عليهم السلام من الأولين والآخرين، ومن هذه الخصائص: أنّ كلّ إنسان عندما تصل منيته سواء كان نبياً أو غير نبي فإنهم يقبضون روحه دون استئذان منه، إلاّ خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله حيث أخذت منه الإجازة في قبض روحه، فأجازهم صلى الله عليه وآله بذلك وهو مختار.. وقد نقل صاحب (كشف الغمة) رواية معتبرة نقلها:

كان أمير المؤمنين عليه السلام حاضراً عند احتضار رسول الله صلى الله عليه وآله وكان يعلم بنزول الوحي على رسول الله صلى الله عليه وآله ويسمع صوته وهو يحدث رسول الله صلى الله عليه وآله ويسمع صوته في هبوطه وعروجه.

وعندما كان رسول الله ﷺ طريحاً كان (جبرائيل) يأتيه ليلاً ونهاراً مرسلًا من قبل الله يسأله عن حاله: «إنّ ربك يقرئك السلام، ويقول: كيف تجدك؟ وهو أعلم بك، ولكنه يريد إكرامك، وأراد أن تكون عيادة المريض سنّة في أمّتك».. وكان حال الرسول ﷺ متغيّراً وكان أحياناً يتحسّن، و(جبرائيل) يقول لرسول الله ﷺ: «أحمد الله فإنّ الله يحبّ أن يُحمد» وكان الرسول ﷺ أحياناً يجد وجعاً فيقول: «أجدني وجعاً» فكان جبرائيل يقول: «إنّ الله لم يشدّد عليك، ولكن أراد أن يسمع صوتك ليزيدك درجة وثواباً»^(١).

مرض المؤمن خير له

إنّ صوت المريض وأنيبه وتضرّعه مرغوب ومطلوب، فكيف إذا كان الأنين والتضرّع مُطهّر له من الذنوب.

وقد وردت في كتاب (مكارم الأخلاق) رواية عن رسول الله ﷺ تقول: «أنين المريض تسبيح، وصوته تهليل، وتقلّبه من جنب إلى جنب جهاد»^(٢).

وعندما مرض أحد الشيعة ذهب الإمام الصادق عليه السلام لعيادته، وكان المريض يئنّ ويتأوّه من الألم، الشخص الذي جاء مع الإمام عليه السلام قال له: لا ترفع صوتك فالإمام عليه السلام حاضر. فأمره الإمام عليه السلام بأن يدعه يئنّ ويتأوّه وقال: «إنّ آه اسم من أسماء الله».

يقول (العلامة المجلسي): إنّ «آ» حرف نداء و(هـ) ضمير، فهي مثل: (يا هو) ولذلك فلعل الإمام قال إنّ «آه» اسم من أسماء الله^(٣).

ولا بدّ أن نؤكّد أن ذلك يجب أن لا يكون منطلقاً من الاعتراض على القضاء والقدر، وأعود إلى الحديث، وبعد أن أخذ (جبرائيل) يسأل

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦.

(٢) مكارم الأخلاق للطبرسي.

(٣) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٣.

الرسول ﷺ عن أحواله، نزل ملك الموت وقال: «إن ربك يُقرئك السلام، وأمرني أن أختيرك بين لقائه والرجوع إلى الدنيا» فاختار الرسول ﷺ لقاء الله.. فمحمد ﷺ عاش عمره راغباً بالعالم العلوي، فكيف يرجع إلى الدنيا؟ ولكنه قال لملك الموت: «أنظرني حتى يأتي أخي جبرائيل» حتى أصعد معه إلى العالم العلوي، فصبر عليه ملك الموت، ولما جاء جبرائيل قال له رسول الله: «استنظرته حتى تأتي» أي طلبت المهلة من ملك الموت حتى تأتي، فقال جبرائيل: «يا محمد ما استأذن أحد من قبلك، ولا يستأذن أحداً من بعدك» ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

* * *

« ٤٧ »

«فمحمد ﷺ في راحة عن تعب هذه الدار، موضوعاً عنه أعباء الأوزار»

«فمحمد ﷺ في راحة عن تعب هذه الدار» إنّ أبي حين غادر هذه الدنيا ارتاح من مشقتها، والدار بمعنى البيت بحسب اللغة، ولكنها في حقيقة العرف الثانوي تطلق على كل عالم، فحياة الإنسان على الأرض الكبيرة تسمى بدار الدنيا، كما يقال عن الحياة الخالدة بالدار الآخرة: ﴿وَإِنَّ أَلَدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

الدنيا دار عبور، ولكن الآخرة دار التوقف الدائم الأبدي، ويقال للدنيا دنيا لأنها بمعنى القرب، وهي صيغة التفضيل عن دنو، وهي تعني الأقرب، ومؤنتها أدنى، هنا الحياة قريبة منك، نسبة إلى بُعد الآخرة وبعد الموت. أو أنها من مادة (دناءة).

تقول السيدة الزهراء ع: «إنّ أبي ﷺ حين انتقل عن هذه الدنيا، نال الراحة من التعب والمشقة» موضوعاً عنه أعباء الأوزار» لقد أدى ما عليه من أعباء الرسالة وبلغها للناس.

تعب البشر في تهيئة الطعام واللباس والسكن

إنّ التعب في هذه الدنيا على ثلاثة أقسام: تعب عام وخاص وأخص. فالأول: الأتعاب العامة، ويستوي فيه البرّ والفاجر والمؤمن والكافر. فجميع

البشر يشتركون في مثل هذه الأتعاب، الجيد منهم والسيئ، وليس في هذا الأمر مؤمن أو كافر، لأنها من لوازم الاستمرار في الحياة في عالم الدنيا والمادة، مثل: التعب في السعي اليومي لتحصيل الغذاء والطعام والملابس والسكن.

إنّ الحيوانات تحصل على غذائها بصورة أسهل مما هي عند الإنسان، فلإنسان طعام تركيبي حيث عليه أن يزرع، ويتحمّل المشاق في سبيل ذلك، ثم يعمل طحيناً ويطبخه. وكذلك الأمر بالنسبة للملابس. أما الحيوان فإنه يتعامل بسهولة وبساطة مع الطبيعة، فالجلد الذي عليه يكفيه، أما الإنسان فعليه أن يحوك ملابسه.

والتعب الآخر الذي يتحمّله الإنسان هو الحصول على السكن. أما الحيوانات فهي حرّة من هذه الناحية، فالحشرات تعيش تحت الأرض أو في وسط الجبال وسفوحها وفي الغابات، وبعضها الآخر لا يحتاج أصلاً إلى بيت. لكن الإنسان يحتاج دائماً إلى ظل وملجأ يرتاح فيه ويستظّله من حرارة الشمس أو طلباً للدفع في البرد القارص.

وفي هذا الأمر، فإن شخصاً واحداً لا يستطيع أن يفعل كل ذلك منذ البداية حتى النهاية، لذا كان لازماً أن يقوم كلّ إنسان بعمل ما، بنوع من العمل، فواحد مزارع، والآخر نجّار، والثالث خيّاط، وغير ذلك، وهذا معناه ضرورة وجود الحياة الاجتماعية ومساعدة البعض للبعض الآخر، وبسبب كون الإنسان اجتماعياً فلا بدّ إذاً من وجود المنازعات والمشاكل ومنها غمط حقوق الآخرين، والأسوأ من ذلك شيوع الحسد الذي يُشعل النار في الإنسان، ولكن الحسد يسبب من آلام للحاسد وللمحسود.

هذه الأمور تحدث شئنا أم أبينا.. إنّ أفضل البشر لن يتخلّص من شر البشر.. فكم تعذّب الأنبياء ﷺ وتألّموا من حسد الخلق وإنكارهم لرسالاتهم ودعواتهم.

مرضنا وموتنا نحن وعوائلنا ملازمان لحياة البشر

ومن الأتعاب التي يشترك فيها العموم والملازمة للحياة في هذا العالم المادي: الأمراض وانحراف المزاج والصحة، حيث تصيب الإنسان شاء أم أبى. أما الحيوانات فقلماً تمرض، ودواؤها تصل إليه بإلهام من الله، والحقيقة أنّ الدنيا جيدة للحيوانات، وكما أن الآخرة جيدة للعالم العلوي.

فهنا لا تستطيع أن تقضي عمرك براحة، لأنّ الراحة في الجنة «جعلت الراحة في الجنة، والناس يطلبونها في الدنيا ولا يجدونها» أما الحيوانات فإنّ وطنها هنا، ولذلك تقضي عمرها هنا براحة.

قالوا إنّ القط عندما يعرض له ألم في قلبه، فإنّ علاجه حشائش تنبت على بعض السطوح، فتذهب إلى هناك وبإلهام إلهي لتتناول من تلك الحشائش لتشفى.. والخلاصة فإنّ الابتلاء بالمرض من الأشياء الملازمة للحياة الدنيا، وقد سجلوا قديماً أربعة آلاف نوع من أنواع الأمراض التي يُبتلى بها الإنسان.

ومن الأتعاب الأخرى الملازمة للحياة الدنيا: الابتلاء بالفراق وموت الأحبة والأقارب والأصدقاء «له ملك ينادي كل يوم: لدوا للموت وابنوا للخراب» كما ستموت أنت يوماً، فلو أنّ الإنسان لا يموت وهو يعيش على هذه الأرض، فما الذي سيكون عليه حال هذه الدنيا؟ إنّ نظام الحياة سيختلّ.

عناء المؤمن في ترك الشهوات

القسم الثاني من التعب هي المتاعب الخاصة بالمؤمن، فللمؤمن أتعاب ومصاعب أكثر من الآخرين، فإذا كان مؤمناً عليه أن يتحمّلها ليتمكّن من إنجاز أعماله، عليه أن يخالف هوى نفسه، وأن يجاهد هواه، وأن يدوس على رغباته وميوله، وأن يترك الشهوات، وأنه لمن الصعب جداً النجاح في الجهاد الأكبر بالنسبة للشباب، لأنّ أسباب الذنب تتوارد عليه، فيحاول أن يمنع نفسه من ارتكاب الذنب، فتدخل عليه من ذلك مشقة، ويحدث أحياناً أن يعاني المؤمن

في سبيل الضغط على نفسه لكي لا يقول كلمة أو حرفاً، لأنه مقيد بقيود خاصة، فالإنسان إذا ما شتمه أحد ولم يكن ملتزماً، فإنّ نفسه تقول له: أجب (يضربك بالطين اضربه بالحجر) فإذا لم تكن ملتزماً فإنك ترتاح حينما تعمل وفق ما تمليه عليك رغبتك النفسية، أما إذا كنت ملتزماً فسوف تمتنع عن الجواب، فجواب السباب ليس سبأباً، فالطرف الثاني أخطأ وليس من المعقول أن تخطيء أنت مثله، فالقذف حرام في كل الأحوال، ابتداءً كان أو جواباً على قذف.

إنّ كلّ مؤمن يعاني من هذه المتاعب في حياته، ولا يمرّ عليه يوم دون متاعب فما دام في الدنيا فهو في سجن، وعندما يتخلّص من سجن الطبع وعالم الدنيا يرتاح، وقد ورد عن الرسول ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

وقال بعض شارحي الأحاديث مثل (الراوندي)، إنّ الدنيا بالنسبة للمؤمن سجن وهي للكافر جنة، وهي كذلك، لأنّ السجن فيه قيد وحدود، والمؤمن في حياته الدنيوية مقيد أيضاً.

يسيطر على لسانه، فهو لا يستطيع أن يطلقه كما يحلو له، هل يستطيع المؤمن أن يكذب أو يستغيب، أو يتهم، أو يفشي سرّ الآخرين أو يوجه الإهانة للمؤمن؟ ويده محدودة، فهل يستطيع أن يمدّ يده إلى ما يريد؟ وهل تستطيع أقدامه أن تنقله إلى أي مكان؟ إنه عندما يتخلّص من السجن، يجد كل ما يريده ويطلبه حاضراً، الجنة حاضرة له في أول موته، أما الكافر وغير الملتزم فهو حرّ هنا ومرتاح، لأنه لا يفكر بالآخرة، ولذلك فإنّ موته يعتبر بداية السوء والمتاعب بالنسبة له.

السجن والجنة نسيان

ورد عن الإمام الحسن المجتبيّ عليه السلام ما خلاصته، أنه كان يوماً راكباً جواده وعليه ملابس جديدة، فاعترضه يهوديّ يرتدي ملابس بالية. فقال

اليهودي للإمام عليه السلام أليس جدك يقول: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر» فهل أنت الآن في سجن وأنا في جنة؟ فأجابه الإمام عليه السلام بأن الدنيا سجن المؤمن بالقياس لما أعدّ له الله من نعيم في الآخرة.

أما الكافر فإنه مهما تحمّل من المتاعب والمشاقّ في الحياة الدنيا فهي بالقياس لما أعدّه الله له من العذاب يوم القيامة جنة: «صبروا أياماً قصيرة أعقبتهم راحة طويلة، تجارة مربحة يسرها لهم ربّهم»^(١).

انظر إلى الإمام الحسين عليه السلام حين وقف يوم عاشوراء أمام أصحابه فقال: «صبراً بني الكرام، فما الموت إلا قنطرة تعبر بكم عن البؤس والضراء إلى الجنان الواسعة والنعيم الدائمة، فأيكم يكره أن ينتقل من سجن إلى قصر، وما هو لأعدائكم إلا كمن ينتقل من قصر إلى سجن وعذاب، إنّ أبي حدّثني عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّ الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر».

* * *

(١) نهج البلاغة: الخطبة/١٩٣ يصف فيها المتّقين.

«٤٨»

«فمحمد في راحة من تعب هذه الدار،
موضوعاً عنه أعباء الأوزار»

الدنيا سُلمٌ للآخرة

من الممكن أن تقول: فلماذا خلق الله البشر، ولماذا خلقه على هذه الصورة بحيث ابتلاه؟

وجواب ذلك أن الدنيا لو كانت هي مقصودة بالذات، أي بذاتها، وإنّ الحياة محصورة بالدنيا فقط، أي في المادة والماديات، وإنّ الحياة هي خمسون أو ستون عاماً، ولو كان الهدف من خلق العالم هو ما ذكرناه، فإنه عبث.

هل هناك شخص واحد لا يواجه في حياته أي مشكلة أو صعوبات، إنّ الدنيا محل للعبور، وهي ليست مقصودة بالذات، ولازمة الحياة هي العبور من هذه المتاعب والآلام، إنّ الراحة التامة هي بعد الموت، وما دام الإنسان يتحرّك في الممرّ فلا بد له من تحمّل المتاعب. والمطلب الثاني هو أنّ الإنسان إذا ما تحمّل هذه المتاعب والمشاقّ من أجل الله فإنّه يُكمل بذلك آخرته، وهذه المتاعب إذا كان تحمّلها بعنوان إطاعة الأمر الإلهي فإنها تزكّي الشخص وتهذّبه وتُعمّر آخرته، مثل: أعمال الكسب والعمل وتأمين الخبز.. إنّ ذخيرة آخرتك هي الأعمال التي تلاقي المتاعب في أدائها، فإنّ عرق الجبين في

العمل وجلب الخبز مثل المجاهد في سبيل الله: «الكاد على عياله كالمجاهد في سبيل الله».

إن المرأة التي ولدت طفلاً، إذا أرضعته في سبيل الله فإن لها بذلك ثواب عتق رقبة يكتب في صحيفة أعمالها وفي الليلة التي يتألم فيها الطفل ولا ينام ويضطرب نوم الأب والأم، فإن لهم بذلك ثواب إحياء الليل بالعبادة.

وبناءً على هذا فلا مانع من تحمّل هذه المتاعب والمشاق، لا إشكال فيه لأن هذه الدنيا إنما هي معبرٌ، ولكنّ الإشكال يصحّ عندما تكون الحياة الدنيا هي الهدف.

والثاني هو أنّ هذه الأتعاب والمشاق عندما تكون في سبيل الله فإنها موجبة لتكميل الحياة الآخرة، فكلّما تحمّل في حياته الدنيا من المشاق والمتاعب أكثر، ثم مات وهو على الإيمان، فإنّ ثوابه في الآخرة يكون أكثر.

مشقّة تربية البشر من خصوصيات الأنبياء والأوصياء

والقسم الثالث من الأتعاب خاص بالأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فالأنبياء علاوة على المتاعب والمشاق العامة والخاصة فإنّ لهم متاعبهم الخاصة بهم، تلك هي تبليغ الرسالة الحقّة والدعوة إلى الله، وتوجيه البشر نحو الغيب وإصلاح حالهم، ودعوتهم إلى التقوى، وإخافة العباد من الله، ودعوتهم إلى التفكير بالسعادة الباقية، وإنه لمن الصعب على الإنسان العادي المتوحش الذي لا يدرك إلّا النزعات الحيوانية أن يتحمّل مثل هذه المهمة الصعبة وهي تربية البشر.

وهؤلاء الذين يؤمنون بالدعوة، ثم لا يستمرّون عليها، فيعودون إلى سيرتهم الأولى، إنّ هؤلاء يمثلون واحداً من مشاكل الأنبياء والأئمة عليهم السلام، هؤلاء كانوا من أشرار زمانهم، فهم طالبو دنيا ومواقع، فكيف يقبلون كلام من يقول إنّ الدنيا باطلة زائلة والآخرة حق، وإنّ السلطة والحكومة ليستا شأن

وعظمة، وإنما العظمة لله، إن فرعون ومن يتمثل به لا يقبلون ذلك. ولذلك فقد تحمّل الأنبياء والأئمة عليهم السلام أشد الصعوبات.

أثمتنا واجهوا المتاعب والتعذيب، وبدلاً من أن يُستفاد منهم كالنور في هداية البشر، تعاملوا معهم وفي مقام من يريد أن يطفىء هذا النور، فهؤلاء الجبايرة لم يقبلوا أن يكونوا تابعين للأئمة ومنعوا الآخرين من اتباعهم كذلك.

أوصلوا ثقل الرسالة المرهق إلى مكانه

«موضوعاً عنه أعباء الأوزار» لقد أعان الله عبده في أداء وظيفته: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ * وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ * أَلَيْسَ أَفْقَصَ ظَهْرَكَ﴾ [الانشراح: ١ - ٣] لقد كان شخصاً واحداً يقف بين الذئاب والحيوانات المفترسة الوحشية بكل معنى الكلمة، وقال لهم إن عقائدكم خاطئة وطريقكم باطل، إن تغيير العقيدة ليس بالأمر السهل عند الناس الذين قضوا عمراً طويلاً وهم يعبدون الأصنام، وكانوا يزنون علناً، ولم يكن ذلك عندهم قبيحاً، ولا القتل كان عندهم ذا بال، وكذلك أنواع الفواحش الأخرى.

ولم يكن هناك من حيّز في تفكيرهم بالآخرة والعالم العلوي، ولم يكن هذا حال أهل مكة وشبه الجزيرة العربية فقط، بل كان النوع البشري كله هكذا، سواء المتدينين من اليهود والنصارى أو عبّاد الأصنام ..

وفي مكة، كان جمع الثروة وأكل الربا قد وصل حدّاً بحيث يضاف الربح إلى الربح حتى إذا ما عجز المدين سيئ الحظ عن أداء دينه، فإنهم يأخذون منه جميع ما يملك، وإذا لم يكن له مال، يأخذون أحد أولاده أو زوجته، وفي نهاية المطاف يأخذونه عبداً.

دفن البنات وهنّ أحياء هي واحدة من مساوئ ذلك العصر، وهي نقطة سوداء في جبين تاريخ الجاهلية وقبل الإسلام.

ولعلكم تقولون إن عصرنا هذا يشبه ذلك العصر، ففي أي حال يعيش البشر

اليوم؟ هناك كاتب يكتب فيقول إنّ عصرنا الحاضر أسوأ من زمان الجاهلية، فإذا كان في ذلك الزمان نبّي يتحدث عن الآخرة فيهزّهم ويستعد البعض للإيمان بدعوة الرسول، ولكنهم اليوم في زماننا يسخرون من هذا الحديث.

إنهم لا يفكرون إلاّ بالحياة وزخرفها، والشيء الذي لا يفكرون به هو السفر إلى الآخرة، إنهم يفكرون بعالم آخر، أما الإيمان والتقوى والثروة في الحياة الآخرة والعمل الصالح فلا شأن لهم بكل ذلك.

قلّة فهم الناس قبل الإسلام

إنّ الحمل الثقيل الذي كان على عاتق الرسول ﷺ هو الدعوة إلى الإيمان بالله، وأن يفصل الإنسان عن الصنم والرئاسة، وأن يفصله كذلك عن الالتصاق بالماديات، ودعوته للإيمان بالغيب والآخرة والله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ وليس من السهل ذلك على البشر الذي لا يدرك ولسنوات طويلة غير الماديات: ﴿أَجَعَلَ الْأَلَهَةَ إِلَهًا وَحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، حتى وصل الأمر أن يقول الرسول ﷺ: «لا إله إلا الله» إنّ الله واحد والأصنام خطأ، ويعلم من قولهم كم كانت عقولهم ضعيفة، كانوا يقولون: إنّ لنا ثلاثمائة وستون صنماً، وأعمالنا وأحوالنا مضطربة، فكيف الحال إذا كان إلهنا واحداً؟

وهكذا كان على النبي ﷺ أن يرتفع بوعي هؤلاء الناس الذين كانوا جهلة حتى يوصلهم إلى درجة الإيمان بالغيب في مقام التزكية، وكان عليه كذلك أن يُضيء حتى يقضي على الظلام والأضرار والانحراف في أخلاق القوم.

لقد كانت (الأوس والخزرج) قبيلتان تعيشان ولمدة مائة عام نزاعاً دمويّاً بينهما في المدينة من أجل قضية تافهة، وكان على الرسول ﷺ أن يعيد إليهم إنسانيتهم، ويخلصهم من الحقد والحسد، ويدفعهم إلى التفكير بالله والآخرة، ويجعلهم يعون أنهم محتاجون لله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ أَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، قبيلتي، بيتي، كلها أشياء وهمية لأن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَمُ﴾ [الحجرات: ١٣].

نموذج من آلام الرسول ﷺ

لقد تحمّل الرسول محمد ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً أنواعاً متعدّدة من الآلام والأتعاب الهائلة.

قال الراوي: رأيت في سوق مكة شاباً يقول: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا» وكان رجل يرميه بالعظم والحجارة، فجرى الدم من قدميه، فسألت: من هو هذا الشاب؟ قالوا: محمد. وكان الذي يرميه (أبو جهل).

وبعد الهجرة حدثت حروب عديدة شارك الرسول ﷺ في ست وثلاثين غزوة منها، وفي (أحد) كسروا أسنانه، وجرحوا رأسه الشريف، ولكن الله أعانه وأوصله إلى الهدف، وأوصل الذي يجب أن يوصله إلى الناس، وهدى الذين كان لديهم الاستعداد الداخلي على الهداية، وأتمّ الحجّة على الآخرين «فجزاك الله يا رسول الله أفضل ما جزى نبياً عن أمته»^(١).

لقد قال الرسول ﷺ: «ما أودى نبي قط مثل ما أوديت»^(٢)، ولو أنّ الأنبياء السابقين دعوا قومهم مائة عام وخمسمائة عام حتى أنّ نوحاً دعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، ولكن عذاب السنوات الثلاث والعشرين التي تحملها النبي ﷺ كانت أكثر فلماذا؟ أيهما أصعب دخول شوكة في عين الإنسان، أم ضرب الحجر على قدمه؟

من الطبيعي أن يكون دخول الشوكة أصعب، لأنّ العين رقيقة، حتى لو كان الحجر أكبر. أما بحسب الكيفية ولأنّ العين رقيقة فإنّ زحمتها أكثر وأذاها أكثر، وكذلك فإنّ روح محمد ﷺ روح لطيفة، ولطافتها من الله، قد تحمّلت كلّ هذه الأتعاب والظروف غير الملائمة، إنّ كلّ واحدة من المشاكل التي تحمّلها تعادل مائة عام من أتعاب الآخرين.

لقد كان الرسول ﷺ مضطراً أن يجلس عنده أصحاب النفوس الضعيفة

(١) مفاتيح الجنان للقمي: من زيارة الرسول الأعظم ﷺ.

(٢) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦.

التي يعرف أصحابها ويعرف بواطنهم: ﴿فَلَعَرَفْنَهُمْ بِسِيمَتِهِمْ وَتَعَرَفْنَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾ [محمد: ٣٠]. تحدّث ﷺ ومن أجل مصلحة المسلمين العامة مع المنافقين، وعلى الرغم من أنّ روحه كانت تذوب ألماً إلا أنه لم يكن ليظهر ذلك، لأنه كان يتحمّل ذلك في سبيل الله، حتى انتقل إلى جوار ربه.

لقد ارتاح ﷺ من عناء الدنيا، وارتفع عن عاتقه ثقل المسؤولية. جاء عدد من أهل المدينة إلى الرسول ﷺ وهو في أواخر عمره الشريف وقالوا: لقد تحمّلت من أجلنا عناءً كبيراً وتألّمت كثيراً حتى انتشر الإسلام، فأذن لنا أن نجمع ما لا نقدّمه لك.

فنزلت الآية الشريفة: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ [الشورى: ٢٣]، لأنكم لو قدّمتم كلّ الدنيا فإنها لن تكون أجراً مقابل ذلك، ولذلك جاءت الآية ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ [محمد: ٢٩].. نعم إنّ الأجر الذي يتوقّعه الرسول ﷺ من المسلمين هو محبة أهل البيت: ﴿إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣] وهذا الأمر ينفَعكم أنتم وهو لمصلحتكم: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ [سبأ: ٤٨].

تمسّكوا بأهل البيت ﷺ حتى تعبروا الصراط غداً وأنتم على سلامة ترافقون الحسن والحسين وأولادهم ﷺ تتعلمون منهم دينكم. ولكم كان رسول الله ﷺ يتألّم وهو يعلم ما سيحلّ بأهل بيته، وكان في آخر لحظات عمره يقبل الإمام الحسين ﷺ وهو يبكي.

سأل (ابن عباس) رسول الله ﷺ أسئلة فقال ﷺ: «أما ابنتي فاطمة فإنها سيّدة نساء العالمين، وكأني بها وقد دخل الدلّ بيتها، ومُنِعت إرثها وعُصّب حقّها، وهي تنادي: وا أبتاه. وتستغيث فلا يُغاث عليها، فلا تزال حزينة كئيبة حتى ترد عليّ مقتولة..»^(١).

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٢١.

« ٤٩ »

«محفوظاً بالملائكة الأبرار ورضوان الرب الغفار ومجاورة الملك الجبار»

لا يصدر من الملائكة إلا الجميل

«محفوظاً» وصف لحال محمد ﷺ أي أنه يأتي يوم القيامة تحيط به الملائكة كما تحيط بالعرش ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِيَةً مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾ [الزمر: ٧٥].

تقول السيدة الزهراء ع: إن الرسول ﷺ عندما انتقل عن هذه الدنيا أحاطت بروحه الملائكة تعظيماً له واحتراماً، بعد أن نفذوا الأوامر الإلهية، حيث يُروى أن (جبرائيل) عندما سأله الرسول ﷺ وهو في مرض الموت لماذا تأخرت؟ قال: إن السماوات والملا الأعلى تزيتوا لقدم روحك، والملائكة تنتظر قدوم روحك.

«الأبرار» جمع بارّ وهو وصف للملائكة. وهو بمعنى الخير والإحسان وهو إشارة إلى أن الملائكة مخلوقات لا يصدر منها إلا الخير.

ولأنها مخلوقة من نور فإن ذلك يقتضي أن تكون ذاتها خيراً محضاً وصدّها الشياطين وهي من النار، ولا يصدر منها سوى السوء والشر والضرر.. فكلما النوعين يصدر منهما بمقتضى ذاته، الملك يصدر منه الخير والرحمة بأنواعها المختلفة.

إِنَّ الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ يَسْبَحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿الَّذِينَ يَمْلِكُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [غافر: ٧].

كما أَنَّ الشيطان في مقابلهم، عمله الوسوسة لكي يتمكن أن يحرف البشر عن الوصول إلى السعادة.

الإنسان في طريق الملائكة أم الشيطان

إن البشر يقفون في الوسط، إن شاؤوا كانوا ملائكة أو شياطين، فهم مركَّبون بطريقة بحيث يتمكنون أن يتحرَّكوا حركة تسافلية، حتى يصل الإنسان إلى أسفل السافلين، فيكون رفيقاً للشيطان، كلُّ ضرر وأذى وشرّ.. وبإمكانه أن يتحرَّك حركة تصاعدية، حتى يكون في مصاف الملائكة كله خير، لسانه وأقدامه ويده وقلبه وعيناه، وعندها يكون من الأبرار.

وكل إنسان بإمكانه أن يدرك الآن أنه إلى أي الصنفين ينتمي بعد الموت ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

فإذا كان فاعلاً للخير فإنَّ الملائكة تكون معه حين الموت: «محفوظاً بالملائكة الأبرار» «لكل باب رغبة إلى الله لهم يدُّ قارعة»^(١) كما يقول الإمام علي عليه السلام فالؤمن يطلب الخير في كلِّ أمر يعرض له، فإذا كان جالساً في مجلس وسمع من يغتاب أخاه المؤمن، فإنه يسارع إلى ردِّ الغيبة لأنه يريد الخير لرفيقه، ولكن ما هو الشرُّ؟ إنه ليس فقط عدم ردِّ الغيبة والنهي عنها؛ بل يزيد في ذلك.

إنَّ الإنسان مختار في أن ينتخب طريق الشياطين أو ينتخب طريق الملائكة، فإن أعان ضعيفاً فقد اختار طريق الملائكة، وإن آذى ضعيفاً فقد

(١) نهج البلاغة: الخطبة/ ٢٢٢.

اختار طريق الشيطان. فهو يعلم إذا كان طريقه طريق الخير.. طبعاً مع الاستمرار في الخير، وليس ساعة خير وساعة شر، فالواجب أن يسير الإنسان على طريق الخير حتى يصل إلى الاطمئنان: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * أَرْجَىٰ إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْتَبَةً﴾ [الفجر: ٧ - ٨].

أي أن لا يتجاوزوا صراط الخير، وإذا ما صدر عن لسانه شرٌّ فإنه ينفصل عن الأبرار والملائكة، حتى إذا قال كلمة واحدة كذباً فإنه يبتعد عن طريق الملائكة، ويسقط إذا ما قال فحشاً أو لغواً، فالأبرار هم أهل البر، فالملك خير وهو خير كذلك، الملك رحمة وهو كذلك رحمة.

أما إذا وقف في الخندق المقابل للخير، فسوف لن يصدر منه سوى الشرّ ويصبح شيطاناً من الشياطين، تفصل بينه وبين الملك مسافة ما بين الدنيا والعرش: ﴿شَيْطَانِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ١١٢].

عدم الإيذاء، وحب الخير

قال أحد العلماء شعراً ضمّته معاني جيدة، يقول: إن زماننا مليء بالمآسي، حتى أنه زمان حقير، بحيث إذا أردنا أن نصف أحداً بالخير، نقول إنه لا يؤذي الآخرين، حتى أنه لا يؤذي نملة، وهذا يعتبر أفضل مديح، مع أن عدم الإيذاء ليس مدحاً.

كان لأحد أصدقائنا (رحمه الله) صديق كبير محترم، وكان إذا ما سار في الأزقة والشوارع من بيته إلى السوق وصادف أحداً من الناس في طريقه لا يتجاوزه دون أن يقول له كلمة خير، فإذا حضر في مجلس يعيظ الآخرين ويحذّرهم وينهاهم عن ارتكاب الذنب، فهل هناك أفضل من هذا الخير، وهو النصيحة.

إذا أراد الإنسان أن يكون ساعة موته محفوظاً بالملائكة وكان من الأبرار فهو ساعة الموت كذلك، وإذا كان من الأشرار، فإنه قطعاً يكون قريناً للشياطين في أول لحظة موته، وإذا كان سيئ الحظ، في البيت خيراً وفي

السوق شريراً: ﴿خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة: ١٠٢]، فإنّ وضعه يكون مُبهماً، حتى تأتي ساعة موته، حيث يعيش هناك ساعة صراع رهيبة فإن تغلبت عليه الشياطين فيكون منهم، أو يتغلب عليهم فيكون مع الملائكة.

إنه يحشر من ساعته مع ما كان يميل إليه ويفعله أكثر، فإذا كان شرّه أكثر فهو مع الشياطين، وإذا كان خيره غالباً فهو مع الملائكة.

«ورضوان الربّ الغفار»

وكلمة أخرى قالتها السيدة الزهراء عليها السلام عن أبيها عليه السلام وهي إنّ أبي ذهب إلى الرضوان، والرضوان الإلهي مقام أعلى من الجنة.

وقال سبحانه وتعالى في القرآن الكريم: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ٧٢].

مقام الرضوان أسمى النعم الروحية

إنّ مقام الرضوان عظيم إلى درجة أنّ الجنة والمقامات الأخرى تعتبر لا شيء بالنسبة له.

يروى أنّ في الجنة ثلاث نعم روحية هي الأسمى، الأولى: مجاورة محمد وآل محمد عليهم السلام، والثانية: نعمة الخلود، والثالثة: نعمة الرضوان. وعندما يدرك أصحاب هذا المقام أنّ الله راضٍ عنهم، فإنهم يفرحون إلى درجة تنسيهم بقية النعم الموجودة في الجنة.

فإذا كان الإنسان من أهل المعرفة، عارفاً بالله، مُحبّاً له، فإنه يفهم ذلك الوقت معنى الرضوان الإلهي، ماذا يجب عليك أن تعمل ليذكرك رب الأرباب، ويكون راضياً عنك؟ وهذه سعادة فوق الجنة والثواب والمقامات والدرجات الأخرى.

هل وفيت بعهدي؟

تذكرت الآن جملة قالها (سعيد بن عبدالله) الذي استشهد مع الإمام الحسين عليه السلام حيث جعل نفسه درعاً يحمي بجسمه الإمام الحسين عليه السلام حتى يُتمَّ الإمام عليه السلام صلاته ولا تمسَّه النبال، حتى أصابته ثلاثة عشر سهماً، وفي لحظات عمره الأخيرة أراد أن يعرف هل إنَّ الإمام عليه السلام راضٍ عنه أم لا؟ فقال له: أوفيت؟ وعندما قال الإمام عليه السلام: «نعم». فرح قلبه برضا الإمام عليه السلام خصوصاً وأنَّ الإمام عليه السلام قال له: «نعم أنت أمامي في الجنة».

إنَّ المحب ليهتمَّ بكلِّ أحاسيسه ليرى إن كان محبوبه قد رضي عنه أم لا، وهل أنه مورد عناية المحبوب، إنَّ أهل المحبة يدركون هذه المعاني، إنَّ الجنة والثواب في مكانها، وأفضل النعم هو الرضوان.

* * *

«رضوان الرب الغفار، ومجاورة الملك الجبار»

الرضا في الدنيا والرضوان في الآخرة

أريد هنا أن أذكر كلمة، هل هناك ميزان للوصول إلى رضوان الله وأن تحف الملائكة بروح الإنسان، والوصول إلى مجاورة الجبار رب العالمين؟
إذا أردت أن تفهم ذلك، فإن الموازين العقلية والنقلية تقول إن كل إنسان أعد نفسه في هذه الدنيا لهذه الدرجات والمقامات فإنه في الآخرة سوف يصل إلى ذلك، أي أن الإنسان يصل إلى مقام الرضوان إذا كان في هذه الدنيا قد بلغ مقام الرضا.. وإنه لمن القليل جداً أن يصل من بين هذه الملايين اثنان أو ثلاثة إلى مقام الرضا.

وبهجة بما قضى الله رضا وذو الرضا بما قضى ما اعترضه
أعظم باب الله في الرضا وعى وخازن الجنة رضواناً دعى
إن حب الإنسان المؤمن لله يصل إلى درجة أنه يرغب في الأعمال الإلهية
وأنه ليس فقط يصبر بل إنه لا يعترض.

ويصل الأمر به أن يكون فرحاً حتى عند البلاء، حتى أن قلبه يكون مطمئناً
في كل حادثة تقع له، لأنها إرادة الله.

في البداية يجب أن يصل الإنسان إلى درجة اليقين بأن ما يقدره الله إنما هو في صلاحه، ثم يصل إلى درجة المحبة الإلهية، حيث يصل بعدها إلى

درجة الرضوان، وهناك مراتب أيضاً، فأعلى الدرجات هو الرضا بمحمد وآل محمد ﷺ. لذلك فإن أصل مقام الرضوان لهم، وبقية المؤمنين ينالون من الرضوان بمقدار رضاه بهم.

وما لم ينل الإنسان هنا درجة الرضا، فلن ينال في الآخرة درجة الرضوان. قال واحد من بني إسرائيل لموسى ﷺ: إن لي عندك حاجة، وهي إذا ذهبت لمناجاة ربك، فاسأله إن كان راضياً عني أم لا؟ فاستجاب له النبي، وسأل الله عن حال عبده، فوصله الوحي قائلاً: قل له كيف أنت معنا، هل أنت راضٍ عنا: «يرضون عني حتى أَرْضَى عنهم» فإذا كنت راضياً عن الله، فستنال درجة الرضا، وسوف يبعثك ربك إلى جنة الرضوان: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩].

قال الشيخ الشوشتري: لا تمتني قلبك أن الناس يقولون عنك بعد موتك المرحوم فلان، فلعلك تكون من المغضوب عليهم، فما هو ميزان ذلك؟ فإذا أمنت في مدة حياتك فقد وصلت إلى مقام الرحمة وبعد موتك ستصل إلى رحمة الله، ويجب أن يتجسد في داخلك نموذج ذلك.

فالإنسان قاسي القلب والخالق قلبه من الرحمة، أي رحمة سوف يصل بعد الموت؟ هذا الإنسان القاسي غليظ القلب، الذي لا يرحم الطفل والمرأة والصغير والضعيف والفقير، ويموت وهو غاضب، ساخط على قضاء الله وقدره، فهل يتوقع أن يصل إلى الرضوان بعد الموت، ويصل إلى رحمة الله، إن أسوأ عاقبة للناس هي عاقبة أولئك الذين يقدمون على الانتحار، فهو يموت في حال من السخط والغضب، وما أن تنفصل روحه عن جسده، ففي أي حال ستكون؟ ستكون في حالة من الغضب، وهذا أول المأساة والمصاعب، ولذلك فقد روي: «أن المؤمن يُبتلى بكلّ بليّة، ويموت بكلّ ميتة، إلا أنه لا يقتل نفسه».

وفي رواية أنّ كلّ من يُخرج من قبره يقول: اللهم ارحمني. فينادي
المنادي: أن الله لا يرحم إلا الرحماء.

رحمة رسول الله ﷺ بالطفل والقطة

جاؤوا بطفل إلى المسجد، فوضع رسول الله ﷺ يده على رأسه ليباركه،
ثم أخذه رسول الله ﷺ ووضع في حجره، ولكن الطفل بال وهو في حجر
الرسول ﷺ فأسرع والده ليأخذه من حجر الرسول ﷺ فنهاهم وأوضح لهم
أنه سيظهره بالماء، والطفل ليس مذنباً فهو لا يعرف المسجد ولا حجر
الرسول ﷺ ثم قال: «من لا يرحم لا يُرحم».

أراد الرسول ﷺ يوماً أن يتوضأ من إناء فيه ماء، وكانت قطة تنظر إلى
الإناء، فعرف الرسول ﷺ أنها عطشانة، فوضعه أمامها لتشرب، فلما ارتوت
وذهدت أتم الرسول ﷺ وضوءه.

ومن رحم أيّ موجود طفلاً كان أو حيواناً فإنه يكون قد رحم نفسه.. كان
(ابن طعان) من (جيش الحر) وقد أظمأه العطش بشكل شديد في كربلاء، وقد
شاهد الإمام الحسين عليه السلام حاله، فعرفه وقبل أن يطالب هو بالماء أمر
الإمام عليه السلام أن تُقرب إليه قربة الماء حتى يشرب، فلم يستطع أن يفتح القربة،
فجاء الإمام الحسين عليه السلام بنفسه وفتح القربة وسكب الماء على يديه حتى
يشرب، مع أنه كان قد جاء مع المعسكر المقابل الذي جاء ليقاتل الإمام
الحسين عليه السلام إنّ كل مؤمن يتمتع بصفة الرحمة للآخرين، غاية الأمر أنها تقل
وتتصاعد حسب الأفراد.

في جوار ربّ العالمين

مجاورة الملك الجبار.. أي تحت حماية ربّ العالمين، يروى أنّ المؤمن
عندما يموت وتنفصل روحه عن بدنه، تؤخذ الروح قبل الغسل والدفن إلى
العرش الأعلى تحفها الملائكة، وبعد أن يُكرمها ربّ العالمين يأذن بإعادتها

إلى قرب الجسد، مجاورة رب العالمين.. إذا كان المرء في حياته الدنيا ممن حصلوا على درجة القربى مع الله، فإنه بعد الموت يكون قريباً أيضاً ومجاوراً له: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْنَدٍ﴾ [القمر: ٥٥]، إن «الدنيا مزرعة الآخرة»^(١)، فما تزرعه هنا في هذه الدنيا سوف تحصدته غداً في الآخرة، وبعبارة أخرى فإن موت الإنسان يتطابق مع طريقة حياته وكيف كان يعيش، وكذلك تُحشر بعد الموت: «كما تعيشون تموتون، وكما تموتون تُبعثون».

ولا تتصور أنّ الملائكة ستأتي لتحيط أو تحفّت بروح من كانت طول عمره تنفر منه، نعم إنها تأتي لتحفّت بمن كانت عليه صفات الملائكة في حياته.

ولعلك تقول ومن أين لي أن أعلم إن كنت مع الملائكة أو مع الشيطان؟ وهذا واضح لأنّ الإنسان إذا أراد أن يفهم ذلك فبإمكانه أن يفهم: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤]، فإذا كان مجعماً للفضائل والخيرات فالملائكة معه، وإذا كان عكس ذلك مجعماً للذرائع والشور فالشيطان معه.

بشارة الأنبياء وإنذارهم

والبشارة الأهم من ذلك أن يقال لك أيها المؤمن ما دمت قد سلكت طريق الملائكة فإنك منذ ساعة الموت ستكون مع الملائكة. وكذلك الإنذار ما دمت قد سلكت طريق الشياطين، فسوف تكون معهم في الآخرة.

إن سلكت طريق الرضا فستكون من أهل الرضوان، كما أن طريق الرحمة يوصلك إلى رحمة الله وهكذا..

يقول أحد العارفين: رأيت في المكاشفة أن الشيطان يقف على باب المسجد. فقلت: أيها الملعون ماذا تفعل هنا؟ فقال: أنتظر رفاقي. إنه يقول الصحيح. فأنت أيها العاصي رفيقك الشيطان من الصباح حتى المساء، وهو لا يتركك بسهولة حتى أنه في بعض الأحيان يأتي إلى المسجد، هناك بعض

(١) بحار الأنوار للمجلسي: ج ٦.

الناس يضعون فاصلة ومسافة بين المسجد والشيطان، ولكنّ البعض الآخر يرافقونه حتى في المسجد، فهم لا يفرّقون بين المسجد والسوق.. إنهم بعد الموت يستغيثون فلا يغاثون، لأنّ رفيقهم الشيطان حتى في القبر.. وكذلك في السبْرزخ: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ * وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨].

* * *

« فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه وماوى أصفياه »

« فلما اختار الله لنبيه دار أنبيائه وماوى أصفياه، ظهر فيكم حسكة النفاق، وسمل جلباب الدين، ونطق كاظم الغاوين، ونبغ حامل الأقلين وهدر فينق المبطلين، فخطر في عرصاتكم، وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه هاتفاً بكم، فألفاكم لدعوته مستجيبين، وللعز فيه ملاحظين، ثم استنهضكم فوجدكم خفاً، وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، ووردتم غير مشربكم، هذا والعهد قريب، والكلم رحيب، والجرح لما يندمل، والرسول لما يقبر، ابتداراً زعمتم خوف الفتنة، ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ فبهيات منكم، وكيف بكم وأنى تؤفكون، وكتاب الله بين أظهركم، أموره ظاهرة وأحكامه زاهرة وأعلامه باهرة، وزواجره لايحة وأوامره واضحة، وقد خلفتموه وراء ظهوركم، أرغبة عنه تدبرون؟ أم بغيره تحكمون؟ بس للظالمين بدلاً ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ ثم لم تلبثوا إلا ريث أن تسكن نفرتها، ويسلس قيادها، ثم أخذتم تورون وقديتها وتهيجون جمرتها، وتستجيبون لهتاف الشيطان الغوي، وإطفاء أنوار الدين الجلي، وإهمال سنن النبي الصفي، تسرون حسواً في ارتغاء، وتمشون لأهله وولده في الخمر والضراء، ونصبر منكم على مثل حرّ المدي، ووخز السنان في الحشا، وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية

تبغون، ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، أفلا تعلمون؟ بلى وقد تجلّى لكم كالشمس الضاحية أني ابنته.

أيها المسلمون أأغلب على إرثي؟ يا ابن أبي قحافة؟ أفي كتاب الله ترث أباك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئاً فرياً، أفعلی عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء ظهوركم؟ إذ يقول: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ وقال فيما اقتص من خبر زكريا إذ قال: ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِيئِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ﴾ وقال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ وقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ وقال: ﴿إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ وزعمتم أن لا حظوة لي، ولا أرث من أبي، ولا رحم بيننا؟ أفخصكم الله بآية أخرج أبي منها؟ أم هل تقولون: إنا أهل ملتين لا يتوارثان؟ أولست أنا وأبي من أهل ملّة واحدة؟ أم أنتم أعلم بخصوص القرآن وعمومه من أبي وابن عمي؟ فدونهاها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك، فيعم الحكم الله، والزعيم محمد، والموعود القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون، ولا ينفعكم إذ تندمون، ولكلّ نبأ مستقرّ ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾.

ثم رمت بطرفها نحو الأنصار فقالت: «يا معشر النقيبة وأعضاء الملّة، وحضنة الإسلام، ما هذه الغميمة في حقي، والسنة عن ظلامتي؟ أما كان رسول الله ﷺ أبي يقول: المرء يُحفظ في ولده؟ سرعان ما أحدثتم وعجلان ذا أهالة، ولكم طاقة بما أحاول، وقوة على ما أطلب وأزاول. أتقولون: مات محمد ﷺ فخطب جليل استوسع وهنه، واستنهر فتقه، وانفتق رتقه، وأظلمت الأرض لغيبته، وكسفت الشمس والقمر، وانتشرت النجوم لمصيبته، وأكدت الآمال، وخشعت الجبال، وأُضيع الحرم، وأزيلت الحرمة عند مماته، فتلك والله النازلة الكبرى والمصيبة العظمى، لا مثلها نازلة، ولا بائقة عاجلة، أعلن بها كتاب الله جل ثناؤه في أفنيتمكم، وفي ممساكم ومصبحكم، بهتف في

أفنيتم هتافاً وصراخاً، وتلاوةً وأحاناً، ولقبلة ما حلّ بأنبياء الله ورسله، حكم فصل، وقضاء حتم ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْفَلِتْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] إليها بني قيلة أأهضم تراث أبي؟ وأنتم بمرأى مني ومسمع، ومنتدى ومجمع، تلبسكم الدعوة، وتشملكم الخبرة، وأنتم ذوو العدد والعدّة، والأداة والقوة، وعندكم السلاح والجنّة، توافيكم الدعوة فلا تجيبون، وتأتيكم الصرخة فلا تغيثون، وأنتم موصفون بالكفاح، معروفون بالخير والصلاح، والنخبة التي انتخبت، والخيرة التي اختيرت لنا أهل البيت، قاتلتكم العرب، وتحملتكم الكدّ والتعب، وناطحتكم الأمم، وكافحتكم البهيم، لا نبرح أو تبرحون، نأمركم فتأتمرون، حتى إذا دارت بنا رحى الإسلام، ودرّ حلب الأيام، وخضعت ثغرة الشرك، وسكنت فورة الإفك، وخدمت نيران الكفر، وهدأت دعوة الهرج، واستوثق نظام الدين، فأنتى حرتم بعد البيان، وأسررتهم بعد الإعلان، ونكصتم بعد الإقدام، وأشركتم بعد الإيمان، بؤساً لقوم نكثوا إيمانهم من بعد عهدهم وهمّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين، ألا وقد أرى إن قد أخلدتم إلى الخفض، أبعدتم من هو أحق بالسط والقبض وخلوتم بالدعة ونجوتهم بالضيق من السعة، فمجمجتهم ما وعيتهم، ووسّعتهم الذي تسوّغتم، فإن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً فإنّ الله لغني حميد، ألا وقد قلت ما قلت هذا على معرفة منّي بالخذلة التي خامرتكم، والغدرة التي استشعرتها قلوبكم، ولكنها فيضة النفس، ونفثة الغيظ، وخور القناة، وبثّة الصدر، وتقدمة الحجة، فدوكنموها فاحتقبوها دبرة الظهر، نقبة الخف، باقية العار، موسومة بغضب الجبار، وشار الأبد، موصولة بنار الله الموقدة التي تطلّع على الأفئدة، فبعين الله ما تفعلون، وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلبٍ ينقلبون، وأنا ابنة نذير لكم من بين يدي عذاب شديد، فاعملوا إنّنا عاملون، وانتظروا إنّنا منتظرون».

جواب أبي بكر

فأجابها أبو بكر (عبد الله بن عثمان): يا بنت رسول الله، لقد كان أبوك بالمؤمنين عطوفاً كريماً، رؤوفاً رحيماً، وعلى الكافرين عذاباً أليماً، وعقاباً عظيماً، فإن عزوانه وجدناه أباك دون النساء، وأخا إلفك دون الأخلاء، آثره على كل حميم، وساعده في كل أمر جسيم، لا يحبكم إلا سعيد، ولا يبغضكم إلا شقي بعيد، فأنتم عترة رسول الله الطيبون، والخيرة المنتجبون، على الخير أدلتنا، وإلى الجنة مسالكنا، وأنت يا خيرة النساء، وابنة خير الأنبياء، صادقة في قولك، سابقة في وفور عقلك، غير مردودة عن حقك، ولا مصدودة عن صدقك، والله ما عدوت رأي رسول الله، ولا عملت إلا بإذنه، والرائد لا يكذب أهله، وإنني أشهد الله وكفى به شهيداً، أني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث ذهباً ولا فضة، ولا داراً ولا عقاراً، وإنما نورث الكتاب والحكمة والعلم والنبوة، وما كان لنا من طعمة فلوليتي الأمر بعدنا يحكم فيه بحكمه» وقد جعلنا ما حاولته في الكراع والسلاح، يقاتل بها المسلمون ويجاهدون الكفار، ويجالدون المردة الفجّار، وذلك بإجماع من المسلمين، لم أنفرد به وحدي، ولم أستبدّ بما كان الرأي عندي، وهذه حالي ومالي هي لك وبين يديك، ولا تزوى عنك، ولا تدخر دونك، وإنك وأنت سيدة أمة أبيك، والشجرة الطيبة لبنيك، لا يدفع مالك من فضلك، ولا يوضع في فرعك وأصلك، حكمك نافذ فيما ملكت يداي، فهل ترين أن أخالف في ذلك أباك ﷺ؟

الدفاع الثاني للسيدة فاطمة ﷺ

فقلت ﷺ: «سبحان الله! ما كان أبي رسول الله ﷺ عن كتاب الله صادفاً، ولا لأحكامه مخالفاً، بل كان يتبع أثره، ويقفو سوره، أفتحمعون إلى الغدر اعتلاياً عليه بالزور؟! وهذا بعد وفاته شبيه بما بغى له من الغوائل في حياته، هذا كتاب الله حكم عدل وناطق فصل يقول: ﴿بِرِّئِي وَرِثِ مِنْ ءَالِ

يَقُوبٌ ﴿ وَيَقُولُ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَنُ دَاوُدَ﴾ وَبَيْنَ عَزَّ وَجَلَّ فِيمَا وَزَع مِنَ الْأَقْسَاطِ،
 وَشَرَعَ مِنَ الْفَرَائِضِ وَالْمِيرَاثِ، وَأَبَاحَ مِنْ حِظِّ الذَّكَرَانِ وَالْإِنَاثِ، مَا أَزَاحَ بِهِ
 عِلَّةَ الْمَبْطُلِينَ، وَأَزَالَ التَّظَنَّنَ وَالشَّبَهَاتِ فِي الْغَابِرِينَ، كَلَّا بَلِ سَوَّلَتْ لَكُمْ
 أَنْفُسَكُمْ أَمْرًا، فَصَبِرْ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيَّ مَا تَصِفُونَ».

الجواب الثاني لأبي بكر

فقال أبو بكر: صدق الله وصدق رسوله وصدقت ابنته، أنت معدن
 الحكمة، وموطن الهدى والرحمة، وركن الدين، وعين الحجة، لا أبعد
 صوابك، ولا أنكر خطابك، هؤلاء المسلمون بيني وبينك، قلدوني ما تقلدت،
 وباتفاق منهم أخذت ما أخذت، غير مكابر ولا مستبد ولا مُستأثر، وهم بذلك
 شهود.

الدفاع الأخير للسيدة فاطمة ؑ

فالتفت السيدة فاطمة ؑ إلى الناس وقالت:

«معاشر المسلمين، المُسرعة إلى قيل الباطل، المغضية على الفعل القبيح
 الخاسر، أفلا تتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها؟ كلا بل ران على قلوبكم
 ما أسأتكم من أعمالكم، فأخذ بسمعكم وأبصاركم، وليئس ما تأولتم وساء ما به
 أشرتكم، وشر منه ما اغتصبتم، لتجدن الله محمله ثقیلاً، وغبه وبيلاً، إذا
 كشف لكم الغطاء، وبان ما وراءه الضراء، وبدا لكم من ربكم ما لم تكونوا
 تحسبون، وخسر هنالك المبطلون..».

ثم عطفت على قبر النبي ﷺ وقالت:

قد كان بعدك أنباء وهنبيثة
 أنا فقدناك فقد الأرض وابلها
 وكل أهل له قُربى ومنزلة
 أبدت رجال لنا نجوى صدورهم
 لو كنت شاهدا لم تكثر الخطب
 واختل قومك فأشهدهم ولا تغب
 عند الإله على الأذنين مقترب
 لما مضيت وحالت دونك الترب

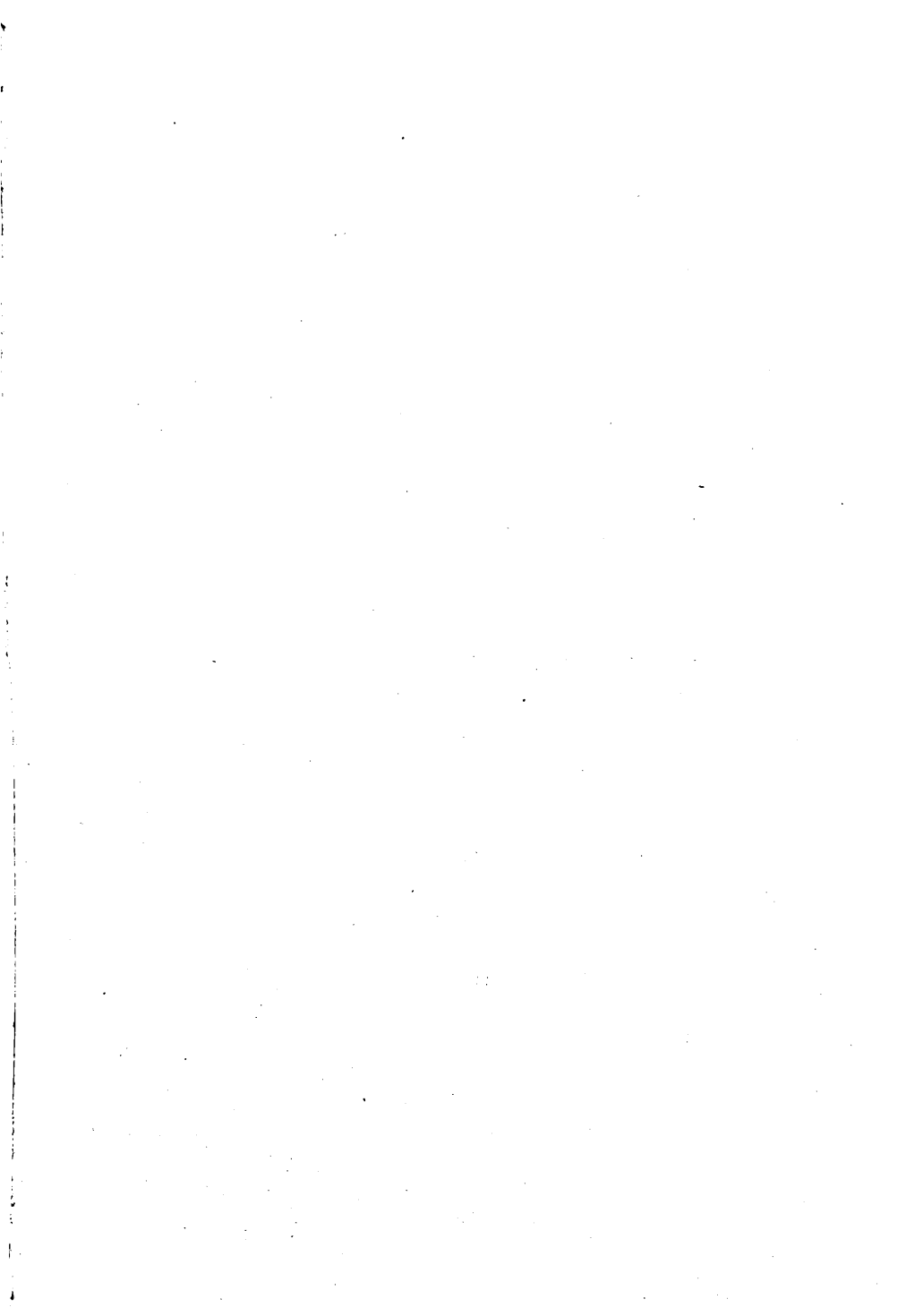
تجهمتنا رجال واستخفت بنا
وكنت بديراً ونوراً يُستضاء به
وكان جبريل بالآيات يؤنسنا
فليت قبلك كان الموت صادفنا
لَمَّا فُقدت وكلّ الأرض مغتصب
عليك تنزل من ذي العزّة الكتب
فقد فُقدت وكلّ الخير محتجب
لَمَّا مضيت وحالت دونك الكتب

ثم انكفأت ﷺ وأمير المؤمنين ﷺ يتوقع رجوعها إليه، ويتطلع لطلوعها عليه، فلَمَّا استقرّت بها الدار قالت لأمر المؤمنين ﷺ: «يا ابن أبي طالب، اشتملت شملة الجين، وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الأجدل، فخانك ريش الأعزل، هذا ابن أبي قحافة يبتزني نحلة أبي وبلغة ابني، لقد أجهد في خصامي، وألفيته ألدّ في كلامي، حتى حبستني قبلة نصرها، والمهاجرة وصلها، وغصّت الجماعة دوني طرفها، فلا دافع ولا مانع، خرجت كاظمة، وعدت راغمة، أضرعت خدك يوم أضعت حدّك، افترست الذئاب وافترشت التراب، ما كفتت قائلاً، ولا أغنيت طائلاً، ولا خيار لي، ليتني متّ قبل هنيئتي، ودون ذلتي، عذيري الله منه عادياً ومنك حامياً، ويلاي في كلّ شارق، ويلاي في كل غارب، مات العمدة، ووهن العضد، شكواي إلى أبي، وعدواي إلى ربي، اللهم إنك أشدّ منهم قوة وحولاً، وأشدّ بأساً وتنكيلاً».

فقال أمير المؤمنين ﷺ:

«لا ويل لك، الويل لسانك، ثم نهني عن وجدك يا ابنة الصفوة وبقية النبوة، فما ونيث عن ديني، ولا أخطأت مقدوري، فإن كنت تريدين البلغة فرزقك مضمون، وكفيلك مأمون، وما أعد لك أفضل مما قطع منك، فاحسبي بالله».

ف قالت: «حسبي الله» وأمسكت.



الفهرس

- المقدمة ٥
- القسم الأول من الخطبة المباركة ٧
- «١» لا ينبغي أن تكون (فدك) ملكاً للزهراء عليها السلام ٩
- «٢» خرجت الزهراء عليها السلام بحجابها الكامل ٢٩
- «٣» شكوى حرّى من قلب محترق «الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم» ٤١
- «٤» «ابتدع الأشياء لا من شيء كان قبلها وأنشأها بلا احتذاء أمثلة أمثلها» . ٥٩
- «٥» «غني عن الخلق» ٦٥
- «٦» معرفة الله وعبادته هي علة الإيجاد ٧١
- «٧» الهدف من الخلق ٨٥
- «٨» الكتب السماوية وعبادة الله ٩١
- «٩» وإعزازاً لدعوته ١٠٣
- «١٠» وإعزازاً لدعوته ١٠٩
- «١١» «ثم جعل الثواب على طاعته، ووضع العقاب على معصيته، زيادة لعباده من نعمته، وحياسة لهم إلى جنته» ١١٩
- القسم الثاني من الخطبة المباركة ١٢٥

- « ١ » الشهادة برسالة أبيها محمد ﷺ ١٢٧
- « ٢ » «وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله، اختاره وانتجبه قبل أن أرسله،
وسماه قبل أن اجتبله واصطفاه قبل أن ابتعثه» ١٣٣
- « ٣ » «وسمّاه قبل أن اجتبله، واصطفاه قبل أن ابتعثه» ١٣٨
- « ٤ » «ابتعثه الله إتماماً لأمره» ١٤٩
- « ٥ » «فأنار الله بمحمد ﷺ ظلّمها، وكشف عن القلوب بُهما، وجلى عن
الأبصار غمّمها، وقام في الناس بالهداية» ١٥٦
- « ٦ » «النور والظلام، الظهور وعدم الظهور ١٦٠
- « ٧ » «فأنار الله بمحمد ﷺ ظلّمها، وكشف عن القلوب بُهما، وجلى
عن الأبصار غمّمها» ١٧١
- « ٨ » «الدين القويم.. أصولٌ وأحكامٌ ١٧٧
- « ٩ » «وقام في الناس بالهداية، وأنقذهم من الغواية، وبصرهم من العماية،
ودعاهم إلى الدين القويم وهداهم إلى الصراط المستقيم» ١٨٤
- « ١٠ » «تنبيهاً على طاعته» ١٩٢
- « ١١ » «ثم قبضه الله إليه قبض رأفة واختيار» ٢١٧
- « ١٢ » «الله هو حلّال المشاكل ٢٢٦
- « ١٣ » «بعض صفات خاتم النبيين محمد ﷺ ٢٣٥
- « ١٤ » «والسلام على أبي محمد ﷺ» ٢٤٦
- « ١٥ » «أنتم عباد الله نصب أمره ونهيه وحمله وحيه ودينه وأمناء الله على
أنفسكم وبلغائه إلى غيركم، زعيم حقّ له فيكم وعهد قدمه إليكم،
وبقية استخلفها عليكم كتاب الله الناطق والقرآن الصادق» ٢٥٢

- «١٦» «قائد إلى الرضوان أتباعه، مؤدٍ إلى النجاة استماعه، به تُنال حجج
الله المنورة، وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبراهينه
الجالية، وبيئاته الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة،
وشرائعه المكتوبة» ٢٦٣
- «١٧» «وعزائمه المفسرة، ومحارمه المحذرة، وبيئاته الجالية، وبراهينه
الكافية، وفضائله المندوبة، ورخصه الموهوبة، وشرائعه المكتوبة» . ٢٧٥
- «١٨» «وشرائعه المكتوبة» ٢٩٨
- «١٩» «والصلاة تنزيهاً لكم من الكبر والزكاة تزكية للنفس ونماءً للرزق» .. ٣١٢
- «٢٠» «والحج تشييداً للدين» ٣٣٥
- «٢١» مقدمة عن الإمامة ونظم الأمة ٣٥٧
- «٢٢» الجهاد الابتدائي ليس افتتاح البلدان ٣٦٢
- «٢٣» «والأمر بالمعروف مصلحة للعامة، وبرّ الوالدين وقاية من السخط»
التوصية بالصبر شرط ٣٦٨
- «٢٤» الصبر من الإيمان كالرأس من الجسد ٣٧٥
- «٢٥» لو الأمر بالمعروف مصلحة للعامة» ٣٨١
- «٢٦» «وبرّ الوالدين وقاية من السخط» ٣٨٨
- «٢٧» «وصلة الأرحام منماة للعدد» ٣٩٥
- «٢٨» «والقصاص حقناً للدماء، والوفاء بالتذر تعريضاً للمغفرة» ٤٠٥
- «٢٩» «والوفاء بالنذر تعريضاً للمغفرة، وتوفية المكايل والموازن تغييراً
للبخس» ٤١٢
- «٣٠» «والنهي عن شرب الخمر تنزيهاً عن الرجس» ٤٢٣

- ٤٣٢ «٣١» «وترك السرقة إيجاب للعفة»
- ٤٣٩ «٣٢» «وحرم الشرك إخلاصاً له بالربوبية»
- «٣٣» «فاتقوا الله حق تقاته، ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون. وأطيعوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه، فإنه ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾» ٤٤٦
- ٤٥٧ «٣٤» «فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»
- ٤٦٣ «٣٥» «أتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون»
- ٤٧٧ «٣٦» «إنما يخشى الله من عباده العلماء»
- ٤٨٧ «٣٧» بكاء الطاهرين مع عدم الذنب
- «٣٨» «أيها الناس اعلموا أني فاطمة وأبي محمد. أقول عوداً وبدءاً، ولا أقول ما أقول غلطاً، ولا أفعل ما أفعل شططاً» ٤٩٨
- «٣٩» «فإن تعزوه تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه ﷺ فبلغ الرسالة، صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة» ٥٠٦
- «٤٠» «يكسر الأصنام، وينكت الهام، حتى انهزم الجمع وولوا الدبر، حتى تفرى الليل عن صبحه، وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين، وخرست شقائق الشياطين، وطاح وشيظ النفاق، وانحلت عقد الكفر والشقاق» ٥١٣
- «٤١» «فإن تعزوه، وتعرفوه، تجدوه أبي دون نساءكم، وأخا ابن عمي دون رجالكم، ولنعم المعزى إليه ﷺ فبلغ بالرسالة، صادعاً بالندارة، مائلاً عن مدرجة المشركين، ضارباً ثبجهم، آخذاً بأكظامهم، داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة» ٥١٨

- «٤٢» «وفهتكم بكلمة الإخلاص في نفرٍ من البيض الخماص، وكنتم على شفا حفرة من النار مُدقة الشارب، ونهزة الطامع، وقبسة العجلان، وموطئ الأقدام، تشربون الطَّرْق، وتقتاتون القَدَّ، أدلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تبارك وتعالى بأبي محمد ﷺ» ٥٢٢
- «٤٣» «وبعد اللّتيا والتي، وبعد أن مني بهم الرجال، وذؤبان العرب، ومردة أهل الكتاب، كلّموا أوقدوا ناراً للحرب أطفأها الله، أو نجمَ قرن للشيطان، وفغرت فاعرة من المشركين، قذف أخاه في لهواتها» ٥٢٦
- «٤٤» «ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار ورغبة وإيثار» ٥٣٧
- «٤٥» «ثم قبضه الله إليه قبض رافة واختيار ورغبة وإيثار» ٥٤١
- «٤٦» «ثم قبضه الله قبضة رافة واختيار ورغبة وإيثار» ٥٤٦
- «٤٧» «فمحمد ﷺ في راحة عن تعب هذه الدار، موضوعاً عنه أعباء الأوزار» ٥٥١
- «٤٨» «فمحمد في راحة من تعب هذه الدار، موضوعاً عنه أعباء الأوزار» . ٥٥٦
- «٤٩» «محفوظاً بالملائكة الأبرار ورضوان الرب الغفّار ومجاورة الملك الجبّار» ٥٦٢
- «٥٠» «ورضوان الرب الغفّار، ومجاورة الملك الجبار» ٥٦٧
- «٥١» «فلما اختار الله لنيّه دار أنبيائه ومأوى أصفياه» ٥٧٢